موسوعة النابلسي للعلوم الإسلامية

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي

السيرة النبوية

رجال حول الرسول

السيرة - رجال حول الرسول - الدرس (01-50) : سيدنا معاذ بن جبل
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 05-10-1992

بسم الله الرحمن الرحيم

قف عند هذا المنعطف :

أيها الأخوة الأكارم، طرأ على درس الاثنين اِنْعِطاف في موضوعه، ولا بد من تَبْيانِ الأسباب التي حمَلَتْني على هذا الانْعطاف؛ وهو أنَّ درس الجمعة بِفَضْل الله تعالى تفسيرٌ لِكِتاب الله ، وهذا هو الدرس الأول، لأنّه لا شيءَ يعْلو على كلام الله، ودرْسَ الأحد درس حديث نبوي شريف وهو تَبْيانٌ لما في كتاب الله، ولا شيء مما سوى كلام رسول الله يعْلو على كلام رسول الله؛ لكنَّني وجدْتُ نفسي في درس الاثنين أتَتَبَّعُ موضوعات تتعلّق بالأخلاق وهو الجَوْهَر في الدين ، والله جلّ جلاله حين وصف النبي عليه الصلاة والسلام وصَفَهُ بأنَّهُ على خلقٍ عظيم، والخلق الحسن ذهب بِخَيْري الدنيا والآخرة، وهناك أحاديث صحيحة وكثيرة تُؤكّد أنَّ الخُلق الحَسَن بعد الإيمان بالله هو كُلّ شيء .
فاخْتَرْتُ لكم موضوعات في الأخلاق الإسلامية، ثمّ اخْتَرْت لكم موضوعات من كتاب إحْياء علوم الدين، وقبل أيام تساءلت في نفسي: أيُّهما أبْلغ أنْ نعرض الأخلاق الإسلامية بشَكَلٍ نظري، أم أنْ نرى الأخلاق الإسلامية مُجَسَّدَةً في صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ لأنّ الخُلق الإسلامي إذا عُرض بشَكَلٍ نظري بَقِيَ حقيقةً تفْتقر إلى البرهان عليها، فإذا قرأت السيرة، سيرة النبي عليه الصلاة والسلام أو أصْحابه الأجلاء رأيْت الأخلاق الإسلاميّة مُجَسَّدَةً فيهم، أيْ رأيت الأخلاق الإسلاميّة مع البرهان عليها، ولقد وجَدْت من خلال خبْرتي السابقة المُتواضعة في الدعوة إلى الله، وفي التدْريس الديني أنَّ مادة القِصَّة ولا سِيَّما قِصص أبطال المسلمين وقِصص أصْحاب رسول الله، هؤلاء الذين اخْتارهم الله على عِلْم لِقَول النبي عليه الصلاة والسلام:

((إنّ الله قد اخْتارني واخْتار لي أصْحابي))

[أخرجه البيهقي في سننه]

هو الموضوع الثالث المُهمّ الذي يأتي بعد تفسير كتاب الله، وبيان سُنَّة نبيِّه، لذلك اسْتعَنْتُ بالله عزّ وجل وأردْتُ أنْ أجْعل من درْس الاثنين في السيرة النبويَّة، وفي سيرة أصْحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مِن دون أن أكون مُلْزَماً بِتَسَلْسُلٍ مُعيَّن، ولا بصحابي دون صحابي، لأنني أخْتار بِفَضْل الله عزّ وجل الصحابيَّ أو المَوْقف من سيرة النبي عليه الصلاة والسلام الذي نحن في أشدّ الحاجة إليه، وسِرّ

هذا أنني كنت مرَّة في عقد قِران، وقام أحد العلماء يُلقي كلمة فَمِن جُمْلة كلِمَتِه ذكر حديثاً للنبي عليه الصلاة والسلام، عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ:

((أَخَذَ بِيَدِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: إِنِّي لَأُحِبُّكَ يَا مُعَاذُ، فَقُلْتُ: وَأَنَا أُحِبُّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَلَا تَدَعْ أَنْ تَقُولَ فِي كُلِّ صَلَاةٍ رَبِّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ))

[أخرجه النسائي في سننه]

وما أدري لِمَ فعلَتْ هذه الكلمة في نفسي فِعْل السِّحْر؟ فقلت: إذا أحَبَّك النبي عليه الصلاة والسلام فهل من بعد هذه المرتبة من مرْتبة؟ ولذلك وجدت أنّ كلّ إنْسانٍ يفْرح بحُبِّ جِهَةٍ له، فكلما ارْتقى الإنسان فرح بِحُبِّ الله ورسوله له، لأنّ حُب الله عز وجل هو عَيْن حُبّ رسول الله، وحب رسول الله هو عَين حُبّ الله عز وجل، لأنّ الله ورسوله أحقّ أن يُرْضوه، فانْطِلاقاً من هذا الصحابي الجليل الذي قال في حقّه رسول الله حديثاً؛ عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ:

((أَخَذَ بِيَدِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: إِنِّي لَأُحِبُّكَ يَا مُعَاذُ، فَقُلْتُ: وَأَنَا أُحِبُّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَلَا تَدَعْ أَنْ تَقُولَ فِي كُلِّ صَلَاةٍ رَبِّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ))

[أخرجه النسائي في سننه]

أردْت أنْ أجعل هذا الصحابي موضوع الدرس الأول من دروس السيرة مُقْتطفات وفقرات ومواقف وأقْوالاً لهذا الصحابي الجليل، الذي هو سيّدنا معاذ بن جبل رضي الله عنه .

إليكم الحديث عن هيئة سيدنا معاذ بن جبل كما وصفه الواصفون :

قال بعْضهم: دخلْتُ مسْجدَ حِمْص فإذا أنا بِفَتىً حوله الناس؛ جَعْدٍ قطَطٍ، أيْ شعْره أجْعد، إذْ هناك شعْرٌ أجْعد ليس مُسْتَحْسناً، لكن شعْر هذا الصحابي كان أجْعد، ولكنه مُسْتَحْسن، وهو معنى قطط، إذا تكلَّم كأنما يخرج من فيه نورٌ ولؤلؤ، هذا تأييد الله له، فأنت إذا أخْلصْت أيها الأخ الكريم لله رب العالمين، والْتَزَمْتَ أوامر الديــن، واتّصلْت بالله جل جلاله، أسْبغ الله عليك مهابَة وجمالاً ووضاءَةً ونوراً وهَيْبَةً وسكينة ووقاراً .

فقلتُ: من هذا؟ فقالوا: هو مُعاذ بن جبل، وهذا هو معنى قول الله عز وجل حينما خاطب النبي عليه الصلاة والسلام وأصْحابه مَعْنِيون بهذا الخِطاب وكذا كلّ مؤمن في كلّ مكانٍ وزمان:

(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

[سورة الشرح الآية: 4]

هذا لِكُلّ مؤمن؛ كل مؤمن أخْلص لله عز وجل، وأكرمه الله عز وجل بِمَنْطقٍ وحُجَّةٍ ووقارٍ ومهابَةٍ ونورٍ ومكانةٍ وسُمْعةٍ ...إلخ .

وعن أبي مسلم الخوْلاني، قال: أتيتُ مسجد دمشق فإذا حلقة فيها كهول من أصْحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإذا شابٌ فيهم أكحل العين، براق الثنايا، وأسْنانه تلمَع؛ دليل نظافته، ودليل عِنايَتِهِ بأسْنانه، وكلما اختلفوا في شيء ردوه إلى الفتى، فقلت لِجَليسٍ لي: مَن هذا؟ فقال: هذا مُعاذُ بن جبل، هذا يُذكّرُني بِمَقولةٍ أنَّ العالم شيْخٌ ولو كان حَدَثاً، وأنّ الجاهل حَدَثٌ، ولو كان شيخًا، وهذا يُذكّرُني كيف أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم اخْتار أسامة بن زيد الذي لا تزيد سِنُّهُ عن سبعة عشر عاماً قائداً لِجَيْشٍ فيهم أبو بكرٍ وعمر وعثمان وعليّ؟ وكيف أنّ الشباب في الإسلام لهم شأنٌ كبير، ولهم شأنٌ خطير، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((ريح الجنّة في الشباب))

[ورد في الأثر]

طاقاتهم كامنة، وانْدِفاعهم شديد، وغيرةٌ عظيمة، وتعلُّقٌ بالمبادئ والمُثُل؛ هؤلاء الشباب إذا أُحْسن تَوْجيههم، ودُلوا على الله عز وجل، وعلى طريق البطولة، كان لهم شأنٌ، وأيُّ شأنٍ .

صفات هذا الصحابي الجليل كما ورد إلينا :

1- زهده في الدنيا :

كان هذا الصحابي الجليل زاهِداً في الدنيا، قال مالك الداريّ: أخذ عمر بن الخطاب أربعمئة دينارٍ فجَعَلها في صُرَّةٍ، فقال لِغُلامٍ له: اِذْهب بها إلى أبي عُبيدة بن الجراح ثمّ تله - وهو فعل أمرٍ- أيْ أَلْهُ بشيءٍ حتى تبْقى عنده فَتَنْظر ما يصْنع بها، فذهب الغلام وقال له: يقول لك أمير المؤمنين: اِجْعل هذه في بعض حاجتك، فقال رضي الله عنه: وصله الله ورحِمَهُ .

أرأيْتم أيها الأخوة، أنه من لم يشكر الناس لم يشكر الله، فهناك أشْخاص يسوق الله لهم خيراً على يدِ رجال ثمّ يتنكّرون، ويقولون: لقد منَّ الله علينا بالهُدى، ولكن هذا لا يمْنَعُ أنْ تشْكر الناس، لأنه من لم يشكر الناس لم يشكر الله، ماذا قال هذا الصحابي الجليل، وماذا فعل؟ قال: وصله الله ورحِمَهُ، ثمّ قال: تعالَيْ يا جارِيَة، واذْهَبي بهذه السبْعة إلى فلان، وبهذه الخمسة إلى فلان، وبهذه الثلاثة إلى فلان، حتى أنْفَذَها جميعَها، فَرَجَع الغُلام إلى عُمر فأَخْبَرَهُ، فوَجَده قد أعَدّ مِثْلها لِمُعاذ بن جبل صاحب هذا الدرس، وقال له: اِذْهب بها إلى معاذ بن جبل وتله في البيت ساعةً حتى تنظر ماذا يصْنع؟ فذَهَب بها إليه، وقال

له: يقول لك أمير المؤمنين: اِجْعَل هذه في بعض حاجَتِك، فقال: وصله الله ورحِمَهُ، تعالَيْ يا جارِيَة واذْهبي إلى بيت فلان بكذا، وإلى بيت فلان بكذا، فاطَّلَعَتْ امْرأته، فقالت: ونحن والله مساكين فأَعْطِنا، ولم يبْقَ في الخِرْقة إلا ديناران فدفع بهما إليها، وقال: خُذي، فرجع الغلام إلى عمر وأخْبره بذلك، فقال: إنهم أخوة، بعضُهم من بعض، ألم يقف النبي عليه الصلاة والسلام قُبَيْل وفاته وقد نظر إلى أصْحابه وهم يُصلون في المسْجد فتَبَسَّم حتى بَدَتْ نواجذه، وقال: حُكماء علماء، كادوا من فِقْههم أن يكونوا أنبياء؟ إنهم أبطال .

2- ورعه فيها :

أمّا ورَعُهُ؛ فكان لِمُعاذ بن جبل امْرأتان، فإذا كان عند إحْداهما لم يشْرب في بيت الأخرى الماء، لِيُحَقِّقَ العدْل الكامل بينهما، هذه الليلة لِفُلانة فيأكل ويشْرب وينام عندها، أمّا عند الأخرى فكان لا يشْرب عندها الماء في الليلة التي ليسَتْ لها، ألم يقل الله عز وجل:

(وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا)

[سورة النساء الآية: 3]

لذلك قالوا: ركْعتان من ورع خير من ألف ركعة من مُخلِّط! ألم يتَنَحَّ الإمام أبو حنيفة عن ظلِّ بيتٍ إلى الشمس، فلما قيل له لِمَ؟ قال: هذا البيت مُرْتَهَنٌ عندي، وأنا أكْرهُ أن أسْتفيد من ظِلِّه، وعن ثَوْر بن يزيد، قال:

((كان مُعاذ بن جبل إذا تهجَّد من الليل، قال: اللهم قد نامت العُيون وغارتِ النجوم وأنت الحيّ القيوم، اللهم طلبي للجنّة بطيء، وهربي من النار ضعيف، اللهم اجْعل لي عندك هُدىً ترُدُّهُ لي يوم القِيامة إنك لا تُخْلف الميعاد))

ولِذلك علامة المؤمن أنَّهُ يتَّهم نفْسه دائِما، وعلامةُ المنافق أنَّهُ يرضى عن نفسه، حتى العوام يقولون: لا يرْضى عن نفسه إلا إبليس .

وهذا أحد التابعين، قال: الْتَقَيْتُ بِأربعين صحابياً ما واحِدٌ منهم إلا ويظنّ أنه منافق، من شِدَّة خوفِهِ من الله، ومُحاسَبَتِهِ لِنَفْسه، ومُراقَبَتِهِ لها، والنبي عليه الصلاة والسلام، قال:

((أَرْحَمُ أُمَّتِي بِأُمَّتِي أَبُو بَكْرٍ، وَأَشَدُّهُمْ فِي أَمْرِ اللَّهِ عُمَرُ، وَأَصْدَقُهُمْ حَيَاءً عُثْمَانُ، وَأَعْلَمُهُمْ بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَأَفْرَضُهُمْ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، وَأَقْرَؤُهُمْ أُبَيٌّ، وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينٌ وَأَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ))

[أخرجه الترمذي في سننه]

ماذا نستنبط من هذا الحديث المشهور عند أهل العلم ؟

النبي عليه الصلاة والسلام وُجودُهُ يطغى على كلّ إنسان، وعظمتُهُ باهرة، ولا يُلْتَفَتُ إلى إنسانٍ غَيْرِهِ، وفقد عرف قدْرَ أصحابه، وأعطى كُلّ واحِدٍ منهم قَدْرَهُ، مرَّةً سأل النبي عليه الصلاة والسلام مُعاذ حينما أرسله إلى اليمن،

((فعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَبْعَثَ مُعَاذًا إِلَى الْيَمَنِ، قَالَ: كَيْفَ تَقْضِي إِذَا عَرَضَ لَكَ قَضَاءٌ، قَالَ: أَقْضِي بِكِتَابِ اللَّهِ، قَالَ: فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فِي كِتَابِ اللَّهِ، قَالَ: فَبِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فِي سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا فِي كِتَابِ اللَّهِ، قَالَ: أَجْتَهِدُ رَأْيِي وَلَا آلُو فَضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَدْرَهُ، وَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَفَّقَ رَسُولَ رَسُولِ اللَّهِ لِمَا يُرْضِي رَسُولَ اللَّهِ))

[أخرجه أبو داود في سننه]

القرآن والسنة، والاجْتهاد دخل فيه القِياس والإجماع، ولا تجْتمع أمتي على ضلالة، والقِياس أنْ اكْتَشف عِلَّة التحريم، فإذا اتَّحَدَتْ هذه العِلَّة في حالةٍ ما مع حالةٍ أخرى انْسَحَب التحريم على الحالة الأخرى، كما في الأولى، فالخمر حرام، وعِلَّتُها الإسْكار، فأيُّ شرابٍ أسْكر فهو حرام، وهذا هو القِياس، ولعلّ هذا الصحابي الجليل كان رائِداً في الاجتهاد، وكأنَّهُ رسَمَ للأئمَّة المُجْتهدين من بعْده أنّ الكِتاب أوَّلاً، ثم السنّة ثانيا، ثمّ الإجماع ثالِثاً، ثمّ القياس رابعاً، والإجْماع والقِياس هما الاجْتِهاد، والأدلّة كما تعلمون أدِلَّة أصْلية، وأدِلَة فرعِيَّة، فالأصلية الكتاب والسنة، والفرعية القياس والإجماع والاسْتحسان والمصالح المرسلة، إلى آخر الأدلة الفرعية في الاجتهاد.

وعن عاصم بن حميد عن معاذ بن جبل، قال: لما بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن خرج معه النبي الكريم لِيُوصيه، فهل من الأصول المُتَّبعة الآن أنْ يخرج رأس القوم لِيُوَدِّع أصحابه الذين هم تابِعون له؟ هذا لا نجده عند غير النبي عليه الصلاة والسلام، والأغرب من هذا أن معاذاً كان راكِباً، والنبي عليه الصلاة والسلام يمْشي محاذِيًا راحِلَتَه، ما هذا؟

يَرْوي بعض كُتاب السيرة أنَّه نظر إليه ملِياً وتأمَّلَهُ كثيراً، أنا اسْتنبطتُ من هذا كيف أنَّ أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام يُحِبون النبي حُباً جماً؟ وكيف أنه أخذ عليهم مجامع قلوبهم ؟ وكيف أنَّه أسَرَهم بكماله؟ أعتقد أنّ النبي عليه الصلاة والسلام كان يُحِبُّهم حُباً جماً، واعْتقِدوا معي أيها الأخوة أنّ الحُبّ لا يُمكن أن يكون من طرفٍ واحد، كما أنهم كانوا يُحبونه كان عليه الصلاة والسلام يُحِبُّهم، وما خرج مع سيّدنا معاذ بن جبل مُشَيِّعاً له وهو يمْشي ومُعاذٌ يرْكب إلا من شِدَّة حُبّ النبي عليه الصلاة والسلام لمعاذ.

تَرْوي القصص أنه لما قدِم جعْفر أيضاً هشَّ له النبي عليه الصلاة والسلام وبشَّ، فالنبي عليه الصلاة والسلام مشى معه ومُعاذٌ يركب والنبي يمْشي ويُوصيه، فلما فرغ قال: يا معاذ، إنك عسى ألاّ تلْقاني بعد عامي هذا، يُسْتنبط من هذا اسْتِنباط دقيق؛ إذْ إنّ النبي عليه الصلاة والسلام آثر أن يُرسل سيّدنا معاذًا إلى اليمن لِيَدْعُوَ إلى الله هناك، ولِيُعَلِّمَهم كتاب الله وسنَّة رسوله، على أنْ يبْقى إلى جانِبِه، معنى ذلك أنّ أكبر هدفٍ يجب أن نسْعى إليه هو نشْرُ هذا الدِّين، نشرُ هذا العِلْم العظيم، ودعوة الناس إلى الله ورسوله، فالنبي أرْسله إلى اليمن، ولعلَّكَ تمرُّ بمَسْجِدي هذا وقبري، فَبَكى مُعاذٌ خُشوعاً لِفِراق رسول الله، ثمّ الْتَفَت بوَجْهِهِ إلى المدينة، فقال: إنَّ أوْلى الناس بي المُتَّقون، مَنْ كانوا وحيث كانوا، حُبٌّ شديد، وشَوْقٌ أشدّ، ووفاءٌ لا مثيل له، ومع ذلك الدعوةُ إلى الله عز وجل كانت فوق كُلِّ اعْتِبار .

3- علمه :

سيِّدنا عمر، يقول: لو اسْتَخْلَفْتُ معاذ بن جبل، أيْ لو جعلهُ خليفةً من بعده، فسألني عنه ربي عز وجل: ما حَمَلَكَ على ذلك؟ لَقُلْتُ: سمِعْتُ نبيَّك صلى الله عليه وسلَّم، يقول: إنَّ العلماء إذا حضروا ربهم عز وجل كان مُعاذٌ بين أيْديهم .

إذاً: معي شهادةٌ من رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنّ مُعاذ بن جبل أهلٌ لِخِلافة المُسلمين جميعاً، بعض أصْحاب النبي وهو ابن مسْعود، كان يقول هكذا:

((إنَّ معاذ بن جبل كان أمَّةً قانتاً لله حنيفاً، فقيل له: إنّ إبراهيم هو الذي كان أمة قانتاً لله حنيفاً، فقال: ما نسيتُ ولكن هل تدري ما الأمة وما القانت؟ قلتُ: الله أعلم، فقال: الأمة الذي يعلمُ الخير والقانت المُطيع لله عز وجل ولِرَسوله وكان مُعاذ بن جبل يُعَلِّمُ الناس الخير وكانَ مُطيعاً لله عز وجل))

إذاً: إنَّ معاذ بن جبل كان أمَّةً قانتاً لله حنيفاً . وعن شهْر بن حَوْشَب:

((كان أصْحاب مُحَمَّدٍ رضْوان الله عليهم إذا تحَدَّثوا وفيهم مُعاذٌ نظروا إليه هَيْبَةً له))

لقد كانت له هَيْبَةٌ حتى مع أصْحاب النبي .

إليكم مواعظ هذا الإمام الجليل :

ومن مواعِظِه رضي الله عنه أنه كان يقول: إنَّ مِن ورائِكم فِتناً يكثر فيها المال، ويُفْتح فيها القرآن، حتى يقْرأه المؤمن والمنافق، والصغير والكبير، والأحمر والأسود، فَيوشِكُ قائِلٌ أنْ يقول: ما لي أقرأ على الناس القرآن فلا يتبعوني عليه ، فما أظنّ أنهم يتبعوني عليه حتى أبتدع لهم غيرَه، إياكم وإياكم

وما ابْتُدِع، يعني إياكم والبدَع، فإنَّ ما ابتُدِع ضلالة، وأُحَذِّركم من زَيْغَة الحكيم - فالحكيمُ أحْياناً يخْطئ - فإنَّ الشيطان يقول: عليَّ في الحكيم كلمة ضلالٍ واحدة، فالشيطان لا يتمنى إلا أنْ ينطق الحكيم بِكَلِمة ضلال واحدة، لأنَّ تلك الكلمة تُسيء إلى الدِّين إساءة كبيرة .

كلكم يعلم أنَّ أبا حنيفة النعمان رحمه الله كان يمشي في الطريق، فرأى غلاماً أمامه حُفْرة، فقال: يا غلام إياك أن تسْقط، ولا أدري كيف أنطق اللهُ هذا الغُلام؟ وقال: بل أنت يا إمام إياك أن تسْقط، إني إنْ سقطتُ سقطْتُ وحدي، وإنك إنْ سقطتَ سقط العالم معك، فالحكيم إذا تكلَّم كلمة ضلال واحدة سقطت معه الأمة، لأنَّ عامَّة الناس لا يُفَرِّقون بين الإسلام والمُسْلمين، ولا بين الحقِّ وأهل الحقِّ، ولا بين المبادئ وأصْحابها، فهذا التداخل يجْعلهم إنْ سقط أمامهم الحكيم سقط معه الدِّين، فَلِذلك سيّدنا معاذ بن جبل أدْرك بِحاسَّتِه المُرْهفة أنَّ أكبر خطرٍ على الإسلام أنْ ينطق الحكيم بِكَلِمةِ ضلالٍ واحدة، لأنَّ هذه الكلمة الواحدة ربما أسْقطتْ كلّ كلامه الصحيح، فلو أنَّ أحداً أعْطاك مئات المعْلومات الصحيحة، ثمّ قال لك: اثنين واثنين خمْسة، هنا يداخلك الشكّ، ليس في هذا الكلام، بل في كلّ ما قاله لك .

وقد يقول المنافق كلمة الحق، دقِّق في هذا؛ وقد يقول الحكيم كلمة ضلال، فما الأصل؟ المُتَكَلِّم أم الكلام؟ الكلام، وهذا ما قاله الإمام عليّ:

((نحن نعرف الرجال بالحقّ ولا نعْرف الحق بالرجال))

فالأصل هو الحق، قالوا: وما يُدْرينا أنّ الحكيم قد يقول كلمة الضلالة؟ قال: هي كلمة تُنْكِرونها، مُخالفة للفِطرة والعقل والنقل والواقع، تُنْكِرونها بِفِطَرِكم السليمة، وعُقولِكم الراجحة .

سيّدنا عمر رضي الله عنه كان يسْتعين برأْي مُعاذ بن جبل، حتى إنه قال:

((لولا معاذ بن جبل لَهَلَكَ عُمر))

وعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ: أَخَذَ بِيَدِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ:

((إِنِّي لَأُحِبُّكَ يَا مُعَاذُ، فَقُلْتُ: وَأَنَا أُحِبُّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَلَا تَدَعْ أَنْ تَقُولَ فِي كُلِّ صَلَاةٍ رَبِّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ))

[أخرجه النسائي في سننه]

انصت إليه أيضاً أيها المسلم :

وكان هذا الصحابي، يقول:

((يا بُني إذا صَلَّيْتَ فصَلِّ صلاة مُوَدِّع، ويا بني إنَّ المؤمن يموت بين حَسَنَتَين: حسنةٍ قدَّمَها، وحسنةٍ أخَّرها))

له أعمالٌ جليلة قبل موته، وترك خيراً كثيراً بعد موته .

ويقول هذا الصحابي الجليل:

((قد ابْتُليتُم بِفِتْنَة الضراء فصَبَرْتُم وستُبْلَوْنَ بفِتْنَةِ السراء وأخْوَفُ ما أخاف عليكم فِتْنة النِّساء، إذا تسَوَّرْنَ الذهب، ولَبِسْنَ رباط الشام، وعَصْبَ اليَمَن، فأتْعَبْنَ الغني، وكلَّفنَ الفقير ما لا يجد))

لذلك كما قال عليه الصلاة والسلام:

((إنَ إبليس طلاعٌ رصاد وما هو من فُخوخه - جمع فخّ - بأوثق في صَيْدِه في الأَتْقِياء من النِّساء))

[ورد في الأثر]

إليكم العبرة من وفاته والمدة التي مكثها في الدنيا :

أيها الأخوة، فلما حضره الموت، قال:

((أصْبَحْنا، فقِيل له: لم نُصبِحْ؟ فقال رضي الله عنه: أعوذ بالله من ليلةٍ صباحُها النار، مرْحَبًا بالموت مرْحبًا بالموت؛ زائِرٌ مُغِبّ، حبيب جاء على فاقة، اللهم إني كنت أخافك وأنا اليوم أرْجوك، إنك تعلم أني لم أكن أحِبّ الدنيا وطول البقاء فيها لِكَرْيِ الأنهار، ولا لِغَرْسِ الأشجار، ولكن لظمأ الهواجر، ومُكابَدَة الساعات، ومُزاحَمَة العُلماء بالرُّكَب عند حِلَق الذّكر))

وتُوُفِّيَ هذا الصحابي الجليل عن عُمُرٍ لا يزيد عن ثلاث وثلاثين سنة، فالعُمْرُ أثْقَهُ ما فيه طولُهُ، وأعْظم ما فيه الأعمال الجليلة التي عمِلَها .

عن سعيد بن المُسَيِّب، قال:

((قُبِضَ مُعاذ بن جبل وهو ابنُ ثلاثٍ وثلاثين أو أربع وثلاثين عاماً))

العُمُر يُقاسُ بوَزْن العمل الذي احْتواهُ لا بِمُدَّتِه .

والحمد لله رب العالمين

السيرة - رجال حول الرسول - الدرس (02-50) : سيدنا عبد الله بن مسعود
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 12-10-1992

بسم الله الرحمن الرحيم

كيف ندرس السيرة ، وما هي الثمرة التي يمكن أن نقطفها منها ؟

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني من دروس السيرة، والصحابي اليوم سيدنا عبد الله بن مسعود، وقبل أن نبدأ بعرض سيرته وتعبُّده وفضائله وزهده وأقواله لا بد من وقفة قصيرة حول موضوع السيرة .

أيها الأخوة الأكارم، السيرة شيئان: وقائع ونصوص، وتحليل ودراسات، والأمر الذي نحن في أمسِّ الحاجة إليه أن نجمع بين النص و التحليل، وبين النص والاستنباط، وبين النص واستنباط القاعدة، تُلقي الضوء على حياتنا اليومية .

إذاً: كما نعتني بالنص الذي ورد في كتب السيرة نعتني بالتحليل والاستنباط؛ لأن هذا التحليل والاستنباط يعطينا قانونًا وسنة، أو قاعدة تنير لنا السبيل في الدنيا .

والشيء الآخر، يجب أن نعتقد جميعًا أن الله جل جلاله هو هو، يعني أن القوانين التي سنَّها، والقواعد التي قعَّدها، والوُعود التي قطعها، والبشارات التي بشَّر بها هي هي، فهي لأيِّ مؤمن في أيِّ زمانٍ ومكان، فالشيء الذي ناله أصْحاب رسول الله من الله عز وجل شيءٌ ثمينٌ، لكنّ الإله موجود، فالذي نصرهم ينصرنا، والذي أعْطاهم يُعْطينا، والذي أسْعدهم يُسْعِدنا، والذي أغْناهم يُغْنينا، والذي رفعهم يرْفعنا، المفْهوم التاريخي للدين مفْهوم غير صحيح، يقولون: إنّ الدِّين ظاهِرَةٌ ظهرت وانْتَهَت، لا، بل ظهرتْ وتَسْتَمرّ، فإذا أخذ المرءُ بقواعد الدِّين قطف ثِماره، وما أردتُ من درْس السيرة إلا تأكيد هذه الحقيقة .

لمحة قصيرة عن سيرة الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود :

أيها الأخوة، سيّدنا عبد الله بن مسْعود كانَ ماهِراً في القرآن، والقرآن موجود بين أيدينا ، وبِإمْكانك أنْ تكون ماهِراً فيه، وأن تَحْفَظه، وأن تفْهمه، وأنْ تعمل به، وأن تقطِفَ ثِماره، فهذه المُقدِّمة مُهمَّة، نحن على أبواب البُطولة، فإما أنْ نُقْدم، وإما أنْ نُحْجِم، وإما أن نُبادر، وإما أن نتردّد .

هذا الصحابيُّ الجليل يُكْنى أبا عبد الرحمن، وأمُّهُ أمُّ عبْد، أسْلم قبل دُخول النبي عليه الصلاة والسلام دارَ الأرقم، أيْ أسْلم في وقْتٍ مُبَكِّر، وقال: كُنْتُ سادس المُسْلمين، أيْ سادِسَ من أسْلم من المُسلمين، وهاجر إلى الحبشة الهجْرَتين، وشهد بدْراً والمشاهد كُلّها، وكان صاحب سرِّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصاحِبَ وِسادته وسِواكِهِ وطُهوره في سفره، وكان يُشْبه النبي عليه الصلاة والسلام في هَدْيه وسَمْتِه، وكان خفيف اللحم، قصيراً، شديدَ الأدَمَة، وكان من أجْود الناس ثوْباً، ومن أطْيَبِ الناس ريحاً، وُلِيَّ قضاء الكوفة وبَيْتَ المال لعُمَر، وصدْراً من خلافة عُثْمان، ثمّ صار إلى المدينة فماتَ بها سنة اثْنَتَيْن وثلاثين، ودُفِنَ بالبقيع وهو ابنُ بِضْعٍ وسِتين .

إليكم هذا الموقف لابن مسعود تشهد له بالخيرية أيام الجاهلية :

عن عبد الله بن مسْعود صاحب الترجمة رضي الله عنه، قال:

((كُنْتُ غُلاماً يافِعاً أرْعى غَنَماً لِعُقْبَة بن أبي مُعيط، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكرٍ، وقد نفرَا من المُشْركين، فقال : يا غُلام هل عندك من لَبَنٍ فَتَسْقِيَنا؟ قُلتُ: إني مُؤْتَمَنٌ، ولَسْتُ أسْقيكُما، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: هل عندك من جَذْعَةٍ لم ينْزُ عليها الفحل؟ (أيْ غَنَمة ليس فيها لبن) قلتُ: نعم فأتَيْتُهما بها، فاعْتَقَها النبي صلى الله عليه وسلم، ومسح الضرع، ودعا فحَفَل الضَّرْعُ، - وهذا من مُعْجِزات النبي صلى الله عليه وسلم- ثمّ أتاهُ أبو بكرٍ بإناءٍ فاحْتَلَبَ بها، فشَرِبَ أبو بكْرٍ، ثمّ شَرِبْتُ))

الاسْتِنْباط الأول: أنّ هذا الصحابيّ الجليل وهو غُلامٌ يافِع أدْرك بِفِطْرَتِه أنّ هناك شيءٌ يجوز، وهناك شيءٌ لا يجوز، وهذا يُؤَكِّدُ قوْل النبي صلى الله عليه وسلم:

((خِيَارُكُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقُهُوا))

[أخرجه البخاري عن أبي هريرة في الصحيح]

فما من أخٍ مؤمن إلا وله مواقف أخْلاقِيَّة في جاهِلِيَّتِه قبل أنْ يتوب إلى الله، وهذا هو معنى قوْل النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّه عَنْه عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ:

((تَجِدُونَ النَّاسَ مَعَادِنَ خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقِهُوا، وَتَجِدُونَ خَيْرَ النَّاسِ فِي هَذَا الشَّأْنِ أَشَدَّهُمْ لَهُ كَرَاهِيَةً، وَتَجِدُونَ شَرَّ النَّاسِ ذَا الْوَجْهَيْنِ الَّذِي يَأْتِي هَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ وَيَأْتِي هَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ))

[أخرجه البخاري عن أبي هريرة في الصحيح]

ما قيل في ابن مسعود :

وعن أبي موسى الأشْعري، قال: رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم وما أرى إلا ابن مسْعودٍ من أهْله .

أنا أُقسِمُ لكم بالله أنَّ بين الأخوة المؤمنين مِن المَحَبَّة والمَوَدَّة ورفع الكُلفة والثِّقة والطُّمأنينة والاسْتِسلام والانْدِماج أشَدُّ مما بين الأقارب، وأشَدُّ مما بين الأخ وأخيه، والعلاقة نَسَبِيَّة هذا قانون، وأنا في هذا الدرس إنْ شاء الله تعالى يَعْنيني أكثر ما يعْنيني اسْتِنْباط قواعد في الإيمان

يقول أبو موسى الأشْعري:

((رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم وما أرى إلا ابن مسْعودٍ من أهْله))

فكلَّما ازْداد إيمانُ أحدكم ازْدادَ حُبُّهُ لأخْوانه، وازْدادَتْ خِدْمته لهم، وازْداد تَعَلُّقُهُ بهم، وازْدادتْ شَفَقَتُهُ عليهم، وازْداد نُصْحُهُ لهم، يجب أنْ يكون المؤمنون كُتْلَةً واحدة وجسداً واحداً إذا اشْتكى منه عُضْوٌ تداعى له سائِرُ الجَسَد بالسَّهَر والحُمى .

سيّدنا أبو موسى الأشعري، يقول:

((رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم وما أرى إلا ابن مسْعودٍ من أهْله))

فمن أهْلُكَ؟ هم المؤمنون، وهذا معنى قولهم:

((رُبَّ أخ لك لم تلِدْهُ أمُّكَ))

استنبط من قوْل النبي في حقِّ الجار إذا اسْتعانَ بك أعَنْتَهُ، وإنْ اسْتَنْصَرَك نصَرْته، وإن اسْتَقْرَضَك أقْرَضْته، وإنْ أصابهُ خيرٌ هَنَّأته، وإن أصابَتْهُ مُصيبَةٌ عَزَّيْتَهُ، ولا تَسْتَطِل عليه بالبناء فتَحْجُبَ عنه الريح إلا بإذْنه، وإذا اشْتَرَيْتَ فاكِهَةً فأهْدِ له منها، وإنْ لم تفْعل فأدْخِلها سِرًّا، ولا يخْرُجْ بها ولَدُكَ لِيَغيظ ولَدَهُ، ولا تؤْذِهِ بقُتار قِدْرِك إلا أنْ تَغْرِفَ له منها، فإذا كان هذا حَقُّ الجار، وقد يكون الجار ليس مُسْلِماً، فكَيْفَ بحقِّ المؤمن؟! وكيف بحَقِّ الأخ في الله؟ لِذلك علامة قبول ما عند الله مَحَبَّتُنا، وتواضُعُنا، وتضْحِيَتُنا، وإيثارُنا، وذُلُّنا، وتواصُلُنا، وتناصُحُنا .

عن القاسم بن عبد الرحمن، قال:

((كانَ عبدُ الله يُلْبِسُ رسول الله صلى الله عليه وسلَّم نَعْلَيْه، ثمّ يمْشي أمامه بالعصا، حتى إذا أتى مجْلِسَهُ نزعَ نعْلَيْه، فأدْخَلَهما في ذِراعَيْه، وأعْطاه العصا، فإذا أراد النبي عليه الصلاة والسلام أن يقوم ألْبَسَهُ نعْلَيْه، ثمّ مشى بالعَصا أمامه، حتى يدْخُل الحُجْرة قبل النبي))

الأدلة من الكتاب على أن حب النبي هو عين حب الله :

أنا أقول لكم: إنَّ حُبَّ النبي صلى الله عليه وسلم هو عَيْنُ حُبِّ الله، وإنَّ حُبَّ الله عز وجل عَيْنُ حُبِّ النبي، وإنَّ طاعة النبي صلى الله عليه وسلم هي عَيْنُ طاعة الله، وإنَّ طاعة الله عز وجل هي عَيْنُ طاعة النبي، والدليل قوله تعالى:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

(سورة آل عمران الآية: 31)

وقوله تعالى:

(يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ)

(سورة التوبة الآية: 62)

بضميرِ المُفْرَدِ الغائِب، ولم يَقُل: يُرْضوهُما، ونُضيفُ شيئاً وهو أنّك إذا أحْبَبْتَ الله والنبي حُباً جماً، وألْغَيْتَ ذاتك نِهائِياً، شَفَفْتَ عن حقيقة رسول الله، لذلك: كان النبي صلى الله عليه وسلم، يقول: فيما روى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يَزِيدَ الْخَطْمِيُّ الْأَنْصَارِيُّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ:

((اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يَنْفَعُنِي حُبُّهُ عِنْدَكَ))

[أخرجه الترمذي في سننه]

والإسْلام بلا حُبٍّ جسَدٌ بلا روح، وورد في بعض الأقوال:

((ألا لا إيمانَ لِمن لا حُبَّ له))

وهل للحُبِّ دليل؟ هناك مئة دليل، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

(سورة المائدة الآية:54)

وقال تعالى :

(وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ)

(سورة البقرة الآية: 165)

فمن هَوِيَ الكَفَرَة حُشِرَ معهم، ولا ينْفَعُهُ عملهُ شيئاً، قلبُكَ أين هو؟ سوْفَ تَرَوْنَ أيها الأخوة، أنَّ أصْحاب النبي عليهم رضوان الله أحَبُّوا النبي حُباً يفوقُ كُلَّ التَّصَوُّر، اقْتَدَوْهُ بأموالهم وأوْلادهم

وأرْواحِهم، ماتَ أبوها وابنُها وزوْجُها وأخوها، وتقول: ما فَعَلَ رسول الله إلى أنْ رأتْهُ؟ فقالت: يا رسول الله كُلُّ مُصيبَةٍ بعْدك جَلَلٌ، لا قيمة لها، هذه امرأة .

كيف نعبر عن حبنا لله ولرسوله في هذا الزمان ؟

أيها الأخوة، نحن في هذا الزمان كيف نعبِّر عن حبِّنا؟ كيف نعبِّر أننا نُحب الله أكثر من كل شيء؟ لا يوجد جهاد، نحن في الحياة المدنية الآن؛ هذا مُدرِّس، هذا طبيب، هذا صانع، هذا صاحب مصلحة، هذا تاجر، هذا صاحب معمل، هذا طالب مدرسة، هذا طالب جامعة، هذا متزوج، هذا غير متزوج، كيف يعبر أحدنا عن حبِّه لله عزّ و جل؟ بتطبيق أمر الله، وتطبيق أمر الله سَهْلٌ يسير .

هناك نقطة دقيقة: ربنا عز وجل يخْلق ظروفًا للمؤمن، ويضعِفُه أمام خِيارٍ صعْبٍ، شيءٌ يُرضي الله، ولكن يضرّ بمَصْلَحَته، صفقةٌ رابحة، لكن فيها شُبْهَة، فإذا أمْضَيْتها أثبَتَّ أنك تُحِبّ المال أكثر من حُبِّك لله ورسوله، وإذاَ رفَضْتها أثبتَّ أنك تُحِبّ الله ورسوله أكثر من هذه الصَّفْقة، وفي حالة البَحْبوحة والرخاء طاعة الله سهْلة؛ أغُضُّ بصري، لكن هناك ظروف تضَعُك أمامَ خِيارين صعبيْن، الدنيا هنا، وطاعة الله هنا، ولولا أنَّ الله عز وجل يضعُكَ أمام هذين الظرْفَين، وأمام خِيارٍ صعْبٍ لأصْبَحَت الجنَّة سهْلة، وهناك آية تدلّ على ذلك، قال تعالى:

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

(سورة العنكبوت الآية: 2)

فلا بدّ من الابْتِلاء، ولا بد من أن توضَعَ في ظرفٍ، فإما أن تخْتار رضى الله عز وجل، وإما أنْ تخْتار الدنيا، والآية التي أكثر دلالة، قوله تعالى:

(قُلْ إِنْ كَانَ آَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

(سورة التوبة الآية: 24)

ففي الحياة المدَنِيَّة، كيف نُؤَكِّدُ حُبَّنا لله عز وجل؟ إذا امْتُحِنا وابْتُلينا فوُضِعْنا أمام ظرْفين، أحْياناً زوجَتُك وأمُّك – هذا أقرب مثل – وأمُّك مُتَقَدِّمة في السِّن، والإنسان لما يتقدَّم في السِّن يُرَدُّ إلى أرْذل العُمُر؛ تفْكير ضعيف، تدَخُّل شديد، طلبات غير معْقولة، سَيْطرة وإحْكام القبْضة، فكُلّ سعادَتِك مع زوْجَتِك، وأُمُّك عِبءٌ عليك، لكنَّ الذي يُرْضي الله يبَرَّ أُمَّه، ولا يضَيِّعَ حقَّ زوْجَتِه، فالبُطولة أنْ تقف المَوْقِف الكامل .

إذًا: أنت دائِماً توضَعُ في امْتِحانات صعْبة، فإما أن تؤكّد أنَّك تُحِبّ الله ورسوله أكثر من حبِّك الدنيا، وإما أن تؤكّد أنك تحب الدنيا والمال والزوجة والعشيرة والأهل والابن والتجارة والمسكن، فلو كنت في مسكنٍ فخمٍ مستأجراً، وبقاؤك في المسكن شيء مريح، والأجرة رمزية، والقانون إلى جانبك، ويوفِّر لك الحماية؛ فإنْ كنتَ ممَّن يُؤْثر مرضاةَ الله عز وجل أعطيتَ هذا البيت لأصحابه، نمتَ قرير العين، إذاً: أنت ممتحن، في تجارتك، في صناعتك، وقد تدخل مادة في صناعتك غير شرعية، تقول لك نفسك: الخُبز يُطْبخُ الآن، فدَعِ الأمور تسير، وهناك رواج سريع، والمؤمن يخاف الله عز وجل، ولا يفعل هذا، فالقصد أنَّ حبَّك لله عز وجل، شئت أم أبيت ، ولا بد أن يظهر، أو لا يظهر من خلال الامتحان .

أمثلة من الواقع على امتحان الرب للعبد :

فهناك سؤال: هل نحن نمتحن أو لا نمتحن؟ لا بد أن نمتحن، قال تعالى:

(قُلْ إِنْ كَانَ آَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

(سورة التوبة الآية: 24)

أحيانا تعرض البيت للبيع خمس سنوات، وثمنُه ثلاثة ملايين، فوافقت على بيعه، وحصل هناك عقد، ثم يبعث الله لك بعد يوم أو يومين شخصا يعرض عليك شراءه بثلاثة ملايين ونصف، هذا امتحان، فإما أن تنجح فيه وإما أن تسقط، ونجاحك هو أنك قد بعت البيت بمبلغ ثلاثة ملايين، وتم البيع، وكتِب العقد، ورسوبك أن تلجأ حيلة، تقول له: ما رضيتْ الزوجة، أو ابني عارضني، فأنت ممتحن في البيع والشراء، وفي كل شيء أنت ممتحن، إما أن يظهر أنك تحب الله ورسوله أكثر من كل شيء، وإما أن تثبت أن أي شيء من الدنيا أغلى عندك من الله ورسوله، وهذا الامتحان واقع لا محالة، وربنا عز وجل فعَّال لما يريد، فأحيانا يبعث لك عرضا مغريا، وأحيانا أخرى تقع في مشكلة، والأبواب كلها مغلقة إلا باب الشبهات، ولا بد أن تأخذ قرضا بفائدة .

أحد أخواننا الكرام، في أول حياته التجارية يملك بيتا صغيرا، وعرض عليه بيتٌ بثمنٍ مغر، وهو تاجر، ولكن المبلغ غير متوافر لديه لشرائه، وكانت معه سندات مالية، ذهب إلى أحد المصارف، وكان مدير المصرف نصرانيا، فقال: اخصم لي هذه السندات، (علماً أن هذا ربا معكوس)، فنطق مدير هذا المصرف قائلاً: يا أبا فلان، أنت مسلم، وهذا حرام في ديانتك، فقال: كأنه صفعني، أنا أتلقى النصيحة من إنسانٍ غير مسلم، وفي ديني! قال: والله عندها بكيتُ، فخرجت وأنا أنزل الدَرَج، وأقول: والله يا رب، لا أريد هذا البيت، وسأبقى في بيتي، ولن أعصيك ، وانتقل من المصرف إلى محلّه بالحريقة، وما

أن وصل إلى محله حتى فوجئ بصديق له ينتظره ، لم يره منذ زمن، فقال له: أين أنت يا أبا فلان؟ لقد انتظرتك نصف ساعة، إني ذاهبٌ إلى الكويت، ومعي ستون ألف ليرة سورية، اتركها عندك، وأُنشدك الله أن تستعملها عند حاجتك لها، فالردّ جاء بعد نصف ساعة، أنت قُلْتَ: يا رب لا أريد البيت، ولا أعْصيك، فهل يتْرُكُك الله؟.

أيها الأخوة، الامتحان لا يطول، إلا أنّ الله يحِبّ منك هذه الكلمة: يا رب لن أعْصِيَك، هذه الدنيا تحت قدمي، فإذا جاءك الشيطان، وقال لك: أنت إذا لم تسْلُك مسْلَكَ الرِّبا فستُصْبِح في الطريق، قُل: لا أعْصي الله، ولن يُضَيِّعني، فهذا هو المؤمن، والمنهج مُقَدَّسٌ عنده، وطاعة الله أغلى شيءٍ عند المؤمن .

انظر إلى خدمة ابن مسعود لرسول الله ، علام يدل ؟

سيّدنا ابن مسْعود كان أقرب الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم، فكان يوقِظُهُ صلى الله عليه وسلّم إذا نام، ويسْتُرُهُ إذا اغْتَسَل، ويمْشي معه في الأرض وحْشاً، أيْ مُنْفَرداً، وبالمناسبة هناك أشْخاص إذا رأوا من يُعَلّمُونهم دائِماً على المِنْبر ووراء كُرْسي التدْريس وبِثِيابِهِ الأصوليَّة، يجد أنَّ الأمر على التَّمام، أما إذا ذهب في نُزْهَةٍ معه، ورأى شَيْخَهُ قد نام أو أكل، وجد في ذلك ضيقًا، وكأنَّ شَيْخَهُ ينبغي ألاّ يأكل وألاّ ينام، اُنْظر إلى سيّدنا ابن مسْعود كان صاحب الوِساد والسِّواك والنَّعْلين، يا عبد الله أين السِّواك؟ تجِدُهُ مُلَبِّيًا، فالإنسان له حياةٌ خاصَّة، ومهما كانَ عظيماً ؛ فهو ينام ويجوع ويأكل ويعطش ويغْضب، اللهم إني بشر، أغْضب كما يغْضب البشر، اللهم إني بشر أنسى كما ينسى البشر، فكلما ارْتقى الإنسان بإيمانه لا تؤثِّرُ عليه الأمورُ الخاصَّة .

وعن عبد الله بن زيدٍ، قال:

((أتَيْنا حُذَيْفة، فقُلْنا له: حدِّثنا بأقرب الناس لِرَسول الله هَدْياً وسَمْتاً؛ لِنَأخذ عنه ونسْتَمِعَ عنه، فقال عبد الله بن زيدٍ: كان أقرب الناس لِرسول الله صلى الله عليه وسلم هدْياً وسمْتاً عبد الله بن مسْعودٍ))

أيها الأخوة، نحن كَمُؤْمنين لنا المثَلُ الأعلى وهو رسول الله صلى الله عليه وسلّم، فالمؤمن العَنيف والقاسي الذي لا يَتَحَمَّل، يضْرب ويَسُبُّ، فهو إذًا ليس مُقْتَدِياً برَسول الله صلى الله عليه وسلّم، نحن إذا أخَذْنا السيرة، وقرأناها إنما للاقْتِداء به صلى الله عليه وسلّم، والاسْتِفادة منه .

المرتبة الإيمانية التي حازها ابن مسعود من رسول الله :

فاسمعوا ثناءَ النبي عليه الصلاة والسلام على عبْد الله بن مسْعود، عَنْ عَلْقَمَةَ، قَالَ:

((جَاءَ رَجُلٌ إِلَى عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ بِعَرَفَةَ، فَقَالَ: جِئْتُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ الْكُوفَةِ، وَتَرَكْتُ بِهَا رَجُلًا يُمْلِي الْمَصَاحِفَ عَنْ ظَهْرِ قَلْبِهِ فَغَضِبَ وَانْتَفَخَ حَتَّى كَادَ يَمْلَأُ مَا بَيْنَ شُعْبَتَيْ الرَّحْلِ، فَقَالَ: وَمَنْ هُوَ وَيْحَكَ؟ قَالَ: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ فَمَا زَالَ يَنطفئ وَيُسَرَّى عَنْهُ الْغَضَبُ حَتَّى عَادَ إِلَى حَالِهِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا، ثُمَّ قَالَ: وَيْحَكَ! وَاللَّهِ مَا أَعْلَمُهُ بَقِيَ مِنْ النَّاسِ أَحَدٌ هُوَ أَحَقُّ بِذَلِكَ مِنْهُ، وَسَأُحَدِّثُكَ عَنْ ذَلِكَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَزَالُ يَسْمُرُ، (أي يسهر)، عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ اللَّيْلَةَ كَذَاكَ فِي الْأَمْرِ مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ، وَإِنَّهُ سَمَرَ عِنْدَهُ ذَاتَ لَيْلَةٍ وَأَنَا مَعَهُ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَخَرَجْنَا مَعَهُ، فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمَسْجِدِ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْتَمِعُ قِرَاءَتَهُ فَلَمَّا كِدْنَا أَنْ نَعْرِفَهُ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ رَطْبًا كَمَا أُنْزِلَ فَلْيَقْرَأْهُ عَلَى قِرَاءَةِ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ؟ قَالَ: ثُمَّ جَلَسَ الرَّجُلُ يَدْعُو فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ لَهُ: سَلْ تُعْطَهْ، سَلْ تُعْطَهْ، قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قُلْتُ: وَاللَّهِ لَأَغْدُوَنَّ إِلَيْهِ فَلَأُبَشِّرَنَّهُ، قَالَ: فَغَدَوْتُ إِلَيْهِ لِأُبَشِّرَهُ فَوَجَدْتُ أَبَا بَكْرٍ قَدْ سَبَقَنِي إِلَيْهِ فَبَشَّرَهُ، وَلَا وَاللَّهِ مَا سَبَقْتُهُ إِلَى خَيْرٍ قَطُّ إِلَّا وَسَبَقَنِي إِلَيْهِ))

[أخرجه أحمد في مسنده]

لقد كان النبي عليه الصلاة والسلام يسْتمع إلى قِراءَتِهِ، ويطْرب لها، مع أنَّ القرآن أُنْزل عليه، وبالمناسبة أقول لكم: كلما ارتقى حالك طربْتَ لقراءة القرآن، وكلكم يعلم هذه الحقيقة، فأحيانا تقرأ القرآن فلا تجد طلاقة، ولا تجد انسيابا وطربا وشوقا وترنُّما، أحيانا تقرأ القرآن تطرب أنت لصوتك، و قد يكون صوتك عاديا، حدثني مرّة أخٌ أنّ منشدا كان لا ينشد إلا بدرهم، و لا يسكت إلا بدينار، البداية بدرهم، أما السكوت فبدينار، وهذا صوته معروف، فالمؤمن إذا كان صافي القلب، و إذا كان له عملٌ طيِّبٌ، له قراءة شجيّة يطرب لها هو قبل غيره، فقرّاء القرآن لهم ساعات صفاءٍ، و ساعات تحليق وتجل، فالساعات النادرة عند قراء القرآن يكون فيها تجلٍّ من الله عز وجل، فقال عمر: والله لأغدوَنّ عليه فلأبشِّرنه، قال: فغدوت عليه فبشّرته، فإذا أبو بكر قد سبقني إليه فبشّره، كم هم يحبون بعضهم بعضا؟ إذا جاء أخاك خبرٌ طيّبٌ من رسول الله، فرأسا بشِّره به، وبالمناسبة فما علاقتنا بالموضوع؟ أحيانا يرى الإنسان رؤيا طيِّبة، رؤيا صالحة، فليقصُّها على أخيه ولا يسكت عنها، لأن الرؤيا الصالحة جزء من ستٍّ وأربعين جزءاً من النبوّة ، يراها المؤمن أو تُرى له، فإذا رأى الإنسانُ رجلاً مؤمنًا يحبُّه

في حالة مع الله طيِّبة، في مظهر يرضي، برمزٍ واضح فلا يسكت عن ذلك، هذه بشرى من الله عز وجل .

فعَنْ أُمِّ مُوسَى، قَالَتْ: سَمِعْتُ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّه عَنْهُ، يَقُولُ:

((أَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ابْنَ مَسْعُودٍ فَصَعِدَ عَلَى شَجَرَةٍ أَمَرَهُ أَنْ يَأْتِيَهُ مِنْهَا بِشَيْءٍ فَنَظَرَ أَصْحَابُهُ إِلَى سَاقِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ حِينَ صَعِدَ الشَّجَرَةَ فَضَحِكُوا مِنْ حُمُوشَةِ سَاقَيْهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا تَضْحَكُونَ لرجل عَبْدِ اللَّهِ أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ أُحُدٍ))

[أخرجه أحمد في مسنده]

شهادتا عمر وعلي لابن مسعود بالعلم :

فسيّدنا عُمَر أيها الأخوة، خرج من المدينة لِيَسْتَقْبِلَ بلالاً، وكان أصْحابُ النبي صلى الله عليه وسلَّم عليهم رِضْوان الله إذا ذكروا بلالاً، أو إذا ذكروا الصِّدّيق، قالوا: هو سيّدُنا وأعْتَقَ سيِّدَنا، أحْياناً أهْل الفجور وأهل الدنيا ينقدون المؤمنين أنهم لا ينْطِقون باسمٍ لِصَحابي إلا ويَقولون سيّدنا، أما الكُتاب العاديِّين، يقولون: جاءَ مُحَمَّد -هل تظنّ أنه رفيقك؟- قُلْ: سيّدنا محمّد، والله يا أخواننا، هذا شخص مُسْلِم ابن مُسلم زارَ مصرَ، يقول لِشَخْصٍ آخر: أين قبر محمّد؟ فقيل له: أنت بِمِصْر، فقال: أو ليس قَبْرُهُ هنا؟ قال لي هذا الكلام: شخْصٌ أثِقُ بِكَلامه، فالصحابة الكِرام كانوا يقولون عن سيّدنا أبي بكر: هو سيّدُنا وأعْتَقَ سيِّدَنا، أيْ بلالاً، فسيِّدُنا عمر كان جالِساً، فجاء ابن مسْعود فقال رضي الله عنه: إنَّهُ رجُلٌ ملئ عِلْماً، أحْياناً الإنسان يتَعَلَّم، يحضر مجالس العِلِم بالتفْسير والحديث والسيرة، ويحضر خُطب الجُمُعة، ويقْرأ ويُطالع حتى يشْعُر أنّ كلّ خَلِيَّةٍ في جسمِهِ تنْطِق بعلم، فمرْتَبَةُ العِلم مرْتَبَةٌ عالِيَة، ولن تعْرِفَ مرْتبة عِلْمِك حتى تُجالِس جاهِلاً .

أذكرُ مرةً كُنت أوَدُّ أنْ أسافر إلى بلدٍ، فكان لي قريبٌ قد سافر إلى البلد الذي أقصده بِسَيارَتِهِ الشَّخْصيَّة، فعَرَضَ عليَّ، فقُلْتُ: لا مانع من صحبتك، فرَكِبَ بجانبه صديق له من كِبار التُّجار، لكنَّهُ من الجَهْل بِمكانٍ كبير، فأنا رَكِبْتُ واسْتَمَعْتُ طوال الطريق إلى حديثهما؛ حينما وَصَلْنا إلى البَلَد الذي نقصده بعد خمْس ساعات، تَمَنَّيْتُ أنْ آكلَ خُبزاً يابِساً طوال حياتي، ولا أكون بهذا الجَهْل الذي يتمتَّعُ به هذا الغَنيّ! سُخْف على ضيق أُفُقٍ، وعلى أنانِيَّة، وعلى جَهْلٍ مُطْبق، لكِنَّهُ غنِيٌّ .

فاعلموا أنّ رتبة العلم أعلى الرُّتب، فلذلك الكفاءة في الزواج مطلوبة، فالذي عنده فتاة مؤمنة تعرف علوم القرآن والسنّة، وتُجيدُ دراسَتهما، فلا يتورَّط ويُزَوِّجها رجلا جاهِلاً، بهذا يكون قد قتلها، لأنّ الشهرة هي كُلّ شيءٍ في حَياته، فهذه لا بد لها من زوج مؤمنٍ راقٍ يعْرف قيمتها، وقيمة دينها وقُرآنها، جاءَتني رسالة عن الخُطبة الإذاعِيَّة الأخيرة، فتاةٌ من الحَسَكَة، فَبَعَثَتْ رسالة إلى جامع النابلسي فقرَأْتها،

فقالت: لي مُشْكِلة فهل تُوافق أن أعْرُضها عليك؟ فقلتُ: فأخبرتها أني مُوافق، عندها جاءَتْني رسالة مُطوَّلة، فتاةٌ مؤمنة حافِظة لِكِتاب الله، وهناك رجُلٌ ضرير، كذلك مؤمن تطوَّعَتْ أنْ تتزَوَّجَهُ، طبْعاً أنا أكْبرتُ هذا المَوْقف، إذْ إنَّ هذا الضرير لعلّ له شأنًا عند الله عز وجل، وفتاةٌ تامَّةُ الخلق، ومن أُسْرة، ولكنّ أرادَتْ أنْ تُضَحي، وأنْ تكون زوْجَةً لِهذا الضرير، فهذا الضرير أسْكنها في بيْتٍ صغير، وأهل هذه الفتاة أصروا على أنْ ترفضه، وأنْ تعود إليهم، وهي مُصِرَّة على أنْ تبْقى معه، وتسألني ماذا أفعل؟ قُلْتُ: والله هذه بُطولة، امْرأةٌ تحفظ كتاب الله عز وجل، واخْتارَتْ رجلاً ضريراً مؤمناً، طبْعاً هي لم تخْتَرْهُ لأنه ضرير فقط، وإنما لأنه مؤمن، فالمرأة الصالحة العالمة لو أننا أردْنا أنْ نُقَدِّر دينها لكانَ مهْرُها مئة مليون أو أكثر، لأنها تحْفَظ دينك وأولادك، والعبرة أنَّ جَمْعَ الجاهل مع العالم أمْرٌ صَعْبٌ .

لقِيَ سيّدنا عمر ركْباً في سفَرٍ له فيهم عبد الله بن مسْعود، فأمَرَ عمرُ رجُلاً يُنادِيهم، من أين القَوْم؟ فأجابه عبد الله: أقْبَلْنا من الفجِّ العميق، فقال عمر: وأين تُريدون؟ قال عبد الله: البيتَ العتيق، قال عمر: إنَّ فيهم عالِماً من كلّ فجٍّ عميق أرادوا البيتَ العتيق، وأمر الرجل فناداهم، وقال له: سَلْهُم أيُّ القرآن أعْظم؟ فأجابه عبد الله: الله لا إله إلا هو الحيّ القيوم، ثمّ ناداهم: أيُّ القرآن أحْكم؟ قال: إنّ الله يأمر بالعَدْل والإحْسان، فناداهم: أيُّ القرآن أجْمع؟ قال: فَمن يعْمل مثقال ذرةٍ خيراً يره، ومن يعْمل مثقال ذرّةٍ شراً يره، قال: نادِهِم، أيُّ القرآن أخْوَف: ليس بِأمانِيِّكم ولا أمانِيِّ أهْل الكِتاب من يعمل سوءًا يُجْزَ به، قال عمر: نادِهِم، أيُّ القرآن أرْجى؟ قال ابن مسْعود : يا عِبادِيَ الذين أسْرفوا على أنْفسهم لا تقْنطوا من رحمة الله، فقال عمر: نادِهِم، أفيكم ابن مسْعودٍ؟ قالوا: نعم. فالذي اسْتَوْعَبَ القرآن كلَّه، إنّه لعالِم، فالماهر بالقرآن مع النبيّين والصِّديقين يوم القِيامة .

سئِلَ عليٌّ كرَّم الله وجْهه عن أصْحاب رسول الله صلى الله عليه وسلّم، فقال:

((عن أيِّهم تسْألون؟ فقالوا: أخْبرنا عن سيّدنا عبد الله بن مسْعود، فقال سيّدنا عليّ: علم القرآن وعلم السنَّة ثم انتهى، وكفى به عِلْماً))

إذا الإنسان درس القرآن وتعلّمَهُ، ففيه كلُّ شيءٍ وهو كلامُ خالق الكَوْن، وهو الكِتاب المُقرَّر، وحبْل الله المتين، والنور المُبين، والصِّراط المُسْتقيم .

أقوال أخرى للصحابة يبينون فضل علم هذا الصحابي الجليل :

حينما مات هذا الصحابيّ الجليل، كان الصحابة يسْألون: أترك مثلهُ؟ وكان الجواب: لا، فسيّدنا أبو موسى الأشْعري، قال:

((لا تسألوني عن شيءٍ مادام هذا الحَبر فيكم))

فإذا سُئِلَ الإنسانُ وكان من هو أعلمُ منه فالأدَبُ ألاّ يجيب، أحْياناً يكون في الجلسة طبيب، ويسأل مريض سؤالاً، فإذا بك تجد من يجيب والطبيب أمامه، اِحْتَرم الطبيب، فأنت لا شيءَ أمامه، أحْياناً السؤال شرْعي وتجد من يتجرَّأ ويجيب، هذا سوء أدب، والمفْروض إذا وُجِد من هو أعلم منك، تقول: سلْ فُلاناً، لذلك سيّدنا أبو موسى الأشْعري، قال:

((لا تسألوني عن شيءٍ مادام هذا الحَبر فيكم))

يُسْتَنْبَط من هذا الكلام أنّ أصْحاب النبي كان يعْرف أحدهم حقَّ الآخر، والمؤمنون يتعاوَنون، ولا يتنافَسون، ولا يتحاسدون، ولا يتباغَضون، وأجمل منظر أراهُ في حياتي حينما أجد الدعاة إلى الله مُتعاونين، ويَحْترمُ بعْضهم بعْضاً، ويُجِلُّ بعضهم بعضًا، ويتعاوَنون على مصلْحة المسْلمين العامة، أما حينما أراهم يتنافسون ويتحاسَدون ويتراشقون التُّهَم، وكُلُّ واحدٍ منهم يرى أنَّهُ هو الإمام في الدين، وأنَّ الله جلّ جلاله له وحْده، وأنَّ جماعته هم على الحقّ، وأنهم هم الفرقة الناجيَّة، وما سِواهم إلى النار، فهذه نظْرة سخيفة، فيجب أن يكون انْتِماؤُك إلى جميع المؤمنين، وكلُّ إنسانٍ عقيدته صحيحة، وسّلوكُهُ مُنْضَبِط فهُو على عَيْني ورأسي، واْحتَرمُهُ وأُجِلُّهُ .

وعن شقيقٍ، قال: كنت قاعِداً مع حُذَيْفَة، فأقْبل ابن مسْعودٍ: فقال حُذَيْفَة:

((إنَّ أشْبه الناس هَدْياً برسول الله صلى الله عليه وسلّم من حين يخْرجُ من بيْتِهِ إلى أنْ يرْجِع، ولا أدري ما يصْنع في أهْله لَهُوَ عبد الله بن مسْعودٍ؛ ووالله لقد عَلِمَ المَحْظوظون من أصْحاب مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلّم أنّ من أقربهم إلى الله تعالى وسيلَة يومَ القِيامة هو عبد الله بن مسْعودٍ))

ماذا يقول ابن مسعود عن نفسه ؟

يقول سيّدنا عبد الله بن مسْعودٍ عن نفْسه:

((والله الذي لا إله إلا هو، ما نزلَتْ آيَةٌ في كِتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلتْ، وفيمَا نزَلَتْ، ولو أعلم أنَّ أحداً أعلم بكِتاب الله منّي تنالُهُ المَطِيُّ لأتَيْتُهُ))

فما مِن آيةٍ إلا وهو يعلم أين نزلت؟ وفيما نزلت، ومتى نزلتْ، هذا هو المؤمن، إما أنْ تعرف، وإما أنْ تتعلم على من يعرف، وإياكَ أنْ تتكبَّر، أما ألاّ يتعلَّم يدَّعي المعْرفة فهذا شيْطان، ومن الناس من يدْري ويدْري أنَّهُ يدْري فهذا عالمٌ فاتَّبِعوه، ومنهم من يدْري ولا يدْري أنه يدْري فهذا غافِلٌ فنَبِّهوه، ومنهم مَن لا يدْري ويدْري أنه لا يدْري فهذا جاهِلٌ فعَلِّموه، ولكنْ أخْطر واحد أنَّ منهم مَن لا يدْري ولا يدْري أنَّهُ لا يدْري فهذا شيْطانٌ فاحْذَروه، وهذا نِصْف العالِم، وهو خطيرٌ، لا هُوَ عالمٌ فيَنْتَفِعُ بعِلْمِهِ، ولا هو جاهِلٌ فيَتَعَلَّم .

انظر إلى حسن تصرفه مع جسده حتى لا يضيع حق الله عليه :

قال تميمُ بن حَذْلَم:

((جالَسْتُ أصْحاب النبي صلى الله عليه وسلَّم، وما رأيْتُ أحداً أزْهَدَ في الدنيا، ولا أرْغَبَ في الآخرة، ولا أحَبَّ إليَّ أنْ أكون فيه مِن والِهٍ منك يا عبد الله بن مسْعود ، جالَسْتُ أصْحاب رسول الله صلى الله عليه وسلَّم فوَجَدْتُهُم كالإيخاذ، والإيخاذ يرْوي الرَّجُل والرَّجُلَيْن والإيخاذ يَرْوي المئة، والإيخاذ لو نزل به أهل الأرض لأصْدرهم ؛ فوَجَدْتُ عبد الله من ذلك الإيخاذ))

فهناك مُجَمَّعُ ماءٍ يرْوي شَخْصاً واحداً، وهناك مُجمَّع يرْوي المئة، وجمّع آخر يروي ألفًا، ومجمع لو جاء أهل الأرض كلهم لارْتَوَوا منه، فابن مسْعودٍ من النوع الأخير .

قال عبد الله بن يزيد:

((ما رأيْتُ فقيهاً قطّ أقلَّ صَوْماً من ابن مسْعودٍ، فقيلَ له: لمَ لا تصوم، فقال: إني أخْتار الصلاة على الصوم، فإذا صِمْتُ ضَعُفْتُ عن الصلاة))

فَكُلّ شخْصٍ له مزاجُهُ، أحْياناً تجد شخْصاً يتوافق مزاجُهُ مع الصِّيام، وبِالمُقابل تجد أنَّ الآخر إذا صامَ تعَطَّل عن كُلّ أعْماله وتُجَمَّدُ، ولا يستْطيع أنْ يفْعل شيئاً، فَسَيِّدُنا ابن مسْعودٍ كانَ واقِعِياً: إني أخْتار الصلاة على الصوم، فإذا صِمْتُ ضَعُفْتُ عن الصلاة، يبْدو أنَّ تِلاوَتَهُ وقِراءَتَهُ وصلاته وعمله الصالح لا ينْشط لها إلا وهو في الإفْطار، لذلك كان أصْحاب رسول الله صلى الله عليه وسلَّم في سَفَرٍ، بعضُهُم صام وبعضهم الآخر أفْطر، وأجْمَلُ شيءٍ في هَذه الرِّواية، قال: إنَّ الذين صاموا لم يأخُذوا على الذين لم يصوموا، والذين لم يصوموا لم يأخذوا على الذين صاموا، أما الآن إذا صام أحدُهُم عاشوراء، كلما التقى بِشَخْصٍ، يقول له: ألسْتَ صائِماً اليوم؟ ألسْتَ كذا وكذا؟ يُشَهِّر نفسه في هذا اليوم، ويرى أنَّ من لم يَصُمْهُ كأنَّهُ قد ارْتكب جريمة، وهناك أشْخاص ألَمَّ بهم المرض، وآخرون مُتْعَبون، وذاك معه قَرْحَة في المِعِدة، فَكُلُّ واحدٍ له وضْعُهُ الخاص، فلا تَتَدَخَّل، أنت عليك الفرائِض، فإذا وَجَدْته في رمَضان مُفْطِراً فعليك أنْ تُؤاخِذَهُ، أما فيما عداه فَكُلُّ جِسْمٍ له مزاج ووضْع، هناك أعْمالٌ شاقَّة، اُنْظر إلى سيّدنا عبد الله بن مسْعود، قال: إني أخْتار الصلاة على الصوم، فإذا صِمْتُ ضَعُفْتُ عن الصلاة .

سؤال وجه إلى ابن مسعود :

مرَّ أحد الصحابة بِسَيِّدِنا عبد الله بن مسْعودٍ بِسَحَرٍ، وهو يقول:

((اللهمّ دَعَوْتني فَأَجَبْتك، وأمَرْتني فَأَطعْتُك، وهذا سَحَرٌ فاغْفِرْ لي))

ألم يقل النبي عليه الصلاة والسلام:

((يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟))

[أخرجه البخاري عن أبي هريرة في الصحيح]

وهذه نصيحَتي لكم جميعاً، إذا ضاقتْ الأمور، وتريد من الله عطاءً أو فَرَجًا، وكانت الأمور مُعَسَّرة، فعليك ثُلُثُ الليل الأخير:

((يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟))

[أخرجه البخاري عن أبي هريرة في الصحيح]

قال ذلك الصحابيُّ الذي سمع ابنَ مسعود يدعو سحَرًا:

((فلما أصبَحْتُ غدَوْتُ عليه وسألته، فقال: إنَّ يعْقوب لما قال لِبَنيهِ سوف أسْتَغْفِرُ لكم أخَّرَهُم إلى السَّحَرِ- اُنْظر إلى الفَهْمِ الدقيق- سيّدنا يعْقوب، قال: سوف أسْتغْفر لكم ربي، ولماذا لم يقُل: سوفَ أسْتغفر لكم الآن؟ قال: لأنَّهُ يعْلم أنَّ وقتَ السَّحر وَقْتَ إجابة))

ولذلك دعا ابن مسعود في السَّحَر، قائلاً:

((اللهمّ دَعَوْتني فأَجَبْتك، وأمَرْتني فأطعْتُك، وهذا سَحَرٌ فاغْفِرْ لي))

والحمد لله رب العالمين

السيرة - رجال حول الرسول - الدرس (03-50) : سيدنا طلحة بن عبيد الله وسيدنا الزبير بن العوام
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 26-10-1992

بسم الله الرحمن الرحيم

ما العبرة من دراسة سير الصحابة ؟

أيها الأخوة الأكارم، ما دام الإنسان مخلوقاً للدار الآخرة وللسعادة الأبديَّة، فأثمَنُ شيءٍ في هذه الدنيا أنْ يرْضى الله عنه، وهو الذي سوف تكون في رحابِهِ إلى أبد الآبِدين، حيث كان الأمر مع الصحابة رضي الله عنهم بِنَصِّ القرآن الكريم، قال تعالى:

(لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً)

[سورة الفتح الآية: 18]

فإذا درَسنا أفْعال الصحابة ومواقِفَهم وصِفاتِهم وسجاياهُم وتَضْحِياتِهم لا نقْصِدُ من هذه الدِّراسة مجرّد الاطّلاع، ولكن نقْصِد أن نتأسى بهم، وأن نقْتَدِيَ بهم، وأنْ نجْعَلَهم مُثُلاً عُليا لنا، فَلِذلك حينما ندْرس تاريخ الصحابة ينْبغي أنْ تبْقى هذه الفِكْرة ماثِلَة في أذْهاننا، نحن أمام النموذج الذي رضي الله عنه، ماذا فعَلوا؟ وماذا قالوا؟ ولِماذا وقفوا هذه المواقف؟ .

في سيرة الصحابة شيئان: أحْداثٌ و تَحْليلات، فنحن قد نُعْنى بالتحْليلات أكثر مما نُعْنى بالأحْداث؛ لأنّ التحْليل هو القانون والضِّياء والتحْليل وهو النِّبْراس .

المواقف المشرفة التي قدمها الصحابي الجليل طلحة بن عبيد الله في خدمة الإسلام وأهله :

أبو محمّد طلْحَةُ بن عُبَيْدِ الله، هذا صحابيٌّ جليل بعثه النبي صلى الله عليه وسلّم مع سعيد بن زيدٍ قبل خُروجِهِ إلى بدْرٍ، يتَجَسَّسان خبرَ العِير، فَمَرَّتْ بهما، فَبَلَغَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلَّم الخَبَرُ، فَخَرَجَ ورجعا يُريدان المدينة، ولم يعْلما بخُروج النبيّ صلى الله عليه وسلَّم فقَدِما في اليوم الذي لاقى فيه النبي صلى الله عليه وسلَّم المُشْركين، فَخَرَجا يعْتَرِضان رسول الله صلى الله عليه وسلّم، فَلَقِيَاهُ مُنْصَرِفاً من بدْرٍ، فَضَرَبَ لهُما بسِهامِهِما وأجْرِهِما، فكانا كَمَن شَهِدَها.

فالنبيّ عليه الصلاة والسلام يقودُ أُمَّتَهُ قيادة فذة، فالمَعْلومات شيءٌ مُهِمٌّ، فقد بعثَ النبي صلى الله عليه وسلّم طلْحَة مع صحابِيٍّ آخر لِيَأْخُذا خبر العَدُوِّ، فالخبرُ في المعْرَكَة له قيمَةٌ كبيرة، ولا تنْسَوا أيها الأخوة، أنَّ النبيّ عليه الصلاة والسلام أبْقى عَمَّهُ العباس في مكّة يوْمَ كان المُشْركون يتولَّوْن أمْرهم،

لِيَأتيهِ بالأخْبار، فقد كتَمَ إسْلامه، وكتَمَ العَباسُ كذلك إسْلامه، ولم يُفاجأ النبي عليه الصلاة والسلام بأيٍّ حدثٍ من قريْشٍ، لأنَّ المعْلومات كانت تأتيهِ تِباعاً من عمِّهِ العباس ، لكن وقعتْ مُشْكِلةٌ في مَوْقِعَة بدْر حينما شارك العَباس المُشْركين في هذه المَوْقِعة، فلو لم يُشارك لَكُشِفَ أمْرُهُ، ولو أنَّ النبي عليه الصلاة والسلام، قال: لقد أسْلَمَ عمِّي لَكَشَفَهُ، وانْتَهتْ مُهمَّتُهُ، ولكنَّهُ قال: لا تقْتُلوا عمِّي العَباس، ولو لم يقُل ذلك لَقَتَلَهُ أصْحاب النبي صلى الله عليه وسلّم، إنْ تكلَّمَ العباسُ كَشَفَ أمْرهُ، وإنْ لم يُشارك في المعْركة كُشِف، وإنْ قال النبي صلى الله عليه وسلّم أسْلم كَشَفَهُ المشركون، وإنْ سكت صلى الله عليه وسلّم قتلهُ أصْحابُهُ، فلا بدّ من تنْبيه الصحابة ألاّ يقْتُلوا عمَّهُ العَباس، وكان من جراء ذلك أنَّ صحابيًّا أساء الظنّ برَسول الله صلى الله عليه وسلّم، وقال: ينْهانا عن قتْلِ عمِّهِ، وأحَدُنا يقْتُلُ أباهُ وأخْوانهُ! فلما كُشِفَ له الأمر بَقِيَ عشْرَ سِنين يتصَدَّقُ ويُعْتِقُ الرِّقاب، لعلَّ الله يغْفِرُ له سوءَ ظَنِّهِ برَسول الله صلى الله عليه وسلّم، فالمعْلومات ضروريَّةٌ في أيِّ قِيادة، والنبي صلى الله عليه وسلّم أرْسَلَ طلْحَة بن عُبيْدِ الله لِيأْتِيَهُ بالأخْبار، لأنَّ قرارَ المعْركة أساسه الخبرُ الصحيح، والحَرْبُ كما قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((الْحَرْبُ خَدْعَةٌ))

[أخرجه البخاري عن جابر في الصحيح]

شَهدَ طلْحَةُ أحُداً، وثبتَ مع رسول الله صلى الله عليه وسلّم يومئِذٍ، ووقاهُ بيَدِهِ فَشُلَّتْ إصْبعاهُ، وجُرِحَ يومئِذٍ أربعاً وعشرين جِراحَةً، ويُقال: كانت فيهِ خَمْسٌ وسبْعون بين طعْنَةٍ وضَرْبَةٍ ورَمْيَةٍ، وسَمَّاهُ رسول الله صلى الله عليه وسلّم يومَ أُحُدٍ (طلْحَة الخَيْر)، وسمَّاه يومَ غزْوة ذات العُشَيْرة (طلْحَة الفياض)، وسمَّاه يوم حُنَيْنٍ (طلْحَة الجود)، فهذه مواقف مُشَرِّفَةٌ وقفها هذا الصحابيُّ الجليل .

ما الذي ينبغي أن تفعله أيها الإنسان قبل مضي الزمن ؟

أيها الأخوة، إنَّ الأحْداثَ تمْضي، والآلام تنْتهي، والمَوْتُ يُنْهي كُلّ شيءٍ، وتَبْقى المواقِفُ المُشَرِّفَة التي يسْعَدُ بها الإنْسانُ إلى الأبد، وكُلّ شيءٍ ينقضي، فاللَّذائِذُ تمْضي وتبْقى تَبِعاتُها، والمتاعِبُ تمْضي وتبْقى خَيْراتُها .

قرأتُ كِتاباً عن تاريخ العَرَب، وهو كِتابٌ أدَبيٌّ مُمْتِعٌ اسْمُهُ: قَصَصُ العَرَب، فيه من القِصص المُمتِعة الشيءُ الكثير، بعد أنْ أنْهَيْتُ قِراءَته تأمَّلْتُهُ تأمُّلاً طفيفاً، قُلتُ: هؤلاء الذين قرأتُ عنهم، الأقْوِياءُ ماتوا، والضُّعفاء ماتوا، والأغنياءُ ماتوا، والأصِحاءُ ماتوا، والمرْضى ماتوا، والأذْكياءُ ماتوا، والأغْبياء ماتوا، والظالمون ماتوا، والمظْلومون ماتوا، وكُلُّهم تحت أطْباق الثرى ؛ ماذا بَقِيَ الآن؟ بَقِيَتْ مواقِفُهُم التي سَيُحاسَبون عليها، إنْ خيراً فَخَيْرٌ، وإنْ شراً فَشَرٌّ، ونحن لا بد من يومٍ نكون فيه تحت أطْباق الثرى، هذا

الوقت، كيفَ أمْضَيْتَهُ؟ في طاعَةٍ أم في معْصِيَةٍ، ماذا فَعَلْتَ؟ وماذا أدَّيْتَ؟ وماذا قَدَّمْتَ؟ وماذا أعْطَيْتَ؟ وبماذا ضَحَّيْتَ؟ وما الأثر الذي تَرَكْتَهُ؟ .

هذه النُّقْطة مُهمَّةٌ، يجب أن نذكرَ دائِماً أنَّ الأيام والأسابيع والشهور والسِّنون تمْضي، ويبْقى شيءٌ واحدٌ، هو العَمَل، إما في جنَّةٍ يدومُ نعيمُها، أو في نارٍ لا ينْفَدُ عذابُها .

إليكم مناقب هذا الصحابي الجليل :

فعَنْ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ، قَالَ:

((كَانَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دِرْعَانِ يَوْمَ أُحُدٍ فَنَهَضَ إِلَى الصَّخْرَةِ فَلَمْ يَسْتَطِعْ، فَأَقْعَدَ طَلْحَةَ تَحْتَهُ، فَصَعِدَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ حَتَّى اسْتَوَى عَلَى الصَّخْرَةِ، فَقَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: أَوْجَبَ طَلْحَةُ))

[أخرجه الترمذي في سننه]

أيْ وجَبَتْ له الجنَّة، لأنَّهُ ماذا فعَلَ؟ أظْهر من المواقفِ والتَّضْحِيات الشيءَ الذي لا يوصَفُ، فَطَلْحَةُ برَكَ على الأرض، وصعد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلَّم لِيَرى بعض ملامِحِ المعْركة، فجَعَلَ من نفْسِهِ كُرْسِياً للنبي عليه الصلاة والسلام .

وقالتْ عائِشَةُ رضي الله عنها:

((كان أبو بكرٍ رضي الله عنه إذا ذُكِر يومُ أحُدٍ، قال: ذلك كُلُّهُ يوم طلْحة))

وقال أبو بكرٍ رضي الله عنه:

((كُنْتُ أوَّلَ من جاءَ يومَ أحُدٍ، فقال لي النبي عليه الصلاة والسلام ولِأبي عُبَيْدَة بن الجراح: عَلَيْكما به (يُريدُ طلْحة) وقد نزفَ، فأصْلَحْنا من شأن النبي صلى الله عليه وسلَّم، ثمَّ أتَيْنا طلْحة في بعض تِلك الحِفار فإذا به بِضْعٌ وَسَبْعون أو أقلّ أو أكثر، بين طَعْنَةٍ وضَرْبَةٍ ورَمْيَةٍ! وإذا قد قُطِعَتْ إصْبعُهُ، فأصْلَحْنا من شأنِهِ))

فقد بذل سيّدنا طلْحة في غزوة أحد الشيء الكثير .

((النبي عليه الصلاة والسلام دَمِيَتْ يدُهُ في الخَنْدَق، فعَنْ جُنْدَبٍ الْبَجَلِيِّ، قَالَ: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غَارٍ فَدَمِيَتْ إِصْبَعُهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

هَلْ أَنْتِ إِلَّا إِصْبَعٌ دَمِيتِ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيتِ

قَالَ: وَأَبْطَأَ عَلَيْهِ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَام، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: قَدْ وُدِّعَ مُحَمَّدٌ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى:

(مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى)))

[أخرجه الترمذي في سننه]

طلحة من أولئك الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه :

عن موسى بن طلْحة عن أبيه طلْحة بن عُبَيْد الله، قال:

((لما رجَعَ رسول الله صلى الله عليه وسلَّم من أحد صَعِدَ المِنْبر، فحَمِدَ الله وأثنى عليه، ثمّ قرأ هذه الآية قال تعالى:

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً)

[سورة الأحزاب الآية: 23]

فقام إليه رجُلٌ، وقال: يا رسول الله! من هؤلاء؟ قال سيّدنا طلْحة: فأقْبَلْتُ وعليَّ ثوْبان أخْضران، فقال عليه الصلاة والسلام: أيُّها السائل، هذا منهم وأشار إلى سيّدنا طلْحة))

ألا تَكْفي هذه الشهادة من رسول الله، أحْياناً يقول لك شخْصٌ: معي شهادة موقَّعة من البروفِيسور الفُلاني، وهو أكبر جراح في العالم، يُمْكن أنْ يفْتَخر بهذا افْتِخاراً لا حُدود له، فَكُلَّما ارْتفع مقامُ الذي يُثْني عليك يكون لِهذا الثناء قيمة، فكيف إذا أثنى عليك النبـي عليه الصلاة والسلام؟ .

لو أرَدْنا أنْ نسْتفيد من هذا المَوْقف، حينما يُشْعِرك الله عز وجل بطَريقةٍ أو بأخرى، برُؤْيا أو ثناءٍ صادِقٍ من أهل الحق أو بِسَعادةٍ يُلْقيها في قلبك أنه راضٍ عنك، فهذه أسْعد لحظات المؤمن .

وبالمُناسَبَة كلِمَةُ (رجُلٍ) في القرآن والسُّنَّة لا يعْني في الأعَمِّ الأغلب أنَّهُ ذكَرٌ، بل يعْني أنَّهُ بطلٌ، وفي أقْوال الصحابة الكِرام ما يدْعَمُ هذا المعْنى، فسيِّدنا سعدُ بن أبي وقاصٍ، قال:

((ثلاثة أنا فيهنَّ رجُلٌ (أيْ بطل) وما سِوى ذلك فأنا واحِدٌ من الناس، ما صَلَّيْتُ صلاةً فشُغِلَتْ نفْسي بغيرها حتى أقْضِيَها، ولا سِرْتُ في جنازَةٍ فحَدَّثتُ نفْسي بغَيْر ما تقول حتى أنْصَرِفَ منها، ولا سَمِعْتُ حديثاً من رسول الله صلى الله عليه وسلَّم إلا عَلِمْتُ أنَّهُ حقٌّ من الله تعالى))

فالرُّجولة أنْ تُصَدِّقَ أقوال النبي عليه الصلاة والسلام، والرُّجولةُ أنْ تُصَلي صلاةً كما أرادها الله عز وجل، والرُّجولة أنْ تتَّعِظَ بالمَوت، لأنَّ الموت كما قال عُمَر:

((كفى بالموت واعِظاً يا عُمر))

هل يرفع الإنسان مقامه عند الله إذا حصل على شهادة الرضا أو الذم من الناس ؟

أيها الأخوة، قلت قبل قليل: المصير إلى الله عز وجل، فحينما يُدْفَنُ العبد في القبر يقول الله عز وجل: عبدي رجَعوا وتَرَكوك، وفي التُّراب دفنوك، ولو بقوا معك ما نفعوك، ولم يبْقَ لك إلا أنا، وأنا الحيّ الذي لا يموت .

ذكروا في الأخبار أنهم كشَفوا إنْساناً تحت أنْقاض الزِّلْزال، بقي حيًّا بعد إحْدى وثمانين ساعة، وإلى جانِبِهِ امْرأته وأُمُّهُ قد ماتتا، شُعور الإنسان حينما ينْهار عليه البيت، ويُصْبِحُ تحت الأنْقاض، هذا شُعورٌ مُخيف، لماذا نخاف الزِّلزال ولا نخاف القبر؟ أليس القبر يُشْبِهُ بشَكْلٍ أو بآخر دمار الزِّلْزال؟ يوضع الإنسان في هذه الحُفْرة ثمّ يُهيل عليه الحُفَّارُ التراب، وينْصرفُ الناس عنه، هذا معنى رجَعوا وتَرَكوك، وفي التُّراب دفنوك، ولو بقوا معك ما نفعوك، ولم يبْقَ لك إلا أنا ، وأنا الحيّ الذي لا يموت، فما دام المصير مع الله، في جنَّةٍ عرْضُها السموات والأرض أو -والعِياذ بالله- في نارٍ لا ينْفذ عذابها، فأثمن شيءٍ في الدنيا، وأعظمُ مرتَبَةٍ تنالها أنْ يرضى الله عنك، الله عز وجل يُعْطي القُوَّةَ لِلْناسِ ولا يُحِبُّهم، ويُعْطي المال لِلْناسِ ولا يُحِبُّهُم، ولكن إذا رضي الله عنك فهذا أعظمُ مَطْلَبٍ تناله .

فَنَحْنُ الآن ندْرسُ سيرة الذين رضي الله عنهم، ماذا فعلوا؟ أحْوالهم وأفْعالهم وأعْمالهم ومواقِفُهم، مِن هذا المُنْطَلَق، سيِّدنا طلْحة لو تحَدَّثنا عنه مئة مرَّة، هل يزْدادُ مقامُهُ عند الله عز وجل؟ لا واللهِ، وكذلك لو سَكَتْنا عنه، هل يُنْقصُ مقامُهُ؟ لا، ولو أنَّ رجُلاً ذمَّه، هل ينْقصُ مقامُهُ؟ مقامُهُ هو مَقامُهُ، كُلُّ إنْسانٍ بِحَسَبَ إخْلاصِهِ وعملِه، وله عند الله مقامٌ ومكَانة، وهذه المكانة لا يرْفَعُها المادِحون، ولا يَخْفِضُها الذامون، فلو أنَّ الناسَ جميعاً أثنوا عليك، ولم يكُن خالقُك راضٍ عنك فأنت الخاسِرُ الوحيد، ولو أنَّ الناس جميعاً ذَمُّوك وأنت عند الله مَرْضيٌّ، فكُلّ هذا عند الله لا قيمة له، فنحن ندْرس مواقف الذين رضي الله عنهم .

كيف نؤول كلمة رضا الله على الإنسان ؟

أيها الأخوة، فَرضا الله عليك قد يكون بالتيْسير لك، فالأمور مُيَسَّرة، قال تعالى:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى * وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى * إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى * وَإِنَّ لَنَا لَلْآَخِرَةَ وَالْأُولَى)

[سورة الليل الآية: 5-13]

أحْياناً التَّيْسير علامة من علامة رضا الله عنك، وأحْياناً إذا انْطلق لِسانُك في الدَّعْوة إلى الله ، ورأيْتَ المعْلومات تزْدَحِمُ، واللّسانُ طليق، والتأثيرُ قويّ، قال تعالى:

(مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً)

[سورة الكهف الآية: 51]

هذه علامة توفيق من الله لك .

لذلك هناك من يجْعل وِرْدَهُ ذِكر الله تعالى، لِقَوْله تعالى:

(وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً)

[سورة الإنسان الآية: 25]

فإذا انْقطَعَ نفَسُهُ، يقول: إلهي أنت مقصودي، ورضاك مطْلوبي، فإذا أرَدْتَ رضاء الله في كُلّ أحْوالك انْقَلَبَت المُباحات إلى عِباداتٍ .

ما قيمة المال عند هذا الصحابي الجليل ؟

قال أحدُ الصحابة:

((دخَلْتُ على طلْحَة فرأيْتُهُ مغْموماً، فقُلْتُ: ما شأْنُك؟ قال: المال الذي عندي قد كثُر وكرَبَني ـ ما هؤلاء الأشْخاص؟ إذا كثُر مالُهم أصابهم الكَرْب، لأنَّ المال عِبءٌ .

فعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، قَالَ:

((لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ: عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ جَسَدِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ؟ وَفِيمَا وَضَعَهُ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ فِيهِ؟))

[أخرجه الدارمي في سننه]

ـ فهذا الصحابي، قال: المال الذي عندي قد كثُر وكرَبَني، قُلْتُ: وما عليك، اِقْسِمْهُ، فقَسَمَهُ حتى ما بَقِيَ منه دِرْهم

إنْفاق المال يُعْطي الإنسانَ سعادَةً كُبْرى، والله يُعَوِّض، قال تعالى :

(قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ)

[سورة سبأ الآية: 39]

اشترى طلحة أرضاً له من عُثمان بِسَبْعمئة ألفٍ، فحَمَلَها إليه، ولما جاء بها، قال: إنَّ رجُلاً تبيتُ هذه عنده لا يدْري ما يطْرُقُه من أمر الله لَغَريرٌ بالله، لأنَّ الله عز وجل يقول:

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ)

[سورة الانفطار الآية: 6]

من عَدَّ غداً من أجَلِهِ فقد أساء صُحْبَة الموت، هناك رجُلان اخْتلفا على بيْع بيْتٍ، وكَلَّفاني أنْ أكون بيْنهما حَكَماً، جَلَسْتُ معهما وقتاً طويلاً، أحدُ الطَّرَفَيْن لم ينْصَاعْ لِحُكْم المحكمين، واسْتَمَرَّ الخِلاف أربع أو خمسَ سنواتٍ أو أكثر وأنا أتابعُ هذا الخِلاف، كُلِّفَتْ لجْنَةٌ ولجْنة ومُحَكَّمون، والأمر يزْدادُ تخاصُماً، فأُخْبِرْتُ الأمس أنَّ أحدَ الخصْمَيْن توفاهُ الله عز وجل، هذه هي الدنيا، كلّ هذه المتاعب، ثمّ يأتي مَلَك الموت، ويُنْهي هذه المتاعب، فالإنسانُ عُمُرُهُ ثمينٌ، فإذا أمْضاهُ في الخُصومات، واسْتَهْلك أعْصابه

ووقته وحواسَّهُ وقُدْراته، فقد قامَرَ بسعادته الأبدِيَّة، وغامر في شيء زائل، فأكثر الدعاوي تبقى في القضاء سنوات عديدة، عشرًا أو نحو ذلك، وفي الأعمِّ الأغْلب يموتُ أحدُ المُتَخاصِمَين قبل أنْ يُفْصَلَ بالدعوى، فمن عدَّ غداً من أجله فقد أساء صُحْبَة الموت .

هذا الصحابي الجليل قُتِل يوم الجمل، عن عُمُرٍ لا يتجاوز الاثنين والسِّتين عاماً فيما تذْكُر الرِّوايات .

ترجمة عن حياة هذا الصحابي الجليل الزبير بن العوام :

صحابيٌّ آخر اسمه الزُّبَيْر بن العَوام، هذا الصحابي كما ترْوي أُمُّهُ صَفِيَّة بن عبد المُطَّلِب عَمَّةُ رسول الله صلى الله عليه وسلَّم أسْلَمَتْ وأسْلم الزُّبير وهو ابن ثماني سنين، وقيل: ابن ست عشْرة سنة، فَعَذَّبه عمُّهُ بالدُّخان، لِكَي يتْرُك الإسلام فلم يفْعل، وهاجر إلى أرض الحَبَشَة الهجْرَتين جميعاً، ولم يتَخَلَّف عن غزوةٍ غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلّم .

يقول أحدهم: أنا لا أَتَخَلَّفُ عن الدرس، ولكن ماذا في الدروس؟ لا عِبءٌ ولا تضْحِيَة ولا سَفْك دم، ومع ذلك لُزوم مجالس العِلْم عَمَلٌ عظيمٌ، وهذا الوقت زكاةُ وقْتِكَ كُلّه، والله عز وجل قادِرٌ على أنْ يُضَيِّع لك عشرات الساعات بل المئات في الأمور التافِهَة، وإذا أدَّى القويُّ من قوَّته لِنُصْرة الحق فقد أدَّى زكاة قُوَّتِه، والمُتَعَلِّم إذا علَّم الناس أدى زكاة عِلْمِه، والخبير إذا أدى خِبْرَته للناس أدى زكاة خِبْرته، وطالب العلم إذا بذل وقته لِمَعْرفة الله عز وجل فقد أدى زكاة وقْتِهِ، والحقيقة أنَّ كلَّ حظٍّ آتاك الله إياه فهو له زكاة، والدليل قوله تعالى:

(ومما رزَقْناهم يُنْفِقون)

(سورة السجدة الآية: 16)

وهو أوَّل من سلَّ سيْفاً في سبيل الله، وكان عليه يوم بدْرٍ ريقةٌ صفْراء مُعْتَجِراً بها، أيْ قُماشٌ أصْفر لَفَّهُ على رأسه، وكان على مَيْمَنَة رسول الله، وثبت مع النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد، وبايَعَهُ على الموْت، وفي الحقيقة حين يبْذل الإنسان حياته في سبيل الله فقد بذل أثمن ما يَمْلكه، والجود بالنَّفْس أقْصى غاية الجود .

من أبْنائِهِ المشْهورين: عبد الله بن الزبير، هذا الذي رآه عمرُ مع صِبْيَةٍ يلعبون فَتَفَرَّقوا جميعا إلا هو، فلما وصَلَ إليه، قال:

((يا غُلام لما لم تهْرُب مع من هرَبَ؟ قال: أيها الأمير، لسْتَ ظالِماً فأخْشى ظُلْمَك، ولَسْتُ مُذْنباً فأخْشى عِقابك، والطريق يَسَعُني ويَسَعُك))

درجته في الإسلام :

تَرْوي كُتُب السيرة أنَّ إسلام هذا الصحابي الزبير بن العوام، كان رابعاً أو خامِساً بعد إسْلام أبي بكرٍ، هؤلاء السابقون الأولون، والإنسانُ في ساعة العُسْرة إذا آمن فله حِسابٌ خاص، لذلك قال الله عز وجل:

(لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ)

[سورة آل عمران الآية: 113]

فالذي آمن مع النبي عليه الصلاة والسلام في أشدِّ حالات الضعْف والعُسْرة والضِّيق، والناسُ كلهم أعْداؤُهُ، وقُريش تكيد له، فهذا من ذوي البذل والتضحية، أما الذي يُسْلم بعد الفَتْح فالقَضيِّة سهْلة، لأن هذا جاء للمغانم فقط، لكن البطولة أن تؤمن بالحق وهو ضعيف، والله عز وجل قادر أن يجعل الأنبياء ملوكا، فإذا دعوا إليه انصاع الناس إليهم جميعا خوفا لا إيمانا، ولكن لحكمة أرادها الله عز وجل جعل الأنبياء ضعافا، حيث إنك لو قلت عنه: إنه مجنون أو ساحر أو كاهن أو شاعر، فإنك تنام مساءً مطمئنّ البال، ولا شيء عليك، من أجل أن يكون مَن آمن به قد آمن به عن قناعة ما بعدها قناعة، وله أجرٌ عظيم، وهذا أيضا ينسحب بشكلٍ أو بآخر على الدعاة إلى الله، لأن هذا الداعي ليس عنده شيء، لا يقدر أن يعينك بمنصب، ولا يقدر أن يعطيك مالاً، وليس عنده أيّة ميزة، إلا أن الحق معه، فإذا اتبعته وسرت على منهج الله عز وجل بمعيته، ولم يأتك شيء من الدنيا فقد أثبت أنك مع الحق، فقوّة المؤمنين تكمن في أنهم آمنوا بالنبيّ وهو ضعيف، قال تعالى:

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

[سورة الأعراف الآية: 188]

إليكم مواقفه :

عن سعيد بن المسيّب، قال:

((أوّل من سلّ سيفاً في سبيل الله الزبير بن العوام، بينا هو بمكة - في اللغة العربية يصح أن تقول بينا، ويصح أن تقول بينما- بينا هو بمكة إذ سمع نغمة ، (يعني صوتاً) بأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قد قتل، فخرج عرياناً وما عليه شيء، وفي يده السيف مُصلتاً مسحوبا من غِمده، فتلقاه النبي، وقال له: ما لك يا زبير؟ قال: سمعت أنك قد قُتلتَ، قال: فماذا كنتَ صانعًا؟ قال: أردتُ واللهِ أن استعرض أهل مكة بهذا السيف، من شدّة حبّه للنبي عليه الصّلاة والسلام، فدعا له النبي عليه الصلاة والسلام))

باع الزبيرُ داراً له بستمئة ألف، قال: فقيل له: يا أبا عبد الله غُبِنتَ، قال: كلا، واللّه لتعلمنَّ أني لم أُغبَن، هي في سبيل الله .

أعجبني في هذا الموضوع موقفا رائعا، اختلف اثنان على مبلغ، كلٌّ يدّعي أنه له، وكان الحلُّ أن يُدفع هذا المبلغ لعملٍ صالح بكامله، وكل إنسان يأخذ أجره عند الله عز و جل بنصيبه الحقيقيِّ منه .

وعن عليِّ بن زيدٍ، قال:

((أخبرني من رأى الزبير، وإن في صدره مثلُ العيون من الطعن والرمي))

أحيانا يفتخر الإنسان بآثار خوضه للمعارك، وآثار خوضه للغزوات، كلها تشهد له يوم القيامة، كيف أن أهل المعصية تشهد عليهم جلودهم وأيديهم وأرجلهم، كذلك أهل الإيمان تشهد لهم؟ هناك فرقٌ كبير بين مَنْ تشهد لهم، ومَنْ تشهد عليهم؟ .

قال الزبير بن العوام:

((من استطاع منكم أن يكون له جَنْيٌ من عملٍ صالح فليفعل))

وهذا الموضوع دقيق، فكل إنسان له مقام عند الله بحجم عمله الصَّالح، فالإنسان يحاسب نفسه حساباً عسيرًا، فإن حاسب نفسه في الدنيا حسابا عسيراً كان حسابه يوم القيامة يسيرًا، وإن حاسبها حسابا يسيرا كان حسابه يوم القيامة عسيرا .

إليكم وصيته لابنه عبد الله بن الزبير :

عن عبد الله بن الزبير، قال:

((جعل الزبيرُ يوم الجمل يوصيه، يقول: إن عجزتَ عن شيء فاستعن عليه بمولاي، قال: فو الله ما فهمتُ ما أراد حتى قلتُ: يا أبت من مولاك؟ قال: الله -والإنسان كلما قوي إيمانه تمتَّنتْ علاقته بالله عز وجل، ويطلب من الله مباشرة، والناس ينهمكون بالوسائط وبالأسباب، أمّا سيدنا زكريا فقد سأل الله عز وجل، ولم يحرك شفتيه، قال تعالى:

(إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً)

[سورة مريم الآية: 3]

فعلامة إيمان المؤمن أنّه يطلّب حاجاته من الله عز وجل، ويسأله، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم:

((لِيَسْأَلْ أَحَدُكُمْ رَبَّهُ حَاجَتَهُ كُلَّهَا حَتَّى يَسْأَلَ شِسْعَ نَعْلِهِ إِذَا انْقَطَعَ))

[أخرجه الترمذي في سننه]

- قال عبد الله بن الزبير: فو الله ما وقعْتُ في كُرْبة من دَيْنٍ إلا قُلْتُ: يا مولى الزبير اِقْضِ عني فَيَقْضيهِ

إليكم ورع هذا الصحابي الجليل الزبير بن العوام :

هذا الصحابي كان الناس يضَعون عنده المال ثِقةً به، من شِدَّة ورَعِهِ كان يقول لهم: سَلَفٌ وليس أمانة، إذْ الأمانة لو تَلِفَتْ فهي على صاحِبِها، فما دام لم يُصِبْها عُدْوانٌ ولا تقْصير فالمُؤْتَمَنُ ليس ضامِناً، فكان هذا الصحابي لِشِدَّة وَرَعِهِ إذا أخذ مالاً لِيَكون أمانة عنده عدَّهُ دَيْناً عليه، فإذا تَلِفَ كان عليه أنْ يرُدَّهُ، وقف هذا المَوْقف وألزم نفسه به ورعًا .

وفي التاريخ قِصَّة، وهي أنّ زوْج بنْت النبي عليه الصلاة والسلام أبو العاص، كان في طريقه من الشام إلى مكّة، فسرية من سرايا النبي عليه الصلاة والسلام أخَذَتْهُ أسيراً مع بضاعَتِهِ، وجيءَ به أسيراً إلى المدينة، معه بضاعَة لِقُرَيْش، فعرضوا عليه الإسلام، فإذا أسلم أصْبَحَتْ هذه البضاعة غنائِم، فرَفَضَ أنْ يُسْلم، والنبي عليه الصلاة والسلام لِسَبَبٍ أو لآخر أمر بإطْلاق سراحِهِ مع البضاعة، وذهب إلى مكَّة وأدَّى المال لِأصْحابه، وبعد أنْ أعْطى كُلَّ ذي حقٍّ حقَّهُ وقف، وقال : أشهد أنْ لا إله إلا الله وأنَّ محمَّداً رسول الله، وعاد إلى المدينة، وانْخَرَط مع أصْحاب النبي، فلما قيل له: لمَ لمْ تُسْلم يوم كنت في المدينة، ومعك البِضاعة؟ قال هذا الصحابي زَوْجُ بِنْت النبي صلى الله عليه وسلّم: والله ما أُحِبُّ أنْ أبْدأ إسْلامي بهذا! ما أراد أنْ يبْدأ إسْلامه بأكْل مال الناس ظُلْماً، بعد أنَّ أدى المال لأصْحابه أسلَم، والمال الذي عند الزبير أمانة، لكنه جعله دينا عليه حتى يضمن لصاحبه هذا المبلغ لو تلف .

وقصة ابنه عبد الله معروفة، فحينما أرسل إلى معاوية بن أبي سفيان، يقول: أمّا بعد، فإن رجالك قد دخلوا أرضي فانهَهُم عن ذلك، وإلاّ كان لي ولك شأنٌ، والسّلام، فقال معاوية لابنه يزيد: ما قولك؟ قال: أرى أن ترسل إليه جيشًا أوّله عنده، وآخرُه عندك، فيأتوك برأسه، فقال: غير ذلك أفضل، فكتب معاويةُ كتاباً قال فيه: أمّا بعد، فقد وقفتُ على كتاب ولد حواريِّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولقد ساءني ما ساءه، والدنيا هيِّنة جنب رضاه، لقد نزلتُ له عن الأرض ومن فيها، فجاء الجواب، أما بعد، فيا أمير المؤمنين، أطال الله بقاءك ولا أعدمك الرأي الذي أحلّك من قومك، فاستدعى ابنه يزيد، وقال له: يا يزيد من عفا ساد، ومن حلُمَ عظم، ومن تجاوز استمال إليه القلوب .

ماذا نستنبط من حياة صحابة رسول الله ؟

من خلال هذه المواقف: نجد في أصحاب النبيِّ ورعاً ما بعده ورع، وزهدا ما بعده زهد ، وتضحية بالغالي والرخيص، والنفس والنفيس، في سبيل الحق، فإذا أردتم أن يرضى الله عنكم فعليكم بالورع، كما في الحديث:

((ركعتان من ورع خير من ألف ركعة من مخلّط))

[ورد في الأثر]

ومن لم يكن له ورعٌ يصده عن معصية الله إذا خلا لم يعبأ الله بشيء من عمله، هذا في الورع، أما الزهد فهو انتقال الدنيا من قلبك إلى يديك، إن كانت في القلب فهي مصيبة، لأن القلب إذا أحبَّ الدنيا حبًّا جمًّا كان له هذا الحب حجابا عن الله عز وجل، والدنيا أحيانا يمكن أن تسهم في خدمة الخلق، في حلّ مشكلات الناس، في الرقيِّ عند الله عز وجل، فالقاسم المشترك هو الورع والزهد والتضحية والحبُّ، فحبهم للنبيِّ عليه الصّلاة والسلام كان من أعظم ما يميِّز هؤلاء عن الأبطال، سيِّدنا أبو سفيان حينما رأى سيدنا خبيبًا قبيل أن يُصلَب، سأله:

((أتحب أن يكون محمدٌ مكانك، وأنت في أهلك؟ فانتفض خبيب، وقال: والله ما أحبُّ أن أكون في أهلي وولدي وعندي عافية الدنيا و نعيمها ويصاب رسول الله بشوكة))

لذلك قال أبو سفيان:

((ما رأيتُ أحداً يحبُّ أحداً كحبِّ أصحابِ محمدٍ محمداً))

هذه أربعُ نقاطٍ تستنبط من حياة أصحاب النبيِّ عليهم رضوان الله، لذلك هؤلاء الذين رضي الله عنهم هكذا كانوا، وهكذا ينبغي أن نكون حتى يرضى الله عنَّا .

والحمد لله رب العالمين

السيرة - رجال حول الرسول - الدرس (04-50) : سيدنا عبد الرحمن بن عوف

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-11-02

بسم الله الرحمن الرحيم

من هو العظيم عند الله ؟

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس الرابع من دروس سير صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصحابي اليوم؛ سيُّدنا عبد الرحمن بن عوف، وقبل أن نبدأ الحديث عن هذا الصحابي الجليل لا بدَّ من مقدمة .

خلاصة المقدمة هي أن أصحاب النبي عليهم رضوان الله بمجموعهم يمثلون كل النماذج البشرية، ففي كل مجتمع غنيٌّ وفقير، قويٌّ وضعيف، شابٌ وكهلٌ وشيخ، صحيح ومريض، ذو نسب عالٍ، وذو ضآلة في النسب، هذه الحظوظ التي وزَّعها الله بين البشر موجودة في كل مجتمع

لذلك يجب أن نعلم أن الإنسان إذا عرف الله واتصل به، واصطبغ بصبغته ارتقى إلى مرتبة عالية، فإذا كان غنيًّا اشتهيْتَ الغنى عليه، وإذا كان فقيراً لا ترى الفقر ضيراً على مؤمن، وإذا كان صحيحاً جعل صحته في سبيل الله، وإذا كان مريضاً رأيتَ فيه الصبر والسلوان، وإن كان وجيهاً استخدم وجاهته في الحق، وإن كان خاملا استغنى برضاء الله عن الدنيا، الذي أريد أن أؤكّده لكم أنه بأيِّ حال أنت، بأيِّ وضع اجتماعيٍّ، بأيَّة قوة، بأيِّ ضعف، بأيِّ غنى، بأيِّ فقر، بأيِّ وجاهة، وبأيِّ خمول، بأي وَسَامةٍ، وبأيِّ دمامة، فإذا عرفت الله عز وجل، و طبَّقتَ منهجه، واصطبغت بصبغته كنتَ إنساناً عظيما .

قد يظن الناس واهمين أن الغنى يتناقض مع الإيمان، من قال ذلك؟ يمكن أن تكون أغنى أغنياء الأرض، وفي أعلى درجات الإيمان والقبول عند الله عز وجل، يمكن أن تكون من أقوى الأقوياء وأنت مؤمن، لماذا حدثنا ربنا عز وجل عن ذي القرنين؟ كان ملكاً، ولا يتنافى الملكُ مع الإيمان، فقد تكون فقيراً وأنت عند الله عظيم .

في نفسي معنى أرجو الله أن يمكنني من التعبير عنه، لا تقل: أنا ابن فلان، لا تقل: أنا لي نسبٌ رفيع، أو لي نسب وضيع، لا تقل: أنا فقير، لا تقل: أنا شاب، كن ابن من شئتَ، في أيِّ حالٍ شئتَ، وفي أيِّ طور شئت، وفي أيِّ مستوى شئتَ، فإذا عرفتَ اللهَ، وعرفتَ منهجه، وطبَّقتَ شرعَه، وأقبلتَ عليه، واصطبغتَ بصبغته، فأنت عند الله عظيم .

ما هو المقصود من هذا الدرس ؟

نحن اليوم مع صحابي كان من أغنى الصحابة، سأُريكم كيف يكون الغنى مــع الإيمان؟ قد يقول أحدكم: قد مرَّ بنا تاريخ الصحابة كثيرًا في أوقات خلتْ، فأقول: كلكم يعلم أنَّ في التعليم الإعدادي والثانوي والابتدائي مثلاً نصًّا للمتنبيِّ، قد تجده في كتاب الصف الخامس، وتجده في كتاب الصف الثامن، والنص نفسه تجده في كتاب الصف الحادي عشر، والنص نفسه يدرسه طلاب الجامعة في السنَّة الثالثة في الأدب العباسي، أن يكون النص واحدا في كل هذه المراحل، هل يعني ذلك أن مستوى التدريس واحد؟ لا، نحن عندما كنا في الجامعة كان الأستاذ رحمه الله يمضي ساعتين في شرح بيتين من الشعر، فيظل يشرحها، ويحللها، ويبيِّن معنى كلماتها، و معنى تراكيبها وصورها، إلى أن يشخب هذان البيتان دمًا .

فلذلك ولو أن هذا الصحابي معروف عندكم، ولكن لا أريد في هذه الدروس الجديدة من السيرة أنْ أكتفي بسرد الوقائع، هذه قد تجدونها في كتب السيرة، والكتاب يغني عن الدرس، لكنْ أرجو الله عز وجل أنْ يوفّقني إلى تحليل هذه الوقائع، ومركز الثقل في هذا الدرس هو التحليل وليس السرد .

إليكم قصة قافلة عبد الرحمن بن عوف التي هزت عرش المدينة وما وراءها من أحداث :

مرة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم سُمِع في المدينة ضجيجٌ، وتعالى غبارٌ في الأفق، فسألت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وقد ترامى إلى سمعها أن قافلة عظيمة زاحفة إلى المدينة: ما هذا الذي يحدث في المدينة؟ فقالوا لها: يا أم المؤمنين، إنها قافلة لعبد الرحمن بن عوف، جاءت من الشام تحمل تجارة له، قالت أم المؤمنين: قافلة تحدث كل هذه الضجَّة! قالوا: أجل يا أم المؤمنين، إنها سبعمئة راحلة .

تصورَّ قافلة شاحناتٍ عددُها سبعُمئة تراها على الساحل، فستضيق نفسك بها، و في عدِّها، قافلة واحدة لهذا الصحابي الجليل، فهزَّت أم المؤمنين رأسها وأرسلت نظراتها الثاقبة بعيدا كأنها تبحث عن شيء، عن ذكرى مرَّت بها، أو عن حديث سمعته، ثم قالت:

((أمَا إني سمعتُ النبي صلى الله عليه وسلم، يقول: رأيتُ عبد الرحمن بن عوف يدخل الجنة حبوًا))

يعني زحفاً، عبد الرحمن بن عوف يدخل الجنة حبواً! ولماذا لا يدخلها وثباً وجرياً وركضاً وخبباً؟ فإنّه من أصحاب رسول الله، وإنه من السابقين السابقين، من أصحاب رسول الله الذين شهدوا بدراً وأُحداً والخندق، وهاجروا إلى الحبشة مرتين، وكان ثامن مسلم دخل الإسلام، أسلم على يد سيدنا أبي بكر،

وهذا الصحابي الجليل من العشرة المبشرين بالجنة، ويدخلها حبواً! لكن سمعتْ رسول الله صلى الله عليه وسلم، والنبي عليه الصلاة والسلام لا ينطق عن الهوى، إنْ هو إلاّ وحيٌ يُوحَى .

ما هو الخبر الذي نقل إلى عبد الرحمن بن عوف، وما هو موقفه منه ؟

أيها الأخوة، سيدنا عبد الرحمن بن عوف نقل إليه بعض الصحابة نقلاً، نقل نصيحة لا نقل نميمة، وهناك فرق كبير بين أنْ تنقل الخبر شامتا، وبين أن تنقله ناصحاً، وبالمناسبة أعجبني أخٌ كريم رأى أمرًا منكراً، فقد رأى إنسانا يقدم على منكر في مكان يرأسه رجلٌ طيِّب، فقال له: إنْ فعلتَ هذا فسأبلِّغ فلاناً، فإذا استدعاك فلانٌ فأنا الذي بلَّغتُه، أنا أعجبني هذا الموقف .

مرَّة غلامٌ صغير سمع عمَّه، يقول: لو أن محمداً صادق فيما يقول فنحن شرٌّ من الحُمُر ، عهْدُهُ بعمِّه أنه مؤمن، فإذا به كافر ، فقد قال له: هذه كلمة كفر ، والله يا عمَّاه ما رجلٌ تحت قبَّة السماء بعد رسول الله، أحبُّ إليَّ منك، ولكنني سأبلِّغ رسول الله، هذه كلمة كفر لا مجاملة فيها، فإذا تجاملنا مجاملات بكلام غلط، أو بكلام فيه إساءة وتجاوز ، فهذا مجتمع المنافقين، ولا نرقى بهذه الطريقة، ولكن مجتمع المؤمنين فيه غيرة شديدة، والقصة لها وقت آخر ، وذكر هذا الغلامُ الخبرَ للنبي عليه الصلاة والسلام، واستدعاه النبي عليه الصلاة والسلام فأنكر ، قال يا رسول الله: إن هذا غلامٌ كذَّاب، أأنا أقول هذا الكلام؟ فنزل الوحي مصدقا قول الغلام، فأمسك النبيُّ بأذن الغلام متحبِّبًا: لقد صدَّقك الله من فوق سبع سموات، وكانت توبة هذا المنافق على يد هذا الغلام، فهؤلاء الذين أوصلوا هذا الكلام إلى سيِّدنا عبد الرحمن ليسوا نمامين، ولكنهم ناصحون، ونقل بعضُ أصحابه مقالة عائشة رضي الله عنها .

فتذكَّر قول النبي صلى الله عليه وسلم أكثر من مرَّة، وأكثر من صيغة، وقبل أن تُفَضَّ مغاليق الأحمال حثَّ خطاه إلى بيت عائشة، وقال لها: لقد ذكَّرتِني بحديث لم أنسه، ثم قال: أما إني أُشهدكِ أن هذه القافلة كلها بأحمالها وأقتابها وأحلاسها في سبيل الله، ثم قال: والله لأدْخُلَنَّها خَبَباً ليس حَبْواً .

كيف نوحد القول بين ما ورد في حديث رسول الله وقول عبد الرحمن بن عوف ؟

هناك مُشْكِلة، وهي أنَّ أُمَّنا عائِشَةَ تسْمع من النبي عليه الصلاة والسلام - وهو الذي لا ينْطق عن الهَوى- أنّ سيّدنا عبد الرحمن بن عوْف سيَدْخُل الجنَّة حَبْواً، أيُعقل أنْ يقول عبد الرحمن مُتَحَدِّيًّا قولَ النبي عليه الصلاة والسلام: والله لأدْخُلَنَّها خَبَبًا؟ وفي روايةٍ أخرى:

((وما عَلَيَّ إنْ تصَدَّقْتُ مئة في الصباح، فَيُؤْتينِي الله ألْفاً في المَساء))

حُلَّتْ هذه المُشْكِلة بهذا الحديث الذي قاله النبي صلى الله عليه وسلَّم لِسَيِّدنا بن عوف:

((يا ابن عَوْفِ إنك من الأغْنِياء، وإنَّك سَتَدْخُل الجنَّة حَبْواً، فأقْرِض الله يُطْلِقُ لك قدَمَيْك))

أعْطاهُ الحل، إنْ لم تُنْفِق بِسَخاء تدْخُلُها حَبْواً، فإذا أقْرَضْتَ الله عز وجل أطْلَقَ الله قدَمَيْكَ فَدَخَلْتها خَبَباً وجَرْياً، القَضِيَّة حُلَّت، إذْ إنَّ الحلَّ معه، والنبي الكريم صلى الله عليه وسلَّم ما أراد أنْ يُثَبِّطه، وما أراد أنْ يجعله يَيْأس، قال له: إنك غنِيّ، والأغْنِياءُ عادَةً تشْغَلُهُم أمْوالهم، وتَنْمِيَةُ أمْوالهم واسْتِثْمارها، والمال الوفير يحْتاج إلى وسائل رفاه، وهذه الوسائل تشْغَلُ صاحبَ المال عن ذِكْر الله، قال تعالى:

(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى * إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى)

(سورة العلق الآية: 6-8)

فالنبي لم يقصد عبد الرحمن بالذات، إنما قال: إنك غنيّ، والأغنياءُ عادَةً مشْغولون بأمْوالهم، فإذا آمنوا واسْتقاموا دَخَلوا الجنَّة حَبْواً، أقْرض الله يُطْلق لك قدَمَيْك، فهو يعْرف الطريق ، ولما قال: سبعُمئة راحِلَة في سبيل الله، والله لأدْخُلَنَّها خَبباً، فالنبي صلى الله عليه وسلّم ما أراد أنْ يُثَبِّطه، ويجعل مصيرَه مصيراً محْتوماً، والقَوْلُ الشهير الذي ورد عن النبي:

((خُذْ من الدنيا ما شِئتَ، وخُذْ بقدرها هماً، ومن أخذ من الدنيا فوق ما يكْفيه أخذ من حَتْفِهِ وهو لا يشْعر))

[ورد في الأثر]

المال وسيلة عند ابن عوف وليس غايته :

أيها الأخوة، هذا هو عبد الرحمن بن عوْفٍ، هذا هو الغنيُّ المؤمن، هذا الذي يكون سيِّد المال، وليسَ عبداً له، هذا الذي يسْتخدم المال في سبيل الجنَّة، في سبيل مرْضاة الله عز وجل، في سبيل أنْ يفوز بجَنَّةٍ عَرْضُها السموات والأرض، في سبيل أنْ يرْضى الله عنه، هذا الصحابي الجليل هو أحدُ الثمانِيَّة الذين سبَقوا إلى الإسلام، عرضَ عليه أبو بكر الإسلام هو وعثمان بن عفان والزبير بن العَوام وطلْحة بن عُبَيد الله وسعْدُ بن أبي وقاص فمَا غُمَّ عليهم الأمر، ولا أبْطؤوا، بل سارَعوا مع الصِّديق إلى النبي عليه الصلاة والسلام يُبايعونه، ويحْمِلون لِواءَهُ، معنى ذلك لما ينْشرحُ صَدْرك للحق فهذه علامة طيِّبة، حينما لا تتَرَدَّدُ، كلكم يذكر قِصَّة سيِّدنا عبد الله بن رواحة حينما عَيَّنَهُ النبي عليه الصلاة والسلام قائدًا ثالثاً، وكيف أنَّ القائد الأول حمل راية المُسْلمين ، فقاتل بها حتى قُتِل، وحملَها بعده سيّدنا جعفر، فقاتل بها حتى قُتِل؟ فلما جاء دَوْرُ عبد الله بن رواحة تَرَدَّدَ، ويَذْكُر المُؤرِّخون أنه تردَّد بِقَدْر هذين البيْتَيْن:

يا نفْسُ إلاّ تُقْتلي تموتي   هذا حِمامُ الموت قد صَلَيت
إنْ تفْعلي فِعْلها رضيـت   و إنْ تَوَلَّيْتِ فقد شَقَيـت

وأخذ الراية فقاتِل بها حتى قُتِل، لكنَّ النبي الكريم، قال: رأيْتُ أخاكم جعْفرًا وهو في الجنَّة، ورأيْتُ أخاكم زيداً وهو في الجنَّة، ثمَّ سكتَ النبي صلى الله عليه وسلَّم، فلما سكتَ النبي قَلِقَ الصحابة الكِرام على أخيهم عبد الله، فقال الصحابة: ما فعل عبد الله؟ قال: ثمّ أخذها عبد الله، فقاتَلَ بها حتى قُتِل، وإني لأرى في مقامِهِ اِزْوِراراً عن صاحِبَيْه، درجته هَبَطَتْ، فإذا كانَ الصحابة هَبَطَت درجَتُهُم بتَرَدُّدِهم ثلاثين ثانِيَة، فَكَيْفَ بنا؟! أما الآن فتضعُ له مُقدِّمات، وتُبيِّن له عِظَم العمل الصالح والجنَّة، ثمَّ يُعْطيك عشرات الليرات .

إليكم نموذجان متنوعان من التجار في إنفاقهم للمال في عصرنا هذا :

أيها الأخوة، قال لي أحدهم: دخلْتُ مَحَلاً تِجاريًا في رمضان، والمَحَلُّ كبير وفخْم، البضاعة بالملايين، فقال له: عندنا أيْتام، ومدارس شرْعِيَّة، قال: فإذا بي أراهُ أخْرج عشْر ليْراتٍ، واللهِ لو رآها هو في الطريق لم يأخُذُها، أفهذه قيمة الآخرة عنده؟ لذلك قال تعالى:

(وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة آل عمران الآية: 133)

وهذا أحد التجار كذلك، أنا لا أزكي على الله أحداً، لكني أظنه مؤمناً، كلما جاءته جمْعيَّة خيرية، أو لجنة بناء مسْجد يقول لهم: دونَكُم الصندوق، خُذوا منه ما تشاؤون، ولا تُعْلِموني كم أخَذْتم؟ هذا الإنْسان عاشَ عُمْراً لا بأسَ به، ولكنَّهُ أصيب بِمَرضٍ خبيثٍ في دمه، فجاءَتْ مُخابرة إلى البيت، وفي البيت عدَّةُ هواتف، ورُفِعَتْ سماعة، فرفعَ هو السماعة، وكانت المكالمة من المستشفى، وأخذ الموظف يقرأ له التقْرير، معلنًا أنَّ القضيَّةُ مُنْتهيَّة، ولا بدّ أنْ يموت بعد ثلاثة أيامٍ ! سمِعَها بِأُذُنه، والقِصَّة واقِعِيَّة، وقصَّها عليّ أُناسُ كثيرون، تلقى هذا الخبر بِنَفْسٍ رَضيَّة، لأنَّ عمله صالحٌ، ولأنه قدَّمَ ماله أمامه، والآن سرَّهُ اللّحاقُ به، كلُّ علاقاته الماليَّة أنْجَزَها أوَّلَ يومٍ، واليوم الثاني طلب أوْلاده وأصْهاره وبناته وودَّعَهُم، وفي اليوم الثالث: دخل للحمام فاِغْتَسَلَ اِغْتِسال درجة أولى بيَدِه، دون أنْ يُغَسِّلَهُ أحد، واضْطَجَع على السرير حتى الساعة الثانِيَة عشر، واستَقْبَل أحد علماء دِمَشْق الأجلاء، وهذا العالم مع أخْوانه أجْرَوا له تهْليلة وقرآن حتى الساعة الواحدة، وفي الساعة الواحدة سلَّمَ روحَهُ لبارِئِه، شيءُ لا يُصَدَّق، أن يتلَقى الإنسانُ خبرَ وفاته بِصَدْرٍ رَحِب، وبِنَفْسٍ طيِّبة، يقول الله عز وجل في الحديث القُدْسي:

((عبدي أعْطيْتُك مالاً فماذا صَنَعْتَ فيه؟ يقول: يا رب، لم أنْفِق منه شيئاً مخافة الفقر على أولادي من بعدي، يقول الله عز وجل: ألم تعْلم أنّي أنا الرزاق ذو القوة المتين، إنَّ الذي خَشيتَهُ على أوْلادك من بعْدِك قد أنْزَلْتُهُ بهم، يقول لِعَبْدٍ آخر آتاه مالاً: أعْطيْتُك مالاً فماذا صَنَعْتَ فيه؟ يقول: يا رب، أنْفَقْتُهُ

على كُلّ مُحْتاجٍ ومِسْكين لِثِقتي أنَّك خيرٌ حافِظاً، وأنت أرْحم الراحِمين، فيَقُول الله عز وجل: أنا الحافظ لِأولادك من بعدك))

[ورد في الأثر]

سؤال وجه إلى عبد الرحمن بن عوف :

ففي التاريخ الإسْلامي عشَرَةُ أشخاص يدْخلون الجنَّة على التحْقيق، وما سِواهُم على الرَّجاء، نحن نرْجو الله، وفرْقٌ كبير بين التحْقيق والرَّجاء، وهو من أصْحاب الشورى السِّتَّة الذين اخْتارهم سيّدُنا عمر من بعْده، وكان مَحْظوظاً في التّجارة، وكان يقول:

((لقد رأيْتُني لو رفعْتُ حجَراً لَوَجَدْتُ تحته فِضَّة وذَهَباً))

مرَّةً سألوه: بما حَقَّقتَ هذه الثرْوة يا عبد الرحمن؟ قال:

((والله ما اسْتَقْللتُ ربْحاً، ولا بعْتُ دَيْناً، تِجارةُ الدَّيْن ليْسَتْ تِجارة، بل هي ذُلٌّ وتَسَوُّلٌ وفقْرٌ وهَمٌّ))

هذا تَوْجيهُ صحابيٍّ جليل آتاهُ الله مالاً، وكان له ثلاثة أطْوار: فهُوَ إما في المسْجد، وإما أنه في غَزْوٍ مع رسول الله، وإما أنه في تِجارتِه .

ما هي الفائدة التي يمكن أن نستنبطها من موقف ابن عوف من أخيه الأنصاري حينما عرض عليه المال ؟

إنّ الصحابة الكِرام كانوا مُثُلاً عُلْيا، فلما هاجَروا إلى المدينة أمرهم النبي صلى الله عليه وسلّم أنْ يتآخَوا اثْنَيْن اثْنَين، فسيّدنا بن عوفٍ كان نصيبُهُ سيّدنا سَعْد بن الربيع، وهو أنْصاري، وسيّدنا ابن عوف مُهاجِر، ولما انْتَقَل إلى المدينة كانَ بلا مالٍ، تَصَوَّر أنَّ شَخْصاً ترك كلّ ثَرْوَته من أراضٍ ومصانع وسيارات ومسْكن بالمالكي وأمْوالٍ ضَخْمة، ثمّ يذْهب إلى مكانٍ آخر وهو مُفْلِس، هكذا كان الصحابة، تركوا كلّ أمْوالهم وهاجَروا مع النبي صلى الله عليه وسلّم، فَسَيِّدُنا سَعْد بن الربيع قال له: يا أخي أنا أكثر أهل المدينة مالاً، فانْظُر شَطْرَ مالي فَخُذْهُ، فقال له عبد الرحمن بن عوفٍ: بارك الله لك في مالك، ولكن دُلَّني على السوق، هؤلاء الصحابة الكِرام الأنْصار الذين أظْهروا أعْلى درجات المُؤاثرة قابَلَهُم المُهاجِرون بأعلى درجات العِفَّة .

لذلك لم يُسَجِّل التاريخ أنَّ مُهاجراً واحداً أخذ شطْر مال أخيه الأنْصاري، فإذا كان الإنْسان ضَيِّقَ ذات اليد فله طريقان: الطريقُ الأكْمل أنْ تقول: يا رب اُرْزُقْني من فضْلك، ولا تُحْوجْني إلى أحدٍ سِواك، ولا

تجْعَلْ حاجتي إلا إليك، لأنّ الإنسان إذا أعْطى فَعَطاؤُهُ غير عطاء رب العالمين، قيل: اِحْتَجّ إلى الرجل تكُنْ أسيرَهُ، واسْتَغْنِ عنه تكُن نظيره، وأحْسِن إليه تكُن أميرهُ.

إليكم هذه القصة للعبرة :

رَوَوا أنَّ أحد الشيوخ كان له تلاميذ، فأعطى كلَّ واحدٍ منهم نِصْفَ لَيْرة لِيَشْتَري بهـا حاجَتَين، وأعْطى تِلميذاً عشر لَيْرات لِتَكون معه، فالذي أعْطي المبلغ القليل تألَّم وانْكسر خاطِرُهُ، وشعر أنه ليس من مُسْتوى الثاني، وأنّ الشَّيْخُ ليس واثِقاً به، بيْنما أعطى الثاني مبْلغاً كبيراً، فَشَعَرَ الشيخ أنّ تِلْميذه استولى عليه هذا الشُّعور، فقال: نحن بِحاجة إلى حمام يا أبنائي، وبِحَمام السوق يوجد داخِلي وخارجي وأوْسطي، فأدْخَلَهم إلى الحمام، وإلى الغُرْفة الساخِنَة، وبدأ يقول لِصاحب العشر ليرات: حاسِبْني في هذه وهذه، فاضطرب وارتبك، أما صاحب المبلغ القليل فكانَ حسابهُ يسيراً، ربع ليرة بقْدونس، والربع الآخر كزْبرة، وانتهى الحساب، إذاً: كلما كان نصيبك قليلاً كلما كان حِسابك يسيراً، وكلما كثُر المبْلَغ صار الحِساب مُعَقَّدًا أكثر فأكثر، هذه قِصَّة رَمْزِيَّة فقط، المُهمّ أنّ الإنسان إذا اخْتار اللهُ له الكفاف فقد اختار له اليسير .

أنا أقول لكم: كل إنسان يشكو لي أنّ الأمور كما يقولون: ماشي الحال، ونحن نشْتَغِل قدْر مصْروفِنا، كلما سَمِعْتُ إنْساناً يشْكو لي هذه الشَّكْوى، أقول له: لقد أصابَتْكَ دعْوَةُ رسول الله، فالنبي عليه الصلاة والسلام، قال:

((اللهم من أحَبَّني فاجْعَل رزْقهُ كفافاً))

[ورد في الأثر]

فأكْمَلُ مُسْتوى هو الكفاف، لا غِنى فيُطْغي، ولا فقر فلا يُحْتَمَل، والنبي عليه الصلاة والسلام، قال:

((بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعًا، هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْرًا مُنْسِيًا، أَوْ غِنًى مُطْغِيًا، أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا، أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا، أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا، أَوْ الدَّجَّالَ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أَوْ السَّاعَةَ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ؟))

[أخرجه الترمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ في سننه]

فهذه هي القاعدة: من شأن الغني أنَّ ماله يشْغله عن ذِكر الله، والدليل قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

(سورة المنافقون الآية: 9)

قال له: يا ابن عَوْف، إنَّك من الأغْنياء وإن لم تُنْفِق هذا المال في سبيل الله فإنَّك ستَدْخل الجنَّة حَبْواً، فأقْرِض الله يُطْلِقُ لك قدَمَيْك، وعندئذٍ تدْخُلها خبباً، وانْتهى الأمر، سيّدنا ابن عوفٍ منذ أنْ سَمِع هذا النُّصح من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يُقْرض ربَّهُ قرْضاً حَسَناً، فَيُضاعِفَهُ له أضْعافاً كثيرة .

القوافل التي أنفقها عبد الرحمن بن عوف في سبيل الله :

باعَ يوْماً أرْضاً بأرْبعين ألفَ دينار، فكانت ثلاثة أثلاث: ثلثٌ على أقْربائه من بني زهرة، وثلث على أمَّهات المؤمنين، وثلث على فقراء المُسْلمين .

وقدَّم يوماً رضي الله عنه لِجُيوش المسلمين خمسُ مئة فَرَسٍ تشبه كلٌّ منها في أيامنا سيارة مَرْسيدَس، أو شاحنة مَرْسيدَس، شيءٌ ثمين، هناك مَن سَعَّرها خمسة ملايين، وحتى عشْرة ملايين .

مرَّةً قدَّم ألفًا وخمسمئة راحِلَة في سبيل الله، وعند مَوْتِهِ أوْصى بِخَمْسين ألف دينار في سبيل الله، وأوْصى لكل من بَقِيَ ممن شهدوا بدْراً بأرْبَعمئة دينار، حتى إنَّ عُثْمان بن عفان رضي الله عنه أخذ نصيبه من هذه الوَصِيَّة رغْمَ ثرائِهِ، وقال: إنَّ مال عبد الرحمن حلالٌ صَفْوٌ، وإنَّ الطُّعْمَةَ منه عافِيَةٌ وبَرَكَةٌ، فإذا دعاك المؤمن، فو الله طعامه شِفاء، فالمخلص سيِّدَ ماله، ولم يكن عَبْداً لِماله، لذلك عَنْ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ:

((تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ وَالْقَطِيفَةِ وَالْخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ))

[أخرجه البخاري في الصحيح]

ما قيل عن إنفاق ابن عوف :

بلغ من سعة عطائه وعَوْنِه أنه كان يُقال: أهل المدينة جميعاً شُرَكاءُ لابن عوفٍ في ماله ، وقد سَمِعْتُ اليوم قِصَّة عن رجلٍ غَنِيّ، كانت امْرأة تأتي في الساعة السابعة إلى مَكْتَبه لِتُنَظِّف، وهو لا يعْرِفُها في شَكْلِها، إنما يسْمع عنها، ويُعْطيها أجْرتها، مرَّةً جاء في الساعة السابعة لِأمرٍ اسْتِثْنائي، فرأى امْرأة مُسِنَّة تشْتغل، وتَمْسح، فقال لها: أنت كم تأخُذين؟ فقالت له: ألْفَيْن وخمسمئة في الشَّهْر، فقال لها: كم ولدٍ عندك؟ فقالت: أربعة، فقال لها: اذْهبي إلى بيْتِكِ، وارْعَيْ أوْلادك، وتعَالي كلَّ شهْرٍ وخُذي خمْسة آلاف، قلْبه رقيق، ما تحَمَّل ذلك المشْهد، وهي على كِبَر سِنِّها تشْتغل، فالغَنيّ أحْياناً يصِلُ إلى الأوْج في إنْفاق ماله، لأنَّها المِسْكينة وصَلَتْ إلى مرْحلة التقاعُد، فالدنيا لا تخْلو من أهل الخير .

قالوا: أهل المدينة جميعاً شُركاءُ لابن عوفٍ في ماله، ثُلُثٌ يُقْرِضُهم، وثُلُثٌ يقْضي عنهم دُيونهم، وثُلُثٌ يصِلُهُم ويُعْطيهم، ألا تشْتهون غِنى مثل هذا الصحابي الجليل؟ .

ما الذي يبكي عبد الرحمن بن عوف ؟

سيِّدنا ابن عوف جيءَ له بطعام الإفْطار، وكان صائِماً، فَلَما وقَعَتْ عَيْناهُ فَقَدَ شَهِيَّتَهُ، وبكى، لماذا يبْكي؟ قال: اسْتُشْهِدَ مُصْعب بن عُمَيْر، وهو خيرٌ مني، فَكُفِّنَ في بُرْدَةٍ إنْ غُطِّيَ رأسه بَدَتْ رِجْلاه، وإنْ غطيت

رِجْلاه بدا رأسه، واسْتُشْهِدَ حمزة، وهو خيرٌ مني فلم يوجد له ما يُكَفَّن فيه إلا بُرْدة، ثمّ بُسِطَ لنا من الدنيا ما بُسِط، وأُعْطينا منها ما أُعْطينا، وإني لأَخْشى أنْ تكون قد عُجِّلتْ لنا حَسَناتُنا .

أقول لكم هذا الكلام: إذا كثر رفه المؤمن فهو في خوف مِن سوء المصير، أما إذا كان بالكفاف فهذه نِعْمة، هذه دار عمل وليس دار بَسْط ولا دار نعيم، هي دار ابْتِلاء وامْتِحان وطاعة ومُجاهدة والْتِزام، فالمؤمن الصادق إذا شعر أنَّ رفاهته أكثر مما يجب يحُسّ بضيقٍ، حاله حال طالب دخل إلى المدْرسة، له أحْلى طاولة، وأحْلى كُرْسي، ومن جِهَة الشَّمس، هذه مدْرسة للعلم وليست للتَّشَمُّس .

واجْتَمع بعض أصْحابه يوماً على طعامٍ عنده، وما كاد الطعام يوضَعُ أمامهم حتى بكى، فسألوه: ما يُبْكيك يا أبا محمد؟! فقال: لقد مات رسول الله صلى الله عليه وسلَّم وما شَبِعَ هو وأهْلُ بَيْتِه من خُبْز الشعير، وما أرانا أننا أُخِّرْنا لما هو خيرٌ منا .

زرْتُ صديقاً يوماً وكان بَيْتُهُ صغيراً، فقال لي: لا تؤاخِذْنا لصِغر بيتنا، فقُلْتُ له: والله لو تقرأ عن بيْتِ رسول الله صلى الله عليه وسلَّم الذي هو سيِّدُ الخلق وحبيب الحق لما استحييتَ ببيتك، كان إذا صلى قِيام الليل تحوِّل السيِّدة عائِشة رِجْلَيْها، لأنَّ غرفته لا تَتَّسِعُ لِصَلاته ونوْمه، ولما دخل عليه عديّ بن حاتم قذف إليه وِسادةً من أدم مَحْشُوَّةً ليفًا، وقال له: اجْلِسْ عليها، قُلتُ بل أنت، فقال: بل أنت، فَجَلَسْتُ عليها وجلس صلى الله عليه وسلَّم على الأرض، ليس في بيْتِ النبي إلا وِسادةٌ واحدة !!، هذه هي النبُوَّة، النبوَّة قُدوة وتَقَشُّفٌ وزُهْدٌ وليس ملكاً .

ماذا نستنبط من هذين الموقفين لابن عوف ؟

سيّدنا عمر قبل أنْ يتوفاه الله عز وجل مُتأثِّراً بجراحه اسْتأذن السيّدة عائِشة أمَّ المؤمنين أنْ يُدْفَن في حُجرة النبي عليه الصلاة والسلام، ثمَّ اسْتدرك وقال: أنا خليفة المسلمين، ولعلّها قبلتْ خجَلاً مني، بعد أنْ أموت اسْألوها مرَّةً ثانِيَة، فإن قبلتْ فافْعلوا، فهُوَ رضي الله عنه ما أراد أنْ يسْتخدم سُلْطته في أخذِ مُوافقَتِها، والسيّدة عائِشَة أرادَتْ أنْ تَخُصّ نفسها بشَرَف الدفْن في حُجْرة النبي .

فهذا الصحابي الجليل وهو على فِراش الموت أشارتْ إليه أنَّها تُوافقُ على أنْ يُدْفن في حُجْرَتها إلى جوار النبي عليه الصلاة والسلام وأبي بكرٍ وعُمر، ولكنه رضي الله عنه كان على حياءٍ كبير، فقد اسْتَحْيا أن يكون مع هؤلاء الكِبار، ثمّ إنه كان على مَوْعِدٍ وثيق مع عثمان بن مظغون، إذْ تواثقا ذات يومٍ أيُّهُما يموت بعد الآخر يُدْفَنُ إلى جوار صاحِبه، فهذا وعْدٌ .

وهو على فِراش الموت، قال: إني أخاف أنْ أُحْبَسَ عن أصْحابي لكثرة ما كان لي من مالٍ، مع كُلّ هذا الإنفاق وهذا السَّبْق والحُبّ والمؤاثرة، عندئذٍ ذكر قوْل النبي عليه الصلاة والسلام:

((عبد الرحمن بن عوْفٍ في الجنَّة))

هذه البِشارة طَمْأنَتْ قلْبه وجعَلَتْهُ قريرَ العَيْن وتلا قولَه تعالى:

(الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنّاً وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

(سورة البقرة الآية: 262)

الخير يعم الجميع :

حضرْتُ مرَّةً حفل ختام مسابقة القرآن الكريم، فَتَكَلَّمَ وزير الأوْقاف كلمة تأثَّرْتُ لها، قال : جزى الله عنا العلماء الذين علّموا القرآن، وأشْكر هؤلاء الطلاب الذين تدافعوا إلى حِفْظِه، ولا أنْسى أصْحاب الأموال الذين تبَرَّعوا بأموالهم تكْريماً لِهَؤلاء الأطفال، وحينها قال رجل: كلُّ من حَفِظ القرآن فله مني عشْرة آلاف دائِماً، وسَمِعْنا أنَّ أحداً تبرَّعَ لهم جميعاً بِعُمْرةٍ، وأخذ على حِسابه سبْعين طالِباً، فقال الخطيب: المال شقيقُ الروح، فلَيْسَ الفضل للعالم فقط، بل وللغنيّ المؤمن، فهذا بِعِلْمه وهذا بماله، لهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَسُلِّطَ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا))

[أخرجه البخاري في الصحيح]

فليستْ العظمة عند الله أنْ تكون داعِيَةً فقط ، أصْحاب الأموال بإنْفاقهم وسخائِهم وبذْلهم يصِلون إلى مرْتَبَةٍ عالِيَةٍ عند الله عز وجلّ .

والحمد لله رب العالمين

السيرة - رجال حول الرسول - الدرس (05-50) : سيدنا سعد بن أبي وقاص
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-11-09

بسم الله الرحمن الرحيم

النبأ العظيم الذي تلقاه سيدنا عمر من بلاد الفتوحات في فارس :

أيها الأخوة الأكارم، الصحابي اليوم سعْد بن أبي وقاص، وأوَّلُ نقطة في شَخْصِيَّة هذا الصحابي الجليل أنه شَخْصيَّةٌ فذَّة، بِمَعْنى أنه يُمْكن أنْ يُعْتمد عليه في أشَدِّ الأزْمات، ويُمْكن أنْ يُدَّخَر لِحَلِّ مُشْكِلاتٍ كبيرة.

فَسَيِّدُنا عمر رضي الله عنه كان أمير المؤمنين، وقد تلقى أنْباءً مُؤْسِفَةً جداً من بلاد الفُتوحات في فارس، فقد قُتِل في يومٍ واحدٍ أربعة آلاف شهيد من أصْحاب رسول الله ، ولم يعُدْ يمْلك خِياراً، فأراد هذا الخليفة العظيم أن يقود جَيْشَ إنْقاذٍ بِنَفْسِه، وجَهَّزَ هذا الجَيْش ممن بَقِيَ من أصْحاب رسول الله وقادهم وخرج من المدينة، لكنّ صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلّم رأوا أنَّ حياة هذا الخليفة العظيم لَيْسَتْ مِلْكَهُ، إنما هي مِلْكُ المُسْلِمين .

كيف نفسر بين الموت بأنه قضاء وقدر وبين العناية بصحة الإنسان واجباً دينياً ؟

أتوقّفُ قليلاً عند هذه الكلِمَة، أنت كَمُؤْمِنٍ لك رسالة تعْرف لماذا جِئتَ إلى الدنيا، وتعرف عِظَم المُهمّة التي ألْقاها الله على عاتِقِك؟ تؤمن وتوقِنُ أنَّ حياتك لَيْسَتْ مِلكك، وهي قبل كُلّ شيءٍ مِلْكُ أُسرتك، ومِلْكُ المؤمنين، ومن هنا كانت العِنايةُ بِصِحَّة الإنسان واجبًا دينيًا، ومن هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((من ركب ناقةً حرونًا فلا يقربنّ مجْلِسَنا...))

[ورد في الأثر]

الناقة الحرون هي الناقة الخَطِيرة، يُقاسُ على هذا أنَّك إذا ركِبْتَ مرْكَبَةً لَيْسَتْ جاهِزِيَّتُها كاملة فقد عَصَيْتَ رسول الله صلى الله عليه وسلّم، إنْ ركِبْتَ مرْكَبَةً مكابحُها لَيْسَتْ مُحْكَمة، وعجلاتها لَيْسَتْ مضْبوطة فقد عصيت رسول الله عليه الصلاة والسلام .

النبي عليه الصلاة والسلام نهى أنْ ينام الإنسان على سَطْحٍ ليس له سور لئلا يقع، هذه التَّوْجيهات يُحْمَلُ عليها أنَّ أيَّة مُخاطَرَةٍ يُخاطِرُ بها الإنسان بِحَياته فإنّه يموت عاصِياً، وهل تُصَدِّقون أنَّ أحد أصْحاب النبي وهو في الجِهاد عصى رسول الله وركِبَ ناقةً حروناً، فَدَقَّتْ عُنُقَه، فأبى النبي أنْ يُصَلِّي عليه؟ لمعصيته رسول الله صلى الله عليه وسلّم، وركوبه ناقةً حروناً، فَحَياةُ المؤمن لَيْسَتْ مِلْكه، إنما

هي مِلْكُ المسْلمينَ جميعاً، ولا سِيَما إذا كان له عملٌ صالحٌ، وباعٌ طويلٌ في خِدْمة الخَلْق والدعوة إلى الله عز وجل، فعِنايَتُكَ بصِحَّتِكَ ليْسَتْ أنانِيَّةً أو أثَرَة، ولكنَّها مؤاثرة

قد يسأل سائل: أليْسَت الأعْمارُ بيَد الله؟ نعم الأعمار بيَد الله، ولك عُمُرٌ لا يزيد ولا ينْقص، ولكن إما أنْ تُمْضي العُمُر الذي كتبه الله لك هكذا صحيحًا، وإما أنْ تمْضيه هكذا طريح الفِراش، وذلك بسبب مُخالفتك سُنَّة رسول الله صلى الله عليه وسلم، لذلك دقّقوا في قوله تعالى على لسان سيدنا إبراهيم:

(الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ)

(سورة الشعراء الآية: 78-80)

فما قال: والذي إذا أمْرضني فهُو يشْفين، قال:

(الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ)

(سورة الشعراء الآية: 78-80)

فالمرض في هذه الآية عُزِيَ إلى الإنسان، أما الخلق فعُزِيَ إلى الله، فأصْلُ المرض مُخالفَةٌ لِمَنْهج الله عز وجل، وبالمُناسَبَة قد تقْتني أحْدث وأرْقى وأغْلى سيارة، ومع ذلك مصانع السيارات الآن ليس بإمْكانها أن تصنع سيارة لترْكَبَها أرْبعين عاماً من دون أنْ تُغَيِّر لها بعض القِطَع، بل لا بد أنْ تُغَيِّر لها المكابح والزيت وقطعًا كثيرة، فالتغيير لا بدَّ منه، لكن الإنسان لما خلقه الله عز وجل صَمَّمَهُ بطريقة يمكن معها للأجهزة والأعْضاء أنْ تقوم بعَمَلها حتى آخر لحْظة في حياتك في أعلى درجة، كالمفاصِل والكُلْيَتَين، والقلب والشرايين، والأوْردة والأعْصاب والعضلات، ولقد سمِعْتُ مرةً أنَّ الإنْسان إذا لَبِسَ حذاءً قاسِياً وسار على أرضٍ صلبة وهَرْوَل يسْتَهْلكُ مفاصِلَهُ عن طريق تضاد الصَّدْمة، فلا بد من حِذاءٍ مرنٍ وأرضٍ مرنة، أما إذا كان الحِذاءُ صَلْباً والأرض صلبة فإنَّ المفاصل تُسْتَهْلك قبل أوانِها .

المُلَخَّص أنَّ النبي عليه الصلاة والسلام لما نهى أن تشْرب مِن فم الإناء، وأمر أنْ تشرب الماء ثلاثاً، وأنْ تشْربه قاعداً، ونهى كذلك أنْ تأكل أكثر من حَدِّك الطبيعي، ونهى عليه الصلاة و السلام أنْ تأكل فاكِهَة ليْستْ مغْسولة، فمن أكل التراب فقد أعان على قتْل نفْسه، وأيضًا النبي أنْ تترك صحاف الطّعام وقُدور الماء مكْشوفة، فهذا كُلُّه من أجل الحِفاظ على حياتك .

القائد الجديد الذي اختاره الصحابة بموافقة عمر لإرساله إلى بلاد العراق :

أيها الأخوة، أصْحاب رسول الله حينما رأوا خليفتهم وهو في وقْتٍ عصيبٍ جداً، وقد علِموا أنَّ أثْمن شيءٍ يمْلِكُهُ المُسْلمون حياةُ أميرهم، فلِذلك اجْتمع أصْحاب رسول الله ولَحِقوا بعُمَر ، وثَنوهُ عن أنْ يقود جَيْشاً بِنَفْسه، وأنَّ حياته الآن في هذا الوقْت العصيب وقْتِ الرِّدة والفِتَن والحُروب والفتوحات هي أثْمُن شيءٍ عند المؤمنين، فنزل سيّدنا عمر عند رأيهم، وقال:

((من تَرَوْن أنْ نبْعث إلى العِراق؟ فصَمَتَ أصْحابُهُ، وراحوا يُفكِّرون، ثمَّ صاح عبد الرحمن بن عَوْفٍ لقد وَجَدْتُهُ))

بالمُناسبة أصْعَبُ شيءٍ في القِيادة أنْ يخْتار القائِدُ أعْوانه، لأنَّ القائِدَ أجَلُّ مُهماتِهِ أنْ يخْتار من حَوْله، فإذا كانوا صالِحين صلُحَ بهم المُجْتمع، وإذا كانوا فاسِدين فَسَد بهم المُجْتمع، والنبيّ عليه الصلاة والسلام كان يدْعو اللهَ أنْ يهيِّئ له بطانة خيرٍ، تنْصَحُهُ وتأمُرَهُ وتُخْلِصَ له، سيّدنا عمر أرْسل مرةً والِياً، وقال: خُذْ عَهْدك، وانْطلِق إلى عَمَلِك، واعْلم أنَّك مصْروفٌ رأسَ سَنَتِك، وأنَّك تصير إلى أرْبع خِلال، فاخْتر لِنَفْسك، إنْ وَجَدْناك أميناً ضعيفاً اسْتَبْدَلْناك لِضَعْفِك، وسَلَّمَتْك من مَعَرَّتِنا أمانتُك، وإنْ وَجَدْناك خائِناً قوياً اسْتَهنا بِقُوَّتِك، وأوْجَعْنا ظَهْرك، وأحْسَنا أدَبَك ، وإنْ جَمَعْتَ الجُرْمَيْن - الضَّعْفُ والخِيانة - جَمَعْنا عليك المَضَرَّتَين، وإن وجدناك أميناً قَوِياً زدْناك في عمَلِك، ورَفَعْنا لك ذِكْرك، وأوْطأنا لك عَقِبَك، قال تعالى:

(قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ)

(سورة القصص الآية: 26)

((قال عمرُ: من هو؟ قال: الأسد في براثِنِه سعْدُ بن مالك الزهري))

أيْ سعْدُ بن أبي وقاص، هذا الصحابيّ الجليل يتيهُ على أصْحاب رسول الله صلى الله عليه وسلّم، يتيهُ ليس بِمَعْناها اللغوي وإنما بِمَعْناها المَجازي، فالنبي لما قال:

((لا حسد إلا في اثْنتين ...))

العُلَماء لما فسَّروا هذا الحَسَد، قالوا: الغِبْطة، فإذا كان لك أخٌ يُعْطي عطاء من لا يخْشى الفقْر فأنت تَغْبِطُهُ، أو لك أخٌ يُلْقي على الناسِ عِلْماً يُؤَثِّرُ فيهم، فأنت تغبطه كذلك، وكان النبي عليه الصلاة والسلام كلما دخل عليه سعْدُ بن أبي وقاص يُداعِبُهُ، ويقول: هذا خالي، أروني خالاً مِثْل خالي، ومُداعَبَةُ النبي شيءٌ ثمينٌ، فَمُداعَبَةُ النبي لأصْحابه تعْني أنَّهُ راضٍ عنهم، ورضاءُ النبي عليه الصلاة والسلام هو عَيْنُ رضاء الله عز وجل، لأنَّ النبي شفاف، وليس له ذات إطْلاقاً ، بل يَشِفُّ عن الحقيقة الإلهيَّة، فإذا رضي الله عنك رَضِيَ عنك رسوله وإذا رضِيَ عنك رسوله رضي عنك الله عز وجل، قِياساً على ذلك إذا كان الفَسَقَة والفَجَرَة يوَدُّونك كثيراً فلا تفْرح بهذا أعوذ بالله! هذه وصمة عارٍ، فالمُنْحَرِفون تاركو الصلاة، آكِلو المال الحرام، الذين يَحْتالون على الناس، فإذا كانت علاقَتُكَ بِهؤلاء حميمة فانْدُبْ حظَّك، إذْ إنَّها وصْمة عارٍ، أما إذا كان المؤمنون الصادِقون يُحِبُّونك، ويُقَدِّرونك، ويَرْعَوْنك فهذه بِشارةُ خير . لِذلك لا تُصاحِبْ إلا مؤمناً ولا يأكُل طعامك إلا تقِيّ، دائِماً ابْتَغ العِزَّة عند أهْل الإيمان، ولا تبْتَغِها عند أهْل الكُفْر والعِصْيان، فتقْريبُهم لك لا قيمة له، وكلما قرَّبوك منهم أبْعَدوك عن الله، أما أهلُ الإيمان فكلما

قرَّبوك إلَيْهم قرَّبوك إلى الله، لأنَّهُم أيْضاً شقّافون، ولَيْسَتْ لهم نُفوسٌ تكون حِجاباً بينك وبين الله، فكُلَّما قرَّبوك إليهم قرَّبوك إلى الله .

قال الخليفةُ المنصور: يا أبا حنيفة لو تَغَشَّيْتنا؛ أي لو زُرْتَنا، فقال: ولِمَ أتَغَشَّاكم، وليْس لي عندكم شيءٌ أخافكم عليه؟ وهل يتغشَّاكم إلا مَن خافكم على شيءٍ؟ سألني اليوم أخٌ: كيف يُطْلَبُ العِلم؟ قُلتُ له: من الكُتُب العظيمة التي أعْتزّ بها كتابٌ في أُصول الفقه: اسمه المُوافقات للإمام الشاطِبي، هذا يُعَدُّ مَرْجِعَ كلّ علماء الأصول، كِتابٌ قيِّمٌ، لكنه يحْتاج إلى مُسْتوى ثقافي مُعَيَّن، وقد ورد في مقدمته التاسعة أن العلم لا يُطلَب إلا على يد عالم متحقّق ورِع، قال: هذا خالي أروني خالاً مثل خالي .

ترتيبه في الإسلام :

يبدو أن سعدًا أسلم وكان ترتيبه في الإسلام الرجل الثالث، فقال رضي الله عنه: لقد أتى عليَّ يومٌ وأنا ثُلُثُ الإسلام، لذلك فالسابقون السابقون لهم أجرٌ عظيم .

أعجبني في ذلك كلمة قالها أحد العلماء في عقد قران: هناك من يحمله الإسلامُ ؛ أي لمَّا صار لك زيٌّ ديني عظَّمك الناس، وبجّلوك، ووضعوك في مقدِّمة الصُّفوف، ورحَّبوا بك ، وقبَّلوا يدك، ولمَّا دخلتَ عليهم، طلع البدر علينا، هؤلاء وأمثالهم رفعهم الإسلام وأعلاهم، لكن هناك أبطال حملوا الإسلامَ، فشتَّان بين أن يحملك الإسلام، وبين أن تحملَ الإسلام، حينما تجاهد وتضحي بالغالي والرخيص، والنفس والنفيس، حينما تواجهك المحنُ وتصبر، وتقدِّم كل ما عندك في سبيل الله، فأنت بهذا ترْفع الإسْلام .

النبي عليه الصلاة والسلام لمَّا كان في الطّائف، من منّا يمشي ثمانين كيلومترًا على قدميه؟ مِن هنا إلى النَّبَك، والطريق وعْرٌ صعبٌ، وما تمكنوا حديثًا أنْ يشقُّوه بالجبال إلا بالآلات الضخمة، والمهندسون الكبار عجزوا عن شقِّ هذه الطرق، إلاّ بعد أنْ قام أصحاب الخبرة في شقِّ الطرق، وفكّكُوا الآلات قطعة قطعة حتى استطاعوا أن يشقُّوا الجبال، فكيف صعد النبي عليه الصلاة والسلام إلى الطّائف؟ هل صعد للتَّنَزُّه؟ صعد لِيَلْقى المُعارضة والتكذيب والسُّخْرِيَة والضَّرْب، هكذا كان النبي عليه الصلاة والسلام، أما الآن إذا وضعوا إنْساناً بِمَكانٍ غير لائق، وما احْتَرموه يغْضب قائِلاً: أنا مقامي ليس هنا!! ماذا قدَّمْتَ للمُسْلمين والإسلام حتى تغْضب؟ فأنت تريدُ مَيِّزاتٍ فقط، ولا تتحمّل الأعباء والتكاليف .

أسْلم على يد أبي بكرٍ، أحْياناً في الدعوة إلى الله تَجِدُ كُلّ الجدّ كي تهدي إنسانًا ما، وتَجُرُّهُ جراً إلى الدرس، ثمّ يأتي درساً وعشرة دروس لا يأتيها، وإذا جاء تجده نائِماً، وإنْ كان جالِساً تجده يُفَكِّر في غير موضوع الدرس، وباله مشْغولٌ! وأحْياناً يُوَفِّقُك الله في دَعْوتك لِشَخْصٍ ، فإذا بك تجده أصْبح علَماً من

أعْلام الدين، على ورَع وعِلمٍ وبذْلٍ وتَضْحِيَة ودَعْوة، تجده مثل الأمَّة، والآية التي تَهُزّ مشاعِري هي قوله تعالى:

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

(سورة النحل الآية: 120)

فأنت قد تكون فرْداً، وقد تكونُ أُمَّة، فإذا بذَلتَ من ذات نفسك، من عِلمك وخِبْرتك، ومن وقتك ومالك وجُهْدك للآخرين، وصَبَرْتَ عليهم إلى أنْ أخَذْتَ بِأيْديهم إلى الله عز وجل فاسْتقاموا على أمر الله، كلما ألْقَيْتَ عليه نظرةً يدخل إلى قلبك سرور لا يعْلمه إلا الله، هذا قُرَّةُ عَيْنٍ لك .

لذلك أهْلُكَ الحقيقيُّون هم الذين اهْتَدَوا على يَدَيْك، وآباؤك الحقيقيُّون هم الذين أسْدَوا إليك الهُدى، مرةً قال أحدُهم: آباؤك ثلاثة: أبٌ أنْجَبَكَ، وأبٌ زَوَّجَك، وأبٌ هداك إلى الله، فالذي أنْجَبَكَ كان له فضْلٌ كبير عليك، لأنه سبب وُجودك، ولكن هذا الوُجود ينْتهي عند المَوْت، فإذا انْتهى الوُجود انْتهى فضْل الأب، والذي زوَّجَك أبٌ آخر له فضْلٌ عليك، ولكن حينما ينْتهي الزواج بالموت ينْتهي فَضْلُهُ، أما الذي هداك إلى الله فالخَيْر الذي جاءَكَ من قِبَلِه يسْتمرّ معك إلى أبد الآباد ، سَألني أحدهم فقال: أيُّهم أعظم؟ فقُلْتُ: حسب المُدَّة، فعلى قدْر المُدَّة التي تنْتفع بها منه، لكن أكْملُ شيءٍ أنْ يقول المرءُ: تَعَلَّمْتُ على يد والِدي، فإذا كان الأب الذي أنْجَبَك هو الذي هداك فهذا من أرْوَع ما يكون، أو أنَّ الأب الذي زوَّجك هو الذي هداك كذلك من أرْوَع ما يكون، فأنْ تَجْتَمِعَ أُبُوَّتان في أبٍ فشيءٌ رائعٌ .

الشهادة العليا التي حازها سعد بن أبي وقاص من رسول الله :

أيها الأخوة، لا يوجد صحابي جليل فداهُ النبي عليه الصلاة والسلام بِأُمِّهِ وأبيه إلا سعْد بن أبي وقاص، فعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: مَا سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَمَعَ أَبَوَيْهِ لِأَحَدٍ إِلَّا لِسَعْدِ بْنِ مَالِكٍ فَإِنِّي سَمِعْتُهُ، يَقُولُ يَوْمَ أُحُدٍ:

((يَا سَعْدُ ارْمِ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي))

[أخرجه البخاري في الصحيح عن علي]

أيها الأخوة، لو سألتُم كلَّ الناس العُقلاء وخاصَّتهم عن أعْلى شيءٍ يُمْكن أن تصِلَ إليه لَقالوا: هو أنْ يرْضى الله عنك، لأنه إذا رضي عنك أرْضى عنك كُلّ شيء، وإذا أحبَّك الله ألْقى حُبَّك عند كُلِّ الناس: يُنادى له في الكَون أنَّا نحبُّه فَيَسْمع من في الكَون أمر مُحِبِّنا

فإذا هِبْتَ الله هابك كُلُّ شيء، وإذا خِفْتَ الله خافك كُلّ شيءٍ، وإذا أحبَّك الله أحَبَّكَ كُلّ شيء، وإذا أطعْتَ الله أطاعَكَ كُلّ شيء، وإذا أقْبَلْتَ على الله أقْبل عليك كُلّ شيء، ليس هناك شيء أشقى من أن تعيش في

سَخَط الله، وأنْ يكون عملك ومِهْنَتُك وكَسْبك في سَخَط الله، وقتُ فراغه في سَخَط الله، ولَهْوُهُ في سَخَط الله، وجِدُّهُ في سَخَط الله، وسَفَرُه في سَخَط الله، فهذا هو الشقيّ، الذي يرى المَعْصِيَة حلالاً .

إذاً: لمَّا قال له النبي صلى الله عليه وسلّم: اِرْمِ سَعْدُ فِداك أبي وأُمِّي، فهذه أكبر شهادة، ومرَّة ثانية أقول: إذا أحَبَّكَ المؤمنون فهذا وسامُ شَرَفٍ، قد تتَوَدَّد من أجل أنْ تدخل على الأغنياء من أجل شيء تافِه، لذلك من توَدَّد إلى الأغنياء خرج من عِنْدهم وهو ساخِط على الله، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِذَا أَرَدْتِ اللُّحُوقَ بِي فَلْيَكْفِكِ مِنْ الدُّنْيَا كَزَادِ الرَّاكِبِ، وَإِيَّاكِ وَمُجَالَسَةَ الْأَغْنِيَاءِ، وَلَا تَسْتَخْلِقِي ثَوْبًا حَتَّى تُرَقِّعِيهِ))

[أخرجه الترمذي في سننه عن عائشة]

أيها الأخ الكريم، فأنت لا بد أنْ تُصاحب المؤمنين، وتدخل عليهم، وهم الذين يعْرفون قيمتك وفضْلك وورَعَك وعِلمك وحُبَّك لله، وشَوْقك إليهم، لذلك لا تصْحَب من لا يُنْهضك حاله، ولا يدلُّك على الله مقاله، وقتُك ثمين، فالبُطولة باخْتِيار الصديق، أن يكون مؤمناً مُخْلصاً ودوداً، إنْ أدْبَرَت الدنيا عنك أقْبَلَ عليك، وإنْ أقْبَلَت ابتعَدَ عنك، أما أهل الدنيا إنْ أقْبَلَت عليك الدنيا أقبَلوا عليك، وإن أدْبَرَت أدبَروا عنك، وهؤلاء أشْأمُ الناس .

ما هي الأسلحة التي كانت في جعبة سعد بن أبي وقاص ؟

سيّدنا سعْد بن أبي وقاص كان يقول:

((والله إني لأوَّلُ رجُلٍ من العَرَب رمى بسَهْمٍ في سبيل الله))

هذا الصحابي الجليل معه سِلاحان قويَّان: رُمْحُهُ ودُعاؤُهُ، فقد كان مُسْتجاب الدعوة، لماذا كان مُسْتجاب الدعوة؟ لأنَّ النبي عليه الصلاة والسلام دعا له أنْ يكون مُسْتجاب الدعوة، فقال: اللهم سدِّدْ رَمْيَتَهُ، وأجِبْ دَعْوَتَهُ، خرجت من أعماق قلبه، أُحِبّ أن أربط الماضي بالحاضِر، والسيرة منهج في حَياتِنا ، أحْياناً تخْدُمُ إنْساناً خِدْمة، فَيَقول لك: وفَّقك الله وأحسَن إليك، وجزاك الله عنا كُلّ خير، تَشعُر أنها خرجت من أعمق أعْماقه، فهذه الدّعْوة أيها الأخوة، والله خيرٌ لك من الدنيا وما فيها .

إليكم هذه القصص نستنبط منها العبر والحكم :

قِصَّة أعْرفها جيِّداً، بطلها أحدُ أخْواننا، بيتُه بالأجرة في أحد الأحياء الراقِيَة بدِمَشْق، ففي أثناء أزمة السكَن الخانِقة، قالتْ له صاحِبَةُ البَيْت يا فلان، أريد البَيْت، ألم تَقُل لي: عندما تُريدين البَيْت سأخْرُج

منه، فقال لها: أنا حاضِرٌ، فقالتْ له: غداً تعال، في اليوم الثاني جاء فإذا به يجد مُحاميًا، وقد جهّز الأوراق للتوقيع فوقعها المستأجِر، فإذا بالمُحامي، يقول له: أنت مجْنون، كيف تُوَقِّعَ هذه الأوْراق؟ لقد أصْبَحْتَ في الطريق فجاءني، وقال لي: هكذا فَعَلْتُ، فقُلْتُ له: ليس لك إلا الله، ودَلَلْتُهُ على قِيام الليل، لأنَّ النبي عليه الصلاة والسلام، يقول:

((يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ، يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟))

[أخرجه البخاري في الصحيح]

القِصَّة طويلة، ولكن مُلَخَّصُها: خلال ستَّة أشْهر وجدَ بيْتاً في بناء عَمَلِه، وله دُكان شهيرة، والبناء عالٍ ومفْتوحٌ مِن ِأرْبع جهاتٍ، هذا تَوْفيقٌ من الله عجيبٌ !! قال لي: أنا وقفْتُ فإذا بي أجد نفْسي في بَيْتٍ أملِكه، سِرُّ هذه القِصَّة أنَّ صاحِبَة هذه البيْت لها بِنْتٌ عانِس، وقد فاتَها قِطارُ الزواج، ثمّ جاءَها شابٌ يَخْطُبُها، وقد أعْجَبَتْهُ، ولكِنَّ المُشْكلة ليس عنده بيتٌ، فقالت هذه البِنْتُ لِأُمِّها: سلي فُلاناً المستأجِر، هل يُمْكِنُهُ أنْ يُعْطِيَنا البَيْت؟ وحدث الذي عَلِمْتُموه، فهذه الفتاة العانِس ذَهَبَتْ لأداء العُمْرة، ومن أوَّل الطريق وفي مكَّة وفي الطَّواف وفي السَّعْي وفي المدينة وفي العَوْدة، تقول: يا رب وَفِّقْ فُلاناً لِبَيْتٍ أحْسن من بيْته، لأنَّهُ جَبَرَ خاطِري، فجَبَر اللهَ خاطره حقًّا، فإذا دعا لك أخوك دَعْوَةً صادِقة، واللهِ أيها الأخوة، هي خيرٌ لك من الدنيا وما فيها .

فإذا قضيْتَ لأخيك حاجةً من حاجاتِ الدنيا، وقال لك: جزاك الله خيراً، فهي خيرٌ لك من الدنيا وما فيها، كان هناك أخٌ من أخْواننا يُعاني أزمة صعبة مع أهْله، فأحدُ أخْواننا أمَّن له بيْتاً، فلما اِلْتَقَيْتُ معه، قُلْتُ له: واللهِ من أعْماقي أشْكُرك، لأنَّك أعَنْتَ أخاً، ونحن يا أيها الأخوة، مَجالِسُنا ليْسَتْ مجالسُ كلام، مجالِسُنا مجالِسُ مُعاونَة، نحبّ أنْ نعيش عَيْشَة النبي مع أصْحابه، وهذه هي سُنَّتُهُ، حياةُ المَوَدَّة والمُعاونَة، حياةُ الأُخُوَّة الصادِقة والمُؤاثرة، هل من مرَّةٍ وجدتَ أخاً بلا شُغْلٍ؟ فقُلْتَ له: دخْلي بيْني وبيْنك، فهكذا فعل الصحابة .

أخٌ بيننا يحْضُر جاءهُ أخٌ في الله، وكان يشْتغلُ ويتقاضى بالشهْر ألفَيْن وخمسمئة ليرة، أو ثلاثة آلاف، وقال له: فَقَدْتُ عملي، وأنا مُتَزَوِّج حديثًا، فقال له هذا الأخ الكريم: تعال، وخُذْ نِصْفَ دخْلي، وهي ثلاثة آلاف، إنّه موقف بُطولة، أقْسَمَ بالله وهو حيٌّ يُرْزق، ولعلَّهُ بيننا: أنَّ الشهْر الأول أكرمهما الله بثَلاثين ألفًا، ققز َدخْلُهما من ثلاثة آلاف إلى ثلاثين ألفًا، قال تعالى:

(ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

(سورة غافر الآية: 64)

إنّ الدعاءُ أكبر سِلاحٍ، خالقُ الكَوْن معك، ولذلك قال العلماء: إذا الْتقى الإنْسان بِشابٍ بارٍّ لِوالِدَيْه لِيَسْأَلْهُ الدعاء، لأنَّ دعاءهُ مُسْتجابٌ، فَمَن كانَ باراً بوالِدَيْهِ فقد أكْرَمَهُ الله بأنْ جعلَهُ مُسْتجاب الدعوة . بِالمُناسبة، أنْ تُسْتَجابَ دعْوَتُك هذه من إكرام الله لك، وإحدى كرامات المؤمن أنْ يجْعَلَهُ اللهُ مُسْتجاب الدَّعْوة .

إليكم غيرته على أصحاب رسول الله مما دفعه إلى الإلتجاء على باب الله بشأن هذا الرجل :

يُرْوى أنَّ سيّدنا سَعْد رأى رَجُلاً يسُبُّ علِياً كرَّم الله وجْهه وطلْحة والزبير فنهاهُ فلم ينْتهِ ، فقال له: أدْعو عليك، فقال الرجل: أراك تهددني كأنَّك نبيّ، فانْصَرَفَ سعْدُ وتوضَّأَ وصلى ركْعَتَين، ثمّ رفع يديه، وقال: اللهم إنْ كنت تعلم أنَّ هذا الرجل قد سَبَّ أقْواماً قد سَبَقَتْ منك لهم الحُسنى، وأنه قد أسْخَطك سَبُّهُ إياهم فاجْعَلْهُ آيةً وعِبْرة، ولم يمْض إلا الوقتُ اليسير حتى خَرَجَت من إحْدى الدور ناقةٌ شاردة لا يَرُدُّها شيء، فدخلتْ في زحام الناس كأنها تبْحثُ عن شيء، ثمَّ اقْتَحَمَت الرجل، وأخَذَتْهُ بين قوائِمِها، وما زالتْ تَخْبِطُهُ حتى مات .

قصص من هذا القبيل :

حَدَّثني أخٌ بِمَعْمل، فقال: كان هناك خبير من بلادٍ كافرة، في أثناء تَجَوُّلِهِ بين الآلات سمع كلمة (الله)، فطلب تَرْجَمة لها، فلما علم أنها (الله) فإذا به يشْمَئزّ ويسبّ، وفي أثناء مروره اقترب من آلةٍ فدخل ثوْبُهُ بين المُسَنَّنات، فحَمَلَتْهُ إلى سَقْفِ الغُرْفة، ثمّ رمَتْهُ أرْضاً ميِّتاً، فَبَيْنَ سِبابِهِ للذات الإلهيّة وبين تَحْطيمه لم يمض إلا ثوانٍ .

فإذا ظلَمْتَ أحداً وكانَ ضعيفاً، وقال لك: شَكوتُك إلى الله فإذا كنت تعْرف الله فلا بد أنْ ترْجف مفاصِلك، قالوا لك: فإنّ القانون إلى جانبك، وخصمك ضعيف، ومعه وثيقة، وأقام دعوى عليك، وتخلَّصتِ منها عن طريق القاضي، وقُلتَ له: هذا الحاضر واشْرب البحر الآن، فقال لك: شكوتُك إلى الله، فاحذَرْ .

يَرْوون قِصَّة قد تكون رمْزيَّة ولكنَّها مُؤثِّرة، أنَّ رجُلاً كان يأكل مع زوْجَتِه الدجاج، فإذا بالباب يُطْرق، فقامَتْ لِتَرى من الطارق، فإذا بالباب سائِل، فالزوجة أرادت أنْ تُطْعم ذاك السائل، ولِبُخل الزوج صار يسبّها ويعَنِّفُها، وقال: اطْرُديه، فَطَرَدَتْهُ، وعادت، ولا زالت العلاقة تسوء بينه وبيْنها إلى أنْ طلَّقها، وبعد تطْليقها تَزَوَّجَها إنْسانٌ آخر فقير، وهذا الإنسان أخذ اللهُ بِيَدِهِ حتى أصبح غَنِيّاً، ومرَّةً كانت تَجْلِسُ

معه يأكلان الدجاج، وإذا بالباب يُطْرق، وعادَتْ مُضْطَربة فقال لها: ما بك؟ فقالت: لا شيء، سائِلٌ، فقال: من هذا السائِل؟! قالَتْ: إنه زوْجي الأول، قال: أتَعْلمين من أنا؟ أنا السائِلُ الأول، الله أكبر .

أحْياناً يتوفى الرجل، فإذا بالابن الأكبر يأخذ كلّ ثروة أخوته الصِّغار، والأم معه، ويسْتولي على البيت والمزرعة، ويُكَلِّف أخوته البنات بأنْ يوكِّلْنَه وكالة عامَّة، فيحتال عن طريق تلك الوكالة، ويَحْرُمُهُنّ ميراثهن، ويظنّ أنه قد فاز، ونسي أنّ الله عز وجل قادرٌ على أنْ يجعله يشتغل بعد حين أجيراً عند أخْوته الصِّغار، وقد وقع الكثير من هذا، والله يمْتَحِنُك، وبعْد حين يأتي الردّ، فما معنى قوله تعالى:

(وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً)

(سورة الفجر الآية: 22)

لقد فَسَّرَها العلماء: جاء أمر ربِّك، واللهُ يُرْخي لك الحَبْل، فإذا به تجِدُه يتعالى، ويغْتصب وينْتهك أعْراضًا، ويقْهر الضعيف، إلى أنْ يأتي أمرُ الله، عندئذٍ يأتي وقتُ الحساب، فتأتي الأمور على خِلاف ما يريد، وعندها يُدمِّره الله عز وجل جزاءً وفاقًا .

سعد كان من أولئك الرجال الذين أمدهم الله بسعة في المال :

سيدنا سعد، هذا الصحابي الجليل كذلك قِصَّته غريبة، فقد كان غَنِياً، ولكن قيل: قلَّما يجْتمعُ المالُ الوفيرُ مع الحلال، أما هذا الصحابي كانت أمْواله كثيرة من وَجْهٍ حلال، أمّا الآن فإذا وَجَدتَ غِنى فُجائيًا، فهذا شيءٌ يُحَيِّر العقول السليمة، أكبر شركة في العالم من دون اسْتِثناء وَزَّعَتْ أرْباحاً بِنِسْبَة ثمانِيَة عشر بالمئة، لكن الذي يُعْطيك بالمئة سبعين أرباحاً، فهذه تَمْثيلِيَّة، وكثير من الأشخاص تجدهم يربحون رِبْحاً خيالِياً، ثمّ تجد المال قد ذهب، فالمال الوفير إذا لم تكُن لصاحبه اسْتِقامة فإنّه يُظَنّ أنه مال حرام، أقول: يُظَنُّ، لا على اليقين، فسيّدنا سعد اجتمع عنده الحلال الطيِّب الكثير، لكن هناك من تجده أسْتاذاً في فنِّ الكَسْب، وأسْتاذاً في العطاء، فماذا قال سيّدنا ابن عَوْف: يا رب، وماذا أصْنع إذا كنتُ أنْفقُ مئة في الصباح فَيُؤْتيني الله ألفاً في المساء؟

عَنْ سَعْدَ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، قَالَ:

((عَادَنِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ مِنْ وَجَعٍ أَشْفَيْتُ مِنْهُ عَلَى الْمَوْتِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! بَلَغَ بِي مِنْ الْوَجَعِ مَا تَرَى، وَأَنَا ذُو مَالٍ وَلَا يَرِثُنِي إِلَّا ابْنَةٌ لِي وَاحِدَةٌ، أَفَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثَيْ مَالِي؟ قَالَ: لَا، قُلْتُ: أَفَأَتَصَدَّقُ بِشَطْرِهِ؟ قَالَ: لَا، قُلْتُ: فَالثُّلُثِ؟ قَالَ: وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ، وَلَسْتَ تُنْفِقُ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أُجِرْتَ بِهَا حَتَّى اللُّقْمَةَ تَجْعَلُهَا فِي امْرَأَتِكَ))

[أخرجه البخاري في الصحيح]

لذلك في السنة لك الحق في التصرُّف في الأعمال الصالحة كبناء المساجد، والنفقة على طلاب العِلم، ونشْرُ الكُتُب، وإطْعامُ الفُقَراء، وأبواب الخير كثيرة، ولكن كل هذه الأموال التي اجْتمعت لا تزيد عن رُبُع المال، لأنّ الثُّلُثُ كثير، ثمَّ قال عليه الصلاة والسلام:

((إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ))

[أخرجه البخاري في الصحيح]

كنتُ أردِّد كلمة دائمًا: الفقير أنت له، وغيرك له، ولكن ابْنك مَنْ له غيرك، فلذلك:

((إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ))

[أخرجه البخاري في الصحيح]

هل تعْرفون أنَّ هناك وَصِيَّة محرَّمة؟ هي الوَصِيَّة لِوارث، هذا لدَيْه امرأة وخمْسة أوْلاد ، فيوصي بثُلُث مالِه للفقراء، ولا يمْلك إلا بيْتاً تِسْعين متراً، أين يذهب أولادك؟ فالضَّرر بالوَرَثَة من أجل الوَصِيَّة، هذه الوَصِيَّة حرام،

((إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ، وَلَسْتَ تُنْفِقُ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أُجِرْتَ بِهَا حَتَّى اللُّقْمَةَ تَجْعَلُهَا فِي امْرَأَتِكَ))

[أخرجه البخاري في الصحيح]

فإذا أطعم الإنسانُ أهْله وكساهم وأشْبَعَهُم وأضْحَكَهُم، أنت بهذا تبْتغي وجْه الله، دَخَلَ فقيرٌ على غَنِيٍّ فوَجد أنَّ تَكْلُفَة الحمام المَوْجود عند هذا الغَنِيّ تعدل خمسمئة ألف ليرة، والبيت أربعمئة متر، أحَسَّ هذا الفقير أنَّهُ كإنسان لا يعدل شيئًا، وهذا الغَنِيّ بدأ يتفَلْسَف، وقال: لم أقْصِد بهذا حبَّ الدنيا، ولكن للأخْذ بيَد أهْلي إلى الله والدار الآخرة، فلما رأتْ زوجةُ الفقير البيْتَ تشاجَرَتْ معه إلى أنْ وصل الأمر إلى ضربها، فماتَتْ، فقال هذا الرجل للغنيّ: أنا أخَذْتُ بيَدها إلى الدار الآخرة مُباشَرَةً، وشرُّ البلية ما يضحك.

سعد رجل من أهل الجنة كما قال المصطفى عليه الصلاة والسلام :

ذات يوْمٍ كان النبي عليه الصلاة والسلام جالِساً مع أصْحابه فنَظَر إلى الأُفُق بإصْغاء، ثمّ قال:

((يطْلع عليكم الآن رجُلٌ من أهل الجنَّة، فأخذ الأصْحابُ يلْتَفِتون صَوْبَ كُلِّ اتِّجاهٍ، يسْتَشْرفون هذا السعيد المُوَفَّقُ المَحْظوظ، ثمَّ أطلَّ سيِّدنا سعْد عليهم، فلاذَ به أحدُ الصحابة، وقال له: قُل لي: ماذا تفْعل؟ وكيف اسْتَحْقَقْتَ هذه البشارة من رسول الله؟ وبعد إلْحاح، قال له: لا أعمل إلا ما تعْملونه جميعاً من العِبادة، أصوم وأصلي وأغضّ بصري، غير أني لا أحمل لِأحدٍ من المُسلمين ضِغْناً ولا حقدًا ولا أبغيهم سوءًا))

لذلك عندما نجد بين المُسلمين مُشاحنات وحسد، أحُسّ بضيقٍ ليس له حدود، أما إذا وجدتُ مودَّةً وحباً ووفاقًا، أشْعُر براحَةٍ كبيرة، فالذي جعله النبي صلى الله عليه وسلّم من أهلِ الجنّة أنّه لا يحْمل في قلبه ضِغْناً ولا سوءًا .

هذا الصحابي، إنه الفارسُ يوم بدْر وأحد، وفي كلِّ مَشْهَد شهدَهُ النبي عليه الصلاة والسلام .

سعد لم يمنعه بره لوالدته ترك دينه كما أمرت :

آخر قِصَّة لِهذا الصحابي، كانت مع أمِّه، أنا أدْعو ليلاً نهاراً لِبِرِّ الوالِدَيْن، لكن يُؤْلِمُني أشدّ الألم حينما أرى مؤمناً يسْتَجيبُ لأبٍ فاسِقٍ ويُطيعُهُ، ويعصي الله عز وجل، هذا ليس براً إنما هو معْصِيَةٌ وضَعْف، فسَيِّدُنا سعْد حاوَلَتْ أمُّهُ كثيراً أنْ تصرْفَهُ عن هذا الدِّين فلم تُفْلِح، فاسْتَخْدَمَتْ آخر ورقةٍ رابِحَة بيَدِها، وهي حياتها، فقالت له: يا سعْد، إني سأصوم عن الطعام، ولن أفْطر حتى تكفر بمُحَمَّد أو أنْ أموت، سيّدنا سَعْد إيمانه كالجِبال، قال: تعْلمين واللهِ يا أمي، أنه لو كانت لك مئةُ نفْسٍ فخَرَجَتْ نفْساً نفْساً، ما تَرَكْتُ دينَ مُحَمَّدٍ، فَكُلي إن شِئت أو لا تأكلي، ثمَّ تلا قوله تعالى:

(وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

(سورة لقمان الآية: 15)

أنا أدْعوكم ليلاً ونهاراً، صُبْحاً ومساءً، في كُلِّ درْسٍ إلى برِّ الوالِدَيْن، أما أنْ أرى مؤمناً يُؤْمرُ بالمَعْصِيَة كالاخْتِلاط وكسْب المال عن طريق الرِّبا، لأن والده أمره بهذا، هذا ليس هو البر، والله تعالى يقول:

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً)

(سورة الإسْراء الآية: 23)

فمن عبد والِدَيْه بأن أطاعَهُما، وعصى ربَّهُ فقد ضلَّ سواء السبيل .

إليكم بيان الوصية التي كتبها عمر لسعد حينما أرسله إلى العراق :

لما أرسله سيّدنا عمر إلى العراق أعْطاهُ وَصِيَّة، وأحِبَّ أنْ ألْقيها على مسامِعِكم لأنها حاسِمَة، قال له:

((يا سعْدُ بن وهيب، لا يَغُرَّنَّك من الله أنْ قيل: خالُ رسول وصاحِبُه، فإنَّ الله ليس بينه وبين أحدٍ نسَبٌ))

فلا تتقرَّب من الشيخ ظناً منك أنه يُنْهي لك مُشْكِلاتك، ثم تقول: واللهِ ما انتهى شيء، والمعْصِيَة هي هي، تُحاسب عليها حِساباً عسيراً، لو اسْتَطَعْتَ أنْ تنْتَزِع من فم النبي عليه الصلاة والسلام فتْوى لِصالِحِكَ، ولم تَكُن مُحِقاً فلن تنْجُوَ من عذاب الله، عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ:

((إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، وَأَقْضِيَ لَهُ عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا فَلَا يَأْخُذْ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنْ النَّارِ))

[متفق عليه، أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح]

فإذا كان هذا النبي وعَظَمَته وقُرْآنه لا ينْفَعُك من دون الله، أيَنْفَعُكَ شيخٌ من دون رسول الله ؟

((الناسُ شريفهم ووضيعُهُم في ذات الله سواء، فالله ربهم، وهم عِبادُهُ، يتفاضلون بالعافِيَة، ويُدْركون ما عند الله بالطاعة))

سواءٌ كنت من نسبٍ رفيع أو وضيع، وسيم الهَيْئة أو ذميماً، ذكِياً أو بليداً، هذا كله لا قيمة له، بطاعة الله وحده تسْتطيع أنْ تصل إلى ما تريد، التعاوُنُ مع الله سهلٌ، ولا يوجد عند الله مُقَرَّبون ومُبْعَدون إلاّ بالتقوى، وهؤلاء من جماعَتِه، وهؤلاء ليسوا من جماعَتِه، فكلُّنا عباد الله، وطريقُ رِضْوانه، وما عنده من إكْرام يُنال بطاعته .

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

علام تدل هذه القصة ؟

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس السادس من دروس السيرة النبويَّة، وسِيَر الصحابة الكِرام رضْوان الله عليهم أجْمعين، وصحابيُّ اليوم هو أحدُ الصحابة العَشَرة الذين بشَّرهم النبي عليه الصلاة والسلام بالجنَّة، وهو سعيد بن زَيْدٍ، والأخْبار عنه قليلة، ولكن مع قِلَّتِها فيها دلالاتٌ كثيرةٌ .

هذا الصحابيّ الجليل، والده اسمه زَيد بن عمرو بن نُفَيل، كان مرَّةً في مكَّة المُكَرَّمَة، وكانت قُرَيْش تحْتفلُ بأحد أعْيادِها، فرأى الرِّجال يعْتَجِرون بالعَمائِم السُّنْدُسيَّة الغالِيَة، ويَخْتالون بالبُرودِ اليمانِيَّة الثمينة، وأبصر النِّساء والوِلْدان وقد لبسوا زاهي الثِّياب وبديع الحُلل، ونظر إلى الأنعام يقودُها الموسِرون بعد أن حلَّوها بأنواع الزِّينة ليذبحوها بين أيدي الأوثان .

وقف زيد بن عمرو بن نفيل والد سيدنا سعيد بن زيد، مُسْنَداً ظهره إلى جدار الكعبة وقال: يا معشر قريش، الشاة خلقها الله عز وجل، وهو الذي أنزل لها المطر من السماء فَرَوِيَت، وأنبت لها العشب من الأرض فشبعت، ثم تذبحونها على غير اسم الله عز وجل، إني أراكم قوما تجهلون .

ماذا تَدُلُّ هذه القصة؟ النبي عليه الصلاة والسلام لم يُبعث بعد، وهذا الإنسان ما الذي جعله ينكر على قومه هذه الأفعال؟ قال: يا معشر قريش، الشاة خلقها الله عز وجل، وهو الذي أنزل لها المطر من السماء فَرَوِيَت، وأنبت لها العشب من الأرض فشبعت، ثم تذبحونها على غير اسم الله عز وجل، إني أراكم قوماً تجهلون .

أسألكم سؤالاً يبدو لكم أنه لا علاقة له بهذه القصة، كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يُهَوِّدَانِهِ أو يُنَصِّرانِهِ أو يُمَجِّسانِهِ، لِمَ لمْ يقل النبي عليه الصلاة والسلام: أو يُسْلِمَانه؟ لأن الإسلام هو الفطرة، والفطرة هي الإسلام، وهذا الإنسان جُبِلَ جِبِلَّةً، وبُنِيَ بناءً، وصُمِّمَ تصميما حيث إنه إذا عرف الله عز وجل، وعرف أمره، وطبَّق منهجه ارتاحتْ نفسه، وإذا حاد عن منهج الله تغلي نفسه وتضطرب، لذلك فالعصاة في حالة غليان، و في حالة اختلال توازن، كما سمَّاها علماء النفس، وسمَّاها العلماء أيضاً ُعْقْدُة الذَّنْب، فحينما خرج عن فطرته شعر بخلل، والله جل جلاله أشار إلى الفطرة قال تعالى:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

(سورة طه الآية: 124)

هذه هي المعيشة الضنك حينما تسلك في الحياة سلوكاً غير سُلوك الدِّين، وغير المنهج الذي رسمه الله لك تشعر بالاضطراب والضيق، فالإنسان إذا أحبَّ ذاته ووُجوده، وسلامة وُجوده وراحة نفسه، وأحَبَّ اسْتِقْرارها وطُمَأنينتها، وأنْ تتنَزَّل السكينة على قلبه فَعَلَيْهِ بطاعة ربِّه عز وجل .

قيمة هذه القصة أنَّ والد سيّدنا سعيد بن زيدٍ عاشَ قبل بِعْثة النبي وما سمِع بالقُرآن ولا بالنَّبي العَدنان، ولا قرأ كتاب الله، ولا نُقِلَتْ إليه الأحاديث الشريفة، شيءٌ فِطْري فَفِطْرَته السليمة أبَتْ هذه العادات القبيحة .

ما المقصود في هذه الآية فأقم وجهك للدين حنيفاً ؟

أيها الأخوة، الله عز وجل يقول:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة الروم الآية: 30)

إعراب هذه الكلمات في هذه الآية أنَّك إذا أقمْتَ وجْهَكَ للدِّين حنيفاً، إقامة وَجْهك للدِّين حنيفاً هي عَيْنُها فِطْرة الله .

لذلك أيها الأخوة، أصْدُقكم أنَّ المؤمن المُسْتقيم على أمر الله يشْعر براحَةٍ نفْسِيَّة وطُمأنينةٍ وسكينةٍ، لو وُزِّعَتْ على أهل بلْدَةٍ لَكَفَتْهم، ويشْعُر المُعْرِض عن الله عز وجل باضْطِرابٍ واخْتِلال توازُنٍ وعُقْدة نقْصٍ، وشُعورٍ بالذَّنْب وقلقٍ واضطراب وغَلَيانٍ، لو وُزِّع على أهل بلْدَةٍ لَكَفَتْهم، هذا الإنسان على الفِطْرة، إنما فطرته السليمة قادَتْهُ إلى اسْتِنْكار أفْعال قُرَيْشٍ .

ما هو موقف الخطاب والد عمر من قول زيد بن عمرو والد سعيد ؟

أمَّا عمُّ زيد بن عمرو فهو الخطَّاب، والد عمر بن الخطَّاب، قال تعالى:

(يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ)

(سورة الروم الآية: 19)

قالوا: هذا الخطَّاب والد عمر بن الخطَّاب، قام إليه فلطمه، وقال: تبًّا لك ما زلنا نسمع منك هذا البذاء، هذا الكلام السخيف، ونحتمله حتَّى نفد صبرنا .

مرَّةً ثانية، منذ أن خلق الله الأرض ومن عليها وإلى يوم القيامة، هناك معركة أزلية أبدية بين الحق والباطل في كل عصرٍ ومصرٍ، وفي كل مجتمع وبيئة، وبين أهل الإيمان وأهل الكفر والعصيان،

المؤمنون يحبُّون الناس جميعاً، هذه صبغة الله التي اصطبغوا بها، لكنَّ أهل الدنيا لا يحبون المؤمنين، دائماً يقفون في الصفِّ المعارض .

لذلك أيُّها الأخ الكريم، وَطِّنْ نفسك أنَّك إذا اتَّبعتَ منهج الله فسيكون لك خصومٌ وأعداء، ومنتقدون ومُجَرِّحون، ولك من يعيب عليك، ويبحث عن أخطائك الطَّفيفة ويكبِّرَها، ليُثبت لنفسه وللنَّاس أن الدِّين لا يصلح لهذا الزَّمان، لهذا قال عليه الصَّلاة والسَّلام:

((أنت على ثُغرةٍ من ثُغر الإسلام فلا يُؤْتَيَنَّ من قِبَلِك))

[ورد في الأثر]

المسلم هو بشرٌ، وليس معصوماً، لكن أهل الباطل يسلِّطونُ على أخطائه الطَّفيفة أشدَّ الأضواء، ويكبِّرُونها أشدَّ التَّكبير، ويُشهِّرون به أشدَّ التَّشهير حتَّى يرتاحوا، لأنَّهم إذا رأوا المسلم إنساناً ناجحاً منضبطاً ظهر خللُهم ونقصهم وعيبهم، فإذا نهشُوه بألسنتهم، وكبَّروا أخطاءَه ارتاحوا، فالمسلم العاقل لا يمكن أهلّ الباطل من خطأ عليه، ولا يُمِّسك أهل الباطل خطأً يتاجرون به .

يُروَى أنَّ أحدَ الملوكَ الطُّغاةَ أرادَ أن يضعَ العلماءَ في موقفٍ صعبٍ، فوضعَ لحمَ خنزيرٍ، وأمرهم أن يأكلوا منه، ومن لم يأكل ضُرِبَتْ عُنُقُه، أحدُ العلماء الورعين الذين أحَبَّهم الناسُ حبًّا جمًّا قُدِّم له اللَّحمُ، وقيل له: هذا لحمُ ضَّأن وليس لحم خنزير، جيء به لأجلك، كُلْهُ ولا تَخَفْ، فرفض أن يأكله حفاظاً على سمعة العلم، وقال لهم: أنا آكلُ لحم الضَّأن، ولكنه عند الناس لحم خنزير، فرفض أن يأكله، وضحَّى بحياته حفاظًا على سمعة العلم والعلماء .

إنَّ هذا الدِّين قد ارتضيتُه لنفسي، ولا يُصلحُه إلاَّ السَّخاء وحُسْنُ الخُلق، فأكرموه بهما ما صحِبْتُمُوه، هناك داعية وهناك مُنَفِّرٌ، الدَّاعية يعطي المثل العالي ويُدهش الناسَ مِن كماله وأخلاقه ، أمَّا المُنَفِّرُ فيُبَعِّدُ ويَقطع، فالإساءةُ من مسلمٍ إساءتان، لأنك إذا أسأتَ يُقالُ لك: أهكذا الإسلام؟ فلا تُنْسَبُ الإساءة إليك بل إلى إسلامك، فكل إنسان له موضعٌ قِياديٌّ يُحاسب مرَّتين، قال تعالى:

(يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً)

(سورة الأحزاب الآية: 30)

لذلك أيُّها الأخوة الأكارم، موقفٌ أخلاقيٌّ واحدٌ خيرٌ من مئة محاضرة، عفة في المحاسبة ، دخلٌ حلالٌ، موقفٌ فيه شهامة فيه مروءة، وإنصاف وتواضع، أفضل بكثير للمسلمين اليوم من مُحاضرة عَصْماء بليغةٍ، لذلك أصحاب النبي لو اكْتفَوا بالكَلام لما خرج الإسلام من مكة المكرمة ، لكن وصل الإسلام إلى أطراف الصين وإلى وسط أوروبا عن طريق سلوكهم وأفعالهم .

أيها الأخوة، ثمّ أغرى به سُفهاء قوْمه، فآذَوْهُ ولجُّوا في إيذائِهِ، حتى نزح عن مكة، والتَجَأ إلى أحد جبالها وشِعابِها، فَوَكّل به الخطاب طائِفَةً من شباب قُرَيْش لِيَحولوا بينه وبين دُخول مكَّة فكان لا يدْخُلُها إلا سِراً لأنه قال كلمة الحق، قال تعالى:

(وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)

(سورة البروج الآية: 8)

ما هو محور الاجتماع الذي اجتمع فيه زيد ومن معه ؟

قالوا: هذا زيد بن عمرو بن نفيل، اِجْتَمَعَ في غَفْلَةٍ من قُرَيْش إلى كلٍّ من ورقة بن نَوْفَل ، وعبد الله بن جَحْش، وعُثمان بن الحارث، وأُمَيْمَة بنت عبد المُطَّلِب عمَّة النبي صلى الله عليه وسلّم، وجعلوا يتذاكرون فيما غَرِقتْ فيه قُرَيْشٌ من الضلال، فقال زيْدٌ لأصْحابه: إنكم واللهِ، تعْلمون أنَّ قوْمكم ليسوا على شيءٍ، وأنهم أخْطؤوا دينَ إبراهيم وخالفوه، فابْتغوا لِأنفسكم ديناً تَدينون به إن كنتم تُريدون النجاة، فَهَبَّ الرِّجال الأربعة إلى أحْبار اليهود والنصارى وغيرهم من أصْحاب المِلَل، يَلْتَمِسون عندهم الحَنيفِيَّة دين إبراهيم، استمعوا إلى هذه الآية الكريمة، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة العنكبوت الآية: 69)

فإذا كنت في حَيْرَةٍ من أمْرِك، وبَحَثْتَ عن الحقيقة، وجَهِدْتَ من أجْلها ودَعَوْتَ الله عز وجل، وقلتَ: يا ربّ أبْتغي الحقيقة، وأبتغي وجْهَك الكريم ورضْوانك، دُلَّني على ما يدُلُّني عليك، اُرْزُقْني حُبَّك وحُبَّ من يُحِبُّك وحُبَّ عَمَلٍ يُقَرِّبُني إليك، اُرْزُقْني إلى أنْ ألْتَقِيَ مع أحْبابك، ومع من تُحِبُّهم، فهذا الدعاء له أثره إنْ شاء الله، وهذا قوله تعالى:

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة العنكبوت الآية: 69)

قال: أما ورقةُ بن نَوْفَل فَتَنَصَّر، وأما عبد الله بن جَحْشٍ وعُثمان بن الحارث فلم يَصِلا إلى شيءٍ .

إليكم قصة زيد وهو يبحث عن الحقيقة :

أيها الأخوة، أما زيد والد سيِّدِنا سعيد فكانت له قِصَّة ولْنَدَعْ له الكلام لِيَرْوِيَها لنا:

قال زَيْدٍ:

((وَقَفْتُ على اليهودِيَّة والنَّصْرانِيَّة فأعْرَضْتُ عنهما، إذْ لم أجِدْ فيهما شيئاً أطْمَئِنُّ إليه - طبْعاً بعد أنْ حُرِّفَ كلٌّ منهما- وجَعَلْتُ أضْرِبُ في الآفاق بحْثاً عن مِلَّة إبراهيم، حتى صِرْتُ إلى بلاد الشام، فذُكِرَ

لي راهِبٌ له علْمٌ من الكِتاب، فأَتَيْتُه وقصَصْتُ عليه أمْري، فقال: أراك تُريدُ دين إبراهيم يا أخا مكَّة، قُلْتُ: نعم، وذلك ما أبْغي، فقال: إنَّك تطلب ديناً لا وجود له اليوم، ولكِنَّ الحق ببَلَدِك، فإنَّ الله يبْعَثُ مِن قوْمِك مَن يُجَدِّدُ دين إبْراهيم، فإنْ أدْرَكْتَهُ فالْتَزِمْهُ))

وهذا مذكور في كتب النصارى، كما يبيِّنه قوله تعالى:

(وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ)

(سورة الصف الآية: 6)

وهناك بعض الطبعات للإنجيل فيها إشارة إلى النبي عليه الصلاة والسلام، منها إنْجيل بَرْنابا،

((فقفل زيدٌ راجِعاً إلى مكَّة بِخُطى حثيثة اِلْتِماساً للنبيِّ المَوْعود، ولما كان في بعض طريقه بعث الله نبيَّهُ محمَّداً بالهُدى ودين الحق، وبينما هو في الطريق ظهر النبي محمّدٌ، ودعا الناس إلى التوحيد، ولكنَّ زيْداً لم يُدْرِكْهُ، إذْ خَرَجَتْ عليه جماعَةٌ من الأعراب فقتَلَتْهُ، فالعَرَب في الجاهِلِيَّة كانوا قُطاعاً للطرق، قالوا: وقبل أن يبلغ مكَّة، وقبل أنْ تكْتَحِل عيْناه برُؤية النبي عليه الصلاة والسلام، وفيما كان يلْفِظ أنْفاسه الأخيرة، رفع بصره إلى السماء، وقال: اللهمّ إنْ كُنْتَ حَرَمْتني من هذا الخير، فلا تحْرِم منه ابني سعيداً))

نية المؤمن أبلغ من عمله :

هنا وَقْفَة لطيفة، وهي: قد يكون الأب ليس من الفِئة المُتَعَلِّمة، فإذا أنْجَبَ مَوْلوداً ووجَّهَهُ إلى العِلْم الشرعي، وأصبْح هذا الغُلام عالِماً جليلاً، فكُلُّ دَعْوة هذا الغُلام في صحيفة الأب، فما أجْمل الدُّعاء، فزيدٌ لم يلتق بالنبي، ولكنَّ هذه الدَّعْوة تركتْ أثراً كبيراً، أما أنْ تتزَوَّج وتتْرُك أولادك في ِالطُّرقات، يمارَسُون هِواياتهم، ويشبّون على معْصِيَة الله، وقد تذهب أخلاقهم، فهل هذه أُبُوَّة؟ في حين أنّ هناك من يُنْفِقُ أكثر وَقْتِه في تَرْبِيَة ابنه، فهذا الذي يُنْفقُ وَقْته في تَرْبِيَة ابنه يُعْتبر هذا أهمُّ وَقْتٍ تُنْفِقُهُ في حياتك، لأنَّ ابنك اسْتِمْرارٌ لك، وخليفةٌ لك، وكلّ الخير الذي يظهر من ابنك في صحيفتك، من أراد ألاّ يموت وأنْ يبْقى ذِكْره حياً فعليه بِتَرْبِيَة ابنه ترْبِيَة إسلامية صحيحة، فَلَعَلَّهُ ينْفع الناس من بعْده، والإنسان إذا مات انْقطع عمله إلا من ثلاث: أحد هذه الثلاث ولدٌ صالحٌ يدْعو له .

فهذا كانت له حُرْقة، وهي تَمَني لِقاء النبي، ولكنَّ فضل الله عز وجل كبير، فإنَّك إنْ كنتَ في أوَّل الطريق وجاءتْك المَنِيَّة فإنّ اللهَ عز وجل يُحاسِبُك الله وكأنَّك بلَغْتَ نِهاية الطريق، وهذا من كرم الله عز وجل، إنسان خرج من بيته يطلب العلم فإن أدْرَكَتْهُ المَنِيَّة فهو في ذِمَّة الله، وكأنه بلغ نِهاية العِلْم، وهذا من كرم الله عز وجل .

هل استجاب الله دعوة زيد بن عمرو ، وما هو المغنم الذي رزق به سعيد وزوجته ؟

فربنا عز وجل اسْتجاب لِزَيْدٍ دَعْوَته الحارَّة، وسيّدنا سعيد بن زيد ما أنْ بُعِثَ النبي عليه الصلاة والسلام حتى بادر إلى الإيمان به، وكان من السابقين السابقين، آمن به من قبل أنْ ينتقل النبي عليه الصلاة والسلام إلى دار الأرقم، والحقيقة أنّ سيّدنا سعيد بن زيْدٍ، أسْلَمَ وأسْلَمَت معه زوْجته فاطمة بنت الخطاب، أُخْتُ عمر بن الخطاب، وقد لَقِيَ هذا الفتى القُرَشي من قومه ما كان خليقاً أنْ يفْتِنَهُ عن دينه، فلقد آذتْهُ قريشٌ وضغطتْ عليهِ، لكنه اسْتطاع أنْ ينتزع منهم عِمْلاقهم سيّدنا عمر، حتى إنَّ النبي عليه الصلاة والسلام كان يدْعو، ويقول:

((اللَّهُمَّ أعِزَّ الْإِسْلَامَ بِأَحَبِّ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ إِلَيْكَ، بِأَبِي جَهْلٍ أَوْ بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، قَالَ: وَكَانَ أَحَبَّهُمَا إِلَيْهِ عُمَرُ))

[أخرجه الترمذي عن ابن عمر في سننه]

وقِصَّة إسْلام عمر قِصَّةٌ مؤثِّرة جداً، بلغه أنَّ أُخْته قد أسْلَمَتْ فانْطلَق لِيَقْتُلها، وسمع القرآن الكريم فَلانَ قلبه، وخشع فُؤاده، وانْهَمَرَتْ دُموعه، واتَّجَهَ نحو النبي عليه الصلاة والسلام، وقد تَوَجَّس أصْحاب النبي خيفَةً من عمر بن الخطاب، فإذا هو قد جاء مُسْلِماً، قد يكون شخصٌ عبئًا على الإسلام، وآخر في خِدْمة الإسلام، وشاء الله أنْ يسلم عمر على يد سعيد بن زيد وأخته فاطمة، فمهما لَقِيَ سعيد من اضطهاد من قومه لكنَّ الله عز وجل وفَّقَهُ إلى أنْ يجعل هذا الإنسان العظيم يُسْلِمُ على يَدَيْه، فَسَيِّدُنا عمر في صحيفة سيّدنا سعيد بن زيد، وفي صحيفة أُخته فاطمة بنت الخطاب .

ترجمة عن حياة الصحابي الجليل سعيد بن زيد :

سيّدنا سعيد بن زيد حينما أسلم، كانت سِنُّهُ لا تزيد عن عشْرين عاماً، وأنا أقول لكم: يا معْشر الشباب كلما بَكَّرْتُم بمَعْرِفة الله كُلَّما شَكَّلْتم حياتكم وِفْقَ منهج الله، واخْتَرْتُم مهْنَةً تُرْضي الله، وألْصق شيء بالإنسان مَن؟ زوْجَتُهُ ومهنتُه، فإن اخْتار زوْجَةً فاسِدَةً مِن أهل الدنيا، شَهْوانِيَّة شيْطانِيَّة، ثمَّ اهْتدى إلى الله عز وجل فإنّه يتَمَزَّقُ تَمَزُّقاً لا حُدود له، فهو في وادٍ وهي في وادٍ، ولا شيءَ أسعد للمؤمن من زوْجَةٍ تُعينه على دينه، ولا شيءَ أسعد للمؤمن من أنْ يكون هو وأهله على شاكلةٍ واحدة .

سيّدنا سعيد بن زيد شَهِد مع النبي عليه الصلاة والسلام المشاهد كلّها، إنّها هِمَّة عالية وقد يقول لك أخٌ: أنا آتي للدرس الجمعة والسبت والأحد، نقول له: تُشْكر على هذه الهمَّة العالية، ونسأل اللهَ عز وجل أنْ يُبارك له في وقتك، قال تعالى:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى * وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى * إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى * وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى)

(سورة الليل الآية: 5-13)

إذا كان الله معك فمَن عليك؟! وإذا كان عليك فمن معك؟! يا رب، ماذا فقَدَ من وَجَدك، وماذا وجد من فقدك؟! قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً)

(سورة الأحزاب الآية: 41)

فقد كان الصحابة أعلى منازل من شباب زماننا، فيقولون لك: شَهد المشاهد كلَّها، بدْرًا وأُحدًا والخندق وحُنينًا وتبوكَ ومُؤتة، أما الآن فلا حرْب ولا غزوة، وما عليك إلا أن تحضر الدرس وتسْتمع إلى كلام الله، والسنَّة النبوية المطهَّرة، ولأقوال الصحابة ومواقفهم المُشَرِّفة، ثمّ إنَّ المسجد نظيف، وهناك تكْبير صوت، وتَهْوِيَة وتدْفئة مرْكزيَّة، لا تحْتاج عند الدخول إلى وَصْل أو قسيمة أو استِلام، عكسَ دُخولِك للمحامي أو الطبيب، فإنّه يكلّفك مالاً كثيرًا، لكن بيْتَ الله دُخوله سَهْل .

إذاً: هذا الصحابي شَهد المشاهد كلَّها إلا بدْراً، لكنه تخَلّف عن بدْرٍ لأنَّ النبي عليه الصلاة والسلام كلّفَهُ بمُهِمَّة، فلما عاد إلى المدينة كان النبي قد خرج إلى بدْرٍ فلما لَحِقَ بالنبي عليه الصلاة والسلام كانت المعركة قد انتَهَتْ، فالنبي عليه الصلاة والسلام أعْطاه سَهْماً، وكأنه قد شَهدَ بدْراً إكراماً له .

سعيد خاض مع المسلمين معركة اليرموك :

هذا الصحابي الجليل، سعيد بن زَيْد أسْهَم مع المسلمين في استِلاب عرْش كِسْرى، وتقْويض مُلْك قيْصَر، وكانت له في كُلِّ مَوْقِعَةٍ خاض غمارَها المسلمون مواقف مشْهودة، وأيادٍ بيْضاءُ حميدة، ومن أرْوَع بُطولاته يوْمَ اليَرْموك، فقد قال:

((لما كان يوم اليرْموك كنا أربعةً وعشرين ألفاً، أو نحْواً من ذلك، فخَرَجَتْ لنا الروم بعِشْرين ومئة ألف، وأقْبلوا علينا بخُطى ثقيلة، كأنهم الجِبال تُحَرِّكُها أيْدٍ خَفِيَّة، وسار أمامهم الأساقِفة والبطارقة والقِسِّيسُون يحْمِلون الصُّلْبان، وهم يَجْهَرون بالصلوات فيُرَدِّدُها الجَيْش من ورائِهم، ولهم هزيمٌ كَهَزيم الرعد، فلما رآهم المسلمون على حالتهم هذه هالَتْهُم كثْرَتُهُم، وخالط قلوبهم شيءٌ من خَوْفِهم، فعنْدها قام أبو عُبَيْدة بن الجراح أمينُ هذه الأمة يَحُضُّ المسْلمين على القِتال، فقال: عِباد الله، أنْصُروا الله ينْصُرْكم ويُثَبِّتْ أقْدامكم، عباد الله، اصْبِروا فإنَّ الصبر منْجاةٌ من الكُفْر، ومرْضاةٌ للربِّ، ومدْحَضَةَ

للعار، أشْرِعوا الرِّماح، واسْتَتِروا بالتُّروس، وألزموا الصَّمْتَ إلا من ذِكْر الله تعالى في أنفسكم حتى آمركم إنْ شاء الله))

أحْياناً موقِفٌ واحدٌ يُغَيِّر مجْرى معْركة، قال سعيد بن زَيْد:

((عند ذلك خرج رجُلٌ من صُفوف المُسْلمين، وقال لأبي عُبَيْدة: إني أزْمَعْتُ أنْ أقْضِيَ نحبي الساعة، فهَل لك من رسالة تبْعَثُ بها للنبي صلى الله عليه وسلَّم؟ هكذا كان الصحابة، رأى المَوْت وبعده الجنَّة، رأى الموتَ يتألَّق، فقال أبو عُبَيْدة: نعم، أقْرِئه مني ومن المسلمين السلام، وقُل له يا رسول الله: إنا وجَدْنا ما وعدنا ربنا حقاً))

والنبي عليه الصلاة والسلام لما انْتَهَتْ معركة بدْر، ورأى صناديد قُرَيْش قد قُتِلوا وهم جُثَثٌ مُتَفَسِّخة خاطبهم واحدًا واحداً: يا شيبةُ، يا عُتْبة، يا فُلان، وتَرْوي كُتُب السيرة أنهم خاطَبَهُم فَرْداً فرْداً، قال:

((هل وجَدْتم ما وعَدَ ربكم حقاً؟ فإني وَجَدْتُ ما وعدني ربي حقاً، لقد أخْرَجْتُموني وآواني الناس، وخَذَلْتُموني ونصَرَني الناس، قالوا: يا نَبيَّ الله، أتُخاطِبُ قومًا جَيَّفوا؟ قال: ما أنتم بأَسْمَعَ لما أقول منهم، ولكنَّهُم لا يُجيبونني))

قال سعيد:

((فما إنْ سمِعْتُ كلامه ورأيته يمْتَشِقُ حُسامه، ويَمْضي إلى لِقاء أعْداء الله حتى خررتُ إلى الأرض، وجَثَوْتُ على رُكْبَتَي، وأشْرَعْتُ رُمْحي، وطعَنْتُ أوَّل فارسٍ أقبل علينا ، ثمَّ وَثَبْتُ على العَدُوّ، وقد انْتَزَعَ الله كُلّ ما في قلبي من الخوف))

فالإنسان إذا نوى أعانه الله، وبالمُناسبة مرَّ معي قَوْلٌ مأثورٌ يُعْزى إلى النبي عليه الصلاة والسلام:

((ما كان الله لِيُعَذّب قلْباً بشَهْوَةٍ تركها صاحِبُها في سبيل الله))

[ورد في الأثر]

حينما تخْتارُ اخْتِياراً صحيحاً فالله عز وجل يمْلأ قلبك غنىً وشَجاعَة وطُمَأنينة، إذا خاف الناسُ فأنت مُطْمئِنّ، وإذا ارْتَعَدَت فرائِص الناس فأنت مُتماسِك .

ثم قال:

((فثار الناسُ في وُجوه الروم، وما زالوا يُقاتِلونهم حتى كُتِبَ لهم النَّصْر))

أربعة وعشرون ألفاً انْتصروا على مئة وعشرين ألفاً، عِلْماً أنه إذا التقى مؤمن وكافر فالمَعْركة قصيرة لأن الموازين لِصالِح المؤمن والله معه، وإذا الْتقى الكُفار مع بعضهم بعضاً فإنَّ المعركة تطول، لأنَّ الموضوع للقُوَّة من السِلاح والتكنولوجيا، كلُّ المُقوِّمات التي يقولها الناس تدْخل في الحِسابات.

ما هي الحادثة التي ضجت بها أهل المدينة وتكلم بها الزمان طويلاً ؟

سيِّدُنا سعيد بن زيد شَهِد فَتْح دِمَشْق، فلما دانت للمسلمين بالطاعة جعله أبو عُبَيْدة بن الجراح والياً عليها، فكان سعيد أوَّل من وَلِيَ إمْرةَ دِمَشْق من المُسْلمين .

في زمن بني أُميَّة وقعتْ لسيِّدنا سعيد بن زيد حادثة ظلّ أهل المدينة يتحدَّثون بها زمناً طويلاً، وهذه القِصَّة أيها الأخوة تقع في كُلِّ زمان، ذلك أنَّ أرْوَى بنت أُوَيْس زعمتْ أنَّ سعيد بن زيد، قد غَصَب شيئاً من أرضِها وضمَّها إلى أرْضه، وجعلتْ تلوك ذلك بين المُسلمين، وتتحدَّثُ به إلى أنْ رفَعَتْ أمْرها إلى مروان بن الحكم والي المدينة، واضْطرّ الوالي أنْ يُرْسِل إليه أشْخاصاً لِيُحَقِّقوا في الأمر، فأرسل مروان بن الحكم أُناساً يُكَلِّمونه بذلك، فَصَعُبَ الأمر على صاحب رسول الله .

فأحْياناً يكون الشخصُ له دَعْوة إلى الله، مؤمن ومسْتقيم، يأتي خصمٌ له يتَّهمُهُ باتِّهامات لا أصْل لها، بل باطلة، ثمّ يُرَوِّجُها، وذلك غافِلٌ عن كلِّ هذا، حتى يصل الأمر إلى أنْ تسمع كلّ البلدة عما أذيع عنه، أين دينه واسْتِقامته؟ لأنَّ الشيطان يؤز الكافرُ أزاً .

فهذا الصحابي الجليل تألَّم أشَدَّ الألم، وهل معْقولٌ أنْ يعْتدي هذا الصحابي المُبَشَّر بالجنة على أرْضِها؟ وأين قوْلُ النبي واتباع السُّنة؟ وأين اسْتِقامته وطهارته وعِفَّتهُ؟ إذا كان لك أخٌ مؤمن وتعرفه حقَّ المعْرفة، وسَمِعْتَ عنه قِصَّة بإمْكانك أنْ تنْفِيَها عنه وأنت مُطْمَئِنّ، لا يُعْقَلُ أنْ يفعل هذا .

سيِّدُنا الصِّديق قيل له:

((أُنْظر ما قال صاحِبُك، إنه ذهب إلى بيت المقْدِس، وكانوا أساساً غير مُعْترفين به كَنَبيّ، وفوق هذا وذاك، قال لهم: إنْ قال هذا: فقد صَدَق))

فمن أساء الظنَّ بأخيه المؤمن فقد أساء الظنَّ بربِّه، هذا مؤمن ويعرف الله، ولا يسْتطيع أنْ يأكل دِرْهمًا حرامًا، الإيمان قَيْدُ الفَتْك، وحينما يُتَّهَمُ المؤمن يهْتزُّ عرشُ الرحمن، إنسانٌ مُسْتقيمٌ عرف الله، والْتَزَم أمْره، وضَحى بالغالي والرخيص، والنفْس والنَّفيس، ثمَّ تَتَّهِمُهُ أنت، وبِبَساطةٍ، فهذه المرأة أساءتْ إلى هذا الصحابي إساءةً بالغة، فصَعُبَ الأمر على صاحب رسول الله، وقال:

((يَرَوْنني ظالِماً أظْلِمُها، فكيفَ أظْلِمُها، وقد سَمِعْتُ رسول الله صلى الله عليه وسلَّم، يقول :

((من ظلَمَ شِبْراً من أرْضٍ طُوِّقَهُ يوم القِيامة من سبْع أرضين))

اللهم إنها قد زعَمَتْ أنني ظلمْتُها، فإنْ كانت كاذِبَةً فأعْمِ بصرَهَا وألْقِها في بئرها الذي تُنازِعُني فيها، وأظهرْ من حقي نوراً يُبَيِّنُ للمسْلمين أنني لم أظْلِمْها))

فالله عز وجل استجاب له، وأظْهرُ الحق .

إنَّ المؤمن ليس له اخْتِيار إذا رأى أمر الله وأمر رسوله، فالله عز وجل قال:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُبِيناً)

(سورة الأحزاب الآية : 36)

وإذا قال الله أو قال رسولُه، فالمؤمن يقول: سمعًا وطاعة .

حديثٌ عن رسول الله سَمِعَهُ بِأُذُنه من النبي صلى الله عليه وسلَّم:

((من ظلمَ شِبْراً من الأرْضِ كلَّفه الله تعالى أن يحفره حتى يبلغ سبع أرضين ثمّ يطوِّقهُ يوم القِيامة حتى يقْضي بين الناس))

[أخرجه الطبراني في الكبير]

قال:

((فلَمْ يمْضِ على ذلك إلا القليل حتى سال العقيق، وهو وادٍ في المدينة، سال هذا الوادي سيْلاً لم يسِل مثله قطّ فكَشَفَ عن الحدِّ الذي كانا يخْتَلِفان فيه، وظهر للناس جميعاً أنَّ سعيداً كانَ صادِقاً، ولم تَلْبث المرأة بعد ذلك إلا شَهْراً حتى عَمِيَتْ، وبينما هي تطوفُ في أرْضِها تِلك سَقطتْ في بئْرها، قال عبد الله بن عمر: فكُنا ونحن غِلْمان نسْمع أحدهم يقول للآخر: أعْماك الله كما أعمى أرْوى))

فأصْبَحَتْ مضرب المثل، وجعلها الله نكالاً، فعلى الإنسان ألاّ يقترب من حدود شَخْصٍ من ذوي الخير، ومن أصْحاب الدعوة، ومن شَخْصٍ تسْتفيد منه الناس، عليك أنْ تبْتعد عنه ، وقُلْ: حَسْبِيَ الله ونِعْم الوكيل، ولا عَجَبَ في ذلك فالنبي عليه الصلاة والسلام، يقول:

((اتَّقوا دعوة المظلوم فإنها ليس بينها وبين الله حِجاب))

[أخرجه أحمد في مسنده]

أولاد سعيد كما ورد في الخبر :

هناك خَبَرٌ في كتاب صِفَة الصَّفْوة، يقول: له مِن الولد عبد الله الأكبر، هذا واحد، وعبد الله الأصغر، وعبد الرحمن الأكبر، وعبد الرحمن الأصغر، وإبراهيم الأكبر، وإبراهيم الأصغر، وعمرو الأكبر، وعمرو الأصغر، وطلحة، ومحمد، وخالد، وزيد، وأمُّ الحَسَن الكبرى، وأمُّ الحسن الصغرى، وأمُّ حبيب الكبرى، وأمُّ حبيب الصغرى، وأمُّ زيد الكبرى والصغرى، وعائِشَة، وعاتِكَة وحَفْصَة، وزَيْنب، وأمُّ سلمة، وأمُّ موسى، وأمُّ سعيد، وأمُّ النعمان، وأمُّ صالح، وأمُ خالد، وأمُّ عبد، ودَجْلة، رزَقَهُ الله أولاداً كثرى .

سعيد بن زيد من العشرة المبشرين في الجنة :

الآن ما الذي يُؤكّدُ أنه من أصحاب الجنّة؟ عَنْ سَعِيدِ بْنِ زَيْدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ أَنَّهُ قَالَ:

((أَشْهَدُ عَلَى التِّسْعَةِ أَنَّهُمْ فِي الْجَنَّةِ، وَلَوْ شَهِدْتُ عَلَى الْعَاشِرِ لَمْ آثَمْ، قِيلَ: وَكَيْفَ ذَلِكَ؟ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِحِرَاءَ، فَقَالَ: اثْبُتْ حِرَاءُ فَإِنَّهُ لَيْسَ عَلَيْكَ إِلَّا نَبِيٌّ أَوْ صِدِّيقٌ أَوْ شَهِيدٌ، قِيلَ: وَمَنْ هُمْ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَعَلِيٌّ وَطَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ وَسَعْدٌ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ، قِيلَ: فَمَنْ الْعَاشِرُ؟ قَالَ: أَنَا))

[أخرجه الترمذي عن سعيد بن زيد في سننه]

قال سعيد بن زيد:

((أشْهد أني سمِعْتُ رسول الله صلى الله عليه وسلَّم، يقول: أبو بكرٍ في الجنة، وعمر في الجنَّة، وعثمان في الجنَّة ....وسعْدُ في الجنَّة، قال: فإن شِئتم أخْبرتكم بالعاشر، قال: أنا))

وهذه أكبر شهادة أنْ يقول لك النبي: أنت من أهل الجنَّة .

علماء العقيدة، يقولون: ليس من أهل الجنَّة على التحْقيق إلا هؤلاء العشرة، والبَقِيَّة على الرجاء، ويبدو أنهم بذلوا كلّ شيء، وأحبوا رسول الله حباً جماً، ولكن أبواب البُطولة مفتوحة، والأعمال الصالحة مُتاحَة لكم جميعاً، فبإمكانكم أنْ تطلبوا المال، وأن تبْذلوه، وأن تدعوا إلى الله، وأنْ تلْتَزموا الشرع، وأنْ تكونوا قُدْوَةً لِغَيْركم، كلُّ هذا بإمْكانكم، لأنَّ الله عز وجل قال:

(ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ)

(سورة الواقعة الآية: 13-14)

عدد غفير، ولكن بالنسبة للآخرين هم قليل، فإذا كنتم طموحين، وأردتم أنْ تبْلغوا أعلى المراتب عند الله عز وجل، كما قال النبي الكريم:

((ابتغوا الرِّفْعة عند الله ..))

لتبتغيها أيها المؤمن عند الله، ولا تبْتغها عند أهل الدنيا .

خلاصة الدرس :

وهذه هي قصَّة سيّدنا سعيد بن زيد وقصة أبيه، وفي هذه القِصَّة على قِلَّة أخْبارها عِبَرٌ واضحة، ولكنها تحْمل اسْتِنْباطات كثيرة، فالأب قال داعيًا: اللهم إن حَرَمْتني هذا الخير العظيم فلا تحْرِم منه ابني سعيدًا، فَكُلُّ واحدٍ منا إذا كان له ابنٌ فعليه أنْ يعْتني به أشَدَّ العِناية، لِيُعَلِّمْهُ العِلم الصحيح، لِيُراقب سُلوكه،

ولِيَدْفَعه لِطاعة الله، فإذا نجا وأفلح كان كلُّ عمله في صحيفة أبيه، كما أنَّ عمل سيِّدنا سعيد بن زيدٍ في صحيفة والده زيد بن عمرو بن نفيل .

والحمد لله رب العالمين

السيرة - رجال حول الرسول - الدرس (07-50) : سيدنا أبا عبيده بن الجراح
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 17-11-1992

بسم الله الرحمن الرحيم

إليكم هاتان الآيتان فاعتبروا يا أولي الأبصار :

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس السابع من دروس السيرة، سيرة النبي عليه الصلاة والسلام، وسير أصْحابه الكِرام رضْوان الله تعالى عليهم أجمعين، وصحابيُّ اليوم أبو عُبَيْدة عامر بن الجراح، هذا الصحابي الجليل قال في حقّه النبي الكريم صلى الله عليه وسلم:

((لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينٌ وَأَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ))

[أخرجه البخاري عَنْ أَنَسٍ في الصحيح]

أيها الأخوة، قبل أن أنطلق في الحديث عن حياته ومواقفه وعن بطولاته ومكانته الرفيعة التي أكرمه الله بها، أريد أنْ أنقل إليكم شُعوراً انْتابني وأنا أُطالعُ سيرة هذا الصحابيِّ الجليل قبل قُدومي إليكم، لَفَتَ نظري أنَّ هؤلاء الصحابة قاسَوا شدائد الحياة، فطعامُهُم ولِباسُهم خَشِنٌ، حياتهم كلُّها متاعب وغزوات وقِتال ودِفاع عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم، وفي تَصَوُّري وأنا موقِنٌ بهذا التصَوُّر أنهم كانوا أسعد الناس، تشعر أنّ أحدهم يكادُ يمْتلئُ سعادةً وشُعوراً بأنه إنْسانٌ كريمٌ على الله، وفجأةً قفزَتْ إلى نفْسي صُورة إنسانٍ مُعاصِرٍ عاش حياة الدَّعة والرخاء، يأكل أفضل الطعام، ويسكُنُ في أفْخَر منزل، تَكْييف وتدفئة مركزيَّة، كُلُّ شيءٍ جميل حوله، وشَعَرت أنَّ مثل حياة الإنسان المُعاصِر الذي خلَتْ حياتُه من البُطولة، ومن التضْحِيَة، ومن الإيثار، ومن حُبٍّ لله ورسوله، ومن رسالةٍ يحْمِلُها، ودَعْوةٍ يدْعو إليها، ومن عملٍ صالحٍ يُقَدِّمُه، ومن قلبٍ ينْبضُ بالرحمة، إنْسانٌ خَلَتْ حياته من هذه المشاعر، وتِلْك المُهمات المُقدَّسة، مثل هذا الإنسان يشْعر بِتَفاهَتِهِ وهوانِهِ على الناس، ولو عاش في أعلى درجات النعيم، صحابِيٌّ جليل حياته كلُّها متاعب يقود جُيوشاً قِيادةً لا أرْوَع ولا أعظم منها، يدْخُلُ عليه الخليفة عمر بن الخطاب فإذا غُرْفَتُه فيها قِدْر ماء، وجِلْدٌ قد ذهب ريشُهُ، ورَغيفُ خُبْزٍ قد غطى به قِدْر الماء، وسَيْفٌ مُعَلَّقٌ على الحائِط، سيِّدُنا عمر الزاهد المُتَقَشِّف فوجِئ، أهذه غُرْفَة أمين الأمّة وقائد الجيش؟ قال له: ما هذا يا أبا عُبيدة؟ قال: هو للدنيا، وهو على الدنيا كثير، ألا يُبَلِّغُنا المقيل .

شَعَرْتُ بأحاسيس أردْتُ أنْ أُعَبِّرَها لكم، كلُّ الدنيا لو كانت بيَد الإنسان، الدنيا بأموالها وبُيوتِها ومُتَنَزَّهاتِها وقُصورها ومرْكَباتِها وطائِراتها ونِسائِها، كُلُّ ما لَذَّ وطاب فيها، لا تسْتطيعُ الدنيا بأكْمَلِها أنْ تمْنح الإنسان سعادةً، وهؤلاء الصحابة الذين عاشوا حياةً مملوءةً بالشَّقاء فيما يبْدو، هِجْرةٌ اقتلعت

الإنسانَ من جذوره، لقد هاجَرَ أبو عبيدة إلى الحَبَشَة وإلى المدينة، وشَهد كلّ المشاهد، وكان أكبر مُدافِع عن رسول الله حتى إنه نزع حلَقةَ غُرِسَتْ في وَجْنة النبي عليه الصلاة والسلام بأسْنانه، فنزع الحلقة الأولى بفَمِه فانْكسرت سِنُّهُ الأمامية، ونزع الحلقة الثانِيَة بفَمِه فانكسرت سِنُّهُ الأخرى فصار أهتمَ، ومات بالطاعون، وهو أمين هذه الأمة، شَعَرْتُ أنَّ الله عز وجل إذا تجلى على قلب المؤمن بالرحمة أسْعَدَهُ سعادَةً لا توصَفُ .

فما هؤلاء الرجال؟ واللهِ إنْ كانوا بشَرًا فَنَحْنُ لسْنا من بني البشر، وإنْ كُنا بشَرٌ فهم فوق البشر، هم مُلوك الدار الآخرة، وما هذا الحُبّ الذي في جوانِحِهم؟ وما هذا الشوْقُ الذي ينْبضُ به قُلوبهم؟ كلما قرأتَ تاريخ هذا الصحابي مهما تعدَّدَت مرَّات القراءة تشْعُر أنَّك تَقِفُ أمام إنْسانٍ عظيم، من أيِّ جامِعَةٍ تَخَرَّج؟ هل يحْمِلُ دُكْتوراه؟ كم كِتابًا قرأ؟ فإذا اتَّصل الإنسانُ بالله أصْبح شيئاً آخر، يُمْكن أنْ يُلْغى عنده مع الاتّصال بالله كلُّ شيء، أرجو الله جلّ جلاله أنْ يُمَكِّنَني من نقْل صورة صادِقةٍ مُشْرِقةٍ عن هذا الصحابيّ الجليل الذي هو أبو عُبَيْدة بن الجراح .

إليكم الحديث عن صفاته الخَلقية والخُلقية كما ذكره الذاكرون :

قالوا في صفته: كان وضيء الوجه، بَهِيَّ الطلْعَة، نحيل الجِسْم، طويل القامة، خفيف العارِضَيْن، ترْتاحُ العَيْنُ لِمَرْآه، وتأنَسُ النفسُ بلُقْياه، ويطْمَئِنّ الفؤاد إليه، وكان رقيق الحاشِيَة جمَّ التواضع، شديد الحياء لكنه كان إذا حزب الأمر، وجدَّ الجِدّ يغْدو كاللّيْث، لا يلْوي على شيء ، رِقَّةٌ ما بعدها رِقَّة، وبهاءٌ ما بعده بهاء، إشْراقُ وجْهٍ ما بعده إشْراق .

قالوا: كان يُشْبِهُ نصْل السيْف، رَوْنَقاً وبهاءً، ويحْكيهِ حِدَّةً ومضاءً، إنه أبو عُبَيْدة بن الجراح .

سيّدنا عبد الله بن عمر وَصَفَهُ، فقال:

((ثلاثة من قريش أصبح الناس وُجوهاً، وأحْسنها أخلاقاً، وأثْبَتُها حياءً، إنْ حَدَّثوك لم يكْذِبوك، وإنْ حَدَّثْتهم لم يُكَذِّبوك، إنهم أبو بكرِ الصديق، وعثمان بن عفان، وأبو عُبَيْدة ابن الجَراح))

وهكذا وصف النبي المؤمن، فقال:

((من عامل الناس فلم يظْلمهم، وحَدَّثَهُم فلم يكْذِبْهم، ووعَدَهُم فلم يخْلِفْهُم، فَهُوَ ممن كَمُلَتْ مُروءته، وظهرَتْ عدالته ، ووجَبَتْ أخُوَّتُه، وحرُمَت غيْبته))

[ورد في الأثر]

ترتيبه في الإسلام :

كان من السابقين السابقين، أسلم في اليوم الثاني لإسلام أبي بكرٍ رضي الله عنه، وكان إسْلامه على يدي أبي بكرٍ، فإذا أكْرم اللهُ أحدَكم بهداية إنسانٍ على يده، فأنت من أسعد الناس .

أيها الأخوة الأكارم، أحبّ دائِماً أنْ أذَكِّركم بقوْل النبي عليه الصلاة والسلام:

((يا علي لأنْ يهدي الله بك رجُلاً خير لك من حُمر النّعَم))

[أخرجه أبو داود في سننه]

خير لك من الدنيا وما فيها، وخير لك مما طلعت عليه الشمس، فالإنسان آن له أن ينْتقل من طور التلقي إلى طوْر الإلقاء، ومن طوْر الأخذ إلى طوْر العطاء، ومن طوْر الاهتداء إلى طوْر الهداية ، آن له أنْ يرفعه الله عز وجل بِحَسَب عمله الطّيِّب، فهذا سيِّدُنا الصديق أجْرى الله على يده هِداية عُظماء المسلمين، وسيِّدنا أبو عبيدة قد أسلمَ على يد سيّدنا الصديق، ولعلّ العشرة المُبَشّرين بالجنة أسلموا كلُّهم على يد سيّدنا الصديق .

كان إسلامه على يد سيّدنا الصديق فَمَضى به وبِعَبْد الرحمن بن عَوْف وبِعُثمان بن مظعون وبالأرقم بن أبي الأرقم إلى النبي صلى الله عليه وسلّم، فأعْلنوا على يدَيْه كلمة الحق، وكانوا القواعد الأولى التي أقيم عليها صَرْحُ هذا الدِّين .

ما سبب نزول هذه الآية ؟

قال بعض المُفَسِّرين في شأن نزول هذه الآية:

(لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آَبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

(سورة المجادلة الآية: 22)

قدِمَ وفْد نصارى نجْران على النبي عليه الصلاة والسلام -أنْظر إلى ما كان يشْغل أصْحاب النبي صلى الله عليه وسلم، وانظر الآن إلى مُجتمع اليوم ما يشْغله، يتنافَسون على الدنيا وزينتها وتِجارتها وأموالها ونِسائِها- فقالوا:

((يا أبا القاسم، إبْعَث معنا رجلاً من أصْحابك تَرْضاهُ لنا لِيَحْكُم بيْننا في أشْياء من أموالنا اخْتَلَفْنا فيها، فإنكم عندنا معْشَر المُسْلمين مرْضِيون))

هنا يطالعنا العجبُ حقًّا، فأنت كَمُؤمن مَوْثوق حتى من قِبَل خُصومك، موثوق في أمانتك، وعِفَّتِك، وصِدْقِك، وحِكْمَتِك، هذه علامة الإيمان، علامة الإيمان أنَّ المؤمن شَخْصيَةٌ فذَّة، شَخْصيَةٌ يرْتاح لها الإنسان ولو كان عَدُواً، كلكم يذكر حديثَ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ وَالْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ))

[أخرجه الترمذي في سننه]

فَرْقٌ كبير بين أن يسْلَم الناس منك، وبين أن يأمنوك، فلو سَكَنْتَ في بيْتٍ ولك جيران، ومضى على سكناك في هذا البيت عشرُ سنواتٍ، ولم يتضجَّر، ولم يشْكُ منك أحدٌ من الجيران، إذاً: سَلِمَ الجيران منك، لكنهم لم يطْمئِنوا إليك، فالسلامة عدم حُدوث المكْروه، لكنَّ الطمأنينة والأمن عدم تَوَقُّع ما يُكْره، فالمُسلم يسْلَم الناس من لِسانه ويَدِه، لكنَّ المؤمن أرْقى من ذلك، يأمنه الناس على أمْوالهم وأعْراضِهم، المُسلم لا يُؤذي جيرانه ولا يؤذي َمن دونه، ولا من فوقه، لكنَّ المؤمن لا يتوَقَّعُ أحدٌ ممن حوله أنْ يأتيَ الأذى منه، فثمَّة فَرْقٌ كبير بين ألاّ تؤذي، وبينْ ألاّ يتوقَّعَ الناسُ منك شيئاً من الأذى، فالحديث فيه دِقَّة، لا يُمْكن لإنسانٍ يُعامِلُ مؤمناً أنْ يخاف منه، ولا أنْ يتوَجَّس منه خيفَةً، وحتى أنْ يقول: لعلَّهُ يؤذيني، فهذه صِفات المؤمنين .

خُصوم المؤمنين من أهل الكتاب جاؤوا النبيَّ عليه الصلاة والسلام طالِبين منه أنْ يبْعث إليهم أحد أصْحابه لِيَحْكُم بينهم في خِلافاتٍ ماليَّة، ماذا قال عليه الصلاة والسلام؟

((قال: ائتوني العَشِيَّة أبْعَثْ معكم القويَّ الأمين، يقول سيِّدُنا عمر: فَرُحْتُ إلى صلاة الظهر مُبَكِّراً، لعلَّني أنا القويُّ الأمين، وإني ما أحْبَبْتُ الإمارة حُبي إياها يومئذٍ، فلما صلى بنا النبي عليه الصلاة والسلام جعل ينْظر عن يمينه وعن شِماله، فَجَعَلْتُ أتطاول لعلَّهُ يخْتارُني، ولعلَّني أنا القويُّ الأمين، فلم يزَل يُقلِّبُ بصره فينا حتى رأى أبا عُبَيْدة بن الجراح، فقال: أُخْرُج معهم، فاقْض بينهم بالحق فيما اخْتَلفوا فيه، فقُلْتُ: والله ذهب بها أبو عُبَيْدة))

أبو عبيدة بن الجراح لم يتزحزح عن مكانه في الغزوات بالرغم من المحن والابتلاءات :

سيِّدنا أبو عُبيدة بن الجراح بعثه النبي عليه الصلاة والسلام في جَمْع من أصْحابه لِيَتَلَقَّوا عيراً لِقُرَيْش، وأمَّره عليهم، وزوَّدَهُم جراباً من تمْرٍ، ولم يَجِد لهم غيره، فكانَ أبو عُبَيْدة يُعْطي الرجل من أصْحابه كلَّ يومٍ تمْرة، فَيَمُصُّها الواحد منهم كما يمُصُّ الصَبيُّ ضَرْعَ أُمِّه طوال النهار ، ثمّ يشْرب عليها ماءً، فكانت تكْفيه إلى الليل، هذا هو الطعام الخَشِن، طوال النهار تَمْرة، أما الآن يقول لك: أين الشاي الأخضر؟ وأين المُقَبِّلات والفواكه؟ أنواعٌ مُنَوَّعة، أنا الذي لفتَ نظري أنَّ كلّ هذه الحياة الصعبة والشاقة وهذا الجِهاد، وهذه الهِجْرة والمُكابدة والتضْحِيَة، وهذا الحرّ والقرّ جعلهم أسعد الناس، وكلُّ

النعيم الذي نحْياه، وكلُّ الرفاه وكلُّ هذه المواد التي بين أيْدينا من دون معْرفةٍ بالله هي عَيْنُ الشَّقاء، لِذلك أطْلُبوا العِزَّة عند الله .

ويوم أُحُدٍ حينما هُزِم المسلمون، وطفِق صائح المُشْركين يُنادي: دُلوني على محمد، كان أبو عُبَيْدة بن الجراح أحد النفر العَشَرَة الذين أحاطوا بالنبي عليه الصلاة والسلام ليذودوا عنه بصُدورهم رماح المُشْركين، فلما انْتَهَت المعْركة كان النبي عليه الصلاة والسلام قد كُسِرَت رُباعِيَّته، وشُجَّ جبينه، وغارَتْ في وَجْنَتِه حلقتان من حلق دِرْعِه، فأقْبَلَ عليه الصديق يريد انْتَزاعهما من وَجْنَتَيْه صلى الله عليه وسلم، فقال له أبو عُبَيْدة:

((أقسم عليك أنْ تترك ذلك لي، فتَرَكَهُ، فخَشِيَ أبو عُبَيْدة إنْ اِقْتَلَعَهُما بيَدِه أنْ يُؤذِيَ رسول الله صلى الله عليه وسلَّم، فعَضَّ على أولاهما بثَنِيَّتَيْه عضاً قوياً مُحْكماً فاسْتَخْرَجَها، ووقعَتْ ثَنِيَّتُهُ، ثمَّ عضَّ على الأخرى بثَنِيَّتِهِ الثانِيَة فاقْتَلَعها، فسَقطتْ ثَنِيَّتُهُ الثانِيَة، قال أبو بكر: فكان أبو عُبَيْدة من أحْسن الناس هثماً، الأهْتَم الذي كُسِرَت أسْنانه الأماميَّة، لقد كان في قلوبهم حبٌّ لرسول الله صلى الله عليه وسلَّم))

حينما قال أبو سُفْيان:

((ما رأيْتُ أحداً يُحِبُّ أحداً كَحُبِّ أصْحابِ محمدٍ محمَّداً، ففعلُ أبي عبيدة هذا مصداق قول أبي سفيان))

شَهِد أبو عُبَيْدة بن الجراح المشاهدَ كلَّها، وما تخَلَّف عن النبي إطْلاقاً .

ماذا تعني كلمة أمين ؟

قَالَ أَنَسٌ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينًا وَإِنَّ أَمِينَنَا أَيَّتُهَا الْأُمَّةُ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

كلمة أمين لها عُمْقٌ كبير، ولا أعْتَقِد أنَّ هناك أعمق منها في المعنى الذي تشْمله، أمين على مصالح الناس، أمين على دينهم، فأحياناً تجد شَخْصاً لديه موظَّف مُجِدّ ومُتَفَوِّق وذو نشاط، ولكنه لا يُصلي، ويقول لك صاحب المحلِّ: ماذا أفعل له؟ دَعوةُ وشأنه، فصاحب هذا المحل يَهُمُّه أن يكون الموظَّف مُنْضبطًا في العمل ومصالحه، أما أنه لا يُصلي وغير مُلْتَزِم بالشرع فهذا لا يَهُمُّه، أما المؤمن أمين على دين الناس وينْصحهم ويُوَجِّهُهُم ويُحْسِن إليهم ويُرَبِّيهم، فالإنسان لا ينْبغي أنْ يتعلَّق بمَصالِحه الدنيَوِيَّة .

أنت أمين على دين أهلك، على دين زوْجَتك، فإذا وَجَدْتَ الطبخ ممتازًا، ونظافة البيت جيِّدة، قُلْتَ: زوْجَتي ممتازة إلا أنَّها ليْسَتْ مُتَدَيِّنة، فأنت لسْتَ أميناً على دينها، وكذا إذا كان لك أولاد أبْرار ولكن

ليس فيهم الدِّين سليمًا، فهذه قاصمة الظهر، وهذا اشْترى منك بضاعة، وقال لك : اِنْصَحْني، ونَصَحْتَهُ بالبضاعة الكاسِدة، فأنت لستَ أمينًا، هناك أمانة فتْوى، وأمانة عِلْم، وأمانة نُصح، وأمانة دين، فأنت عليك دائِماً أنْ تنْصح الناس، وأنْ تكون حريصًا على مصالِحِهم الدنيويَّة والأُخْرَوِيَّة .

التربية النبوية التي غرست في عقول وقلوب الصحابة :

نعود لعمر بن الخطاب إذْ قال لأبي عُبَيْدة: اُبْسُط يدَكَ أُبايِعْك، فإني سَمِعْتُ رسول الله صلى الله عليه وسلَّم، يقول:

((إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينًا وَإِنَّ أَمِينَنَا أَيَّتُهَا الْأُمَّةُ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

أنا ما وَجَدْتُ أشْخاصاً مُتَأدِّبين مع بَعْضِهِم بعْضاً كأصْحاب رسول الله، سيِّدنا عمر، عِمْلاق الإسلام، وهو خليفة المسلمين، وهو أمير المؤمنين يقول له أحدهم:

((والله ما رأيْنا أحداً خيراً منك بعد رسول الله، فتفرَّس فيهم، وكاد يأكلُهم، إلى أن قال أحدهم: لا واللهِ، لقد رأيْنا مَنْ هو خيرٌ منك، فقال: من هو؟ فقال: أبو بكر، فقال: صَدَقْتَ وكَذَبْتم جميعا، قال: والله لقد كان أبو بكر أطيب من ريح المِسْك، وكُنتُ أضَلّ من بعيري))

لقد كان أميناً على الصديق بعد وفاته، وقبل أنْ يموت اسْتأذن عائِشَة رضي الله عنها لِيُدْفَن إلى جانب الصديق، فأذِنَتْ له فقال:

((لعلها اسْتَحْيَتْ مني وأنا أمير المُؤمنين، فأوْصى أصْحابه: أنْ إذا متُّ فسِيروا بِنَعْشي أمام بيْتِها، واسْتأذِنوها، فإنْ أذِنَتْ فادْفِنوني جانب الصدِّيق))

ما أُخِذَ بِسَيْف الحياء فهُو حرام .

مرَّةً أكرمني الله بعُمرة وكنت في بَحْبوحةٍ من الوقت، فأَحْبَبْتُ أنْ أمُرَّ على أكثر المشاهد الإسلاميّة، فزُرْتُ موْقِعَة بدْرٍ، ورأيْتُ العريش الذي وقف فيه النبي عليه الصلاة والسلام، والعُدْوة الدنيا، والعُدْوة القُصوى، لكن لفتَ نظري أنَّ الزائرين مِن الناس الذين كانوا بالسيارات الفَخْمة مدُّوا المَّدات، وأخْرجوا الأكْلات الفَخْمة، فقارنتُ بين هؤلاء الذين زاروا أرض هذه المعركة، وبين أولئك الذين خاضوا هذه المعركة، فلم أجِد هناك نِسبة، طَعْمُ هؤلاء غير طَعْم أولئك، أين الثرى من الثريا؟ الآن الناس هَمُّهُم بطونهم وشَهَواتهم، فلِذلك قال عليه الصلاة و السلام:

((إذا كان أمراؤكم خِياركم، وأغْنياؤكم سُمحاؤكم، وأمْركم شورى بينكم فظَهْر الأرض خيرٌ لكم من بطْنها، وإن كان أمراؤكم شِراركم وأغْنياؤكم بُخلاءكم، وأمركم إلى نِسائِكم، فَبَطْنُ الأرض خيرٌ لكم من ظهْرها))

[ورد في الأثر]

فلما طلب عمر بن الخطاب من أبي عُبَيْدة ما طلب -كما أسْلَفْنا- قال أبو عُبَيْدة:

((ما كنتُ لأتَقَدَّم بين يدي رجلٍ أمَّرهُ رسول الله علينا أنْ يؤُمَّنا في الصلاة، فأمَّنا حتى مات))

وهو أبو بكر الصديق، فكان مع الصِّدّيق يده اليُمْنى، وما عصاهُ أبداً، هذا ما تربى عليه أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام .

كيف نحلل هذا الموقف ؟

كان أبو عُبَيْدة في الشام يقودُ جُيوشَ المُسلمين من نصرٍ إلى نصْرٍ، حتى فَتَحَ الله على يَدَيْه الدِّيار الشامِيَّة كُلَّها، فبَلَغَ الفُرات شَرْقاً وآسْيا الصغرى شمالاً، عند ذلك دهمَ بِلاد الشام طاعون ما عرف الناس مثله قطّ، فَجَعَل يحْصد الناس حصْداً، فما كان من عمر بن الخطاب إلا أنْ وَجَّهَ رسولاً لأبي عُبَيْدة برسالةٍ، بلَّغ أبا عُبيدة وهو في الشام قائِدًا الجُيوش، فكتب إليه يقول:

((إني بَدَتْ لي إليك حاجة، لا غِنى لي عنك فيها، فإنْ أتاكَ كِتابي هذا، إنْ أتاكَ ليْلاً فإني أعْزِمُ عليك ألاّ تُصْبِحُ حتى تَرْكَبَ إلَيَّ، وإنْ أتاك كِتابي نهاراً فإني أعْزِمُ عليك ألاَّ تُمْسي حتى تركَبَ إلَيَّ))

فَفَهِمَ سيِّدُنا أبو عُبَيْدة ما يريده عمر، واسْمَعوا ما قاله هذا الصحابيّ الجليل:

((قد علمتُ حاجة أمير المؤمنين إليّ، فهُو يُريد أنْ يسْتَبْقي ما هو ليس ببَاقٍ، ثمَّ كتب يقول: يا أمير المؤمنين، إني قد عَرَفْتُ حاجَتَك إلَيّ، وإني في جُنْدٍ من المُسْلمين، ولا أجد بِنَفْسي رَغْبَة عن الذي يُصيبُهم))

فهو رضي الله عنه ما أراد أنْ يُغادر الجُيوش لِيَنْجُوَ وحْده من الطاعون، ويَهْلك الجُنْدُ هناك،

((ولا أريد فِراقهم حتى يَقْضِيَ الله فيَّ وفيهم أمره، فإذا أتاك كِتابي هذا فَحَلِّلْني من عزْمك، وأذَنْ لي بالبَقاء))

فهو رضي الله عنه كَبُرَ عليه أنْ يأخذ ميزة على جُنوده، فلا بدَّ من أنْ يكونوا هناك لِيُدافِعوا ويقْتحوا،

((فلما قرأ عمر الكتاب بكى حتى فاضَتْ عَيْناه، فقال له مَن عنده من شِدَّة ما رأوْهُ يبْكي: أمات أبو عُبَيْدة؟ قال: لا، ولكنَّ الموتَ قريبٌ منه))

كانَ رحيماً بِجُنوده، وأبَتْ نفسه أنْ يمْتاز عليهم .

صور من أخلاقه وزهده وتواضعه :

لما سيِّدُنا عمر عزل سيّدنا خالدًا وولّى مكانه أبا عُبَيْدة، فالكِتاب جاء لِأبي عُبَيْدة، وكان خالدٌ رضي الله عنه يقود معْرَكَةً، فكَتَمَ الخبر، وكتم الكِتاب، ولم يُبَلِّغ سيِّدنا خالدًا إلا بعد أنْ انْتَهتْ المعركة، وانْتَصَرَ المسلمون، فتَقَدَّم أبو عُبَيْدة القائِد المُعَيَّن من سيِّدِنا خالد القائِدُ المعْزول بِأدَبٍ جمٍّ ، وقدَّم له كِتاب التَّعْيين، فسَيِّدُنا خالد رضي الله عنهم شعر بالحرج، وقال:

((يرْحَمُك الله أبا عُبَيْدة، ما منعك أنْ تُخْبِرني لمّا جاءَكَ الكِتاب؟ فأجابه أبو عُبَيْدة رضي الله عنه، وقال: والله إني كَرِهْتُ أنْ أكْسِرَ عليك حرْبَكَ، وما سُلْطانُ الدنيا نريد، ولا للدنيا نعمل، وكلنا في الله أخوة))

يقولون: إنّه لما جاء سيِّدُنا خالد رضي الله عنه إلى المدينة، قال لِعُمر بن الخطاب رضي الله عنه:

((يا أمير المؤمنين، لِمَ عزَلْتني؟ وكانَ عُمر رضي الله عنه يُقَدِّر خالداً رضي الله عنه أعلى تقْدير، فقال له: والله إني أحِبُّك، فقال له: يا أمير المؤمنين، لِمَ عزلْتني؟ فقال له: والله إني أحِبُّك، فقال له: يا أمير المؤمنين، لِمَ عزلْتني؟ فقال له: واللهِ ما عَزَلْتُك يا أبا سُلَيْمان إلا مخافة أنْ يُفْتَتَنَ الناسُ بك، لِكَثْرة ما أبْلَيْتَ في سبيل الله))

فهو رضي الله عنه أراد إنقاذ الوحيد، وذلك من شِدَّة الانتِصارات وكثرتها على يد خالد، فخاف أن يظن الناسُ أنَّ النصر من عِنْد خالِدٍ، فأراد هذا الخليفة العظيم أنْ يُبَيِّن للناس أنَّ النصر من عند الله، وكان هذا هو سبب العزْل .

يبْدو أنه حينما تسَلَّم الإمارة أبو عُبَيْدة ولمع نجْمُهُ وذاعَ صيتُهُ وحقَّقَ انتِصارات كبيرة، عَظَّمَهُ الناس وأكبروه وأجَلُّوه، فخاف على نفسه أنْ يُصيبَها الغُرور، فقال:

((أيها الناس، إني مُسلمٌ من قريش، وما منكم مِن أحدٍ أحمر ولا أسْود يفْضُلُني بتَقْوى إلا وَدِدْتُ أني في إهابِهِ))

وهذا من تواضُعِه .

سيِّدُنا عمر يزور أبا عُبَيْدة بن الجراح، ويسْأل مُسْتَقْبِليه أين أخي؟ يقولون: من؟ يقول: أبو عُبَيْدة، فيأتي أبو عُبَيْدة فيُعانِقُ أميرَ المؤمنين، ثمَّ يصْحبه إلى داره فلا يجد فيها من الأثاث شيئاً، سَيْفَهُ وتِرْسه ورَحْلَهُ وقِدْرَ ماءٍ مُغَطىً برَغيفِ خُبْزٍ، يسْأله عمر قائِلاً: ألا اتَّخَذْتَ لِنَفْسِك مثل ما يتَّخِذُ الناس، فقال له أبو عُبيدة: يا أمير المؤمنين، هذا يُبَلِّغُني المقيل، هو للدنيا، وهو على الدنيا كثير .

إليكم رسالته الأخيرة التي تلفظها قبل رحيله من الدنيا :

حينما وافَتْ المَنِيَّةُ أبا عُبَيْدة وهو يلْفِظُ أنْفاسَهُ الأخيرة أوْصى، فقال:

((أقيموا الصلاة))

سيِّدُنا عمر حينما طُعِن وقُتِل، فقبْل أنْ يموتَ سأل سؤالا غريبا، فقال:

((هل صلى المُسْلمون الفجر؟ ما الذي يَهُمُّهُ؟ صلاة الفجرْ، فلما قال له المسلمون: نعم، اطْمَأنَّ))

فَسَيِّدُنا أبو عُبَيْدة، قال:

((أقيموا الصلاة، وصوموا رمضان، وتصَدَّقوا، وحُجُّوا، واعْتَمِروا، وتواصوا، وانْصحوا لأمرائِكم ولا تغُشُّوهم، ولا تُلْهكم الدنيا، فإنَّ المرء لو عُمِّر ألف حَوْلٍ ما كان له بُدٌّ من أن يصير إلى مصْرعي هذا الذي تَرَوْن))

وكان على فِراش الموت . فنحن جميعاً حُكِمَ علينا بالموت مع وقْفِ التنْفيذ، ويأتي التنفيذ وَفْقَ برنامَج عند الله عز وجل، فعلى هذا الشرط جِئْنا، فلو أنَّ شخْصاً اسْتَأجر سيارة ثلاثة أيام، فهل يُعْقل عند انتهاء الأجل أنْ يقول: لماذا أخذوها مني؟ فأنت ركِبْتَها على شرطٍ وهي أنها مستأجَرة، وكذا الإنسان جاء على هذا الشرط وهو الموت، لكنَّ الله خلقهُ لِجَنَّةٍ عرضُها السموات والأرض .

اِلْتَفَتَ سيِّدُنا أبو عُبَيْدة إلى مُعاذ بن جبل ساعة احتضاره، وقال:

((يا مُعاذ، صلِّ بالناس، ثمَّ ما أنْ لبث حتى فاضَتْ روحُهُ الطاهِرة، فقال معاذ: يا أيها الناس، إنكم قد فُجِعْتُم برَجُلٍ، واللهِ ما أعلم أني رأيتُ رجُلاً أبرَّ صدْراً ولا أبعد غائِلَة، ولا أشدَّ حُباً للعاقِبَة، ولا أنصح للعامَّة منهم فتَرَحَّموا عليه يرْحَمْكم الله))

كم من شَخْصٍ في العالم يموتون يوميًّا؟ أنا لا أذكر الرقم، ولكن على مُستوى العالم كُلّ ثانِيَتَيْن هناك وفاة، فبِمَ يوصون؟ وبِمَ يودعون الدنيا؟ أقول: تبقى قلوبهم متعلقة بالدنيا .

كذلك لمّا سيدنا عمر بلغه خبر وفاة سيِّدنا أبي عُبَيْدة بن الجراح بَكى بُكاءً ما بكاهُ على أحدٍ من قبل حتى غُصَّ حلْقُهُ، وانْهَمَرَتْ دُموعه، وقال:

((لو كنت مُتَمَنِّياً ما تمَنَّيْتُ إلا بيْتاً مملوء برجالٍ مثل أبي عُبَيْدة))

ما تمَنى إلا هذا . فيا أيها الأخ المسلم، إعْمل عملاً تسْعد به عند لِقاء الله تعالى، اِبْذل، ووضَحِّ، والتزِم، وأنْفِق ، وتعلَّم حتى يكون الموت أسعد لَحَظاتك، والموت سماهُ الله مُصيبة، لأنَّ كلّ شيءٍ تُجَمِّعُه في الدنيا يُسْلَبُ منك في ثانِيَةٍ واحدة، أما إذا كان الإنسان له أعْمال صالحة يُصبحُ الموتُ عُرْسَهُ وفرْحَتَهُ الكُبْرى .

والحمد لله رب العالمين

السيرة - رجال حول الرسول - الدرس (08-50) : سيدنا حمزة بن عبد المطلب

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 23-11-1992

بسم الله الرحمن الرحيم

أطوار الدعوة الإسلامية :

أيها الأخوة الأكارم، وأنا في طريقي إليكم لاحت أمامي فكرةٌ يمكن أن تكون مقدِّمة لدروس السِّيرة، لو أنَّ إنساناً يتيه في صحراءَ موحشةٍ، أو في غابة فيها وحوشٌ مفترسة، أو في أرضٍ وَعرةٍ فيها مخاطرُ ثابتة، وأنت رأيته في هذه الحالة الخطيرة التي تدعو إلى الشَّفقة، مهمتك الأولى أن تدعُوَه إلى مكانٍ آمنٍ، إلى حصنٍ حصينٍ، إلى بستانٍ مَحاطٍ، إلى قصرٍ مُنيفٍ، فإذا رضي واستجاب لك، ودخل هذا البستان الآمن أو إلى هذا القصر المنيف، فقد أصبح لك مهمَّةٌ ثانية، وهي أن تعرِّفَه مداخل هذا القصر ومخارجه، وأماكن النوم، وأماكن الرَّاحة، وأماكن الطَّعام فلمّا كان خارج القصر كانت له طريقة في التوجيه، فإذا دخل إلى القصر فله طريقة أخرى .

فحينما تدعو إلى الله عز وجل ورأيتَ إنساناً شارداً تائهاً عاصيًا مقيماً على معصية، عقيدته زائغة، تصَوُراته غير صحيحة، هذا الإنسان عليك أن تدعوَه إلى الله، عليك أن تقنعه بأحقِّية هذا الدِّين، عليك أن ترشده إلى طريق الحق، فإذا استجاب وسلك هذا الطريق عليك أن تبيِّن له الجزئيات، الأمرَ الإلهي، النَّهي الإلهي، حقيقة الدُّنيا، فمهمة الدَّاعية إلى الله عز وجل تجاه الإنسان الشَّارد لها طبيعة، وبعد أن يستجيب هذا الإنسان فللدعوة طبيعة أخرى، فحينما نخاطب أخوةً كراماً مؤمنين آمنوا بالله عز وجل، آمنوا بوجوده، آمنوا بكمالاته ووحدانيته، وآمنوا برسوله و بكتابه، هؤلاء الأخوة الأكارم الذين استجابوا لله، يجب أن نبصِّرهم بدقائق الأفعال، وبدقائق السُّنة، وبدقائق الأحكام الفقهية، وبطبيعة المنهج الدَّقيق الذي ينبغي أن يسيروا عليه، هذه مهمة ثانية .

لذلك طلب العلم لا ينقطع بل يستمر ما دام المسلم حيًّا، لكن في كل طوْرٍ هناك موضوعاتٌ ينبغي أنْ نُعْنى بها، هذا ما حصل تماماً في عهد الصحابة الكِرام، ففي المرحلة الأولى كانت الدعوة إلى الله والإيمان به، والإيمان باليوم الآخر والرسُل والملائكة والقدر خيره وشَرِّه، وكانت دعوة إلى التفكُّر في الكون، وإلى إقام الصلاة، ودعْوةٌ إلى ضبْط الشهوات والالتِزام، والتضْحِيَة، والهجْرة .

فلما اسْتجاب أصحاب النبي لله وللرسول فيما دعاهم إليه وهاجَروا معه واسْتَقَرّوا في المدينة، جاءَتْ آياتُ التشريع، آية الدَّيْن وأحكام الطلاق، والزواج، وأحْكام البيْع، فَنَحْنُ في مسيرتنا في هذه الحياة، نَطْلُب العلم دائِماً ولكن في كلِّ مرحلةٍ، ونحْتاج إلى موضوعات خاصَّةٍ بها، نحن آمنا بالله ورسوله

وكتابه، ثم نريد أنْ نقْتَدِيَ بأصْحاب النبي صلى الله عليه وسلّم، بهؤلاء الذين خصَّهم الله بالنبيِّ عليه الصَّلاة و السَّلام، بهؤلاء الذين رضي الله عنهم، بهؤلاء الذين اختارهم الله لصُحبة نبيه عليه الصَّلاة والسَّلام، بهؤلاء الأبطال الذين وصفهم النبي عليه الصَّلاة والسَّلام، فقال: "علماء حكماء كادوا بفقههم أن يكونوا أنبياء " هؤلاء الذين كانوا قادة ألوية النبي عليه الصَّلاة والصلاة والسَّلام، وكانوا رسلَه إلى بقية الأمم والشُّعوب .

لذلك فقراءة سيرتهم جزءٌ أساسيٌّ من الدِّين، بعد أن آمنتَ بالله ورسوله و كتابه واليوم الآخر، وبعد أن التزمتَ وطبَّقتَ واستجبتَ، بقي عليك أن تفهم دقائق مواقف هؤلاء الصَّحابة .

ينبغي على المسلم أن لا يتخذ من نفسه مشرعاً ويدلو بقرارات يحكم بها على الآخرين بعدم الخيرية :

صحابيٌّ اليوم، هو سيِّدنا حمزة بن عبد المطَّلب، عم النبي عليه الصَّلاة والسلام، قد يقول قائلٌ: هذا الصحابي درسناه قبل ثماني سنوات، تماماً كما تجد نصًّا في المرحلة الإعدادية، وتجده في المرحلة الثَّانوية، والنصُّ نفسه في المرحلة الجامعية، نحن لمَّا نريد أن نعطيَ الأخوةَ الأكارم دروسًا في السِّيرة، ولاسيما سير الصَّحابة الكرام، نريد أن نستنبط من سيرهم حقائق نستعين بها في هذه الحياة المعاصرة، لا نريد أن ندرس هذه السِّير كتاريخ، نريد أن ندرسها كوقائع يمكن أن نستنبط منها قواعدَ وعبراً وحقائق ومبادئ نستعين بها في تعاملنا مع الله، ومع أهل الحق، ومع عامة الناس، فمن السذاجة، ومِن ضيق الأفق، ومِن عدم النضج، ومن أخلاق الغوغاء والعامة، أن تقول: هذا أبيض وهذا أسود، وليس بينهما لونٌ آخر، هذا مؤمن وهذا كافر، هذه النظرة الحادَّةُ المتطرفة، هذه الأحكام الحدِّية القاسية، هذه ليست من صفات أهل الإيمان .

فمثلاً: في العهد الذي أُرسِل به النبي عليه الصلاة والسلام وجاء بالقرآن الكريم، كان الناس في مكة غارقين في الشَّهوات، غارقين في المعاصي والآثام، غارقين في أكل المال الحرام، غارقين في الطُّغيان والعدوان، غارقين في الكِبْر، غارقين في البَطَر، هؤلاء الكفَّار الفجَّار المشركون، بينما كان في الطَّرف الثَّاني النبيُّ عليه الصَّلاة والسلام، قمَّة البشر، سيِّد الخلق، حبيب الحق، ومعه أصحابٌ مخلصون، مجاهدون تائبون، عابدون سائحون، راكعون ساجدون، هؤلاء في قمَّة الرُّقي والمجد، وأولئك الكفرة في حضيض الدناءة والاحتقار، السؤالُ الآن، أليس بين هؤلاء ناسٌ لا من هؤلاء و لا من هؤلاء؟ هذا الذي أتمنَّى عليكم أن تعرفوه .

أنتَ مؤمن تصلي وتصوم ومستقيم، وتغدو وتروح إلى مسجد، ولك مجلس علم، ولك أخوان، وتعرف الحق من الباطل، شيءٌ جميل، وهناك شخصٌ في حياتك، فاجر عاصٍ، شارب خمرٍ، زانٍ، باغٍ، عاتٍ،

أليس ممَّن حولك شخصٌ لا من أخوانك ولا من أولئك الفجرة، إنسان لم يُصلِّ بعد، لكنْ له أخلاقٌ ترضي، وقدً لا يحبُّ الانحراف، ويفي بالوعد، وينجز العهد؟ هذا الذي لا من هؤلاء ولا من أولئك، ليس لك أن تُقيِّمه تقييمًا سيِّئًا، بل عليك أن تلتفت إليه .

فالنبي عليه الصلاة والسلام و أصحابه الكرام الذين سبقوا إلى الإسلام كانوا في قِمَّة الطُّهر والعفاف والمجد، وكان كفَّار قريش في حضيض الدناءة والبغي والطُّغيان، أمَّا سيدنا حمزة فلم يكن مسلماً بعد، لكن كان شهماً، وكان صاحب مروءة، شجاعاً يأبى الظلم والدناءة، فإذا رأيتَ أيها الأخ الكريم إنساناً أخلاقيًّا يفي بالعهد، ولا يكذب، لكنه ليس ملتزمًا، فلا ينبغي أن تُقيّمَه تقييماً سيِّئاً لأنه تاركٌ للصلاة فقط، هذا كما يُقال: خامة طيِّبة، هذا عنصرٌ جيدٌ، لو وجَّهته، وسدَّدتَ خُطاه، وعلَّمتَه ودرَّبتَه، وفقَّهتَه، ودفعتَه إلى الله عز وجل لاستجاب، فمن السذاجة وضيق الأفق، بل من الغباء أن تقول: أبيض أو أسود فقط، بين الأبيض والأسود مئات الألوف من الألوان التي لا هي في نصاعة البياض، ولا في قتامة السَّواد، هذا هو الموقف المعتدل والمنصف، ولو أنك كلما شاهدتَ إنساناً بعيدًا عن مسجدك، فحكمتَ عليه بالكفر ولم تعبأ به، فأنَّى لك أن تكون هادياً للناس؟ وأنى لك أن يستخدمك الله في الدعوة إليه؟ عندئذٍ لا تُصلِح .

لذلك أنا أتمنَّى على الأخوة الأكارم رحابة الصَّدر، واتساع صدورهم لكل الناس، لكل من هو على شاكلتهم، أو ليس على شاكلتهم .

ما هي وظيفة المسلم في الحياة الدنيا ؟

لا أكتمكم أنني أنطلق من فكرة، أتمنَّى على الله عز وجل في هذا الدرس أن أوضِّحها لكم، أنتم رُوَادُ هذا المسجد، ونحن جميعاً طرفٌ واحد، تؤمنون بما أنا به مؤمن، وتصدِّقون بما أنا به مصدق، لأننا آمنَّا بالله عز وجل، وآمنا بكتابه، واستجبنا له، ولكن متى ترتفعون عند الله عز وجل؟ إذا ضممتم إليكم أناسًا من الطرف الآخر، أنت تجلس مع أخوانك فتأنس بهم، تحدِّثهم ويحدثونك، تتفاعلون وتتصافون وتحلقون، ولكن هل أضفتم إلى المجتمع الإسلامي عناصر جديدة ؟ هل حاورتم الطَّرف الآخر؟ هل لك صديق لا يصلي؟ هل لك صديق يحدِّث نفسه إطلاقًا في أن يأتي إلى مجالس العلم؟ هل تقنعه بحضور مجلس علم؟

أردتُ من هذه النقطة، ومن هذا النص الذي أمامي أنه ينبغي أن تضيف إلى مجتمع المؤمنين عناصر جديدة من مجتمع غير المؤمنين، هنا البطولة، وأنا أثني على كل لقاء بين الأخوة الأكارم لتمتين علاقتهم بالله، وأنا أحضُّ على هذا اللقاء، كما قال تعالى:

(قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ)

(سورة سبأ الآية: 46)

هذا أمرٌ إلهي أن تجلس مع أخوانك في الأسبوع مرَّة، بحسب القرب والمكان، وبحسب العمل والعلاقات الاجتماعية، وتحدثهم عمَّا أفاض الله عليك، وعما عقلتَه من درس الجمعة، أو من درس السبت، أو من درس الاثنين، أو من خطبة الجمعة، عن موقف تأثَّرتَ به أشدَّ التأثُّر، هذا اللقاء أنا أباركه وأحضُّ عليه، وأتمنَّى أنْ يكون لكل واحد منكم مثل هذا اللقاء، ولكن هذه اللقاءات ماذا تفعل؟ توطِّن علاقة الأخوة الأكارم بربهم، وتمتِّن علاقتهم بدينهم، وبمنهلهم وبمشربهم الدِّيني ، وبمسجدهم، وهذا شيء جميل .

لكن ينبغي أن يكون لك نشاطٌ آخر، هؤلاء الأخلاقيون الذين لا يرتادون المساجد، هؤلاء الطيِّبون الذين شرَدوا عن الله عز وجل، هؤلاء الذين تأنسون لهم، لكنكم لا ترضون عنهم، قد يكون هناك شخص وحش، هناك شخص دنيء، ساقط، منحرف، متكبِّر، هذا دعونا منه، ولكنْ هناك شخص من جلدتك، من أخوانك، من أقرب الناس إليك، هذا أيضًا تأنس به وترتاح له، وكذلك هناك شخص ممن يلوذ بك، قريب أو وصديق أو جار أو زميل أو صاحب بالجَنب، هذا لا ترْضى عن سُلوكه، ولكن ترْتاحُ له، وحينما ترْتاحُ له، فهذا يعْني أنه ينْطوي على نفْسٍ طيِّبَة، هذا ينْبغي أنْ تسْعى لِإقْناعِهِ أنْ يسْلك طريق الإيمان، وهذا الذي ترتاحُ له ولا ترْضى عن سُلوكه ينْبغي ألاّ يكون خارج الحِساب، وخارج اهْتِمامك، هذا الذي أتمناهُ عليكم .

فما المانع أنْ تدْعُوَ أقارِبَك الذين تتَوَسَّمُ فيهم الخير إلى حفلٍ بسيط في منزلك، وتَدْعُوَهم في أثناء اللقاء إلى سُلوك طريق الإيمان والالْتِزام بالدين، والصُّلْح مع الله، وإلى معْرِفَتِه؟ فإن كُنت قادِراً فافْعَل، وإنْ لم تكُن قادِراً، فما الذي يمْنَعُك أنْ تدْعُوَ من يقْدُر على تَوْجيههم إلى بيْتِك؟ فإذا اسْتَجاب عدد من الذين شَرَدُوا على الله عز وجل وتأثَّروا فهذا في صحيفتك عند الله .

لقد سمعتُ قِصَّةً تأثَّرْتُ لها، هذه القِصَّة أنَّ رجُلاً ممن شرد على الله، وممن آمن أنه لا إله أيْ أنه مُلْحِدٌ، في الخامسة والأربعين، أو الخمسين من عُمُره اهْتدى إلى الله، وبدأ يُصلي، له ابنٌ صالِحٌ، فَمِن شِدَّة فَرَح ابنه أنَّ أباهُ بدأ يُصَلي، هذا الابن أقام موْلِداً في بيْتِهِ، ودعا أصْدِقاء والده، فكلَّف أحد علماء دِمَشْق لإلْقاء كلمة على هؤلاء الشارِدين، أصْدِقاء هذا المُلْحِد، ألْقى عليهم كلمة فيها كُلُّ العَقْلانية والمنطق والأدِلَّة، فهذا الابن، يقول: لم ينتهِ هذا الاحْتِفال إلا وخَمْسَةٌ من أصْدِقاء والده اصْطَلَحوا مع الله، فالبطولة لا أنْ تُفْسِد إنْساناً على شَيْخِهِ، دِمَشْق فيها خمسة ملايين ، كم من مُصَلٍّ فيها؟ نِصْف مليون أو أكثر، فهؤلاء أربعة الملايين الشارِدين عن ربِّهم ابذل من نفسك لهم، ولِهَؤُلاء الذين لا

يُصلّون، ولِهَؤُلاء الذين ألبسوا شُبُهاتٍ حول الدِّين، وظنوا أنَّ الإسلام شيءٌ قديمٌ، وأنَّ الأديان أشياءٌ غَيْبِيَّة لا علاقة لها بالواقع، فأنت إذا أردتَ أنْ ترقى عند الله يجب أنْ تنْطلق في حِوار الطَّرَف الآخر، لا أنْ تبْقى على الطَّرف الواحد، فالبُطولة في إقْناع الطَّرَف الشارِد .

أردتُ من هذه المُقدِّمة أنْ أبيِّن أنَّه في عهْد النبي عليه الصلاة والسلام كان النبي قِمَّة في الحُبِّ والوَرَع والإقْبال والسُّمُوِّ وإنْكار الذات والشَّوْق لربِّه، وكان أُناسٌ في مكَّة في حضيض الانْحِطاط والدناءة والأثَرَة والكِبْر والبَغْي والأنانية والعُدْوان، وكان أُناسٌ لم يؤمنوا بِمُحَمَّدٍ عليه الصلاة والسلام، ولَيْسوا في هذا المُسْتوى الوَضيع الذي انْحدر إليه كُفارُ قريش، من هؤلاء سيِّدُنا حمزة بن عبد المُطَّلب رضي الله عنه وأرْضاه .

العبر التي يمكن أن نستنبطها من مواقف حمزة بن عبد المطلب قبيل إسلامه مع ابن أخيه :

1- شفافية حمزة بن عبد المطلب :

كان سيدنا حمزة مرَّةً في فناء الكعبة، حيثُ سادة قريشٌ يتحادثون، فجلس معهم ليسمع ما يقولون، وكانوا يتحدَّثون عن محمد صلى الله عليه وسلم، ولأوَّل مرَّةٍ رآهم يقلقون على مصيرهم من هذه الدعوة الجديدة، ويُعبِّرون عن حقدهم وغيظهم وعن مرارة قلوبهم، كان هو متفائلاً معتدلاً واقعيًّا، فلم يبالغ هذه المبالغة، ولم ينطوِ على هذا الحقد، وهو ليس على دين محمد ، ولكن لا ينطوي على حقد على ابن أخيه، ولا على كُرهٍ للحق، هذا الذي أريده، هؤلاء الذين لم يقاتلوكم في الدين، قال الله عز وجل:

(لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)

(سورة الممتحنة الآية: 8)

لو أقمتَ علاقة مع إنسان لك ثقة بأخلاقه، لكن لا تراه ملتزماً، هذا الذي أتمنَّى أن استنبطه من هذه القصَّة، فكان سيدنا حمزة كلما طُرح موضوعُ النبي عليه الصلاة والسلام مع أنه لم يكن على دينه، كان يرى أنَّ ابن أخيه على حقٍّ، ولم يفكِّر أنْ يؤمن به، لكنه كان يدافع عنه، هؤلاء الحياديون ينبغي أن نقرِّبهم إلينا، لا أن نبعِّدَهم عنَّا، أحيانًا يكون أخٌ منا ملتزماً بالدين وله قريب متلبِّسٌ بمعصيةٍ أو مخالفة، فيكَفِّرُه بها، ويحاربه، هذا ليس من الحكمةِ إطلاقًا، هذا موقف غير حكيم، وغير إسلامي، ولا يُرْضي الله عز وجل، فهذا موقفٌ مُنَفِّر، إذْ إنه ما عاداك، وما هاجمك، ولا نال منك، ولكنه ليس على شاكِلَتِك،

ليس على الْتِزامك، فأنت عليك أنْ تُحْسن إليه، وأنْ تصلِه وتزوره وتُقدِّم له بعض الخدمات، وتريه منكَ الكمال، وعليك أنْ تُرِيَهُ العِفَّة والإحسان ، حتى يُوازن فيقول: هذا إنسانٌ عظيمٌ .

2- حمزة لم يبخس قدر ابن أخيه على الرغم من تقارب العمر بينهما واختلاف الدين :

هناك اسْتِنباط آخر من هذه القِصَّة، فأكثر الأشْخاص عامِلُ السِنِّ حِجابٌ بينهم وبين الله، مثلاً إذا كان أكبر من هذا الذي يدْعو إلى الله سِناًّ، لا يسْتمع إليه، لذلك دائِماً عقدة الآباء مع أبنائِهم ، فالأب يقول: هذا ابني، أنَّى له أن يسْبِقني، وقد يسْبِقُ الابن أباهُ، قال تعالى:

(يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً)

(سورة مريم الآية: 43)

فَسَيِّدُنا حمزة مع أنه كان عمَّ النبي صلى الله عليه وسلم، ومع ذلك عرف قَدْرهُ وصِدْقهُ، وعرف أمانته وإخْلاصه وقيمته عند الله عز وجل، فالسُّعداء أيها الأخوة، لا يمْنعهم فارق السِّنِّ من أن يسْتمعوا وأن يتَّبِعوا .

أحْياناً يكون الشخْصُ مدير ثانويَّة لا يُمْكن أنْ يسْتجيب لِمُعَلِّمٍ عنده، كذلك طبيبٌ كبير لا يسْتجيب لِمُمَرِّض، مديرٌ عام لا يسْتجيب لِمُوَظَّف صغيرٍ عنده، ففارق المرتبة الاجتِماعِيَّة والسِّن أو فارق المستوى الاقتِصادي، هذا حِجابٌ بين العبد والحقّ، فَسَيِّدُنا حمزة وهو عمُّ النبي صلى الله عليه وسلم ومع ذلك عرف قَدْره، بل إن العباس رضي الله عنه لشدَّة أدبه مع رسول الله، سُئِلَ مرَّةً : أيُّكما أكبر أنت أم رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: هو أكبر مني، وأنا وُلِدْتُ قبله، أحْيانًا أنت تحمل شهادة، ويُلْقي الله في قلب إنسان أقلَّ منك عِلمًا، وتكون أنت من ذوي الشهادات العالِيَة، يُنْطِقُهُ بالحِكمة، ويُلقي في قلبه السكينة، فلا يكون فارق السنِّ، ولا فارق الشهادة، ولا فارق المرتبة الاجتِماعِيَّة حِجاباً بينك وبين الحقّ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ مِنْهُمْ الْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ))

[أخرجه الترمذي في سننه عن أنس بن مالك]

التدين فطرة في كيان الإنسان هذا ما يؤكده واقعه :

مرَّ معنا حديثٌ شريف منذ يومين في درس الفجر أنَّ الرجل قد يبْدو بليغاً، طليق اللّسان ، ووسيمَ المنظر، لا شأنَ له عند الله، وقد تجد إنساناً في مقاييس البشر في الدرجة الدنيا، وله عند الله شأنٌ عظيم،

((كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ))

[أخرجه الترمذي في سننه عن أنس بن مالك]

لذلك هذا الأخلاقي الذي لا يُصلي أنت ترتاحُ له، ولكن لا ترْضى عن سُلوكه هذا الإنسان بالذات، لا بد أنْ يأتِيَ يومٌ يسْتجيب فيه لله عز وجل، أخْلاقِيَّتُهُ ونظافَتُهُ ومُروءَتُهُ هذه تُعينه على طلب الحقّ، فَسَيِّدنا حمزة خرج من داره مُتَوَشِّحاً قوسه، ومُيَمِّماً وجْههُ شطر الفلاة لِيُمارِس هِوايَةً يُحِبُّها، إنها الصَّيْد، وكان صاحِبَ مهارَةٍ فائِقة فيها، قضى هناك بعض يومه، ولما عاد من صَيْده ذهب كَعَادتِهِ إلى الكعبة لِيَطوفَ بها قبل أنْ يقْفِلَ راجِعاً إلى داره، ماذا نسْتنبط من هذا؟ الإنسانُ مُتَدَيِّن بالفِطْرة .

الآن اذْهب إلى أيِّ مكانٍ في العالم، اِذْهب إلى شرق آسيا تجد مُثَقَّفين يدخُلون معْبد بوذا ، ويُمارِسون طقوساً مُعَيَّنَة أمام صَنَمٍ كبير، وأمام هذا الصَّنَم فواكه كثيرة توضَع لِيَأكلها ليلاً، والذين يأكُلونها هم الرُّهبان، وحتى الإنسان الذي له مرتبة اجْتِماعِيَّة وسِياسِيَّة يقْصد كاهِناً أو عرافاً لِيَسْتَنْبئه الغيب، وهذه كُلُّها إشارات إلى أنَّ الإنسان مُتَدَيِّنٌ بالفِطْرة، فإما أنْ يتعلَّق بالخُرافات والأباطيل والأكاذيب، وإما أنْ يتعلَّق بالحقّ فلا بد أنْ تكون عبْداً، إما أنْ تكون عبْداً لِخُرافَةٍ، أو لِفِكْرةٍ تافِهَة مغْلوطة، أو أنْ تكون عبْداً لله عز وجل، حتى على مُستوى عامَّة الناس تجده يُقيمُ على كلِّ المعاصي، لكنَّهُ لا بد أنْ يتبرَّك بهذا الولِيِّ، ولا بد أن يذْبح خروفاً على روح فلان، فهؤلاء العُصاة والمُنْحَرِفون لهم سُلوكٌ ديني - غير صحيح طبْعاً- فالتَدَيُّن بالفِطرة، فهؤلاء الذين ينْدَفِعون للكَهَنَة من العُصاة، إنما ينْدفِعون بفِطْرتهم، لماذا ينْدفعون لهذا؟ لأنّ الإنسان ضعيف يُحِبُّ أنْ يلْجأ إلى قَوِيّ، وكل الخُرافات الدِّينِيَّة منْبعُها هذه الحاجة الفِطْرِيَّة إلى التدَيُّن .

قريباً من الكَعْبة لقِيَهُ خادِمٌ لِعَبْد الله، ولم تكد تبصرُه حتى قال له: يا أبا عُمارة - وهي كنية سيدنا حمزة- لو رأيتَ ما لقيَ ابن أخيك محمدٌ آنفًا من أبي الحكم بن هشام، فآذاه وسبَّه، وبلغ منه ما يكره، فسيدنا حمزة بكل مروءته وشهامته وغيرته، وبكل إنصافه توَشَّح سيفه، واتَّجه ليقتصَّ من أبي الحكم بن هشام، بحث عنه فإذا هو في جوار الكعبة، تقدَّم نحوه، واستلَّ قوسه، وهوى به على رأسه فشجَّه وأدماه، وقبل أن يفيق الجالسون من الدهشة صاح حمزة بهم وصاح في أبي جهل: أَتَشْتُمُ محمَّداً وأنا على دينه، أقول ما يقول؟ أسلم سيِّدنا حمزة، ولكن بمَوْقفٍ ارْتِجالي، وموقف دفعته إليه حَمِيَّتُهُ لابن أخيه، وإنْصافُهُ وغَيْرَتُهُ، أسْلم وتحَدى المُشْرِكين .

حالتا الشك واليقين التي مر بهما حمزة أثناء إسلامه :

أيها الأخوة، أدَعُكُم معه لِيُعبِّر عن حالةٍ نفْسِيَّة ألمَّتْ به، يقول سيِّدنا حمزة: أدْركني النَّدَم على فِراقي دين آبائي وقوْمي، وبتُّ في شكٍّ من أمرٍ عظيم، لا أكْتَحِلُ بنَوْم، ثمّ أتَيْتُ الكعبة وتضرَّعْتُ إلى الله أنْ يشرح صدْري، مفْهوم الإله مفْهومٌ عامٌ في كلِّ مكان وزمانٍ، وفي كلِّ مِصر .

فاستجاب الله لي، وملأ قلبي يقيناً، وغدوتُ إلى النبي عليه الصلاة والسلام فأخبرتُه بما كان من أمري، فدعا الله أن يثبِّتَ قلبي على دينه، كذلك هنا استنباط، أنتَ لك علاقة مع الله مباشرة، لك ابتهالات، لك سؤال إلى الله، لا شكَّ أنَّ في حياتنا أشياءَ مُحَيِّرةً، أحياناً يلجأ إلى الله، يا رب أنت تعلم وأنا لا أعلم، دُلَّني بك عليك، دُلَّني على رجلٍ يُحِبُّك، إنْ كان هذا يُحِبُّك وتُحِبُّه فألْق حبي فيه، إنْ كان هذا على الحق فاجْعَلْني أميل إليه، فاجْعل بينك وبين الله سُؤالاً وعلاقة، كما فعل سيِّدُنا الحمزة .

الخير الكبير الذي دخل على النبي والمسلمين حينما اعتنق حمزة الإسلام :

النبي عليه الصلاة والسلام حينما دخل سيِّدُنا حمزة في الإسلام كان هذا مَكْسَبًا كبيرًا لِذلك أنا أقول لكم: كُنْ شَخْصاً لامِعاً، إما في الدِّراسة، أو في العمل، أو في التِّجارة، أو في الزِّراعة، أو في الصِّناعة، بِحَيْث إذا عرف الناسُ أنَّك مؤمن بالإسلام اعتزُّوا بك، هناك من يَعْتَزُّ بالإسْلام، وهناك من يعْتَزُّ به الإسْلام، فإذا كان ذاك مُتَفَوِّقًا، وهو يغُضُّ بصره عن محارم الله، فشيء عظيم، والناسُ لا يُطَأطؤون لك إلا إذا رأوا تَفَوُّقاً في اخْتِصاصِك، عندئِذٍ يَحْتَرمونك، ويَحْتَرمون دينك، ويحْتَرمون المنهل الذي تشرب منه .

إليكم حديث وحشي كيف خطط لقتل حمزة فأصاب رمحه ؟

كلكم يعلم أنّه في معْركة بدْرٍ قُتِل أبو جَهْل، وعُتْبَة بن ربيعة عبد، وشيْبَة بن ربيعة، وأُمَيَّة بن خلف، وعُقْبَة بن أبي مُعيط، والأسود بن الأسد المخْزومي، والوليد بن عُتبة، والنَّضر بن الحارث، والعاص بن سعيد، وطعْمَة بن عدِيّ، وعشَرات من زُعَماء قريش، ومن أعلى مُستوى من مُسْتَوَياتهم .

فغزوَةُ أُحد كانت أخْذًا بالثَّأر لِهؤلاء القتلى، فهذا وَحْشي الذي قتل سيِّدَنا حمزة -طبْعاً أسْلم- وبعد أنْ أسْلم يرْوي كيف قتله؟ يقول وَحْشي: كنتُ عَبْداً لِجُبَيْر بن مُطعم، وكان عمُّ جُبَيْر قد لقِيَ مصرَعَهُ يوم بدْرٍ، فقال له جُبَيْر: اُخْرج مع الناس، وإنْ أنت قتَلْتَ حمزة فأنت عتيق، ثمَّ أحالوه إلى هند بنت عُتبة زوجة أبي سُفْيان لِتَزيدهُ تحْريضاً ودفْعاً إلى الهدف، وكانت هند قد فَقَدَت في معركة بدْرٍ أباها وعَمَّها وأخاها وابنها، وقيل لها: إنَّ حمزة هو الذي قتل بعض هؤلاء، وأجْهَزَ على البعض الآخر، من أجل ذلك كانت هند بنت عتبة زوجة أبي سُفيان أكثر القُرَشِيات تَحْريضاً للخُروج للحرب، لا لِشَيْءٍ إلاّ لتظفر برَأس حمزة مهما يكُن الثمن، ولقد لَبِثَت أياماً قبل الخُروج وليس لها عمل إلا إفْراغُ كُلِّ حِقْدِها في صدْر وَحْشي، ورسْم الدَّوْر الذي يقومُ به، كُلُّ قلائِدِها وكُلُّ أساورها وأقْراطِها وخلاخِلِها وزينتها هِبَةٌ لِهذا الوَحْشي إذا قتل حَمْزة .

يقول وَحْشي:

((كُنتُ رجُلاً وحْشِياً حَبَشِياً، أقذِفُ بالحَرْبة قذْف الحَبَشَة، فقلّما أخْطِئُ بها شيئاً، ولما الْتَقى الناس خَرَجْتُ أنظر حمزة وأتَبَصَّرُهُ، حتى رأيْتُهُ في عَرْض الناس مثل الجمل الأورق، يَهُدُّ الناس بسَيْفِه هداً، ما يقِفُ أمامه شيءٌ، فو الله بينما كنتُ أتَهَيَّأُ له أريدهُ وأسْتَتِرُ منه بشَجَرَةٍ لِأتَقحَّمَهُ، أو يَدْنُوَ مني إذْ تَقدَّمني سُباعُ بن عبد العُزَّى فلما رآهُ حمزة صاح به قائِلاً: هلمَّ إليّ، ثمّ ضربه ضربة فما أخْطأ رأسه، قال وحشي: عندئذٍ هَزَزْتُ حَرْبتي حتى إذا رضيتُ منها دَفَعْتُها حتى وقعَتْ في ثُنَّتِهِ، أيْ تحت سُرَّتِه، حتى خرجت من بين رجْلَيْه، ونهض نحوي ثم غلب على أمْره فمات، وأتَيْتُهُ فأخَذْتُ حَرْبَتي، ثمَّ رَجَعْتُ إلى المُعَسْكر، فقعَدْتُ فيه، إذْ لم يكن لي فيه حاجة، فقد قتَلْتُهُ لأعتَقَ .

ثم قال: لقد أمـرتْ هندُ بنت عُتبة وَحْشِياً أنْ يأتِيَها بكَبد حمزة، واسْتجاب الحَبَشِيُّ لِهذه الرغبة المذعورة، وعندما عاد بها إلى هند، كان يُناولُها الكبد بيُمْناه، ويتلقى قِرْطها وقلائِدها بيُسْراه، مُكافأةً له على إنْجاز هذه المُهمَّة))

المصيبة التي فجع لها النبي والمسلمين :

النبي عليه الصلاة والسلام حينما رأى سيّدنا حمزة قد قُتِل ومُثّل به، قال:

((لن أصابَ بِمِثْلِك أبداً))

أيْ هذه أكبرُ مصيبةٍ في حياتي، هكذا كان وفاءُ النبي وحُبُّهُ صلى الله عليه وسلّم، وما وَقَفْتُ مَوْقِفاً قطُّ أغيَظ من مَوْقِفي هذا .

تَرْوي بعضُ الكُتُب أنَّ أصْحابه تَمَنَّوا أنْ يُمَثِّل بقتلى قُرَيْش، فقال عليه الصلاة والسلام كما في حديث بُرَيْدَةَ، قالَ:

((كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا بَعَثَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْصَاهُ فِي خَاصَّةِ نَفْسِهِ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا، فَقَالَ: اغْزُوا بِسْمِ اللَّهِ، وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ، اغْزُوا وَلَا تَغُلُّوا وَلَا تَغْدِرُوا وَلَا تُمَثِّلُوا وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا))

[أخرجه الترمذي في سننه]

وَكَرِهَ أَهْلُ الْعِلْمِ الْمُثْلَة .

على مثلك أبو عمارة تبكي البواكي :

حينما انْصَرَفَ النبي من مَوْقِعة أحد مرَّ على نِساءٍ من بني عبد الأشْهَل يبْكين شُهَداءَهنّ ، فقال عليه الصلاة والسلام من فَرْط حنانه وحُبِّه: لكنَّ حمزة نام وما بُكِيَ له، فهم أصْحابه أنه لا بد من أن تأتي النِّساء لِتَبْكي حَمْزة، فلما سمع النبي البُكاء، قال: ما إلى هذا قصَدْتُ، اِرْجِعْنَ يرْحَمْكُنَّ الله، فلا بُكاء بعد اليَوْم، كالنواح، وضرب الوجه، وتمْزيق الثياب .

أذكر أنني كُنتُ في جنازة فَخَرَجَتْ زوْجَةُ ذاك الشخْص المُتوفَّى إلى الطريق تُوَلْول حاسرة متكشفة، هكذا بلا شيءٍ، كل هذا من فِعْل الجاهِلِيَّة، أمّا مَوْتُهُ واسْتِشْهادُه كُلُّ هذا قضاءٌ وقدَر، والإنسانُ كلما ارْتقى إيمانه انضبطتْ أحْزانه، يبْكي ويتألَّم، فعَنْ أَنَس بْن مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قالَ:

((دَخَلْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى أَبِي سَيْفٍ الْقَيْنِ، وَكَانَ ظِئْرًا لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام، فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِبْرَاهِيمَ فَقَبَّلَهُ وَشَمَّهُ، ثُمَّ دَخَلْنَا عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ وَإِبْرَاهِيمُ يَجُودُ بِنَفْسِهِ، فَجَعَلَتْ عَيْنَا رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَذْرِفَانِ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ: وَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ! فَقَالَ: يَا ابْنَ عَوْفٍ، إِنَّهَا رَحْمَةٌ ثُمَّ أَتْبَعَهَا بِأُخْرَى، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ))

[أخرجه البخاري في الصحيح]

كلمة قالها النبي عند قبر حمزة تهتز لها القلوب :

على هامِش هذه القِصّة عبرةٌ تَعْرِفونها جميعاً، فالنبي عليه الصلاة والسلام حينما وقف على قَبْره قال هذه الكَلِمة:

((رَحْمَةُ الله عليك، فإنَّك كُنتَ كما عَلِمْتُ))

-أنظر أيها المؤمن إلى الأدب مع الله، المؤمن لا يُزَكي على الله أحداً-

((وَصولاً للرحِم، فَعولاً للخَيْرات))

مرَّةً حَضَرْتُ جنازَةً، قام أحدُ العلماء يُؤبِّنُهُ، وقد تأثَّرْتُ لما قاله هذا العالم، قال: إنَّ أخاكم أبا فلان كان مُؤذِّناً فَتَرَحَّموا عليه، خمسة وستونَ عاماً عاشَها هذا المتوفى، ألم يسْتطِع هذا العالم أنْ يتكلَّم عنه إلا بهذا؟! فقُلْتُ: هذا دليل على أنَّ الإنسان مهما كان يمْلك، ومهما قدَّم أثناء حياته، فإذا وافتْهُ المَنِيَّة لا يتكلَّمون عنه أكثر من خمس دقائق، فهذه الدنيا فانِيَة، وبُطولتنا فيها أنْ نعمل عملاً صالِحاً نَرْقى به إلى الله .

إليكم موقف النبي الكريم من وحشي قاتل عمه :

يقول وحشي:

((لما قدِمْتُ مكَّة أُعْتِقْتُ حسب الوَعْد، ثمَّ أقمْتُ بها حتى دخلها النبي عليه الصلاة والسلام يوم الفتح، فهَرَبْتُ منها إلى الطائِف، فلما خرج وفدُ الطائف إلى النبي عليه الصلاة والسلام لِيُسْلِم ضاقتْ عَلَيَّ المذاهب، وقلْتُ: ألْحَق بالشام أو اليمن أو سِواهما، فو الله لأني في ذلك من هَمِّي وحُزْني إذْ قال لي رَجُلٌ: وَيْحَكَ إنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلَّم لا يقْتُلُ أحداً من الناس يدْخُلُ في دينه، فخَرَجْتُ حتى قدِمْتُ على النبي عليه الصلاة والسلام في المدينة فلم يرني إلا قائِماً أمامه أشْهَدُ شهادة الحقِّ، أشْهد أنْ لا إله إلا الله، وأشْهد أنَّ محمَّداً رسول الله، فلما رآني النبي، قال: أوَحْشِيٌّ أنت؟! قلتُ نعم، يا رسول الله! فقال: حَدِّثني كيف قتَلْتَ حمزة؟ فَحَدَّثْتُهُ فلما فَرَغْتُ من حديثي، قال: وَيْحك! غَيِّبْ عني وَجْهَك، اللهم هذا قسْمي فيما أمْلك، فأنا أملكُ أنْ أعْفُوَ عنه، ولكن لا أمْلكُ أنْ أراه! قتَلَ أحبَّ الناس إلى النبي صلى الله عليه وسلم، قال: فكُنْتُ أتنكَّبُ طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم حيثُ كان، أيْ لا أواجِهُهُ حتى لا يراني حتى قبضه الله إليه قال: فلما خرجَ المُسلمون إلى مُسَيْلَمة الكَذاب -هذه بتِلْك- صاحِبِ اليمامة خَرَجْتُ معهم وأخذْتُ حَرْبَتي التي قتَلْتُ بها حمزة فلما الْتقى الناسُ رأيْتُ مُسَيْلَمة الكذاب قائِماً في يده السَّيْف وتهيَّأتُ له وهَزَزْتُ حَرْبَتي حتى إذا رَضيتُ منها دَفَعْتُها عليه فوَقَعَتْ فيه، فإنْ كُنْتُ قد قتلْتُ خير الناس بحربتي هذه، وهو حَمْزة، فإني لأرْجو اللهَ أنْ يغفر لي إذْ قتَلْتُ بها شرَّ الناس مُسيْلَمَة))

أنا قرأتُ بعض التاريخ الذي يتحدَّثُ عن فتْح القُدْس في عهْد الصلَيبيين، فالصلَيبيُّون قتلوا في القدس سبْعين ألف مُسلمٍ في يومٍ واحد، ذبحوهم ذَبْحاً، فلما فتح القُدْس سيّدنا صلاح الدِّين عفا عنهم جميعاً وكان أرحم بهم من أنفسهم، هذا هو المؤمن، فهناك أخْلاقٌ شَرَعَها الله لنا .

والحمد لله رب العالمين

السيرة - رجال حول الرسول - الدرس (09-50) : سيدنا زيد بن حارثة
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-12-07

بسم الله الرحمن الرحيم

الصفات الجسدية التي كان يتمتع بها زيد بن حارثة :

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس التاسع من دروس سِيَر الصحابة رِضْوان الله عليهم أجْمعين، وصَحابيٌّ اليوم حِبُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وصفَهُ الواصِفون بأنَّهُ كان قصير القامة، شديد السُّمْرة، في أنفِهِ فطَس، وأما نبؤُهُ فعَظيمٌ جداً جداً، ماذا تدُلُّكم هذه المُفارقة، قصير القامة، شديد السُّمْرة، في أنفِهِ فطَس، وهو حِبُّ رسول الله؟ وسَأريكم بعد قليل كم هي المكانة التي يتمَتَّع بها عند النبي عليه الصلاة والسلام؟ وسأُخْبِرُكم بعد قليل أنَّ الصحابيَّ الوحيد الذي ذكر الله اسمه في القرآن هو سيِّدُنا زَيْد، وفي ذِكْره قِصَّة، ولماذا ذكر الله اسمه في القرآن الكريم؟ .

أوَّلاً: لا قيمة لِشَكْل الإنسان إطْلاقاً عند الله عز وجل، أيَّةُ صِفَةٍ تكون مُتَلَبِّساً بها قصيرُ القامة أو طويلها، أبيض اللون أو أسْمر اللون، أيَّةُ صِحَّةٍ، وأيَّةُ عاهَةٍ، أيُّ جمالٍ، وأيَّةُ وسامَةٍ، وأيَّةُ دمامةٍ لا أثر لها عند الله تعالى، قيمة الرجل في إيمانه وأفعاله وعمله، إذاً: كلُّ القِيَم المادِيَّة الأخرى تحت الأقدام نَبِيُّ الرحمة والعدل والقِيَم والأخلاق، كلها اجتمعت فيه، وهاهو عليه الصلاة والسلام، يقول:

((إنما بُعِثْتُ لأتَمِّمَ صالح الأخلاق))

[أخرجه أحمد في مسنده]

إنه حِبُّ رسول الله .

لسيدنا زيد قصة مؤثرة فاستمعوا لها :

هذا الصحابيُّ الجليل كان أقرب الناس إلى النبي عليه الصلاة والسلام، قبل أنْ يُبْعَث النبي عليه الصلاة والسلام له قِصَّة، وهي أنَّ زَيْداً كان صغيراً وعُمرهُ لا تزيد على ثماني سنوات، أتَوْا به إلى سوق عُكاظ وباعوه عَبْداً، لماذاَ؟ لأنَّ أمه سعدى بنت ثعْلبة أرادت أن تزور قومها بني معن، وكانت تصحب معها ابنها زيد بن حارثة الكعبي، فما كادت تحِلُّ في ديار قومها حتى أغارت عليهم خيلٌ لبني القيد، فأخذوا المال واستاقوا الإبل وسبوا الذراري، هكذا كان العرب في الجاهلية .

فكان هذا الطفل الصغير في الثامنة من عمره مع أمه في زيارة بيت جدِّه، جاءت غارةٌ مفاجئة فأخذته وباعته في سوق عُكاظ عبداً، واشترى هذا العبدَ حكيم بن حَزام بن خُوَيلِد بأربعمئة درهم، واشترى معه

طائفة من الغلمان وعاد بهم إلى مكة، فلما عرفت عمَّتُه خديجة بنت خُوَيلد بمقدمه زارته مسلِّمة عليه مرَحِّبة به، فقال:

((يا عمَّةُ، لقد ابتعتُ من سوق عُكاظٍ طائفة من الغلمان فاختاري أيًّا منهم تشائين فهو هديَّةٌ لكِ، فتفرَّست السيدةُ خديجةُ وجوه الغلمان واختارت زيدَ بنَ الحارثة لِما بدا لها من نجابته، ومضتْ به، وما هو إلاَّ وقتٌ قليلٌ حتَّى تزوَّجتْ خديجةُ بنتُ خويلد من محمد بن عبدِ الله صلى الله عليه وسلم فأرادت أن تُطرِفه، أي تتحفه بتُحفة وهدية، فأهدت له غلامها زيد بن حارثة، فأعتقه النبي عليه الصلاة والسلام فورًا .

بقِيَ عند النبي عليه صلاة والسلام، لم يَبْقَ عنده عبداً، إنما بقي عنده ضيفًا، أما أمُّه وأبوه فقد بَكَيَا عليه كثيرًا وبَحَثَا عنه كثيرًا، وفي موسمٍ من مواسم الحجِّ قصَدَ البيتَ الحرام نفرٌ من قوم زيدٍ، وفيما كانوا يطوفون بالبيت العتيق، إذْ هم بزَيدٍ وجهاً لوجهٍ، فعرفوه وعرفهم وسألوه وسألهم، ولما قضَوْا مناسكهم وعادوا إلى دِيارهم أخبروا حارثة، -من حارثةُ؟ أبوه– بما رأوا وبما سمعوا، وقال زيدٌ لهؤلاء: أخبروا أبي أني مع أكرمِ والد))

ما هي المعاني التي يمكن أن نستنبطها من القصة ؟

هناك معانٍ كثيرةٌ جدًّا تدور في نفسي حول هذه القصة، النبي عليه الصلاة والسلام لم يُبعَثْ بعدُ، اسمه محمدُ بنُ عبدِ الله، وانظر إلى تعامله لزيد حتى تكلم زيد لأبناء قومه أني مع أكرم والد .

وبعد، دعونا قليلاً من أحداثِ هذه السيرةِ وتعالَوْا بنا إلى حياتنا اليومية، أنتَ كمؤمن، إذا كان إنسانٌ تحتَ يَدِكَ، وليكُنْ صانعاً في محلّكَ التّجاري، وليكن موظفاً عندك، أنتَ كمؤمنٍ عليك أن تقتديَ بهذا النبي عليه الصلاة والسلام، يجبُ أن تعاملَه كما تُعامل ابنَك إلى أن يقولَ هذا الإنسانُ الذي تحت يدك: أنا مع أكرم والد، الإسلامُ هكذا، الذي تحت يدك يجب أن تُطعِمَه ممَّا تأكلُ، وأن تُلبسَه ممَّا تلبس، أنا يَحُزُّ في قلبي أن أرى رجلاً مسلماً عنده مُوظَفٌ أو صانعٌ أو غُلامٌ صغيرٌ، يؤتى له بالطَّعام ظهرًا فيأكل، وذاك الغلام أو ذاك المُوَظف أو ذاك الصَّانع ينظرُ إليه، ولا يقول له: تَعَالَ كُلْ معي يا بني .

أيُّها الأخوة الأكارم، إن لم تُعاملوا مَنْ تَحْتَ أيديكم كما تُعاملون أبناءكم، فو اللهِ الذي لا إله إلاَّ هو لا قيمة لا لصلاتكم ولا لصومكم ولا لحجِّكُم، فالدِّينُ هكذا، هذا الذي يعيش معك ويتعامل معك إن لم يشعرْ برحمتك وبِعَطْفك وبحِرصِك، فأنتَ لستَ مسلماً، لعلّك تظنُّ أنَّ الإسلامَ صومٌ وصلاةٌ، لا والله، شيء يُلفتُ النظرَ فهذا كان قبل البعثة، ولو أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم عامله هذه المعاملة بعد أن بعثه الله

وأحبَّه، فلربُّما ليستفيد دعاية له، أو مُجاملة، لكن عامله المعاملة الطيبة قبل البعثةِ وهو كرجلٍ من رجال مكة اسمُه محمَّدُ بنُ عبد الله .

لديك يتيمٌ في بيْتِك إنْ لم تَرْعَهُ الرِّعاية التامة وتُطْعِمه مما تأكل، إنْ لم يشْعُر بالحَنان والإنصاف، فإسلامك صورة وشكل، سيّدنا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كان عنده ضَيْفٌ وهو أمير المؤمنين فانطفأ السِّراج، فقامَ سيّدنا عمر بنَفْسِهِ وأصلح السِّراج، فهذا الضَّيف وقع في حرَج، فقال له: أنت أميرُ المؤمنين، قُل للغُلام أو أكون أنا مُصلِحه، فقال له: أما أنت فضَيْفٌ وَسَخافةٌ بالمرء أنْ يسْتخدم ضَيْفه، هكذا النبي علَّمَهُ، وأما الغُلام فقد نام وكَرِهْتُ أنْ أوقظه، ذَهَبْتُ وأنا عمر وعُدْتُ وأنا عمر .

فيا أيها الأخوة الأكارم، الإسلام دينُ معاملة بحَيث يجْعلك عند عاملك أو الموظف الذي لديك تزْداد احْتِراماً وحُباً عنده وتَعَلُّقاً بك وكُلُّ هذا من الإحْسان، والله لو عامَلْنا غيرنا بهذه المُعاملة لكُنا مُجْتَمَعاً مُتَماسِكاً وبحالٍ غير هذه الحال قوْلاً وعملاً .

فالنبي عليه الصلاة والسلام كان مع أصْحابه، وقال:

((وعلّيَّ جمعُ الحطب، فقالوا: نَكْفيكَ ذلك، قال: أعرف، ولكنَّ الله يكرهُ أنْ يرى عبداً مُتَمَيِّزاً عن أقرانه))

في معْركة بدْر، قال:

((أنا وعليّ وأبو لُبابة على راحِلَة، فقالوا: ابْقَ راكِباً، فقال: لا، ما أنتما بأقوى مني على المَشْي، ولا أغنى مني عن الأجر))

هكذا كان النبي صلى الله عليه وسلّم بلا مَيِّزَة، فَحُبُّهم له وتعْظيمُهُم له وتقْديسُهم له شيءٌ آخر، أما هو فقد جعل نفْسه معهم في كفَّةٍ واحدة، سَواءً بسَواء، حتى أنَّ النبي عليه الصلاة والسلام كان إذا جلس مع أصْحابه ودخل أعْرابيّ لم يعْرِفْهُ، قال:

((أيُّكُم مُحمّدٌ صلى الله عليه وسلّم، فيَقول النبي: قد أصَبْتَ))

لماذا؟ لأنه لم تكن له ميزَةٌ على أصْحابه الكِرام .

ما السبب الذي دفع زيد بن حارثة إلى الاستبقاء مع النبي دون والديه ؟

حارثة لما علِمَ أنَّ ابنه فَلِذَةُ كَبِدِهِ بمَكّة عند محمدٍ بن عبد الله، شَدَّ راحِلَتَهُ وهيَّأ المبلغ الكبير لافتدائه، تَوَجَّهَ تِلْقاءَ مكّة المُكَرَّمة ومعه أخوه فلما دخلا على محمد بن عبد الله، قالاَ له :

((يا بن عبد المُطَّلب أنتم جيران الله تَفُكُّون العاني، وتُطْعِمون الجائِع، وتُغيثون الملْهوف، وقد جِئْنا في ابننا الذي عِندك، وحَمَلْنا إليك من المال ما يفي به، فامْنُنْ علينا وفاده لنا بما تشاء واطْلُب المبلغ

الذي تريد، فقال عليه الصلاة والسلام وهو سيّد الخلق: ومن ابْنُكُما الذي تَعْنِيان؟ ــ الدِّقة والتحْقيق ــ فقالا: غُلامك زَيْدُ بن حارثة، فقال: وهل لكما فيما هو خيرٌ من الفِداء؟ فقالا: وما هو؟ قال عليه الصلاة والسلام: أدْعوه لكم فخَيِّروهُ بيني وبينكم فإنْ اخْتاركم فهُو لكم بغَيْر مال، وإن اخْتارني فما أنا بالذي يرغب عمن اخْتاره))

دَقِّقوا في دِقَّة النبي عليه الصلاة والسلام،

((فقال العمّ والأب: والله قد أنْصَفْت وبالغتَ في الإنصاف، فدَعا النبي عليه الصلاة والسلام زيْداً، فقال: من هذان؟ قال: هذا أبي حارثة ابن شُرَحْبيل، وهذا عمِّي كَعْب، فقال: يا زيد، قد خَيَّرْتك إنْ شِئتَ مَضَيْتَ معهما، وإن شِئتَ أقمْتَ معي، فقال زيدٌ من غير تَرَدُّدٍ ولا إبْطاء: بل أقيمُ معك، وما أنا بالذي أخْتار عليك أحداً أنت الأب والعمّ، فقال أبوه: وَيْحَكَ يا زيد، أتخْتارُ العُبوديَّة على أبيك وأمِّك؟ قال: إني رأيْتُ من هذا الرجل شيئاً أنْساني كُلَّ إنْسان، ما أنا بالذي يُفارقه أبداً))

هذه هي المُعاملة، هل تسْتطيع أنْ تُعامل إنْساناً مُعامَلَةً يؤْثِرُك على أمِّهِ وأبيه؟ إذا كنت مؤمناً فهكذا تُعامل الناس، المؤمن أيها الأخوة، كيْفما تَحَرَّك مع الذين يعيشون معه من شِدّة إنصافه ورحمته وحنانه وعَطْفِه وكرمِهِ ووفائِه وتواضُعِه يؤثرونه على كُلِّ شيء .

((فلما رأى النبي عليه الصلاة والسلام من زَيْدٍ ما رأى أخذ بيَده وأخْرجه إلى البيت الحرام، ووقف به بالحِجْر على ملأ من قُرَيش، وقال: يا معْشَر قُرَيْش، اِشْهدوا أنَّ هذا ابني يَرِثُني وأرِثُهُ، عندئِذٍ طابتْ نفسُ أبيه وعَمِّه وخَلَّفاهُ عند محمدٍ بن عبد الله وعادا إلى قوْمِهما مُطْمئِنّي النفس و مُرْتاحي البال))

ومنذ ذلك الوقت أصبح زيدُ بن حارثة يُدْعى بزَيْد بن محمّد والغريب في القصَّة هو أنه مهما كان الإنسان يعيش في رَغَدٍ من الحياة إلا أنه لا يُؤثر أحداً على والدَيْه! لكن النبي عليه الصلاة والسلام كان بِمَثابة الوالد والأم وهكذا الإسلام، وهكذا ليكن المسلم .

فأنت قد يكون عندك بالمحلّ أو المصنع عامل أو بالبيت يتيم أو طِفْلٌ يكْنس لك، أرِهِ العَطْف والحنان والمودَّة والإكْرام، اِبْذِل المال واعْتَبِرْه كابنك، والله أستمع إلى كلِّ قِصَّة ـشهد الله- لولا أنَّ الذي أخبرني بها لي صادِقٌ لما صَدَّقتهُ، قلْبٌ قاسٍ كالحجر، المبيعات باليوم مئة ألف، الراتب ألفان وخمسمئة بالشهر، هل هذا يكْفي؟ وتجده يقول: إذا لم يُعْجِبك هذا المبلغ نأتي بغَيْرك، القصد أنَّ الإنسان إذا لم يرْحَم لا يُرْحم، وإنْ أرَدْتُم رحْمتي فارْحَموا خَلْقي، فهذا الذي أُجْرته ألفان وخمسمئة بالشهر، هل تكْفيه للأكل هو وزَوْجَته؟ .

حدَّثني أحد الأخوة، فقال لي: آخذ ألفين وخمسمئة بالشهر، وأنا أشْتري لصاحب المحلّ كلَّ يومٍ أغْراضاً مبْلغها سِتَّة آلاف، فأنت خَرْجك اليومي ستة آلاف، وهذا الصادق الأمين تعطيه ألفين وخمسمئة بالشهر! ثمَّ تذهب إلى المسْجد، الله أكبر! وأنا الآن أحِبُّ أنْ أجري موازنة، النبي عليه الصلاة والسلام كُتلةٌ

رحمة، كُتلة إنصاف، كتلة تواضع، كتلة حبٍّ، لذلك لما رأى زيدٌ أباه آثر النبي عليه الصلاة والسلام على أبيه وعمِّه، فكل إنسان عنده شخصٌ تحت يده، قد يكون موظفًا أو صانعا أو خادماً أو آذِناً أو حاجِباً فهذا شَخْصٌ غالٍ عند الله عز وجل، فهذا إنْ اهْتَمَمْتَ به وأكْرَمْته وعاونْتَه، وسألتَ عن أحْواله، ودَقَّقْتَ بِدَخْله وبِأهْلِهِ، وسألت هل عنده مشروع زواج أو وِلادة أو مُشْكلة؟ فمثلاً: في أوَّل الشِّتاء لا بد له من وَقود، وأوَّلُ العام المدْرسي يحْتاج إلى ملابس لأولاده، فهل أنت تعيشُ لِنَفْسِك أمْ للناس؟ .

لكن زيداً اخْتار النبي وآثره وأحَبَّهُ، فماذا نسْتَنبط من هذه الحقيقة؟ نسْتَنْبط أنَّ الأنبياء اصْطفاهُم الله عز وجل من صَفْوَة الخلق، فالنُّبوَة هِبَة أساسُها اصْطِفاء، والاصْطِفاء أساسه التَفَوُّق، فهو عليه الصلاة والسلام تَفَوَّقَ بكماله وأخْلاقه وتواضُعِه وإنْسانِيَتِهِ وكَرَمِه وحُبِّه للخلق، فاصْطَفاهُ الله عز وجل، هي نُبَوَّةٌ وهِبَةٌ ولكن أساسها اصْطِفاءٌ من بين صَفْوَة الخلق .

الإسلام يحرم التبني :

فلما بُعِثَ النبي عليه الصلاة والسلام، وأبْطَلَ الإسلامُ التَبَنِي حيث نزل قوله عز وجل :

(ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً)

(سورة الأحزاب الآية: 5)

عندَئِذٍ عاد النبي عليه الصلاة والسلام وناداهُ زيد بن حارثة اِمْتِثالاً لأمر الله، فإكْراماً له عندما ردّه إلى أبيه، ذكر الله اسمه في القرآن الكريم تطيباً لخاطره، وهو الوحيد الذي ذكِر في القرآن الكريم، إذْ ليس في القرآن الكريم اسم لصحابي إلا سيّدنا زيد، والآية قوله تعالى:

(فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً)

(سورة الأحزاب الآية: 37)

هل في القرآن اسمُ امرأة؟ نعم مريم، وهي الوحيدة التي ذُكِرَت في القرآن إذْ إنّ بعض العلماء، قال: إنَّ ذِكْر اسم المرأة مكْروه، وإنما ذُكِرت مريم في القرآن لأنَّ سيّدنا عيسى عليه السلام قالوا عنه: إنَّهُ إله، وهو ابن الله، فَرَبُّنا عز وجل، قال: عيسى بن مريم وهو الاسم الوحيد .

المكانة التي احتلها زيد عند رسول الله عليه الصلاة والسلام :

كُنْتُ أذكر لكم هذه الفِكْرة وأكررها كثيراً، لما بُعَث النبي عليه الصلاة والسلام وجاء الوَحْيُ وزَيْدٌ عنده، وقد آثَرَهُ على أمِّهِ وأبيه، فاحْتَلَّ زيْدٌ عند النبي صلى الله عليه وسلَّم مكانة كبيرة، فِالمَرْتبة

الاجْتِماعِيَّة والتصْنيف الطَبَقي سيّدنا زيد عَبْدٌ لكنه كان خليفة رسول الله على المدينة، وكان أمين سِرِّه، وقائِدَ غزواته، هذا هو الإسلام الذي نطْمَحُ إليه .

دائِماً أيها الأخوة، لا يوجد حُبٌّ من طرفٍ واحدٍ، عظمة النبي عليه الصلاة والسلام أنه أحبَّ أصْحابه كما أحبُّوه، أو أنهم أحَبُّوه كما أنه أحَبَّهُم، أَحَبوهُ لأنه أحَبَّهُم، مُجْتمع المؤمنين مُتماسِك، عَنْ مُعَاذٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ:

((وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلَّذِينَ يَتَحَابُّونَ فِيَّ وَيَتَجَالَسُونَ فِيَّ وَيَتَبَاذَلُونَ فِيَّ))

[أخرجه أحمد في مسنده]

إذا لم تُحبّ أخوانك، ولم ترْحَمْهُم، ولم تعْطِف عليهم، ولم تنصِفْهم، ولم تزرهم وتتفَقَّدْهم بِمُناسبات مُعَيَّنة، وتبْذل لهم شيئاً من مالك حتى يصير الأخ لِأخيه كالبُنْيان المَرْصوص، إنْ لم نكُن كذلك فلَسْنا من المؤمنين .

هنيئاً لك زيد على هذا الحب المبارك لك من نبي الله محمد عليه الصلاة والسلام :

الشيءُ الذي لفتَ نظري في سيرة هذا الصحابي، كما أنه أحَبَّ النبي صلى الله عليه وسلّم وآثره على أمِّه وأبيه فقد أحَبَّهُ النبي عليه الصلاة والسلام وخلطه بأهله وبنيه فكان يشْتاقُ إليه .

أيها الأخوة، أُقْسِمِ لكم بالله أنَّ أخاً كريماً إذا غابَ أسبوعاً أو أسْبوعَيْن أشْتاقُ له، هذه حقيقة وليس ادعاءً، والعلاقة بين المؤمنين لا يعْلمها إلا الله، لا تظنّ أنَّ أخْوانك هم الذين يُحِبونك فقط بل لا بد من أنْ تُحِبَّهم أيضاً، وتشْتاقُ لهم كما يشْتاقون لك، وتُؤْثِرُهم كما يُؤْثِرونك، وتَحْفظ وُدَّهُم كما يحْفظون وُدَّك، هذا مُجْتمعُ المؤمنين والصحابة .

فالنبي صلى الله عليه وسلّم إنْسانٌ عظيمٌ جداً ووقورٌ جداً وهو سيِّدُ الأنبياء، ومع ذلك يشْتاقُ لزيد إذا غاب عنه، وهذا هو مُجْتمع المؤمنين، على عكس مُجْتمع الدنيا، إذ يضْحك لك أحدهم ويبتسمُ لك ابْتِسامة صفراء وهو يكيد لك، الذي لفتَ نظري أنَّ النبي يشْتاقُ إليه، هذا المُتَّصِل بالله عز و جل والذي يأتيه الوَحْي وأسْعد الخلق يشْتاقُ لِسَيِّدِنا زيْد قصير القامة، شديد السُّمْرة، في أنفِهِ فَطس، وهو حِبُّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم فقد كان يشْتاقُ إليه إذا غاب عنه، ويفْرَحُ بِقُدومه إذا عاد إليه، ويلْقاهُ لِقاءً لا يَحظى بِمِثْله أحد، هذا هو الوفاء، وكأنَّ لِسانَ حالِ النبي عليه الصلاة والسلام: أنت يا زيد آثرْتني على والِدَيْك وبقيتَ عندي أفلا أُحِبُّك أشَدَّ من حُبِّك لي؟ .

السَيِّدة عائِشَة رضي الله عنها تَرْوي مشْهداً، تقول:

((قدِمَ زيد بن حارثة المدينة ورسول الله صلى الله عليه وسلّم في بيتي فقرَعَ الباب، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مُتَخَفِّفاً من ثِيابه، فلما علِمَ أنَّ زيْداً قد جاء فمِن شِدَّة شَوْق النبي لِزَيْدٍ واهْتِمامه

به نَسِيَ أنْ يرْتَدي ثِيابه الخارجيَّة، فلما قرع الباب قام إليه النبي عليه الصلاة والسلام بثِيابه الخفيفة، ومضى نحو الباب يَجُرُّ ثَوْبَهُ فاعْتَنَقهُ وقبَّلَهُ، ووالله ما رأيْتُ رسول الله صلى الله عليه وسلَّم يسْتَقبل أحداً قبله ولا بعده بهذه الثِّياب))

وهو مَشْهَدٌ من مشاهد حُبِّ النبي لِهذا الصحابيِّ الجليل، شاعَ هذا الأمر بين الصحابة حتى إنَّ الصحابة سَمَّوْهُ بزَيْد الحِبّ أيْ محْبوبه، وأطْلقوا عليه لقب حِبَّ رسول الله، ولَقَّبوا ابنه أسامة من بعده بِحِبِّ رسول الله وابن حِبِّه .

كيف استشهد هذا الصحابي ؟

قِصَّة اسْتِشْهادِهِ معْروفة عندكم، فإن النبي عليه الصلاة والسلام عَيَّنَهُ القائِد الأول في جَيْش مؤتة، وتَعْلمون أنَّ مؤتة موْقِعَةٌ خاضَها المُسلمون، والنبي عليه الصلاة والسلام ليس معهم، كان أصْحابُ النبي ثلاثة آلاف، ما قَوْلُكم بأنهم واجَهوا أكثر من مئتي ألف من الروم؟ ووقف أصْحاب النبي أمام هذا الجيش الكبير بِعُدَّتِه وعتاده، والقِصَّة التي أرْويها لكم دائِماً أنَّ سيّدنا جعْفر تسلم القيادة بعد استشهاد زيد، فلما قطعت يده اليُمنى، حَمَل الراية بِيَدِهِ اليُسرى فلما قُطِعَت اليُسْرى حَمَلها بِعَضُدَيْه، وقاتل حتى قُتِل، وخَرَّ صريعاً من علا فرَسِه غارقاً في بحْر دِمائِهِ واسْتُشْهِد، بعدها تقدَّم سيّدنا ابن رواحة، رأى صاحِبَيْه قد اسْتُشْهدا في وقْتٍ قصيرٍ جداً، ورأى مصيرهُ المحْتوم، بعضُهم قال: تَرَدَّد مِقدار ثلاثين ثانية، بمِقْدار بيْتَيْن من الشِّعر:

يا نفْسُ إلا تُقْتلي تموتي　　هذا حِمامُ الموت قد صليتِ
إنْ تفْعلي فِعْلهما رضيتِ　　وإنْ تَوَلَّيْتِ فقد شَقيتِ

وقاتل حتى قُتِل، والنبي عليه الصلاة والسلام حينما بلغه النبأ، قال:

((أخذ الراية أخوكم جعفر فقاتل بها حتى قُتِل، وإني لأرى مقامه في الجنَّة، وقبله سيّدنا زيد بن حارثة قاتل حتى قُتِل واسْتُشهد، ومن شِدَّة وفائِه ذهب بنَفْسِه لِيُبَلِّغَ أهل سيِّدنا جَعْفر نبأ اسْتِشْهاده لأنَّ مكانته الكبيرة عند الله لعلَّها تُخَفِّفُ وطأة خبر اسْتِشْهاده، وذهب بنَفْسِهِ أيضاً إلى بيتِ سيّدنا زيدٍ بن حارثة لِيُبَلِّغ نبأ اسْتِشهاده، ولما بَلَغَتْ رسولَ الله صلى الله عليه وسلّم أنباءُ مُؤتة ومصْرَعُ قادته الثلاثة حَزِنَ عليهم حُزْناً لم يحزن مثله قطُّ ، ومضى إلى أهْليهم يُعَزيهم فيهم فلما بلغ بيتَ زيْدٍ لاذَتْ به ابنته أيْ أقبلت على النبي عليه الصلاة والسلام وتعلَّقت به، وهي مُجْهِشَةٌ بالبُكاء، شيءٌ غريب فقد كان النبي يبْكي ولكن بدون صَوْتٍ إلا مرَّةً واحدة فقد بكى صلى الله عليه وسلَّم حتى انتَّحَب، ومعنى انْتَّحَب

اِرْتفع صوْته بالبُكاء، فقال له سعدُ بن عُبادة: ما هذا يا رسول الله؟ فقال عليه الصلاة والسلام: هذا بُكاءُ الحبيب على حبيبه))

هذا هو الحُبّ الذي بين النبي وبين أصْحابه، ويَنْبغي أنْ يكون هذا الحُبُّ بين المؤمنين ، وهذا هو الإسلام، هؤلاء الصحابة هم الذين حملوا الإسلام ورَوَوا هذه الأراضي بدِمائِهم، أما نحن فالإسلام هو الذي حملنا، فإذا الإنسان منا حَفِظ القرآن أكْرم بالجوائز من عُمْرةٍ ودراهم إلى احْتِفالات وعزائِم، وهؤلاء الدعاة الآن يُكْرمون كثيراً، أما الذين فتحوا هذه البلاد ورووا الأرض بدِمائِهم، والذين دفعوا الثمن باهِظاً، وأكلوا طعاماً خَشِناً، وخاضوا حُروباً قاسِيَة، وما ذاقوا طعْمَ النوم إلا قليلاً، فهؤلاء هم الذين حملوا الإسلام حقاً فَشَتَّان بين أن تحْمِل الإسلام وبين أنْ يحملك الإسلام .

كيف كان الرسول يعامل أصحابه ؟

الذي لفَتَ نظري في سيرة هذا الصحابي، كيفَ أنَّ النبي الكريم يشْتاقُ لأصْحابه، ويُحِبُّهم، ويرْعى شأنهم، ويَفِي بعَهْدهم، ويذْكرهم وينْتَحِبُ حين فقْدِهم؟ هذا هو الإسلام بأبهى صُوَره، ومن المُمْكن أن نسْتفيد من سلوكهم فالذي يملك محلاً أو متْجَراً أو معْمَلاً يُمْكِنُ أنْ يُقْنع من حوله بدِينه وهو ساكِت، فأنت يمكن أنْ تكون داعِيَة كبيراً وأنت ساكِت، وهذا يتم بإنْصافِك وإحْسانك وتواضُعِك وحُبِّك وعطْفِك وحنانك .

فالنبي الكريم عامل سيّدنا زيداً مُعاملة جَعَلَتْهُ يؤثِرُهُ على أمِّه وأبيه وهذه المُعاملة قبل البعْثة، ومعنى ذلك أنَّ النبي معْصومٌ قبل البعْثة وبعْدها، وهو في أعْلى درجات الكمال قبل البعْثة وبعْدها، والشيءُ الثاني: أنَّ النبي عليه الصلاة والسلام بادل أصْحابه حُباً بِحُبٍّ، وشَوْقاً بِشَوْقٍ، ووفاءً بوَفاء .

وإذا أردْتم أن تكونوا مؤمنين صادِقين اتَّبعوا سُنَّة النبي، واعْتَذِروا من بعضِكم، وراعوا مشاعر بعضكم، واصْدُقوا أخوانكم، وتعاونوا فيما بينكم، واحْتَرموا بعضكم، وإياكم والمزاح، تواصَلوا وتبادلوا وتزاوروا وضَحوا من أجل بعضكم حتى يُحِبَّنا الله جميعاً ونسْتحقّ أنْ نكون مؤمنين .

أعرفُ رجُلاً ساكِناً بِبَيْت، وله أخٌ مُتَزَوِّج ليس له بيت، فقال له: تعال، وخُذ هذا البيت، ثم إن الله تعالى أكْرمه الله بِبَيْتٍ خيرٍ منه، فَبَذْلُ الخير يورثك السَعادَة، ويعود عليك بالعوض، فالإسلام دينُ معاملة ومواقف وبذْلٌ وعدالة ورحمة وإنْصاف وحبّ وتماسك وصِدْق وأمانة .

خلاصة الدرس :

فَدَرْسُنا اليوم، يتلخص بأن لِكُلِّ واحدٍ منا من هو دونه، بالوظيفة أو المتجر أو المصنع أو المزرعة، وأقلّ شيء أنه قد يكون عندك مُوَظّف فإن رأى منك العطف والحنان والحبّ والإنصاف والإكْرام، فالأب مع أوْلاده، والضابط مع جُنودِه، والمُعَلِّم مع تلاميذه، والطبيب مع مُمَرِّضيه، والمُحامي مع مُوَكِّليه، ألا تُحِبُّ أنْ يكون هذا الذي جعله الله دونك طريقاً لك إلى الله، وزاداً لك إلى الآخرة، ورأس مالك إلى الجَنَّة، اِفْعَل .

أعرفُ أخاً له مصنع عُمالُهُ كأولاده، فإذا رأى في وجْههم ضيْقاً سارعَ لِحَلِّ مُشْكِلاتهم ، تجد بعدها أنَّ العامل يَفْدي ربَّ العمل بِنَفْسِه وروحه، الحِقْدُ الطبقي مُسْتَوْرَد، فنحن عندنا حُبَّ طبقي، وليس عندنا حقد طبقي .

أرجو الله سبحانه وتعالى ضارعاً أنْ يُلْهمنا الخير والحق، وتطبيق هذه السيرة السمحة في مجتمعنا، وفيما بيننا، لأننا إذا طبَّقْناها كُنا مسْلمين حقاً .

والحمد لله رب العالمين

السيرة - رجال حول الرسول - الدرس (10-50) : سيدنا أسامة بن زيد
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 14-12-1992

بسم الله الرحمن الرحيم

هل هناك فارق بين المؤمن والكافر ؟

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس العاشر من دروس سِيَر صحابة رسول الله رضْوان الله عليهم أجْمعين، وصحابيُّ اليوم ابن صحابيِّ الأمس سيّدنا أُسامة بن زيد ابن حِبِّ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

كمـا ذكرتُ لكم سابقاً: إنْ دَرَسْنا سِيَر أصْحاب رسول الله في وقْتٍ سابق، فقد غَلَبَتْ النُصوص على التحليل، وإنْ دَرَسْنا سِيَر أصْحاب رسول الله مرَّةً ثانِيَة فَنَرْجو الله تعالى أن يغلب التحليل على النُصوص، أيْ أنْ نربط هذه المواقف مع حياتنا، وأنْ نسْتَخْلص العِبر من سِيَرِهم كي نسْتَفيد منها في حياتنا، أو في التعامل مع بعضِنا بعْضاً أوْ في علاقاتنا بالله عز وجل .

بادئ ذي بدْء في قِصَّة هذا الصحابِيِّ الجليل حقيقةٌ خطيرة، وهي أنَّ الكافِر بالتعبير الحديث عُنْصُرِي بِمَعْنى أنهْ يحْتَقِر الآخرين، ويقْبَلُ أنْ يبْنِيَ حياته على مَوْت غيره، وغِناهُ على فقْره، وأمْنَهُ على خَوْفِهم، يرى أنَّ الحياة له وحْده، وأنَّهـا من حقِّهِ هو فقط، يُمْكِن أنْ يأكُل لِيَجوع الآخرون هذه نظْرَةٌ عُنْصُرِيَّة، أيُّ إنْسان لأيِّ انْتِماء ومن أيِّ مشْرب إذا رأى أن له الحق أنْ ينطلق هذا المُنْطَلق فَهُو عُنْصُري، كما أنه بعيدٌ عن الإيمان بالله عز وجل بُعْد الأرض عن السماء، أما المؤمن يرى أنَّ الناس كلَّهُم عباد الله، وأنَّ أيَّ مَخْلوقٍ إنْ زاد في طاعَتِهِ لِرَبِّه يرْقى في مرْتَبَتِه، يُصَدِّقُ قوله تعالى:

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

(سورة الحجرات الآية: 13)

لا يرْفَعُ الإنسان عند الله إلا طاعته لله، لذلك فالمؤمن قد يرى شَخْصاً فقيراً لكنَّهُ يعْرف الله حقاً ويعبده، فيُكِنُّ له في قلْبِهِ أعظم التقْدير، قد يكونُ مُديراً عاماً لِمُؤَسَّسَةٍ ضَخْمة وعنده حاجِب، هذا الحاجِب مُستقيمٌ على أمر الله لا يُعامِلُهُ إلا كما يُعاملُ نفسه، فهذا هو المؤمن، اِحْذَر أيها الأخ الكريم أنه إذا انْطَلَقْتَ من أنَّك إنْسانٌ آخر، ولك مَيِّزات، ولك حقُّ الحياة، ولك حقّ أنْ تأكلُ ما تشْتَهي بينما الذين حوْلك، تقول: ما شأني وشأنَهُم، إذا كانَ بالإمْكان أنْ تنْطَلِق بهذا المُنْطلق فَبَيْنَك وبين الإيمان مراحل فسيحة .

أردْتُ من هذه المُقَدِّمة بيان أنَّ المؤمن يُحِبُّ عباد الله جميعاً، ويحْتَرِمُهم جميعاً، ولا يُفَرِّقُ أبداً بين جِنْسٍ وجِنْس، ولا بين عِرْقٍ وعِرْق، ولا بين لَوْنٍ ولَوْنٍ، ولا بين نَسَبٍ ونَسَبٍ ولا بين ثقافَةٍ وثقافة، ولا بين بلَدٍ وآخر، ولا بين مدينةٍ وريفٍ، ولا بين غِنِىً وفقْر، كُلُّ الناس عِباد الله، وإذا أراد أنْ يقيسهم فهو

يقيسُهم بمِقياس الإيمان فقط، إذا أراد أنْ يُصنِّفَهم فتَصنْيفُهُ وفق قِيَم الإيمان فقط، أما أنْ يَفَرِّق بين قويٍّ وضعيف، وبين وَجيهٍ وحقير، وبين عالي النَّسَب ومغْمور النَّسَب، بين الذكِيّ وغير الذكيّ، هذا شيء يتنافى مع طبيعة الإيمان .

من هي أم أيمن ، ومن هو ولدها ؟

هذه المُقدِّمة قدَّمْتُها لكم لأنَّ النبي عليه الصلاة والسلام كما تعْلمون في السنة السابعة قبل الهجْرة كابد عليه الصلاة والسلام من أذى قُرَيش ما كابد، وحَمَلَ هُموم الدَّعْوة وأعْباءِها ما أحال حياته إلى سِلْسِلَةٍ مُتواصِلَة من الأحْزان والنوائِب، وفيما هو في هذه المَشَقَّة والمُكابَدَة وأشَدِّ الضِّيق أشْرَقَتْ في حياته بارقة سُرور، جاءَهُ المُبَشِّر أنَّ أمَّ أيْمن وَضَعَتْ غُلاماً فأضاءتْ أساريرُ النبي فأشْرق وَجْهُهُ الكريم، وابْتَهَجَ قلبه الشريف، فمَن هي أمُّ أيْمن؟ ومن هذا الغُلام؟ ومن والد هذا الغُلام؟ هذا الذي جعلني أُقدِّمُ هذه المُقدِّمة، رسولٌ كريم، سيِّدٌ عظيم، من أرْقى أُسَر قُرَيش، من بني هاشِم تُصبِحُ حياته سعيدةً لأنَّ أمَّ أيمن التي زَوَّجَها لِزَيْد بن حارثة غُلامه ومُتَبَناه، أنْجَبَتْ أمُّ أيْمَن لِزَيْد بن حارثة غُلاماً اسمُهُ أسامة طبْعاً أمُّ أيْمن هي بَرَكَةُ الحَبَشِيَّة، كُنْيَتُها أمُّ أيْمن، كانت مَمْلوكَةً وجارِيَةً لآمنة بنت وَهْب أمِّ رسول الله صلى الله عليه وسلَّم، هذه بركة الحَبَشِيَّة أمُّ أيمن رَبَّتْهُ في حياةِ أمِّه وحَضَنَتْه بعد وفاتِها، فحينما فتح عَيْنه على الدنيا فتحها على أمِّ أيمن، فأحَبَّها أعْمَقَ الحُبِّ وأصْدَقَهُ، وكان يقول عليه الصلاة والسلام:

((هي أمِّي بعد أمِّي وبَقِيَّة أهل بيْتي))

أرَأَيْتُم إلى هذا الوَفاء؟ .

تَرْوي كُتُبُ السيرة أنَّهُ أكْرَمها في مُناسَباتٍ لاحِقَة أشَدَّ الإكْرام، فمن والد هذا الغُلام؟ إنَّهُ حِبُّ رسول الله صلى اله عليه وسلم، زَيْدُ بن حارِثة، هل هناك عُنْصُرِيَّة؟ هل هناك تَفْرِقة؟ هل هناك ما يُسَمَّى بالطَّبَقِيَّة؟ نحن الآن في القَرْن العِشْرين قَرْنُ الديمقْراطِيَّة والتَّنْوير العِلْمي، نسْتَمِع إلى الأخبار إلى نَزَعاتٍ عِرْقِيَّة تظْهر في أوروبا الغَرْبِيَّة أعْمال عُنْف ضِدّ كلّ إنْسان ليس من ألْمانيا، لا لِشَيءٍ إلا لأنه ليس من هذا العِرْق، لكن النبي عليه الصلاة والسلام لا يفرق بين المسلمين .

حينما تشْعُر أيها الأخ المؤمن أنَّ عندك اسْتِعْداداً، أنْ تقول: أنا غير فُلان، وأنا من بَيْتِ فُلان، أنا أهْلي أغْنِياء، أنا مُثَقَّفٌ، أنا من هذه الأسْرة، أنا لديّ أمْوال، إذا كان لك اسْتِعْداد أنْ تنْطَلِق هذا الانْطِلاق فابْكِ على نفْسِك وعلى إيمانك، النبي عليه الصلاة والسلام سيِّدُ العُرْب والعَجَم، ومع ذلك هذه التي رَبَّتْهُ وحَضَنَتْهُ وهذه التي فَتَحَ عَيْنَيْه في الدنيا على مُحَيَّاها، هذه أُمُّهُ، قال: هي أمِّي بعد أمِّي، من زَوْجُها؟ هو

مُتَبَناه، أنا ما أردْتُ من هذه المُقدِّمة إلا أنْ تَشْعُر أيها المؤمن أنَّهُ ليس لك الفضْلُ على أحدٍ إلا بالتَّقْوى .

تذْكُرون أنَّ سيّدنا عمر لما اسْتَدْعى سَيِّدَنا سَعْدُ بن أبي وقاص، وقال له:

((يا سَعْدُ، لا يَغُرَنَّك أنَّهُ قد قيل خال رسول الله، فالخَلْقُ كُلُّهم عند الله سَواسِيَة، وليس لهم عند الله قرابة إلا طاعَتُهُم))

الناسُ يتفاضَلون بالعافِيَة وينالون ما عند الله بالطاعة، لقد اِسْتَمَعْتُ قبل أيامٍ إلى قِصَّةٍ هَزَّتْ مشاعِري أسْرةٌ فيها مجْموعة فتيات، وبعض هؤلاء الفَتَيات على جانِبٍ من الجمال لكن هناك فتاةٌ كأنَّها أقَلُّهُنَّ شأناً وحَظَّاً، اِعْتَقَد أهْلُها أنَّ هذه أبْقاها الله لِخِدْمَتِهم، أما أخواتها الأربع فلَهُنَّ أزْواج وبُيوت، وإذْ بهذه الخامِسَة يأتيها زَوْجٌ كريمٌ كريم، والشُّروط المطلوبة كلها مُتَوَفِّرة بهذا الزوج، يُكْرِمُها أعْظم تَكْريمٍ ويرفَعُ من شأنِها .

تَعْرفون القِصَّة التي كُنْتُ أُرَدِّدُها عليكم أنَّ شخْصاً كان يأكل مع زوْجَتِه الدجاج، فَطَرَقَ سائِلٌ الباب هَمَّتْ أنْ تُعْطِيَهُ قِطْعَة من هذه الدجاجة فنَهَرَها زَوْجُها، وقال لها: اُطْرُديه ففَعَلَتْ، بعد سَنَةٍ أو سنَتَيْن نَشَب خِلافٌ بينهما فانْتهى إلى الطلاق، ثمَّ جاءَها زوْجٌ آخر فتَزَوَّجَها، وفي جَلْسَةٍ مثل الجَلْسَة المُشابِهَة للأولى كانا يأكلان الدجاج، فَطُرِقَ الباب فذَهَبَتْ لِتفتح الباب فاضْطَرَبَتْ، فقال زوجُها من؟ قالت: سائِل، فقال زوْجُها: لِماذا اضْطَرَبْت؟ قالتْ: إنَّهُ زَوْجي الأوَّل، فقال: أتَدْرين من أنا؟ قال: أنا السائِل الأول، تعلَّم أنْ تحْتَرِم الناس جميعـاً، وألا تكون عُنْصُريـاً، وأنْ تقيسَ الناسَ بِمِقْياسٍ واحدٍ وهو مِقْياسُ الطاعة لله، قال تعالى:

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

(سورة الحجرات الآية: 13)

فأنا دائِماً عندي قاعدة في النظر إلى الناس والتعامل معهم، هذا الإنسان أهو رَحْماني مؤمن أو عُنْصُري له تفْكيرٌ طبَقي وعِرْقي؟ الدول المُتَحَضِّرَة لها تفْكير عِرْقي، من أجل أنه مسلم يجب أنْ يُقْتل، وهذا هو التفْكير الجاهِلي، أما المُسْلمون فهم أُناسٌ آخرون .

أُمَّ أيمن أنْجَبَتْ طِفْلاً صغيراً اسمه أُسامة لِمَمْلوكٍ سابق اسمه زيدُ بن حارثة، وكان كُلَّما ذُكرت له، يقول:

((هي أُمِّي بعد أمِّي وبَقِيَّةُ أهل بيْتي))

هذا الغُلام أطْلق أصْحاب رسول الله عليه الحِبُّ وابن الحِبّ، الحِبُّ هو زيد، وابن الحِبِّ هو أُسامة بن زَيد .

الإسلام حطم قيد الجاهلية وأعلن بدلاً منها القيم والمبادئ :

يا أيها الأخوان، إنْ لم تضع تحت رِجْلِك كُلَّ قِيَم الجاهِلِيَّة وأعْرافِها فلن تكون مُسلما حق الإسلام، تذكرون أن أحد مُلوك بني غَسَّان جَبَلَة بن الأيْهَم، أسْلم واسْتَقْبَلَهُ عمر ورَحَّبَ به، وفي أثناء طوافِهِ حول البيت، بَدَوِيٌّ من دون أنْ يدْري ويقْصِد داسَ طرَفَ إزاره فانْخَلَع إزارُهُ فَغَضِبَ، والتَفَتَ نحو هذا البدَوِيّ من قبيلة فزارَة وضربه على أنْفِهِ ضَرْبَةً هَشَّمَتْ أنْفَهُ فَوْراً، فاشْتكى هذا البَدَوِيّ لِعُمَر بن الخطاب لما فَعَلَهُ به جَبَلَة بن الأيْهَم، فاسْتَدْعاه سيّدنا عمر، وقال له:

((لا بدّ من إرْضاء الفتى، ما زال ظِفْرُكَ عالِقاً بدِمائِهِ، أوْ يُهْشَمَنَّ الآن أنْفُكَ ، وتنال ما فَعَلَتْهُ كَفُّكَ ، قال: كيف ذاك يا أمير المؤمنين؟ هو سوقة وأنا عَرْشٌ وتاج، كيف ترْضى أنْ يخِرَّ النجْمُ أرْضاً؟ فقال عمر رضي الله عنه: نزَوَاتُ الجاهِلِيَّة دَعْكَ منها، ورياحُ العنْجُهيَّة، فالنَّزَواتُ قد دَفَنَّاها أقمْنا فوقها صَرْحاً جديداً، وتساوى الناس لدَيْنا أحْراراً وعَبيداً، فقال: كانَ وهْماً ما جرى في خَلَدي، أنني عندك أقوى وأعزّ، أنا مُرْتَدٌّ إذا أكْرَهْتَني، فقال عمر رضي الله عنه: عُنُقُ المُرْتَدِّ بالسيفِ تُحَزّ، عالمٌ نبْنيه كلُّ صدْع فيه بشَبَى السيف يُداوى، وأعزُّ الناس بالصُّعْلوك بالعَبْد تساوى))

هذا هو الإسلام يُمْكِنُ أنْ تُعامِلَ الناس وكأنَّك واحدٌ منهم، فإن كان عندك خادِم أو أجير أو مُوَظَّف أو امرأة خادِمَة، فهذه لها مكانَتُها وشأنُها عند الله وهي أشْرفُ من ألف امرأة تؤذي الناس فهيَ تُطْعم أوْلادها بعَرَق جبينها، يجب أنْ تشْعُر أنَّهُ لا فضْل لك على أحد إلا بالتَّقْوى، كُلُّ هذه القِيَم التي تعارف عليها الناس لا قيمة لها، فالقرآن أغْفَلَها وأهْمَلَها وسَكَتَ عنها، فالقُرآن يتبنّى قيمتين اثنتين قيمة العِلْمُ وقيمة العَمَل، قال تعالى:

(يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

(سورة المجادلة الآية: 11)

والقيمة الثانِيَة، قوله تعالى:

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

(سورة الأحقاف الآية: 19)

كلُّ هذه القِيَم، وسامة الطَّلْعة، وقِيَمُ الغِنى والقُوَّة، وقِيَمُ الذكاءِ كُلُّها لا قيمة لها عند الله ، فعِند الله قيمتان: العلم والعمل، يُمْكِنُ أنْ يُقاسَ الناسُ بهما، واحْرَصْ على أنْ تُحْفَرَ في ذِهْنِك هذه الآية:

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

(سورة الحجرات الآية: 13)

فإما مؤمن وإما عُنْصُري، والتفْكيرُ الطبقي أساسه الغِنى والفقْر، والقوَّة والضَّعْف، رُبَّ أشْعَثَ أغْبر ذي طِمْرَيْن، مدْفوع بالأبواب، لو أقْسَمَ على الله لأبَرَّه .

انظر إلى رسول الله أحب زيد بن حارثة فأحب ابنه أسامة كحب الحسن والحسين :

المُسْلِمون حينما أطْلَقوا على هذا الغُلام كلمة حِبّ وابن حبّ رسول الله، ما بالَغوا، فكان عليه الصلاة والسلام يُحِبُّهُ حُبًّا شديداً وتَغْبِطُهُ الدنيا كلها عليه، كانَ أُسامة يُقاربُ في السِنِّ الحسن بن فاطِمَة الزهْراء، وكان الحَسَن أبيض أزْهر رائِع الحُسْن شديد الشَّبَهِ بِجَدِّهِ رسول الله، وكان أُسامةُ أسْوَدَ البَشَرة، أفْطَسَ الأنف، شديد الشَّبَهِ بِأُمِّه الحَبَشِيَّة، لكنَّ النبي صلوات الله عليه ما كان يُفَرِّقُ بينهما في الحُبِّ حُبُّهُ لِسِبْطِهِ الحَسَن كَحُبِّهِ لابن مُتبناهُ أُسامة، كان يأخذُ أسامة فَيَضَعُهُ على إحْدى فخذه ويأخذ الحَسَن ويضَعُهُ على فخذِهِ الأُخْرى، ثمَّ يَضُمُّهما إلى صَدْره، ويقول: اللهمَّ إني أُحِبُّهُما فَأَحِبَّهُما، هذا هو الإنسان الكامل .

ولقد قُلتُ منذ يَوْمَين: إنَّ الإنسان لو سار في الطريق عارياً، فالإنْسانُ بَشِعٌ جداً وهو عاري الجسد، وهو لا يرْتَكِبُ حماقة، ولا يسْقُطُ عند الناس كما لو تعامل مع الناس بِمِقْياسَيْن فهناك في الحياة: ابْنَتُك، وكُنَّتَك، هل لك اسْتِعْداد أنْ تُعامِل ابنتك مثل أنْ تُعامِل زوْجة ابنك؟ لماذا إذا قالتْ لك ابنتك: أنا مريضةٌ يا أبي، تُصَدِّقُها فوْراً، وإذا قالتْ زوْجَةُ ابنك الكلام نفسه لم تُصَدِّقها؟ هل لك اسْتِعْدادٌ أنْ تعامل ابنك كما تعامل مُوَظَّفاً يعْمَلُ عندك في مَحَلٍّ تِجاري؟ إنْ حَمَلَ ابنك شيئاً ثقيلاً بادَرْتَهُ معترضاً، وإنْ حملها خادمك لم تُلْق بالاً، هذه هي العُنْصُرِيَّة، وهي أنْ تقيس ابنك بِمِقْياس والأجير بِمِقْياس، وابنتك بِمِقْياس وزوْجَةُ ابنك بِمِقْياسٍ، فأنت عُنْصُري، هل لك اسْتِعْداد أنْ تخدمَ والد زوْجَتِك كما تخْدُم والدك؟ .

أيها الأخوة، لا حِظوا أنفسكم فإنَّ الإنسان أحْياناً يقيسُ بِمِقْياسَيْن وهو لا يشْعُر، ذكر لي أحدهم قصة وهي واقِعِيَّة، بِيَوْمٍ واحدٍ ابنُها اشْترى غسالة حديثة لِزَوْجَتِه، وصِهْرُها اشْترى غسالة لِابْنَتِها، فالحماة بِيَوْمٍ واحدٍ عَنَّفَتْ ابنها على شِرائِهِ هذه الغسالة، وفي اليوم ذاته قالت: اللهم ارْض على فُلان صهرها رَيَّحَ لي ابْنتي، هذه هي العُنْصُرِيَّة، وهي من ضَعْف الإيمان، فإذا أراد الصانع الخُروج من العمل قبل ساعة من أجل الالتِحاق بالمَدْرَسَة الليلية، وقُلتَ له: لا ، كان ذلك علامة الأنانيَّة والعُنْصُرِيَّة، إبْكِ على حالك، نحن نعيشُ هذا الكلام ونراهُ بالمُسْلمين واقعاً، ابنه يُؤمن له اثنى عشر أُسْتاذاً، وخادِمُهُ لا يسْمح له بالخُروج قبل الوقت بقليل من أجل الدِراسة، ثلاثة مئة ألف ليرة كلَّفَتْني من أجل الدروس الخاصَّة، هذا الأمر يُؤْلِمُني أنْ يصدُر من المسلمين، كان عليه الصلاة والسلام يضُمُّهُما إليه، ويقول اللهم إني أحبهما فأحبهما،

((عن أبي أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، قالَ: طرَقْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذاتَ لَيْلَةٍ فِي بَعْض الْحَاجَةِ فَخَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ مُشْتَمِلٌ عَلَى شَيْءٍ لا أَدْرِي مَا هُوَ، فَلَمَّا فَرَغْتُ مِنْ حَاجَتِي، قُلْتُ: مَا هَذَا الَّذِي أَنْتَ مُشْتَمِلٌ عَلَيْهِ، قالَ: فَكَشَفَهُ فَإِذَا حَسَنٌ وَحُسَيْنٌ عَلَى وركَيْهِ فَقالَ: هَذَانِ ابْنَايَ وَابْنَا ابْنَتِيَ، اللَّهُمَّ إِنِّي أُحِبُّهُمَا فَأَحِبَّهُمَا وَأَحِبَّ مَنْ يُحِبُّهُمَا))

[أخرجه الترمذي في سننه]

راقبْ نفْسَكَ حينما تُعامِلُ الناس، عامِلِ الناس كما تُحِبّ أنْ يُعامِلوك، هل عندك اسْتِعْداد إذا كنت مُوَظَّفاً وجاءَكَ رجُلٌ مُراجِع أنْ تضعَ نفْسَكَ مكانه، أم أنك تضع أمامه ألف عَقَبَة، كأن تقول له: لا بد من أنْ تُصَدِّق لي على هذا التوقيع، وأنت تقْدِر أنْ تتجاوز له عن هذا، وتيسر له المعاملة، ولكن تعرقلها، إما لإظْهار قيمتك، وإما لكي تُشْعِرَهُ أنَّك إنْسانٌ مُهِمّ وخطير؟ فالإنسان عليه أن يعامِلِ الناس كما يُحِبّ أنْ يُعامِلوه .

تَرْوي بعض الرِّوايات أنَّهُ بلغ من شِدَّة حُبِّ النبي عليه الصلاة والسلام لأسامة أنَّه عثر يوماً بِعَتَبَةِ الباب فَشُجَّتْ جَبْهَتُهُ وسال الدمُ من جُرْحِهِ، فأشار النبي عليه الصلاة والسلام إلى عائِشة رِضْوان الله عليها أنْ تُزيل الدَّم عن جُرْحِهِ فربما أنَّها لم تسْتَجِبْ سريعاً، أو لم تَطِبْ نفْساً، لِذلك فقامَ إليه النبي عليه الصلاة والسلام وجعل يُزيلُ الدَّم عن جَبْهَتِه ويُطَيِّبُ خاطِرَهُ بِكَلِماتٍ تفيضُ عُذوبة وحناناً .

وبالمُناسَبَة فإياكم أنْ تنْزَلِقوا وتَظُنوا أنَّ النبي عليه الصلاة والسلام يُمَثِّلُ في هذه الأخلاق كما يفعل بعض الناس، فهذه أبعد عن أخْلاق النبي عليه الصلاة والسلام بُعْد الأرض عن السماء، والآن في زماننا هناك أشْخاصٌ أذْكِياء وبارعون في تمْثيل التَحَبُّب، هذا ليس حُباً ولكن مصْلَحَة، هذا يفْعَلُهُ الناس أحْياناً، لكن النبي عليه الصلاة والسلام حُبُّهُ حقيقيّ، وصِدْقُهُ ما بعْده صِدْق، وإخْلاصه ما بعده إخْلاص.

أسامة تربى في بيت النبوة فانظر كيف تخرج ؟

أهْدى حكيم بن حزام أحد سَراة قُرَيْش لِرَسول الله صلى الله عليه وسلَّم حُلَّةً ثمينةً شراها من اليَمَن بِخَمْسين ديناراً ذَهَبِياً، فأبى النبي عليه الصلاة والسلام أنْ يقبل هَدِيَّتَهُ لأنه كان يوْمئِذٍ مُشْرِكاً، أخَذَها منه بالثَّمن، لِمَنْ اشْتَراها؟ هو لا يلْبَسُها، لَبِسَها النبي مرَّةً واحدة ثمَّ خلعها على أسامة بن زيد، فكان أُسامة يروحُ بها ويغْدو بين أتْرابِهِ من شُبان الأنْصار والمُهاجِرين، حُلَّةٌ يرْتَديها مَلِكٌ سابق اشْتَراها النبي وقدَّمَها لأسامة بن زَيْد .

يرْوي التاريخُ أنَّ هذا الصحابيّ الجليل كان ذَكِياً جداً، وشُجاعاً خارقَ الشجاعة، حكيماً يضَعُ الأمور في مواضعها، عفيفاً يأنفُ من الدنايا، آلِفاً مألوفاً يُحِبُّهُ الناس، تَقِياً وَرِعاً يُحِبُّهُ الله ، أحْياناً يكون الإنسانُ ذَكِياً ويُحِبُّهُ الناس ولكنَّ الله تعالى لا يُحِبُّهُ فهو منافق، وأحْياناً الإنسان له عِبادته واتِّصاله بالله لكن يُقَصِّر أحْياناً مع الناس، فالذي ينْبغي أن يكون أنك بِقَدْرِ ما تُحِبُّ الله بِقَدْر ما تكون مع الناس لطيفاً رحيماً وكامِلاً ومُنْصِفاً حتى يُحِبُّك الناس .

إليكم بعض الغزوات التي شارك فيها أسامة بن زيد :

في غزوة الخَنْدَق جاءَ أسامة إلى النبي عليه الصلاة والسلام لِيَنْخَرِط في هذه الغزوة، فَرَقَّ له النبي عليه الصلاة والسلام وأجازَهُ، أما في أحد جاءَهُ فَرَدَّهُ صلى الله عليه وسلم لِصِغَرِه، فَبَكى من شِدَّة تأثُّرِهِ، الآن أين تجد أبناء الخامسة عشرة؟ تجدهم بالمَلْعَب، ويوْمَ حُنَيْن حينما انْهَزَم المُسلمون ثبت أسامة بن زيد مع العباس عمّ رسول الله وأبي سُفْيان بن الحارث بن عَمِّهِ وسِتَّةُ نَفَرٍ آخرين من كِرام الصحابة، فاسْتطاع النبي عليه الصلاة والسلام بِهَذه الفِئَة المسلمة الصغيرة الباسِلَة أنْ يُغَيِّر هزيمة أصْحابه إلى نصْرٍ وأنْ يَحْمِيَ المسلمين الفارِّين من أنْ يفتِكَ بهم المشركون .

قد يتساءل الإنسان: أسامة بن زيد سبْعَة عشر عاماً يُمْكِنُ أنْ يُعَيَّن قائِداً لِجَيْش فيه أبو بكر وعمر وعثمان وعَلِيّ، هذا مَوْقِفُ النبي صلى الله عليه وسلَّم، أوَّلاً: هو قُدْوَة للشباب جميعاً، كُلُّ من دخل الإسلام صار عظيماً سواء أكان شاباً أم كهْلاً أم شَيْخاً، سيِّدنا أبو أيوب الأنْصاري شارك في جَيْشٍ اتَّجَه لِفَتْحِ القُسْطَنْطينِيَّة وهو في الثمانين من عُمُره، فهذه عَظَمَةُ الإسلام فالإسلام يصْنع الأبطال، الشيْخُ له نَفْسِيَّةُ الشاب، والشاب لهُ حِكْمَةُ الشَّيْخ .

الآن تجد شاباً مُنْدَفِعاً لكنَّهُ أحْمق ولا علم له، حركة عَشْوائِيَّة، وتجد شيخاً وقوراً كلُّه حكمة لا مُروءَة له، فإذا أردت أنْ تكون شيخاً وأنت شابٌّ فَكُنْ مُسْلماً، وإنْ أردتَ أنْ تكون شاباً وأنت شيخٌ فكنْ مُسْلماً .

في يومِ مؤتة جاهد أسامة تحت لِواء أبيه زيد بن حارِثَة وسِنُّهُ دون الثامنة عشرة، فرأى بِعَيْنَيْه مصْرع أبيه فلم يَهِن ولم يتضَعْضَع وإنما ظلَّ يُقاتلُ تحت لِواء جعفر بن أبي طالب حتى صُرِع، وعلى مرْأى منه ومشْهد، ثمَّ تحت لِواء عبد الله بن رواحة حتى لَحِق بِصاحِبَيْه، ثمَّ تحت لِواء خالد بن الوليد حتى اسْتَنْقَذ الجيش الصغير من براش الروم، ثمَّ عاد أسامة إلى المدينة مُحْتَسِباً أباهُ عند الله، تاركاً جسده الطاهر على تُخوم الشام راكِباً جواده الذي اسْتُشْهد عليه .

النصر العظيم الذي حل بالإسلام وأهله حينما قاد أسامة الجيش لغزو الروم :

المَوْقِف الحاسِم ومركز الثِّقل في سيرة هذا الصحابيِّ الجليل أنَّهُ في السَّنَة الحادِيَة عشرة للهِجْرة أمر النبي عليه الصلاة والسلام بِتَجْهيز جَيْشٍ لِغَزْوِ الروم، وجعل فيه أبا بكرٍ، وعمر، وسعْد بن أبي وقاصٍ، وأبا عُبَيْدة بن الجراح، وغيْرهم من جِلَّة الصحابة وأمَّر على الجَيْش أسامة بن زيْد، وهو لم يتجاوز العِشْرين من عُمره، وأمره أنْ يوطِئ الخيل تُخوم البلْقاء ، وقلْعَة الداروم القريبة من غَزَّة بِلاد الروم، حرْبٌ هَدَفُها تحْجيمُ الأعْداء وفيما كان الجَيْشُ يتَجَهَّز مَرِضَ عليه الصلاة والسلام، لو أنَّهُ يعْلَمُ الغَيْب لَتَرَك هذه المُهِمَّة لِخَليفَتِه، لكن النبي عليه الصلاة والسلام لا يعْلَمُ الغَيْب، ولو أنَّهُ كان يعْلم الغَيْب لما

مسَّهُ السوء، وهو صلى الله عليه وسلم يخاف إنْ عصى ربَّهُ عذابَ يومٍ عظيم، ولا يمْلِكُ لِنَفسِهِ نفْعاً ولا ضَرًّا، فمن باب أوْلى ألا يمْلِكَ لأصْحابه نفْعاً ولا ضَرًّا، وهذا هو مقامُ النُبُوَّة وأيُّ إنْسانٍ يدَّعي فوق ذلك فَهُوَ دَجَّال .

يقول أسامة:

((لما اشْتَدَّ المرضُ على النبي الصلاة والسلام تَوَقَّفَ الجَيْشُ عن المَسير اِنْتِظاراً لما تُسْفِرُ عنه حال النبي عليه الصلاة والسلام، ولما ثقُلَ على نبيِّ المرضُ أقبَلْتُ عليه وأقْبَلَ الناسُ معي فدَخَلْتُ عليه فوَجَدْتُهُ قد صَمَتَ فما يتكلَّمُ من وطْأةِ الداء، فجَعَلَ عليه الصلاة والسلام يرْفَعُ يدَهُ إلى السماء ثمَّ يضَعُها عليّ فَعَرَفْتُ أنَّهُ يدْعو لي، وما لبثَ عليه الصلاة والسلام أنْ فارق الحياة وتَمَّتْ البَيْعَة لأبي بكْرٍ، وأوَّلُ قرارٍ اتَّخَذَهُ هذا الصحابيّ الجليل خليفة رسول الله أنَّهُ أمر بإنْفاذ بعْث أسامة، لكنَّ الأنْصار رأوا أنْ يُؤخِّر هذا البعْثُ وطَلَبَوا من عمر بن الخطاب أنْ يُكَلِّم أبا بكرٍ، وقالوا له: فإنْ أبى إلا المُضِيّ فأبْلِغْهُ عنا أنْ يُوَلِّي أمْرنا رَجُلاً أقدَمَ سِناً من أسامة، هذا الصِّديق اللطيف النَّاعِم الرقيق الحليم، ما إنْ سَمِعَ الصِّديق من عمر رسالة الأنصار حتى وَثَبَ وكان جالِساً، وأخذ بِلِحْيَةِ الفاروق وهَزَّها حتى كادَت تنْخَلِع، وقال مُغْضَباً: ثكِلَتْكَ أمُّكَ يا ابن الخطاب اِسْتَعْمَلَهُ رسول الله وتأمُرُني أنْ أنْزِعَهُ، والله لا يكون هذا أبداً، جبارٌ في الجاهِلِيَّة خَوَّارٌ في الإسلام))

بعض كُتاب السيرة المُوَفَّقين، قالوا: هذا المَوْقِف من سيِّدنا عمر ليس مَوْقِفُهُ لكن أراد هذا الصحابيُّ الجليل أنْ ينْقُلَ لِخَليفة رسول الله صلى الله عليه وسلَّم رأيَ الأنصار،

((ولما رجع عمر إلى الناس سألوه عما حدث، فقال: أمْضوا، ثكِلَتْكُم أمُّهاتكم، فقد لقيتُ ما لقيتُ في سبيلِكم من خليفة رسول الله، ولما انْطَلَقَ الجَيْش بانْطِلاقة قائِدِهِ الشاب شَيَّعَهُ خليفة رسول الله، هذا المنظر بتاريخ العالم ليس له نظير، خليفة المسلمين يمْشي وشابٌ لا تزيدُ عُمُرُهُ على سبعة عشر عاماً راكِبٌ الناقة، فقال أسامة: يا خليفة رسول الله، والله لتَرْكَبَنَّ أوْ لأنْزِلَنَّ، فقال أبو بكرٍ: والله لا تنْزِل، ووالله لا أرْكَب، وما عليَّ أنْ أغْبِّرَ قدَمَيَّ في سبيل الله ساعة – سيّدنا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كان عنده ضَيْفٌ، وهو أمير المؤمنين والسِّراج قد انْطفأ، فقامَ سيّدنا عمر بنَفْسِهِ وأصلح السِّراج، فهذا الضَّيف وقع في حرَجٍ، فقال له:

((أنت أميرُ المؤمنين، قُل للغُلام أو أكون أنا مُصْلِحه، فقال له: أما أنت فضَيْفٌ وَسَخافَةٌ بالمرء أنْ يسْتخدم ضَيْفه))

فهكذا النبي علَّمَهُ، ومَرَّةً كان سيِّدُنا عمر بن الخطاب مارًّا بالمسجد ورجُلٌ مُضْطجِعٌ بالمَسْجد ليلاً فداسَ على طَرَفَيْه، فقال له ذلك المُضطجِع:

((أأعْمى أنت؟ فقال: لا، ولما سئل عمر، قال مجيباً: سألني فأجبته))

فالبساطة وعدم التَكَلُّف والتواضع أخلاقهم-

سيِّدُنا أسامة لما ودَّعَ سيِّدنا الصِّديق، اِسْمعوا هذا الوداع، قال له: أسْتَوْدِعُ الله دينك وأمانتك وخواتيمَ عَمَلِكَ، وأوصيكَ بإِنْفاذ ما أمرك به رسول الله ثمَّ مال عليه، وقال: إنْ رأيْتَ أنْ تُعينني بِعُمَر فأذن له بالبقاء معي، فأذِنَ أسامةُ لِعُمَر، هذا هو نِظامُ التَسَلْسُل، ومضى أسامةُ بالجَيْش ونفَّذ كلَّ ما أمـره به رسول الله صلى الله عليه وسلَّم، وأوْطأ خَيْلَ المُسلمين تُخوم البلقاء، وقلْعَة الداروم، ونزع هَيْبَةَ الروم من قُلوب المُسلمين، ومهَّد الطريق أمامهم لِفَتْح دِيار الشام ومِصـْر، والشمال الإفْريقي كُلّه حتى بحْر الظلمات، ثمَّ عاد أسامة مُمْتَطِياً صَهْوَةَ الجواد الذي اسْتُشْهِد عليه أبوه حامِلاً من الغنائِم ما زاد على تقْدير المُقَدِّرين))

حتى قيل: إنَّهُ ما رُئِيَ جيْشٌ أسلم وأغْنَمُ من جَيْش أسامة بن زيد، فالنبي عليه الصلاة والسلام كانت نظْرته في مَحَلِّها، وظلَّ أسامة بن زَيْد ما امْتَدَّتْ به الحياة مَوْضِعَ إجْلال المُسْلمين وحُبِّهم وفاءً لِرَسول الله صلى الله عليه وسلَّم .

العطاء الذي فرضه عمر لأسامة من بيت مال المسلمين :

لما فرض الفاروقُ لأسامة عطاءً، عني أن سيِّدُنا عمر أعْطاهُ عطاءً ويبْدو أنَّ عبد الله بن عمر كان عطاؤُهُ أقلّ، فقال عبد الله لأبيه مُؤاخِذاً:

((يا أبتِ، فَرَضْتَ لأسامة أربعة آلافٍ، وفَرَضْتَ لي ثلاثة آلاف، وما كان لأبيه من الفضْل أكثر مما كان لك، وليس له من الفضْل أكثر مما هو لي، فقال له سيِّدُنا عمر: إنَّ أباهُ كان أحَبَّ إلى النبي عليه الصلاة والسلام من أبيك، وكان هو أحَبَّ إلى رسول الله منك))

وكان عمر إذا لَقِيَ أسامة بن زيد الشاب الناشئ يقول له:

((مَرْحَباً بأميري، فإذا رأى أحداً يعْجَبُ من كلامه، يقول: لقد أمَّرَهُ علي رسول الله صلى الله عليه وسلَّم))

نصيحة لك أيها المسلم :

أيها الأخوة، والله إنهم إن كانوا بشراً فنحن لسْنا من بني البشر، وإن كُنا بَشَراً فهُم فوق البشر، ولكن نقْتَدي بهم، ونَعْتني بِشَبابنا، لأن الشاب قيمته عظيمة، شابٌ ذهب إلى تُخوم الروم، وقاد جَيْشاً فيه كِبارُ الصحابة، والنبي عليه الصلاة والسلام وَضَع تحت قدَمَيْه كُلّ الجاهِلِيَّة والغَطْرَسَة، فراقِب نفْسَكَ في مُعامَلَتِك للآخرين، هل عندك شيءٌ من العُنْصُريَّة وتحس أن لك مَيِّزات؟ وهل ينْبغي أنْ تأكُلَ وحْدَك،

وأنْ تسْتَخْدِمَ الآخرين وأنْ تستثمر جُهودَهُم؟ إن كنت كذلك فهذا التفكير يتناقض مع الإيمان، والحقيقة أن هذه الأخبار مُمْتِعَة ولكن الأمْتَعُ منها أنْ تُطَبِّقها، وأنْ تنْطَلِقَ في حياتك من هذه القِيَم، من العَدْل والتواضع والمُؤاثرة وحُبِّ الآخرين وتوْقيرُ الآخرين، وأنْ تسْتخدِمَ مِقْياساً واحِداً وهو المِقْياس الذي وضعه الله، قال تعالى:

(إنَّ أكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أتْقاكُمْ)

(سورة الحجرات الآية: 13)

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

نصيحة لك أيها المسلم ينبغي أن يسمعها قلبك قبل عقلك :

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس الحادي عشر من دروس سيرة أصحاب رسول الله رضوان الله تعالى عنهم، صحابي اليوم سيدنا سالم مولى أبي حذيفة، ولهذا الاسم قصة تسمعونها بعد قليل، ولكن قبل أن نمضي في الحديث عن هذا الصحابي الجليل، يجب أن تعلموا أن أصحاب رسول الله ما استطاعوا أن ينشروا الإسلام في الخافقين إلا لأنهم عاشوا القيم الإسلامية، وحينما ترون المسلمين الآن يزيدون على ألف ومئتي مليون، وليست كلمتهم هي العليا، وليست إرادتهم هي النافذة، فيجب أن نستنبط أو يجب ألا نتهم الله في وعده بل نستنبط أن ديننا كأن القيم فرغت منه، وبقي شكلاً بلا محتوى، بقي مظاهر بلا مضمون، بقي طقوساً بلا مشاعر .

المرتبة العلمية التي حازها سالم مولى أبي حذيفة من رسول الله :

قصة اليوم لا تقل شأناً عن قصة الأسبوع الماضي، النبي عليه الصلاة والسلام أوصى أصحابه يوماً، فقال:

((خذوا القرآن عن أربعة: تلاوةً، وفهماً، وأحكاماً، ودراسة ومعرفة، ودراية، عن عبد الله بن مسعود، وعن سالم مولى أبي حذيفة، وعن أبي بن كعب، وعن معاذ بن جبل))

سالم ممن شهد له النبي عليه الصلاة والسلام بأنه ماهر في القرآن، إلى درجة أن النبي أمر أصحابه أن يأخذوا عنه، أن يتعلموا منه، إذاً: بلغ مرتبة التفوّق في التلاوة والفهم .

النبي يأمر أصحابه الأجلاء أن يجلسوا أمامه، وأن يأخذوا عنه القرآن، أن يتتلمذوا على يديه، وأن يقتبسوا من علمه، وأن يستنيروا بنوره، قالوا: إنه عبد رقيق .

أرأيتم أيها الأخوة إلى مجتمع الطبقة الواحدة، أرأيتم أيها الأخوة كيف أن قيم الإسلام عاشها أصحاب النبي؟ أرأيتم أيها الأخوة كيف أن في الإسلام قيمتين فقط قيمة العلم والعمل، وما سوى هاتين القيمتين تحت الأقدام، عبد رقيق يأمر رسول الله أصحابه وهم من علية قريش أن يجلسوا أمامه متأدبين ليتعلموا منه القرآن .

من الذي رفع شأن هذا العبد الرقيق، وجعله سيداً من أسياد البشر؟ الذي رفعه الإسلام.

ما هي قيمة الشاب التائب عند الله ؟

أيها الأخ الكريم، العلم يرفعك، والقرآن يرفعك، وطهارتك ترفعك، وعفتك ترفعك، وورعك يرفعك، واستقامتك ترفعك، وتمثلك بالقيم الإسلامية ترفعك، كل إنسان يحب أن يكون ذا شأن، هذه فطرة، هذا شيء جبلنا عليه، تحب أن تأكل لتبقى حياً، تحب أن تتزوج ليبقى نوع البشرية، تحب أن تكون ذا شأنٍ، ليخلد ذكرك، هذا ميل فطري .

الإسلام، والقرآن، واتّباع النبي عليه الصلاة والسلام، هو الذي جعل هذا العبد الرقيق نقف أمام قصته متأدبين ونتحدث عنه مجلين مكبرين إنه سيدنا سالم مولى سيدنا حذيفة، كان رقيقاً وأعتق وآمن بالله وبرسوله إيمانا مبكراً، وتعقيباً على كلمة مبكراً، فأنا والله أكبر الأخ الكريم الذي قدِمَ إليّ صغيراً، وترعرع في بيت من بيوت الله، شيء رائع جداً أن تتعرف إلى الله وأنت غض العود، وأنت في مقتبل العمر، تشكل حياتك، تشكل علاقاتك، تختار أصدقاءك، تنتقي حرفتك، وتفهم مهنتك وفق الشرع، ووفق قواعد الدين، ووفق منهج رب العالمين .

لذلك ريح الجنة في الشباب، والنبي شجع الشباب ورفع من شأنهم حينما عين شاباً في سنهم قائداً لجيش فيه أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي .

لذلك قالوا: من لم تكن له بداية محرقة لم تكن له نهاية مشرقة، يعني أنه جميل بالإنسان أن يتوب إلى الله مبكراً، لكن بالسبعين فقدت التوبة جمالها فقد أكل حتى مل الطعام، وما خلا منه محل، حتى مل النزهات، نفسه عزفت عن الدنيا، ليس غير الآخرة أمامه، لكنّ الأجمل من هذا، أن ترى شاباً يتقد حيوية، يغلي نشاطاً، مقبلاً على الدنيا، كل شيء عنده جديد ، ومع ذلك يلتفت إلى الله عز وجل .

لذلك فالله جل جلاله يباهي الملائكة بالشاب التائب، يقول:

((انظروا عبدي ترك شهوته من أجلي))

يعني استقامة الشاب على أمر الله تعدل عند الله استقامة ألف إنسان تجاوز الخمسين ثم استقام على أمر الله، لأن كل سن له ترتيب، كل سن له اهتمامات، لعلك تلاحظ أكثر الناس الذين أسرفوا في المعاصي في حياتهم بالخمسينات بدأ يصلي، واتجه إلى المساجد، طبعاً لأنه أزف وقت الرحيل، شيء طبيعي جداً، حينما أزفت الآزفة، حينما اقترب أجله، ومعترك المنايا بين الستين والسبعين، وهذا صار بالستين، تجده صار أميل للدين، أميل للمساجد، أميل للدروس، شيء جميل، لكن الأجمل وأنت في السابعة

عشرة، في الثامنة عشرة، بالعشرين بالخامسة والعشرين تريد الله ورسوله، تريد معرفة الله، تريد إتقان القرآن، تريد أن يكون الله راضياً عنك، هذا شيء جميل جداً .

من هو سالم مولى أبي حذيفة ؟

من هو سالم مولى أبي حذيفة؟ أبو حذيفة تبناه، فلما نزل القرآن الكريم بتحريم التبني صار اسمه سالم مولى أبي حذيفة، كان اسمه سالم بن أبي حذيفة، فقد حرّم الله التبني، وبالمناسبة هذا العبد الرقيق لا يعرف من أبوه، وليس هذا يقدح في نسبه، لأنه أشتري من سوق العبيد، واشتراه رجل، فلا هو يعرف من أبوه، ولا أحد ممن حوله يعرف من أبوه، فلما نزل قوله تعالى في تحريم التبني، فإلى من ينسب إذاً؟ سيدنا أبو حذيفة، قال: هو مولاي، فصار اسمه سالم مولى أبي حذيفة .

كلكم يعلم أن هذا الصحابي الجليل آخى سيدنا أبي حذيفة وصارا أخوين في الله، وهذا ينقلني إلى ما كنت صبوت إليه من قبل أن كل أخ منكم لا بد له من أخ يكون وليه، يكون أخاه في الإسلام، وهو أخوه في الله، هذه الأخوة في الله لها معانٍ كثيرة، ففيها تعاون، وتفقد، ومواساة، وبث هموم، يعني معاونة على أمر الدين والدنيا أي أن أقل مرتبة أنه إذا غاب الشخص فهناك من يسأل عنه، هناك من يبلغ أن فلاناً اليوم ما جاء، فإذا تفقدناه يشعر بمكانته ، يعني أنا مصرٌّ على هذا الطلب، وهذا ورد في القرآن الكريم، قوله تعالى:

(قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى)

(سورة سبأ الآية: 46)

(ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ)

(سورة سبأ الآية: 46)

اثنان اثنان، قال تعالى:

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

(سورة الحجرات الآية: 13)

مما يلفت النظر في سيرة هذا الصحابي أنه كان حجة في كتاب الله، حتى إن النبي عليه الصلاة والسلام أمر أصحابه أن يتعلموا منه وكان إماماً للمهاجرين من مكة إلى المدينة طوال صلاتهم في مسجد قباء .

مسجد قباء هو المسجد الذي في ظاهر المدينة، وهو الموقع الذي استقبل عنده أصحاب رسول الله من الأنصار المؤمنين قبل أن يروا رسول الله .

بلغ من التفوق في القرآن، ومن الورع والإخلاص، ومن حب النبي عليه الصلاة والسلام، حتى قال عنه النبي عليه الصلاة والسلام:

((الحمد لله الذي جعل في أمتي مثلك))

يعني الإنسان يقاس بمن معه، هناك أتباع بلغوا درجة عالية جداً من الرقي، ومستوى عالياً من الفهم والإيمان، والتواضع والمعاونة، والوقوف في الملمات، والإيثار والتضحية، الإنسان لا يقاس أتباعه بعددهم بل بنوعيتهم، أحياناً تجد في ملعب كرة خمسة وثلاثين ألفاً، كلهم يهيج ويموج، لدخول كرة بالمرمى، فكان القيامة قامت، تعجب ما الذي حصل؟ ما هذا الذي جعل الناس يهيجون؟ وقع أربعون قتيلاً مرة في بعض المباريات، وينقلب الأمر إلى توحش أحياناً، قال تعالى:

(فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً)

(سورة الكهف الآية: 105)

وهذا الذي أقوله لكم دائماً: واحد كألف وألف كأف، ربنا عز وجل وصف أهل الدنيا، فقال:

(صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ)

(سورة الأنعام الآية: 124)

شيء آخر، سيدنا سالم رضي الله عنه كان أخوانه المؤمنون، يقولون عنه: سالم من الصالحين، فالصحابة كانوا جميعاً يحبونه، حتى إنهم وضعوه من الصالحين .

إليكم موقف هذا الصحابي في هذه القصة الذي قر عين النبي له :

هذا الصحابي له مزايا، وبالمناسبة فأصحاب النبي عليهم رضوان الله، كل واحد منهم تفوّق في ناحية، هذا في شجاعته، هذا في حلمه، هذا في حيائه، هذا في كرمه، هذا في إنصافه ، هذا في شدته في الحق، هذا في عفوه، إلا أن النبي عليه الصلاة والسلام جمع كل الفضائل، لذلك خضعوا له .

أنت ممكن أن تجعل في مستشفى ثلاثمئة طبيب، وتختار واحداً منهم يكون مدير المستشفى، لكن إن لم يكن هذا المدير أعلى مستوى في العلم من كل الأطباء لا ينصاعون له، بل يتمردون عليه، الإنسان العالي يأبى أن يخضع للأدنى، فهل يمكن لإنسان يحمل شهادة عليا وتضعه تحت إمرة إنسان يحمل ابتدائية؟ طبعاً سيكشف حاله وقصوره وأن الفرق كبير جداً، النبي عليه الصلاة والسلام إن لم يكن كاملاً في كل النواحي لما أستحوذ على قلوب أصحابه، لذلك رحم الشاعر إذ يقول:

وأجمل منك لم تر قط عيني   وأكمل منك لم تلد النساء

خلقت مُبرّأً من كل عيبٍ   كأنك قد خلقت كما تشاء

فسيدنا سالم كان جريئاً بالحق، وأحياناً الجرأة مهمة جداً، يعني الجرأة أحياناً ينتج منها خيرٌ كثير، هذه الجرأة بدت في قصة، وهي محور الدرس، وهذه القصة نموذجية، تبين عظمة الإسلام، وتبين عظمة هذا النبي العظيم .

فبعد أن فتحت مكة للمسلمين بعث النبي عليه الصلاة والسلام ببعض السرايا إلى ما حول مكة من قرى وقبائل، وأخبرهم أنه عليه الصلاة والسلام إنما يبعث بهم دعاة لا مقاتلين، وكان على رأس إحدى السرايا سيدنا خالد بن الوليد، وحينما بلغ خالد وجهته حدث ما جعله يستعمل السيف ويريق الدم، وقع أمر اقتضى أن يحارب سيدنا خالد مع أن التوجيه الذي معه ألا يحارب، والتوجيه خلاصته دعوة لا قتال .

يروي كتاب السيرة أن النبي عليه الصلاة والسلام حينما سمع بهذه الواقعة اعتذر إلى الله عز وجل، وقال:

((اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد))

كم في النبي من رغبة في حقن الدماء؟ كم عند النبي من رغبة في نشر السلام؟ كم كان حريصاً على حياة الناس؟ كم كان حريصاً على أن يحيا الناس بسلام؟ كم كان حريصاً على أن ينشر هذا الإسلام بالدعوة السلمية لا بالسيف؟ .

سيدنا عمر بن الخطاب فيما يروي التاريخ كان متألماً جداً من هذا الموقف، وبالمناسبة الصحابة مع عُلوّ شأنهم، ومع سبقهم، وتفوقهم، هل هم معصومون؟ لا ليسوا معصومين، لكن النبي عليه الصلاة والسلام معصوم، والقاعدة الشهيرة: أن النبي عليه الصلاة والسلام معصوم بمفرده، لكن أمته معصومة بمجموعها .

كان سيدنا سالم مولى أبي حذيفة مع سيدنا خالد في هذه الواقعة، ولم يكد سالم يرى صنيع خالد حتى واجهه بمناقشة حامية، سيدنا خالد القائد، القرشي، البطل، العظيم في الجاهلية ، وفي الإسلام، ينصت مرةً إلى سيدنا سالم، عبد رقيق يناقش قائد جيش، وهذا القائد يصغي إليه، ويعتذر له، ويبين وجهة نظره تارةً، ويسكت تارةً، ويشتد في القول سالم، وسالم مستمسك برأيه يعلنه في غير تهيب أو مداراة، الإسلام سوّى بينهما، سوّى بين خالد وبين سالم، سالم عبد رقيق، وخالد من وجهاء قريش، لكن لا شك أن سيدنا سالم ما عارضه حباً في المعارضة، وفي زماننا المعارضة هي الهدف، إثبات وجود عملية إزعاج، عملية تحجيم، عملية تجريح، عملية كيد، عمليــة تفوق، يعني أهداف خسيسة جداً، الأهداف خسيسة لخساسة النفوس .

شخص قال لآخر: والله أنا أود أن أحضر المولد في هذا الجامع، قال له صاحبه: لِمَ؟ فقال له: والله القائم على المولد له خصومة مع فلان، فأنا كيداً لفلان سألبي دعوتــه، الله يعطيه العافية على هذه التلبية، تلبية هذه الدعوة فقط ليكيد فلاناً، دعوة عيد مولد من أجل المكايدة إنها مستويات متدنية جداً بالمجتمع .

أما القاعدة الأساسية، إذا عز أخوك فهن أنت، وما المانع؟ أنت في مجلس، وأخوك أنطلق بالحديث، أيده، من علامات الإخلاص القاطعة، أن المخلص لله دائماً يغلّب مصلحة المسلمين على مصلحته الشخصية، ففي اللحظة التي تغلّب فيها مصلحتك الشخصية على مصلحة المسلمين العامة فهذا دليل عدم إخلاصك، وهو دليل قطعي .

يروي التاريخ أن رجلاً جاء لسيدنا الصديق، إذ عرضت له قضية فأراد سيدنا الصديق أن يأخذ رأي سيدنا عمر، ألم يقل الله عز وجل:

(وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)

(سورة آل عمران الآية: 159)

فقال سيدنا الصديق للرجل: أعرضها على عمر، يبدو أن عمر رفض الأمر من عنده وحسمه، فهذا الشخص صاحب الحاجة وقع في حرج شديد، وقع في غيظ شديد، فتوجه إلى سيدنا الصديق، وأراد أن يوقع بينهما، فقال له: الخليفة أنت أم هو؟ فأجابه إجابة رائعة، قال له : هو إذا شاء ولا فرق بيننا .

في أحد الغزوات تفقد رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد الصحابة، فقال أحدهم:

((يا رسول الله! شغلته البساتين، والظلال، والفواكه، فتصدى له صحابي آخر، و قال له: لا والله، ثم قال: والله يا رسول الله! لقد تخلف عنك أناسٌ ما نحن بأشد حباً لك منهم، ولو علموا أنك تلقى عدواً ما تخلفوا عنك، تبسم النبي عليه الصلاة والسلام، وفرح بهذا الدفاع))

يجب أن تدافع عن أخيك، أيغتاب أخ لك وتظل ساكتاً؟ أمعقول أن يأكل المؤمن مالاً ليس له؟ فالمواقف الانهزامية عديدة، وأنت تعلم علم اليقين أنه مستقيم، ونظيف، وبريء، وطاهر، وورع، وعفيف، فادفع عن أخيك المؤمن، من دون أن تخش بالله لومة لائم .

محور القصة :

الحقيقة أن هذه القصة مهمة جداً، فمركز القصة أو محورها، أو بيت القصيد فيها، أو مركز الثقل فيها، أن النبي عليه الصلاة والسلام حينما بلغه صنيع خالد بن الوليد سأل، وقال:

((هل أنكر عليه أحد؟ فقالوا له: نعم راجعه سالم وعارضه، فارتاح النبي عليه الصلاة والسلام))

فلماذا أرتاح النبي؟ هل عندكم إجابة؟ نعم لا تجتمع أمتي على ضلالة، فلو سكت سالم لاجتمع القوم على ضلالة، وهذا يتنافى مع مجتمع المسلمين، لكن اليهود وصفهم الله عز وجل بأنهم:

(كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ)

(سورة المائدة الآية: 79)

جيد، طبعاً الإجابة بالعكس، إذ كان أصحاب النبي يتناهون عن أي منكر فعلوه، لأنه وجد من بين أصحابه من لا يخافه، يعني النبي الكريم ربىّ أصحابه تربية المراجعة، تربية الجرأة، وتربية النقد البناء، وتربية عدم قبول الخطأ، وتربية إنكار المنكر، فلما رأى النبي أن أحد أصحابه راجع سيدنا خالداً ارتاح عليه الصلاة والسلام، يعني التربية صحيحة، أما لو ورباهم على الخضوع، رباهم على النفاق، لِما وجد من يناقش القائد .

الكتاب والسنة هما مرجعية المسلم في وضع المقاييس والموازين العلمية :

أما سيدنا عمر، والقصة معروفة عندكم، فقد كان بين أصحابه واحد أراد أن يتقرب منه بمدحه، قال له:

((والله يا أمير المؤمنين، ما رأينا أفضل منك بعد رسول الله، فسيدنا عمر نظر إليهم مغتاظاً، وتفرس في وجوههم واحداً واحداً إلى أن قال أحدهم: لا والله، لقد رأينا من هو خير منك، قال له: من هو؟ قال له: أبو بكر، فقال سيدنا عمر: كذبتم جميعاً وصدق، سيدنا عمر عد سكوتهم كذباً))

مجرد سكوتهم كذباً، قال:

((والله كنت أضل من بعيري، وكان أبو بكر أطيب من ريح المسك))

فأنت ممكن أن تربي أخوانك على الخنوع، والسكوت، وعدم الاعتراض، والنفاق، والمديح الكاذب، وممكن أن تربّي أخوانك على الجرأة، والنقد البناء، والمعارضة، بل يجب ألا تقبلوا شيئاً ليس مؤيداً بالدليل، وبهذا فالإسلام يعطي للناس مقياساً دقيقاً، يقيسون فيه الأمور وفق الكتاب والسنة، قال تعالى:

(لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً)

(سورة الكهف الآية: 71)

وعندنا دليل في كتاب الله تعالى، واقعية سيدنا الخضر مع سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام، فقد قبل الخضر منه واستمهله، والله عز وجل في هذه القصة يمدح سيدنا موسى، فلما عرف أنه ما فعله إلا عن أمر الله وبين الحكمة، سكت .

معناها أنت يجب أن تبنى بناء صحيحاً، بناء على أسس سليمة، بناء على موازين، على مناهج، على مقاييس، وليس السماع وتصديق كل شيء، لا، وهذا يؤكده قول النبي عليه الصلاة والسلام:

((إنما الطاعة في معروف))

هكذا كان أصحاب رسول الله، يتناصحون، والقاعدة أن الذي يمدحك لا يرقى بك، لكن الذي ينتقدك ويعارضك يرقى بك، ولا شيء يجعل المنحرف يزداد انحرافاً كسكوت من حوله، ونحن المسلمين ما عندنا اتباع أعمى، قال تعالى:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)

(سورة يوسف الآية: 108)

اتباع أعمى ليس عندنا، بل الحق حق، والباطل باطل، والموازين واضحة، والموازين في الكتاب والسنة، قال تعالى:

(فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ)

(سورة النساء الآية: 59)

أي إلى الكتاب والسنة .

إليكم المعركة التي استشهد فيها سالم وقدم روحه الزكية في سبيل إعلاء راية الإسلام :

انتقل النبي عليه الصلاة والسلام إلى الرفيق الأعلى، وواجهت خلافة الصديق مؤامرات المرتدين، وجاء يوم اليمامة، وكانت حرباً رهيبة لم يُبتلَ الإسلام بمثلها، وخرج المسلمون للقتال، وخرج سالم وأخوه في الله أبو حذيفة، وفي بدء المعركة لم يصمد المسلمون للهجوم، وأحس كل مؤمن أن المعركة معركته، وأن المسؤولية مسؤوليته، وجمعهم خالد من جديد، وأعاد تنسيق الجيش بعبقرية مذهلة، وتعانق الأخوان أبو حذيفة وسالم وتعاهدا على الشهادة في سبيل الدين الحق الذي وهبهما سعادة الدنيا والآخرة، وقذفا نفسيهما في الخضم الرهيب، كان أبو حذيفة، يقول وينادي:

((يا أهل القرآن، زينوا القرآن بأعمالكم))

هذه النقطة تحتاج إلى إيضاح، والقرآن كلام الله عز وجل، إن وجدته في مجتمع يتلى ولا يطبق، هل هذا يعني زيناه بأعمالنا؟ لا والله .

مثلاً، إذا رأيت في المحافظة مخططات للحدائق رائعة جداً، مساحات خضراء، أشجار الصنوبر، هنا ممرات، هنا بحيرات، هنا مدرج للمحاضرات، وهناك مجمع استهلاكي، إذا أنت وقفت في بناء المحافظة، ورأيت أشياء جميلة، وذهبت إلى المدينة، ولم تجد من ذلك شيئاً ، بل رأيت مجمع قمامة، وأمكنة خربة، فالفرق كبير جداً، لكن لو أن كل هذه المخططات التي رأيتها في المحافظة وجدتها في الواقع فعلاً مساحات خضراء، وحدائق جميلة، وشلالات، و طرق نظيفة، وأرصفة، إضاءة جيدة في الشوارع، كل شيء رأيته على المخطط رأيته في الواقع، فهذا يعني أن هذه الخارطة وهذا التصميم مزين بالواقع الجيد .

نحن إما أن نزين القرآن بأفعالنا، وإما أن نجعله باهتاً بمخالفاتنا، فهذا الصحابي الجليل، قال:

((يا أهل القرآن، زينوا القرآن بأعمالكم، وسيفه يضرب كالعاصفة في جيش مسيلمة الكذاب، وكان سالم يصيح هذا أبو حذيفة، أما سيدنا سالم، فقد قال: بئس حامل القرآن أنا، لو هوجم المسلمون من قبلي))

انظر الجمع بين تلاوة القرآن، وبين شجاعة الجنان، فقيل له :

((حاشاك يا سالم، بل نعم حامل القرآن أنت))

قال تعالى:

(وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ)

(سورة آل عمران الآية: 146)

وكان سيف هذا الصحابي الجليل جوالاً، صوالاً، في أعناق المرتدين، وهوى سيف من سيوف الردة على يمناه فبترها، وكان يحمل بها راية المهاجرين، بعد أن سقط حاملها زيد بن الخطاب، ولما رأى يمناه تبتر التقط الراية بيسراه، وظل يلوح بها إلى أعلى، وهو يصيح تالياً الآية الكريمة:

(وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ)

(سورة آل عمران الآية: 146)

أحياناً ترى أخاً على الرخاء شغله جيد، وأعماله، و صحته، وبيته كذلك، وفجأة فقد وظيفته، وتغير وضعه، يسأل: ماذا فعلت؟ معناها أنت مالك عبد الفتاح بل أنت عبد الفتح، الأمور ما دامت ميسرة فأنت راضٍ، لكن الله عز وجل امتحنك، البطولة أن تكون مقبلاً في الشدة لا في الرخاء، سيدنا سالم تلا هذه الآية، ثم أحاطت به غاشية من المرتدين فسقط البطل ، ولكن روحه ظلت تتردد في جسده الطاهر، حتى انتهت المعركة بقتل مسيلمة الكذاب، واندحار جيشه، وانتصار جيش المسلمين، وبينما المسلمون يتفقدون ضحاياهم وشهداءهم وجدوا سالماً في النزع الأخير يلفظ أنفاسه الأخيرة .

قصص وقعت في التاريخ تكاد تكون غريبة عن أذهاننا :

وفي التاريخ الإسلامي مشاهد يكاد العقل لا يصدقها، ثلاثة جرحى اسألوا طبيباً جراحاً إذا أجرى عملية لإنسان، وفقد جزءاً من دمه، يعني يصبح الماء أغلى عليه من روحه ، يطلب ماء كثيراً، كل إنسان أصابه نزف تنشأ عنده حالة عطش غير معقولة، فهؤلاء الصحابة الثلاثة، جاءهم شخص ليسقي الماء، فسأل أول شخص: هل لك بالماء حاجة؟ قال له:

((اسق أخي لعله أحوج مني، ذهب إلى الثاني، فقال له: اسق أخي لعله أحوج مني، فذهب إلى الثالث فرآه قد مات، رجع إلى الثاني فرآه قد مات، ثم رجع إلى الأول فرآه قد فارق الحياة))

وهذا غاية الإيثار، فهل هناك إنسان يؤثر غيره على نفسه وهو في النزع الأخير؟ هكذا ربى النبي أصحابه على المؤاثرة والتضحية .

لولا الصحابة الكرام لما انتشر الإسلام إلى الأفاق، لكن بأخلاقهم النادرة وبالقيم العالية لديهم رفرفت رايات الإسلام بعيداً في الآفاق، والله يا أخوان سأقول لكم كلمة:

(وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ)

(سورة الحشر الآية: 9)

الناس لا يرغبون بجامعكم، ولا فيكم، بل يرغبون بأخلاقكم، أخلاقكم وحدها هي التي تؤكد حقيقة هذا الدين العظيم، لأن الدين ربّى أناساً أبطالاً، ربى أناساً أعفة، ربى أناساً منصفين، ربى أناساً موحدين، ربى أناساً متماسكين، ربى أناساً متبادلين، ربى أناساً يؤثرون على أنفسهم .

أخر كلمة تكلم بها سالم وهو في رمقه الأخير :

سيدنا سالم وهو في النزع الأخير، ماذا سألهم؟ وقبل أن أجيب نعرج على حادثة طعن سيدنا عمر قبل صلاة الفجر، طبعاً أغمي عليه إذ فقد جزءاً كثيراً من دمه، ثم إنه صحا من غيبوبته، قال:

((هل صلى المسلمون الفجر؟))

فما أهمه إلا شيء واحد، هل صلى المسلمون الفجر؟ سيدنا سالم وهو في النزع الأخير، قال:

((ماذا فعل أبو حذيفة طمئنوني عنه؟))

هناك صحابي جليل سعد بن الربيع تفقده النبي فما وجده، فسأل أناس يتفقدونه في ساحة المعركة، الذي كلفه النبي أن يتفقده رآه بين الموت والحياة، قال له:

((يا سعد، هل أنت بين الأموات أمْ بين الأحياء؟ قال له: والله أنا مع الأموات، ولكن أبلغ رسول الله وأقرئه السلام، وقل له: جزاك الله خير ما جزى نبياً عن أمته، وقل لأصحابه: لا عذر لكم إذا خلص أحد إلى نبيكم وفيكم عين تطرف))

إنسان على فراش الموت، أو في النزع الأخير، على وشك مغادرة الدنيا، لا ينسى فضل النبي عليه .

فسيدنا سالم، قال: ما فعل أبو حذيفة؟

قالوا: استشهد .

قال: أضجعوني إلى جواره ـ انظروا إلى صدق المؤاخاة ـ قالوا: إنه إلى جوارك يا سالم، لقد استشهد في المكان نفسه، وابتسم ابتسامته الأخيرة، ولم يتكلم .

لقد عاش سالم وأبو حذيفة معاً، وأسلما معاً، واستشهدا معاً، أما الشيء الغريب أن سيدنا عمر بن الخطاب، عملاق الإسلام الخليفة الراشد، ثاني الخلفاء الراشدين، يقول وهو على فراش الموت:

((لو كان سالم حياً لوليته الأمر من بعدي))

ما هو المطلوب من المسلم المعاصر ؟

أنا كل ما أرجوه منكم لكي نجعل هذا الدرس ذا فائدة، أن نحاول أن نطبق هذا الذي نسمعه فيما بيننا، نريد أن نعيش مجتمع الصحابة، بقدر إمكانكم أقيموا المحبة بينكم، والمؤاخاة ، والتضحية، والإيثار، والجرأة، لا تجاملوا بعضكم أبداً، لكن بأدب، تناصحوا من دون فضيحة بعضكم بعضاً .

فكل أخ ليكن له أخ، أخ حميم، عاونه في دنياه، في أخراه، إذا أحتاج إلى مال أقرضه ، حتى نستدرّ عطف الله عز وجل علينا جميعاً، لأن يد الله مع الجماعة، ويد الله على الجماعة ، فالتناصح التناصح .

فهذه الدروس اجعلوها واقعاً ترقوا بها، وإذا جعلتموها معلومات سمعتموها، وقلتم: الدرس حلو، وكان ممتعاً، فهذا كلام فارغ، وصار الدرس عندئذٍ تسلية، أما إذا عشنا هذه المعاني، فلك صديق أو أخ فعاونه، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه .

إننا نريد مجتمع المسلمين، نريد أن نعيش مجتمع الصحابة، نحس أننا في مجتمع له قيم خاصة، قيم الدين، وطبقة واحدة، فلا أحد أحسن من أحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، لا المال له قيمة عندنا، ولا الصحة، ولا الجمال، ولا الوسامة، ولا النسب، ولا الحسب، الإنسان قيمته باستقامته وعمله .

سيدنا سالم في الطبقة الدنيا من المجتمع، يعني أقل طبقة، هي طبقة العبيد، قال عمر:

((لو كان سالم حياً لوليته الأمر من بعدي))

هذا هو الإسلام .

نحن نريد مؤاثرة، تضحية، معاونة، وأن يحس الإنسان الذي يقبل على الجامع أن هذا الجامع بيت الله، وكل من فيه أحباب الله، لا حسد، لا ضغينة، ولا نقد، ولا استعلاء، ولا كبر، لكن هناك أشخاص قناصون ينتظر منك خطيئة، ومتى ما علقت فضحك، هذا مجتمع الذئاب، مجتمع المنافقين، مجتمع المنحرفين، إننا نريد مجتمع المسلمين، ونريد الإسلام واضحاً فيما بيننا .

الهدف الذي يرنو إليه أستاذنا النابلسي :

فنحن ما أردنا من هذه القصص التسلية، هي قصص ممتعة، لكن ما أردت منها إلا أن نجعلها نبراساً لنا، مفاهيم نطبقها في حياتنا، فهذان الصحابيان لبعد ألف وخمسمئة سنة، نقرأ سيرتهما، فيتعطر بهما

المجلس، مجتمع القيمة الواحدة لا القيم العديدة، وليست قيماً مادية بل كلها قيم روحية، قيم أخلاقية، والنبي الكريم، يقول:

((الحمد لله الذي جعل في أصحابي مثلك))

هذا كلام سيدنا رسول الله، وسيدنا عمر، يقول:

((والله لو كان سالم حي لوليته الأمر من بعدي))

هذا الذي والله أتمناه، وكلما حرصنا على تطبيق هذه المواقف، وهذه السنن كلما ارتقينا عند الله .

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

لفتة نظر :

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس الثاني عشر من دروس سيرة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم أجمعين، صحابي اليوم شاب متألق أشد التألق، كان مضرب المثل في شباب قريش، إنه مصعب بن عمير .

قبل أن أمضي في الحديث عن هذا الصحابي الجليل، لا بد من تعليق ضروري، لماذا ندرس سير صحابة رسول الله؟ لأن النبي عليه الصلاة والسلام، يقول:

((إن الله اختارني، واختار لي أصحابي))

فأصحابه نماذج للبطولة، فأحدنا إذا قرأ سير صحابة رسول الله، لا بد من أن يجد في بعض الصحابة ما ينطبق عليه، فيعد هذا الصحابي إذاً لهذا الأخ الكريم قدوة .

كيف أسلم مصعب بن عمير وكيف كانت حياته قبل الإسلام ؟

سيدنا مصعب بن عمير، شاب من شباب مكة الذين يشار إليهم بالبنان، منحه الله وسامة ونجابة، لكن الذي كان يلفت نظر الناس إليه أناقته المتناهية، أثوابه الجميلة، رقة حاشيته، وقد تجد في شباب اليوم من يستهويه الثوب الأنيق، والشعر المرجل، والرائحة العبقة ، والأناقة في الحديث والتعبير والحركة، هذا الصحابي يمثل هذا النموذج .

يصفه كتاب السيرة بأنه كان فتى ريان، مدللاً، منعماً، كان حديث حِسان مكة، لؤلؤة ندواتِها ومجالسها.

انظروا أيها الأخوة، إلى هذا الشاب الأنيق، الناعم، الذي حباه الله ببحبوحة الحياة و بأناقة المظهر، وبحسن الطلعة، هذا الشاب سمع حديث النبي عليه الصلاة والسلام، وكيف أنه جاء بالتوحيد؟ وكيف أنه دعا الناس إلى الإسلام؟ وكيف أنه مع أصحابه القلة الخُلّص؟ كانوا في دار الأرقم بن أبي الأرقم، هذا الصحابي، بدافع حب الحقيقة، بدافع رغبته الجامحة في معرفة شأن هذا النبي، توجه إلى دار الأرقم بن أبي الأرقم، ليلتقي النبي عليه الصلاة والسلام ويبدو أن هذا الشاب ينطوي على حب للحقيقة، وإيثار للحق، فما إن رأى النبي عليه الصلاة والسلام حتى تجاوبت نفسه معه، وهفا قلبه إليه، ومد النبي عليه

الصلاة والسلام يده ليصافحه ، وليمسح عن صدره آثار الجاهلية، وكانت لحظة إيمانٍ رائعةٍ سرت في أحناء هذا الصحابي الجليل، وأعلن إسلامه على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

التجربة القاسية التي عاشها مصعب مع أمه أثناء إسلامه :

لِهذا الصحابي أم اسمها خناس بنت مالك، تتمتع هذه الأم بقوة في شخصيتها فذة، وقد تجد في كل عصر أما قوية الشخصية، يهابها أبناؤها إلى درجة الخوف، يأتمرون بأمرها بقوة سحرية، يخافون غضبها، يرجون رضاها، أم هذا الصحابي الجليل سيدنا مصعب بن عمير، كانت مهابة إلى حد الرهبة، قال مصعب حينما أسلم: لم يكن يخاف أحداً، ولا يخشى أحداً، ولا يحسب حساب أحدٍ إلا أمه، كيف سيواجه أمه بإسلامه؟ .

كما هي العادة فكر في كتمان إسلامه، وبالمناسبة، فإن الإنسان أحياناً يمرُّ في ظروف صعبة جداً، وفي حالات استثنائية يجد من المناسب أن يكتم إيمانه، وقد ورد في القرآن الكريم إشارة إلى ذلك:

(وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ)

(سورة غافر الآية: 28)

في حالات صعبة جداً، وفي ظروف قاهرة، وفي فتن مستعرة، وفي حالات حرجة لا تستطيع أن تظهر، والله عز وجل ما كلف الإنسان فوق طاقته، فهذه الإشارة في القرآن الكريم، تسلية لكل من كتم إيمانه:

(وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ)

(سورة غافر الآية: 28)

فسيدنا مصعب رأى من المناسب أن يكتم إيمانه عن أمه، فظل يتردد على دار الأرقم بن أبي الأرقم، ويجلس إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام، وهو قرير العين بإيمانه، لكنه تفادى غضب أمه بهذا الكتمان، هناك قاعدة: أنه لا شيء يختفي، مهما حاولت أن تخفي شيئاً لا بد وأن يظهر .

رجل اسمه عثمان بن طلحة، أبصر به وهو يدخل خفية إلى دار الأرقم، هذا الرجل عثمان بن طلحة حينما رآه يدخل دار الأرقم، سابق الريح إلى أمه ليخبرها أن ابنك يتردد على دار الأرقم مقر النبي عليه الصلاة والسلام، حينما واجهته أمه ما استطاع أن ينكر الحقيقة، بل قرر أن يظهرها، وقف أمام أمه وعشيرته وأشراف مكة المتجمعين حوله يتلو عليهم في يقينٍ وثباتٍ القرآن الذي غسل قلبه، وغدّى فؤاده، وملأ جوانحه سعادة .

همت أمه أن تسكته بلطمة قاسية، ولكن اليد التي امتدت لتلطمه، ما لبثت أن استرخت وترنحت أمام النور الذي زاده وسامة في وجهه، يعني لا أدري ماذا أقول لكم؟ المؤمن أحياناً يهبه الله هيبة، ورقة، ووضاءة، وجمالاً، بحيث إن الذي يريد أن يناله بالأذى يجمد في مكانه .

ذات مرة وقف الحسن البصري رحمه الله تعالى، موقفاً فيه جرأة بالغة جداً، بلغ الحجاجَ موقفُه وانتقادُهُ، فأمر السياف أن يقطع رقبته، ومُدّ النطع في مجلس الحجاج، والنطع عبارة عن جلد إذا قطع رأس هذا الرجل، لئلا تصل الدماء إلى الأثاث الفخم والطنافس والأرائك، فيمد جلد كبير جداً، يقف هذا الذي يراد أن يقطع رأسه في وسطه وتضرب عنقه، فإذا نفر الدم أصاب هذا النطع، وطُلب الحسن كي تقطع رقبته، فلما دخل الحسن البصري على الحجاج، تمتم بشفتيه ولم يسمع أحد، ماذا قال؟ لكنه فيما يبدو طلب من الله عز وجل أن يحميه من بطش هذا الرجل، وما إن دخل ووجهه يتلألأ نوراً، حتى وقف له الحجاج ودعاه إلى أن يجلس جنبه، وسأله الدعاء وآنسه وطيب قلبه واحترمه أشد الاحترام وضيّفه، ثم ودعه فالسياف وقف مذهولاً، لا يدري ماذا يقول؟ إذاً: فلماذا جئتم بي إلى هنا؟ .

فالمؤمن له هيبة أيها الأخوة، إذا كنت مع الله لاكتسبت هيبة لا يعلمها إلا الله، من هاب الله هابه كل شيء، المؤمن له هيبة، له شخصية قوية ليست من صنعه، ولكن من تفضل الله عليه .

لكنها ما لبثت أن أخذته بعد أن تلا على قومه القرآن، لتحبسه في غرفة قصية من غرف البيت، وكأنها بسذاجة إذا حبسته كف عن متابعة النبي الكريم، وعن زيارته، ولكن كان حبسها له بلا جدوى .

مصعب حقاً ممن هاجر إلى الله ورسوله هذا ما شهد له رسول الله :

بلغ سيدنا مصعباً أن النبي عليه الصلاة والسلام أمر أصحابه أن يهاجروا إلى الحبشة ، بطريقة أو بأخرى، فانسل من غرفته القصية التي حبسته أمه بها، ولحق بالقافلة، وهاجر مع من هاجر إلى الحبشة، وبعد أن أقام هناك ردحاً من الزمن، عاد والتحق بالنبي عليه الصلاة والسلام .

فخرج يوماً على بعض المسلمين وهم جلوس حول رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما إن بصروا به، حتى حنوا رؤوسهم، وغضوا أبصارهم، وذرفت بعض عيونهم دمعاً شجياً، ذلك أنهم رأوه يرتدي جلباباً مرقعاً بالياً، وعاودتهم صورته الأولى قبل إسلامه، حيث كانت ثيابه كزهور الحديقة نضرة وعطرة، تمّلى النبي الكريم به جيداً، تملى مشهده بنظرات حكيمة شاكرة، محبة، وتألقت على شفتيه ابتسامة جليلة، وقال:

((لقد رأيت مصعباً هذا، وما بمكة فتى أنعم عند أبويه منه، ثم ترك ذلك كله حباً لله ورسوله))

إذا كان الإنسان ذا دخل محدود، وبإمكانه أن يحصل على أموال طائلة بطريق غير مشروع، فاختار طاعة الله، ودخله المحدود جعله يرتدي ثياباً من الدرجة الخامسة، وبيته متواضع، وأكله خشن، فأنا أرى أن هذا وسام شرف، كله زائل أيها الأخوة، يعني إذا أنت آثرت الحق، آثرت أن تستقيم على أمر الله، آثرت أن ترضي الله عز وجل، آثرت ألا تأكل حراماً، آثرت أن تأكل من كد يدك، وعرق جبينك، آثرت ألا تأكل مالاً ليس لك، هذا الدخل الشرعي الحلال الطيب القليل، لكن هذا الدخل القليل جعلك تسكن بيتاً صغيراً، وأن تأكل طعاماً خشناً، وأن ترتدي ثياباً من الدرجة الخامسة، فهل تستحيي مما أنت عليه؟ إن كنت تستحي مما أنت فيه، فأنت لا تعرف الله .

أخ كريم محامٍ، قال لي: يا أستاذ، جاءني رجل عرض عليّ قضية لأكون وكيلاً له فيها، وهذه القضية مشمولة بقانون العفو فكنت صادقاً معه، قلت له: يا فلان، قضيتك لا تحتاج إلى محامٍ، تقدم بطلب إلى المحكمة الفلانية، وسيصدر حكمٌ فوري بإعفائك من هذه الجنحة لأن قانون العفو يشملك، لكنه لم يقتنع فذهب إلى محامٍ آخر بث في روعه أن القضية خطيرة جداً، و يجوز أن يسجن فيها عشر سنوات، حتى ابتز منه عشرين ألفاً، ولم يكتفِ بهذا بل اتهمني أنني لا أفقه شيئاً بالمحاماة، وقال عني: هذا أجدب، ما عنده فهم، فكان هذا المحامي متألماً لما اتهم به، أما أنا فو الله أيها الأخوة، حينما قال لي هذا الكلام، رأيته إنساناً كبيراً في نظري قلت له: والله كلام الناس عنك بأنك محامٍ مبتدئ أو ساذج، والله هذا وسام شرف عند الله عز وجل، هذا هو المؤمن، وهكذا يجب أن يكون .

أنا أتمنى على أخواننا الكرام أن يتحلوا بالاستقامة، فالإنسان عندما يستقيم فقد تكون عنده إمكانيات كبيرة، ولكن إذا استقام وأرضى الله عز وجل فهو ملِك في الدار الآخرة .

فمصعب بن عمير، من أسرة غنية جداً، ولو بقي على دين آبائه لعاش حياة ناعمة جداً، لكن لأنه أسلم والتحق بالنبي عليه الصلاة والسلام، وكان أصحاب النبي رضوان الله عليهم فقراء ضعفاء:

(وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا)

(سورة هود الآية: 27)

أي فقراء وهذا شأن كل نبي، كبراء القوم، أصحاب الغنى، هؤلاء غارقون في شهواتهم، أصحاب القوة غارقون في وجاهاتهم، لكن الضعاف يتبعونه، هؤلاء الضعاف سيغنيهم الله عز وجل، وهذه كلمة قالها النبي الكريم لعدي بن حاتم، لا أنساها ما حييت، قال له:

((لعلك يا عدي، إنما يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم، من فقرهم، وايم الله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه، ولعله إنما يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من كثرة عدوهم، فو الله ليوشكن أن تسمع بالمرأة البابلية تحج البيت على بعيرها لا تخاف،

ولعله إنما يمنعك من دخول في هذا الدين أنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم، فو الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البابلية مفتحة للمسلمين))

فالبطولة أن تكون مع الحق، وليكن ما يكون، البطولة أن تكون على منهج الله عز وجل غنياً كنت أو فقيراً، فالنبي الكريم قال عن هذا الصحابي:

((لقد رأيت مصعباً هذا وما بمكة فتى أنعم عند أبويه منه، ثم ترك ذلك كله حباً لله ورسوله))

إذا كنت مستقيماً، وحياتك متواضعة فافتخر وازهو، قال تعالى:

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

(سورة الأحزاب الآية: 71)

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة الأعراف الآية: 128)

آيات كثيرة، تبشر المستقيمين على أمر الله بالفوز في الدنيا والآخرة .

فشل أم مصعب في تحقيق رغبتها في أن يرجع ابنها عن الإسلام :

أيها الأخوة، حاولت أمه مرة ثانية أن تحبسه ولكنه أصر، وقال:

((والله لأقتلن كل من تستعين به أمي على حبسي، علمت أنه صادق وأنه يعني ما يقول، فكفت عنه))

فلما جرى نقاش بينه وبينها، قال لها:

((يا أمي، إني لك ناصح، وعليك شفوق، فاشهدي أنه لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، أجابته غاضبة مهتاجة: قسماً بالثواقب لا أدخل في دينك، فيزري برأيي ويضعف عقلي))

والله هذه عقلها ضعيف، ولو أن عقلها كان راجحاً لآمنت بالنبي عليه الصلاة والسلام، قال عليه الصلاة والسلام:

((أرجحكم عقلاً أشدكم لله حباً))

حينما أسلم وأصر على إسلامه، وترك دين آبائه، حرمه أهله من كل شيء، يقول كتاب السيرة: خرج مصعب من النعمة الوارفة التي كان يعيش فيها مؤثراً الشظف والفاقة، وأصبح الفتى المتأنق المعطر لا يرى إلا مرتديا أخشن الثياب .

أنا أعرف فتاة مؤمنة تنتمي إلى أسرة غنية جداً، لكنها اصطلحت مع الله وأنابت إليه، فحينما أنابت إلى الله عز وجل ما بقي أحد من الشباب الأغنياء الذين يعرفونها قبل توبتها يرغبون بها، خطبها رجل فقير دخله محدود، فقلبت، وانتقلت من بيت واسع جداً إلى بيت صغير، ومن طعام نفيس، إلى طعام خشن، ومن ثياب أنيقة إلى ثياب متوسطة معتدلة، وقالت بملء فيها: أنا سعيدة بمعرفة الله، وسعيدة بهذا

الزوج، وأنا أرضى أن أتخلى عن كل دنياي من أجل طاعة الله عز وجل، فهذه الأخبار عن مصعب تعني أن هذا الصحابي الجليل نموذج لكل شاب ينتمي إلى أسرة غنية .

مرة ثانية لأنك مستقيم فدخلك محدود، والله عز وجل لحكمة أرادها جعل الحرام سهلاً ، وجعل الحلال صعباً، الحرام سهل، يعني امرأة تشتغل أحياناً ثماني ساعات تأخذ مئة وخمسين ليرة في خدمة شاقة في البيوت، وامرأة تبيع ما وهبها الله من جمالٍ تبيعه بمبالغ طائلة لوقت قصير، فهذه امرأة وهذه امرأة، ولكن أين الثرى من الثريا؟ والإنسان حينما يخلص لله عز وجل يستخدمه في الحق .

إليكم هذا السر الذي حدث في المدينة :

سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام كان في أصحابه من هو أكبر من مصعب سناً، وأعلى شأناً، وأكثر جاهاً، وأقرب إلى النبي نسباً، لكن عليه الصلاة والسلام ندبه ليكون خليفة له في المدينة قبل أن يهاجر إليها .

هناك بالسيرة أمرٌ أقف أمامه محتاراً، أنه حينما هاجر النبي إلى المدينة، كيف أن أهلها خرجوا عن بكرة أبيهم يستقبلونه، ويعظمونه، ويصدقونه، ويحبونه، وهم لم يلتقوا بها من قبل، فهل عرفتم ما السر؟ السر أن هذا الصحابي الجليل الذي أرسله النبي إلى المدينة قبل أن يهاجر إليها جعل الله هداية كبار أصحابه من الأنصار على يديه .

هذا الشيء نقلني إلى فكرة، فأحياناً ترى الجامع مليء، فهل تعرف الفضل لمن يعود ؟ لبعض الأخوة النشيطين الذين يندفعون لنشر الحق، يُقنع جاره، ويقنع أخاه، يقنع ابنه، يقنع أباه، يقنع زميله في العمل، يعني يدعوه إلى المسجد، يدله على الله، يسمعه بعض الأشرطة، يناقشه، يخدمه، فغص الجامع وامتلأ، هذا الجامع أساسه أخ نشيط بذل كل شيء، حتى أقنع الناس بالحق، وحتى أقنعهم بالهدى، وحتى حملهم على التوبة .

المدينة عن بكرة أبيها تخرج لاستقبال النبي و لم يلتقوا به من قبل، ولم يسمعوا كلامه، من الذي جلس بينهم، ودعاهم إلى الهدى، وقرأ عليهم القرآن، وحدثهم عن النبي عليه الصلاة والسلام، بين لهم شمائله الشريف، عرفهم بربهم، بين كمال الله عز وجل بأسمائه الحسنى، وصفاته الفضلى، من هذا الذي كان يعمل ليلاً ونهاراً؟ سيدنا مصعب .

يعني ماذا أقول إن صح التعبير؟ إن الأنصار كلهم في صحيفته، تضيق عليك دنياك ويقل دخلك، لكن الله عز وجل يعطيك أضعاف مضاعفة عطاءً لا ينتهي بالموت، يبدأ بعد الموت .

فالإنسان لا يقيس نفسه ويقيس الآخرين بالأمور المادية، هذا قياس فاسد، رب أشعث أغبر، ذي طمرين، مدفوع بالأبواب، لو أقسم على الله لأبره، لا تقس نفسك بمساحة بيتك، ولا بمستوى بيتك، ولا بدخلك، ولا بمركبتك، قِس نفسك بطاعتك لله، واجعل قوله تعالى نصبَ عينيك:

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

(سورة الحجرات الآية: 13)

صحيح أن هذا الصحابي، فقد الثوب الجميل، والرائحة العطرة، لكنه صار من الخالدين في دنيا الناس، وعند الله تعالى، والإنسان ما له حق في أن يفتخر بدنياه أيها الأخوة، فإذا افتخر بدنياه أفسد حياة الناس وصرفهم عن الآخرة، أما إذا حدثهم عن الله عز وجل فقد قربهم إلى الله، وأصلح عليهم دنياهم .

أسيد بن حضير ممن أسلم على يد مصعب :

عندنا قصة يبدو أن فيها حكمة، فهذا الصحابي الجليل قال ذات يوم وهو يعظ الناس، وقد فاجأه أسيد بن حضير، سيد بني عبد الأشهل بالمدينة، وكان يدرس وحوله هؤلاء الذين أحبوا الإسلام، وانشرحت صدورهم له، فاجأه أسيد بن حضير شاهراً حربته يتوهج غضباً على هذا الذي جاء يفتن قومه عن دينهم، وقال له: ما جاء بكما إلى حينا؟ هو وأسعد بن زرارة، وهما أخوان في الإسلام كريمان، تسفهان ضعفاءنا اعتزلانا إذا كنتما لا تريدان الخروج من المدينة، والإنسان إذا وقف الموقف اللين، والموقف الحكيم، فهو عاقل رشيد، و هذا من نعمة الله عز وجل أن موقفاً ليناً فيه حكمة، فقال له مصعب بلسان طيب: أولا تجلس فتسمع فإن رضيت أمرنا قبلته، وإن كرهته كففنا عنك ما تكره، فقال أسيد بن حضير وكان رجلاً عاقلاً: والله أنصفت، ما أحسن هذا القول وأصدقه، فجلس وكان مصعب يتلو عليه القرآن فاستمع إلى القرآن، ودخل إلى قلبه، وشرح الله صدره، فقال أسيد: ما أحسن هذا القول وأصدقه! كيف يصنع من يريد أن يدخل في هذا الدين؟ فأرشدوه إلى ذلك .

سيدنا عمير بن وهب، مرة قال:

((والله لولا أولاد صغار أخاف عليهم العنت، ولولا ديون ركبتني، لذهبت وقتلت محمداً وأرحتكم منه، فرجل اسمه صفوان كان قاعداً، قال له: ديونك علي بلغت ما بلغت، وأولادك أولادي مهما امتد بهم العمر، اذهب لما أردت، فعمير من فوره سم سيفه وذهب، ولما وصل للمدينة، رآه سيدنا عمر، فقال: هذا عدو الله ساقه إلى رسول الله، هذا عمير بن وهب عدو لدود، ابنه قتل في بدر، قال له سيدنا النبي: ما الذي جاء بك إلينا؟ قال: جئت أفك ابني، قال له: وهذا السيف الذي على عاتقك، قال له: قاتلها الله من سيوف، فقال له النبي: ألم تقل لصفوان كذا وكذا وكذا فوقف، وقال: أشهد أنك رسول الله، لأن الذي قلته لصفوان لا يعلمه إلا الله، وأنت رسوله))

فدخل عدواً لدوداً ينوي القتل وخرج مسلماً، يعني الصلحة مع الله تتم بلمحة أحياناً .

أسلم أسيد بن حضير، فلما يسلم الكبار، فالصغار يتبعونهم، فسيدنا مصعب وفقه الله في دعوته، فلانت قلوب كبراء المدينة، فلما لانت قلوبهم وأسلموا معه، ودخلوا في هذا الدين العظيم، كل أتباعهم تبعوهم .

قصة استشهاده :

كلكم يعلم أن هذا الصحابي الجليل خاض معركة أحد، وحمل لواء من ألوية أجنحتها، وكلكم يعلم أنه لما جال المسلمون، واشتبكوا مع عدوهم، ثبت مصعب فأقبل ابن قميئة وهو فارس فضربه على يده اليمنى فقطعها، ومصعب يقول:

(وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ)

(سورة آل عمران الآية: 144)

وأخذ اللواء بيده اليسرى فضرب يده اليسرى فقطعها، وحنا على اللواء وضمه بعضديه إلى صدره، وهو يقول:

(وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ)

(سورة آل عمران الآية: 144)

ثم حمل عليه الثالثة بالرمح فأنفذه، واندق الرمح، ووقع مصعب، وسقط اللواء، ووقع شهيداً بل كان كوكباً بين الشهداء .

الشيء الذي يدمي القلب أن هذا الصحابي قال عنه بعض أصحاب رسول الله: هاجرنا مع رسول الله عليه الصلاة والسلام في سبيل الله نبتغي وجه الله، فوقع أجرنا على الله ، فمنا من مضى ولم يأكل من أجره في دنياه شيئاً، إذا إنسان أحب الله عز وجل واختاره إلى جواره، فهل ضاع عليه شيء؟ لا، قال تعالى:

(وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ)

(سورة آل عمران الآية: 169)

والإنسان عندما يخلص لله عز وجل، ويتوكل على الله عز وجل فقد ربح ورب الكعبة، فهذا الصحابي الجليل حياته كلها دعوة إلى الله، حياته كلها جهاد، ثم مات شهيداً، فقد فاز ورب البيت .

انظروا إلى هذا المشهد أليس مبكياً ؟

يقول عنه خباب بن الأرت:

((هاجرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سبيل الله نبتغي وجه الله، فوجب أجرنا على الله، فمنا من مضى ولم يأكل من أجره في دنياه شيئاً))

سيدنا عمر، مرة قدم له طعام طيب، فبكى، لماذا بكى؟ تذكر أصحاب النبي الذين ماتوا قبل أن يفتح الله الدنيا على المسلمين ثم جاءتهم الدنيا بعد ذلك راغمة، لكن الصحابة الكرام الذين ماتوا قبل أن تفتح عليهم الدنيا هؤلاء لهم عند الله أجر مضاعف، فالإنسان يستسلم لله عز وجل، هو الرحمن الرحيم، الآية التي تؤثر بالنفس:

(وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ)

(سورة آل عمران الآية: 158)

(وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

(سورة الزخرف الآية: 32)

والإنسان دائماً يبحث عن رزقه، ثم يبلغ درجة من الكفاية والحاجة، ويبقى همه الجمع، لكن الله تعالى يقول:

(وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

(سورة الزخرف الآية: 32)

هذا سيدنا مصعب قتل يوم أحد، ولم يجدوا له شيئاً ليكفن به إلا نمرة، يعني رداء خشن ، فكنا إذا وضعناها على رأسه، تعرّت رجلاه، وإذا وضعناها على رجليه برزت رأسه، فقال عليه الصلاة والسلام:

((اجعلوها مما يلي رأسه، واجعلوا على رجليه من نبات الإذخر، ضعوا قليلاً من حشيش على رجليه، وارفعوا الثوب إلى رأسه))

هذا سيدنا مصعب بن عمير الذي كان من أرفه، ومن أنعم، ومن أكثر فتيان قريش أناقةً، ونعومةً، ورخاءً، وغنىً، باع دنياه في سبيل الله عز وجل، وإذا اختار الإنسان عملاً نظيفاً، عملاً شريفاً، وعاش حياة مع الله وادعة مطمئنة، فهذا وسام شرف له، افرح بالدخل الحلال، إن كان كثيرا فالحمد لله، هذا من نعم الله عز وجل، لكن إن كان قليلاً وهو حلال، فهذا أفضل من كثيرٍ لا يرضي الله عز وجل، حتى إن النبي عليه الصلاة والسلام، قال مرة لثعلبة: يا ثعلبة، قليل تؤدي شكره، خير من كثير لا تؤدي شكره .

وقف النبي عليه الصلاة والسلام عند مصعب بن عمير، وعيناه تذرفان بالدموع، وقال:

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً)

(سورة الأحزاب الآية: 23)

ومنذ مدة قرأت نعوة ضخمة مكتوب فيها:

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً)

(سورة الأحزاب الآية: 23)

فممكن لكل من أراد أن يضع في النعوة هذه الآية أن يفعل، ولكن المهم العبرة، وحسن الخاتمة، فهذه الآية تلاها النبي الكريم عندما وقف على جثمان مصعب:

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً)

(سورة الأحزاب الآية: 23)

ثم ألقى في أسى نظرة على بردته التي كفن بها، وقال:

((يا مصعب، لقد رأيتك بمكة، وما بها أرق حلة، ولا أحسن لمة منك، ثم ها أنت شَعِث الرأس في بردة، عندئذ قال عليه الصلاة والسلام: إن رسول الله يشهد أنكم الشهداء عند الله يوم القيامة))

وهناك صحابي لما أسلم ثم خاض مع رسول الله معركة والله نجاه، ووزعت الغنائم، قال:

((ما هذا؟ قالوا: هذه غنيمة لك، قال: والله ما على هذا أسلمت، أنا أسلمت على الذبح))

أنا أسلمت على أساس أن أقدم حياتي في سبيل الله،

((وفي المعركة الثانية، وجد مقتولاً، فالنبي الكريم، قال: أهو ؟ قالوا: هو هو، فبكى النبي عليه الصلاة والسلام، وقال: اللهم إني أشهد أن هذا قاتل في سبيلك))

فإذا استقمنا، وقرأنا القرآن، وفهمنا القرآن، وخدمنا من حولنا، وكنا أبراراً بوالدينا، ونصحنا المسلمين في بيعنا وشرائنا، وما كذبنا و ما غششنا، إذا فعلت هذا في عصر الفتن، وعصر الضلالات، وعصر الشبهات، وفي عصرٍ فيه القابض على دينه كالقابض على جمر فلك أجر عظيم .

النبي الكريم، قال:

((اشتقت لأحبابي، قالوا: أو لسنا أحبابك، قال: لا، أنتم أصحابي، أحبابي أناس يأتون في آخر الزمان، القابض منهم على دينه كالقابض على جمر، أجره كأجر سبعين، قالوا: منا أم منهم، قال: بل منكم، قالوا: ولم؟ قال: لأنكم تجدون على الخير معواناً ولا يجدون))

المسلم المؤمن غريب، يعني أن أقرب الناس إليه يستنكر استقامته، يُستنكر إذا أراد ألا يختلط مع الناس، ترى إنساناً أهله يوصفون بأنهم محافظون، فهؤلاء الذين زعموا أنهم محافظون يريدون اختلاط للجنسين، ويريدون أن يسفر وجه المرأة، ويحتالون ليجدوا إلى التفلت من أمر الله عز وجل سبيلاً يسلكوه .

خاتمة الدرس :

فالشيء الذي يبرز في حياة هذا الصحابي الجليل، أنه كان من أسرة غنية، فلما أصر على إسلامه وإيمانه، فقد كل ما يمكن أن يناله من والديه، فعاش فقيراً، ونذر نفسه لهذا الدين العظيم، فاختاره الله ليكون خليفة النبي في المدينة .

لذلك يمكن أن نذكر ثانية أن أكثر الأنصار كانوا في صحيفته، هذا عمل عظيم، والنبي الكريم كان إذا أراد أن يصلي أزاحت السيدة عائشة رجليها لأن غرفته لا تتسع لصلاته ونومها، والآن اذهب إلى مقامه الشريف يطالعك أضخم مسجد في العالم .

لقد حججت قبل ثلاثة أعوام فكان المقام الذي كان في العهد العثماني تقريباً في عرض مسجدنا هذا، وإلى نصفه، هذا المسجد النبوي الذي وسعه العثمانيون، يعني أضافوا إليه إضافة، ثم وسعه السعوديون توسعة تعدل عشرة أمثال ما كان عليه تقريباً، يعني صار البناء على العرض نفسه ممتداً إلى الشمال وفيه فسحتان سماويتان، في العام الماضي حينما حججت أية مساحة هذه؟ أكثر من عشرة أمثال المساحة السابقة فهو مدينة كاملة، والإنسان أحب أن يطوف حوله فالمسافة تقريباً خمسة كيلومترات، يعني كان الحج بأيام حارة جداً، وسمعت أنه مكيفاً، ويعـــد أعظم تكييف في العالـم، والأجهزة على بعد سبعة كيلومترات، ومساحتها مائتان وسبعون ألف متر مربع تكون درجة الحرارة خارج الحرم ستاً وخمسين درجة، أو اثنين وخمسين، كأنما تلفح وجوههم النار، بينما هي بالحرم ثماني عشرة درجة أو نحوها .

النبي عاش حياة خشنة، لكن عرف المسلمون قيمته وقدره، كل هذا الاعتناء دليل مقامه العظيم عند الله عز وجل، الدنيا تضر، حاول أن تكون على أمر الله، وأن تكون مستقيماً و أن تكون ملتزماً، فهذا الصحابي الجليل قدوة لنا، لا يخفضك عند الله دخلك القليل، ولكن يخفضك معاصيك .

لذلك مصعب هذا قدوة لكل شاب عاش بأسرة مرفهة، ناعمة، فلما أصر على إيمانه وإسلامه، والناس تخلوا عنه، عاش حياة خشنه، ومن كان كذلك فله بهذا الصحابي الجليل، أسوة حسنة .

والحمد لله رب العالمين

السيرة - رجال حول الرسول - الدرس (13-50) : سيدنا حذيفة بن اليمان
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1993-01-04

بسم الله الرحمن الرحيم

ما الشيء الذي تفوق به عهد الرسالة الإسلامية عن بقية المجتمعات ؟

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس الثالث عشر من دروس سيرة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضوان الله عليهم أجمعين، وصحابي اليوم سيدنا حذيفة بن اليمان .

الشيء الذي يلفت النظر أن كل صحابي نسيج وحده كما يقولون، يتمتع بشخصية لها سماتها وخصائصها، وهذه الشخصية كأنها جاءت في عهد النبي عليه الصلاة والسلام لتكون قدوة لمثيلاتها في العصور القادمة، فكل صحابي يمثل شخصية نجدها في كل عصر، لكن هذا الصحابي بهذه الشخصية التي يتميز بها وقف الموقف المثالي فكان بطلاً بحقٍ إذ قيل إن عصر النبي عليه الصلاة والسلام هو عصر البطولات .

الحقيقة أن المجتمعات تجد فيها في كل عصر شخصاً يلتمع ويعلو ذكره، أما أن تجد في عصر واحد عدداً لا ينتهي من الأبطال، وكل واحد نسيج وحده، فهذا لم يتوافر إلا في عصر الرسالة الإسلامية، وعهد الرسول صلى الله عليه وسلم .

ما هو السؤال الذي طرحه النبي على حذيفة بن اليمان ، وعلام يدل، وما الغاية من ذلك ؟

سيدنا حذيفة بن اليمان عاش والده في المدينة، فهو مكي الأصل، مدني النشأة، فلما بعث النبي عليه الصلاة والسلام كان حذيفة على شوق كبير ليلقى النبي عليه الصلاة والسلام ، ويملأ جوانحه من حبه، فما إن التقى بالنبي عليه الصلاة والسلام، حتى سأله النبي الكريم:

((أمهاجر أنت أم أنصاري؟))

النبي عليه الصلاة والسلام، كان فطناً، والفطنة كما تعلمون من صفات الأنبياء، فحينما التقى النبي هذا الصحابي أول سؤال طرحه عليه أمهاجر أنت أم أنصاري؟ ماذا نفهم، يعني أنت أيها المؤمن إذا التقيت بإنسان ينبغي أن تحدثه عن شيء يعيشه، عن قضية يعانيها، يجب أن تهتم به، يجب أن تهتم بمشكلته لأنه لا سبيل إلى قلبه إلا بهذه الطريقة، إذا التقى مؤمن بشخص فليسأله عن أحواله، عن وضعه عن

عمله، عن بعض المشكلات التي يعاني منها، حينما تسأل الإنسان عن قضية يعانيها يتجاوب معك .

النبي عليه الصلاة والسلام، حينما التقاه أول مرة، قال:

((يا حذيفة، أمهاجر أنت أم أنصاري؟))

لأنه هو مكي الأصل، مدني النشأة، فقال رضي الله عنه:

((إن شئت كنت من المهاجرين، وإن شئت كنت من الأنصار، فقال حذيفة رضي الله عنه: بل أنا أنصاري يا رسول الله، آثر أن يكون مع الأنصار))

لا يعنينا من هذه النقطة في حياة هذا الصحابي إلا أن النبي كان فطناً، وكان إذا جلس مع إنسان، يضع يده على جرحه، يضع يده على مشكلته، يحدثه عما في نفسه، أما أن تحدث الناس في موضوع بينما هم يعانون مشكلة معينة، فليس هذا من الحكمة .

يقال إن النبي عليه الصلاة والسلام كان إذا جلس مع التجار حدثهم بالتجارة، إذا جلس مع أي إنسان حدثه باختصاصه تأليفاً لقلبه وتقرباً إليه، يعني ليس القصد أن تملي على الإنسان المعلومات، بل القصد أن تفتح قلبه إليك، القصد أن يشعر أن هناك لغة مشتركة بينك وبينه، أن هناك اهتمامات واحدة، من هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم))

أنا العبد الفقير من عادتي إذا جلست مع أخ أسأله عن أولاده، لأنه ما من إنسان على وجه الأرض إلا ويحب أولاده، إذا سألته عنهم عن أوضاعهم الدراسية، وأوضاعهم المعاشية والمهنية، انطلق الأب يحدثني عن أولاده، أنا أريد أن ينطلق، فإذا أنطلق عندئذ يمكن أن تحدثه أنت عن الله عز وجل .

فالقضية ليست أن تملي على الناس معلومات، القضية أن تفتح قلوبهم قبل أن تفتح آذانهم، القضية أن يشعروا أنك قريب منهم، من الممكن أن أقول لكم كلمة: لا أعتقد أن واحداً منكم لا يتمنى أن يكون داعية إلى الله عز وجل، لأنك إذا أردت أن تزن الأعمال بالميزان الصحيح، ما من عمل أرقى في الأرض من أن يستخدمك الله بالدعوة إليه، ما من عمل أشرف من أن تكون ناطقاً بلسان الحق .

أحياناً يقال: فلان الناطق باسم المبعدين، دكتور يتقن اللغة الأجنبية من حين لآخر يصرح تصريحاً معيناً، شيء جميل، فاختاروا أعلاهم علماً، وثقافة، وطلاقة، ولغة، لكن حينما تكون أنت ناطقاً باسم الحق، هذه أعلى مرتبة، لن تستطيع أن تدعو الناس إلى الله إلا إذا شعر الناس جميعاً أن مشكلاتهم هي مشكلتك، يعني إن لم تشعر بما يشعرون، إن لم تحس بما يحسون، إن لم تتعاطف مع من يتعاطفون، لن يصغوا إليك .

لذلك فالنبي الكريم، قال:

((بعثت لمدارة الناس))

المدارة بذل الدنيا من أجل الدين، اجلس معه، استمع إليه، أصغ إليه وتراه يصغي للحديث بسمعه وبقلبه، ولعله أدرى به فمداراة الناس تفتح قلوبهم، فإذا فتحت قلوبهم، فتحت آذانهم .

سيدنا حذيفة كان في حيرة، أحياناً الإنسان يستنبط معاني جليلة من أشياء صغيرة من كلمة، من نظرة، يستنبط معنى جليلاً .

إليكم موقف سيدنا حذيفة حينما قتل أباه في معركة أحد خطأ من قبل غزاة المسلمين :

سيدنا حذيفة بن اليمان، في معركة أحد قُتل أبوه خطأً، قُتل أباه بسيوف المسلمين، وأباه مسلم، هذا الشيء يقع في كل الحروب، فأحياناً تقصف قطعة عسكرية من قبل طيران الصديق لا طيران العدو، فهذا يحدث ولأنه يحدث له تشريع في القرآن الكريم، سماه القرآن القتل الخطأ:

(وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً)

(سورة النساء الآية: 92)

فخر صريعاً بأسياف أصحابه، فصار حذيفة ينادي أبي أبي، لكنه في ضجيج المعركة ، وصليل السيوف، مات أبوه بأسياف المسلمين خطأً، فما زاد على أن قال لهم:

((يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين))

أما عند النبي عليه الصلاة والسلام فالحق أحق أن يتبع، فأمر أن يعطي حذيفة دية أبيه، وهي دية من قُتل خطأً، فقال حذيفة:

((يا رسول الله، أبي كان يطلب الشهادة، وقد نالها، اللهم اشهد أني تصدقت بديته على المسلمين))

لذلك إذا وقع خطأ في حادث فهناك عدل وهناك إحسان، العدل أن يدفع المتسبب الدية ، أما الإحسان أن تعفو عنه إذا كنت أنت ولي الأمر .

فازداد بذلك منزلة عند النبي عليه الصلاة والسلام، مرتبة العفو مرتبة عالية جداً، والإنسان إن يعفُ يزده الله بكل عفوٍ عزاً، أنت جرب، ما من إنسان يعفو عن خصمه إلا رفعه الله، وزاده عزاً بعفوه .

ما هو السر الذي أودعه رسول الله عند سيدنا حذيفة بن اليمان ؟

الحقيقة أننا يجب أن نتعلم من النبي الشيء الكثير، النبي كان قائداً والقيادة لها خصائص، من خصائص قيادة النبي عليه الصلاة والسلام، أنه يعرف إمكانات أصحابه، كل صحابي له إمكانات، له خصائص، له ملامح، له قدرات، له شخصية خاصة، القيادة الناجحة تتعرف على إمكاناتِ مَن دونها، ثم تكلف هؤلاء الذين تقودهم كلٌ بحسب اختصاصه، وكل بحسب إمكاناته، القيادة غير الناجحة تضع الرجل

المناسب في المكان غير مناسب، رجل غير مناسب في مكان غير مناسب، أما القيادة الناجحة، تضع الرجل المناسب في المكان المناسب .

ذات مرة كان النبي عليه الصلاة والسلام يبحث عن رجل ليقوم بمهمة، فقيل له:

((يا رسول الله، فلان، فقال عليه الصلاة والسلام: ليس هناك))

يعني لا يملك الأهلية لهذه المهمة، يبحث عن إنسان يتمتع بهذه الأهلية، فالنبي عليه الصلاة والسلام أدرك أن هذا الصحابي حذيفة بن اليمان فيه ثلاث خصال:

أولاً: يتمتع بذكاء فذ، يسعفه في حل المعضلات .

ثانياً: يتمتع ببديهة مطاوعة تلبّيه كلما دعاها .

ثالثاً: يتمتع بكتمان للسر فلا ينفذ إلى غوره أحد، عنده صدر واسع .

النبي الكريم حينما انتقل إلى المدينة ظهرت فئة اسمها المنافقون، المنافق مثل النفق، له مظهر ضخم لكن من الداخل فارغ، المنافق إنسان يظهر ما لا يبطن، المنافق إنسان يتزين بما ليس فيه، فالمنافق خطر، الكافر سهل أن تعرفه، فمثلاً بحياتنا إنسان يدخن في رمضان فسهل أن تتقيه، وهذا إنسان فاجر، لكن أنت ممن تخاف؟ تخاف ممن له مظهر ديني، ممن له اتجاه دين فيما يبدو، وله أفعال خبيثة، هذا يغش الناس، هذا يوقع بالناس حالة اسمها الإحباط .

لذلك فلأن يطلب الإنسان الدنيا من مظانها أيسر أن يطلبها عن طريق الدين، إنه إن طلبها عن طريق الدين فقد أربك الناس، وأوقعهم في حيرة، وجعلهم في شك من أمر هذا الدين ، أقول لكم: أعظم أحوالك أن يكون عملك مصدّقاً لقولك، ينشأ ما يسمى المصداقية، يعني أنت عندما تخيب ظن إنسان، هو يظن أنك صالح، وأنك مؤمن، وأنك تقي، وأنك تخاف الله، وأنك ورع، فإذا به يفاجأ بأنك على خلاف ذلك، فليته يسيء الظن بك، القضية سهلة جداً، يا ليت يسقطك من حسابه، القضية أسهل، المشكلة الأخطر أن أصابع الاتهام تتجه إلى الإسلام، أهذا هو الدين؟ انظروا، دققوا، انظروا إلى أهل الدين، أول كلمة يتفوه بها أعداء الدين إن خيب ظنهم أهل الدين، أنهم يطعنون بأصل الدين، يطعنون بأحقية هذا الدين .

لذلك هناك ما يسمى بداعية، وهناك ما يسمى بمنفر، الداعية يقرب، والمنفر يبعد، الداعية يحبب، والمنفر يبغض، الداعية يرسخ، والمنفر يزلزل، الداعية مثل أعلى، والمنفر مثل سيء .

فلذلك سيدنا النبي الكريم كان يتقي المنافقين لأنهم فئة خطيرة جداً، والمنافق إنسان يعيش مع المؤمنين، ويصلي معهم، ويسلك في ظاهر الأمر مسالكهم:

(وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً)

(سورة النساء الآية: 142)

(وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آَمَنُوا قَالُوا آَمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ)

(سورة البقرة الآية: 14 - 15)

والنبي الكريم رأى حذيفة ذكياً، ورآه صاحب بديهية، ورآه كتوماً للسر، كلفه وأفضى إليه بأسماء المنافقين الذين أطلعه الله عليهم، فكان حذيفة بن اليمان صاحب سر رسول الله .

بصراحة أقول لكم: أنت لا تتمكن من أن تتقرب من إنسان عظيم إلا إذا كنت كتوماً للسر، يعني إذا أنت سمعت فكرة، أو خبراً، أو قصة من شخص مهم، وأنت حسبته خبراً مسلياً فنشرته بسرعة، فهذا يحط من سمعتك، لن تستطيع أن تتقرب من إنسان تراه عظيماً إلا بكتمان السر، واسمك عندئذٍ أمين سر، يعني أمين على سرك .

هل تصدقون أن سيدنا عمر بن الخطاب الصحابي الجليل عملاق الإسلام، ثاني الخلفاء الراشدين، الذي ملأ الأرض بعدله، والذي ملأ العين والسمع بأخلاقه، واندفاعه، وجرأته، كان قلقاً على نفسه؟ ومن علامة المؤمن يا أخوان، أنه يقلق على نفسه، ويخشى عليها، إلى أن التقاه عمر يوماً، وقال:

((يا حذيفة، أنشدك الله هل وجدت اسمي بين المنافقين؟ فخجل هذا الصحابي أشد الخجل، قال: لا والله أنت أكرمنا، ولكن لا أزكي بعدك أحداً))

يعني أعذرني لا تحرجني بأسماء أخرى، لأن الله عز وجل قال في القرآن:

(وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ)

(سورة التوبة الآية: 84)

ومن حرص النبي على تنفيذ أمر الله، أنه أعطى أسماء المنافقين لهذا الصحابي عند وفاته، حتى إذا مات أحدهم فلا يصلى عليه، لأنه إنسان خطير، المنافق خطير جداً، يعطيك من طرف اللسان حلاوة، ويروغ منك كما يروغ الثعلب، نعوذ بالله من النفاق، وأنا لا أخاف على الدين من أعدائه، فأعداؤه مكشوفون، ويحذرهم جميع المسلمين، ولكن الخوف على الدين من أدعيائه من المنافقين .

ما هي قيمة العقل في ميزان الشرع وما هو خطره إذا تخلى عن مبادئ الشرع ؟

وهنا يُطالعنا سؤال: هذا الذي يتمتع بذكاء فذ، لو أنه لم يؤمن، ماذا يفعل بذكائه؟ هل في القرآن آية تشير إلى هذا المعنى الدقيق؟ شخص عبقري لكن ما فيه دين، شهواني، يؤثر الدنيا على الآخرة، فهذا الذكاء الذي منحه الله إياه ما مصيره؟ ربنا عز وجل قال:

(وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً)

(سورة الكهف الآية: 54)

يعني أرجو الله أن أوفق بمثل يوضح فكرتي، يعني أنت أُعطيت مركبة، تصعد مكاناً، زاويته مثلاً خمس وثلاثون درجة، نادراً أن يكون طلعة بهذا الشكل، لكن المركبة قوية جداً، فإن لم تستخدم هذه المركبة لبلوغ قمة هذا الجبل فقد تهوي بك إلى الحضيض .

يعني الله عز وجل آتى الإنسان عقلاً، وهذا العقل فيه من القدرات المذهلة الكثير، و لو أنهم استطاعوا أن يصنعوا عقلاً آلياً يقوم مقام العقل البشري لاحتاجوا إلى أكبر شارع في نيويورك، وهذا الشارع أبنيته من على اليمين، ومن على الشمال، كلها صمامات صغيرة حتى يكون هذا الشارع بكل أبنيته عقلاً ميكانيكياً من صنع الإنسان، العقل فيه أشياء غريب جداً، و منذ يومين دخلت على طبيب مصور، عرفته حينما كنت صغيراً في السن، كان لهذا الطبيب عيادة في أحد شوارع دمشق، وكان له لوحة مصنوعة من الشينكو، فتذكرت من كلمة واحدة تذكرت شيئاً قبل أربعين عاماً تقريباً، معنى ذلك أن الإنسان يتمتع بذاكرة، مداها عجيب جداً، فالإنسان أعطاه الله قدرةَ تذكر، قدرة محاكمة، قدرة استنباط، قدرة استقراء، قدرة حكم، قدرة موازنة، قدرة تخيّل، قدرة تصور، هذا العقل البشري زود الله به الإنسان ليرقى به إلى الله، لو آثر الدنيا ماذا يفعل بهذا العقل؟ يستخدمه لفلسفة الباطل، ولتغطية انحرافاته، ولفلسفة شهواته، ولتحبيب الدنيا إلى الناس .

فلذلك أصحاب الأهواء أذكياء، أصحاب المبادئ الهدامة أذكياء، يفلسفون مبادئهم الهدامة، ويعطونها طابعاً منطقياً، يعطونها تماسكاً إيديولوجيا كما يقولون، الله عز وجل قال:

(وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً)

(سورة الكهف الآية: 54)

فعقلك إن لم تستخدمه في معرفة الله، صار سلاحاً خطيراً تستخدمه إذاً في تزيين الباطل، في ترويج الباطل، ما من انحراف أخلاقي، ولا من عقيدة فاسدة، إلا ولها فلسفة براقة ، وقد عبر الله عن هذا بقوله جل جلاله:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ)

(سورة الأنعام الآية: 112)

يعني إذا قرأت مقالة، أو قرأت كتاباً فلسفياً، كتاباً فيه مبادئ إنسانية وجدته يؤيد الباطل، يؤيد المعاصي، لكن بفلسفة، مثلاً، يقولون لك: إذا حضرت مسرحية، النفوس تشفى عند حضور هذه المسرحية، لماذا؟ قال: لأن الشر الذي يمثل أمامك، هذا يخرج من نفسك، يفلسفون هذه الفنون، الاختلاط يهذب المشاعر، وبعض الألعاب التي يقبل الناس عليها إقبالا منقطع النظير، يدّعون بأنها تزيل الخصومات، الخصومات يرونها أمامهم وتشفى نفوسهم بمشاهدتها، العقل البشري يمكن أن يزين

الباطل، ويمكن أن يفلسف الانحراف، ويغطي المعاصي كلها، فأنت لا تعبأ بهذا الكلام إن كان مخالفاً للمقياس أنت الذي عندك .

فلو وقفنا أمام بائع وشعرنا أن هذا الميزان غير صحيح، فلا نرتاح له، ما الحل؟ هذا بائع القماش يقيس القماش بالمتر، كأنه أقصر من المتر الطبيعي، ما الحل؟ هناك متر نظامي، وهناك ميزان دقيق، نحن عندنا ميزان العقل، وعنا ميزان الفطرة، وعندنا ميزان يضبط هذين الميزانين، هو الشرع، وعلى هذا أضرب مثل:

أعطيناك مسألة حللتها بعقلك، نحن نعطيك سلفاً الحل الشرعي، فإذا وصلت بعقلك إلى الحل الشرعي فأنعم بهذا العقل، وإن لم تصل بعقلك إلى الحل الشرعي فبئس هذا العقل، هذه هي القاعدة .

ما هي المهمة التي كلف بها رسول الله سيدنا حذيفة يوم معركة الخندق ؟

الحقيقة أتمنى على الله عز وجل، وأرجو أن تعلموا علم اليقين أن واحداً منا لن يستطيع أن يصل إلى جنة عرضها السموات والأرض إلا إذا مر بامتحانات شديدة، هذا كلام قد يرضيكم وقد لا يرضيكم لكنه حقيقة، يظن بعضهم أنه بالرخاء، والبحبوحة، واليسر، والصحة، وسمو المكانة أنه يخرج من الدنيا للجنة رأساً، لا، فهناك أدلة كثيرة تشير إلى الابتلاء:

(حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ)

(سورة آل عمران الآية: 142)

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

(سورة العنكبوت الآية: 2)

(لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ)

(سورة آل عمران الآية: 92)

فالصحابة الكرام في قمة إخلاصهم، وحبهم، وإقبالهم، وورعهم، وطاعتهم في القمة جاءتهم معركة الخندق فزلزلوا بها، وقد قال أحد الذين عاشوا مع النبي حينما رأى قريشاً، وكل القبائل قد جمعت كل إمكاناتها وطاقاتها، وجاءت بجيش لم يجّيش مثله في تاريخ الجزيرة ، عشرة آلاف مقاتل، جاءوا ليستأصلوا الإسلام، ليبيدوه عن آخره، واليهود مِن ظهر النبي نقضوا عهدهم كعادتهم، واتفقوا مع الأحزاب ليطعنوا النبي من الظهر والمدينة مكشوفة، والجيش عرمرم كما يقولون، وغدا مستقبل الإسلام قضية ساعات .

لو فرضنا أنك إنسان خبير بالمعارك، ولو فرضنا أن لواءً محاصراً بين عشر فرق، والمنافذ كلها مغلقة، قطعوا التموين، قطعوا الماء، قطعوا الإمداد، قطعوا المعلومات، قطعوا الاتصالات، المدرعات

مجهزة، ثم تقدمت هذه الفرق لتستأصل هذا اللواء عن آخره، هكذا كان شأن المسلمين في غزوة الخندق.

الأمر أبلغ من ذلك، يعني المسلمون بقي لهم ساعات، حسب رأي المنافقين والكفار، وقد كان النبي وعدهم أن يفتح عليهم بلاد قيصر وكسرى، ما هذا الكلام؟ أين بلاد قيصر؟ وأين بلاد كسرى؟ فالأمر لما ضاق به المسلمون، حمل أحد المنافقين على أن يقول: أيعدنا صاحبكم أن تفتح علينا بلاد قيصر وكسرى، وأحدنا لا يأمن أن يقضي حاجته، غير قادر على أن يفرغ مثانته، هذا الذي قال هذا الكلام: شعر أن هذا النبي ليس نبياً، والدليل أنه انتهى مع المنافقين، لكن ربنا عز وجل وصف الحال بقوله:

(هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً * وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً)

(سورة الأحزاب الآية: 11 - 12)

لكن :

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً)

(سورة الأحزاب الآية: 23)

الإسلام قد يمر بنكبات، قد يمر بهجمات شرسة، وقد يمر بمؤامرات على مستوى العالم كله، لكن المؤمن لا يتزحزح، ولا يسيء الظن بربه، وهو صابر، وهو صامد بالتعبير الحديث، فالنبي عليه الصلاة والسلام احتاج في هذه المعركة الحرجة إلى هذا الصحابي الجليل ، أراد النبي أن يبعث إلى جيش العدو رجلاً يندس فيهم ليأخذ أخبارهم، القرار الصحيح يحتاج إلى معلومات صحيحة، تقصي الحقائق، وأنت إذا كان لك عمل قيادي، فأكبر غلط ترتكبه حينما تتخذ قراراً من دون دراسة، فالقرار الصحيح يحتاج إلى معلومات صحيحة .

فسيدنا النبي قائد محنك، قائد فذ، يجب أن يتخذ قراراً، الأمر خطير جداً لا بد من صحابي على مستوى عالٍ من الذكاء، وسرعة البديهة، والفطنة، وكتمان السر، عليه أن ينطلق إلى جيش العدو في جنح الظلام، وهناك يتقصى الأخبار ويعود إلى النبي، لأن النبي الكريم جاءته معلومات مضطربة، يريد أن يعرف الحقيقة، فاسمعوا سيدنا حذيفة وهو يروي لكم قصته، قال:

كنا في تلك الليلة صافين قعوداً، وأبو سفيان ومن معه من مشركي مكة فوقنا، وبنو قريظة من اليهود أسفل منا، نخافهم على نسائنا وذرارينا، قال: وما أتت ليلة قط أشد ظلمة ولا أقوى رياحاً منها، فأصوات رياحها مثل الصواعق، وشدة ظلامها تجعل أحدنا لا يرى إصبعه ، فأخذ المنافقون يستأذنون الرسول

عليه الصلاة والسلام، ويقول أحدهم: عندنا مشكلة بالبيت، والآخر زوجته سوف تولد، والثالث جدار بيته تهدم، كلها أعذار واهية، والله سبحانه وصف أحوال المنافقين، فقال على ألسنتهم:

(إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً)

(سورة الأحزاب الآية: 13)

فكلهم تسللوا، وما بقي مع رسول الله إلا ثلاثمئة، عند ذلك قام النبي عليه الصلاة والسلام وجعل يمر بنا واحداً واحداً، حتى أتى إليّ، وما علي شيء يقيني من البرد إلا مرط لامرأتي، المرط يعني ثوب مثل عباءة غير مخيط مجرد قطعة قماش، لا يجاوز ركبتي، فاقترب مني وأنا جاثٍ على الأرض، وقال:

((من هذا؟ قلت: حذيفة، فتقاصرت، وتقاصرت إلى الأرض كراهية أن أقوم من شدة الجوع والبرد، فالمقاتل قد تتلف أعصابه، قلت: نعم يا رسول الله، فقال: إنه كائن في القوم خبرٌ أريد حقيقته فتسللْ إلى عسكرهم وائتني بخبرهم، والنبي قد ربى رجالاً، قال: فخرجت وأنا من أشد الناس جزعاً، وأكثرهم فزعاً، وأكثرهم برداً، والنبي عليه الصلاة والسلام رحيم حقاً لكن لا بد من هذا الموقف، فقال عليه الصلاة والسلام: اللهم أحفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ومن فوقه ومن تحته، فدعاء النبي لا يرد، قال: فو الله ما تمت دعوة النبي عليه الصلاة والسلام، حتى أنتزع الله من جوفي كل ما أودعه فيه من خوفٍ، وأزال عن جسدي كل ما أصابه من برد، فلما وليت ناداني عليه الصلاة والسلام، قال الله عز وجل:

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)

(سورة التوبة الآية: 128)

قال: يا حذيفة، لا تُحدثن بالقوم شيئاً، فقلت: نعم، ومضيت أتسلل في جنح الظلام حتى دخلت في جند المشركين، وصرت كأني واحد منهم، وما هو إلا قليل حتى قام أبو سفيان فيهم خطيباً، وقال:

يا معشر قريش، إني قائل لكم قولاً: أخشى أن يبلغ محمداً فلينظر كل رجل منكم إلى جليسه، قال: فما كان مني إلا أخذت بيد الرجل الذي كان بجانبي، وقلت له: من أنت؟ فلو تأخر حذيفة لأنكشف، قال: أنا فلان، وهنا قال أبو سفيان: يا معشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار قرار

فالله عز وجل تولى نصر المسلمين ، لأن الأمر كان في منتهى الضعف، والله عز وجل قال:

(وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ)

(سورة الأحزاب الآية: 25)

(إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا)

(سورة الأحزاب الآية: 10)

هناك من يقول في أيامنا هذه: الله تخلى عن المسلمين في عصرنا هذا، الله لا يتخلى عنهم أبداً، إذا كانوا معه لا يتخلى عنهم، هذا الذي يصيبهم الآن صعقة، لعل هذا القلب الميت يتحرك، إنها صعقة، لكنها صعقة مؤلمة .

قال:

((يا معشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار قراراً، لقد هلكت رواحلنا، وتخلت عنا بنو قريظة))

وقصة سيدنا نعيم بن مسعود تأخذ بالألباب، الله عز وجل قدر النصر على يد شخص واحد، أسلم وقت المعركة، فجاء النبي، فقال له:

((أمرني، قال له: أنت واحد فخذل عنا، فذهب إلى قريش، وقال لهم كلاماً خلاصته: أن هؤلاء اليهود ندموا على نقض عهدهم مع محمد، واصطلحوا مع النبي على أن يأخذوا منكم عشرين أو أربعين شخصاً رهينة، ليضرب محمد أعناقهم، وذهب إلى قريش بعد أن ذهب إلى اليهود، وقال: هؤلاء قريش اتفقوا مع النبي على أن يأخذوا منكم رهائن))

يعني قصة طويلة خلاصتها

((أنه أوقع بين قريش وقريظة، فنعيم بن مسعود وحده تمكن أن يشق صفوف الكفار، فلما ذهب وفد من بني قريظة إلى قريش، وجدوا أن كلام نعيم صحيح، وتأكدوا أن خبره صحيح فانشق صفهم، وانتهت وحدتهم، وألغي تآمرهم))

وقال أبو سفيان:

((وتخلت عنا بنو قريظة، ولقينا من شدة الريح ما ترون فارتحلوا فإني مرتحل، ثم قام إلى جمله ففك عقاله، وجلس عليه، ثم ضربه فوثب قائماً، ولولا أن النبي عليه الصلاة والسلام أمرني ألا أحدث فيهم شيئاً حتى آتيه لقتلته بسهم، ولكنه ما أحدث شيء، عند ذلك رجعت إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فوجدته قائماً يصلي، في مرط لبعض نسائه، فلما رآني، أدناني إلى رجليه، وطرح علي طرف المرط، فأخبرته الخبر، فسر به سروراً شديداً، وحمد الله وأثنى عليه))

سر التوفيق الذي كان يتمتع به حذيفة بن اليمان ودليل ذلك سؤاله عن أبواب الشر :

سيدنا حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، مرة قال: كان الناس يسألون النبي عليه الصلاة والسلام عن الخير، وكنت أسأله عن الشر، مخافة أن يدركني .

قلت: يا رسول الله، إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ فقال عليه الصلاة والسلام: نعم، بعد هذا الخير هناك شر، قلت: فهل بعد هذا الشر من خير؟.

قال: نعم، وفيه دخن .

قلت: وما دخنه؟ .

قال: قومٍ يستنون بغير سنتي، ويهتدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر، يصلون، والله شيء جميل، يصومون أجمل، يحجون، يعتمرون، لكن في علاقاتهم الاجتماعية اختلاط، وهذا خلاف السنة، يتساهلون بالنظر للنساء، يتساهلون بطريقة بيعهم وشرائهم .

قال له: وهل بعد هذا الخير من شر؟ .

قال : نعم، دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها .

قلت: يا رسول الله، فما تأمرني إن أدركني ذلك، يعني يومها الفكر ملحد، والشهوات مستعرة والكاذب مصدق، والصادق مكذب، والأمين مخون، والخائن مؤتمن، والأمة تلد ربتها، تلد المرأة بنتاً تتعلم، تتفلسف، وتقول أمي: دقة قديمة، أمي لا تفهم شيئاً، هي ربتها، وهذا كله من علامات قيام الساعة .

قلت: يا رسول الله، فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ .

قال: تلزم جماعة المسلمين، لا تبقَ وحدك، لا تكن سائباً شارداً ليكن لك مرجع من دين، لك أخوان، لك مسجد، لك جماعة تطمئن لها، تثق بعلمها، تثق بورعها، تعينك إذا عجزت، تذكرك إذا نسيت، ترشدك إذا ضللت .

قلت: فإن لم يكن لهم جماعة؟ قال: تعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض على أصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك، يعني إما أن تعيش وحدك، وإما أن تعيش مع الجماعة الإسلامية، أما أن تعيش مع هؤلاء الفسقة، الفجار، المنحرفين، فهؤلاء ينتهون بك إلى النار .

إليك هذا القول له :

يقول هذا الصحابي الجليل:

((إن الله تعالى بعث محمداً صلى الله عليه وسلم، فدعا الناس من الضلالة إلى الهدى، ومن الكفر إلى الإيمان، فاستجاب له من استجاب، محيي بالحق من كان ميتاً، ومات بالباطل من كان حياً، ثم ذهبت النبوة، وجاءت الخلافة على منهاجها، ثم يكون ملكاً عضوضاً، فمن الناس من ينكر بقلبه ويده ولسانه، أولئك الذين استجابوا للحق، منهم من ينكر بقلبه ولسانه، كافاً يده، فهذا ترك شعبة من الحق، منهم من ينكر بقلبه، كافاً يده ولسانه، فهذا ترك شعبتين من الحق، ومنهم من لا ينكر لا بقلبه، ولا بيده، ولا بلسانه، فهذا ميت الأحياء، حيٌ ميت، حي نبضه جيد، ضغطه جيد، لكنه ميت، فلا أنكر بقلبه، ولا بلسانه، ولا بيده))

مرة هذا الصحابي جاء النبي عليه الصلاة والسلام، وقال:

((يا رسول الله، إن لي لساناً ذرباً على أهلي، وأخشى أن يدخلني النار، إنه ذكي جداً ولسانه طليق، فقال له النبي عليه الصلاة والسلام: فأين أنت من الاستغفار؟ إني لأستغفر الله في اليوم مئة مرة))

فالإنسان كلما وقع في غلط عليه بالاستغفار .

إليك بطل نهاوند :

ولهذا الصحابي الجليل مواقف بطولية، فمن يصدق أن بلاد نهاوند بأكملها فتحت على يده، وهاأنذا أقول كلمة كنت قد ذكرتها في خطة الجمعة: عمرك الذي تمضيه بين الولادة والوفاة لا قيمة له إطلاقاً، هذا أتفه أعمالك، لكن عمرك الحقيقي هو حجم عملك الصالح، هذا العمل كلما اتسعت رقعته، وكلما عم خيره، وكلما أمتد أمده، وكلما اشتد أثره، كان أعظم عند الله عز وجل، وهذا العمل الصالح كلما كثرت المعوّقات أمامه، وكلما كثرت الصوارف عنه فهناك صوارف كثيرة، والأعوان قلائل، وكلما كان هذا العمل في زمن الفساد، إذا تجبّر الأقوياء، وجار الأمراء، وأترف الأغنياء، وداهن العلماء، وظهرت الفاحشة، كلما كان العمل أعظم عند الله عز وجل .

يا بشر، لا صدقة ولا جهاد، فبم تلقى الله إذاً؟ هذا السؤال الكبير، الإنسان حينما ينتهي أجله، بم يلقى الله؟ قل لنفسك: ما العمل الذي فعلته حتى أستطيع أن ألقى الله به .

كلام سيدنا حذيفة الأخير:

((ليس خياركم الذين يتركون الدنيا للآخرة، ولا الذين يتركون الآخرة للدنيا، ولكن الذين يأخذون من هذه ومن هذه))

إليك لحظته الأخيرة من الدنيا قبل الوداع :

حينما جاءه ملك الموت دخل عليه بعض أصحابه، فسألهم:

((أجئتم ومعكم أكفان؟ قالوا: نعم، قال: أروني إياها، فلما رآها، وجدها جديدة فارهة، فارتسمت على شفتيه آخر بسماته الساخرة، وقال لهم: ما هذا لي بكفن، إنما يكفنني لفافتان بيضاوان ليس معهما قميص، فإني لن أترك في القبر إلا قليلاً، حتى أبدل خيراً منهما أو شراً منهما، وتمتم بكلمات، ألقى الجالسون أسماعهم إليها فسمعوها، ماذا قال؟ قال: مرحباً بالموت، حبيبٌ جاء على شوق، لا أفلح من ندم، وصعدت روحه إلى السماء))

وهذه كلمة أخيرة، فعندما يولد الطفل فكل من حوله يضحك وهو يبكي، وعندما يموت فكل من حوله يبكي، فإذا كنت بطلاً عليك أن تضحك في هذه الساعة، فاعمل طيلة حياتك بحيث إذا جاءك ملك الموت أن تكون ضاحكاً، ليس من يقطع طرقاً بطلاً، إنما من يتقي الله البطل .

والحمد لله رب العالمين

السيرة - رجال حول الرسول - الدرس (14-50) : سيدنا أبو أيوب الأنصاري
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 11-01-1993

بسم الله الرحمن الرحيم

إليكم البلد الذي نشر أبو أيوب الأنصاري ومن معه فيه دعوة الإسلام :

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس الرابع عشر من دروس سير أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضوان الله عليهم أجمعين، وصحابيّ اليوم سيدنا أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه .
أول شيءٍ أحب أن أضعه بين أيديكم في هذا الدرس هو أنك إذا ذهبت إلى الحج، ورأيت مئتي ألف من الحجاج الأتراك، وكلهم يبتهلون إلى الله، ويدعون الله، فإنهم في صحيفة هؤلاء الصحابة الكرام الذين خرجوا من مكة المكرمة، ومن المدينة المنورة، لينشروا هذا الدين في الآفاق .
سيدنا أبو أيوب الأنصاري أحد هؤلاء الصحابة الذين وصلوا إلى أقاصي الشمال، ودفن عند أسوار القسطنطينية، فهو الآن مدفون في أحد أحياء اسطنبول، حينما اتسعت اسطنبول شملت قبره رضي الله عنه وأرضاه، على كلٍ الإنسان يعمل في الحياة الدنيا أعمالاً كثيرة، لكن أرقى عمل له حينما ينشر الحق، ومع نشر الحق هناك جهاد في سبيل الله .

ما العبرة التي يمكن أن نأخذها من دراسة سيرة أبي أيوب الأنصاري ؟

هذا الصحابي الجليل له قصة مثيرة جداً مع رسول الله صلى الله عليه، على كلٍ هو آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يأتي إلى المدينة مهاجراً، فهو من الرعيل الأول الذين بايعوا النبي في بيعة العقبة الثانية، ولكن من خلال هذه القصة تجدون العلاقة بين أصحاب رسول الله وبين رسول الله علاقة فريدة من نوعها، وإن شاء الله سأقف وقفة عندها، و عند كل نقطة من سيرة هذا الصحابي الجليل .
الوقائع التي سأسردها لكم ربما سردت من قبل، أو ربما قرأتموها في كتاب، والتركيز في هذه الدروس لا على الوقائع بل على التحليل، والتركيز في هذه الدروس لا على التحليل فحسب، بل على ربط هذه الوقائع وذاك التحليل بحياتنا اليومية .
أنت أيها الإنسان، ما شأنك بهذه القصة؟ ماذا تستفيد منها؟ ماذا تستنبط منها؟ ما الدروس البليغة التي يمكن أن تأخذها؟ بل وأرقى من ذلك، اسأل نفسك بعد حين، ما المواقف التي وقفتها اقتداء بهذا

الصحابي الجليل؟ ماذا أفادني هذا الصحابي الجليل؟ ماذا علمني هذا الصحابي الجليل؟ هل قلدته؟ هل اتبعت خطاه؟ .

لقد رضي الله عن أصحاب رسول الله، فإذا قلت في حديثك عن أصحاب رسول الله: رضي الله عنهم، فهذا ليس دعاء، لكنه تقرير، وفرق كبير بين الدعاء والتقرير، أنت إذا ذكرت الإمام أبا حنيفة تقول: رضي الله عنه، هذا دعاء، وإن ذكرت رجلاً عالماً، جليلاً، مستقيماً، عاملاً، تقول: رضي الله عنه، لكن هذه رضي الله عنه غير تلك، فهذه دعائية، أما إذا ذكرت أصحاب رسول الله رضوان الله عليهم تقول: رضي الله عنه تقريراً، وأنت في هذا لا تتألى على الله، ولكن تقول: ما قال الله، ألم يقل الله عز وجل:

(لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ)

(سورة الفتح الآية: 18)

يا أخي الكريم، هل من مرتبة على وجه الأرض أعلى من أن يرضى عنك خالق الكون؟ أن تشعر أنك في رضاه، أن تشعر أنه يحبك، أنه يحفظك، أنه يوفقك، قال تعالى:

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

(سورة الطور الآية: 48)

كما قال الله عز وجل مخاطباً النبي عليه الصلاة والسلام، وقد قال بعض علماء التفسير: إن لكل مؤمنٍ من هذه الآية نصيب بقدر إيمانه وإخلاصه واستقامته .

الأقوياء ملكوا رقاب الناس لكن الأنبياء ملكوا قلوب الناس :

النبي عليه الصلاة والسلام، حينما بلغ المدينة تلقته أفئدة أهلها بأكرم ما يتلقى بها وافد، تطلعت إليه عيونهم، تبثهم شوق الحبيب إلى حبيبه، وهنا وقفة .

أيها الأخوة الأكارم، الإنسان له قالب وله قلب، بالقوة تملك القالب، إذا كنت قوياً بإمكانك أن تخضع الناس جمعياً لمشيئتك، بإمكانك أن تجعلهم يقولون أية كلمة تريدها، بإمكانك أن تحملهم على أي موقف، أي إنك ملكت قوالبهم، ملكت أجسامهم، ملكت رقابهم، ملكت عضلاتهم، ملكت ألسنتهم، ملكت حركاتهم، ملكت سكناتهم، إنك بالقوة تملك القالب فالبطولة ليس أن تملك رقاب الناس بالقوة، لكن بطولة الأنبياء أنهم كانون من أضعف خلق الله، ألم يقل النبي عليه الصلاة والسلام في الطائف:

((اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا رب المستضعفين، إلى من تكلني، إلى صديق يتجهمني، أم إلى عدو ملكته أمري، إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، ولك العتبى حتى ترضى، لكن عافيتك أوسع لي))

شاءت حكمة الله أن يكون معظم أنبيائه ضعفاء، كأي شخصٍ عادي، بل إن قومه اتهموه بالجنون وبغيره، وقالوا:

(وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ)

(سورة الذاريات الآية: 39)

يتهمه الكافر الضال بالسحر، يتهمه بأنه كاهن، يتهمه بأنه شاعر، هذا الذي يتهمه ينام في بيته ناعم البال، مطمئناً، كيف تتهم النبي بأنه مجنون، وتنام في البيت ناعم البال؟ لأنه ضعيف، لو كان قوياً لما أمكنك أن تتهمه هذا الاتهام، ولما نجوت من عقابه، إذاً: فقد شاءت حكمة الله أن يكون النبي ضعيفاً لكن بكماله ملك القلوب .

الإنسان قلب وقالب، الأقوياء يملكون القالب، لكن الأنبياء ملكوا القلوب، هذه البطولة، البطولة أن يحبك الناس حباً حقيقياً، البطولة أن تهفو قلوب الناس إليك، البطولة أن تشعر أنهم يؤثرونك على أنفسهم، ولو كان بهم خصاصة، البطولة أن يميل القلب ميلاً حقيقياً، إليك النبي عليه الصلاة والسلام أحبه أصحابه حباً يفوق حدّ الخيال .

ألم تسمعوا حينما سأل أبو سفيان خبيب بن عدي، قال له قبل أن يصلب، قبل أن يقتل ، قال يا خبيب:

((أتحب أن يكون محمد مكانك، وأنت سليم معافى في أهلك؟))

يقولون: أن سيدنا خبيباً انتفض، كما ينتفض العصفور المذبوح،

((قال: لا والله، لا أحب أن أكون في أهلي وولدي، وعندي عافية الدنيا ونعيمها، ويصاب رسول الله بشوكة))

والله ما كان كاذباً، والله كان صادقاً، هذا الحب الذي يفتقده المسلمون اليوم، الثقافة موجودة، معلومات، أشرطة، كتب، مجلات، أما هذا الحب الذي هز قلوب أصحاب رسول الله، فجعلهم يؤثرون طاعة الله عز وجل على كل شيء، هذا الذي نرجو أن نصل إليه، أو هذا الذي نرجو أن نسعى إليه .

الخير الذي لحق ببيت أبي أيوب الأنصاري حينما وقفت ناقة رسول الله أمام بيته :

هؤلاء الأنصار الذين آمنوا بالنبي قبل أن يروه، وحينما جاء النبي إليهم، عبروا عن حبهم تعبيراً غريباً، عبروا عن شوقهم، عبروا عن وفائهم، عبروا عن إخلاصهم، فتحوا له قلوبهم ليحل منها في السويداء، اشرعوا له أبواب بيوتهم لينزل فيها أعز منزل .

فكل صحابي، بل كل أنصاري، كان حلمه الأعظم أن ينزل النبي ضيفاً عنده، فهذا شرف ما بعده شرف، هذا مقام ما بعده مقام، لأنّ النبي سيد الأنبياء، سيد الرسل، الإنسان الكامل، قمة البشر، يأتيه ضيفاً، ويقيم عنده ضيفاً في بيته مكرماً معززاً، فهذا شرف لا يُدانى.

النبي عليه الصلاة والسلام لحكمة بالغة يعرفها كتاب السيرة بقي في قباء أربعة أيام ، وبنى فيها مسجداً هو أول مسجد بني في الإسلام، هذا المسجد أسس على التقوى، فأحياناً تجد مسجداً أسس على التقوى، الذي أسسه لا يبتغي سمعة، ولا شهرة، ولا مجداً، ولا كسباً، ولا شيئاً من هذا القبيل، والذي يدرس فيه، والذي يخطب فيه، مخلصون لله سبحانه، يجب أن تكون الدعوة إلى الله خالصة لوجهه الكريم، وألا تختلط بالدنيا، ألا تشوبها شائبة، ألا يوضع الدين في الوحل، أن يبقى الدين في السماء، أن يبقى الدين بعيداً عن المصالح، عن الأهواء، عن المنازعات، عن المكاسب الدنيوية، هذا هو الدين .

أنت أيها المؤمن تمثل هذا الدين، إياك أن تكذب، إياك أن تخون، إياك أن تغش الناس ، إياك أن تخلف وعدك معهم، من عامل الناس فلم يظلمهم، وحدثهم فلم يكذبهم، ووعدهم فلم يخلفهم فهو ممن كملت مروءته، وظهرت عدالته، ووجبت أخوته، وحرمت غيبته، أنت سفير ، كل واحد منكم سفير الإسلام، لأقربائهِ، وجيرانه، وزملائه في العمل، الأضواء كلها مسلطة عليك، أصغر ذنبٍ تفعله يكبره الناس، أنت حينما أعلنت أنك مسلم، أو حينما اتبعت منهج الإسلام، أو حينما عرف الناس أن لك خلفية دينية، أو حينما اتجهت اتجاهاً إسلامياً، فأنت الآن تحت المراقبة، فإياك أن تسيء لدينك، أنت على ثغرة من ثغر الإسلام، فلا يؤتين من قبلك .

وبعد أن قضى النبي الكريم في قباء أربعة أيام ركب ناقته، وتوجه تلقاء يثرب، بين يثرب وبين قباء، يعني مسير ربع ساعة أو ثلث ساعة تقريباً .

أنا في أول عمرة أكرمني الله بها ذهبت إلى هذا المسجد، أمامه ساحة، وفي وسط هذه الساحة نصب عمود، وفوق العمود كرة من البلور مكتوب عليها طلع البدر علينا، سمعت هذا النشيد بالشام عشرات، بل مئات، بل ما يقترب من ألوف المرات، لكن ما شعرت بنشوة، ولا هزة انفعالية إلا حينما رأيت المكان الذي وقف فيه أصحاب النبي يستقبلونه عليه الصلاة والسلام، في هذا المكان وقفوا واستقبلوه، وقالوا: طلع البدر علينا من ثنيات الوداع، فكانوا الأنصار يعترضون الناقة، ناقة رسول الله في مسيرها، ويقولون: أقم عندنا يا رسول الله، أقم عندنا في العَدد والمنعة، نحن أقوياء، نحن رجال كثر، وعندنا أسلحة كافية، ونمنعك من عدوك، هذا عرض مغرٍ .

في الحقيقة، القيادة عمل فذ، فليس كل إنسان يكون قائداً، القائد عندما ينحاز لبعض الأطراف، ويهمل بعضها الآخر، فعندئذ يقع في مشكلة كبيرة، من صفات النبي عليه الصلاة والسلام، أنه ما من واحد من أصحابه إلا وهو يظن أنه أقرب الناس إليه، فلو أنه أختار اللهم صل عليه بيتاً من البيوت تنشأ حساسيات، وتنشأ غيرة، بل أن النبي وقف موقف حكيم جداً فالحكمة هي أحد مستلزمات القيادة، فقال:

((كلما اعترض هذه الناقة أسياد الأنصار، وقالوا: يا رسول الله، أقم عندنا في العَدد، والعُدد، والمنعة، يقول لهم: دعوها فإنها مأمورة، اتركوها فإنها مأمورة))

فالنبي الكريم علمنا القرعة، القرعة ما لها مشكلة، إذا جرى تنازع بين أفراد وهم بدرجة واحدة بالنسبة لك، تحبهم جميعاً وتنازعوا على شيء، كأن يكون لك أولاد، وأنت مدعو إلى سهرة، أو مدعو إلى عقد قران، الأنسب أن تأخذ واحداً فقط، واخترت واحداً، وغيره أهملته، تنشأ مشكلة، فأقرع بينهم، فالقرعة تطيب بها النفوس .

والناقة تمضي إلى غايتها تتبعها العيون وتحف بها القلوب، ويقول القائلون: هنيئاً لمن تقف عنده هذه الناقة، فإذا اقتربت من منزل فرح أهله، وما زالت هذه الناقة على حالها، والناس يمضون في إثرها، وهم يتلهفون شوقاً لمعرفة السعيد المحظوظ، حتى بلغت ساحة خلاء أمام بيت أبي أيوب الأنصاري .

وقبل أن تقف الناقة، هناك راوية أخرى في كتاب آخر، من كتب التاريخ والسيرة، يوضح ويبين أنه حينما شعر عليه الصلاة والسلام أن هناك تنافساً شديداً، وهناك حساسية بالغة، وكل الأنصار يتمنون أن يقبع عندهم، أطلق زمام الناقة، لأنه لو كان ماسكاً الزمام فقد يكون تحركها بتوجيه من رسول الله، ولو أمسك الزمام، وشد الزمام، وشده يمنة أو يسرة، أو منعها لثارت شكوك، حينما رأى الأمر بهذه الدرجة من الحساسية، أطلق زمام الناقة، ولم يثنها لا يمنة ولا يسرة، ولم يستوقف خطاها، وقال: اللهم خر لي واختر لي .

لذلك الآية الكريمة التي يقرؤها المؤمنون وتذوب نفوسهم بها، قال تعالى:

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة البقرة الآية: 216)

يعني شاب اختار الله له زوجة، أو اختار له عملاً، أو أختار له بيتاً، فلم يدخل بكلمة لو، لو فعلت كذا لكان كذا، لو اخترت هذا لكان كذا، فكلمة (لو)ممنوعة في قاموس المؤمن لأنها تفتح عمل الشيطان، لا تقل: لو أني فعلت كذا وكذا، وقل: قدر الله، وما شاء فعل، أما المؤمن، يقول: اللهم خر لي واختر لي، الإنسان يطلب من الله أن يختار له، خطب ثم خطب ثم خطب، وأخيراً نصيبه فلانة انتهى، فهذه هي نصيبنا، فهو مطمئن، أما غير المؤمن، يقول: يدخل في متاهات، يعمل موازنات، أختها أحسن منها، الله يصلحها أمي لو اختارت لي أختها، لمَ تنظر لأختها؟ ما لك حق ترى أختها أساساً، هذه مخالفة شرعية .

أن تنظر اللهم خر لي واختر لي، في عملك، في زواجك، في شراء البيت، في تربية أولادك، هكذا علمنا النبي عليه الصلاة والسلام، فالله هو العليم، هو الحكيم، هو الرحيم، هو الخبير، اترك الأمر إليه .

لكن النبي عليه الصلاة والسلام لم ينزل عنها، حكم ما بعدها حِكم، ليست القضية أنه هو أوقفها ونزل، أو لمجرد أن وقفت نزل، بل حتى يثبت موقف الناقة، فما لبثت أن وثبت وانطلقت تمشي، والنبي عليه الصلاة والسلام مُرخ لها زمامها، ثم ما لبثت أن عادت ادراجها وبركت في مبركها الأول .

القضية مركزه، والموقع اختاره الله عز وجل، وهذا الموقع ماذا أصبح الآن أصبح مقام رسول الله؟ والمسجد النبوي بني فيه القضية لها أثر كبير جداً، عندئذ غمرت الفرحة فؤاد أبي أيوب الأنصاري، وبادر إلى النبي صلى الله عليه وسلم يرحب به، وحمل متاعه بين يديه وكأنما يحمل كنوز الدنيا كلها، ومضى إلى بيته، هذا الإنسان العظيم حلّ ضيفاً عنده .

إليكم وصف بيت أبو أيوب الأنصاري وماذا حدث معه ؟

أيها الأخوة، أما منزل أبو أيوب الأنصاري، منزل متواضع، يتألف من طبقة فوقها علية، يعني غرفة صغيرة لكنها في الطبقة الثانية، فأخلى العلية من متاعه ومتاع أهله، لينزل فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلا أن النبي عليه الصلاة والسلام رحمة بأصحابه آثر عليها الطبقة السفلى، لأن الطابق الأرضي أسهل للصحابة عند لقائه والقدوم إليه، فالباب خارجي والمنزل أرضي، وهذا فيه سهولة واضحة، فامتثل أبو أيوب لأمره، وأنزله حيث أمر

لذلك تجد العلماء يتنازعون أحياناً، والامتثال خير من الأدب، فإذا وقع خلاف فالأدب هو الامتثال، والامتثال أولى، ولما أقبل الليل، وأوى النبي صلى الله عليه وسلم إلى فراشه، صعد أبو أيوب الأنصاري وزوجته إلى العلية، وما إن أغلقا عليهما بابهما حتى التفت أبو أيوب إلى زوجته، وقال:

((ويحك ماذا صنعنا بأنفسنا؟ أيكون النبي عليه الصلاة والسلام أسفل منا ، ونحن أعلى منه؟ أنمشي فوق رسول الله؟ أنصير بين النبي وبين الوحي، إنا إذاً لهالكون؟))

فما هذا التعظيم؟ ماذا قال الله عز وجل:

(وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ)

(سورة الحج الآية: 32)

هذا الذي يعظم رسول الله، يعظم المصحف، يوقر الكعبة، فهذا يعرف الحق لأصحابه ، هناك أشخاص يستهينون بهذه المقدسات، بينما تعظيم هذه المقدسات دليل إيمان الإنسان، والأصل في ذلك قوله تعالى:

(وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ)

(سورة الحج الآية: 32)

وهنا نقف إزاء ملاحظة لا بد من بيانها: أن الكفر أنواع ثلاثة: هناك كفر قولي، وكفر اعتقادي، وكفر سلوكي .

لو أن إنساناً أمسك بالمصحف، وألقاه وأراد أن يهينه فقد كفر، هذا سيدنا أبو أيوب يقول: ماذا فعلت اليوم؟ أنمشي فوق رسول الله؟ أيكون النبي أسفل منا؟ أنكون بينه وبين الوحي؟ إن ذنب المنافق

كالذبابة، وذنب المؤمن كالجبل الجاثم فوق صدره، كلما استصغرت الذنب كبر الذنب، وكلما استعظمت الذنب صَغُر .

لم تسكن نفسهما بعض السكون إلا حينما انحاز إلى جانب العلية، الذي لا يقع فوق رسول الله، والتزاماه لا يبرحانه إلا ماشيين على الأطراف متباعدين عن الوسط، نام هو على طرف الحائط، وزوجته على الطرف الآخر، يعني ابتعدا عن مكان نوم النبي عليه الصلاة والسلام .

فلما أصبح أبو أيوب، قال للنبي عليه الصلاة والسلام:

((يا رسول الله، والله ما أغمض لنا جفن هذه الليلة، لا أنا ولا أم أيوب))

يعني من سعادة المرء أن تكون زوجته على نمط الزوج، فأحياناً تجد الزوجة تعترض على زوجها، هذا شيخك، تنزل دائماً بالشيخ، فما عندها ولاء لزوجها، أما الزوجة الصالحة ولاؤها كولاء زوجها يعني لها ولاء لدينه، ولجامعه، ولشيخه، أم أيوب مثلها مثله تماماً، فقال عليه الصلاة والسلام:

((ومما ذلك يا أبا أيوب، فقال: ذكرت أني على ظهر بيت أنت تحته، وإني إذا تحركت تناثر عليك الغبار، فآذاك، ثم إني غدوت بينك وبين الوحي، فقال عليه الصلاة والسلام: هون عليك يا أبا أيوب، إنه أرفق بنا أن نكون في السفلي، لكثرة من يغشانا من الناس))

فالله عز وجل وضعه في آية، فقال:

(وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ)

(سورة ص الآية: 86)

قال أبو أيوب:

((فامتثلت لأمر النبي عليه الصلاة والسلام، إلى أن كانت ليلة باردة فانكسرت لنا جرة في العلية، ووقعت مشكلة، وأريق ماؤها في العلية، وكانت مشكلة كبيرة جداً، فقمت إلى الماء أنا وأم أيوب، وليس لدينا إلا قطيفة كُنّا نتخذها لحاف، وجعلنا ينشف بها الماء خوفاً من أن يصل إلى النبي صلى الله عليه وسلم))

هذا كله مسجل، الأدب مسجل، الحب مسجل، والتضحية مسجلة، والبذل مسجل، والإنفاق مسجل .

((فلما كان الصباح، غدوت على النبي صلوات الله عليه، وقلت له: بأبي أنت وأمي إني أكره أن أكون فوقك، وأن تكون أسفل مني، ثم قصصت عليه خبر الجرة، وهكذا صار معنا البارحة، فاستجاب لي))

ما أحب أن يحرج أبا أيوب، ما أحب أن يحمله فوق طاقته فوقف موقفاً ليناً .

أقام النبي عليه الصلاة والسلام في بيت أبي أيوب نحواً من سبعة أشهر، حتى تم بناء مسجده في الأرض الخلاء، التي بركت فيها الناقة، فانتقل إلى الحجرات التي أقيمت حول المسجد له ولأزواجه، فغدا جاراً لأبي أيوب، معناها بيت أبي أيوب الأنصاري إلى جوار المسجد النبوي الشريف .

أما الآن إذا ذهبت إلى هذا المكان تجده غداً من أرقى الأبنية في العالم، فيه أعظم مشروع تكييف في العالم، كله تعظيماً لهذا النبي الكريم .

المحبة والشوق اللتان غمرتا أبا أيوب الأنصاري اتجاه رسول الله مما رأى من كماله الإنساني :

أيها الأخوة، إقامة النبي عند سيدنا أبي أيوب الأنصاري، أورثت لهذا الصحابي حباً للنبي منقطع النظير، والحقيقة أن الإنسان أحياناً يُحبُّ عن بعد، فإذا سافرت معه تنكمش منه،

قالوا: الإنسان إذا رأيته أول مرة تعرفه من شكله، من هندامه، من ألوان ثيابه، فإذا تكلم نسيت شكله .

الأحنف بن قيس كما تعلمون، كان قصير القامة، أسمر اللون، مائل الذقن، ضيق المنكبين، ناتئ الوجنتين، غائر العينين، أحنف الرجل، ليس شيء من قبح المنظر إلا وهو آخذ منه بنصيب، وكان مع ذلك سيد قومه، إذا غضب غضب لغضبته مئة ألف سيف لا يسألونه فيما غضب، وكان إذا علم أن الماء يفسد مروءته ما شربه .

فإذا عاملك تنسى كلامه، فالبطولة أن على الإنسان ألا يحب عن بعد، بل أن يحب عن قرب، أن يحب وأنت شريكه، وأنت مسافر معه، هو جارك، هو ضيفك، أما من بعد، كل إنسان ببيته، بعلاقاته العامة، أناقة واحترام، وكلام لطيف، واعتذارات، ودبلوماسيات، وعبارات رقيقة، أما المجاورة، أو السفر، أو المحاككة بالدرهم والدينار، فهذه هي المحكة، بعض الأشخاص لهم هالة كبيرة جداً، لو دخلت إلى حياتهم الخاصة، لرأيت فرقاً شاسعاً بين أقوالهم وبين أفعالهم، لذلك تنكمش منهم .

فسيدنا أبو أيوب عاش مع النبي في بيت واحد، وعلى قرب شديد، فماذا فعل به هذا القرب الشديد؟ زاده حباً، زاده تعلقاً، زاده تعظيماً، زاده إكباراً لكماله، المؤمن تحبه عن قربٍ وعن بعدٍ، تحبه من دون أن تخالطه، وتحبه إذا خالطته، تحبه من دون أن تسافر معه، وتحبه إذا سافرت معه، تحبه من دون أن تشاركه، وتحبه إن شاركته .

أنا أتألم جداً عندما أرى أخوين بعد أن تشاركا تخاصما، رغم كل هذا الحب، وكل هذه المودة، لما دخلتما في شركة واحدة، بدأت الخصومات، والحسد، والانتقادات، لماذا؟ لضعف إيمان أحدهما، أو لضعف إيمان كليهما، بالعلاقات الحميمة يزداد تألق المؤمن، وكذلك في السفر، ومع الجوار، إن سكن معه في بيت واحد، ازداد الحب، والتعلق، والشوق، حتى رفعت الكلفة .

والنبي عليه الصلاة والسلام يعني قائد فذ، صديق حميم، وأب رؤوف، وزوج ناجح، كان إذا دخل صحابي يداعبه هذا خالي أروني خالاً مثل خالي، فالنبي الكريم أقام في هذا البيت سبعة أشهر، وكأن هذا البيت بيته، ورفعت الكلفة بينهما إلى ما لا نهاية .

لذلك يا أخوان، أجمل شيء في الحياة، أخ لك مؤمن، تخلص له، ويخلص لك، تحبه ويحبك، تؤثره ويؤثرك، تضحي من أجله، ويضحي من أجلك، تقرضه ويقرضك، تعينه ويعينك، تشعر بمشاعره، تتألم لآلامه، تفرح لأفراحه، هذا حال المؤمنين، هكذا قال النبي: المؤمنون بعضهم لبعض نصحه متوادون، ولو ابتعدت منازلهم، والمنافقون بعضهم لبعض غششة متحاسدون، ولو اقتربت منازلهم .

قال لي أخ كان مع جماعة مؤمنين: والله ما ارتحت معهم، لماذا؟ قال لي: ما رأيت اثنين متحابين، كل واحد ينتقد الآخر، فعلامة أهل الإيمان أنهم يحبون بعضهم حباً حقيقياً، ومع الحب رفع الكلفة، ومع الحب الوفاء، ومع الحب التضحية، ومع الحب التعاون، قال تعالى:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى)

(سورة المائدة الآية: 2)

سيدنا أبو أيوب، بعد أن انتقل النبي إلى بيته المجاور للمسجد النبوي، وهو يرى أن كل سعادته بإكرام النبي، كل سعادته كانت أساسها، أن الله أكرمه بأن جعل النبي ضيفه، فهذا الخير كأنه انقطع، فأحبّ أن يستمر الخير فكان يعد له كل يوم طعاماً على الطريقة القديمة، و النبي الكريم، قال:

((أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل))

فإذا أنت صليت قيام الليل فاستمر، وإن خصصت مبلغاً كل شهر صدقة فاستمر، الأعمال المستمرة، تتراكم، ومع التراكم تتعاظم، ومع التعاظم تحملك إلى الله عز وجل، لكن بعضهم يهب هبة ثم ينطفئ، يفور ويهمد، هذا ليس من صالح المؤمن، أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل .

إن كان لك عمل صالح فاستمر عليه، تقصد هذا المسجد استمر عليه لك هذه الصدقة ، لك هذا الجزء من القرآن تقرؤه كل يوم استمر عليه، لك هذا الذكر استمر عليه .

البشاشة التي كانت على وجه أبي أيوب حينما استقبل ضيافة رسول الله ومن معه :

فمرة طرق النبي الكريم مع سيدنا الصديق وسيدنا عمر باب داره، يعني النبي جاع، وكان فقيراً، ولأن النبي قدوة للمؤمنين جميعاً إلى يوم القيامة، لابد من أن يذوق كل شيء، ولو أن النبي ما ذاق الجوع إطلاقاً، وما ذاق الفقر إطلاقاً، فلا يمكن أن يكون قدوة لنا . قال:

((أوذيت وما أوذي أحد مثلي، وخفت وما خاف أحد مثلي، ومضى علي ثلاثون يوماً، لم يدخل جوفي إلا ما يواريه إبط بلال))

فيبدو أن النبي لم يكن عنده طعام، فانطلق إلى بيت أبي أيوب، ماذا فعل أبو أيوب؟ كان يعمل في نخلٍ قريب، فأقبل يسرع، ويقول:

((مرحباً برسول الله، وبمن معه))

أحياناً تهتم بالضيف الأول، وتهمل الباقين، فيستحون بحالهم، لأن المضيف لم يلتفت إليهم، انتبه يا أخي، فمع ضيفك اثنان آخران، رحب بهم جميعاً .

بالمدينة المنورة أخٌ دعانا إلى غذاء، لفت نظري أنه ما أكل معنا أبداً، بقي واقفاً يقدم لنا الطعام، هذه من سنة النبي، فالترحيب والإكرام، يقف ويوزع الطعام بيده، على كل واحد من المدعوين، هذه من سنة النبي .

((انطلق أبو أيوب إلى نخلة، فقطع منها عرقاً، فيه تمرٌ ورطبٌ وبسرٌ، البسر يعني تمر لم ينضج بعد، فقال عليه الصلاة والسلام: ما أردت أن تقطع يا أبا أيوب، هلا جنيت لنا من ثمره، قال: يا رسول الله، أحببت أن تأكل من تمره ورطبه وبسره، فكل ما تشتهي نفسك بسراً أو رطباً أو تمراً يا رسول الله، ولأذبحن لك أيضاً، قال: إن ذبحت، فلا تذبحن ذات لبن))

وفي أيامنا هذه قد يكون أحد جائعاً ولا يقبل ضيافة مضيفه، ويقول: قبل قليل أكلت، هذا لا معنى له، أنت جائع، وهو أحب أن يكرمك، قل له: ضع لنا أكلاً، ما في مانع، يعني الكريم ما من كلمة أحب إلى قلبه من أن يقول له الضيف: ضع لي طعاماً، لكن بلا تكلف .

((فأخذ أبو أيوب جدياً، فذبحه، ثم قال لامرأته: اعجني واخبزي لنا، ثم أخذ نصف الجدي فطبخه، وعمد إلى النصف الآخر فشواه، فلما نضج الطعام، ووضع بين يدي النبي وصاحبيه، أخذ النبي قطعة من الجدي، ووضعها في رغيفٍ، فقال: يا أبا أيوب، بادر بهذه القطعة إلى فاطمة، فإنها لم تصب مثل هذا منذ أيام))

فالمؤمن وفيّ لأهله، واليوم أخوان مؤمنون كثيرون إذا دعي لطعام نفيس، ففي اليوم التالي يجلب للبيت طعاماً مثله لأهله، يعني هذه زوجتك، وشريكة حياتك، فان أكلت أنت ما لذّ وطاب، وهي محرومة، فهذا شيء لا يليق بالزوج أبداً .

((فلما أكلوا وشبعوا، قال النبي عليه الصلاة والسلام: خبزٌ، ولحمٌ، وتمرٌ، وبسرٌ، ورطبٌ ، ودمعت عيناه))

يعني أحدنا إذا أكل صباحاً، وكان على المائدة لبن مصفى، وزيتون، وجبن وبيض مقلي، وكأس حليب، فلا يبكي، أو لا تدمع له عين شكراً على ما أنعم الله عليه، لكن النبي بكى، فالنبي الكريم كانت تعظم عنده النعمة مهما دقت .

ثم قال:

((والذي نفسي بيده، إن هذا هو النعيم الذي تسألون عنه يوم القيامة))

إذا الإنسان أكل قطعة جبن مع كأس شاي، وصحة طيبة، فهذه أكبر نعمة فإذا أصبتم مثل هذا، فضربتم أيديكم فيه، فقولوا: بسم الله، لأن الشيطان إذا دخل إنسان لبيته وما سلم، قال الشيطان: أدركتم المبيت،

وطول الليلة خلاف، وخبط أبواب وتكسير، وسباب بين الزوجين، ثم ضرب وصراخ ، ثم غادرت بيتها لبيت أهلها، الشيطان نام عندهم، سلم يا أخي، وقل: السلام عليكم، يهرب الشيطان، فالمشاحنات كلها أساسها البعد عن الله عز وجل .

قال:

((فإذا شبعتم، فقولوا: الحمد لله الذي أشبعنا، وأنعم علينا فأفضل، ثم نهض النبي إلى أبي أيوب، وقال: ائتنا غداً لنكافئك))

والنبي الكريم، قال:

((من أسدى إليكم معروفاً فكافئوه))

هل تخلف أبو أيوب عن غزوة غزاها مع رسول الله، وما هي وصيته ؟

سيدنا أبو أيوب عاش طوال حياته غازياً، حتى قيل: إنه لم يتخلف عن غزوة غزاها النبي أبداً، وكانت الآية الكريمة شعاراً له:

(انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً)

(سورة التوبة الآية: 41)

سيدنا أبو أيوب في عهد معاوية بن أبي سفيان، انخرط في جَيَّش جيشه معاوية بقيادة ابنه يزيد لفتح بلاد الروم، كم كان عمره في ذاك الوقت؟ ثمانون عاماً، بينما في أيامنا الرجل بالأربعينات معه حزمة أدوية قبل الطعام وبعده .

عاش هذا الصحابي الجليل مجاهداً، يبدو أنه أصابه مرض في هذه الغزوة، كان قائد الجيش يزيد بن معاوية، فخف إليه القائد، قال له: يا أبا أيوب، ما حاجتك؟ فطلب أبو أيوب الأنصاري من يزيد إذا هو مات أن يُحمل جثمانه فوق فرسه، ويمضي به أطول مسافة ممكنة في أرض العدو، ويدفن هناك، ثم يزحف بجيشه على طول هذا الطريق، حتى يسمع أبو أيوب وهو في قبره وقع حوافر خيل المسلمين فوق قبره، عندئذ يدرك أنهم قد أدركوا ما يبتغون، من نصر وفوز، وهذه أمنيته .

سيدنا عمر بن الخطاب، حينما قتل، وقبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة، سأل سؤالاً، قال:

((أصلّى المسلمون الفجر؟))

أما هذه الأيام اسأل طبيباً، يشاهد حالات الموت، فيسمع المريض: أين السيارة؟ موجودة لا تخف، فهو قلق على سيارته، وعلى فلوسه، وعلى بيته، وعلى ممتلكاته المنقولة وغير المنقولة .

هذه أمنية أبو أيوب الأنصاري، وقد تحققت، وقبره معروف ضمن اسطنبول، حتى الحي المدفون فيه له اسم شهير، من يذكره؟ طبعاً يزيد بن معاوية أنجز وصية أبي أيوب وقبره في قلب القسطنطينية،

وهي اليوم اسطنبول، وتضم جثمان هذا الرجل العظيم، أما الشيء الغريب، أنه قبل أن تفتح القسطنطينية، وتغدو اسطنبول كان الروم يتعاهدون قبره، ويزورنه، ويستسقون بقبره إذا قحطوا .

فأعداء المسلمين كانوا يتبركون به، أنا أعرف يقيناً أنه ما من رجل أوربي زار دمشق إلا وطلب زيارة قبر سيدنا صلاح الدين، ويقف هؤلاء باحترام كبير أمامه، لأنه عاملهم أشرف معاملة، لما انتصر عليهم في بيت المقدس .

من أقواله الشهيرة :

من أقوال سيدنا أبي أيوب: إذا صليت فصلّ صلاة مودع، هذا الحديث عن رسول الله، أما سيدنا أبو أيوب كان يتمثله دائماً، ولا تكلمن بكلام تعتذر منه، وتمام النصيحة هي: إلزم اليأس مما في أيدي الناس، يحبك الناس، إياك وما يعتذر منه، ولا تطمع بما عند الناس، هذه كلها من نصائح هذا الصحابي الجليل، التي كان يأخذها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكل واحد رأى ملايين الأتراك المسلمين، والأعداد الكبيرة منهم في الحج، وهذا كله من بركات هذا الفتح الإسلامي لهذه البلاد، ولنا أخوان من الصين، أين الصين؟ سألت أخاً زارني منذ يومين، قال لي: أنا من الشمال، الشمال الشرقي، من الصين، أولئك الفاتحين إذ آلاف الكيلومترات بين الشام وبين الصين، ورغم بعد المسافة وصلوا عليها وفتحوها .

أرجو الله سبحانه وتعالى أن ننتفع من هذه الدروس، وأن يكون هؤلاء الصحابة قدوة لنا ، وأن نقتدي بهداهم، فهم الذين رضي الله عنهم، ورضوا عنه .

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

لمحة عن حياة الطفيل بن عمرو الدوسي :

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس الخامس عشر من دروس سيرة أصحاب رسول الله رضوان الله عليهم أجمعين، و صحابي اليوم سيدنا الطُّفيل بن عمرو الدوسي، لهذا الصحابي الجليل قصة مثيرة جدًّا يرويها هو بالذات، فنحن مع قصته بروايته، ولكن قبل أن نبدأ برواية قصته أقدِّم لكم نبذةً عن هذا الصحابي .

الطفيل بن عمرو الدوسي سيد قبيلة دوس، وكان زعيم قبيلته، وبالمناسبة كل إنسان له مكانة فهذا له حساب خاص، إن أحسن فله أجران، وإن أساء يُضاعف له العذاب ضعفين، لماذا؟ لأنه قدوة، الأب غيرُ الابن، إذا الأب دخن يُحاسب مرتين، إذا الأب كذب يحاسب مرتين ، قال تعالى :

(يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً)

(سورة الأحزاب الآية: 32)

(يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً)

(سورة الأحزاب الآية: 30)

إذًا: عليَّة القوم، مدير مستشفى، مدير ثانوية، عميد كلية، قائد في سرية، كلما علا منصبُك فلك حساب خاص، سيدنا عمر رضي الله عنه، كان إذا جمع أهله و خاصته، قال:

((إني قد أمرت الناسَ بكذا، ونهيتهم عن كذا، والناس كالطير إن رأوكم وقعتم وقعوا، وايمُ الله لا أوتيَنَّ بواحد وقع فيما نهيت الناسَ عنه إلا ضاعفت له العقوبة لمكانه مني،

(فصارت القرابة من عمر مصيبة)

عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ:

((جَاءَ نَاسٌ مِنْ الْأَعْرَابِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ الصُّوفُ فَرَأَى سُوءَ حَالِهِمْ قَدْ أَصَابَتْهُمْ حَاجَةٌ، فَحَثَّ النَّاسَ عَلَى الصَّدَقَةِ فَأَبْطَئُوا عَنْهُ، حَتَّى رُئِيَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، قَالَ: ثُمَّ إِنَّ رَجُلًا مِنْ الْأَنْصَارِ جَاءَ بِصُرَّةٍ مِنْ وَرِقٍ، ثُمَّ جَاءَ آخَرُ، ثُمَّ تَتَابَعُوا حَتَّى عُرِفَ السُّرُورُ فِي وَجْهِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ

بهَا وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كُتِبَ عَلَيْهِ مِثْلُ وِزْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ))

[أخرجه مسلم عن جرير بن عبد الله في الصحيح]

ملخَّص هذا الكلام شخص قدوة له حساب خاص، إن أحسن فأجره مضاعف، أجر نفسه، وأجر من قلَّده، وإن أساء فعقابه مضاعف، عقابه على خطئه، وعقابه على كل من اقتدى به في خطئه .

سترون بعد قليل، كيف أن هذا الصحابي الجليل، الطفيل بن عمرو الدوسي، لأنه زعيم قبيلة، ولأنه سيد قبيلة لما أسلم أسلمَت كلُّ قبيلته، فإذا كان لك شأن فممكن بهذا الشأن العالي أن ترقى إلى أعلى عليِّين، ويمكن بهذا الشأن العالي أن تهوي إلى أسفل سافلين، أتباعك المعجبون بك، الذين يرونك في مكان عالٍ، والذين أنت ملءُ سمعهم وبصرهم، هؤلاء إن قلَّدوك لإحسانك ارتقيتَ مرتين، وإن قلَّدوك بإساءتك عوقبت مرتين، فكل إنسان في موضع القيادة، وفي مركز مرموق، في مركز وجيه له سمعته، وله أسرته، عميد أسرته، هذا له حساب مضاعف، ولا أبالغ بأن محور هذه القصة أنك إن كانت لك مكانة و أسلمت، فكلُّ من حولك يقلّدونك .

فكان هذا الصحابي في الجاهلية سيد قبيلة دوس، وشريفا من أشراف العرب المرموقين، وواحدا من أصحاب المروءات المعدودين، لا تنزل له قِدرٌ عن نار، ولا يوصد له باب أمام طارق، والعرب كنّوا عن الكرم، بقولهم: فلان لا يُغلق بابه، أو فلان لا تطفأ نارُه، أو فلان كثير الرماد، و كنُّوا عن البخل، كما قال الشاعر:

بيضُ المطابخ لا تشكو إماؤهم طبخَ القدور و لا غسل المناديلِ

فالأمور عند هؤلاء منتظمة جدا، لأنه لا ضيوف يحلون، ولا امتلأ البيت يوماً، وهذه من الكنايات التي ألِفها العرب في كلامهم، كان هذا الصحابي في الجاهلية يطعم الجائع و يؤَمِّن الخائف، و يجير المستجير، وهو إلى ذلك أديب لبيب أريب، وبالمناسبة من كان يتحلَّى بمكارم الأخلاق من مروءة أو كرم أو حمية أو نجدة أو إغاثة ملهوف أو رحمة، فهذه الصفات الأخلاقية لا بد من أن تحمل صاحبها في يوم من الأيام على طاعة الله، لأن الله يحب مكارم الأخلاق، كان أديبا أريبا لبيبا، ومعنى أريب أي ذكيٌّ فطن، وما من عطاء أعظم من أن تكون فطنا، كان بصيرا بحلو البيان، يقال: فلان صاحب فضل، فلان صاحب علم، فلان صاحب بيان، البيان طريق اللسان، العالم يعلم جزئيات أيّ موضوع، و صاحب الفضل له عمل طيب.

على كل: المؤمنون يتوزَّعون في حقول ثلاثة، هناك مؤمن يغلب عليه الفكر، أي كل قضية يفهم أبعادها ودخائلها و خوارجها وملابساتها، يطالع كثيرا، ويفهم كثيرا، يفنِّد مزاعم المفترين، يردُّ على النظريات الشيطانية، هذا مؤمن يغلب عليه الفكر، هذا له عند الله وظيفة، هناك مؤمن آخر يغلب عليه

العمل الصالح، خدمة الأرامل والأيتام وبناء المساجد، وخدمة الناس، والتوفيق بين المتخاصمين، هذا عمل طيب، وهناك مؤمن يغلب عليه الحالُ، يعتني بأحواله وأذكاره وأطواره وقراءاته وتلاوته، لكن الأكمل من كل هذا أن تجمع بين هذا و ذاك ، الأكمل أن تكون حادَّ الفكر، عامرَ القلب، مستقيم السلوك، أن تجمع بين العلم والعمل، وبين الحال، قال: يا ربي، أيُّ عبادك أحبُّ إليك حتى أحبه بحبك؟ قال: أحبُّ العباد إليَّ تقيُّ القلب نقيُّ اليدين، لا يمشي إلى أحد بسوء، أحبني وأحب من أحبني، وحبَّبني إلى خلقي، قال: يا ربي، إنك تعلم أني أحبك وأحب من يحبُّك، فكيف أحبِّبك إلى خلقك؟ قال: ذكِّرهم بآلائي ونعمائي و بلائي، الآلاء أي الآيات، ذكِّرهم بها حتى يمتلئ قلوبُهم تعظيما لي، ذكِّرهم بالنعم حتى تمتلئ قلوبهم حبًّا لي، ذكِّرهم بالبلاء حتى تمتلئ قلوبهم خوفا مني .

إذًا: لا بد أن يكون في قلب المؤمن تعظيمٌ وحبٌّ وخوف، وإذا أردتَ أن تدعو إلى الله عز وجل يجب أن تجمع بين كل هذه المعاني، وأن تذكر الناس ببعضَ النعم التي أنعم اللهُ بها على المؤمنين حتى يحبُّوا اللهَ عز وجل، وأن تتلو عليهم بعضَ النقم المخيفة حتى يخافوا من عقابه، ويلتزموا أمره، وأن تذكِّرهم ببعض الآيات العظيمة حتى يمتلئوا تعظيما له، قال تعالى:

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

(سورة فاطر الآية: 28)

إليك قصة إسلامه :

هذا الطفيل بن عامر الدوسي غادر منازل قومه في تهامة، وتهامة هي السهل الساحلي الموازي للبحر الأحمر، سهول تهامة، كما عندنا بين البحر وبين الجبل سهل، فهناك سهول ساحلية، في المملكة العربية السعودية، بين البحر الأحمر وبين الجبال التي تحاذيه سهول اسمها سهول تهامة، فهذا الطفيل هنا مضارب قبيلته، فغادر منازل قومه في تهامة متوجِّها إلى مكة المكرمة، وفي مكة المكرمة كان صراع عنيف يدور بين النبي وأصحابه من جهة، وبين كفار قريش من جهة ثانية، حينما دخل مكة شعر أن فيها شيئا غريبا، وأن فيها معركة ضارية، وأن فيها عوامل فتنة، وأن فيها حركة جذرية، وأن هناك من يكره النبيَّ كراهية شديدة، هناك من يمنع الناسَ أن يلتقوا به، هناك أصحابه الذين يحبونه، أي هناك بمكة مشكلة.

قال الطفيل:

((قدمتُ مكة، فما إن رآني سادةُ قريش حتى أقبلوا عليَّ فرحَّبوا بي أكرم ترحيب، وأنزلوني فيهم أعزَّ منزل، ثم اجتمع إليَّ سادتُهم وكبراؤهم، وقالوا: يا طفيل، إنك قد قدِمتَ بلادنا، وهذا الرجل الذي زعم أنه نبيٌّ قد أفسد أمرنا، ومزَّق شملنا، وشتَّت جماعتنا، و نحن إنما نخشى أن يحلَّ بك وبزعامتك في

قومك ما قد حلَّ بنا، فلا تكلِّم الرجل، ولا تسمعنَّ منه شيئا، فإن له قولا كالسحر، يفرِّق بين الولد وأبيه، وبين الأخ وأخيه، وبين الزوجة و زوجها))

هكذا يرون .

لماذا أهل الكفر والضلال يطعنون بأهل الإيمان ؟

أيها الأخوة، دائما أهل الكفر والضلال يحذِّرون من أهل الإيمان، ودائما أهل المعصية و الفجور يحذِّرون من الدعاة إلى الله عز وجل، دعواهم مضحكة، إنه يسلبك، يحرمك من أهلك، ويبعدك عن مجتمعك، ويجعلك منعزلا، هذا كله كلام فارغ، إذا كان الإنسان في ماء آسن، فإذا خرج من هذا الماء الآسن، واغتسل، وتطيّب، وشعر ببهجة النظافة ، أيفرِّق بين فلان وجماعته؟ جماعته كلهم في ضلال، لكنه انسحب منهم، نجا بنفسه منهم، هذا ليس تفريقا، وعلى كلٍّ فالعاقل لا يصغي إلى كلام الفاسق، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)

(سورة الحجرات الآية: 6)

لا تصغ إلى الفاسق، قال تعالى:

(أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً)

(سورة الكهف الآية: 28)

هذا الذي ينصحك انظر إليه، هل يعصي اللهَ؟ هل يصلي؟ هل يخاف الله؟ هل هو منصف؟ إذا كان لا يصلي، وإذا كان مقطوعا عن الله عز وجل، وإن لم يكن منصفا، فكيف تصغي إليه؟ إنه فاسق، والله سبحانه يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)

(سورة الحجرات الآية: 6)

يا أيها الأخوة، أهل الدنيا وأهل الضلال، أهل الكفر والفسوق والعصيان فيهم دافع قويٌّ جدا إلى ماذا؟ هؤلاء لا يتوازنون إلا إذا طعنوا في المؤمنين الصادقين، هم إن لم يطعنوا يُحاصرون، متى يرتاح هؤلاء، هؤلاء عندهم عقدة نقص، عندهم شعور بالذنب، عندهم شعور بالدونية، هؤلاء لا يستعيدون توازنهم إلا إذا طعنوا في أهل الحق، فمعركة أهل الحق مع أهل الباطل معركة أزلية أبدية، معركة قديمة جدا، لذلك الإنسان ليس له حق أبدا بل هو آثم إذا صدَّق كلامَ أهل الفسوق في أهل الحق، فتارة يقول لك: له مقصد، وتارة يقول لك: له مصلحة ، و تارة يقول لك: هذا يقول شيئا، و يفعل شيئا، هذا

كلام مألوف في كل عصر، لذلك المؤمن لا يصغي إلى أهل الفسق والفجور إذا حدَّثوه عن أهل الإيمان، والآية الكريمة واضحة جدا .

قال الطفيل:

((فو الله ما زالوا بي يقصُّون عليَّ من غرائب أخباره، ويخوِّفونني على نفسي وقومي بعجائب أفعاله، حتى أجمعتُ أمري على أن ألا أقترب منه، وألا أكلمه، أو أسمع منه شيئاً))

واسمعوا هذه الآية، قال تعالى:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْداً إِذَا صَلَّى)

(سورة العلق الآية: 9-10)

انتهت الآية ، ما معنى هذه الآية ؟ أين جواب أرأيت ؟

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْداً إِذَا صَلَّى)

(سورة العلق الآية: 9-10)

أي انظر إلى أفعاله، انظر إلى سلوكه، انظر إلى دناءته، انظر إلى خيانته، انظر إلى كذبه، انظر إلى انحرافه، هذا السلوك المنحرف، وهذه الدناءة ألا تكفيك دليلاً على أنه كاذب، و على أن هذا الإنسان هو أحقر من أن تصغي إليه، لذلك على المؤمن الصادق ألا يصغي إلى كلام أهل الباطل في أهل الحق .

ينبغي على المؤمن إذا سمع عن أخيه إشاعة سيئة أن يتحقق :

أقول لكم الموقفَ الكامل: أنك إن سمعتَ كلاما فيه طعنٌ شديد في رجل مؤمن، فما موقفك؟ هناك مجموعة مواقف، إنك إن كذَّبت هذا الكلام تكذيبا سريعا، ورأيت القائل له غرض، ورأيته كذَّابا، ورأيته أفَّاكا، و لم تعبأ بهذا الكلام، ولم يهزَّ فيك، ولا شعرة واحدة، لا عليك أن تلقي كلامه عرضَ الطريق، ولا تبالِ به، وعليك أن تقول له: هذا كلام غير صحيح، وأنا لا أصدقك، لكن إذا كان كلامه ذكيًّا وأعطاك بعض الأدلة، وأعطاك بعض البينات، وتشوَّشت أنت، وشعرت أن هذه المكانة العلية قد هُزَّت، وأن هذه القدوة قد تزلزلت، فإذا بلغت من كلامه هذا المبلغ، فماذا عليك أن تفعل؟ عليك أن تذهب إليه، إلى هذا المؤمن، وتقول له فيما بينك و بينه: سمعتُ عنك هذا الكلام، فقل لي الحقيقة، قد يقول لك: هذا الكلام غير صحيح، وهذا هو الدليل، أنا على عكس ذلك، أو واللهِ يا أخي، كنتُ سابقا في خطأ، والآن تبتُ منه، على كلٍّ إذا أسأت الظنَّ بأخيك المؤمن فلا بد لك من أن تتحقَّق وإلا تكون آثماً، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)

(سورة الحجرات الآية: 6)

لذلك قيل: من أساء الظنَّ بأخيه فكأنما أساء الظن بربِّه، هذه معركة أزلية أبدية، هذه القصة، والتي بعدها، والتي بعدها، وفي كل زمان، وفي كل مكان تندرج في سلسلة الصراع الطبيعي بين الحق و

الباطل، في الحياة حق و باطل، خير وشر، إحسان وإساءة، وأنت لا بد أن تنضمَّ إلى أحد الفريقين، فإن كنت مع أهل الباطل فلا بد من أن تتهجَّم على أهل الحق، و إن كنت مع أهل الحق فلا بد من أن تدافع عنهم .

((ولما غدوتُ إلى المسجد للطواف بالكعبة، والتبرُّك بأصنامها، التي كنا إليها نحجُّ و إياها نعظِّم، حشوتُ في أذني قطنا، خوفا من أن يلامس سمعي شيء من قول محمد، لكني ما إن دخلتُ المسجد حتى وجدتُه قائما يصلي عند الكعبة، صلاةً غير صلاتنا، ويتعبَّد عبادة غير عبادتنا))

الصلاة هي معراج المؤمن إلى رب السموات والأرض :

لا خير في دين لا صلاة فيه، والصلاة عماد الدين من أقامها فقد أقام الدين، ومن هدمها فقد هدم الدين، الصلاة سيدة القربات، وغرَّة الطاعات، ومعراج المؤمن إلى رب الأرض والسموات، قال تعالى:

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

(سورة طه الآية: 14)

عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ، قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: قَالَ مِسْعَرٌ:

((أُرَاهُ مِنْ خُزَاعَةَ لَيْتَنِي صَلَّيْتُ فَاسْتَرَحْتُ فَكَأَنَّهُمْ عَابُوا عَلَيْهِ ذَلِكَ، فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: يَا بِلالُ، أَقِمْ الصَّلَاةَ أَرِحْنَا بِهَا))

[أخرجه أبو داود عن سالم بن أبي الجعد في سننه]

عَنْ أَبِي مَالِكٍ الأشعري، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تملأان أَوْ تَمْلَأُ مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَالصَّلَاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا))

[أخرجه مسلم عن أبي مالك الأشعري في الصحيح]

الصلاة طهور، الصلاة ميزان، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ)

(سورة النساء الآية: 43)

الصلاةُ إذًا: وعيٌ، الصلاة ذكر، والصلاة دعاء، والصلاة تقرُّب، قال تعالى:

(كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ)

(سورة العلق الآية: 19)

الصلاة مناجاة، الصلاة عُروج، والصلاة إقبال، والصلاة طهور، الصلاة سعادة، الصلاة نور، هذه الصلاة، لا خير في دين لا صلاة فيه، أنا أحيانا مغرم بضغط المعلومات، ممكن هذا الدين العظيم الواسع أن تضغطه في كلمتين، فربنا عز وجل قال على لسان سيدنا عيسى:

(وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْت حَيّاً)

(سورة مريم الآية: 31)

الدين اتّصال بالخالق، وإحسان للمخلوق، حركة نحو السماء، وحركة نحو الأرض، نحو السماء إقبال على الله، نحو الأرض خدمة الخلق، لذلك يا رب، لا يطيب الليل إلا بمناجاتك، ولا يطيب النهار إلا بخدمة عبادك، إن لله عملا في الليل لا يقبله في النهار، وإن لله عملا في النهار لا يقبله في الليل، هذا الدين، كان يصلي اللهم صلِّ عليه، وإذا استقام الإنسان أيها الأخوة استقامة تامة، يتجلَّى اللهُ على قلبه عندئذ يعرف حقيقة الصلاة، يعرف ويتذوَّق قول النبي عليه الصلاة والسلام: عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ، قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: قَالَ مِسْعَرٌ:

((أُرَاهُ مِنْ خُزَاعَةَ لَيْتَنِي صَلَّيْتُ فَاسْتَرَحْتُ فَكَأَنَّهُمْ عَابُوا عَلَيْهِ ذَلِكَ، فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: يَا بِلالُ، أَقِمْ الصَّلَاة أَرِحْنَا بِهَا))

[أخرجه أبو داود عن سالم عن أبي الجعد في سننه]

لسان حال معظم المسلمين أرحنا منها، صلى و أوى، هذه معناها: أرحنا منها، أما النبي كان إذا حضر وقت الصلاة، فكأنه لا يعرفنا ولا نعرفه، لذلك عندما يقول المصلي: سمع الله لمن حمده، فهل تفهم ما تقول؟ أي أن اللهُ سبحانه وتعالى الآن يصغي إليك، ويسمع حمدك و ثناءك .

قال الطفيل:

((فكان يصلي هذه الصلاة، ويتعبَّد عبادة غير عبادتنا، فأسرَّني منظرُه، في وجهه نور، وفيه سمت حسن، وهزَّتني عبادته، ووجدتُ نفسي أدنو منه،

(رغم كل التحذيرات لم تفلح معهم)

قال:

((ووجدت نفسي أدنو منه شيئا فشيئا على غير قصد مني حتى أصبحت قريبا منه، قال: وأبى الله إلا أن يصل إلى سمعي بعضٌ مما يقول، فسمعت كلاما حسنا))

يا أيها الأخوة، إن استمعتَ إلى القرآن، وأنت صافٍ تشعر أن الله يخاطبك، و تشعر أن هذا الكلام كلام الله، تشعر أن هذا الكلام:

(إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

(سورة النجم الآية: 4)

وقلتُ في نفسي:

((ثكلتك أمُّك يا طفيل، ثكلتك أمك يا طفيل، إنك لرجل لبيب شاعر، أنت ذكي وفهيم وفطن وشاعر وما يخفى عليك الحسنُ من القبيح، فما يمنعك أن تسمع من الرجل ما يقول، أين عقلك أنت؟ أين ميزانك؟))

قال تعالى:

(مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

(سورة الصافات الآية: 154)

قال تعالى:

(فَأَنَّى تُصْرَفُونَ)

(سورة يونس الآية: 32)

(قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ)

(سورة النمل الآية: 62)

ربنا أحيانا يعاتبنا، أين عقولنا؟ قال: ثم مكثتُ حتى انصرف رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى بيته فتبعتُه حتى إذا دخل داره دخلتُ عليه، وبالمناسبة هناك حديث شريف رائع جدا يفسِّر لكم بعض الظواهر، قال: ما أخلص العبد لله عز وجل إلا جعل قلوب المؤمنين تهفو إليه بالمودة و الرحمة، هذه قوة الجذب أساسها إخلاص المؤمن، إخلاصه يجعل لكلامه قوة جذب، كان سيدنا ربيعة يخدم رسول الله ، فلما ينتهي وقت الخدمة، يقال له: انصرف يا ربيعة، فماذا يفعل ربيعة؟ يبقى على عتبة باب النبي من شدَّة تعلُّقه به، من شدة حبه له، ومن شدة انجذابه إليه، أي أنت كمؤمن يجب أن يكون عندك قوة جذب، نورك الذي في قلبك، استقامتك وورعك واتِّصالك بالله، حبك لله، هذه كلها قوة جذب فقلت: يا محمد، إن قومك قد قالوا لي عنك: كذا و كذا، فو الله ما برحوا يخوِّفونني من أمرك حتى سددتُ أذنيَّ بقطن لئلا أسمع قولك، ثم أبى اللهُ إلا أن يسمعني شيئا منه فوجدتُه حسنا، فاعرض عليَّ أمرك، ما هي القصة؟ ما دعوتك، ومن أنت؟ من الذي أرسلك؟ ولماذا أرسلك؟ ما دليلك؟ النبي ما ربى أصحابه على الخنوع، فقد صلى الظهر ركعتين يوماً، واللهِ أحيانا هناك بعض الشيوخ لو غلطوا لا يستطيع إنسان أن يصحِّح لهم، لكن النبي صلى الله عليه وسلم صلى ركعتين، فقال له بعضُ أصحابه: يا رسول الله، أقصُرتْ أم نسيت؟ فقال عليه الصلاة و السلام: كل هذا لم يكن،

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ صَلَّى بِنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الظُّهْرَ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ سَلَّمَ ثُمَّ قَامَ إِلَى خَشَبَةٍ فِي مُقَدَّمِ الْمَسْجِدِ، وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهَا، وَفِي الْقَوْمِ يَوْمَئِذٍ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ فَهَابَا أَنْ يُكَلِّمَاهُ، وَخَرَجَ سَرَعَانُ النَّاسِ، فَقَالُوا: قَصُرَتْ الصَّلَاةُ، وَفِي الْقَوْمِ رَجُلٌ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْعُوهُ ذَا الْيَدَيْنِ، فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَنَسِيتَ أَمْ قَصُرَتْ؟ فَقَالَ: لَمْ أَنْسَ وَلَمْ تَقْصُرْ، قَالُوا: بَلْ نَسِيتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: صَدَقَ ذُو الْيَدَيْنِ فَقَامَ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ سَلَّمَ ثُمَّ كَبَّرَ فَسَجَدَ مِثْلَ سُجُودِهِ أَوْ أَطْوَلَ ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَكَبَّرَ ثُمَّ وَضَعَ مِثْلَ سُجُودِهِ أَوْ أَطْوَلَ ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَكَبَّرَ))

[أخرجه البخاري عن أبي هريرة في الصحيح]

(سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى * إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ)

(سورة الأعلى الآية: 6-7)

ما ربَّى أصحابا خانعين، ربى أصحابه يقظين، عندهم جرأة أدبية، سيدنا خالد اضطر إلى القتال بعد فتح مكة، وسيدنا سالم مولى أبي حذيفة راجعه، والنبي لما بلغه ذلك، قال:عَنْ سَالِمٍ عَنْ أَبِيهِ، قَالَ:

((بَعَثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ إِلَى بَنِي جَذِيمَةَ فَدَعَاهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَلَمْ يُحْسِنُوا أَنْ يَقُولُوا: أَسْلَمْنَا، فَجَعَلُوا يَقُولُونَ: صَبَأْنَا صَبَأْنَا، فَجَعَلَ خَالِدٌ يَقْتُلُ مِنْهُمْ وَيَأْسِرُ، وَدَفَعَ إِلَى كُلِّ رَجُلٍ مِنَّا أَسِيرَهُ حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمٌ أَمَرَ خَالِدٌ أَنْ يَقْتُلَ كُلُّ رَجُلٍ مِنَّا أَسِيرَهُ فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَا أَقْتُلُ أَسِيرِي وَلَا يَقْتُلُ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِي أَسِيرَهُ حَتَّى قَدِمْنَا عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرْنَاهُ، فَرَفَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدَهُ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ خَالِدٌ مَرَّتَيْنِ))

[أخرجه البخاري عن سالم عن أبيه في الصحيح]

ثم قال لأصحابه: هل راجعه أحد؟ هل عارضه أحد؟ قالوا: نعم، سالم مولى أبي حذيفة، قال: الحمد لله، على ماذا حمد اللهَ النبيُّ الكريم؟ على أنه ربَّى أصحابه لا يسكتون على الخطأ، ربى أصحابه لا يقيمون على ضيم، ربى أصحابه علماء حكماء، ربى أصحابه يحاسبون .

مرة سيدنا عمر، شخص أراد أن يتقرَّب منه، فقال: واللهِ ما رأينا خيرا منك بعد رسول الله، ما هذه العظمة؟ نظر إليهم، فذاك ظن أنه سيُسرُّ بكلامه، فحدَّ إليهم النظر حتى كاد يأكلهم بنظراته، فقال أحدهم: لا واللهِ رأينا من هو خير منك، قال: من هو؟ قال: أبو بكر، فقال عمر رضي الله عنه: واللهِ كان أبو بكر أطيبَ من ريح المسك، وكنت أنا أضلَّ من بعيري، لقد كذبتم جميعا وصدق عدَّ سكوتهم كذبا)قال له: فاعرضْ علي أمرك، فعرض عليه أمرَه، وقرأ لي سورة الإخلاص والفلق، فو الله ما سمعتُ قولاً أحسنَ من قوله، ولا رأيت أمرا أعدل من أمره، عند ذلك بسطتُ يدي له وشهدتُ أنه لا إله إلا الله و أن محمدا رسول الله، ودخلت في الإسلام

هل استجاب رسول الله لطلب الطفيل، وكيف دعا ذويه إلى الإسلام ؟

قال الطفيلُ:

((ثم أقمت في مكة زمنا تعلمتُ فيه أمورَ الإسلام، وحفظت فيه ما تيسِّر لي من القرآن، ولما عزمت على العودة إلى قومي، قلتُ: يا رسول الله، إنني امروٌ مُطاع في عشيرتي، وأنا راجع إليهم، وداعيهم إلى الإسلام، فادعُ اللهَ أن يجعل لي آية تكون لي عونا فيما أدعوهم إليه، فقال: اللهم اجعل له آية، فخرجت إلى قومي حتى إذا كنت في موضع مشرف على منازلهم وقع نورٌ فيما بين عيني مثلُ المصباح، فقلت: اللهم اجعله في غير وجهي، فإني أخشى أن يظنوا أنها عقوبة وقعت في وجهي لمفارقة دينـهم .فإذا كان الشخص مقيما على دينٍ ضالٍّ وخرج منه، هؤلاء المضلّلون يتوعَّدونه

بمصيبة كبيرة قال: فتحوَّل النورُ فوقع في رأس سوطي، فجعل الناسُ يتراءون ذلك النورَ في سوطي كالقنديل المعلَّق، وأنا أهبط إليهم من الثنية، فلما نزلتُ أتاني أبي، وكان شيخا كبيرا، فقلت: إليك عني يا أبت، فلستُ منك ولستَ مني، قال: و لِم يا بني؟ ماذا فعلنا لك؟ قلت: قد أسلمتُ وتابعت دين محمد صلى الله عليه و سلم، قال: أي بني ديني دينك، أنا على دينك، لأنه كبير معروف وشهم وصاحب مروءة، فقال له: اذهب واغتسل و طهِّر ثيابَك ثم تعالَ حتى أعلمك ما عُلِّمت، فذهب فاغتسل وطهَّر ثيابه، ثم جاء فعرضتُ عليه الإسلام فأسلم، ثم جاءت زوجتي، فقلت لها: إليكِ عني، لستُ منكِ ولستِ مني، قالت: و لِم بأبي أنت وأمي؟ فقلت: فرَّق بيني وبينك الإسلام، طبعا رسم خطَّة ذكية، هو لا يتخلى عنها، ولكن يقول ذلك حتى يدفعها إليه، لأني أسلمت و تابعتُ محمدا صلى الله عليه و سلم ، قالت: فديني دينك .أضرب لكم مثلاً: شخص لـه معمل صغير، صاحب متجر، وعنده صانعان أو ثلاثة وبعض الموظفين، فإذا كان هناك إحسان منه وإكرام، فهذا الموظَّف يتابعك، ويأتي معك إلى الجامع، أنت هديته وأنت لا تدري، مكانتك العلية واستقامتك و ترفُّعك وكرمك جعلك ملءَ سمعه و بصره، فإذا نطقت بالحق تابعك، فكل صاحب عملٍ من الممكن أن كل من حوله في العمل يتابعونه، ويهتدون بهديه، يقلِّدونه و لو تقليدا، فالإنسان لايستهين بعمله، ربما كان عملُك ييسّر لك طريقاً إلى الله، ربما كان عملك طريقا للدعوة إلى الله قال لها: إذاً: فاذهبي و تطهَّري من ماء ذي الشرى، و ذو الشرى صنم لدوس حوله ماءٌ، فقالت: بأبي أنت وأمي أتخشى على الصبية شيئا من ذي الشرى؟ فقلتُ: تبًّا لكِ و لذي الشرى، قلتُ لك: اذهبي واغتسلي هناك بعيدا، وأنا ضامن لكِ ألا يفعل هذا الحجرُ الأصمُّ شيئاً))

ومرةً استيقظت قبيلة صباحاً فرأت صنمها قد بال الثعلبُ على رأسه، فقال الشاعرُ:

أربٌّ يـبول الثعلبانُ برأسه　　　لقد ضلَّ من بالت عليه الثعالبُ

ما هذا الإله؟ وهناك قبيلة ثانية صنعت صنما من تمر، فلما جاعت أكلته، فقيل: أكلت ودٌّ ربَّها، كم هناك من تفكير ضعيف، والله إنك لتجد في شرق آسيا أناساً يعبدون أصناما من دون الله، وتجد أمام الصنم فواكه من أرقى أنواع الفواكه، فسألوا واحدا: لماذا هذه الفواكه؟ قالوا: ليأكلها الصنمُ في الليل، ثم بدا أن الرهبانُ يأكلونها في الليل، وليس الصنم فهو من حجر ، أطباء، ومثقَّفون، أصحاب إجازات علمية، ومدراء معامل، يدخل إلى معبد يجد صنم بوذا و أمامه الفواكه الشهية يعبده من دون الله، وتفسير ذلك أن التَّديّن فطريٌّ في الإنسان، فالسعيد من عرف الإله الحقيقي، والشقي من التبس عليه الأمرُ، وظنَّ أن هذا الصنم إلها وهو ليس كذلك، لكن كل إنسان بحاجة فطرية إلى التديّن، إلى أن يعبد عظيما، لذلك إما أن تكون عبدا لله ، وإما أن تكون عبداً لعبد لئيم، أو أن تكون عبدا لفكرة سخيفة، أو عبـدا لصنم أجوف، أو عبداً لشيء لا يقدم ولا يؤخِّر .

أبو هريرة كان أول من استجاب لدعوة الطفيل :

قال:

((ثم دعوتُ دوسا، دعا قومه فأبطئوا عليه، وما استجابوا، كانوا غارقين في الزنا و الربا، (الربا عدوان على أموال الناس، والزنا عدوان على أعراض الناس إلا أبا هريرة كان أولَّ ثمرة من ثمار سيدنا الطفيل، فقد كان أسرع الناس إسلاما))

ما أحدث رجلٌ أخًا في الله إلا أحدث اللهُ له درجة في الجنة، أنت كم واحد؟ وحدي، خير إن شاء الله، ما تمكّنت في هذه السنوات العشر أن تقنع واحدا بالدين؟ تحمل إنسانا على التوبة، أما عندك أقارب؟ أما عندك أخوات؟ أما عندك أولاد أخوة وأخوات؟ أما عندك جيران؟ أما لك أصحاب؟ أليس لك زملاء؟ ما استطعتَ أن تقنع واحدا، واللهِ هذه مشكلة، لكن هناك أخ، يقول لك: أنا أقنعت خمسة عشر آخر، قال تعالى:

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً)

(سورة النحل الآية: 120)

لا بدَّ أن تنتقل من طور التلقي للإلقاء، من طور السماع للتكلم، ومن طور الأخذ للعطاء، قال عليه الصلاة و السلام: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا وَحَفِظَهَا وَبَلَّغَهَا فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، ثَلَاثٌ لَا يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ: إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَمُنَاصَحَةُ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَلُزُومُ جَمَاعَتِهِمْ فَإِنَّ الدَّعْوَةَ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ))

[أخرجه الترمذي في سننه عن عبد الله بن مسعود]

وقال عليه الصلاة والسلام: عَنْ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ:

((خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ))

[أخرجه البخاري عن عثمان في الصحيح]

وعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ الْجُهَنِيِّ، قَالَ:

((خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَحْنُ فِي الصُّفَّةِ، فَقَالَ: أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُوَ إِلَى بُطْحَانَ أَوْ الْعَقِيقِ فَيَأْخُذَ نَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ زَهْرَاوَيْنِ بِغَيْرِ إِثْمٍ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَلَا قَطْعِ رَحِمٍ، قَالُوا: كُلُّنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: فَلَأَنْ يَغْدُوَ أَحَدُكُمْ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى الْمَسْجِدِ فَيَتَعَلَّمَ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ خَيْرٌ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ وَإِنْ ثَلَاثٌ فَثَلَاثٌ مِثْلُ أَعْدَادِهِنَّ مِنْ الْإِبِلِ))

[أخرجه أبو داود عن عقبة بن عامر الجهني في سننه]

يسمع دروس العلم، ويسمع تفسير آيات، وتفسير أحاديث، شيء من السيرة، لا بد أن تسجل و تراجع الأمر وتحفظه، إذا جلست في مجلس تلقي هذا الشيء فلا تعرف كم إنسان يستفيد منك ؟ انظروا إلى هذه الآية ما أجملها، قال تعالى:

(وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً)

(سورة المائدة الآية: 32)

أحيانا يتفضل الله عز وجل عليك بهداية إنسان، وهذا الإنسان تجد أخوانه و أخواته و أولاد أخوته وأخواته وجيرانه وشركائه ، كلهم اهتدوا بهدايته، وتزوج امرأة مسلمة و أنجب أولادا صالحين، يمكن بعد عشرين سنة، تجدهم وقد صاروا مئتي إنسان، كلهم في صحيفتك، لذلك أعظم تجارة أن تتاجر مع الله، وأعظم عمل أن تدعو إلى الله، إنها صنعة الأنبياء، قال تعالى:

(وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي)

(سورة طه الآية: 41)

هناك أخوان كثيرون، همُّهم الأول نشرُ الحق، همهم الأول الدعوة إلى الله، همهم الأول مداراة الناس لهدايتهم، فلعلهم يأخذون بأيديهم إلى الله عز وجل .

كيف علم النبي الطفيل فن الدعوة إلى الله ؟

قال الطفيل:

((جئتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ومعي أبو هريرة، فقال لي النبي عليه الصلاة و السلام: ما وراءك يا طفيل؟ ما الذي حدث معك؟ فقلت: قلوب عليها أكنة ، و كفر شديد، ولقد غلب على دوس الفسوق والعصيان، فلا أمل فيهم، فقام عليه الصلاة و السلام، فتوضأ و صلى ورفع يديه إلى السماء، فقال أبو هريرة: فلما رأيته كذلك خِفتُ أن يدعو على قومي فيهلكوا، فقلت: واقوماه، الجماعة هلكوا، لكن النبي عليه الصلاة و السلام جعل يدعو لهم، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَدِمَ طُفَيْلُ بْنُ عَمْرٍو الدَّوْسِيُّ وَأَصْحَابُهُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ دَوْسًا عَصَتْ وَأَبَتْ فَادْعُ اللَّهَ عَلَيْهَا، فَقِيلَ: هَلَكَتْ دَوْسٌ، قَالَ: اللَّهُمَّ اهْدِ دَوْسًا وَأْتِ بِهِمْ))

[أخرجه البخاري في الصحيح]

ثم التفت إلى الطفيل، وقال: ارجع إلى قومك وارفق بهم، وادعهم إلى الإسلام (كن عندك حكمة، استوعبهم)قال الطفيل: فلم أزل بأرض دوس أدعوهم إلى الإسلام حتى هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، ومضت بدرٌ و أحد و الخندق، فقدمت على النبي و معي ثمانون بيتا من دوس، قال: حتى أسلموا وحسن إسلامهم، فسُرَّ بنا رسول الله، وأسهم لنا مع المسلمين في غنائم خيبر، فقلنا: يا

رسول الله، اجعلنا ميمنتك في كل غزوة تغزوها، و اجعل شعارنا (مبرور)فقال الطفيل: ثم لم أزل مع رسول الله حتى فتح الله عليه مكة، فقلت : يا رسول الله، ابعثني إلى ذي الكفَّين، ما ذو الكفين؟ ذو الكفين صنمُ عمرو بن حمحم، حتى أحرقه، فأذن له النبيُّ صلى الله عليه و سلم، فسار إلى الصنم في سرية من قومه فلما بلغه وهمَّ بإحراقه، اجتمع حوله النساء والرجال والأطفالُ يتربَّصون به الشرَّ، وينتظرون أن تصعقه صاعقة إن هو نال ذا الكفين بضرٍّ، لكن الطفيل مؤمن يعيش مع الحقائق، وهناك أشخاص كثيرون يعيشون في الأوهام، يضع لك حذوة فرس، ما تصنع يا أخي؟ هذه أعقلها للعين، أو يعلن حذاءً صغيراً للصبيان، كلها أوهام، لا يحميك من الله إلا أن تستقيم على أمره، لا ملجأ من الله إلا إليه، قال تعالى:

(إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً)

(سورة الفتح الآية: 1)

يكتبها بعضهم على باب متجره، وطول النهار كذب وغش، فهل يفتح الله بالغش والكذب؟ فهؤلاء الذين حول الصنم خافوا أن تأتيهم صاعقة فيحترقون

لكن الطفيل أقبل على الصنم على مشهد من عُبَّاده، وجعل يضرم النارَ في فؤاده، وهو يرتجز، نظم ثلاثة أبيات من الشعر، قال له:

يا ذا الكفين لستُ من عُبَّادك   ميلادنا أقدمُ من ميلادك

وما إن التهمت النارُ الصنمَ حتى التهمت معها ما تبقَّى من الشرك في قبيلة دوس، أي آخر شيء في هذه القبيلة أنه أحرق لهم صنمهم، فأسلم القومُ جميعا، وحسُن إسلامهم))

اسأل نفسك أنت، ماذا فعلت؟ كلُّ إنسان بإمكانه أن يدعو إلى الله، وبإمكانه أن يتعلّم، وبإمكانه أن يلتقي مع أخوانه، مع أقربائِهِ وجيرانه، وبإمكانه أن ينقل لهم تفسير آية، وتفسير حديث، بإمكانه أن يهديهم .

ما هي الرؤية التي رآها الطفيل حينما كان في طليعة المسلمين لحرب مسيلمة الكذاب ؟

ظل الطفيلُ بن عمرو الدوسي بعد ذلك ملازما لرسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قُبض النبيُّ إلى جوار ربه، ولما آلت الخلافةُ من بعده إلى الصدِّيق، وضع الطفيلُ نفسه وسيفه وولده في طاعة خليفة رسول الله .

الإسلام عظيم عظمته أن المسلمين ينبغي أن يلتفوا حول رجل، المنافسات و المطاحنات والمناقشات و الخصومات و الصراعات، هذه لا ترضي اللهَ عز وجل، لا بد من التعاون، ولا بد من التكاتف، لا بد من أن نتعاون فيما اتفقنا، و يعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا ، لا بد من أن ندعم بعضنا بعضا، أما الطعن في الآخرين، وتقاذف التهم و المهاترات، هذا الذي يضعف المسلمين .

ولما نشبت حروب الردة نفر الطفيلُ في طليعة جيش المسلمين لحرب مسيلمة الكذاب ، و معه ابنه عمرو، وفيما هو في طريقه إلى اليمامة رأى رؤيا، فقال لأصحابه:

((إني رأيت رؤيا فعبِّروها لي، قالوا: وما رأيت؟ قال: رأيت أن رأسي قد حُلِق، ليس فيه شعر، وأن طائرا قد خرج من فمي، وأن امرأة أدخلتني في بطنها، وأن ابني عمرًا جعل يطلبني حثيثا، لكنه حيل بيني و بينه، قالوا: خيرا، قال: أمّا أنا فإني أوَّلتها، اسمعوا تفسيرها، (وهذا الإمام مالك، إمام دار الهجرة رأى في المنام ملك الموت رؤيا غريبة جدا، قال له: يا ملك الموت، كم بقي لي؟ ملك الموت لم يتكلم، وقال له مشيراً بيده: هكذا، فلما استيقظ اضطرب اضطراباً شديدا، يا ترى، خمس سنوات أم خمسة أشهر أم خمسة أسابيع أم خمسة أيام أم خمس ساعات أم خمس دقائق، أم خمس ثواني، احتار، فذهب إلى ابن سيرين، وكان من كبار مفسِّري الأحلام، قال: يا ابن سيرين، رأيتُ ملك الموت وسألته كم بقي لي من عمري؟ فأشار بهذه الإشارة، فما تفسير هذه الرؤيا؟ قال له: يا إمام دار الهجرة، قال لك ملك الموت: إن هذا السؤال من خمسة أشياء لا يعلمها إلا اللهُ، هذا التفسير، هذا السؤال من خمسة أشياء لا يعلمها إلا الله)) .

فهذا سيدنا الطفيل، قال: أما أنا واللهِ لقد أوَّلتها، أما حلق رأسي فذلك أنه يُقطع، ويموت شهيدا، وأما الطائر الذي خرج من فمي فهو روحي، وأما المرأة التي أدخلتني في بطنها فهي الأرض تُحفر لي فأُدفن في جوفها، وإني لأرجو أن أُقتل شهيدا .

أنا سمعت أكثر من عشر قصص، المؤمن الصادق إذا اقترب أجلُه فربُّنا عز وجل يعلمه بذلك، ومنذ أسبوع هناك امرأة صالحة عمرها ثمانية و أربعون عاماً، فقالت لزوجها: اقترب أجلي، واخترت الرفيق الأعلى، يا امرأة، ما هذا الحديث؟ ليس بكِ بلاء، يقول لنا زوجها: ودَّعت أولادها وبناتها واحداً واحداً، وبعد أيام ثلاثة قبل أن تدخل بيتها جلست على حافة البيت، وأسلمت روحها لله عز وجل، في الليل رأتها ابنتُها في المنام، قالت لها: يا بنيتي، أنا لم أمُت، لا تقيموا عزاءً، أقيموا مولدا لي، فقد أكرمني ربي، يقول زوجها: فأقمنا مولداً و بقي إلى الساعة الثانية ليلا، في يوم وفاتها، فأنا لاحظت أن المؤمن من تكريم الله له أنه يعلمه أن الأجل قد دنا، وعلى كلٍّ كلٌّ واحد منا لما يضعف يضع نظارات على عينيه و يصبح شعره أبيض، ويقول لك: صار معي قليل من الآلام، وحط جسمي، هذه كلها إشارات لطيفة من الله، أن يا عبدي اللقاء قد اقترب، أنت مستعدٌّ للقاء .

وأما طلب ابني لي فهو يعني أنه يطلب الشهادة التي سأحظى بها إن شاء الله، إذا أذن الله، لكنه يدركها فيما بعد، يعني يدرك ابنه الشهادة بعد استشهاد الطفيل بحين .

والحمد لله رب العالمين

السيرة - رجال حول الرسول - الدرس (16-50) : سيدنا جعفر بن أبي طالب
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 25-01-1993

بسم الله الرحمن الرحيم

أهمية السيرة من حيث التطبيق العملي :

أيها الأخوة الأكارم، لا زلنا مع أصحاب رسول الله رضوان الله عليهم أجمعين وصحابي اليوم: سيدنا جعفر بن أبي طالب .

قد أكدت لكم من قبل أن الإنسان من خصائصه أنه يتعلق بالأشخاص أكثر مما يتعلق بالأفكار، لذلك إذا درسنا حياة صحابي جليل ورأيناه وقد تمثلت به القيم الإسلامية فهذه حقيقة مع البرهان عليها، ولأن ترى القيم الإسلامية مجسدةً في شخص جليل أبلغ بكثير من أن تقرأها في كتاب، أو أن تطلع عليها في نشرة أو ما شاكل ذلك .

ومن هنا كان تدريس السيرة كما يرى بعض العلماء فرض عين، لأن الله سبحانه وتعالى خاطب النبي عليه الصلاة والسلام، أو حدثنا عن النبي صلى الله عليه وسلم، فقال:

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآَخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً)

(سورة الأحزاب الآية: 21)

كيف يكون هذا النبي وأصحابه الكرام أسوة لنا حسنة، إن لم نقف على سيرته، وعلى مواقفه من أصحابه، وإن لم نطّلع على سيرة الأبطال من أصحابه الذين كانوا بحق أبطالاً بكل ما في هذه الكلمة من معنى؟ .

جعفر بن أبي طالب من أولئك الذين اعتنقوا الإسلام في وقت مبكر :

فسيدنا جعفر بن أبي طالب، هو أخ لسيدنا علي بن أبي طالب، لكن هذا الصحابي الجليل له قصة وما أروعها من قصة، لقد انضم هذا الصحابي الجليل إلى ركب النور هو وزوجته أسماء بنت عميس منذ أول الطريق .

يعني هذا الذي يُسلم، أو يصطلح مع الله في وقت مبكر، في شبابه، هذا له شأن كبير، من كانت له بداية محرقة كانت له نهاية مشرقة، الذي يشب على طاعة الله شيء، والذي يتعرف إلى الله في وقت متأخر شيء آخر، وكلاً وعد الله الحسنى .

إذا تعرفت إليه وأنت شاب، ما الذي يحصل؟ تُشكل حياتك تشكيلاً إسلامياً، ألصق شيءٍ بحياتك عملك وزوجتك، فإذا كنت مسلماً حقاً، مؤمناً حقاً، تختار الزوجة المؤمنة الصالحة التي تعينك على طاعة الله، وإن كنت مؤمناً مسلماً حقاً، تختار العمل المهني الذي يرضي الله، وإذا عرفت الله في وقت مبكر تنامت هذه المعرفة، وتراكم هذا العلم، وتعمقت تلك التجربة، وكلما ازددت يوماً في عمرك، ازددت قرباً من الله عز وجل .

لذلك لا تنسوا نصيحة رسول الله: اغتنم خمساً قبل خمس، اغتنم شبابك قبل أن تكون صحتك شغلك الشاغل، قبل أن تنتقل من طبيبٍ إلى طبيب، ومن مستشفى إلى مستشفى، ومن تحليل إلى تصوير، إلى خزعة، إلى تحليل، قبل أن تدخل هذه المتاهات، اغتنم صحتك قبل سقمك، اغتنم فراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك .

فسيدنا جعفر انضم إلى ركب النور، انضم إلى جماعة المؤمنين، أشرق الهدى في نفسه، تعرّف إلى الله في سن مبكر، لقد أسلم على يدي سيدنا الصديق رضي الله عنه في وقت مبكرٍ جداً قبل أن يدخل النبي عليه الصلاة والسلام دار الأرقم بن الأرقم، وهي أول دارٍ ظهرت فيها الدعوة الإسلامية .

الأذى الذي لحق بجعفر وزوجه من قبل قريش :

أيها الأخوة، لقي الفتى الهاشمي جعفر بن أبي طالب، وزوجه الشابة، من أذى قريش و نكالها ما لقيه المسلمون الأولون، أليس الله قادراً على أن يخلق النبي وأصحابه في عصرٍ ليس فيه كافر واحد؟ هل هذا يعجز الله عز وجل؟ لو خلق النبي وأصحابه الكرام الكثر في بلدة وحدهم، فلما جاء بالدعوة آمنوا به جميعاً وأحبوه جميعاً، وانتهى الأمر، لا غزوات، ولا حروب، ولا مناقشات، ولا مؤامرات، ولا إخراج، ولا هجرة إلى المدينة، ولا إلى الحبشة، لا شيء من هذا كله، وأسسوا مجتمعاً إسلامياً، وسعدوا به، ثم انقضت حياتهم، نحن من بعدهم، فكيف نتأسّى بهم فيما لو وجدنا الصعوبات؟ لكن هكذا شاءت حكمة الله:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ)

(سورة الأنعام الآية: 112)

وهذه آية ثانية:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً)

(سورة الفرقان الآية: 31)

ليظهر جهاده، ليظهر صدقه، ليظهر ثباته، والله يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في شمالي على أن اترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه، عرضوا عليه أجمل فتاة، عرضوا عليه أن يكون رئيسهم، عرضوا عليه أن يكون أغناهم وأكثرهم مالاً، آثر النبي عليه الصلاة والسلام الدعوة إلى الله، كيف تتأسّى به؟ كيف تجعله نبراساً لك؟ كيف يكون قدوة لك؟ الجواب: أن تكون حياة النبي وسيرته كما عرفناها .

فاسمعوا هذه الكلمة أيها الأخوة، إن لم يجر على النبي ما يجري على البشر لا يكون سيد البشر، يجوع، ويخاف، ويتألم، ويؤلمه الهجاء، ويؤلمه التكذيب، تؤلمه السخرية، يؤلمه خذلان قومه له، إنه بشر كأي بشر، لكنه كان سيد البشر .

كان هذا الصحابي الجليل يعلم أن طريق الجنة مفروش بالأشواك لا بالزهور، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْلَمَةَ بْنِ قَعْنَبٍ، حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ عَنْ ثَابِتٍ وَحُمَيْدٍ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ))

[أخرجه مسلم عن أنس بن مالك في الصحيح]

حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات، إن عمل الجنة حزن بربوة وإن عمل النار سهل بسهوه، من السهولة بمكان أن يسلك الإنسان طريق النار، يكفي أن يسترسل مع شهواته، ومع نزواته، ومع خطراته، ومع رغباته، ومع ميوله للدنيا، يكفي أن يعيش كما يحلو له، أن يأكل ما يشتهي، أن يلتقي بمن يشتهي، أن ينظر إلى ما يشتهي، وانتهى الأمر.

لذلك كان هذا الصحابي الجليل يعلم علم اليقين أن سلعة الله غالية حتى إن سيدنا علي كرم الله وجهه، قال: طلب الجنة بغير عمل ذنب من الذنوب، وهو استهزاء بالله، أن تطلب الجنة بلا عمل، أن تطلب الجنة بالأماني فهذا استهزاء .

أيها الأخوة، حديث تعرفونه جميعاً، فلو وقفنا على دقائقه، وعلى أبعاده لأصبحت حياتنا حياة أخرى، النبي الكريم وهو الفطن، وهو أول خلق الله، يعرّف الذكاء، قال: الكيس من هو؟ العاقل، من هو؟ ذو العقل الراجح، من هو؟ ذو العقل الكبير، من هو؟ عَنْ ضَمْرَةَ بْنِ حَبِيبٍ عَنْ أَبِي يَعْلَى شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا ثُمَّ تَمَنَّى عَلَى اللَّهِ))

[أخرجه ابن ماجه في سننه]

الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ، معنى دان؛ يعني ضبط نفسه، ضبط سمعه، ضبط بصره، ضبط لسانه، ضبط ما يدخل في بطنه، ضبط حركة يده، ضبط حركاته وسكناته، ضبط قلبه مما سوى الله، ضبط فكره أن يعمل لغير الله، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ .

إذا: الجاهل مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَه هَوَاهَا، دائماً مع هوى نفسه، مع نزواتها، كلام العوام، الله يعفو عنا، بلوى عامة يا أخي، الله يتوب عليّ يا سيدي، ما لنا غير عفوه وكرمه، هذه كلها زعبرة .

هجرته وزوجه إلى الحبشة :

أيها الأخوة، لكن الكفار ضيّقوا على أصحاب النبي، وشددوا عليهم، وأحكموا عليهم الخناق، وقاطعوهم، ونكلوا بهم وعذبوهم، إلى درجة أن حياة المؤمنين في مكة صارت لا تطاق .

لذلك فالنبي عليه الصلاة والسلام، وهو الحريص على أصحابه، الحريص على سلامتهم، الحريص على راحتهم ، أمرهم بالهجرة إلى بلد فيها ملك صالح، فاستأذن سيدنا جعفر بن أبي طالب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يهاجر مع زوجته، ونفرٌ من الصحابة إلى أرض الحبشة، فأذن لهم وهو حزين.

أؤكد لكم كيف أن أصحاب النبي أحبوا النبي، وهو بادلهم حباً بحب، يعني كان يتمنى عليه الصلاة والسلام أن يبقوا إلى جانبه، لكنها مشيئة الله، نرجو الله أن نكون من هؤلاء، تجد أخاً يرغب في أن يسافر، و المصلحة أن يسافر، يأذن له أبوه أن يسافر، لكن قلبه يتفطر، يتمنى أن يبقى إلى جانبه، هذا الشيء طبيعي بين المؤمنين، المؤمنون بعضهم لبعض نصحة متوادون، ولو ابتعدت منازلهم، والمنافقون بعضهم لبعض غششة متحاسدون، ولو اقتربت منازلهم .

مضى ركب المهاجرين الأولين إلى أرض الحبشة وعلى رأسهم جعفر، منذ أن أسلموا لم يذوقوا طعم الأمن، لكنهم حينما هاجروا إلى هذه الأرض ذاقوا حلاوة الأمن، واستمتعوا بحلاوة العبادة، فليس هناك كفار يستفزونهم، ولا مشركون يضيقون عليهم الخناق .

بالمناسبة وأقول هذا كثيراً: العبد المؤمن يمتحن بالرخاء، ففي الرجاء، يقول: الحمد لله، لأن الصحة طيبة، ومعك مال، لكن الله يمتحن بالصعوبات لا بالرخاء، فإن أخذنا مركبة، فهي بالنزلة لها كرات رائعة، لكن بالطلوع كيف حالها؟ والله حَميت، والله انقطعت، فالبطولة لا بالنزلة، بل بالطلعة، بالرخاء الكل جيدون، لكن بالشدة يتساقط الكثيرون، قال تعالى:

(هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً)

(سورة الأحزاب الآية: 11)

لذلك أروع شيء بحياة المؤمن، حينما يأتيه قضاء يكرهه، فيقول: الحمد لله رب العالمين، النبي علمنا هذا الشيء،

((اللهم أشكو إليك ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا رب المستضعفين، وأنت ربي إلى من تكلني، إلى صديقٍ يتجهمني، أو إلى عدوٍ ملكته أمري، إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، ولك العتبى حتى ترضى، لكن عافيتك أوسع لي))

كيف قدم جعفر رسالة الإسلام للنجاشي حينما اتهمت قريش الإسلام بأنه مفرق الجماعات ؟

الآن قريش حينما علمت أن بعض الصحابة الكرام هاجروا إلى الحبشة، ونجوا من تعذيبها ونكالها، الشيء الذي لا يصدق أن الكافر يحب إيقاع الأذى بالمؤمنين، ولو لم يستفد شيئاً، حباً للأذى، فكبر على قريش أن ينجو هؤلاء الشباب، فأرادت أن تكيد لهم، وأن ترجعهم مقهورين إلى مكة، ولنترك الكلام لأم سلمة رضي الله عنها، تروي لنا الخبر كما عاينته، لأنها كانت إحدى المهاجرات، فإلى رواية أم سلمة لخبر أصحاب رسول الله الذين هاجروا إلى الحبشة، وعلى رأسهم سيدنا جعفر بن أبي طالب .

قالت:

((لما نزلنا أرض الحبشة، لقينا فيها خير الجوار، فأمِنّا على ديننا، وعبدنا الله ربنا من غير أن نؤذى، أو نسمع شيئاً نكرهه،))

يعني بالمناسبة، إذا كان هناك بلد، وبإمكان المسلم أن يصلي، ويصوم، ويحضر مجالس العلم، ويلتقي مع أخوانه، فهذه نعمة كبرى، لا يعرفها إلا من فقدها، هذه نعمة اشكروا الله عليها.

وتتابع أم سلمة تقول: أرسلت إلى النجاشي رجلين جلدين، وانتقت قريش أذكى رجلين، وأقوى رجلين، وأكثرهم دهاءً، هما عمرو بن العاص، وعبد الله بن أبي ربيعة، وبعثت معهما بهدايا كثيرة إلى النجاشي ولبطارقته مما كانوا يستظرفونه من أرض الحجاز، ثم أوصتهما بأن يدفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن يكلما ملك الحبشة، حتى إذا أراد ملك الحبشة أن يحكم وأراد أن يستشير البطاركة، يكونون كلهم قد قبضوا الثمن آخذين الهدايا الثمينة، فيقولون: والله يا سيدي علينا أن نطردهم، هكذا المصلحة .

قالت: فلما قدما الحبشة لقيا بطارقة النجاشي ودفعا إلى كل بطريق هديته، فلم يبقَ أحد منهم إلا أهديا إليه، وقالا له: إنه قد حل في أرض الملك غلمان من سفهائنا، قال تعالى:

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آَمِنُوا كَمَا آَمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آَمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ * وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آَمَنُوا قَالُوا آَمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)

(سورة البقرة الآية: 11 - 15)

إنه قد حل في أرض الملك غلمان من سفهائنا صبؤوا عن دين آبائهم وأجدادهم، وفرقوا كلمة قومهم، فإذا كلمنا الملك في أمرهم فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا، من دون أن يسألهم عن دينهم، فإن أشراف قومهم أبصر بهم، واعلم بما يعتقدون، وكل ما ورد في هذه الساعة برواية أم سلمة.

((قالت أم سلمة: ولم يكن هناك شيء أكره لعمرو وصاحبه من أن يستدعي النجاشي أحداً منا، ويسمع كلامه))

يعني كان عمرو بن العاص يتمنى إن يلتقي بالملك، وأن يقنعه، وأن يسلمهم له، من دون أن يسألهم، من دون أن يتصل بهم .

يا أيها الأخوة الكرام، اسمعوا هذه الحقيقة: الحق لا يخشى البحث، ولا يستحي به، ولا تحتاج أن تكذب له، ولا أن تكذب عليه، ولا أن تبالغ به، ولا أن تقلل من خصومه، الحق حق، والباطل باطل، لذلك إذا كنت على الحق فلا تخشَ أحداً، قال تعالى:

(فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ)

(سورة النمل الآية: 79)

إذا كنت على الحق فلا تخشَ لومة لائم)

ثم أتيا النجاشي وقدما إليه الهدايا فاستظرفها، شيء جميل، ثم كلماه فقالا: أيها الملك، والله سبحانه يقول:

(إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً * وَأَكِيدُ كَيْداً)

(سورة الطارق الآية: 15-16)

(وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)

(سورة آل عمران الآية: 54)

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ)

(سورة الأنفال الآية: 36)

قالوا أيها الملك: إنه قد آوى إلى مملكتك طائفة من أشرار غلماننا، انظروا لكلمتهما أشرار:

(قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَاناً وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ)

(سورة يوسف الآية: 77)

((قد جاؤوا بدين لا نعرفه لا نحن ولا أنتم، ففارقوا ديننا، ولم يدخلوا في دينكم، وقد بعثنا إليك أشراف قومهم، من آبائهم، وأعمامهم، وعشائرهم، لتردهم إليهم، وهم أعلم الناس بما أحدثوا من فتنة عمن كان في مجلس النجاشي، البطاركة، هؤلاء المستشارون، نظر النجاشي إلى بطاركته، فقال البطارقة:

صدقا أيها الملك، لقد فعلت الهدايا فعلها، فإن قومهم أبصر بهم، وأعلم بما صنعوا، فردهم إليهم ليروا رأيهم فيهم، فغضب النجاشي، وقال: سننظر حتى نتحقق،))

فلماذا غضب النجاشي؟ لأن البطارقة أشاروا عليه أن يطردهم من دون أن يستمع إليهم، الله عز وجل علمنا بالقرآن أن أخطر صفة لمن كان ملكاً، أو أميراً إن أراد العدل أن يتحقق بنفسه، قال تعالى:

(إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ * أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ)

(سورة النمل الآية: 23 - 27)

هذه الصفة يجب أن يتحلى بها كل إنسان وليّ أمر الناس)

قالت: فغضب الملك غضباً شديداً، من كلام بطارقته، وقال: لا والله لا أسلمهم لأحد حتى أدعوهم، وأسألهم عما نسب إليهم، ثم أرسل النجاشي يدعونا إلى لقائه، فاجتمعنا قبل الذهاب إليه، وقال بعضنا لبعض: إن الملك سيسألكم عن دينكم فاصدعوا بما تؤمنون به، الملك نصراني، وليتكلم عنكم جعفر بن أبي طالب، هكذا النظام، رئيس الوفد يتكلم، ولا يتكلم أحد غيرهقالت أم سلمة: ثم ذهبنا إلى النجاشي فوجدناه قد دعا بطاركته، فجلسوا عن يمينه وعن شماله، وقد لبسوا طيالستهم، واعتمروا قلانسهم، ونشروا كتبهم بين أيديهم، فلما استقر بنا المجلس، التفت إلينا النجاشي وقد توجه إلينا، وقال: ما هذا الدين الذي استحدثتموه لأنفسكم، وفارقتم بسببه دين قومكم، ولم تدخلوا في ديني، ولا في دين أي من هذه الملل؟ تقدم منه جعفر بن أبي طالب، وقال أيها الملك:

كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، وبقينا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه، وصدقه، وأمانته، وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده، ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وقد أمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم ، وحسن الجوار، والكف عن المحارم، وحقن الدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده، ولا نشرك به شيئاً، وأن نقيم الصلاة ، ونؤتي الزكاة، ونصوم رمضان، فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من عند الله، فأحللنا ما أحل لنا، وحرمنا ما حرم علينا، فما كان من قومنا أيها الملك، إلا أن عَدَوا علينا، فعذبونا أشد العذاب ليفتنونا عن ديننا، ويردونا إلى عبادة الأوثان، فلما ظلمونا، وقهرونا، وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من

سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا ألا نظلم عندك، ما هذه البلاغة؟ هذا توفيق الله عز وجل، إذا كان الله معك فمن عليك .

قالت أم سلمة: فالتفت النجاشي إلى جعفر بن أبي طالب، وقال له: هل معك شيءٌ مما جاء به نبيكم عن الله، قال: نعم، قال: فاقرأه عليّ، فقرأ، وقد انتقى له سورة مريم:

(كهيعص * ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا * إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً * قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً * وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آَلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً)

(سورة مريم الآية: 1 - 6)

حتى أتم صدراً من السورة .

((قالت أم سلمة: فبكى النجاشي، حتى اخضلت لحيته بالدموع، وبكى أساقفته حتى بللوا كتبهم، لِما سمعوا من كلام الله، وهنا قال لنا النجاشي: إن هذا الذي جاء به نبيكم، والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة، هذا هو الحق، ثم التفت إلى عمرو وصاحبه، وقال لهما: انطلقا فلا والله لا أسلمهم إليكما))

ما هو الكيد الذي تربص به عمرو بن العاص قبل إسلامه لاستئصال الإسلام وأهله في الحبشة ؟

قالت أم سلمة:

((فلما خرجنا من عند النجاشي، توعدنا عمرو بن العاص، وقال لصاحبه: والله لآتين الملك غداً، ولأذكرن له من أمرهم ما يملأ صدره غيظاً منهم، ويشحن فؤاده كرهاً لهم، ولأحملنّه على أن يستأصلهم من جذورهم، فقال له عبد الله بن أبي ربيعة: لا تفعل يا عمرو، فإنهم من ذوي قرابتنا، وإن كانوا قد خالفونا، فكان الثاني ألطف من صاحبه أجل، فقال له عمرو: دع عنك هذا، والله لأخبرنه بما يزلزل أقدامهم، والله لأقولن له، يا أيها الملك، إنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد من عباد الله وليس ابن الله، هذه تقرب أجلهم، هكذا رأيه . فلما كان الغد دخل عمرو على النجاشي، وقال له: أيها الملك إن هؤلاء الذين آويتهم وحميتهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً: فأرسل إليهم وسلهم عما يقولون فيه . قالت أم سلمة: فلما عرفنا ذلك نزل بنا الهم والغم، ما لم نتعرض لمثله قط، وقال بعضنا لبعض: ماذا نقول في عيسى بن مريم، إذا سألكم عنه الملك؟ فقلنا؛ والله لا نقول فيه إلا كما قال الله عز وجل، ولا نخرج في أمره قيد أنملة، عما جاء به نبينا، وليكن بسبب ذلك ما يكون،))

هكذا المؤمن، يكون دائماً صادقاً مع الله سبحانه، ويتقيد بأمره، وقوله:

(قَالَ آَمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آَذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى)

(سورة طه الآية: 71)

هذا ما قاله فرعون للسحرة ، فاسمعوا الجواب :

(قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

(سورة طه الآية: 72 - 73)

ثم اتفقنا على أن يتولى الكلام عنا جعفر بن أبي طالب أيضاً، فلما دعانا النجاشي دخلنا عليه فوجدنا عنده بطاركته على الهيئة التي رأيناهم عليها من قبل، ووجدنا عنده عمرو بن العاص وصاحبه، فلما صرنا بين يديه بادرنا بقوله: ماذا تقولون في عيسى بن مريم؟ فقال له جعفر بن أبي طالب: إنما نقول فيه ما جاء به نبينا صلى الله عليه وسلم، قال النجاشي: ما الذي يقول فيه نبيكم؟ فأجاب جعفر، يقول عنه: إنه عبد الله ورسوله وروحه وكلمته التي ألقاها إلى مريم العذراء البتول .

فما إن سَمِع النجاشي قول جعفر حتى ضرب بيده الأرض، وقال: والله ما خرج عيسى بن مريم عما جاء به نبيكم مقدار شعرة، هذا هو الحق، عبد الله ورسوله وروحه وكلمته التي ألقاها إلى مريم العذراء البتول، فتناخرت البطاركة من حول النجاشي، تناخرت معناها، أخرجوا أصوات من أنوفهم، فقال النجاشي: وإن نخرتم، هذا الذي قالوا عنه هو الحق ثم التفت، وقال: اذهبوا فأنتم آمنون في أرضي، من سبكم غرم، ومن تعرض لكم عوقب، فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين، ثم نظر إلى عمرو وصاحبه، وقال: ردوا على هذين الرجلين هداياهم فلا حاجة لي بهما .

أرادوا أن يستأصلهم من جذورهم، لكن لم يستطيعوا، كن مع الله تَرَى الله معك، واترك الكل وحاذر طمعك، وإذا أعطاك من يمنعه، ثم من يعطي إذا ما منعك، إنما أنت له عبد.

((قالت أم سلمة: فخرج عمرو وصاحبه مكسورين، مقهورين، يجران أذيال الخيبة، أما نحن فقد أقمنا عند النجاشي بخير دارٍ مع أكرم جار))

أيها الأخوة، كن مع الحق ولا تبالِ، قال له يا غلام:

((لو أن الأمة اجتمعت على إن ينفعوك بشيء لم ينفعوك بشيء إلا قد كتب الله لك، ولو أن الأمة اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك بشيء إلا قد كتب الله عليك))

الفرح الذي غمر فؤاد النبي حينما قدم جعفر من الحبشة :

وفي السنة السابعة للهجرة غادر سيدنا جعفر مع نفر من المسلمين بلاد الحبشة متجهين إلى يثرب فلما بلغوها كان عليه الصلاة والسلام عائداً من خيبر بعد أن فتحها الله له، ففرح بلقاء جعفر فرحاً شديداً، حتى قال:

((والله ما أدري بأيهما أنا أشد فرحاً بفتح خيبر أم بقدوم جعفر))

هكذا علاقة المؤمنين، علاقة الحب، علاقة الشوق، علاقة الوفاء، علاقة المؤاثرة ، والمسلمون فرحوا كما فرح النبي عليه الصلاة والسلام .

كان سيدنا جعفر شديد الحدب على الضعفاء والمساكين، كثير البر بهم، حتى إنه كان يلقب بأبي المساكين، أخبر عنه أبو هريرة، فقال:

((كان خير الناس لنا معشر المساكين، فقد كان يمضي بنا إلى بيته فيطعمنا، حتى إذا نفد طعامه أخرج لنا العكة التي يوضع فيها السمن، وليس فيها شيء فنشقها، ونلعق ما علق بداخلها))

إليكم قصة استشهاده :

في أول السنة الثامنة للهجرة جهز النبي صلوات الله عليه جيشاً لمنازلة الروم في بلاد الشام، وأمر على هذا الجيش زيد بن حارثة، وقال:

((إذا قتل زيد أو أصيب فالأمير جعفر بن أبي طالب، فإن قتل جعفر أو أصيب فالأمير عبد الله بن رواحه، فإن قتل عبد الله بن رواحه أو أصيب فليختر المسلمون لأنفسهم أميراً))

فلما وصل المسلمون إلى مؤتة، وهي قرية واقعة على مشارف الشام في الأردن، وجدوا أن الروم قد أعدوا لهم مئة ألف تظاهرهم مئة ألف أخرى، من نصارى العرب، من قبائل لخم وجذام وقضاعة، أما جيش المسلمين فكان ثلاثة آلاف، وما إن التقى الجمعان ودارت رحى الحرب حتى خر زيد بن حارثة صريعاً مقبلاً غير مدبر، فما كان إلا أن أسرع جعفر بن أبي طالب وترجل عن ظهر فرسه، كانت له شقراء وثب عنها، وبدأ يقاتل الجيش مشياً على قدميه، وحمل الراية، وأوغل بها في صفوف الروم، وهو ينشد، فاسمعوا نشيده :

يا حبذا الجنة و اقترابها   طيبة وباردٌ شرابها

الروم روم قد دنا عذابها   كافرة بعيدة أنسابها

عليّ إذ لاقيتها ضرابها

وظل يجول في صفوف الأعداء بسيفه، ويصول حتى أصابته ضربة قطعت يمينه، فأخذ الراية يمينه، فأمسك الراية بشماله، فما لبث أن قطعت شماله، فأخذ الراية بصدره وعضديه، فما لبث أن أصابته ثالثة، فأخذ الراية منه عبد الله بن رواحه فما زال يقاتل بها حتى لحق بصاحبيه))

كيف تلقى النبي نبأ استشهاد جعفر ومن معه وماذا صنع ؟

بلغ النبي عليه الصلاة والسلام مصرع القواد الثلاثة، فحزن عليهم أشد الحزن، وانطلق إلى بيت ابن عمه جعفر، من شدة حزن النبي أراد أن يبلغهم هو بنفسه هذا النبأ المحزن، ليكون وقعه عليهم خفيفاً، انطلق إلى بيت جعفر فألفى زوجته أسماء تتأهب لاستقبال زوجها الغائب، فهي قد عجنت عجينها، وغسّلت بنيها، ودهنتهم، وألبستهم .

قالت أسماء:

((فلما أقبل علينا النبي عليه الصلاة والسلام، رأيت غلالة من الحزن توشح وجهه الكريم، كثرتْ المخاوف في نفسي، غير أني لم أشأ أن أسأله عن جعفر، مخافة أن أسمع منه ما أكره، فحيا وقال: ائتني بأولاد جعفر، فدعوتهم له، فهبوا نحوه فرحين مزغردين وأخذوا يتزاحمون عليه كلٌ يريد أن يستأثر به فأكب عليهم)).

أيها الأخوة، من يحب شخصاً يحب أولاده، هذه قاعدة صحيحة، فمحبة الآباء تورث محبة الأبناء

أقبل نحوهم، وتشممهم، وعيناه تذرفان من الدمع، فقلت: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، ما يبكيك؟ أبلغك عن جعفر وصاحبيه شيء، قال: نعم، وألقى الكلمة الفاجعة، لقد استشهدوا هذا اليوم، عندئذ غاضت البسمة من وجوه الصغار، لما سمعوا أمهم تبكي، وجمدوا في أمكنتهم، وكأن على رؤوسهم الطير، أما النبي عليه الصلاة والسلام فمضى وهو يكفكف عبراته، ويقول:

((اللهم اخلف جعفراً في ولده، اللهم اخلف جعفراً في أهله، ثم قال: لقد رأيت جعفراً في الجنة له جناحان مضرجان بالدماء، وهو مصبوغ القوادم))

إنها مرتبة عالية عند الله ، إنها الشهادة .

والله أهم ما في الدنيا طاعة الله، وما فيها شيء أفضل من القرب من الله عز وجل، ما لها وزن إلا أن تكون عند الله مرضياً، فإذا رضي الله عنك لا تسأل عن الدنيا، ابن آدم اطلبني تجدني فإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء .

والحمد لله رب العالمين

السيرة - رجال حول الرسول - الدرس (17-50) : سيدنا كعب بن مالك

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 01-02-1993

بسم الله الرحمن الرحيم

من هو الصحابي الذي ورد ذكره بالقرآن من حيث المعنى ووردت قصته في كتب الصحاح ؟

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس السابع عشر من دروس سيرة صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصحابي اليوم صحابي جليل ورد ذكره في القرآن الكريم، لا بالاسم، ولكن بالمضمون إنه: كعب بن مالك .

لو ألقيتُ أيها الأخوة على مسامعكم عشرات المحاضرات في فضيلة الصدق، بل في فضل الصدق، لما كانت هذه المحاضرات أبلغَ من هذه القصة التي يرويها هذا الصحابي الجليل عن نفسه، وبعد قليل سوف ترون أن الصدق هو شعار المؤمن، وأن المؤمن لا يكذب، وأنّ منجاته في الصدق، وأنه إذا صدق أكرمه الله عز وجل، وجعل الأمور كلها في صالحه .

فقد أخرج الإمام البخاري ومسلم حديث سيدنا كعب بن مالك، والقصة كلها يرويها هذا الصحابي الجليل بلسانه، وقد وردت في كتب التفسير كسبب لنزول آية عظيمة من سورة التوبة، ووردت في كتب السيرة، ووردت في كتب الحديث أيضًا، وروى هذه القصة الإمام البخاري، والإمام مسلم، وكلكم يعلم أن أعلى درجة في الأحاديث الصحيحة ما اتفق عليه البخاري ومسلم، وهذا الحديث، أو تلك القصة تعد من الطبقة الأولى .

ما معنى كلمة (يعاتب)في نص الحديث ؟

عَنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَقُولُ:

((لَمْ أَتَخَلَّفْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا إِلَّا فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، غَيْرَ أَنِّي تَخَلَّفْتُ عَنْ غَزْوَةِ بَدْرٍ، وَلَمْ يُعَاتَبْ أَحَدٌ تَخَلَّفَ عَنْهَا، إِنَّمَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُرِيدُ عِيرَ قُرَيْشٍ، حَتَّى جَمَعَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّهِمْ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ))

[أخرجه البخاري في الصحيح]

كلمة(يُعَاتَبْ) تعني أنّ النبي الكريم له حق عليك، أنت لستَ مستمعًا، أحيانا يظنّ الناس أنّ درس العلم مجرد محاضرة، وبعض الأشخاص يحضرها بل ينصرف عنها، فأنت لك أخوان مؤمنون، منضم إلى جماعة مؤمنة، لهم حق عليك، ولك حق عليهم، هذا فرق كبير بين التدريس وبين التربية، التدريس إلقاء

درس، لكن المربي هو الذي يتعاون مع أخوانه ليأخذ بيدهم إلى الله عز وجل، فالنبي عليه الصلاة والسلام ليس مبلغاً فقط، بل هو مربٍّ، قال:

((إنما بعثت معلماً لأتمم مكارم الأخلاق))

فالنبي لحكمة رآها لم يعاتب أحداً من أصحابه تخلف عن موقعة بدر، لكن في تبوك عاتب النبي من تخلف عن هذه الموقعة .

بالمناسبة الإنسان أحيانًا يعاتب مَن يثق به، حضر شخصٌ أول مرة، فالحضور الأول لا يعدّ التزاماً حميماً، لكن شخصًا له في مجلس العلم سنوات طويلة، فهذا الشخص يعاتَب إذا سافر مِن دون أن يُعلِم، ويعاتَب إذا طلق امرأته من دون أن يستشير، ويعاتَب إذا دخل في تجارة لا ترضي الله عز وجل وله مرجع، من استشار الرجال استعار عقولهم، أنت إذا استشرت رجلاً عاديًّا فقد استعرتَ عقله، واستعرت خبرته، فكيف إذا استشرت من تثق بدينه وعلمه، يعطيك الحكم الشرعي يعطيك ما يرضي الله عز وجل، يعطيك التوجيه الصحيح، يعطيك الدليل ؟ .

قلت بالأمس: أيستطيع أحد منا أن يدخل على طبيب من دون أن يملك المبلغ الكافي كأتعاب له؟ هل بإمكانه أن يدخل على محامٍ لامع مِن دون مبلغ يغطي أتعابه؟ لحكمة أرادها الله عز وجل أنه يسَّر القرآن للذكر، وكل شيء متعلق بالدين مبذول بلا شيء، من دون ثمن، ما عليك إلا أن تحضر، ما عليك إلا أن تسأل، ما عليك إلا أن تستشير .

فالنبي في بدر لم يعاتب، لكن في تبوك عاتب، أنت لك حق على من يعلمك، حق النصيحة، وحق الإرشاد، وحق الخدمة، وأن يقدم لك كل ما يستطيع من أجل إسعادك في الدنيا والآخرة، وله حق عليك، إذا دعاك إلى عمل صالح أن تستجيب .

إليك حديث كعب بن مالك يشكو ألمه وحزنه حينما تخلف عن غزوة تبوك :

فهذا الصحابي الجليل، قال:

((لَمْ أَتَخَلَّفْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا إِلَّا فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، غَيْرَ أَنِّي تَخَلَّفْتُ عَنْ غَزْوَةِ بَدْرٍ، وَلَمْ يُعَاتَبْ أَحَدٌ تَخَلَّفَ عَنْهَا، إِنَّمَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُرِيدُ عِيرَ قُرَيْشٍ حَتَّى جَمَعَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ، وَبَيْنَ عَدُوِّهِمْ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ، وَلَقَدْ شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ حِينَ تَوَاثَقْنَا عَلَى الْإِسْلَامِ (إذا عاهد المسلمُ اللهَ عز وجل، أو عاهد رسول الله، أو عاهد من ينوب عن رسول الله، عاهد الله عز وجل على السير في طاعته فلا بدّ أن يفيَ، وأنت هل

تدري مَن عاهدت؟ عاهدت خالق الكون، لذلك فعَنْ أَنَسٍ، قَالَ: قَلَّمَا خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا قَالَ:((لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ))

[أخرجه أحمد في مسنده عن أنس]

إذا أكرم اللهُ الإنسانَ بالعمرة أو بالحج، ووقف عند الحجر الأسعد، وقال الدعاء المشهور : اللهم عهداً على طاعتك، اللهم إيماناً بك، وتصديقاً بكتابك، وإيماناً بنبيك، وعهداً على طاعتك، ثم قبل الحجر، هذا العهد ينبغي أن يذكره طوال حياته، وأنت عاهدت الله على الطاعة فعليك الوفاء)

قال: لَقَدْ شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ حِينَ تَوَاثَقْنَا عَلَى الْإِسْلَامِ، وَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهَا مَشْهَدَ بَدْرٍ وَإِنْ كَانَتْ بَدْرٌ أَذْكَرَ فِي النَّاسِ مِنْهَا(بدر أشهر، لكنه في هذه البيعة التي بايع بها النبي عليه الصلاة والسلام في العقبة، هذه البيعة هي حياته كلها)، كَانَ مِنْ خَبَرِي أَنِّي لَمْ أَكُنْ قَطُّ أَقْوَى وَلَا أَيْسَرَ حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْهُ فِي تِلْكَ الْغَزَاةِ، وَاللَّهِ مَا اجْتَمَعَتْ عِنْدِي قَبْلَهُ رَاحِلَتَانِ قَطُّ(الآن دخلنا في الصدق، هذا الصحابي سترون بعد قليل أنه أوتي طلاقة لسان، وأوتي جدلاً، وهذه قدرة في الإنسان، اسمها القدرة على الإقناع، عندما قسّم علماء النفس القدرات العامة والقدرات الخاصة، عدُّوا القدرة على الإقناع قدرة خاصة في الإنسان، فهناك شخص كيفما تكلم تنحاز إلى جانبه، وقد يكون غير محقٍّ، لكن عنده قدرة إقناع، وطلاقة لسان، وحجة حاضرة، وتعليل سريع، كلها موفورة عنده .

ذات مرة قلت لكم: كان الأحنف بن قيس في مجلس معاوية بن أبي سفيان، وهذا المجلس عُقِد لأخذ البيعة لابنه يزيد، وكل من حضر المجلس تكلم، وأثنى، وأطنب، ومدح، وبالغ في المديح أمام أبيه، وبقي الأحنف ساكتاً، سكوته أربك المجلس، بل أحرج الحاضرين، فما كان من معاوية إلا أن قال له تكلم يا أحنف، لماذا أنت ساكت؟ فقال الأحنف كلمتين، فيهما بيان، وأيّ بيان، قال:

((أخاف اللهَ إنْ كذبت، وأخافكم إن صدقت))

فكانت كنايتُه أبلغ من التصريح، أخاف الله إن كذبت، وأخافكم إن صدقت .

كذلك هناك أشخاص، ومنهم أبو حنيفة النعمان، فقد دخل على المنصور، وقال له خصم عنيد له: يا أبا حنيفة، إذا أمرني الخليفة بقتل امرئ أأقتله أم أتريث فلعله مظلوم؟ فقال أبو حنيفة:

((الخليفة على الحق أم على الباطل؟ قال له: على الحق، قال له: كنْ مع الحق، فقال أبو حنيفة: أراد أن يقيِّدني فربطتُه))

بعض الأشخاص أصحاب فطنة، أصحاب بديهة، يسعفهم الجواب المفحم مباشرة، هي قدرة في الإنسان، اسمها القدرة على الإقناع .

لكن بالمناسبة من يملك هذه القدرة على الإقناع يملك قدرة على قلب الحق إلى باطل، فالباطل عندئذ يبدو بحجم أكبر من حجمه، من كان يملك قدرة على أن يحطم خصومه بالكلام، فهذه القدرة يوم القيامة يفقدها الإنسان، الدليل:

(الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

(سورة يس الآية: 65)

طلاقة اللسان تنتهي يوم القيامة، لأن يومئذ العمل يشهد على صاحبه .

هذا الصحابي الجليل أوتي جدلاً، بالتعبير الحديث أوتي قوة إقناع عجيبة، فلو أراد أن يكذب على النبي لأقنعه، والنبي هكذا يقول: لعل أحدكم ألحن بحجته من الآخر، فإذا قضيت له بشيء، فإنما أقضي له بقطعة من النار، النبي بشر، شخص يملك لسانًا ذربًا، حجة قوية، طلاقة لسان، سرعة بديهة، عبارة متينة، شواهد دقيقة، معه أدلة، أنتزع من فم النبي عليه الصلاة والسلام حكم لصالحه، فالنبي الكريم طمأننا، وقال: إذا كان أحدكم طليق اللسان، قوي البيان، قوي الحجة وأقنعني، واستطاع بقوة لسانه أنْ ينتزع مني فتوى، ولم يكن محقاً فلن ينجوَ من عذاب الله ، لذلك سأهمس في آذانكم، علاقتك مع مَن؟ مع الله عز وجل، هذا هو التوحيد، علاقتك مع الله وحده)

فقال هذا الصحابي الجليل: وَكَانَ مِنْ خَبَرِي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ أَنِّي لَمْ أَكُنْ قَطُّ أَقْوَى، وَلَا أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْهُ فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ، (فهو صادق، ليس لي عذر، كنت قويًّا، نشيطًا، غنيًّا، متفرغًا، لكنك الآن تجد الرجل يستطيع أنْ يقول: زوجتي مريضة، أو عندي مشكلة، ويأتي بآلاف الأعذار، ويتخلص بنعومة، لكن مع الله الأمر مكشوف، أمَا قال سيدنا عبد الله بن عمر للراعي: بعني هذه الشاة .

قال له: ليست لي .

قال له: خذ ثمنها .

قال: ليست لي .

قال له: قل لصاحبها ماتت .

قال: ليست لي .

قال له: خذ ثمنها .

قال: واللهِ إنني لفي أشد الحاجة لثمنها، ولو قلت لصاحبها ماتت، أو أكلها الذئب لصدقني فإني عنده صادق أمين، ولكن أين الله؟ .

إذًا: لا حل لها، هذا هو الإيمان، هذا الراعي وضع يده على جوهر الدين، الإيمان قيد، واللهُ عز وجل مطَّلعٌ على قلبك، وعلى حركتك، وعلى نشاطك، وعلى كلامك، يعلم السر وأخفى

قال: وَاللَّهِ مَا جَمَعْتُ قَبْلَهَا رَاحِلَتَيْنِ قَطُّ حَتَّى جَمَعْتُهُمَا فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ لم يكن عندي راحلة واحدة فقط، بل كان عندي راحلتان فَغَزَاهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَرٍّ شَدِيدٍ، قال تعالى:

(فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ)

(سورة التوبة الآية: 81)

وكانت من أصعب الغزوات، لبُعْدِها عن المدينة، وكانت في الصيف، في وقت نضج العنب والتمر

قال: اسْتَقْبَلَ سَفَرًا بَعِيدًا وَمَفَازًا، وَاسْتَقْبَلَ عَدُوًّا كَثِيرًا فَجَلَا لِلْمُسْلِمِينَ أَمْرَهُمْ لِيَتَأَهَّبُوا أُهْبَةَ غَزْوِهِمْ، فَأَخْبَرَهُمْ بِوَجْهِهِمِ الَّذِي يُرِيدُ، (وهكذا بيَّن النبي الكريم للمسلمين أن هذه الغزوة باتجاه تبوك، وأن العدو قوي، وكثير العدد والعُدد، كي يتأهبوا، كي يأخذوا العدة الكافية، فأخبرهم بوجهه الذي يريد)، قال: فَتَجَهَّزَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ وَطَفِقْتُ أَغْدُو لِكَيْ أَتَجَهَّزَ مَعَهُمْ فَأَرْجِعُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا (ليس هناك رغبة شديدة، قد يتحرك اليوم أو غداً، أو بعد غدٍ، قضية سهلة)وَأَقُولُ فِي نَفْسِي: أَنَا قَادِرٌ عَلَى ذَلِكَ إِذَا أَرَدْتُ فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ يَتَمَادَى بِي (لذلك قيل: هلك المسوفون). قال: فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ يَتَمَادَى بِي حَتَّى أَسْرَعُوا، وَتَفَارَطَ الْغَزْوُ، فَهَمَمْتُ أَنْ أَرْتَحِلَ فَأُدْرِكَهُمْ فَيَا لَيْتَنِي فَعَلْتُ، ثُمَّ لَمْ يُقَدَّرْ ذَلِكَ لِي، فَطَفِقْتُ إِذَا خَرَجْتُ فِي النَّاسِ بَعْدَ خُرُوجِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَحْزُنُنِي أَنِّي لَا أَرَى لِي أُسْوَةً إِلَّا رَجُلًا مَغْمُوصًا عَلَيْهِ فِي النِّفَاقِ، أَوْ رَجُلًا مِمَّنْ عَذَرَ اللَّهُ مِنَ الضُّعَفَاءِ))

[أخرجه البخاري في الصحيح]

مثله كمثل رجل له أصدقاء يحبهم ويحبونه، ثم يلتفت في أثناء الدرس فلا يجد أحدًا حواليْه، سيجد الأشخاص البعيدين عن الله عز وجل، وهذا وقت لله عز وجل، وهذا استنباط لطيف ، يعني وقت صلاة الجمعة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

(سورة الجمعة الآية: 9)

من تجد في البيت قابعاً؟ المقصر، الفاسق، الفاجر، المنحرف، غير المسلم، أما المسلمون في هذا الوقت فكلُّهم في المساجد، وقد قال أحد كبار العارفين: ليس الوليُّ الذي يمشي على وجه الماء، وليس الولي الذي يطير في الهواء، لكن الولي كل الولي هو الذي تجده عند الحلال والحرام، أو أن يجدك الله حيث أمرك وأن يفتقدك حيث نهاك .

الذي آلمه أنه حين يخرج من بيته لا يرى إلا المنافقين، والعجزة، أما الأصحاب الكرام ، الأقوياء، الأشداء، فهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال تعالى:

(مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ)

(سورة التوبة الآية: 120)

بهذا الوقت أين المسلمون؟ في بيوت الله، وأنت أين تتواجد؟ وهذا الوقت أين تمضيه؟ يجب أن يجدك الله حيث أمرك، وأن يفقدك حيث نهاك .

هل قدم كعب حجة لتبيان عذره عن سبب تخلفه عن الغزوة وما هو القرار الذي اتخذه ؟

قال كعب:

((وَلَمْ يَذْكُرْنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى بَلَغَ تَبُوكَ، فَقَالَ وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْقَوْمِ بِتَبُوكَ: مَا فَعَلَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ؟ (فالرسول لم يكن مبلِّغًا فقط، بل كان قائدًا كذلك، وكان مربِّيًا يسأل عن أصحابه، ويتفقّدهم، وأنت لما تتفقد أخًا لك غاب عن درس، فلا يعلم إلا الله كم لك من أجر؟ شعر أن له قيمته، شعر أنه عضو بأسرة، فكل أخ من أخواننا الكرام يجب أن يكون له أخ في الله، أنا اليوم قبل أن آتي إليكم، أخٌ غالٍ علينا، لم أرَه منذ أسبوعين أو ثلاثة، اتصلت به قبل أن آتي، قال لي: لديه سبب يمنعه، لكن شعر بمودة بالغة، فقلتُ له: مِن واجبي أنْ أسال عنك، فكل واحد منكم يتفقد أخوانه، هذا أوصل، وأدعى للمودة، وأقرب إلى مرضاة الله عز وجل). قال النبي الكريم بتبوك، وهو جالس في القوم: مَا فَعَلَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ؟ قَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، حَبَسَهُ بُرْدَاهُ وَالنَّظَرُ فِي عِطْفَيْهِ، (يعني يعتني بثيابه، ببيته، بالظل الظليل، بالفاكهة الناضجة، فهذا ما شأنه أنْ يكون معنا،هذا طعن أليس كذلك؟)، فَقَالَ لَهُ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ: بِئْسَ مَا قُلْتَ، وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ إِلاَّ خَيْرًا، فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، (هؤلاء الأصحاب يجب أن نحبهم، وليكنِ المؤمن عن غياب أخيه كالسيف، يدافع عنه، لكن هناك مؤمنون ضعاف، يتلذذون بنهش أعرض أخوانهم، ويتلذذون بالطعن بإيمانهم . وفي موقف آخر، تفقد النبي صحابيًّا جليلاً، فاتَّهمه أحدهم أنّه شغلته دنياه، فقال أحد أصحاب رسول الله: واللهِ يا رسول الله، لقد تخلف عنك أقوام ما نحن بأشد حباً لك منهم، ولو علموا أنك تلقى عدواً ما تخلفوا عنك). فَقَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ: فَلَمَّا بَلَغَنِي أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ تَوَجَّهَ قَافِلًا مِنْ تَبُوكَ حَضَرَنِي بَثِّي (يعني تألمت، وإذا سألني النبي: لماذا تخلفتَ يا كعب؟ فبماذا أجيبه؟)فطفقتُ أَتَذَكَّرُ الْكَذِبَ، وَأَقُولُ بِمَ أَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ غَدًا وَأَسْتَعِينُ عَلَى ذَلِكَ كُلَّ ذِي رَأْيٍ مِنْ أَهْلِي، (ماذا أقول له؟ ما الذي شغلني عنك يا رسول الله؟)، فَلَمَّا قِيلَ لِي: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ أَظَلَّ قَادِمًا، زَاحَ عَنِّي الْبَاطِلُ، حَتَّى عَرَفْتُ أَنِّي لَنْ أَنْجُوَ مِنْهُ بِشَيْءٍ أَبَدًا، فَأَجْمَعْتُ صِدْقَهُ (أيْ اتخذ قرارًا حكيمًا أن يصدقه)، وَصَبَّحَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَادِمًا، وَكَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ

سَفَرٍ، بَدَأَ بِالْمَسْجِدِ فَرَكَعَ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ جَلَسَ لِلنَّاسِ، فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ جَاءَهُ الْمُخَلَّفُونَ فَطَفِقُوا يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ وَيَحْلِفُونَ لَهُ (أراد شخصٌ يومًا أن يسافر لأداء فريضة الحج، ومعه مبلغ من المال، وحار أين يضعه؟ فدخل إلى المسجد، وتوسّم في المصلين، فرأى أحدهم أشدَّهم خشوعاً، يصلي ويغمض عينه، وصلاته متقنة، فبعد أن انتهى من صلاته، قال له: والله أعجبتني صلاتك، وعندي أمانة أريد أن أضعها عندك إلى أن أعود من الحج، فقال له: وأنا صائم أيضًا، قال له: واللهِ صيامك لم يعجبني . أحياناً الإنسان يكشف نفسه، فهؤلاء حلفوا أيمانًا، ولم يستحلفهم النبي، وقدّم كل واحد منهم عذرًا، فقبلها فالنبي منهم).

وَكَانُوا بِضْعَةً وَثَمَانِينَ رَجُلًا (هؤلاء هم المنافقون)، فَقَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَانِيَتَهُمْ، وَبَايَعَهُمْ، وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ، وَوَكَلَ سَرَائِرَهُمْ إِلَى اللَّهِ، حَتَّى جِئْتُ فَلَمَّا سَلَّمْتُ -والنبي عنده فراسة، وسيدنا كعب مؤمن)تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ الْمُغْضَبِ (رحب به في غضبٍ منه)، ثُمَّ قَالَ: تَعَالَ فَجِئْتُ أَمْشِي حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ لِي: مَا خَلَّفَكَ أَلَمْ تَكُنْ قَدِ ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ؟ قال: قلت: يا رسول الله، إِنِّي وَاللَّهِ لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا لَرَأَيْتُ أَنِّي سَأَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ بِعُذْرٍ، (فأنا طليق اللسان، وعندي حجة قوية)وَلَقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلًا، (أنا أتكلم بقوة)، وَلَكِنِّي وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَئِنْ حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ حَدِيثَ كَذِبٍ تَرْضَى بِهِ عَنِّي لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يُسْخِطَكَ عَلَيَّ، (هذا هو التوحيد، أنت بشر، لو أرضيتك بكلام مقنع ليوشك أن يسخط عليَّ الله عز وجل، واللهُ هو الأصل ، وأنا بيده)إِنِّي لَأَرْجُو فِيهِ عُقْبَى اللَّهِ، وَاللَّهِ مَا كَانَ لِي عُذْرٌ، وَاللَّهِ مَا كُنْتُ قَطُّ أَقْوَى وَلَا أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ (هذا هو الصدق، كنت قويًّا، ونشيطًا، لكن تخلفت)، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ، فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِيكَ، فَقُمْتُ وَثَارَ رِجَالٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ فَاتَّبَعُونِي، فَقَالُوا لِي: وَاللَّهِ مَا عَلِمْنَاكَ أَذْنَبْتَ ذَنْبًا قَبْلَ هَذَا لَقَدْ عَجَزْتَ فِي أَنْ لَا تَكُونَ اعْتَذَرْتَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَا اعْتَذَرَ بِهِ إِلَيْهِ الْمُخَلَّفُونَ فَقَدْ كَانَ كَافِيَكَ ذَنْبَكَ اسْتِغْفَارُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَكَ، قَالَ: فَوَ اللَّهِ مَا زَالُوا يُؤَنِّبُونَنِي حَتَّى أَرَدْتُ أَنْ أَرْجِعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأُكَذِّبَ نَفْسِي، (أنّبوني على الصدق، ورموني بالجنون)، قَالَ: ثُمَّ قُلْتُ لَهُمْ هَلْ لَقِيَ هَذَا مَعِي مِنْ أَحَدٍ؟ قَالُوا: نَعَمْ لَقِيَهُ مَعَكَ رَجُلَانِ قَالَا مِثْلَ مَا قُلْتَ، فَقِيلَ لَهُمَا مِثْلَ مَا قِيلَ لَكَ، قَالَ: قُلْتُ مَنْ هُمَا؟ قَالُوا: مُرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعَةَ الْعَامِرِيُّ، وَهِلَالُ بْنُ أُمَيَّةَ الْوَاقِفِيُّ قَالَ: فَذَكَرُوا لِي رَجُلَيْنِ صَالِحَيْنِ قَدْ شَهِدَا بَدْرًا فِيهِمَا أُسْوَةٌ قَالَ: فَمَضَيْتُ حِينَ ذَكَرُوهُمَا لِي))

[أخرجه البخاري في الصحيح]

ما هو الحكم الشرعي الذي أصدره رسول الله بكعب ومن معه وما هو البلاء الذي نزل بكعب في زمن المقاطعة؟

قالَ:

((وَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمُسْلِمِينَ عَنْ كَلَامِنَا نحن الثَّلَاثَةُ مِنْ بَيْنِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ، قالَ: فَاجْتَنَبَنَا النَّاسُ، وَقَالَ: تَغَيَّرُوا لَنَا حَتَّى تَنَكَّرَتْ لِي فِي نَفْسِيَ الْأَرْضُ فَمَا هِيَ بِالْأَرْضِ الَّتِي أَعْرِفُ فَلَبِثْنَا عَلَى ذَلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً، فَأَمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَكَانَا وَقَعَدَا فِي بُيُوتِهِمَا يَبْكِيَانِ، وَأَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أَشَبَّ الْقَوْمِ، وَأَجْلَدَهُمْ فَكُنْتُ أَخْرُجُ فَأَشْهَدُ الصَّلَاةَ، وَأَطُوفُ فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ، (ما هذا الانضباط؟ هذا مجتمع الإيمان، كلمة قالها النبي التزموا بها)، وَآتِي رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأُسَلِّمُ عَلَيْهِ، وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَأَقُولُ فِي نَفْسِي: هَلْ حَرَّكَ شَفَتَيْهِ بِرَدِّ السَّلَامِ أَمْ لَا؟ ثُمَّ أُصَلِّي قَرِيبًا مِنْهُ، وَأُسَارِقُهُ النَّظَرَ فَإِذَا أَقْبَلْتُ عَلَى صَلَاتِي نَظَرَ إِلَيَّ، وَإِذَا الْتَفَتُّ نَحْوَهُ أَعْرَضَ عَنِّي، حَتَّى إِذَا طَالَ ذَلِكَ عَلَيَّ مِنْ جَفْوَةِ الْمُسْلِمِينَ مَشَيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ جِدَارَ حَائِطِ أَبِي قَتَادَةَ، وَهُوَ ابْنُ عَمِّي، وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَوَ اللَّهِ مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَبَا قَتَادَةَ، أَنْشُدُكَ بِاللَّهِ، هَلْ تَعْلَمَنَّ أَنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ؟ قَالَ: فَسَكَتَ فَعُدْتُ فَنَاشَدْتُهُ فَسَكَتَ، فَعُدْتُ فَنَاشَدْتُهُ، فَقَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَفَاضَتْ عَيْنَايَ وَتَوَلَّيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ الْجِدَارَ، فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي فِي سُوقِ الْمَدِينَةِ إِذَا نَبَطِيٌّ مِنْ نَبَطِ أَهْلِ الشَّامِ مِمَّنْ قَدِمَ بِالطَّعَامِ يَبِيعُهُ بِالْمَدِينَةِ، يَقُولُ: مَنْ يَدُلُّ عَلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ؟ قَالَ: فَطَفِقَ النَّاسُ يُشِيرُونَ لَهُ إِلَيَّ حَتَّى جَاءَنِي، فَدَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا مِنْ مَلِكِ غَسَّانَ، وَكُنْتُ كَاتِبًا فَقَرَأْتُهُ فَإِذَا فِيهِ أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنَا أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ، وَلَمْ يَجْعَلْكَ اللَّهُ بِدَارِ هَوَانٍ وَلَا مَضْيَعَةٍ، فَالْحَقْ بِنَا نُوَاسِكَ، قَالَ: فَقُلْتُ حِينَ قَرَأْتُهَا، وَهَذِهِ أَيْضًا مِنَ الْبَلَاءِ (الغساسنة عرب في شمال الجزيرة يبدو أن قصته انتشرت حتى وصلتهم، فأرسل ملك الغساسنة له كتابًا أنّ صاحبك جفاك، فتعال إلينا، نحن نستقبلك)قال: فَتَيَمَّمْتُ بِهَا التَّنُّورَ فَسَجَرْتُهَا بِهَا، حَتَّى إِذَا مَضَتْ أَرْبَعُونَ مِنَ الْخَمْسِينَ، وَاسْتَلْبَثَ الْوَحْيُ إِذَا رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْتِينِي، فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَعْتَزِلَ امْرَأَتَكَ، (هل مِن إنسان على الأرض أمره نافذ في أصحابه إلى درجة أنه يمنع علاقتهم بزوجاتهم فيستجيبون؟)، فَقَالَ: فَقُلْتُ أُطَلِّقُهَا أَمْ مَاذَا أَفْعَلُ؟ قَالَ: لَا بَلِ اعْتَزِلْهَا فَلَا تَقْرَبَنَّهَا، قَالَ: فَأَرْسَلَ إِلَى صَاحِبَيَّ بِمِثْلِ ذَلِكَ، قَالَ: فَقُلْتُ لِامْرَأَتِي الْحَقِي بِأَهْلِكِ فَكُونِي عِنْدَهُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِي هَذَا الْأَمْرِ قَالَ: فَجَاءَتِ امْرَأَةُ هِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَتْ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ هِلَالَ بْنَ أُمَيَّةَ شَيْخٌ ضَائِعٌ لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ، فَهَلْ تَكْرَهُ أَنْ أَخْدُمَهُ؟ قَالَ: لَا، وَلَكِنْ لَا يَقْرَبَنَّكِ، فَقَالَتْ: إِنَّهُ وَاللَّهِ مَا بِهِ حَرَكَةٌ إِلَى شَيْءٍ، وَوَاللَّهِ مَا زَالَ يَبْكِي مُنْذُ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ إِلَى يَوْمِهِ هَذَا ،قَالَ: فَقَالَ لِي بَعْضُ

أهْلِي لو اسْتَأْذَنْتَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي امْرَأَتِكَ فقدْ أذِنَ لِامْرَأَةِ هِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ أنْ تَخْدُمَهُ، قالَ: فقُلْتُ لا أسْتَأْذِنُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَا يُدْرِينِي مَاذَا يَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذَا اسْتَأْذَنْتُهُ فِيهَا وَأَنَا رَجُلٌ شَابٌّ؟ قالَ: فَلَبِثْتُ بذلِكَ عَشْرَ لَيَالٍ فَكَمَلَ لَنَا خَمْسُونَ لَيْلَةً مِنْ حِينَ نُهِيَ عَنْ كَلَامِنَا))

[أخرجه البخاري في الصحيح]

ما هي البشرى التي حلت على كعب ومن معه وفرح لها المسلمون ؟

قالَ: ثُمَّ صَلَّيْتُ صَلَاةَ الْفَجْرِ صَبَاحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِنَا، فَبَيْنَا أنَا جَالِسٌ عَلَى الْحَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنَّا قدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي، وَضَاقَتْ عَلَيَّ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ـقال تعالى:

(وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)

(سورة التوبة الآية: 118)

سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ أوْفَى عَلَى سَلْعٍ، يَقُولُ بأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا كَعْبَ ابْنَ مَالِكٍ أبْشِرْ، قالَ: فَخَرَرْتُ سَاجِدًا، وَعَرَفْتُ أنْ قدْ جَاءَ فَرَجٌ، قالَ: فَآذَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّاسَ بتَوْبَةِ اللَّهِ عَلَيْنَا حِينَ صَلَّى صَلَاةَ الْفَجْرِ، فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنَا فَذَهَبَ قِبَلَ صَاحِبَيَّ مُبَشِّرُونَ، وَرَكَضَ رَجُلٌ إلَيَّ فَرَسًا، وَسَعَى سَاعٍ مِنْ أسْلَمَ قِبَلِي، وَأَوْفَى الْجَبَلَ، فَكَانَ الصَّوْتُ أسْرَعَ مِنَ الْفَرَسِ، فَلَمَّا جَاءَنِي الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي فَنَزَعْتُ لَهُ ثَوْبَيَّ فَكَسَوْتُهُمَا إيَّاهُ ببِشَارَتِهِ، وَاللَّهِ مَا أمْلِكُ غَيْرَهُمَا يَوْمَئِذٍ، وَاسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ فَلَبِسْتُهُمَا، فَانْطَلَقْتُ أتَأَمَّمُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَتَلَقَّانِي النَّاسُ فَوْجًا فَوْجًا يُهَنِّئُونِي بالتَّوْبَةِ، وَيَقُولونَ: لِتَهْنِئْكَ تَوْبَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ، حَتَّى دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ، وَحَوْلَهُ النَّاسُ، فَقَامَ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ يُهَرْوِلُ حَتَّى صَافَحَنِي وَهَنَّأَنِي، وَاللَّهِ مَا قَامَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ غَيْرُهُ، قالَ: فَكَانَ كَعْبٌ لا يَنْسَاهَا لِطَلْحَةَ، قالَ كَعْبٌ: فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قالَ: وَهُوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ مِنَ السُّرُورِ، وَيَقُولُ: أبْشِرْ بخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ، قالَ: فَقُلْتُ أمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ؟ فَقالَ: لا بَلْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، قال كعب: والله ما أنعم الله عليّ من نعمة قط بعد إذْ هداني الله إلى الإسلام أعظمَ في نفسي من صدقي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأخذ كعب يرتل في خشوع ودموعه تغمر خديه، قول الله تعالى:

(وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)

(سورة التوبة الآية: 118)

سؤال ورد :

بقى لدينا سؤال، الله عز وجل في أول هذه الآية، قال:

(لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ * وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا)

(سورة التوبة الآية: 117 - 118)

فما الذنب الذي فعل النبي حتى يتوب الله عليه، وعلى هؤلاء الثلاثة؟ قال بعض العلماء: وهذا قولٌ أدهشني، إن الله عز وجل أراد أن يجبر خواطر هؤلاء، فتاب على النبي تكريماً لهم، النبي لم يفعل شيئاً، ولم يذنب ذنباً، وما تخلف مرة، ولكن تكريماً لهؤلاء الثلاثة الصادقين مع الله، جاءت توبة الله على النبي، وعلى أصحابه لئلا يشعروا بالوحشة وحدهم .

يا أيها الأخوة، أجمل شعور يشعر به المؤمن حينما يصطلح مع الله، وحينما تكون له توبة، أو حينما لا تخلف العهد الذي عاهدت الله عليه، أو حينما تشعر أنك على العهد قائم، هذا شعور لا يقدر بثمن، شعورك أن الله راضٍ عنك، وقد تاب عليك، وقد قبل توبتك .

فيا أيها الأخوة، نحن في الدنيا وباب التوبة في الدنيا مفتوح على مصراعيه، لماذا تاب الله عليه؟ ولماذا أوحى إلى النبي أن يأمر أصحابه بمقاطعته؟ لأنه صادق، لو أنه اعتذر كما اعتذر المنافقون لبقي منافقاً طوال حياته، وطوته الحياة، ولا سبيل له إلى الجنة، ولكن صدقه نجَّاه من النفاق، فكن صادقاً .

سيدنا جعفر ، قال:

((حتى بعث الله فينا رجلاً نعرف أمانته وصدقه وعفافه ونسبه))

يعني الصدق سمة أساسية من سمات المؤمنين، فهذا الصحابي الجليل أوتي طلاقة اللسان، أوتي الحجة القوية، أوتي قدرة على إيهام المستمع بما يريد، أوتي قدرة على أن يظهر بحجم أكبر من حجمه، ولكن شعر أن هذا رسول الله فإذا كذب عليه فالأمر بيد الله وحده، واللهُ قادر على أن يسخط النبي عليه .

ما هي قيمة الصدق في الإسلام ؟

أيها الأخوة، بقي علينا استنباط لطيف، العلاقة مع الآخرين بيد الله، فإذا أنت بنيتها على معصية الله عز وجل يخرِّب لك هذه العلاقة، ويخلق ظروفًا معقدة فيكرهونك، فالله عز وجل قادر أن يفسد هذه العلاقة بينك وبين من آثرت مرضاته على مرضاة الله عز وجل .

فالقصة فيها صدق، وفيها توبة، وفيها توحيد، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يُكْتَبَ صِدِّيقًا، وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ كَذَّابًا))

[أخرجه مسلم في الصحيح عن عبد الله بن مسعود]

فعلى كل مسلم أنْ يعاهد الله عز وجل على ألاّ يكذب، وربنا عز وجل قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)

(سورة التوبة الآية: 119)

معهم بالتوفيق، معهم بالتوبة، يتوب عليهم، يوفقهم، وما من صفة كانت أبغض إلى النبي عليه الصلاة والسلام مِنَ الكذب، فهذا الصحابي صدق، فجاءت المعالجة التي بتوبة الله عليه في القرآن الكريم .

فيا أيها الأخوة الأكارم، الصدق منجاة، والكذب مهواة، اُصْدُقْ مع الله، اُصْدُقْ مع نفسك يرفعْك الله عنده وعند الناس، أما إذا كذبت على الله، أو كذبت على نفسك فالهوانُ مصيرُك ، والحقيقة حينما يكذب الإنسان على نفسه، يحتقر نفسه، ولأنْ يسقط الإنسانُ من السماء إلى الأرض أهونُ من أن يسقط من عين الله، فإذا كذبت على الله، أو كذبت على نفسك سقطتَ من عين الله، فكن صادقاً ولا تبالِ .

فالصحابي الجليل كعب بن مالك مع أنه تخلف عن رسول الله، مع أنه ارتكب كبيرة، التخلف عن الزحف كبيرة في الإسلام، ارتكب كبيرة لكن صدقه نجاه من مغبة هذه الكبيرة التي ارتكبها .

ما هي العبر التي يمكن أن نستفيدها من هذه القصة ؟

هناك استنباطات كثيرة في القصة، فلما جاءت البشارة خرّ ساجدًا، فإذا تلقى الإنسان بشارة، أو خبرًا سارًّا، فمِن السنة أن تسجد لله سجود الشكر، وهذه القصة علّمتنا أن نكون صادقين ، وعلّمتْنا أن ندافع عن أخواننا المؤمنين، دعْ عنك الآخرين، وكن صادقاً، دافع عن أخيك المؤمن ، علّمتنا أن نشكر الله عز وجل إذا تلقينا نبأ ساراً، علّمتنا أن التوبة أعظم هدية تأتيك من الله عز وجل .

لذلك قالوا: التوبة أمرٌ حسنٌ، وهي في الشباب أحسن، والعدل حسن، لكن في الأمراء أحسن، والورع حسن، لكن في العلماء أحسن، والحياء حسن، لكن في النساء أحسن، والصبر حسن، لكن في الفقراء أحسن، والسخاء حسن، لكن في الأغنياء أحسن . فباب التوبة مفتوح على مصراعيه، وإن الله عز وجل ليفرح بتوبة عبد المؤمن كما يفرح الضال الواجد والعقيم الوالد، وهذا الصحابي الجليل دخل في سجل الخالدين، وصار من أصحاب رسول الله المرموقين بفضل صدقه، ولو كذب على النبي لمات منافقاً، ولحشر مع المنافقين، وأهلك نفسه في الدنيا والآخرة .

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

كيف كانت العلاقة بين أبي سفيان وبين النبي قبل البعثة ؟

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الثامن عشر من دروس سيرة أصحاب رسول الله رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، وصحابي اليوم: أبو سفيان بن الحارث .

قصة هذا الصحابي تؤكد أن الحسد أحياناً يهلك صاحبه، لولا أن الله سبحانه وتعالى تلطف به لكان من الهالكين .

المتكبر أحياناً يمنعه الحسد أن يستفيد من رجل فاقه في العلم والتقى، فهذا الصحابي الجليل أبو سفيان بن الحارث قلَّ أن اتصلت الأسباب بين شخصين، وتوثقت العرى بين إنسانين ، كما اتصلت وتوثقت بين محمد صلى الله عليه وسلم وبين أبي سفيان بن الحارث، يعني علاقة متينة، أخوّة صادقة، وشائج ثابتة بين أبي سفيان بن الحارث وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لماذا؟ لأن هذا الرجل أبا سفيان بن الحارث كان لِدةً من لدات رسول الله، لدة يعني من سنه، ومن جيله، الآن يقال: نحن رفقاء، كنا بالابتدائي معًا، نحن جيران، أولاد سنة وحدة، وُلِدنا في شهر واحد، والقرابة في السن مهمة جداً، والإنسان له شيخ وأستاذ لا شك، لكن لا بد له من أخ في سنه يبثه وجده، اتخذْ مؤمناً مخلصاً تقياً ورعاً صاحباً، فهذا الصاحب ينفعك كثيراً، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ:

((لَا تَصْحَبْ إِلَّا مُؤْمِنًا، وَلَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيٌّ))

[أخرجه أبو داود في سننه عن أبي سعيد الخدري]

وفي الحِكَم العطائية:

((لا تصاحب من لا ينهض بك إلى الله حاله، ومن لا يدلك على الله مقاله، إن أحببته رفعك حاله، وإن استمعت إليه غذتك مقالته))

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آَبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

(سورة التوبة الآية: 23)

يجب أن تختار أصدقاءك كما تختار أغلى شيء عليك، إنك به تعرف، الصاحب ساحب ، وَمَن جالَسَ جانَسَ، إن صحبتَ الكبراء فأنت منهم، إن صحبتَ العلماء فأنت منهم، وإنَ صحبتَ أُولي الفضل فأنت منهم، أخطر شيء في الحياة صاحبُ السوء، فإن يهلك قرينَه .

الإنسان العاقل يختار إنسانًا مؤمنًا، أرسخ منه إيمانا، وأشد منه ورعاً، فهذا أبو سفيان كان لِدة من لدات رسول الله، وتِرباً من أترابه، وُلِدا في زمن متقارب، وكان ابن عم النبي، فأبوه الحارث وعبد الله والدُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ينحدران من صُلبِ عبد المطلب، ثم إنه كان أخاً للنبي عليه الصلاة والسلام من الرضاعة، فقد غذَّتهما السيدة حليمة السعدية من ثدييها معاً ، وبَعد هذا كله كان صديقاً حميمًا للنبي عليه الصلاة والسلام قبل النبوة، وأشد الناس شبهاً به .

ما هو موقف أبو سفيان حينما أكرم الله النبي بالبعثة ؟

وهنا سؤال يطرح نفسَه، حينما تأتي الرسالة لهذا النبي العظيم، فمَن تتوقعون أن يكون أسبقَ الناس إلى الإيمان به؟ أبو سفيان، من كان ينبغي أن يكون أقرب الناس إليه؟ أبو سفيان، ولكن الذي حصل على خلاف ذلك، المفروض على أبي سفيان أن يكون أسبقَ الناس إلى تلبية دعوة النبي، وأن يكون أسرعهم مبادرةً لاتباعه، ولكن الأمر جاء على خلاف ذلك، إذْ ما كاد النبي صلى الله عليه وسلم يظهر دعوته، وينذر عشيرته، حتى شبت نار الضغينة، الضغينة الحقد والكراهية، وقد يكون السبب هو الحسد .

استحالت هذه الصداقة إلى عداوة، واستحالت هذه الرحم إلى قطيعة، واستحالت هذه الأخوة إلى صد وإعراض، ويوم صدع النبي صلى الله عليه وسلم بدعوة ربه كان أبو سفيان فارساً من أنبه فرسان قريش، إنه فارس ملء السمع والبصر، الحقيقة أنّ الشجاعة كانت صفة لصاحبها في العهود السابقة، فيها كرٌّ وفَرٌّ، هجومٌ وطِعان .

أمّا الآن فإنك تجد جنديًّا أمام شاشة رادار يرى صورة الطائرة على شاشة الرادار، وعنده إشارة ضرب يحركها فوق الطائرة يضغط على زر فيسقطها، وقد يكون أشدَّ الناس جُبنًا، الأسلحة الحديثة ليس فيها شجاعة، إنها أجهزة معقدة جداً، حتى إنهم قالوا: الحرب الحديثة حرب بين عقلين، أمّا الجندي فقد يكون شارب خمر، وقد يكون مقصرًا مع ربه، وقد يكون جبانًا، لكن قضية إلكترون، وأجهزة، وأشعة الليزر، الشجاعة الحقيقية يوم كانت الحربُ بالسيف، سيف لسيف ، ووجهٌ لوجهٍ .

كان أبو سفيان شاعراً من أعلى شعرائهم، فما إن امتلأ قلبه حقداً وضغينةً وحسداً حتّى وضع سنانه ولسانه في عداوة النبي، وقد يكون جرح اللسان أبلغ من جرح السنان، جنّد طاقاته كلها للنكاية بالإسلام

والمسلمين، فما خاضت قريشٌ حرباً ضد النبي صلى الله عليه وسلم إلا كان مسعرها، ولا أوقعت بالمسلمين أذى إلا كان له فيه النصيب الأكبر، كتلة شر وحسد .

لقد بدأت الدرس بهذه الكلمة، الحسد مهلك، بدأ بصاحبه فقتله، فإذا كان الواحد له أخ فاقه بالإيمان فليستعن به بالعلم، والآن في الجيش هناك ضباط أمراء عميد فما فوق، فإذا دخلوا كلية الأركان وفيها ضابط نقيب مختص في الحرب الإلكترونية، وهو الذي يعلّمهم، يقفون له، ويستعدون عند دخوله، ويحيُّونه، على أنه الضابط المدرِّب، فهو الآن أرقى منهم، وقد يكونون أرفع منه منصبًا، وقد يكونوا عمداء، لكن الضابط المدرِّب الآن أعلى منهم .

فإذا اتصل الإنسان برجل، بصديق، فلو أنه من سنِّه لا يمنعه الحسد أن يصُدَّ عنه، استفِدْ منه، والإنسان حينما يتواضع لله عز وجل فإنّه يكرم نفسه، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((ألا يا رُبَّ مكـرم لنفسه وهو لها مهين))

الآن ترون أنه أكرم نفسه فأهانها اللهُ، وأبت نفسه أن تؤمن برسول الله، مع أنه ابن عمه، وأخوه من الرضاعة، وصديقه الحميم، وأشبه الناس به، وابن لدته، وقريبه، ومع كل ذلك فالحسد منعه أن يؤمن، ثم إن أبا سفيان بن الحارث أطلق شيطانَ شِعره، وسوطَ لسانه في هجاء رسول الله، فيا للبوار والخسار.

يا أيها الأخوة الأكارم، نعوذ بالله، أن نكون في خندق نعادي المسلمين، وأنْ نكون في صف أعداء المسلمين، لأنك إذا حاربتَ الله ورسوله فالله هو المنتصر ورسوله، وأنت المهزوم الخاسر، قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ)

(سورة الأنفال الآية: 36)

هذا الذي يحارب الله ورسوله، يريد أن يطفئ نور الله عز وجل، يريد أن يشوه سمعة المسلمين، أن يطعن بهم ظلماً وعدواناً، أن يسفه دعوتهم، أن يطعن بأخلاقهم، تشفياً لنفسه، لما في قلبه من الحسد، هذا الذي وقع به أبو سفيان، المتوقع أن يكون أقرب الناس إلى النبي، المتوقع أن يكون مكان أبي بكر، قرابة على رحم، على شَبَه، على لدة، على صداقة حميمة، على نسب، وطالتْ عداوة أبي سفيان بن الحارث للنبي عليه الصلاة والسلام حتى قاربت عشرين عاماً، عشرون عاماً يناصب النبي العداء، عشرون عاماً يهجوه بلسان مقذع، عشرون عاماً يحاربه بسنان لا يلين، لم يترك أبو سفيان بن الحارث في هذه الأعوام العشرين ضرباً من ضروب الكيد للنبي صلى الله عليه وسلم إلا فعله، ولا صنفاً من صنوف الأذى للمسلمين إلا اجترحه، وباء بإثمه.

ما هو الحال الذي كان عليه أبو سفيان حينما رفع الله ذكر الإسلام وما هو الرأي الذي اقترحته عليه زوجه ؟

قبيل فتح مكة بقليل كُتب لأبي سفيان أن يسلم، وكان لإسلامه قصة مثيرة وعتها كتب السير، وتناقلتها آثار التاريخ، والآن نتنحّى جانباً لندعَ الحديث لأبي سفيان نفسه، حتى يرويَ لنا قصته المثيرة عن إسلامه، فشعوره بها أعمق شعور، ووصفه لها أدق وأصدق .

أنا أشعر، أن في قصة هذا الصحابي من المواعظ والعبرة ما لا سبيل إلى حصره، الآن أحاول إن شاء الله تعالى أن أعمق التحليل لهذه القصة المثيرة .

قال أبو سفيان بن الحارث:

((لما استقـام أمر الإسلام، وقرّ قراره، وشاعت أخبار انتصار النبي صلى الله عليه وسلم، وتوجه إلى مكة ليفتحها ضاقت علي الأرض بما رحبت، أين أذهب؟ ولِمَن ألتجئ؟ -قال عليه الصلاة والسلام:

((إذا أردت إنفاذ أمرٍ تدبَّرْ عاقبته))

أحيانًا يسافر الإنسان إلى بلد أجنبي، يتساءل: ما هذه الحياة؟ وهل نحن من أهل الحياة؟ خير إن شاء الله، السيارات، الطرقات، محلات البيع الأنيقة، أرض كلها خضراء، جبال مزدهرة، معامل، مطارات، فانبهر وغشيت عينه غشاوة، كما غشيت قلبه فكرة، فأخذ إقامة، وتزوج فتاةً أمريكية وركَن واطمأنّ، لكن المشكلة حينما يرى ابنته مع صاحب لها يهودي، فلما أزعجه طلبوه إلى المخفر ليؤنبوه، هو معها بدعوة من ابنتك، فلِمَ تتعرَّض لهما؟ وحينما يرى أولاده فلذات أكباده ينحرفون انحرافاً خطيراً، ولا يستطيع أنْ يتفوَّه، عندئذ يذوب قلبه ألماً وكمدًا، نقول له: أين عقلك ؟ أنت حينما أردتَ أن تقيم هناك لمَ لمْ تفك؟ مَن أقام مع المشركين فقد برئت منه ذمة الله، وعلى كلٍّ مَن هو العاقل؟ هو الذي يحتاط للأمور قبل وقوعها- .

ثم جئت زوجتي وأولادي، وقلت: تهيؤوا للخروج من مكة، فقد أوشك وصول محمد، وإني لمقتول لا محالة إن أدركني المسلمون، فقالوا لي: أمَا آن لك أن تبصر أن العجم والعرب قد دانت لمحمد بالطاعة إلى متى تبقى راكبًا رأسك؟ وإلى متى العناد؟ إلى متى الكبر؟ -صدق القائل:

إلـى متـى أنت بالذات مشغول	**وأنت عن كل ما قدمت مسؤول**
أما تستحي منا ويكفيك ما جرى	**أما تخشى من عتبنا يوم جمعنا**
أما آن أن تقلع عن الذنب راجعاً	**وتنظر ما به جــاء وعدنا**
تعصي الإله وأنت تظهر حبـه	**ذاك لعمري في المقال شنيـعُ**

أحياناً أيها الأخوة، تكون الزوجة أصفى من الزوج قلبًا، وأصوب رأيًا، وقد تنصحك نصيحة أبلغ من أية نصيحة، ابنك قد ينصحك- قال: وما زالوا بي يعطفونني على دين محمد، ويرغبونني فيه حتى شرح الله صدري للإسلام))

قرر أنْ يخطب ابنة الملك، قال: الحمد لله، أنا موافق، وأبي موافق، وأمي موافقة، لكن بقيتْ هي وأمها وأبوها، فهذا الرجل أحب أن يسلم، والطرف الثاني هل يقبلك؟ عداوة طويلة لأنه ما حفظ خط الرجعة إطلاقاً، قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((أَحْبِبْ حَبِيبَكَ هَوْنًا مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ يَوْمًا مَا، وَأَبْغِضْ بَغِيضَكَ هَوْنًا مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْمًا مَا))

[أخرجه الترمذي عَنْ أبي هُرَيْرَةَ في سننه]

كيف استقبل النبي مجيء أبو سفيان ؟

ثم قال:

((قمت من توئي، وقلت لغلامي: هيئ لي نوقاً وفرساً، وأخذت معي ابني جعفرًا، وجعلنا نغذّ السير نحو الأبواء بين مكة والمدينة فقد بلغني أن محمدًا نزل فيها، ولما اقتربت منها تنكرت، لماذا تنكر؟ لأن أصحاب النبي لو رآه لقتلوه، لأنه عدوٌ لدود، هذا عدوٌ لله ورسوله، تنكرت حتى لا يعرفني أحد، فأقتل قبل أن أصل إلى النبي، وقبل أن أعلن إسلامي بين يديه، ومضيت أمشي على قدمي نحواً من ميل وطلائع المسلمين تمضي ميممة شطر مكة، جماعة إثر جماعة، فكنت أتنحى عن طريقهم فرَقَاً؟ أي خوفاً منهم، وفرقاً من أن يعرفني أحد من أصحاب محمد، وفيما أنا كذلك إذ طلع النبي صلى الله عليه وسلم في موكبه، قال: فتصديت له، ووقفت تلقاءه، وحسرت عن وجهي فما إن ملأ عينه مني وعرفني حتى أعرض عني إلى الناحية الأخرى ، فتحولت إلى ناحية وجهه، فأعرض عني وحوّل وجهه، -وفي القرآن آية تؤكد هذا المعنى، هذه الآية كتبت أمام قبر النبي صلى الله عليه وسلم، قال تعالى:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً)

(سورة النساء الآية: 64)

يقول هذا الصحابي:

كنت لا أشك وأنا مقبل على النبي أن رسول الله سيفرح بإسلامي ، وأن أصحابه سيفرحون لفرحه))

لو كان هذا قبل عشرين سنة لصحّ كلامك، أمّا بعد هذا العداء، والجفاء، وبعد القتال، والهجاء، فالقضية ليست سهلة .

يقول أحد الأخوان مسوِّفًا: غداً سأتوب، مَن قال لك ذلك؟ إذا تلبّس الإنسان بمعصية فالقضية ليست سهلة، حينما يتورّط الإنسان وينحرف، ويرتكب المعصية، فليس من السهل أن يعود إلى الله بعد أن كثُرت الحجُبُ بينك وبين الله .

هل أعرض المسلمون عن أبي سفيان اقتداء بالنبي ؟

أيها الأخوة، قال:

((لكن المسلمين حينما رأوا إعراض الرسول عني تجهموا لي، وأعرضوا عني جميعاً، فقلت: يا جماعة، قد أسلمت، فات الأوان، تأخرت كثيرًا، لقد لقيني أبو بكر فأعرض عني أشد الإعراض، نظرت إلى عمر بن الخطاب نظرةً استميل بها قلبه، فوجدته أشد إعراضًا من أبي بكر، بل إنه أغرى بي أحد الأنصار، فقال لي الأنصاري: يا عدو الله، أأنت الذي كنت تؤذي رسول الله، وتؤذي أصحابه، وقد بلغت في عداوتك للنبي مشارق الأرض ومغاربها؟ وما زال الأنصاري يستطيل عليّ ويرفع صوته، والمسلمون يتفحصونني بأعينهم، ويُسَرُّون بما ألاقي، حتى أبصرت عمي العباس فُلُذْتُ به، وقلت يا عم: قد كنت أرجو أن يفرح رسول الله بإسلامي، -أمَا للإسلام بهجة! أمَا يفرح أحدٌ بإسلامي، لقد تأخرت كثيرًا، وهذا الكلام أقوله لكم: لا تتأخر بالتوبة أيًّا كنتَ، حتى لا يفوت الأوان، فعليك بالتوبة وأنت شاب، في أوج صحتك، وفي أوج شبابك، أمّا الآن فقد فات الأوان، جاء وقد غرق في المعاصي، وبعدما ملّ، وضعفت نفسه، وضعف جسمه، الآن يريد المساجد وخيرها، ريح الجنة في الشباب- .

عند ذلك أبصرت عمي العباس فلذت به، وقلت يا عم: شفاعتك، قد كنت أرجو أن يفرح رسول الله بإسلامي لقرابتي منه، وشرفي في قومي، لم تعُدْ شريفًا الآن، الشرف أن تؤمن وقد كان منه ما تعلم، ما سلم علي، ما قبلني، ما نظر إليّ لا هو، ولا الصِّدِّيق، ولا عمر، فكلّمْه فيّ ليرضى عني، فقال: لا واللهِ لا أكلمه كلمة أبداً بعد الذي رأيته مِن إعراضه عنك، إلا إن سنحت ليّ فرصة فإني أجل رسول الله وأهابه، فقلت يا عم: إلى من تكلني إذاً، وماذا أفعل؟ .

-إذاً: يا أخوان، عندما يشعر الإنسان أن الله عز وجل أعرض عنه، وبالتعبير القرآني: لعنه، وإذا سقط الإنسان من عين الله، أو سقط من عين المؤمنين، وقد ارتكب حماقة، وارتكب معصية، وعادى أهل الحق، وافترى عليهم افتراء، واللهِ الأرضُ كلها لا تسَعُه، واللهِ لأنْ يسقط الإنسانُ من السماء إلى الأرض فتتحطم أعضاؤه ويموت أهون ألف مرةٍ مِن أن يسقط من عين الله ، هذا يعيش في جهنم- .

قال: ليس لك عندي غير ما سمعت، فتملَّكني الهمّ، وركبني الحزن، ولم ألبث أن رأيتُ ابن عمي علي بن عمي أبي طالب فكلمته في أمري، فقال لي مثل ما قال عمي العباس، فالكل يعرض، ولا أحد يتورط، ولا أحد يعصي الله، عند ذلك رجعتُ إلى عمي العباس، وقلت يا عم: إذا كنت لا تستطيع أن تعطّف عليّ قلب رسول الله فكفَّ عني ذلك الرجل، هؤلاء سوف يقتلونني ، فخلِّصْني من هذا الذي يشتمني ويغري الناس بشتمي، فقال: صفه لي فوصفته له، فقال: ذلك النعيمان بن حارث النجاري، فأرسل إليه، وقال له يا نعيمان: إن أبا سفيان ابن عم رسول الله، القرابة لها شأنها، وابن أخي، وإنْ يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ساخطًا عليه اليوم فسيرضى عنه غدًا، فكفَّ عنه، وما زال به حتى رضي بأن يكفّ عني، وقال: لا أعرض له بعد الساعة))

إذا كان لأحد مكانة في المسجد فلا يضحي بها، لا يرتكب معصية، حتى إذا عرف أخوانُه معصيته احتقروه، فتكريمك، والاحتفال بك، والسلام الذي فيه مودة بالغة، واللقاء البشوش ، والاحترام الكبير، والمكانة العلية التي لك بالجامع ناتجة من استقامتك، من التزامك، من طاعة لله عز وجل، أمّا إذا قلت: أنا عليّ هؤلاء، أرضيهم، وأرضي أولئك، فإذا كشفوك سقطتَ من أعينهم، فلا تكن لا مع هؤلاء ولا مع هؤلاء، كن مع الحق فقط، ولا بأس عليك، فحينما يكون للإنسان مكانته يعيش بسمعته، ويعيش بكرامته، لأنه مستقيم أخلاقيًّا، مطيع لله، له أخوان يحبونه، وهذه نعمة كبيرة .

هل خفف النبي جفوته لأبي سفيان حينما ضاق عليه الأمر من هذا البعد عنه ؟

قال:

((ولما نزل النبي صلى الله عليه وسلم بالجحفة، جلست على باب خيمته، ومعي ابني جعفر قائماً، فلما رآني النبي وهو خارج من منزله، أزاح عني بوجهه، أعوذ بالله، لا أمل لي ، فلم أيئس من استرضائه، وجعلت كلما نزل بمنزل اجلس على بابه، وأقيم ابني جعفرًا واقفاً بحذائي، فكان إذا أبصرني أعرض عني، وبقيت على ذلك زماناً، فلما اشتد علي الأمر وضاق، قلت لزوجتي: والله ليرضين عني رسول الله صلى الله عليه وسلم أو لآخذن بيد ابني هذا، ثم لنذهبن هائميْن على وجوهنا في الأرض حتى نموت جوعاً، -ما عاد يحتمل الصد، والبعد، والجفاء، لا يحتمل أنْ يواجهه به نبي كريم، وكل الأصحاب سعداء بصحبته، سعداء بقربه، سعداء بخدمته ، والنبي معرض عني- قال: فلما بلغ ذلك رسول الله، رق لي، ولما خرج من قبته نظر إليَّ نظراً لكن ألين من النظر الأول وكنت أرجو أن يبتسم فلم يبتسم .

-وبصراحة أقول لكم: ابتسامة من رسول الله في وجهك تعدل الدنيا وما فيها، فكيف إذا قال النبي

لأحد أصحابه: والله يا معاذ إني لأحبك، ارم سعد فداك أبي وأمي، هذا خالي أروني خالاً مثل خالي؟ إذا داعب النبيُّ إنسانًا، وهش في وجهه وبش، واللهِ هذه سعادة ما بعدها سعادة، وهذا يعني أنّ الله راضٍ عنه، لأنّ رضى النبي مِن رضى الله عز وجل، قال الله:

(يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ)

(سورة التوبة الآية: 62)

ثم دخل النبي عليه الصلاة والسلام مكة، فدخلت في ركابه، وخرج إلى المسجد فخرجت اسعى بين يديه، لا أفارقه على حال))

قال الشاعر:

أخلق بذي الصبر أن يحظى بحاجته ومدمن القرع للأبواب أن يلــجا

الإلحاح على الله عز وجل مقبول، يا رب أرجو رضاك، يا رب أرجو رحمتك، يا ربي أرجو توبتك عليّ، لو أنك ما شعرت بشيء أول يوم، اصبر لليوم الثاني، ولليوم الثالث، والرابع، وقد صدق القائل في قوله:

أخلق بذي الصبر أن يحظى بحاجته ومدمن القرع للأبواب أن يلــجا

ما هي الفرصة التي وجدت لأبي سفيان ليكفر عن ماضيه وما هي الكلمة التي سمعها من النبي استطار بها فرحا ؟

قال:

((ولما كان يوم حنين جمعت العرب من أهل الشرك لحرب النبي صلى الله عليه وسلم، ما لم تجمع قط، وأعدت للقائه ما لم تعد من قبل، وعزمت على أن تجعلها القاضية على الإسلام والمسلمين، وخرج النبي صلوات الله عليه في لقائه في جموع من أصحابه فخرجت معه، ولما رأيت جموع المشركين الكبيرة قلت: والله لأكفرن اليوم عن كل ما سلف مني، من عداوة رسول الله، وليرين النبي مني ما تقر به عينه، قال: ولما التقى الجمعان اشتدت وطأة المشركين على المسلمين، فدبّ فيهم الوهن والفشل، وجعل الناس يتفرقون عن النبي صلى الله عليه وسلم، وكادت تحل بنا الهزيمة المنكرة، فإذا بالنبي فداه أبي وأمي، يثبت في قلب المعركة على بغلته الشهباء، كأنه الطود الراسخ، ويجرد سيفه، ويجاهد عن نفسه وعمن حوله، كأنه الليث عادياً، عند ذلك وثبتُ عن فرسي، وكسرت غمد سيفي، واللهُ يعلم أني أريد الموت دون رسول الله، وأخذ عمي العباس بلجام بغلة النبي، ووقف إلى جانبه، وأخذت أنا مكاني من الجانب الآخر، وفي يميني سيفي أذود به عن رسول الله، أما شمالي فكانت ممسكة بركاب النبي، وبيده السيف يدافع بها عن رسول الله، فلما نظر النبي إلى حسن بلائي،

قال لعمي العباس: من هذا؟ فقال العباس: هذا أخوك يا رسول الله، هذا ابن عمك أبو سفيان، فارضَ عنه يا رسول الله، فقال: قد فعلت، وغفر الله له كل عداوة عاداني إياها، فاستطار قلبي فرحاً برضى رسول الله عني، وقبلت رجله في الركاب، ثم التفت إليّ، فقال له: أخي لعمري تقدم فضارب -وبهذا تمّ الصلح .

أيها الأخوة، أقسم بالله العظيم، ما من سعادة أعظم عندنا من أن يشعر المؤمن أن الله يحبه، وأن الله راض عنه، ورضاء رسول الله من رضاء الله- قال: ألهبت كلمات رسول الله حماستي فحملت على المشركين حملة أزالتهم عن مواضعهم، وحمل معي المسلمون حتى طردناهم قدر فرسخ ففرقناهم في كل وجه، قال: ظل أبو سفيان بن الحارث منذ حنين في نعيم القرب))

فالمؤمن باستقامته وإخلاصه لله، وثقته بالله في جنة القرب، صدق القائل:

لو شاهدت عيناك من حسننا	**الذي رأوه لما وليت عنا لغيرنا**
ولو سمعت أذناك حسن خطابنا	**خلعت عنك ثياب العجب وجئتنا**
ولو ذقت من طعم المحبة ذرة	**عذرت الذي أضحى قتيلاً بحبنا**
ولو نسمتْ من قربنا لك نسمة	**لمتَّ غريباً واشتياقاً لقربنا**
ولو لاح من أنوارنا لك لائحٌ	**تركت جميع الكائنات لأجلنا**
فما حبنا سهلٌ وكل من ادعى	**سهولته قلنا له قد جهلتنا**

أقول لكم: لكل واحد منكم، وأنا معكم، يظن المرءُ أنّ الإسلام قضية ركعتين وليرتين لفقير، فمَن كان ظنُّه هذا فهو أحمق، ألا إن سلعة الله غالية، وفي مسيرة الإيمان امتحانات، وظروف صعبة يمر بها المؤمن، فهل يثبت؟ قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم:

((واللهِ إني لأحبك، قال له: انظرْ ماذا تقول؟ قال له: واللِه إني أحبك يا رسول الله، قال له: انظر، ماذا تقول ؟ قال له: واللهِ إني أحبك، قال له: إن كنتَ صادقاً فيما تقول فلَلْفقْرُ أقربُ إليك من شرك نعليك))

لا تغلطوا في فهم الحديث، إذا أنت أحببت رسول الله، ولديك صفقة تجارة فيها ثلاثة أرباع المليون خلال أسبوع، ولكنْ فيها مادة محرمة، أتقبَلها؟ ضعْها تحت قدمك، وظيفة راقية جداً فيها مكاسب كثيرة جداً لكن لا ترضي الله أتقبلها؟ لا، سفرة لبلد غربي تقبلها إذا كانت لغير الله؟ لا تقبلها، فإذا أراد الإنسان أنْ يستقيم فلا بد أنْ يضحي، ولا يقبل إلا ما هو حلال يرضي الله تعالى، وهنا يكون الإيمان، ويكون لك الفلاح .

انظر إلى حياء أبي سفيان خجلاً من الأيام التي كاد بها النبي وانظر إلى تلاوته للكتاب الذي شغف قلبه به :

كان أبو سفيان بعد وقعة حنين ينعم بجميل رضى النبي عنه، ويسعد بكريم صحبته، من خجله منه، وقيل: إنه لم يرفع نظره إليه أبداً، هذه العشرون سنة كسرت نفسه وحجّمته، ما رفع نظرًا له أبداً، ولا ثبت نظره في وجهه حياء منه، وخجلاً من الماضي معه .

والله يا أخوان، عندنا جنة في الدنيا، تتحقق للمؤمن بالقرب من الله، ولكن لا بد أنْ يضحّي ويستقيم، فاضبط شهواتك، واحضر مجالس العلم، وآثر الله ورسوله على كل شيء، وجعل أبو سفيان يعض بنان الندم على الأيام التي قضاها في الجاهلية، المؤمن الصادق أيها الأخوة إذا تذكر جاهليته، أو تذكر أيام المعاصي والفجور يذوب مثل الشمعة ندمًا، وجعل أبو سفيان يعض أصابع الندم على تلك الأيام التي قضاها في الجاهلية محجوباً عن نور الله، محروماً من كتاب الله، قال تعالى:

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ)

(سورة هود الآية: 28)

وقال تعالى:

(مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ)

(سورة القلم الآية: 2)

المؤمن في سعادة، واللهِ لا تستطيع سبائك الذهب اللامعة، ولا سياط الجلادين اللاذعة أن تصرفاه عنه، قال له: أتحب أن يكون محمد مكانك؟ قال: لا والله لا أحب أن أكون في بيتي وأهلي، وعندي عافية الدنيا ونعيمها، ويصاب رسول الله بشوكة، ماذا فعل هذا الصحابي الجليل؟ قال: أقبل على كتاب الله يقرؤه ليلاً ونهاراً، ويتفقه في أحكامه، ويتملى من عظاته، وأعرض عن الدنيا وزهرتها، وأقبل على الله بكل جارحة من جوارحه، حتى إن النبي صلى الله عليه وسلم رآه ذات يومٍ يدخل المسجد، فقال لعائشة رضي الله عنها:

((يا عائشة، أتدرين مَن هذا؟ قالت: لا والله، قال: إنه ابن عمي أبو سفيان، انظري إليه إنه أول من يدخل المسجد، وآخر من يخرج منه، ولا يفارق بصره شراك نعليه أبداً))

ولما لحق النبي صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى حزن عليه أبو سفيان حزن الأم على وحيدها، لا على ابنها، بل على وحيدها، وبكاه بكاء الحبيب على حبيبه، ورثاه بقصيدة، فهو شاعر، فهذه مناسبة تجود بها القرائح الشعرية، ورثاه بقصيدة من أرَقِّ المراثي، تفيض لوعةً وشجوناً، وتذوب حسرة وأنينًا.

كيف استقبل أبو سفيان الموت ؟

وفي خلافة الفاروق رضي الله عنه أحسّ أبو سفيان بدنو أجله، فحفر قبره بنفسه، ولم يمض على ذلك غير ثلاثة أيام حتى حضرته الوفاة، كأنه مع الموت على ميعاد، فالتفتَ إلى زوجته وأولاده وأهله وهم يبكون حوله، ماذا قال لهم: لا تبكوا علي، ولا تحزنوا، فو الله ما تعلقت بخطيئة منذ أسلمت؟ فهو مطمئن، هكذا فليكن المؤمن، تربية النبي كانت راكزة، رباه تربية توبة.

أنا أعتقد والله أعلم أنّ النبي من أول لقاء فرح بإسلامه، لكن باعتبار عشرين سنة عداء، فمَن أخذ البلاد من غير حرب يهُنْ عليه تسليمها، وحتى رضي عنه مضتْ فترة طويلة، ثم فاضت روحه الطاهرة فصلى عليه الفاروق نفسه، وحزن لفقده هو وأصحابه الكرام، وعدوا موته جللاً حل بالإسلام وأهله .

ما هي المغزى التي نستنبطها من قصة هذا الصحابي الجليل ؟

هذه قصة أبي سفيان بن الحارث ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم، وليس من السهل أن تتوغل في المعاصي، وتعود متى أردت إلى الله، وهذا هو المغزى، لا، إنّ الله عزيز، قال تعالى:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

(سورة الزمر الآية: 53)

فعلى المسلم ألاّ يتورط، فلا يعصي، ولا يضحي بسمعته عند المؤمنين، فسقوطه من أعينهم أمرٌ فادح جلل، مكانتك لها ثمن، المودة لها ثمن، الحب له ثمن، النبي قال: الجماعة رحمة ، أنت منضم إلى جماعة مؤمنة، محبوب، مكرم، معزز، ومفارقة الجماعة خسارة، فعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنَّ الشَّيْطَانَ ذِئْبُ الْإِنْسَانِ كَذِئْبِ الْغَنَمِ يَأْخُذُ الشَّاةَ الْقَاصِيَةَ وَالنَّاحِيَةَ، وَإِيَّاكُمْ وَالشِّعَابَ، وَعَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ وَالْعَامَّةِ))

[أخرجه أحمد عن معاذ بن جبل في مسنده]

(حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ)

(سورة التوبة الآية: 118)

أيْ الثلاثة الذين خُلّفوا، فمَن كان المؤدب؟ إنّه الله عز وجل، وفي درس اليوم من المؤدب؟ إنّه النبي صلى الله عليه وسلم، لكن بوحي من الله عز وجل، وقد يؤدِّب ربنا إنسانًا أسرف على نفسه، وقبل توبته، وليحذرْ أنْ يعود إلى الذنوب ثانية، فالعائد إلى الذنب كالمستهزئ بربه، وقد تكون الخاتمة وبيلة .

دخل النبي على بعض أصحابه، وكان مريضاً، فقال:

((يا رسول الله، ادعُ الله لي أن يشفيني، أن يرحمني، فقال: يا رب ارحمه، قال: فجاء الوحي للنبي، فقال يا محمد: كيف أرحمه مما أنا به أرحمه؟ وعزتي وجلالي لا أرحم عبدي المؤمن، ولا أقبض عبدي المؤمن وأنا أحب أن أرحمه إلا ابتليته بكل سيئة كان عملها سقماً في جسده، أو إقتاراً في رزقه، أو مصيبة في ماله أو ولده حتى أبلغ منه مثل الذر فإذا بقي عليه شيء شددت عليه سكرات الموت حتى يلقاني كيوم ولدت أمه))

كان للواحد منا جاهلية، فإنه سبحانه يطهره، فليرضَ وليسلّمْ، وليتحمل، فهذا لصالحه، وهذه المعالجة كانت لصالح هذا الصحابي، والله عز وجل لا يتخلى عن المؤمن، ولكن لا تمل، وكن عبدًا ملحاحاً، صدق القائل:

لا تسألن بني آدم حـــاجة وسَلِ الذي أبوابه لا تُحجَبُ

الله يغضب إن تركت سؤاله و بني آدم حين يسأل يغضب

الإنسان يغضب إذا سئل، والله جل جلاله يغضب إذا لم يسأل .

والحمد لله رب العالمين

السيرة - رجال حول الرسول - الدرس (19-50) : السيدة أم سلمة أم المؤمنين

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 15-02-1993

بسم الله الرحمن الرحيم

نبذة قصيرة عن حياة أم سلمة :

أيها الأخوة الأكارم، نحن مع أصحاب رسول الله رضوان الله عليهم أجمعين، وصحابي اليوم، بل وصحابية اليوم السيدة أم سلمة وهي زوج النبي عليه الصلاة والسلام، ولقصتها عِبَر كثيرة، ودلالات خطيرة، وحقائق دقيقة .

فأم سلمة، أبوها سيد من سادات مخزوم المرموقين، وجواد من أجواد العرب المعدودين ، حتى إن أباها كان يسمى بين العرب زاد الراكب، لكثرة عطائه، وشدة كرمه، وأمّا زوجها فعبد الله بن عبد الأسد أحد السابقين إلى الإسلام، إذ لم يسلم قبله إلا أبو بكر الصديق ونفر قليلٌ لا يبلغون أصابع اليدين عدداً، هذه المرأة الفاضلة أسلمت مع زوجها فكانت هي الأخرى من السابقات إلى الإسلام، وهذه وقفة قصيرة لا بد منها .

المرأة مساوية للرجل في الإسلام من حيث التكليف والتشريف :

أيها الأخوة، هذا كلام دقيق، المرأة كالرجل تماماً، هذا حكم الإسلام، هذا حكم الدين، المرأة كالرجل تماماً، في التكليف، وفي التشريف، مكلفة بالإسلام كالرجل، مكلفة بالإيمان كالرجل ، مكلفة بالفرائض كالرجل، مشرِّفة عند الله كالرجل، والأدلة على هذه الحقيقة في القرآن والسنة كثيرة جداً، قال تعالى:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة النحل الآية: 97)

(فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَاباً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ)

(سورة آل عمران الآية: 195)

(إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً)

(سورة الأحزاب الآية: 35)

يا أيها الإخوة الأكارم، من سعادة المرء في الدنيا أن تكون زوجته صالحة، أن تكون زوجته مؤمنة كإيمانه، سابقة إلى الإسلام كسبقه، محبة لله كحبه، طائعة لله كطاعته، عبادة كعبادته ، لذلك أي رجل يهمل تعليم زوجته حقائق الدين وآيات القرآن الكريم يدفع الثمن باهظًا من سعادته الزوجية، وليس أشقى في الحياة من أن تكون أنت في واد وزوجتك في واد آخر، فأجمل البيوت الإسلامية ما كان فيها توافق بين الزوجين، لأن الزوجة من أجل أن تقضي منها الوطر، فهذا شيء يخف بريقه مع الأيام، لذلك فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ:

((تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ لِمَالِهَا وَلِحَسَبِهَا وَلِجَمَالِهَا وَلِدِينِهَا فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ))

[أخرجه مسلم في الصحيح عن أبي هريرة]

لأنها تسعد زوجها، أما ذات الدنيا تمتعه ولا أقول تسعده، تمتعه إلى حين، فأسعد المؤمنين من كانت زوجته على شاكلته، عليه أن يجتهد في ترسيخ الإيمان في قلبها، القضية بحسب الطلب، ربنا عز وجل قال:

(وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ)

(سورة الأنبياء الآية: 89 - 90)

وأصلحنا له زوجه، فالمسلم إن لم يكن متزوجاً، عليه بذات الدين، وإن كان متزوجاً عليه بإصلاح زوجته، بالإحسان تارة، بالتوعية تارة، بالتعليم تارة، بالتكريم تارة، بوسائل كثيرة جداً يراها الزوج مناسبة .

هجرتها مع زوجها إلى الحبشة :

ما إن شاع إسلام أم سلمة وزوجها حتى هاجت قريش وماجت وجعلت تصب عليهما من نكالها ما يزلزل الصخور، فلم يضعفا، ولم يَهِنَا، ولم يترددا .

يا أخوة الإيمان، الصحابة الكرام دفعوا ثمن هذا الإسلام باهظاً، حتى وصل إلينا، دفعوا من راحتهم في الدنيا، دفعوا من طمأنينتهم، دفعوا من مستوى معيشتهم، دفعوا من حبهم لأوطانهم ، كل هذا ضحوا به من أجل أن ينتشر الإسلام، ولما اشتد عليهما الأذى، وأذن النبي عليه الصلاة والسلام لأصحابه بالهجرة إلى الحبشة، كان عبد الله وأم سلمة من طليعة المهاجرين، طبعاً أم سلمة من علية القوم، حينما مضت مع زوجها إلى الحبشة خلفت وراءها بيتًا باذخاً، وعزاً شامخاً ، ونسبا عريقا، محتسبة ذلك كله عند الله، مستقلة ذلك في جنب الله .

المسلم إن لم يبذل من جهده، من ماله، من راحته أحياناً، من علاقاته الاجتماعية في سبيل الله، فلن يصل إلى ما يرضيه .

لقيت أم سلمة وزوجها من الملك النجاشي الرحمة والإكرام، نضر الله مثواه في الجنة، عده بعض كتاب السيرة من التابعين، لأنه كان أفضل مَن وَفَدَ إليه أصحاب النبي .

ما سبب عودة أم سلمة مع زوجها إلى مكة ؟

تتابعت الأخبار على المهاجرين إلى أرض الحبشة، من هذه الأخبار أن المسلمين قد كثر عددهم وأن حمزة بن عبد المطلب، وعمر بن الخطاب قد أسلما، وبإسلام هذين الرجلين الكبيرين اشتد أزر المسلمين، وقويت شوكتهم، الأخبار التي جاءت إلى المهاجرين في الحبشة كانت طيبة جداً، لذلك عادت أم سلمة وزوجها إلى مكة، بعد أن تلقيا أخباراً طيبة عن أن المسلمين قويت شوكتهم، واشتد عودهم بإسلام عمر وحمزة، وأن المسلمين كثر عددهم، لكن سرعان ما اكتشفت أم سلمة وزوجها أنّ هذه الأخبار كان مبالغاً فيها، وأن الوثبة التي وثبها المسلمون بعد إسلام عمر وحمزة قوبلت من قريشٍ بهجمة أكبر .

أحيانًا نفرح إذ يقولون: هناك صحوة إسلامية، لكن مع الصحوة في هجمة، أبداً الهجمة تكافئ الصحوة، هذه معركة أبدية، معركة الحق والباطل، معركة الخير والشر، معركة الهدى والضلال، معركة العقل مع الشهوة، معركة القيم مع الحاجات، هذه معركة أبدية، فأي مشكلة تواجهها من هذا القبيل فهذه المشكلة تندرج مع هذه المعركة الأزلية بين الحق والباطل .

إليكم قصة أم سلمة حينما هاجرت مع زوجها إلى المدينة والأحداث التي جرت معها :

لذلك بالغ المشركون في تعذيب المسلمين، وترويعهم، فقد أذاقوهم من بأسهم ما لا عهد لهم به، عند ذلك أمر النبي عليه الصلاة والسلام أصحابه بالهجرة إلى المدينة، فعزمت أم سلمة وزوجها على أن يكونا أول المهاجرين فراراً بدينهما من أذى قريش، وكما هي العادة ندع الحديث الآن لأم سلمة تحدثنا عن هجرتها، والقصة مؤثرة جداً، وفيها استنباطات رائعة، وحقائق دامغة .

تقول أم سلمة:

((لما عزم أبو سلمة على الخروج إلى المدينة أعد لي بعيراً ثم حملني عليه، وجعل طفلنا سلمة في حجري، ومضى يقود بنا البعير وهو لا يلوي على شيء .

-ذات مرة أحد لصوص الصحراء، لصوص الخيل، وقف على الرمل الذي يكاد يحترق من شدة أشعة

الشمس، فمر به فارس يمتطي فرسه، هذا الفارس رق لهذا الإنسان البائس الذي ينتعل رمال الصحراء المحرقة، فدعاه إلى ركوب الفرس معه، وما إن ركب هذا اللص خلف صاحب الفرس، حتى دفعه إلى الأرض، وعدا بالفرس لا يلوي على شيء، ذكرني بهذه القصة كلمة لا يلوي على شيء، فناداه صاحب الفرس، وقال: يا هذا، وهبت لك الفرس ولن أسْأل عنها بعد اليوم، ولكن إياك أن يشيع هذا الخبر في الصحراء، فإن شاع هذا الخبر تذهب المروءة من الصحراء، وبذهاب المروءة يذهب أجمل ما فيها .

إذا أقرضَ إنسان إنسانًا مبلغًا، وهذا المدين أكله على الدائن، فأنا لا أتمنى أن يشيع هذا الخبر بين الناس، وإذا أحسن إنسان إلى إنسان، والذي أحْسِنَ إليه أساء إساءة بالغة، فلا أتمنى أن تشيع بين الناس، لأنه كلما شاع بين الناس مثل هذه الإساءات، أحجم الناس عن فعل الخير، وبالمناسبة في بلدنا أكثر من سبعمئة ألف شقة فارغة، هل هي أزمة سكن أم إسكان؟ أزمة إسكان ، وليس هناك أزمة سكن لماذا؟ لأن بعض الحوادث أو عشرات الحوادث زعزعت ثقة الإنسان بمَن يريد سكنًا للإيجار، فنشأ ما يسمى بأزمة الإسكان، لا أزمة السكن، هذا الذي ذكره الله عز وجل:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ * فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ)

(سورة الماعون الآية: 1 ـ 7)

(ويمنعون الماعـون) إذا أسأت إلى المحسن فقد منعت الماعون، كلكم يذكر قبل حين أنه كان الإنسان إذا رأى مصاباً في حادث فلا أحد يسعفه إلى المستشفى، لماذا؟ لأن الذي يسعفه إلى المستشفى سوف يعتقل إلى أن تُكتشف حقيقة هذا الحادث، فالإنسان إذا قام بإسعاف جريحٍ فإنه يبقى في السجن أيامًا عديدة حتى يكتشف أولو الأمر الحقيقة، هي مشكلة كبيرة، لذلك صار الإنسان يموت نزيفاً ولا أحد يسعفه إلى المستشفى، إلى أن صدرت تعليمات جديدة بأن أحداً لن يسأل المسعف أبداً، وإذا أسعفه وأوصله إلى المستشفى، فالذي كان يضيِّق على هذا المسعف فقد مَنَعَ الماعون، ومَنَعَ الخير، فالمحسن إذا أسأت إليه أسأت إلى المجتمع بأسره لا إلى شخصه- .

تقول هذه الصحابية الجليلة: وقبل أن نفصل عن مكة، أي نبتعد عن مكة، رآنا رجال من قومي بني مخزوم فتصدوا لنا، وقالوا لأبي سلمة: إن كنت قد غلبتنا على نفسك، فما بال امرأتك هذه وهي ابنتنا فعلامَ نتركك تأخذها منا وتسير بها في البلاد، ثم وثبوا عليه وانتزعوني منه انتزاعاً، فرقوا بين عبد الله وبين زوجته أم سلمة، وما إن رآهم قوم زوجي بنو عبد أسد يأخذونني أنا وطفلي حتى غضبوا أشد الغضب، وقالوا: لا والله لا نترك الولد عند صاحبتكم بعد أن انتزعتموها من صاحبنا انتزاعاً فهو ابننا ونحن أولى به، ثم طفقوا يتجاذبون طفلي سلمة بينهم على مشهد مني حتى خلعوا يده، وأخذوه، هذه

مأساة، وفي لحظات وجدت نفسي ممزقة الشمل وحيدة فريدة فزوجي اتجه إلى المدينة فراراً بدينه ونفسه، وولدي اختطفه بنو عبد أسد من بين يدي محطماً مهيضاً، يعني مكسور الجناح، أمَّا أنا فقد استولي عليَّ قومي بنو مخزوم وجعلوني عندهم، -هذه من المآسي التي عاناها أصحاب رسول الله .

وهذا سؤال، لو أنّ رجلاً سأل نفسه: نحن ما عملنا لرفعة الإسلام؟ والله يا أخي ما حضرتُ الدرسَ، المواصلات صعبة، لكنها الآن حُلَّتْ مشكلتها، وكثرتْ سيارات النقل المتوسطة ، فهل حصل لأحدٍ كما حصل لهذه المرأة الصحابية؟ .

رُوِيَ سيدنا صلاح الدين الأيوبي رضي الله عنه أنّ امرأة أسيرة فقدتْ وليدها، فلما شكتْ إليه ذلك، وقف ولم يجلس حتى أعادوا لها وليدها، دخلت إلى خيمة تنتظر مجيء وليدها، فإذا زوجها بالخيمة، فلما عرفته وعرفها بعد طول فراق، وهما من النصارى، ويبدو أنها عانقته أو عانقها، فيروي كتاب التاريخ أن سيدنا صلاح الدين الأيوبي غض بصره وأكبر هذه الرحمة التي وضعها الله بين الزوجين، فلما حدثته عن معاملة المسلمين، وكان زوجها فارساً من فرسان أوربا المشاهير أسلم، وعينه صلاح الدين الأيوبي أحد قادته الكبار، ما هذه المعاملة؟ يعني المسلمون يتحلَّون بأعلى درجات الكمال- .

قالت: ومنذ ذلك اليوم جعلت أخرج كل غداة إلى الأبطح، فاجلس في المكان الذي شهد مأساتي، وأستعيد صورة اللحظات التي حيل خلالها بيني وبين ولدي وزوجي، وأظل أبكي حتى يخيم عليَّ الليل.

-إذاً: الذي أودعه الله في قلب الزوجة من محبة لزوجها، والذي أودعه الله في قلب الزوج من محبة لزوجته، ومن محبة الزوجين لابنهما، ومن محبة الابن لوالديه، فهذه رحمة من الله سبحانه أودعها الله في قلوبَ عباده .

لذلك فالنبي الكريم، قال: ليس منا من فرق بين والدة وولدها، وينطبق هذا القولُ على كل إنسان يفرِّق بين أم وولدها، حتى لو كانا من البهائم، فالمفرِّق ملعون، لأن الذي أودعه الله في القلوب لا تمحوه الأحداث أبداً، لذلك قال تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

(سورة الروم الآية: 21)

وبقيت على ذلك سنة، أو قريباً من السنة، إلى أن مر بي رجل من بني عمي فرَقَّ لحالي، ورحمني، وقال لبني قومي: ألا تطلقون هذه المسكينة، فرقتم بينها وبين زوجها، وبينها وبين ولدها ، وما زال بهم يستلين قلوبهم، ويستدر عطفهم، حتى قالوا: الحقي بزوجك إن شئت، ولكن كيف ألحق بزوجي وهو في المدينة، وأترك ولدي وفلذة كبدي في مكة عند بني عبد الأسد؟ كيف يمكن لي أن تهدأ هذه اللوعة، أو ترقأ عَبْرة، وأنا في دار الهجرة، وولدي الصغير في مكة لا أعرف عنه شيئاً؟))

فقلب الأم، وقلب الأب، يؤكد عظمة الله عز وجل، قلب الأم يؤكد رحمة الله عز وجل.

عودة ابنها إليها ولحاقها بقوافل المهاجرت إلى المدينة :

تقول أمُّ سلمة:

((ورأى بعض الناس ما أعالج من أحزاني وأشجاني فرقت قلوبهم لحالي، وكلموا بني عبد الأسد في شأني، واستعطفوهم عليَّ، فردوا لي ولدي سلمة، قالت: فلم أشأ أن أتريث في مكة حتى أجد من أسافر معه، لشدة شوقها للمدينة دار الهجرة، ولزوجها والد ابنها، فقد كنت أخشى أن يحدث ما ليس بالحسبان، فيعوقني عن اللحاق بزوجي عائق، لذلك بادرت فأعددتُ بعيري، ووضعت ولدي في حجري، وخرجتُ متوجهة نحو المدينة أريد زوجي، وما معي أحد من خلق الله))

امرأة تركب ناقة وفي حجرها ولدها وتُيَمِّم شطر المدينة، التي تبعد عن مكة 450 كيلومترًا، تحتاج إلى أن تقطعها الآن في سيارة مكيفة حديثة تسير بسرعة 180- 210، في طريق سريعة عريضة مزفَّتة، تحتاج إلى خمس ساعات سير، أو ثلاث ساعات، وكان أصحاب النبي يقطعون هذه الطريق في اثني عشر يوماً .

بربكم أرجو أن توازنوا بين ما نحن فيه، وبين ما كان أصحاب رسول الله فيه، بل الأغرب من ذلك وازنوا بين ما نحن فيه، وبين ما كان فيه أهل الجاهلية .

من هو الصحابي الذي رافقها في طريق هجرتها قبل إسلامه ؟

قالت:

((وما إن بلغت التنعيم، التنعيم الآن منطقة فيها مسجد السيدة عائشة، مكان الإحرام للعمرة، وما إن بلغت التنعيم حتى لقيت عثمان ابن طلحة، فقال: إلى أين يا بنت زاد الراكب؟

قلت: أريد زوجي في المدينة .

قال: أو ما معك أحد؟ .

قلت: لا والله إلا الله، ثم بني هذا .

قال: واللهِ لا أتركك أبداً حتى تبلغي المدينة .

فسار معها اثني عشر يوماً، ثم أخذ بخطام بعيري وانطلق يهوي بي))

إليكم حديثها عن صفات هذا الصحابي الذي لم يدخل في الإسلام بعد :

اسمعوا وصف السيدة أم سلمة لهذا الرجل الذي لم يسلم بعد، هذا مشرك، قالت:

((واللهِ ما صحبت رجلاً من العرب قط أكرم منه ولا أشرف، كان إذا بلغ منزلاً من المنازل ينيخ بعيري ثم يستأخر عني، حتى إذا نزلت عن ظهره، واستويت على الأرض، دنا إلى البعير، وحط عنه رحله ، واقتاده إلى شجرة، وقيده فيها، ثم يتنحى عني بعيداً إلى شجرة أخرى فيضطجع فيها فإذا حان الرواح

قام إلى البعير، فأعدَّه، وقدَّمه إلي، ثم يستأخر عني، ويقول: أركبي فإذا ركبت واستويت على البعير، أتى وأخذ بخطامه وقاده .

-وازنوا بين هذا الجاهلي وبين شباب المسلمين اليوم، يعني إذا امرأة في مكان تعثرت، فالمسلم الشهم يغض بصره فوراً، أما الدنيء فإنه ينظر إليها، فهذا الرجل قبل أن يسلم، هكذا تصرف كما رأيتم، وقرأتم عن تصرفاته قبل أسطر- .

قالت: وما زال يصنع بي مثل ذلك كل يوم حتى بلغنا المدينة، فلما نظر إلى قرية بقباء لبني عمرو بن عوف، قال: زوجك في هذه القرية فادخليها على بركة الله، ثم انصرف راجعاً -وسار اثني عشر يومًا، حتى أوصلها سالمة، فهو شهم حقًّا، وصاحب مروءة، فهذه أخلاق جاهلية أمتنا .

ونضرب مثلا باللغة التجارية، فنقول: إذا قبض رجلٌ مالاً من المشتري، فكتب في سجلاَّته دفعة أولى، معنى ذلك أنه ستكون هناك دفعة ثانية، هل هذا الكلام صحيح؟ نعم، فكل شيء موثَّق، ورغم ذلك نجد التحايلَ كثيرًا، ربنا عز وجل قال:

(وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً)

(سورة الأحزاب الآية: 33)

ولا تبرجـن تبرج الجاهلية الأولى، فما المعنى؟ كانت جاهلية أشد ممّا أتى بعدها، هي جاهلية جهلاء، يُكذَّب الصادق، ويُصدَّق الكاذب، يؤتمن الخائن، ويخون الأمين، ويوسَّد الأمر إلى غير أهله، ويصبح الولد غيظاً، والمطر قيظاً، ويفيض اللئام فيضاً، يغيظ الكرام غيظاً، يؤمر بالمنكر، ويُنهى عن المعروف، وتركب ذواتُ الفروج السروج، كما ورد في بعض الأحاديث، ويعق الابنُ أباه، ويبرُّ صديقه.

وفي أيامنا نجد شبابًا مع والده ووالدته، أشرس ما يكون، ومع أصدقائه مثل الجمل الذلول، سهل المأخذ، ليّن الجانب، لطيف، وديع .

النبي الكريم أخبر يوم يذوب قلب المؤمن في جوفه مما يرى ولا يستطيع أن يغير، أحاديث كثيرة لا أذكرها الآن، لذلك أُلِّفتْ كتب كثيرة تحت عنوان: جاهلية القرن العشرين، هناك جاهلية جهلاء، والملاحَظ الآن في العالَم جاهلية ما بعدها جاهلية، لا قيم، ولا مبادئ، ولا أخلاق، ولا رحمة، بل قسوة ما بعدها قسوة، ووحشية ما بعدها وحشية، تفاوت ما بعده تفاوت، قهرٌ ما بعده قهر، لذلك كلمة الأولى في قوله تعالى لها معانٍ كثيرة، ولا تبرجن تبـرج الجاهلية الأولى، فمَن يصدِّق أنّ في بعض البلاد الغربية 30% من حالات الزنا زنا محارم، الأخت مع أخيها، والأب مع ابنته، إلى أن أصبح هذا شبه شائع، ولا تبتعدوا كثيراً، هذا الذي نجح في الانتخابات الرئاسية في أمريكا، لماذا نجح؟ لأنه وعَد فيما

وعدهم بإباحة الإجهاض، وأما الشاذون جنسياً فهؤلاء سمح لهم بدخول الجيش، وكأن هذا ليس شذوذاً، بل هو مقبول اجتماعياً، هذه هي جاهلية القرن العشرين- .

اجتمع الشمل بعد طول افتراق، وقرت عين أم سلمة بزوجها، وسعد أبو سلمة بصاحبته وولده، ثم تسارعتْ الأحداث ومضتْ الأيامُ سراعاً كلمح البصر))

المصيبة المؤلمة التي قدر لها في بيت أم سلمة :

فهذه بدر يشهدها أبو سلمة ويعود منها مع المسلمين، وقد انتصروا نصراً مؤزراً، وهذه أُحُد يخوض غمارها بعد بدرٍ، ويبلي فيها أحسن البلاء وأكرمه، لكنه يخرج منها وقد جرح جرحاً بليغاً، فما زال يعالجه حتى بدا له أنه قد اندملتْ، لكن الجرح قد اندمل على فساد، فما لبث أن انتكأتْ، ولزم أبو سلمة الفراش، وفيما كان أبو سلمة يعالج من جرحه، قال لزوجته:

((يا أم سلمة، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: لا يصيب أحد مصيبة فيسترجع عند ذلك فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم عندك احتسبت مصيبتي هذه، اللهم اخلفني خيراً منها إلا أعطاه الله عز وجل))

هذا كلام النبي الذي لا ينطق عن الهوى .

قالت:

((ظل أبو سلمة على الفراش مريضًا أياماً، وفي ذات صباح جاءه النبي صلى الله عليه وسلم ليعوده، فلم يكد ينتهي من زيارته ويجاوز باب داره حتى فارق أبو سلمة الحياة، فرجع النبيّ وأغمض عينيه بيديه الشريفتين، ورفع طرفه إلى السماء، وقال: اللهم أغفر لأبي سلمة وارفع درجته في المقربين، واخلفه في عقبه من الغابرين، واغفر لنا وله يا رب العالمين، -هذا دعاء النبي لأبي سلمة، وقد توفاه الله عز وجل، وأفسح له في قبره، ونوِّرْ له فيه- .

أمّا أمُّ سلمة فتذكرت ما رواه لها أبو سلمة عن رسول الله، فقالت: اللهم عندك احتسبت مصيبتي هذه، -هكذا يكون المؤمن، لكنها لشدة إعجابها بأبي سلمة، ولشدة حبها له، ولأنها تعتقد أن أحداً لن يكون خيراً منه كزوج لها، لمّا وصلت لقول النبي: اللهم اخلفني خيراً منها، ما استساغت نفسُها أنْ تدعوَ بهذا الدعاء، -لم تطب نفسها أن تقول: اللهم اخلفني خيراً منها- لأنها كانت تقول: ومن عساه أن يكون خيراً من أبي سلمة،-ليس معقولاً، ويبدو أن زوجها كان في أعلى درجة من المروءة، والشهامة، والكرم، والأخوة، والقوة، والمنعة، بعضُ الأزواج ملء السمع والبصر- فحزن المسلمون

لمصاب أم سلمة كما لم يحزنوا لمصاب من قبل، وأطلقوا عليها اسمَ أيِّم العرب، إذْ لم يكن لها في المدينة أحدٌ من ذويها غير صِبْية صغار، وشعر المهاجرون والأنصار معاً بحق أم سلمة عليهم))

الحظ السعيد الذي نالته أم سلمة بزواجها من رسول الله :

هناك زواج في الإسلام لا يقصد منه المتعة إطلاقاً، زواج شهامة، زواج مروءة، حتى تقدم منها أبو بكر الصديق يخطبها لنفسه، فلا قريب لها، ولا معيل، وأولادها صغار، ولا أحد يدخل عليها، فأبت أن تستجيب له، ورفضت، ثم تقدم منها عمر بن الخطاب، فردَّته كما ردت صاحبه .

وبالمناسبة يقول عليه الصلاة والسلام:

((أول من يمسك بحلق الجنة أنا، فإذا امرأة تنازعني تريد أن تدخل الجنة قبلي، قلت: من هذه يا جبريل؟ قال: هذه امرأة مات زوجها، وترك لها أولادًا، فأبت الزواج من أجلهم))

أنا أعتقد أن أم سلمة هذه الصحابية الجليلة لم ترفض طلبَ أبي بكر رضي الله عنه، ولا طلب عمر رضي الله عنه كِبَراً، ولكن هناك أسباب، سنراها بعد قليل، ثم تقدم منها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت له:

((يا رسول الله، إن فيَّ خلالاً ثلاثًا، فأنا امرأة شديدة الغيرة، فأخاف أن ترى مني شيئاً يغضبك فيعذبني الله، وأنت رسوله، وأنا امرأة قد دخلت في السن، أيْ كبيرة، لا أصلح للزواج، وأنا امرأة ذات عيال، وعندي أولاد، قال: أمَّا ما ذكرت مِن غيرتك فإني أدعو الله عز وجل أن يذهبها عنك، - فهي مرض، والغيرة لها حد مقبول، وبوضعها المعتدل ضرورية جداً، فإذا شعر الزوج أن زوجته تغار عليه، وتحرص على أن يكون لها وحدها، وتحرص على رضاه ، فهذه صفة ضرورية أودعها الله في النساء، لكن كل صفة أودعها الله في النساء والرجال لها حد طبيعي .

الغيرة أيها الأخوة، في أحجامها الطبيعية ضرورية، لكن أحياناً تتفاقم عند امرأة ما، وتزيد عن حدها المعقول، فتنقلب إلى مرض، يعني امرأة تشك في زوجها الذي هو في أعلى درجات الاستقامة، فهي مريضة إذاً، تغار عليه أن يتصل بالهاتف، تغار عليه أن يتأخر بالمجيء إلى البيت، تظن به الظنون، هذه امرأة تحتاج إلى معالجة- .

النبي عليه الصلاة والسلام، قال: أما ما ذكرت من غيرتك فإني أدعو الله عز وجل أن يذهبها عنك، وأما ما ذكرت من السن فقد أصابني مثل الذي أصابك، وأمّا ما ذكرت من العيال فإنما عيالك عيالي، ثم تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم من أم سلمة))

أليس رسول الله خيراً من أبي سلمة؟ اخلفني خيراً منها، فاستجاب الله دعاءها، واخلفها خيرًا من أبي سلمة، ومنذ ذلك اليوم لن تبقى أم سلمة أماً لسلمة وحده، وإنما غدتْ أمًّا لجميع المؤمنين .

ما هي الاستنباطات التي يمكن أن نستخرجها من قصة أم سلمة ؟

1- أن يكون هدف المرء في الحياة مرضاة الله عز وجل :

وبعد، فإني أسألكم بعض الأسئلة، وأريد استنباطات من هذه القصة، استنباطات تفيدنا في حياتنا اليومية، أحداث القصة يعنينا منها الحقائق، العبر، المواعظ، التجارب .

أن يكون اختياره أولاً مرضاة الله عز وجل، أبو سلمة ترك زوجته وولده وفر إلى الله ورسوله، فر بدينه إلى الله ورسوله، والله عز وجل تولى أمره، أعاد إليه زوجته وولده، وأكرمه بصحبة النبي عليه الصلاة والسلام، إذاً: المقولة التي تعرفونها، هم في مساجدهم والله في حوائجهم .

استنباط آخر، أنت رجل، وبين الناس إنسان عفيف، وإنسان دنيء، هذا الذي ينظر إلى امرأة لا تحل له، فهذه ليست له، ولذلك غض البصر يكسب الإنسان شرفاً، يكسب الإنسان مروءة ، وأجمل صفة بالشاب العفة، تعلمون جميعاً أن العدل حسن لكن في الأمراء أحسن، والسخاء حسن لكن في الأغنياء أحسن، والتوبة حسن لكن في الشباب أحسن، والصبر حسن لكن في الفقراء أحسن، والحياء حسن لكن في النساء أحسن، والورع حسن لكن في العلماء أحسن، وما ترك عبد شيئاً لله إلا عَوَّضَه الله خيراً منه، هذه واحدة .

2- لكل محنة منحة :

ثانياً: ما أصاب أحداً مصيبة، فقال: حسبي الله ونعم الوكيل إلا عوضه الله خيرًا منها، لم تصدِّق أمُّ سلمة أن زوجها أبا سلمة ملء السمع والبصر، زوج لا كالأزواج، رجل لا كالرجال، فكيف يعوضها الله خيراً منه؟ لقد كان الزوجُ الآخر النبي عليه الصلاة والسلام، وهو خير من أبي سلمة .

أيضاً استنباط آخر، إن مع العسر يسرا، وكل مصيبة في ثناياها بذور حلها، لذلك قالوا : الفرج يأتي بعد الشدة، والآية الكريمة:

(فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً)

(سورة الطلاق الآية: 2)

ومن يتق الله يجعل له مخرجا، ماذا تعني كلمة (مخرج)إذا انقطع واحد بفلاة فهو يحتاج إلى مخرج، أمّا إذا كان الشخصُ في مكان له سبعة أبواب مفتوحة، هل يحتاج لمخرج؟ لا، لكن متى نقول مخرج؟ عندما تكون الأبواب كلها مغلقة، والأمور مشتدّة، والطرق كلها غير سالكة، عندئذ يأتي الفرج من أعلى، مِن لدُنْ حكيم خبير، قال تعالى: ومن يتق الله يجعل له مخرجا .

3- من صفات المرأة الصالحة :

استنباط آخر، كان وفاءها لزوجها منقطع النظير، لذلك فالأصل بين الزوجين المودة والمحبة، فإذا طغتْ بينهما الخصومات، والمشاحنة، والبغضاء، والبيت في نكد، فهذه حالة مَرَضية ينبغي أن تعالج .
هل عندكم شك أن النبي أراد أن يتزوجها من أجل شيء دنيوي، لا والله، لكنّ امرأة جاهدت هذا الجهاد، وهاجرت إلى الحبشة، ثم هاجرت إلى المدينة، ولقيت من العنت ما لقيت، وفوق كل ذلك يموت زوجها، ويُبقِي لها أطفالاً صغاراً ليس لهم مُعيل، أليس من الشهامة أن تقدِم على الزواج من هذه المرأة؟ بلى، والدليل سيدنا الصديق، وسيدنا عمر، وجاء النبي بعد ذلك،

((الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَخَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ))

[أخرجه مسلم عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو في الصحيح]

المرأة الصالحة التي إذا نظرت إليها سرتك، وإذا غبت عنها حفظتك في مالك ونفسها، وإذا أقسمت عليها أبَرَّتْك، وإذا أمرتها أطاعتك، عزيزة في نفسها، ذليلة مع بعلها، ودود ولود، ترضى باليسير، ولا تكفر العشير، وفي القرآن آية تشير إلى ذلك، عن نساء أهل الجنة، وصف الله حوريات أهل الجنة بأنهن قاصرات الطرف، يعني يقصرن طرفهن على أزواجهن، فهذه المرأة التي توازن زوجها بالآخرين، هذه ليست امرأة ترضي الله عز وجل، لذلك يقول النبي الكريم:

((أَيُّمَا امْرَأَةٍ سَأَلَتْ زَوْجَهَا طَلَاقًا مِنْ غَيْرِ بَأْسٍ فَحَرَامٌ عَلَيْهَا رَائِحَةُ الْجَنَّةِ))

[أخرجه الترمذي في سننه]

إن الله لا ينسى أحداً من رحمته، فقد فرَّق بين أم سلمة وزوجها وولدها، وصبرتْ، فأعاد الله لها زوجها وولدها، وهذا الاستنباط صحيح .

4- من صفات المؤمن :

وثمّة استنباط آخر، وهو أن المؤمن يكره مجتمع الكفر، وهذه حقيقة إيمانية، كما يكره أن يلقى في النار، المؤمن مع المؤمنين كالسمك في الماء، المؤمن في المسجد كالسمك في الماء، راحته مع أخوانه

المؤمنين، راحته في بيوت الله، راحته في أداء العبادات، فقد سئل الجنيد: مَن وليّ الله؟ قال: ليس الولي الذي يطير في الهواء، ولا الذي يمشي على وجه الماء، الولي كل الولي الذي تجده عند الحلال والحرام، وتجده حيث أمر الله، وتفقِده حيث نهى الله عنه، فلا يقرب الأماكن الموبوءة .

نحن الآن في جاهلية أخرى، قال سيدنا جعفر: كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونسيء الجوار، ونقطع الأرحام، ويأكل القوي منا الضعيف، هي جاهلية مُرَّة، القوي يأكل الضعيف، أما الآن فالأقوياء يأكلون الشعوب، وليس الضعاف فحسب، هذه جاهلية جهلاء .

قيمة المرأة الصالحة في سعادة البيت المسلم :

هنا حقيقة، هي نصيحة للشباب، يمكن أنْ تتزوج فتاة، وقد أودع الله عز وجل في نفس كل شاب حبَّ الزوجة، لكن إذا كانت الزوجة رفيقة لك في الحياة، بمعنى أنها في مستواك الثقافي ، والشرعي، والإيمان، والورع، فهذه أكثر مِن زوجة، هذه رفيقة العمر، الواحد إذا تزوج يجب أنْ يعلم زوجته، لأن هذه المتعة التي يحتاجها الزوج من زوجته تنقضي، وتصبح مع الزمن شيئاً عاديًّا، لا يترك أثراً بعيدًا في النفس، أمّا الذي يبقى هو علمها، وأخلاقها، ودينها، وورعها، ووفاؤها، وحكمتها، وتربيتها لأولادها.

مرة نصحتُ شخصًا نصيحة، قلت له: لن تسعد بزوجتك إلا إذا عرَّفتها بالله، فسعدتْ به، عندئذ تسعد بها، ثم تسعِدك، لأنها عرفت قيمتك، وعرفت قيمة الزوج، وعرفت واجبها تجاه الزوج، وعرفت حقوق الزوج، وأنت عرفت حقوقها .

فكل إنسان يهمل دين زوجته يدفع الثمن باهظًا، وكل إنسان يرعى دين زوجته، ويرعى إيمانها، ويرعى تلاوتها للقرآن وعلمها، فهو الرابح الأول، فالإنسان قبل أن يتزوج يبحث عن المرأة الصالحة ليسعَدَا معًا .

والحمد لله رب العالمين

السيرة - رجال حول الرسول - الدرس (20-50) : سيدنا أبو العاص بن الربيع
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 22-02-1993

بسم الله الرحمن الرحيم

لمحة عن حياة أبي العاص بن الربيع من حيث نسبه وزواجه وتجارته :

أيها الأخوة الأكارم، قصة من قصص أصحاب رسول الله رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، ولكن هذه القصة لها طعم خاص، ذلك أنها تتصل اتصالاً مباشرًا بأهل بيت النبي عليه الصلاة والسلام، إنه أحد أصهاره، ويمكن أن نستنبط من هذه القصة موقف النبي عليه الصلاة والسلام من قرابته، وكيف كان مثلاً أعلى للمؤمنين في علاقاته مع من يلوذ به؟ صهره أبو العاص بن الربيع .
كان شاباً موفور الشباب، بهي الرونق، رائع المجتلى، كان ذا نعمة، وحسبٍ، ونسبٍ، وكان فارساً، فيه كل خصائص الأنفة، والكبرياء، وكل مثال المروءة والوفاء .
هذا الرجل قبل الإسلام كان مولعاً بالتجارة، فقد أحبها حباً جما، وكان صاحب رحلتين إلى الشام، رحلة الشتاء، ورحلة الصيف، وكانت قافلته تضم مئة من الإبل، ومئتين من الرجال، من أضخم القوافل، وكل رحلة فيها مئة بعير عليها الأحمال، مع مئتي رجل يرعون هذه الأحمال ، هذا حجم تجارته، فأناس كثيرون بمكة كانوا يدفعون إليه بأموالهم ليتجر بها، وهذه شركة القراض أو المضاربة .
خديجة بنت خويلد زوج النبي عليه الصلاة والسلام هي خالته، وله في نفسها منزلة رفيعة جداً، تحبه وتعطف عليه، وترعاه، وكان موفور الشباب، كان ملء السمع والبصر .
لا بد من هذه المقدمة قبل أن نبدأ بالموضوع، والأعوام مرت سراعاً على بيت محمد بن عبد الله فشبت زينب كبرى بناته عليه الصلاة والسلام من السيدة خديجة، وتفتحت كما تتفتح الزهرة فواحة الشذا بهية الرواء، طمحت إليها نفوس أبناء السادة من أشراف مكة، فهي من أعرق بنات قريش حسباً ونسباً، ومن أكرمهن أماً وأباً، ومن أزكاهن خلقاً وأدباً، لكن أنَّى لهم يظفروا بها وقد حال دونهم ودونها ابن خالتها، أبو العاص بن الربيع فتى الفتيان .

هل استجاب أبو العاص لدعوة النبي وما هو موقفه حينما طلبت قريش منه تطليق زوجه لتنال من النبي؟

أيها الأخوة، لم يمض على اقتران زينب بنت محمد بأبي العاص إلا سنوات محدودات حتى أشرقت بطاح مكة بنور البعثة المحمدية، ونزل الوحي، وبعث النبي عليه الصلاة والسلام نبياً ورسولاً إلى العرب، وإلى الأمم جميعاً، وأمر الله نبيه أن ينذر عشيرته الأقربين، قال تعالى:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آَخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ * وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)

(سورة الشعراء الآية: 213 - 214)

النبي عليه الصلاة والسلام دعا إلى الله عز وجل، وأنذر عشيرته الأقربين، فكان أول من آمن به من النساء خديجة، وأول من آمن به من بناته زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة، لكن كنَّ صغيرات السن، وهنا دخلنا في القصة، ثم إن صهره أبا العاص كره أن يفارق دين آبائه وأجداده، هنا بدأت العقبة، صهره زوج ابنته لم يؤمن به، والإنسان كما يقال: عدو ما يجهل، ومن علائم ذكاء الإنسان أن يتحرر من كل شيءٍ ألفه ولو كان باطلاً، ويبحث عن الحق ولو لم يألفه.

ولما اشتد نزاع النبي عليه الصلاة والسلام مع قريش، فكّروا في إشغال النبي عن دعوته بشيء، فأراد كفارُ مكة أن يغيظوا النبي، وأن ينالوا منه، وأن يحمِّلوه فوق طاقته، فقالوا: ويحكم إنكم قد حملتم عن محمد همومه بتزويج فتيانكم من بناته، فلو رددتموهن إليه لانشغل بهن عنكم، طلقوا بناته، حينما كنت أقول: إن النبي ذاق كل مرارةَ، واللهِ لقد غاب عن ذهني أن بناته قد طُلّقن، فالأب إذا كان طلقت ابنته كان مصابُه عظيمًا، فهاجر من مكة إلى المدينة، وذاق اليتم، وذاق الفقر، وذاق موت الولد، وذاق تطليق بناته من أصهاره، قالوا: واللهِ نِعْمَ الرأي ما رأيتم، والكافر حيثما قدَرَ على الأذى يتهلل وجهه، حيثما قدَر على إيقاع الضرر بالآخرين تجده نشيطًا، أمّا إذا دعوته إلى عمل صالح تراه كسولا، ومَشَوْا إلى أبي العاص، وقالوا له: فارقْ صاحبتك يا أبا العاص، وردَّها إلى بيت أبيها، ونحن نزوجك أي امرأة تشاء من كرائم عقيلات قريش، هناك أشخاص حتى الآن إذا تزوج ابنه من مؤمنة، يقول له أبوه: فارقها ونحن نزوجك غيرها، لا لشيء إلا لأنها مؤمنة، وهذا الموقف الأخلاقي الذي وقفه، فقال: لا والله إني لا أفارق صاحبتي .

يا أيها الإخوة الأكارم، أي إنسان يضايق زوجته بخصومة بينه وبين أهلها، فهذا إنسان دون الخط الأحمر، أشخاص كثيرون، لهم زوجات صالحات، زوجات مخلصات، زوجات طائعات، لأن خلافًا نشأ بينه وبين أخيها، أو بينه وبين أبيها، يهددها بالطلاق، أهذه هي المروءة؟ ماذا فعلت معك؟ قال تعالى:

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ)

(سورة فاطر الآية: 18)

(ولا تزر وازرة وزر أخـــرى)، لكن العوام والجهلاء حينما يقعون في خصومة مع أهل زوجاتهن، لا يجدون متنفساً لهم إلا بإيقاع الأذى بزوجاتهم، كيداً لأهلهن .

هذا الموقف الأخلاقي من أبي العاص هو الذي رده إلى هذا الدين، هو الذي جعله يسلم، وهو السبب الذي أكرمه الله بالإسلام بعد إذْ لم يكن مسلماً، أما ابنتاه رقية وأم كلثوم فقد طُلّقتا، وحُمِلتا إلى بيته الشريف، لكن النبي عليه الصلاة والسلام سُرَّ بردِّهما إليه، وتمنى أن لو فعل أبو العاص كما فعل صاحباه، لأنه خلصهما من بيت فيه شرك وكفر، غير أنه ما كان يملك من القوة ما يرغمه على ذلك، لأنه لم ينزل التشريع بعد بحكم زواج المؤمنة من المشرك؟ .

هل كان أبو العاص من جملة الأسرى الذين ظفر بهم المسلمون وماذا فعلت زوجه حتى تفك أسره ؟

ولما هاجر النبي عليه الصلاة والسلام إلى المدينة، واشتد أمره فيها، وخرجت قريش لقتاله في بدر، الآن برَز على السطح موقف حرج جداً، قريش كلها خرجت لقتال النبي عليه الصلاة والسلام، وأبو العاص صهره لا بد من أن يخرج مع من خرج، وابنته لا زالت عنده، ولم يكن التشريع قد أنزل بعد، لكنَّ أبا العاص لم تكن له رغبة في قتال المسلمين، ولا أرب له في النيل منهم، إلاّ أنّ منزلته من قومه حملته على أن يسايرهم، وقد انجلت بدر عن هزيمة منكرة لقريش، أذلت أنوف الشرك، وقصمتْ ظهور طواغيته، ففريق قتل، وفريق أسر، وكان من زمرة الأسرى أبو العاص، زوج زينب بنت محمد صلوات الله عليه .

الموقف الصعب، حينما استعرض النبي الأسرى فإذا أبو العاص بينهم، لماذا جاء؟ جاء ليقاتل المؤمنين، جاء لينتصر عليهم، فنظر إلى صهره أبي العاص، وقال كلمة لا تُنسى، قال عليه الصلاة والسلام:

((والله ما ذممناه صهراً))

فهل رأيت حُكماً موضوعياً أشدَّ من هذا الحكم؟ أنصفه، والإنسان إن لم ينصف فليس مؤمناً، من صفات المؤمن إنصاف الناس من نفسه، وأن يقف عند العدل، وها قد وقع أسيرًا، وأضحى أهلُ الأسرى يرسلون فدية ليفتدوا بها أسراهم من النبي عليه الصلاة والسلام، وهذه زينب وزوجها أسير عند أبيها، وينبغي أن تفتديه من أبيها، هذه قضية خاصة جداً، فبعثت زينب رسولها إلى المدينة، يحمل فدية زوجها أبي العاص، لكن ما هي هذه الفدية؟ .

حينما تزوجت زينب أبا العاص قدَّمت لها أمها هدية ثمينة، وهي قلادة السيدة خديجة، حينما زفت إلى زوجها، وزينب الآن لا تملك إلا هذه القلادة ، فبعثت بها إلى أبيها ليأخذ القلادة، فلعله يقبل هذه القلادة فداءً لزوجها أبي العاص الأسير عند أبيها، فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم القلادة غشيت وجهَه الكريم غلالةٌ شفافة من الحزن العميق، ورقَّ لابنته أشد الرقة، ثم التفت إلى أصحابه، وقال يريد المشورة، ولم يأخذ قرارًا من طرف واحد:

((إن زينب بعثت بهذا المال لافتداء أبي العاص، فإن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردّوا عليها مالها فافعلوا، -يستشيرهم في شأن ابنته، وفي شأن صهره، وشأن هذه القلادة، فهل هي مقبولة عندكم؟ هل تكفي؟ هل بعد هذا التواضع من تواضع؟ وأصحابُ النبي يفدونه بأرواحهم- قالوا: نعم، ونعمت عين يا رسول الله))

أيْ حباً وكرامة، لكن النبي عليه الصلاة والسلام اشترط على أبي العاص قبل إطلاق سراحه أن يسيِّر إليه ابنته زينب من غير إبطاء، بناءً على حكم شرعيٍّ، خلاصته ألاّ تبقى امرأةٌ مؤمنةٌ عند زوج كافر، فقد يحملها هذا الزوج على معصية الله، وقد يأمرها بما يغضب الله ، فالحكم الشرعي ألا تبقى امرأةٌ مؤمنةٌ تحت زوج مشرك أو كافر .

هل وفى أبو العاص بالشرط الذي اشترطه عليه رسول الله عليه الصلاة والسلام ؟

كان أبو العاص صادقاً، وفياً، فما كاد أبو العاص يبلغ مكة بعد فكِّ أسْره حتى بادر إلى الوفاء بعهده ، فأمر زوجته بالاستعداد للرحيل، وأخبرها بأن رسل أبيها ينتظرونها غير بعيد عن مكة، وأعد لها زادها وراحلتها، وندب أخاه عمرو بن الربيع لمصاحبتها وتسليمها لمرافقيها يداً بيد ، تنكب عمرو بن الربيع قوسه وحمل كنانته، الكنانة جعبة السهام، وجعل زينب في هودجها، وخرج بها من مكة جهاراً نهاراً على مرأى من قريش، فهاج القوم وماجوا، ولحقوا بهما حتى أدركوهما غير بعيد، وروَّعوا زينب، وأفزعوها، عند ذلك هيَّأ عمرو قوسه، ونبل نبله، ونشر كنانته بين يده، وقال: واللهِ لا يدنو رجلٌ منها إلا وضعت سهماً في نحره، وكان رامياً لا يخطئ له سهمٌ، فأقبل عليه أبو سفيان بن حرب، وكان قد لحق بالقوم، وقال له: يا ابن أخي، كفَّ عنا نبلك حتى نكلمك، فكفّ عنهم، فقال له: إنك لم تصب فيما صنعت، أي لم تكن على صواب، كنت مخطئاً، لماذا؟ لأنك حملت زينب في هودجها جهاراً نهاراً على مرأى من قريش، وهذا بعد موقعة بدر حيث سالتْ دماء صناديدهم، وبرَزتْ حساسيات بالغة .

فلقد خرجت بزينب علانية على رؤوس الناس ومرأى مِن عيونهم، وقد عرفت العربُ جميعها أمرَ نكبتها في بدر، وما أصابها على يد أبيها محمد، فإذا خرجت بابنته علانية كما فعلت ، رمتنا القبائل

بالجبن، ووصفتنا بالهوان والذل، فارجع بها، واستبقها في بيت زوجها أياماً، حتى إذا تحدث الناس بأننا رددناها، فسُلّها من بين أظهرنا سراً، وألحقها بأبيها، فما لنا بحبسها عنه حاجة، لكن ليس على مشهد مِن الناس، فرضي عمرو بذلك، وأعاد زينب إلى مكة، ثم ما لبث أن أخرجها منها ليلاً بعد أيام معدودات، وأسلمها إلى رسل أبيها يداً بيد، كما أوصاه أخوه، وفُرِّق بين زوج وزوجته بحكم الله عز وجل .

إليكم قصة إسلام أبا العاص :

أقام أبو العاص بمكة بعد فراق زوجته زمناً حتى إذا كان قبيل الفتح بقليل خرج إلى الشام في تجارة له، فلما قفل راجعاً إلى مكة ومعه عيره التي بلغت مئة، ورجاله الذين نيفوا على مئة وسبعين بزرت له سرية من سرايا الرسول عليه الصلاة والسلام قريباً من المدينة، فأخذت العير، وأسرت الرجال، لكن أبا العاص أفلتَ منها فلم تظفر به، وأُلقِي القبض على مئة وسبعين رجلاً من أتباع أبي العاص أسرى في يد السرية، وصودرت القوافل، وأصبحت غنائم في أيدي المسلمين، لكن أبا العاص نجا من الأسر، فلما أرخى الليل سدوله، استتر أبو العاص بجنح الظلام ، ودخل المدينة خائفاً يترقب، ومضى حتى وصل إلى زينب، زوجته، واستجار بها، فأجارته .

ولما خرج النبي عليه الصلاة والسلام لصلاة الفجر، واستوى قائماً في المحراب، وكبّر للإحرام، وكبّر الناس بتكبيره، صرخت زينب، وقالت:

((أيها الناس، أنا زينب بنت محمد، وقد أجرتُ أبا العاص، فأجيروه، فلما سلم النبي عليه الصلاة والسلام من الصلاة التفت إلى الناس وقال: هل سمعتم ما سمعت؟ قالوا: نعم يا رسول الله، قال: والذي نفسي بيده ما علمتُ بشيء من ذلك حتى سمعت ما سمعتموه، -البيان يطرد الشيطان، هكذا علّمنا النبي، قد يظنون أن ثمة اتفاق بين سيدنا رسول الله وزينب، أنه لما أصلي فقولي: قد أجرته، فبيَّن النبي وأزال الشبهة، فقد بيَّن الحقيقة من غير لبس .

فإذا كان الإنسان في موقف حرج يستدعي سؤالاً وجوابًا، فعليه أنْ يبيِّن، ويوضِّح، هذه قاعدة أساسية، البيان يطرد الشيطان .

ذات مرة زار رجلٌ صاحبًا له في العيد، وضع له طبقًا من الحلويات مليئًا فأكل قطعة واحدة، وجاء شخص آخر، وكان صاحب البيت مشغولاً، فهذا الثاني بدأ يأكل ويأكل ويأكل حتى لم يبق من الطبق إلا القليل، فوقع الأول في الحرج، وقد أكل قطعة واحدة، فلما دخل صاحب البيت، قال الأول: واللهِ إني أشهدُ الله أنه يحبك أضعاف ما أحبك، لأنه أكل من هذا الطبق أضعاف ما أكلت، فبيَّن، فالمرءُ يضطر أحيانًا للبيان والتوضيح، وبخاصّة في المواقف التي فيها تهمة، فإن وضعتَ نفسك موضع التهمة

ولامك الناس فهم مُحِقُّون، فلا تضع نفسك موضع التهمة ثم تلوم الناس إذا اتهموك، فكم كان النبي عليه الصلاة والسلام حريصًا على سمعته؟ فعَنْ صَفِيَّةَ زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((أَنَّهَا جَاءَتْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَزُورُهُ فِي اعْتِكَافِهِ فِي الْمَسْجِدِ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ فَتَحَدَّثَتْ عِنْدَهُ سَاعَةً، ثُمَّ قَامَتْ تَنْقَلِبُ فَقَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَهَا يَقْلِبُهَا، حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ بَابَ الْمَسْجِدِ عِنْدَ بَابِ أُمِّ سَلَمَةَ مَرَّ رَجُلَانِ مِنْ الْأَنْصَارِ فَسَلَّمَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ لَهُمَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: عَلَى رِسْلِكُمَا إِنَّمَا هِيَ صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ، فَقَالَا: سُبْحَانَ اللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَكَبُرَ عَلَيْهِمَا، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ الشَّيْطَانَ يَبْلُغُ مِنْ الْإِنْسَانِ مَبْلَغَ الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَيْئًا))

[متفق عليه، أخرجهما البخاري ومسلم عن صفية في صحيحهما]

هي القصة تنسحب على آلاف الحالات، كنتَ مع صديقك في نزهة، والمصروف مشترك، يقول أحدكما للآخر: ليس لك ولا عليّ شيء، فالحساب كان مناصفة بيني وبينك، بَيِّنْ له المدفوعات والمقبوضات كلها، لكن من دون بيان، يجري في القلب شيءٌ، فوضِّح الحساب، وإنْ تأخرتَ فَبَيِّن السبب، البيان يطرد الشيطان، في التعامل، في العلاقات الاجتماعية، في الشراكة، في الزواج، بيِّنْ ما الذي دفعك إلى هذا الموقف، فإنْ لم تبيِّن أساء الناسُ الظنَّ بك، فوقعتْ العداوة والبغضاء- .

ثم انصرف إلى بيته، ولم يقل ابنتي أشرفُ بنتٍ على الأرض، بل قال: وإنه يجير من المسلمين أدناهم، -فلم يرفعها إلى أعلى درجة، لأنها ابنته فقط، وعبارتُه تفيد أنّه عدَّها من أدنى المسلمين، وأدنى المسلمين يجير أعلاهم، انتبهوا إلى نصيحة النبي- قال: يا بنيتي، أكرمي مثوى أبي العاص، واعلمي أنك لا تحلّين له، ثم دعا رجال السرية التي أخذت العير، وأسرت الرجال وقال لهم: إن هذا الرجل منا حيث قد علمتم، وقد أخذتم ماله، فإن تحسنوا وتردوا عليه الذي له كان ما نحب، -أيْ أنا يسرني أن تعيدوا له البضاعة والأحمال والرجال، وإن أبيتم فهو فيء الله الذي أفاء عليكم، وأنتم به أحق، هكذا يكون الموقف الصحيح، انظرْ إلى أسلوبِ التعليم في أحسن صوره .

أحياناً قد تطلب من شخص أنْ يبيع حاجة بلا ثمن لصاحبك، هذا تطاول، ولكن قل له: إذا راعيته أكون لك من الشاكرين، فالنبي عليه الصلاة والسلام خبير بحقائق النفس البشرية، والصحابة طابت نفوسهم بهذا التواضع، وهذه الاستشارة- فقالوا جميعاً: بل نرد عليه ماله يا رسول الله))

كما تريد، وكما تحب، هنا الموقف الأخلاقي، قالوا:

((يا أبا العاص، إنك في شرف من قريش، وأنت ابن عم رسول الله وصهره، فهل لك أن تُسْلِم، ونحن ننزل لك عن هذا المال كله، فتنعم به، وبما معك من أموال أهل مكة، وتبقى معنا في المدينة؟ -وهذا حكمٌ شرعي، إليكم بيانُه.

فالحكم الشرعي أنّ هذا الرجلَ إذا أسلم ومعه أموال الكفار، انقلبت هذه الأموالُ فجأة إلى غنائم، ونحن نسامحك في نصيبنا، خذها كلها، وانْعَمْ بها، وعش في بحبوحة-، فقال: بئسما دعوتموني إليه، أنْ أبدأ إسلامي الجديد بغدرٍ، -معاذ الله أنْ أبدا الإسلام بهذا الغدر- ومضى أبو العاص بالعير وما عليها إلى مكة .

-يا أخي هذا شيء عجيب! هؤلاء مشركون، ولديهم هذه الأخلاق والقيم، وفي أيامنا والمجتمع مسلم يبيع أباه بمئة ليرة، واللهِ حدثني ضابط بالجمارك، قال: واللهِ جاءتني تقارير مِن آباء على أولادهم، ومِن أبناء على آبائهم، شيء عجيب- .

مضى أبو العاص بالعير وما عليها إلى مكة، فلما بلغها أدَّى لكل ذي حق حقَّه، ثم قال: يا معشر قريش، هل بقي لأحدٍ منكم عندي مال لم يأخذه؟ قالوا: لا، وجزاك الله عنا خيراً، فقد وجدناك وفياً كريماً، قال: أما وإني قد وفيتُ لكم حقوقكم، فأنا الآن أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله .

-هذا إسلام في الوقت المناسب، بعدما أدى ما عليه، فالإنسان لا يستغل الدين لمصالحه الشخصية، فلو أسلم لانطبق عليه الحكم الشرعي، أسلم ومعه أموال الكفار، إذاً: هي غنائم يأخذها ، لكن يا ترى لو فعل هذا لعَدُّوا هذا غدراً، ومؤامرة، وشوَّه بذلك سمعة المسلمين بين القبائل-، ثم قال: واللهِ ما منعي من الإسلام عند محمد صلى الله عليه وسلم إلا خوفي أن تظنوا أني إنما أردتُ أن آكل أموالكم، ثم خرج حتى قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكرم وفادته ورد إليه زوجته، وكان النبي صلى الله عليه وسلم، يقول عنه: أبو العاص حدثني فصدقني، ووعدني فوفَّاني))

الاستنباطات التي يمكن أن نستفيدها من قصة أبي العاص :

قبل أن ينتهي الدرس هناك سؤال، ما هي الاستنباطات التي يمكن أن تفيدنا في حياتنا اليوم من هذه القصة:

1- لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له، هذا استنباط .

2- المشاورة تجعل قلوب الناس تهفو إليك، أمّا التفرد بالرأي فينفّر الناس عنك .

3- البيان يبيِّن الملابسات، مرة حدثني أخ يسافر للمحافظات في عمله التجاري، فنسي وثيقة في المحل، تذكرها الساعة الثانية عشرة ليلاً ، فركب مركبته، وانطلق إلى محله التجاري، وكان ضمن سوق مغلق، وله حارس، رأى هذا الحارس رجلاً يأتي في منتصف الليل ليفتح محله التجاري، الذي يشاركه فيه تاجر، قال له: أيها الأخ، أنا نسيت ورقة أساسية، وجئتُ لآخذها، حتى لا يظن شيئًا، بيِّن للحارس،

فإذا بينت ينتهي الأمر دون ظنون أو شكوك، فلو لم يبيِّن للحارس فقد يتّهمه شريكه، ويقع في مشاكل، فالبيان يطرد الشيطان .

4- أيضاً السيدة زينب أجارت أبا العاص، لكن النبي بيّن الحكمَ الشرعي، لم يرفض العمل الصالح، لكن نبهَّها إلى أن هذا الرجل لا يحل لك، أكرميه، لكنه لا يحل لك .

أنا أعرف أناسًا كثيرين قاربوا أن يطلقوا زوجاتهم لخصومة وقعت بينه وبين أهل زوجته، هذا عمل غير أخلاقي، القاعدة الأساسية: ولا تزر وازرة وزر أخرى، نشأت خصومة مع والدها، مع أمها، مع أخيها، من أجل هذه الخصومة تطلقها أو تسيء إليها .

5- وهذه فقرة فيها إيضاح لغوي لا بد منه، كلمة (قُمّة) صوابها (قِمّة)، القُمة هي القُمامة، والفرق كبير جداً بين القُمة وبين القِمة، فإياك أن تغلط هذه الغلطة، الأخ الكريم، يقول: إن قِمة العفو مع قِمة القوة .

6- أمّا موقفه الأخلاقي لأبا العاص، حينما ردّ الأموال عُرف أنّ المسلم إنسان صادق، وكذلك أنه رَفَض أنْ يطلق زوجته، فأحبَّه النبي، وكان موقف النبي متعاطفًا معه، فما السبب؟ لأنه وقف موقفًا أخلاقيًّا يُسجَّل له، لا عليه .

أنت قد تتعامل مع ناس ليس فيهم دين فكُنْ ذكيًّا، إذا وقفت موقفًا أخلاقيًّا منهم، هو لا يصلي، هو لا يصوم، وربما يشرب الخمر، لكنّه يبقى إنسانًا، فإذا أخذت موقفًا أخلاقيًّا فقد تكسبه.

إليكم هذه القصص عن رجال ونساء اعتنقوا الإسلام من خلال حسن سلوك أبنائه :

حدثني أخ كان في بلد عربي، وفيه حركة هداية للإسلام، منها توبة بعض الفنانات، وقد وجدتُ في معرَض مكتبة الأسد كتيبًا عن الفنانات المحجَّبات، امرأة كانت راقصة، ثم تتوب، وتتحجب حتى الوجه، فقرأت الكتاب، لفت نظري أن واحدة سئلت، ما الذي دفعك إلى أن تتوبي؟ فقالت: أنا حينما زرت صديقاتي اللواتي سبقنني إلى التوبة، وجدت مجتمعهن مجتمعاً مثاليًّا، فيه الصدق، وفيه الحب، وفيه التناصح، وفيه السعادة، وبينما أعيش في مجتمع يسوده الكذب، والطعن ، والريبة، والشقاء، وفي بالقصة مغزى عميق فمَن يكشفه لنا؟ لماذا أسلمت؟ لأنها وجدت مجتمع زميلاتِها التائباتِ أرقى بكثير من مجتمعها هي، ومغزى آخر لم أُشِرْ إليه، فلو أن هؤلاء المسلمات التائبات رفضنها وطردنها لما عرفت الحقيقة، ولمَا تمادتْ في الضلال .

فأنت كمسلم، لا تعادِ شخصًا بلا دين، ادعُ الله أن يعافيه، وخاصّة إذا لم يكن معاديًا لك ، فكنْ أخلاقيًّا أمامه، ليرى مَن هو المسلم؟ الإنسان الصادق، الأمين، الأخلاقي، المتواضع، الذكي، المتفوق بعمله، فلعل هذا يبصِّره بحقيقة الإسلام .

يقولون: إن روجي جارودي، هذا زعيم الحزب الشيوعي بفرنسا، أسلم ، فهل تصدقون أن سبب إسلامه يعود إلى أربعين سنة سابقة؟ هذا وقع أسيراً في الحرب العالمية الثانية، وجاء أمرٌ بقتله، الأمر جاء

لجندي مغربي مسلم، هذا الجندي المغربي المسلم، قال له: أنا مسلم، وديني يمنعني أن أقتل الأسير، فاهرب، ما الذي أنجاه من الموت؟ الذي أنجاه من الموت المحقَّق أنّ هذا الجندي المغربي أبلغه أن الإسلام يمنعنه مِن قتل الأسير، وهذا الموقف الأخلاقي تفاعل مع هذا الإنسان أربعين عاماً، حتى حمله على أن يصبح مسلماً، وجاء إلى الشام، وله كتب كثيرة، وأنت يمكن أن تنقذ أيَّ إنسان حولك ليس فيه دين إطلاقاً، فكنْ معه صادقًا، وفيًّا، مخلصًا، كن معه متقنًا لعلمك، فبذلك كلّه يمكنك أنْ تُلفِت نظره .

في أثناء أداء فريضة الحج العام الماضي ذكروا لي أن حاجًّا ألمانيًّا سألوه عن سبب إسلامه، فقال: طالب سوري كان عنده في البيت، ولهذا الرجل الألماني فتاة جميلة، وليس عنده مانع أنْ تكون صديقة لهذا الطالب السوري، والأمور عندهم سهلة جداً، من غير تكلُّف، فلذلك لفت نظره أن هذا الطالب ما نظر إلى ابنته أبداً، تمنَّى أن ينظر إليها فيعنِّفه، وأخيرًا سأله: ألست من بني البشر؟ فقال: ديني يمنعني أن أنظر إليها .

المغزى الأساسي أن النبي الكريم يعرفه أنه مشرك، ويعرف أنّه جاء ليقاتله، رغم ذلك أعلمه أنني لا أنسى موقفك الأخلاقي السابق، قال:

((واللهِ ما ذممناه صهراً))

فلما وقع أسيراً أحسن إليه، فمَلَكَه بهذا الإحسان، إن رأيتم أن تردوا له ماله فافعلوا، هذا مما أحبَّ أنْ يفعله أصحابه، المواقف الأخلاقية تفاعلت إلى أن حملته على الإسلام، الآن بالعكس، تتعامل مع مسلم فيسبِّب لك مشكلة، ويكذب عليك، ويغشك، فيبدو من خلال أفعالِه هذه أنّ الدين باطل، وأن الدين كله خلط، فأنت على ثغرة من ثغر الإسلام فلا يؤتين من قبلك، أنت سفير تمثل المسلمين، فكن ملتزمًا بدينك تكنْ داعيةً للإسلام، وأنت ساكت .

والحمد لله رب العالمين

السيرة - رجال حول الرسول - الدرس (21-50) : سيدنا سراقة بن مالك

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 01-03-1993

بسم الله الرحمن الرحيم

كيف نشبه الإسلام ؟

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الحادي والعشرين من دروس سيرة صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورضوان الله عليهم أجمعين، صحابي اليوم سيدنا سراقة بن مالك .

يمكن أن نستنبط من سيرته، حقائق كثيرة تفيدنا في حياتنا المعاصرة، فالذي ينبغي أن نعلمه من السيرة، أن مواقف الصحابة مواقف مثالية، فإذا عرفنا بواطن مواقفهم، وأسرارها، يمكن أن نكون قد تعلمنا تفاصيل كثيرة عن الدين من خلال سيرتهم، قبل أن نبدأ الحديث عن هذا الصحابي الجليل، يمكن أن نشبه الإسلام بهرم، مقسم إلى أربعة أقسام، القسم الأعلى هو القرآن الكريم، كلام الله عز وجل، القسم الثاني السيرة النبوية التي بيَّنت، وفصلت القرآن الكريم، قال تعالى:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)

(سورة النحل الآية: 43 - 44)

كيف فسر النبي القرآن ؟

قد يسأل سائل، ما تفسير كتاب الله تعالى؟ الجواب: النبي عليه الصلاة والسلام فسره من خلال السنة النبوية، فالسنة هي التفسير العملي للقرآن الكريم، حتى إن الإمام الشافعي حينما قال في تفسير قوله تعالى:

(هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

(سورة الجمعة الآية: 2)

الحكمة هي السنة، إذاً: القرآن الكريم جاء موجزاً، قال تعالى:

(حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً)

(سورة النساء الآية: 23)

(وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف)

، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ:

((نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ تُنْكَحَ الْمَرْأَةُ عَلَى عَمَّتِهَا أَوْ خَالَتِهَا))

[أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح عن جابر بن عبد الله]

للعلة نفسها، فالقرآن الكريم أمر بدفع الزكاة، لكن النبي فصل نصاب الأموال، نصاب الأبقار، نصاب الأغنام، فالسنة تبين، وتفصل، وتوضح، وتقيد المطلق، وتطلق المقيد، وتعطي حالات خاصة، والنبي عليه الصلاة والسلام نهى عن قطع يد السارق بأثناء الحرب، مع أنّ حكم قطع يد السارق ثابتٌ بالكتاب الكريم، قال تعالى:

(وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

(سورة المائدة الآية: 38)

لماذا؟ لأن هذا الإنسان إذا تلبس بجرم السرقة، وعلم أن يده سوف تقطع ينتقل إلى العدو، يعطيهم المعلومات، وينجو من قطع اليد، فحكم قطع يد السارق تعطل في أثناء الحرب .

النبي عليه الصلاة والسلام، قال:

((ادرؤوا الحدود بالشبهات))

فلو أن إنساناً اشتبه عليه أن له حقاً عند زيد أو عبيد وسرق منه يسجن، ويعذر، ويحاسب، ويغرم، لكن ما دام هناك شبهة فلا تقطع يده، السنة بينت، فالقرآن الكريم ستمئة صفحة، لكن النبي الكريم ترك أكثر من ستمئة ألف حديث، كلها تبيِّن، وتفصِّل، وتوضِّح، وتقنِّن .

الصلاة والوضوء ذُكِرا في القرآن بشكل موجز، والنبي فصّل كيف تتوضأ؟ فهناك خمس وسبعون سنة، أو ست وثمانين سُنَّة للصيام واردة في كتب الفقه، القرآن قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

(سورة البقرة الآية: 183)

السنة بينت الواجبات والسنن والمستحبات والمكروهات والمندوبات .

الجزء الثاني من الهرم، هو السنة القولية، لكن أفعال النبي أوسع من أقواله، فإذا درستَ السنة الفعلية التي فعلها النبي يمكن أن تكوِّن الجزءَ الثالث من الهرم، قد لا نفهم السنة القولية إلا من خلال السنة الفعلية، صلوا كما رأيتموني أصلي، كان النبي عليه الصلاة والسلام يفعل كذا، ولا يفعل كذا، تبيِّن أحواله، وحركاته، وسكناته، وسكوته، وهناك سنة فعلية، وإقرار.

النبي عليه الصلاة والسلام شخصٌ واحد، لكن أصحابه كثر، صحابيٌ غني جداً، صحابيٌ فقير جداً، صحابيٌ شاب صغير، صحابيٌ شيخ فانٍ، صحابيٌ حاد المزاج، صحابيٌ هادئ الطباع، فكأن أصحابه يمثلون نماذج بشرية، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((سَتَرَوْنَ مِنْ بَعْدِي اخْتِلافًا شَدِيدًا فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَـاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَالأُمُورَ الْمُحْدَثَاتِ فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ))

[أخرجه ابن ماجه في سننه]

إذاً: القسم الرابع من الهرم: سيرة أصحابه، لأنها تمثل نماذج متعددة .

والذي أراه أنَّ معرفة سيرة أصحاب النبي الذين رضي الله عنهم جزءٌ من الدين، فماذا فعل هذا الصحابي الذي رضي الله عنه، وأقرَّ النبيُّ فعلَه؟ هذا فعله كامل، يمكن أن اقتدي به، فضلاً عن أن هناك آيات بيناتٍ يمكن أن تستنبط من أفعال رسول الله، وهذا الصحابي الجليل سيدنا سراقة بن مالك، يمكن أن نفهم من سيرته الشيء الكثير .

إليكم هجرة النبي وأبو بكر من مكة إلى المدينة حينما أمر مشركو قريش بقتله :

على كلٍ، عودة إلى هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، يوم سرى نبأُ هجرته في مكة كان نبأ غريبًا، أن محمداً قد بارح مكة، مستتراً بجنح الظلام، فلم يصدِّق زعماء قريش النبأ، واندفعوا يبحثون عن النبي في كل دارٍ من دور بني هاشم، وينشدونه في كل بيت من بيوت أصحابه، حتى أتوا منزل أبي بكر، فخرجت إليهم ابنته أسماء، قال لها أبو جهل: أين أبوك يا بنت ؟ قالت: لا أدري أين هو الآن؟ فرفع يده ولطم خدها لطمة أهوت بقرطها على الأرض، وصار يغلي غضباً، يعني كلهم يظنون أن محمداً في قبضتهم، وأنه بالتعبير الحديث الورقةُ الرابحة التي في أيديهم، فجأةً غادر هذا النبي الكريم مكة المكرمة، انطلق زعماء قريش في كل اتجاه، يبحثون عن محمد صلى الله عليه وسلم، بعد أن أيقنوا أنه غادر مكة، وكان عند العرب قفاةٌ للآثار، أي خبراء، فتتبَّع قُفاةُ الآثارِ آثارَ النبي فوصلوا من خلال آثاره إلى غار ثور، مكان اختباء النبي وصاحبه الصدِّيق، قال خبراء الآثار حينما وصلوا غار ثور:

والله ما جاوز صاحبكم هذا الغار، ولم يكن هؤلاء مخطئين فيما قالوه لقريش، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبه داخل الغار، وكانت قريش تقف فوق رأسيهما .

ماذا نستنبط من فعل النبي أثناء هجرته من مكة إلى المدينة ، وما الفرق بين جزاء التقصير وبين القضاء والقدر؟

ونحن هنا أمام مجموعة استدلالات دقيقة جداً، ونحن كمسلمين في أشد الحاجة إليها، والنبي الكريم حينما هاجر من مكة إلى المدينة، أخذ بكل الأسباب، فسار مساحلاً، عكس الطريق المألوف إلى المدينة، خرج في جنح الظلام، عيَّن رجلاً يمحو الآثار، رجلاً يتتبع الأخبار، وشخصًا يأتيه بالزاد، فما من ثغرةٍ إلاَّ وسدَّها، وما من احتياط إلا وغطاه، ما من خطة إلا وأحكمها، ومع ذلك وصل كفار قريش إلى الغار.

وماذا يعني أن يصل كفار قريش إلى الغار؟ السؤال موجَّهٌ إليكم، وأعِينكم على الإجابة بسؤال فرعي، لو أن النبي عليه الصلاة والسلام أخذ بهذه الأسباب واعتمد عليها، وفوجئ أن كفار قريش كانوا على باب الغار، فماذا يمكن أن يحصل؟ ينبغي أن ينهار النبي، لأنه أخذ بالأسباب واعتمد عليها، لكن النبي أخذ بالأسباب واعتمد على الله .

أقول لكم دائماً أيها الأخوة، ولو أعدتها كثيراً، هذه حقائق أساسية، ينبغي أن ترسخ عندكم، القرآن الكريم أعاد بعض القصص سبع عشرة مرة، إن أخذت بالأسباب واعتمدت عليها فقد أشركت، وإن لم تأخذ بها فقد عصيت، وخيطٌ دقيق يبعدك عن الشرك، وعن المعصية، أن تأخذ بالأسباب، وأن تعتمد على الله، وهكذا فعل النبي، أخذ بكل الأسباب، واعتمد على الله تعالى.

التي يمكن أن تستنبط من فعل النبي أنه إن لم تكفِ الأسباب التي أخذتها لنجاتك، فعندئذٍ يتولى الله رعايتك بطرق خاصة، بخرق العادات، وإن لم يكف أخذُ الأسباب لبلوغ هدفك، فأنت أخذت بالأسباب تأدباً مع الله عز وجل، وطاعةً له، لكن هذا الأخذ بالأسباب إن لم يكفِ تولّى اللهُ عز وجل خرقَ العادات من أجلك، لأنك أخذت بالأسباب، وهذه مشكلة المسلمين اليوم .

يا أخي، هناك فرق تكنولوجي، وفرق حضاري، وفرق بالأسلحة كبير جداً بين المسلمين وبين أعدائهم، ما الحل إذاً؟ أنت خذ بالأسباب، وتوكل على الله، واللهُ يكمل، قال تعالى:

(وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)

(سورة آل عمران الآية: 126)

وصل كفار قريش إلى غار ثور، وبقي النبي رابطَ الجأش، واثقاً من نصر الله عز وجل له، لم تلِن له قناة، وما خارت قواه، فأنت افعل ما تؤمر، وعليك أن تأخذ بالأسباب، فإن لم تكفِ الأسباب خَرَقَ اللهُ لك العادات .

بالمناسبة لن يكون خرق العادات إلا بعد الأخذ بالأسباب، فأي إنسان قال: أنا مؤمن والحمد لله وهؤلاء كفار، الله لا يحبهم، إنه يحبني وحدي، هو سينصرني عليهم من دون أن أفعل شيئًا، هذا هو الغباء بعينه، وهذه هي المعصية بعينها، وهذا هو الجهل بعينه، إن أخذت بالأسباب ولم تكفِ الأسباب خَرَقَ الله لك العادات، فإن لم تأخذ بها دفعتَ الثمن باهظاً .

لذلك كنت أقول دائماً هذه العبارة وأنا أتأثر بها: إن بعض المصائب التي تصيب المسلمين، بعضها يسمى جزاء التقصير، وبعضها يسمى قضاءً وقدراً، فإن أخذت بكل الأسباب، وانتهت مهمتك وجاء شيءٌ فوق إرادتك، وفوق قدرتك فهذا هو القضاء والقدر، أما إن لم تأخذ بها ، وجاء مكروه فإياك أن تسمِّيه قضاءً وقدراً، هو قضاء وقدر، ولكن سمِّهِ جزاء التقصير، وهو مرض يعاني منه المسلمون اليوم، ما أسعفوا المريض، يقولون لك: جاء أجله، هكذا كتب الله له، هذا الذي قصّر في إسعافه ينبغي

أن يحاسَب كقاتل، فلا تُدخِل القضاء والقدر في تقصير المسلمين ، أهملنا العلاج فتفاقم المرض، أمّا كلام العوام، وكلام الجهلاء، وكلام السخفاء فمردود .

هل يدل فعل النبي وهو في الغار والمشركون على بابه على أنه مشاعر إنسانية أم هي مشاعر تدل على الإيمان واليقين بالله؟

سيدنا الصديق لما رأى أقدام القوم تتحرك فوق الغار دمعت عيناه، وفي روايات تفصيلية أن قطرةً من دمع الصديق وقعت على يد النبي، فانتبه النبي وقال:

((أتبكي يا أبا بكر؟ قال : واللهِ ما على نفسي أبكي، -وهو صادق- ولكن مخافة أن أرى فيك مكروهاً يا رسول الله، -أنا واحد، لكنْ أنت أمة .

مرة سيدنا أبو حنيفة رأى طفلاً على مقربةٍ من حفرة، فقال:

((يا غلام إياك أن تسقط، كان هذا الطفل ذكياً ونبيهاً، فقال: أنت يا إمام إياك أن تسقط، أنا إن سقطتُ سقطتُ وحدي، وأنت إن سقطت سقط معك العالَم))

ما من مصيبة في الدنيا أكبر من أن تهتز عندك القدوة، من أن يهتز المثل، مِن أن يخيب ظنك بمن ظننته مثلاً أعلى، لذلك فسقوط الإنسان من السماء إلى الأرض أهون من أن يسقط من عينه مَثَلُه الأعلى- .

فقال عليه الصلاة والسلام مطمئناً: لا تحزن يا أبا بكر فإن الله معنا، -والله هذه الكلمة (إن الله معنا)، كبيرة عظيمة، فإذا كان اللهُ معك فمَن عليك؟ لو أن الدنيا كلها اجتمعت عليك لم تستطِع أن تغيِّر عليك، وإذا كان الله عليك فمَن معك؟ هناك أبناء يضربون آباءهم، وهناك زوجات يكِدْنَ لأزواجهن، وهناك حوادث يندى لها الجبين، أكثر الناس مودةً لك يقلب لك ظهر المجن إذا كان الله عليك فمَن معك؟ وقد أثبت القرآن هذه الرواية، فقال عز وجل:

(إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

(سورة التوبة الآية: 40)

فأنت كل بطولتك أن يكون الله معك، كن مع الحق وانتهى كل شيء، إذا كنت بطلاً كن مع الحق ، ولا تخشَ في الله لومة لائم- .

فأنزل الله السكينة على قلب الصديق، -وفي الآية ملاحظة لطيفة،(فأنزل الله سكينته عليه)، بالضمير المفرد، لأن النبي ساكن بالأصل، والنبي مرتاح، السكينة احتاجها الصديق فقط، (فأنزل الله سكينته عليه)يعني على الصديق وحده، لأن النبي من الثقة بالله عز وجل حيث لم يهتز-

((فقال الصديق: يا رسول الله، لو نظر أحدهم إلى موطئ قدميه لرآنا، فقال: يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما))

بل هناك في رواية ثابتة لم ترد هنا، يبدو أن عين أحد كفار قريش وقعت على عين الصديق، عين على عين، فقال:

((لقد رأونا، فقال عليه الصلاة والسلام: يا أبا بكر، ألم تقرأ قوله تعالى:

(وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ)

(سورة الأعراف الآية: 198)

فإذا حفِظَ اللهُ إنسانًا فليس عليه بأس، وإذا أَحَبَّ اللهُ أنْ ييسِّر لك أمرًا تجده قد تمَّ لك كلمح البصر بتيسير الله عزوجل، فإذا كان الله عليك، فمَن معك؟ لذلك مِنَ الدعاء النبوي:

((اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلاً))

قال تعالى:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)

(سورة الليل الآية: 5 -10)

قيل لأمية بن خلف: كان في الغار، فقال أمية بن الخلف ساخراً: ألم ترَ إلى هذا العنكبوت قد عشَّش على بابه قبل ميلاد محمد .

سؤال ورد :

ولنسْأَلْ هذا السؤال: لماذا ينصر الله عز وجل نبياً، كريماً، عظيماً، وينصر دينه بخيوط عنكبوت؟ هذه هي العظمة، لأن الله عز وجل جعل الدين هو رسول الله، فإن قتل انتهى الدين، إله عظيم، بيده أن يزلزل من تحتهم الأرض، بيده أن ينسف الجبال نسفاً، بيده أن يجعل البحر طريقاً ، بيده أن يجعل هؤلاء الكفار أصناماً فجأةً، نصر دينه عن طريق العنكبوت، وعن طريق حمامةٍ، هذه عظمة الله عز وجل .

فرعون رأى في المنام أن طفلاً من بني إسرائيل سوف يقضي على ملكه، فالتدابير عنده سهلة جداً، إذاً: سنذبح كل أطفال بني إسرائيل، أما هذا الطفل الذي سوف يقضي على ملكه تربى في القصر عنده، قال تعالى:

(فَالْتَقَطَهُ آَلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ)

(سورة القصص الآية: 8)

هذه آيات الله عز وجل:

(قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى * وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى * إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى * أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي)

(سورة طه الآية: 36 - 39)

فعل الله عجيب، كن مع الله فقط، لكنّ أبا جهل وكأنّ عنده حاسة سادسة غريبة، قال: واللات والعزى إني لأحسبه قريباً منا، يسمع ما نقول، ويرى ما نصنع، ولكن سحره ران على أبصارنا، والموقف محيِّرٌ، أنا أشعر أن محمدًا في الغار .

ما هو موقف سراقة بن مالك حينما سمع بهذه الجائزة الثمينة على من يقبض على النبي حياً كان أم ميتاً؟

حينما يئست قريش أن تقبض على النبي وضعت جائزة مئة رأس من الإبل، أقدِّر أن ثمنها الآن مئة وخمسون ألف ناقة، مائة وخمسون ألف ضرب مئة، يعني خمسة عشر مليون ليرة لمن يأتي به حياً أو ميتاً، وسراقة صحابي هذا الدرس، سراقة بن مالك كان في بعض أندية قومه قريباً من مكة، فإذا برجل يدخل عليهم، ويذيع فيهم نبأ الجائزة التي بذلتها قريش لمن يأتيها بمحمدٍ حياً أو ميتاً، رقم يغري، ثروة طائلة، من أجل قتل محمد قضية سهلة، قال: فما كاد سراقة يسمع بالنوق المئة حتى سال لعابه، واشتد عليها حرصه، ولكنه كان ذكيًّا جداً، فضبط نفسه، ولم يَفُهْ بكلمة واحدة حتى لا يلفت نظر الآخرين، وقبل أن ينهض سراقة من مجلسه، دخل على مكان وجوده رجلٌ، يقول: واللهِ لقد مرّ بي الآن ثلاثة رجال، وإني لأظنهم محمداً وأبا بكرٍ ودليلهما، فقال سراقة: إنهم بنو فلان مضوا يبحثون عن ناقة لهم أضلّوها، يريد أن يصرف الناس عن هذه الجائزة، فقال الرجل: لعلهم كذلك، وسكت .

مكث سراقة قليلاً حتى لا يثير اهتمام أحدٍ، فلما دخل القوم في حديثٍ آخر انسل من بينهم، ومضى خفيفاً مسرعاً إلى بيته، وأسَرَّ لجاريته بأن تخرج له فرسه في غفلة من أعين الناس ، وأن تربطه له في بطن الوادي، وأمر غلامه بأن يعد له سلاحه، وأن يخرج به خلف البيوت حتى لا يراه أحد، وأن يجعل السلاح في مكانٍ قريبٍ من الفرس، ولبس سراقة درعه، وتقلد سلاحه، وركب صهوة فرسه، وطفق يغذُّ السير ليدرك محمداً قبل أن يدركه أحدٌ سواه، ويظفر بجائزة قريش .

لم لم يتابع سراقة بالإلحاق بالنبي وما هو العهد الذي أخذه من رسول الله ؟

من السذاجة أن تظن أن الله يسلّم أولياءه إلى أعدائه، ومن الحمق، ومن الغباء، وكان سراقة بن مالك فارساً من فرسان قومه، طويل القامة، عظيم الهامة، بصيراً باقتفاء الأثر، من خبراء الآثار، صبوراً على أهوال الطرق، وكان إلى ذلك أريباً، لبيباً، شاعراً، وكانت فرسه من عتاق الخيل، مضى سراقة يطوي الأرض طياً، لكنه ما لبث أن عثرت به فرسه وسقط عن صهوتها، فتشاءم، وقال:

((ما هذا؟ تباً لكِ من فرس، وعلا ظهرَها، غير أنه لم يمض بعيداً حتى عثرت به مرةً أخرى، فازداد تشاؤماً، وهمَّ بالرجوع، فما ردّه عن همّه إلا طمعه بالنوق المئة، فلم يبتعد سراقة كثيراً عن مكان عثور فرسه حتى أبصر محمداً وصاحبه، فمدَّ يده إلى قوسه، ولكن يده جمدت في مكانها، -اليد بيد مَن؟ بيد الله .

ذلك بأنه رأى قوائم فرسه تسيخ في الأرض، شيء غريب! فدفع الفرس فإذا هي قد ساختْ ثانية في الأرض، كأنما سمرت بمسامير من حديد- فالتفت إلى النبي وصاحبه، وقال بصوت ضارع، وقد أدْرَك هذا الإنسان لا بعقله ولكن بفطرته أن خالق الكون مع محمد صلى الله عليه وسلم، هذه الفطرة: يا هذان، ادعوا لي ربكما أن يطلق قوائم فرسي، -وهذا يذكّرنا بفرعون، ماذا ادّعى؟ ادّعى بأنه إله، قال تعالى:

(فقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

(سورة النازعات الآية: 24)

ولما أصيب قوم فرعون بمصائب عديدة ما كان موقف فرعون من موسى:

(وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ)

(سورة الأعراف الآية: 134)

يعني أنّ ادعاءه سخافة، ودجل، أدرك سراقةُ بفطرته أن هذا رسول- ثم قال: ولكما عليّ أن أكفّ عنكما، فدعا له النبي فأطلق الله له قوائم فرسه فأُطْلِقتْ، لكنه تذكّر مئة ناقة، فما لبثت أطماعُه أن تحركت من جديد، فدفع فرسه نحوهما فساخت قوائمها هذه المرة أكثر من ذي قبل، -وسعي النبي لا يكفي لنجاته من سراقة رغم توكُّله، فماذا فعل الله عز وجل؟ خرق العادات، ونصر نبيه، وهذا هو محور الدرس، فأنت عليك أن تأخذ بالأسباب، فإنْ لم تكفِ خرق الله لك العادات، أما إن لم تأخذ بالأسباب لم يخرق الله لك العادات، وهذه للنبي معجزة، ولغيره من المؤمنين كرامة .

وفي روايات كثيرة، أن سيدنا الصديق كان يمشي مرةً عن يمينه، ومرةً عن شماله، ومرةً أمامه، ومرةً وراءه، فالنبي الكريم تحيَّر، قال:

((ما هذا يا أبا بكر؟ قال: والله يا رسول الله، أخاف أن تُطلَب من خلفك فأمشي من ورائك، وأخاف أن يأتي الطلب من أمامك فأمشي أمامك، وعن يمينك أكون عن يمينك، -وأنا لا أعتقد أنّ إنسانًا على وجه الأرض يحب إنسانًا كحبِّ الصديق لرسول الله، ومع ذلك حينما مات عليه الصلاة والسلام، قال: من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ما هذا التوحيد؟ وكان سيدنا الصديق حريصاً على ألاّ يُصاب الرسول عليه الصلاة والسلام بأدنى أذى- وقال له مرة ثانية: والله ما على نفسي أخاف ولكن أخاف عليك، إن أهلك أهلك وحدي، وإن تهلك تهلك أمة))

هذا كلام سيدنا الصديق- .

للمرة الثانية: فاستغاث بهما، وقال: إليكما زادي، الآن يريد أنْ يقدِّم دليلاً آخر، إليكما زادي، ومتاعي، وسلاحي، ولكما عليّ عهد الله أن أردَّ عنكما مَن ورائي من الناس، -لأنه أول مرة كذب، وخان العهد، حتى يؤكد عهده الجديد- قال: خذوا مالي، زادي، ومتاعي، وسلاحي، ولكما عليّ عهد الله عز وجل أن أرد عنكما من ورائي من الناس، فقالا له: لا حاجة لنا بزادك، ومتاعك ، ولكن رد عنا الناس، ثم دعا له النبي صلى الله عليه وسلم فانطلقت فرسه، فلما همَّ بالعودة ناداهم قائلاً: تريثوا، فو الله لا يأتيكم مني شيء تكرهونه، فقال له النبيُّ: ما تبتغي منا؟ فقال: والله يا محمد، إني لأعلم أنه سيظهر دينك، ويعلو أمرك فعاهدني إذا أتيتك في ملكك أن تكرمني، واكتب لي بذلك، أريد وثيقة، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم الصديق فكتب له على لوح عظمٍ، ودفعه إليه، ولما همَّ بالانصراف، قال له النبي عليه الصلاة والسلام، ويبدو أن هذا وحي من الله: كيف بك يا سراقة لو لبستَ سواري كسرى؟ فقال سراقة في دهشة: كسرى ابن هرمز؟- معنى ذلك أن لكسرى شأنًا كبيراً، كانت دولة الفُرس من العظمة ما لا يُتصوَّر، والعرب كانوا ضعافًا، وهم قبائل متناحرة، متباغضة جياع، عراة، ما الذي أعزهم؟ الإسلام، أعزهم الله بالإسلام، ومهما نبتغي العزة بغيره أذلنا الله- قال رسول الله: نعم كسرى بن هرمز))

وهذا من إعلام الله له، وليست مِن عنده، قال تعالى:

(عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً)

(سورة الجن الآية: 26 - 27)

ما كان للنبي عليه الصلاة والسلام أن يَعلَمَ بنفسه أنّ هذا الإنسان الذي جاء يلاحقهما سوف يلبس سِوارَيْ كسرى وتاجه .

هل أفشى سراقة السر عن رسول الله ومتى أذاع بخبر النبي ؟

هذه المرة أصبح سراقةُ وفيًّا، وعاد أدراجه، فوجد الناس قد أقبلوا ينشدون رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال لهم: ارجعوا فقد نفضتُ الأرضَ نفضاً بحثاً عنهم، فلا تغلبوا نفسكم، لم أعثُر على أحدٍ، وأنتم لا تجهلون مبلغ بصري بالأثر، فرجعوا، ثم كتم خبره مع محمد وصاحبه حتى أيقن أنهما بلغا المدينة، وأصبحا في مأمنٍ من عدوان قريش، عند ذلك أذاع الخبر، فلما سمع أبو جهلٍ بخبر سراقة مع النبي صلى الله عليه وسلم، وموقفه منه لامه على تخاذله، وعنفه، وعنف جبنه، وتفويته الفرصة .

قال له: أبا حكمٍ، والله لو كنت شاهداً لأمرِ جوادي إذ تسيخ قوائمه لعلمتَ، ولم تشكك بأن محمداً رسول ببرهانٍ، فمَن ذا الذي يقاومه، ثم إنّ الأيامَ دارت، والنبي عليه الصلاة والسلام الذي خرج من مكة طريداً، شريداً، مستتراً بجنح الظلام، يعود إليها سيداً، فاتحاً، تحفُّ به الألوف المؤلفة من بيض السيوف، وإذا بزعماء قريش الذين ملؤوا الأرض عنجهيةً، وغطرسةً، وكبراً، واستعلاء، يقبلون على النبي خائفين واجفين، يسألونه الرأفة، ويقولون: ماذا عساك أنْ تصنع بنا يا محمد؟ فيقول عليه الصلاة والسلام في سماحة الأنبياء:

((اذهبوا فأنتم الطلقاء))

متى أسلم سراقة بن مالك ؟

عند ذلك أعدّ سراقة بن مالك راحلته، ومضى إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليعلن إسلامه بين يديه، ومعه العهد الذي كتبه له قبل عشر سنوات، قال سراقة:

((لقد أتيت النبي صلى الله عليه وسلم بالجعرانة، فدخلتُ في كتيبة الأنصار، فجعلوا يقرعونني بكعوب الرماح، ويقولون: إليك إليك، ماذا تريد؟ فما زلتُ أشقُّ صفوفهم حتى غدوتُ قريباً من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو على ناقته فرفعت يدي بالكتاب، وقلت: يا رسول الله، أنا سراقة بن مالك، وهذا كتابك لي، فقال عليه الصلاة والسلام: يوم وفاء وبر، ادنُ، فأقبلت عليه، وأعلنتُ إسلامي بين يديه، ونلتُ من خيره، وبره، ولم يمض على لقاء سراقة بن مالك برسول الله غير زمن يسير حتى اختار الله نبيه إلى جواره .

حزن سراقة أشد الحزن، وجعل يتراءى له ذلك اليوم الذي همَّ بقتله، من أجل مئة ناقة))

وكيف أن نوق الدنيا كلها قد أصبحت اليوم لا تساوي عنده قلامة من ظفر النبي؟ هذا الإيمان، قال أبو سفيان لخبيب بن عدي:

((أتحبُّ أن تكون مع أهلك ومحمد مكانك يُصلب؟ قال له: واللهِ ما أحب أن أكون في أهلي وولدي وعندي عافية الدنيا ونعيمها ويصاب رسول الله بشوكة))

الإسلام كله حب، وإيثار، وإخلاص، ووفاء، وحينما لم يبق من الإسلام إلا اسمه، ولم يبق من القرآن إلا رسمه، وحينما يفرغ الدين من قيمه، ويصبح طقوساً، وعباداتٍ جوفاء، فاقرأ على المسلمين السلام .

هل لبس سراقة تاج كسرى وسواريه وفي أي عهد من الخلفاء ؟

ثم دارت الأيام دورتها كرةً أخرى، وآل أمر المسلمين إلى الفاروق رضوان الله عليه، وهبت جيوش المسلمين في عهده المبارك على مملكة فارس، فطفقت تدكُّ الحصون، وتهدم الجيوش، وتهز العروش، وتحرز الغنائم .

وفي ذات يوم من أواخر أيام خلافة عمر قدم على المدينة رسل سعد بن أبي وقاص يبشرون خليفة المسلمين بالفتح، ويحملون إلى بيت مال المسلمين خمس الفيء الذي غنمه الفاتحون ، فلما وضعت الغنائم بين يدي عمر نظر إليها في دهشة، فقد كان فيها تاج كسرى المرصع بالدر ، وثيابه المنسوجة بخيوط الذهب، ووشاحه المنظوم بالجوهر، وسواراه اللذان لم تر العين مثلهما قط، ومالا حصر له من النفائس الأخرى، فجاء عمر يقلب هذا الكنز الثمين بقضيبٍ كان بيده، ثم التفت إلى من كان حوله، وقد اغرورقت عيناه بالدموع، وإلى جانبه سيدنا علي، فقال له:

((ما الذي يبكيك؟ أعجبت من أمانة هؤلاء؟ فقال له الفاروق: إنّ قومًا أدُّوا هذا لأمناء حقًّا، -تاج كسرى ثمنه مئات الملايين، لو أن هذا الذي أخذه ذهب به إلى أنطاكية لعاش أغنى الأغنياء- قال له: يا أمير المؤمنين، لقد عففتَ فعفُّوا، ولو وقعتَ لوقعوا))

دعا الفاروق رضوان الله عليه سراقة بن مالك فألبسه قميص كسرى، وسراويله، وقباءه ، وخفيه، وقلده سيفه، ومنطقته، ووضع على رأسه تاجه، وألبسه سواريه، عند ذلك هتف المسلمون الله أكبر الله أكبر، لقد تحققت نبوءة النبي عليه الصلاة والسلام، لكن هذه النبوءة ليست من عند النبي، إنما هي وحي أوحي إليه، ثم التفت عمر إلى سراقة، وقال:

((بخ بخ يا سراقة أعرابيٌّ من مدلج على رأسه تاج كسرى، وفي يديه سواراه، ثم رفع عمرُ رأسه إلى السماء، وقال : اللهم إنك منعتَ هذا المال لرسولك، وكان أحبَّ إليك مني، وأكرمَ عليك، ومنعته أبا بكرٍ، وكان أحبَّ إليك مني، وأكرمَ عليك، وأعطيتنيه، وأعوذ بك أن تكون قد أعطيتنيه لتمكر بي، ثم لم يقم من مجلسه حتى قسمه بين فقراء المسلمين))

وانتهى الأمر .

هكذا كان أصحاب النبي، وهكذا كان عطاؤهم، وورعهم، وتواضعهم، وهذه بعض الحقائق التي يمكن أن نستنبطها من قصة هذا الصحابي الجليل سراقة ابن مالك .

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

هل أحب ربيعة بن كعب رسول الله وهل هناك دليل عن حبه له ؟

أيها الأخوة الكرام، مع بداية الدرس الثاني والعشرين من دروس سيرة صحابة رسول الله رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، وصحابي اليوم سيدنا ربيعة بن كعب، وكما تعلمون سابقاً أن كل موقف من مواقف الصحابة يعدّ لنا درساً بليغاً، نهتدي به في حياتنا وعلاقاتنا .

فقال ربيعة بن كعب:

((كنت فتى حديث السن، يعني صغير السن، لما أشرقت نفسي بنور الإيمان، -وأنا بفضل الله تعالى أعلق أهمية كبرى على الأخوة الأكارم الشباب، لأن هؤلاء لهم مستقبل كبير، ومن لم تكن له بداية محرقة، لم تكن له نهاية مشرقة، وريح الجنة في الشباب، وما من شيء أحب إلى الله من شاب تائب، وإن الله يباهي الملائكة بالشاب التائب، يقول:

((انظروا عبدي ترك شهوته من أجلي))

- قال: كنت فتىً حديث السن لما أشرقت نفسي بالإيمان، وامتلأ فؤادي بمعاني الإسلام، ولما اكتحلت عيناي بمرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أول مرة أحببته حباً ملأ علي كل جارحة من جوارحي .

-أيها الأخوة، إسلام بلا حب جسد بلا روح، لا إيمان لمن لا محبة له، لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له، فالحب أحد أركان الإسلام، ليس بالمعنى الاصطلاحي، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ))

[متفق عليه، أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح عن أنس بن مالك]

وأولعت به ولعاً صرفني عن كل ما عداه، فقلت في نفسي ذات يوم: ما قيمة الحب من غير عمل تقدمه؟ -ما قيمة الحب من غير ترجمة تترجم له؟ ما قيمة الحب من دون شيء يؤكده؟ لما كثر مُدَّعوا المحبة طولبوا بالدليل، ادعاء المحبة سهل جداً، وكل إنسان بإمكانه أن يدعي أنه يحب رسول الله، أو يحب الله، ولما كثرت هذه الدعوى طولب هؤلاء المُدَّعون بالدليل، قال تعالى:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

(سورة آل عمران الآية: 31)

فقلت في نفسي ذات يوم: ويحك يا ربيعة، لِمَ لا تجرد نفسك لخدمة رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم؟ اعرض نفسك عليه، فإن رضي بك سعدت بقربه، وفزت بحبه، وحظيت بخَيْرَي الدنيا والآخرة .

-والخدمة من أجل الأعمال التي يقدمها الإنسان تعبيراً عن حبه وإخلاصه لمن يحب، وهي برهان صادق، لأن المؤمن الموصول بالله سعيد، وكل من خالطه يسعد بقربه، ويسعد بصحبته، فكيف برسول الله؟ كل واحد منا إذا التقى أخًا بالله مؤمنًا خالص الإيمان، صادقاً في إيمانه، له عمله الطيب، يأنس بقربه، ويسعد بصحبته، ويسعد برفقته، هذا مع مؤمن، فكيف إذا التقيت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فكيف إذا كنت من أقرب الناس إليه؟ إنه شيء مسعد جداً أن تكون مع رسول الله قريبًا منه- .

قال: ثم ما لبثت أن عرضت نفسي على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورجوت أن يقبلني في خدمته فلم يخيب رجائي

وصدق الفرزدق حين قال:

ما قال لا قط إلا في تشهده لولا التشهد كانت لاؤه نَعَمُ

إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحب أن يرفض طلب إنسان إلا إذا كان غير معقول، لذلك هذه أخلاق الله عز وجل، وقد علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتخلق بأخلاق الله، عَنْ سَلْمَانَ عَن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ:

((إِنَّ رَبَّكُمْ حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ أَنْ يَرْفَعَ إِلَيْهِ يَدَيْهِ فَيَرُدَّهُمَا صِفْرًا أَوْ قَالَ خَائِبَتَيْنِ))

[أخرجه الترمذي في سننه عن سلمان]

انظر إلى خدمة ربيعة لرسول الله عليه الصلاة والسلام :

قال:

((منذ ذلك اليوم ألزمَ للنبي الكريم من ظله، صار خادمًا، -وكلمة خادم للعظماء وسامُ شرف، أما لغير العظماء فهي وصمة عار، ومَلِك يسمِّي نفسه خادم الحرمين، هذا شرف، أما إذا خدمت غنياً ابتغاء ماله، كما قال عليه الصلاة والسلام:

((من دخل إلى غني فتضعضع له ذهب ثلثا دينه))

[أخرجه البيهقي عن ابن مسعود في سننه]

أسير معه أينما سار، وأدور في فلكه كيفما دار، فما رام بطَرْفه مرةً نحوي إلا مثلت واقفاً بين يديه، -كان ذكيًّا لا حاجة أن ينادي له، من نظرة يفهم، الفطِنُ يفهم بالإشارة، وما تَشَوَّف لحاجة من حاجاته إلا وجدني مسرعاً في قضائها .

الحُبُّ إذا نما بين شخصين فهمَ المحب عندئذٍ على المحبوب خواطرَه قبل أن ينطق بها- قال: وكنت أخدمه نهاره كله، فإذا انقضى النهار وصلى العشاء الآخرة، وأوى إلى بيته، أهم بالانصراف، لكني ما ألبث أن أقول في نفسي: إلى أين تمضي يا ربيعة؟ هل لك مكان أجمل من هذا المكان؟ فلعل تعرض للنبي عليه الصلاة والسلام حاجة في الليل فأجلس على بابه، ولا أتحول عن عتبة بيته .

-إذا أحب الإنسانُ رسولَ الله سعِدَ في الدنيا والآخرة، لأن النبي شفّاف، إن أحببته فحبك له عين حب الله، فليس بينهما انفصال، قال تعالى:

(يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ)

(سورة التوبة الآية: 62)

حُبُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم عينُ حب الله، وحبُّ الله عزوجل عينُ حبِّ رسول الله، لو أن إنسانًا قال لك: أنا أحب الله فقط، نقول له: أنت كذاب، لأنّ مَن أحبَّ الله أحبَّ رسولَ الله، ولأن النبي عليه الصلاة والسلام ليس له ذات يدعو إليها، إنما يدعو إلى الله، وهو يمثل الكمال البشري ، ومن هذا المعنى لو أن إنسانًا لم يطبق سنة النبي، ثم اصطلح مع الله، فإنّ الله لا يقبله إلا إذا اصطلح مع النبي صلى الله عليه وسلم، والدليل قوله تعالى:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً)

(سورة النساء الآية: 64)

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ:

((إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ، فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا اللَّهَ لِي الْوَسِيلَةَ فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ))

[متفق عليه، أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح عن عبد الله بن عمرو بن العاص]

سيدنا ربيعة يجلس على عتبة باب النبي، فربما اضطجع على عتبة الباب، والأذن تسمع ماذا يفعل النبي في الليل؟ وقد كان عليه الصلاة والسلام يقطّع ليله قائماً يصلي، فربما سمعته يقرأ بفاتحة الكتاب فما يزال يكررها هزيعاً من الليل، -فالإنسان أحيانًا يطرب لآية يعيدها، يعيدها ولا يمل من سماعها، وقد ورد في بعض قصص الصحابة والتابعين أنهم كانوا إذا صلوا قيام الليل ووقفوا عند آية وترنموا بها أعادوها طوال الليل- فهذه إشارة إلى أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يقرأ بفاتحة الكتاب، وما يزال يكررها هزيعاً من الليل حتى أمل فأتركه، أو تغلبني عيناي فأنام، قال تعالى:

(إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى

وَآَخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآَخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآَتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً)

(سورة المزمل الآية: 20)

وربما سمعته، يقول: سمع الله لمن حمده، ثم يحمده، فما يزال يرددها أطول من ترديد فاتحة الكتاب وذات مرة رابعة العدوية ناجت ربها في الليل، وقالت: يا رب أغلقت الملوكُ أبوابَها، وخلا كلُّ حبيب بحبيبه، ثم توجهتْ إلى الله في صلاتها، فإذا انعقدت صلة المسلم بالله عزوجل في جزء من الليل فهو في سعادة ما بعدها سعادة .

أحد كبار العلماء ترك مؤلفات كثيرة، رآه تلميذ له في المنام، قال يا سيدي: ما فعل الله بك؟ قال: يا بني طاحت تلك العبارات، وذهبت تلك الإشارات، ولم يبق إلا ركيعات ركعناها في جوف الليل، كل مسلم يقدر أن يصلي قيام الليل قبل الفجر إذا هيَّأ المنبه ليوقظه قبل الفجر بنصف ساعة، وبإمكانه أن يصلي أربع ركعات مثلاً .

هل كافأ رسول الله ربيعة على خدمته وما هي المكافأة ؟

أيها الأخوة، وقد كان من عادة رسول الله عليه الصلاة والسلام أنه ما صنع أحد له معروفاً إلا أحبَّ أن يجازيه عليه بما هو أجلُّ منه، وسقتُ هذه القصة كلها، وأردت منها هذه الفقرة لأبيِّن لكم أخلاق النبي، وليس في الأمر ضريبة الخدمات التي تقدم للنبي، فيعدها النبي ديَّان عليه، دققوا في هذه الناحية، النبي وما أدراكم ما النبي؟ سيد الخلق، حبيب الحق، سيد ولد آدم، المعصوم الذي يوحى إليه، قمة البشر إذا قدمت له خدمة، هل يراها فرضاً عليه؟ هل يراها ضريبة يجب أن يؤديها؟ أما النبي كان يرى خدمة ربيعة له ديناً عليه .

يا أيها الأخوة الأكارم، أرجو الله سبحانه وتعالى أن يوفقني لتوضيح هذه الحقيقة، لن يرضى الله عنك إلا إن قُدِّمتْ لك خدمة يجب أن تراها دينً عليك، ويجب ألاَّ تنساها حتى الموت، وإن قدمتَ خدمة لأحدٍ فينبغي أن ترى أن تقديم هذه الخدمة من فضل الله عليك، ويجب أن تنساها فورا، وإن قدمتَ خدمة ينبغي أن تراها فضلاً من الله ساقها إليك، لأنه سمح لك أن تفعل هذا، فهل هناك من دليل يؤكد هذه الحقيقة؟ الدليل: عندما سيدنا موسى سقى للمرأتين تولى إلى الظل، قال تعالى:

(فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ)

(سورة القصص الآية: 24)

فإذا تكلم أحدكم عن الله عزوجل، وأجاد، فينبغي أن يذوب شكراً لله أن أطلق لسانه، وسمح له أن يكون داعية إلى الله عزوجل، فإذا وفقت إلى عمل صالح لا ينبغي أن تُدلَّ به على أحد، بل ينبغي أن تشكر الله عزوجل أن سمح لك بفعله، و قيض لك مالاً تنفقه، و صحة تبذلها .

قال ربيعة:

((وقد أحبَّ النبي أن يجازيني على خدمتي له، فأقبل عليَّ ذات يوم، وقال: يا ربيعة بن كعب، قلت: لبيك يا رسول الله، وسعديك، -وبالمناسبة فإنّ النبي الكريم مرةً طرق باب أحد أصحابه فما ردَّ عليه، ثم قال: يا فلان، فما أجابه أحد، وفي المرة الثانية لم يردَّ عليه أحد، وكذا في الثالثة، فانطلق، ثم فُتِح الباب بعد أن انطلق، ولحقه الصحابي الجليل ليستقبله، فقال له: لمَ لمْ تردَّ عليَّ؟ فقال: والله يا رسول الله، كنت حينما أسمع صوتك يناديني أشعر برحمة تتغشّى قلبي ، فأردت أن أسمعها مرة ثانية وثالثة،

إنه شيء يذيب القلب، نبي كريم، سيد الخلق، يقول لك: يا فلان، ويناديك باسمك، فهذه سعادة- .

قال: سلني شيئًا أعطِه لك، أنت خدمتنا، اطلب مني حاجة، تروّيتُ قليلاً، ثم قلت: أمهلني يا رسول الله، لأنظر فيما أطلبه منك، ثم أعلمك، -كان ذكيًّا جداً، فأحبَّ أن يستغل هذا الطلب إلى أبعد الحدود، وأحب أن يفكر، والأذكياء دائماً، والناجحون في حياتهم لا يتخذون قراراً سريعاً، هل تقبلون هذه النصيحة؟ إنْ أغضبك أحدٌ فلا تتخذ أي قرار وأنت غاضب، قل: سأتخذ قراري بعد أسبوع، فتجد نفسك بعد أسبوع إنسانًا هادئًا، ونفسك سمحت وعفت، فأي قرار تتخذه وأنت غاضب فهو قرار فيه خطأ، أو فيه تسرع، أو فيه حمق، أو فيه عدم نضج، وأي طلبٍ طُلِبَ منك فخذ مهلة بالمقابل، وإذا أردت إنفاذ أمر فتدبَّرْ عاقبته، وكلما زدت الأمرَ فكراً زدت رؤية صحيحةً، وأصحُّ قرارٍ تتخذه هو القرار الذي تتخذه وأنت هادئ النفس، وقد جمعت المعلومات الضرورية حوله- .

فقال عليه الصلاة والسلام: لا بأس عليك، وكنت يومئذ شاباً فقيراً لا أهل لي ولا مال ولا سكن، وإنما كنت آوي إلى صفة المسجد، -فإذا أكرمَ الله أحدَنا بزيارة الروضة الشريفة فلينظرْ خلف الروضة، ترى في المسجد الأموي منصة مرتفعة، وفي أثناء الاحتفالات يجلس عليها كبار الضيوف، ففي الحرم النبوي الشريف منصة مرتفعة، وهذا المكان كان مكان أهل الصُّفة، وهم فقراء المسلمين، هناك يجلسون وهناك ينامون- .

وإنما كنت آوي إلى صفة المسجد مع أمثالي من فقراء المسلمين، وكان الناس يدعوننا بضيوف الإسلام، فإذا أتى أحد المسلمين بصدقة إلى النبي صلى الله عليه وسلم بعث بها كلها إلينا ؛ -ولي تعليق لطيف، فبعض الأشخاص يظنون أن صلة الرحم أن تكتفي بزيارة أقاربك، الأقارب الفقراء ليس معنى صلتهم أن تزورهم، معنى صلتهم أن تهديهم، وتقدم لهم هدية، أن تدخل عليهم ويدُك ملأى ببعض الحاجات، هذه هي الصلة- فكان المسلمون يأتون بالصدقات إلى النبي عليه الصلاة والسلام،

وكان عليه الصلاة والسلام يدفعها كلها إلى صُفّة المجلس -وكان النبي بأعلى درجات الورع، ولقد قرأت مرةً أن الوحي انقطع عنه قليلاً، فحار في هذا الانقطاع، فقال للسيدة عائشة:

((لعلها يا عائشة تمرة أكلتها من تمر الصدقة))

لأنّ النبي عليه الصلاة والسلام لا يأكل الصدقة أبداً، أما الهدية فيأكل منها، ويهدي بعضها، وإذا أهدى له أحد هدية أخذ منها شيئاً، وجعل باقيها لنا، أخذ حاجته، والباقي أعطاه لفقراء المسلمين- فحدثتني نفسي أن أطلب من النبي عليه الصلاة والسلام من خير الدنيا، يزوجني ، وأطلب بيتًا، وأغتني به من فقر، وأغدو كالآخرين ذا مال وزوج وولد، لكني ما لبثت أن قلت: تباً لك يا ربيعة بن كعب، إنّ الدنيا زائلة فانية، وإنّ لك فيها رزقاً كفله الله عزوجل، فلا بد أن يأتيك، والنبي عليه الصلاة والسلام له منزلة عند ربه، فلا يرد معها طلب، فاطلب منه أن يسأل الله لك من فضل الآخرة، -انظروا إلى العقل الراجح- ثم جئت النبي عليه الصلاة والسلام، فقال لي : ما تقول يا ربيعة؟ قلت يا رسول الله: أسألك أن تدعو لي الله سبحانه وتعالى أن يجعلني رفيقاً لك في الجنة، فقال عليه الصلاة والسلام: من أوصاك بذلك؟ قلت: لا، والله ما أوصاني به أحد، ولكنك حينما قلت لي: سلني أعطك، حدثتني نفسي أن أسألك شيئاً من خير الدنيا، ثم ما لبثت أن هديت إلى إيثار الباقية على الفانية، فسألتك أن تدعو الله لي أن أكون رفيقك في الجنة، فصمتَ النبيُّ عليه الصلاة والسلام طويلاً، ثم قال: أوَ غيرَ ذلك يا ربيعة؟ -أحيانا يقدم لك شخصٌ خدمة كبيرة جداً، تقول له: ماذا تطلب؟ فيقول لك: ادعُ لنا، فتقول: وفّقك الله، لا تقل له ذلك، فالدعاء وارد، ونريد شيئًا آخر، لا تقبل بخدمة ثمينة إلاّ غاية ثمينة، أمّا دعاؤك فلعله وارد منه بصورة عفوية .

عَن ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَنِ اسْتَعَاذَ بِاللَّهِ فَأَعِيذُوهُ، وَمَنْ سَأَلَكُمْ بِاللَّهِ فَأَعْطُوهُ، وَمَنِ اسْتَجَارَ بِاللَّهِ فَأَجِيرُوهُ، وَمَنْ آتَى إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَعْلَمُوا أَنْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ))

[أخرجه النسائي في سننه عن ابن عمر]

علّمنا النبيُّ أن نقدِّم مقابلَ كل خدمة خدمة، ومقابل كل هدية هدية، وكل معروف معروفاً، لئلا نمنع الماعون، هؤلاء الذين لا يردون على الهدية بمثلها يمنعون الماعون، ولنَعُدْ إلى ربيعة- قلت: لا يا رسول الله، فما أعدل بما سألتك شيئاً، ما أريد إلا الذي سألتك، فبماذا أجاب النبي؟ عَنْ رَبِيعَةَ بْنِ كَعْبٍ الْأَسْلَمِيِّ، قَالَ:

((كُنْتُ أَبِيتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَتَيْتُهُ بِوَضُوئِهِ وَحَاجَتِهِ، فَقَالَ لِي: سَلْ، فَقُلْتُ: أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ، قَالَ: أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ، قُلْتُ: هُوَ ذَاكَ، قَالَ: فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ))

[أخرجه مسلم في الصحيح عن ربيعة بن كعب الأسلمي]

-طلبتَ شيئاً عظيماً، وقد كنتُ أوضِّحُ هذا بمثل: ملِك له ابن، قال له: اطلب يا بني، فإذا قال له: أريد قصرًا، فالقصر شيء سهل، فقال له ذات مرة: أرغب أن أكون أستاذ جامعة، قال له : هذه عليك، وليست عليّ، فكل شيء ممكن إلا هذه، إذا أردت هذا المنصب العلمي فادرس إذاً، الفكرة دقيقة .

فكِّرْ في الكون كثيراً، عمِّق إيمانك، تعرَّف إلى الله عز وجل، استقِمْ على أمره، ابذلْ من مالك، ومن وقتك، ارتق في معرفة الله حتى تستحق هذا المقام- .

قال ربيعةُ:

((فجعلت أدأب بالعبادة حتى أحظى بمرافقة رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجنة، كما حظيت بخدمته وصحبته في الدنيا))

إنه طمِعٌ، قال تعالى:

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ)

(سورة المطففين الآية: 26)

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ)

(سورة الصافات الآية: 61)

ما هي المكافأة المادية التي عرضها رسول الله على ربيعة ؟

قال:

((ثم إنه لم يمض على ذلك وقت طويل حتى ناداني رسول الله صلى الله عليه وسلم -إذْ لم يقبل مقابل خدمة مادية إلا أن يكافئه عليها بخدمة مادية، استنباط آخر، غِناه في قلبه، من آثر آخرته على دنياه ربحهما معاً- قال له النبي عليه الصلاة والسلام: يا ربيعة، ألا تتزوج؟ قلت: لا أحب أن يشغلني شيء عن خدمتك يا رسول الله، -وفي حديث يَعْلَى الْعَامِرِيِّ أَنَّهُ قَالَ:

((جَاءَ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ يَسْعَيَانِ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَضَمَّهُمَا إِلَيْهِ، وَقَالَ: إِنَّ الْوَلَدَ مَبْخَلَةٌ مَجْبَنَةٌ))

[أخرجه ابن ماجه في سننه عن يعلى العامري]

ثم إنه ليس لي ما أمهر به الزوجة، فسكت عليه الصلاة والسلام، ثم رآني ثانية، فقال: يا ربيعة ألا تتزوج، فأجبته بمثل ما قلت له في المرة السابقة، لكني ما إن خلوت إلى نفسي حتى ندمت على ما كان مني، وقلت: ويحك يا ربيعة، فو اللهِ إنّ النبي لأعلمُ منك يا ربيعة بما هو أصلح لك في دينك ودنياك، وأعْرَفُ منك بما عندك، واللهِ لأن دعاني النبيُّ صلى الله عليه وسلم بعد هذه المرة للزواج لأجيبنَّهُ، ثم لم

يمض على ذلك طويل وقت حتى قال لي النبي صلى الله عليه وسلم: يا ربيعة، ألا تتزوج، للمرة الثالثة،-انظر إلى حرص النبي على أصحابه، وعلى استقرارهم، وعلى سعادتهم، وعلى طمأنينتهم، هو أب وأرقى من أب، أرحم الخلق بالخلق- .

قلت: بلى يا رسول الله، أريد أن أتزوج، ولكن من يزوجني وأنا كما تعلم؟ فقال: انطلق إلى آل فلان، وقل لهم: إن رسول الله يأمركم أن تزوجوني فتاتكم فلانة، فأتيتهم على استحياء، فهل من المعقول أن يزوِّجوني وأنا لا أملك شيئًا؟ وقلت لهم: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسلني إليكم لتزوجوني فتاتكم فلانة، قالوا: فلانة، -ويبدو أنها على مستوى رفيع جداً- قلت: نعم على استحياء، ولم يرتفع صوته، قالوا: مرحباً برسول الله، ومرحباً برسول رسول الله، والله لا يرجع رسولُ رسولِ الله إلا بحاجته، وعقدوا لي عليها، فأتيت النبيَّ صلى الله عليه وسلم، قلت له : يا رسول الله، لقد جئت من عند خير بيت، وزوجوني .

-أعجبني مرة في عقد قران حيث ما قدمت قطعة ذهبية أو غيرها إطلاقاً، وقام خطيب الحفل، وقال: مجموع هذه الهدايا زوَّجْنا بها شاباً فقيراً، أخ كريم من أخوانا ذهب إلى أمريكا لإجراء عملية في قلبه، وصدفةً كان الطبيب من هذه البلدة، فلما رآه أخًا له من بلدته أكرمه إكراماً ما بعده إكرام، وأجرى له عملية بالغة التعقيد، والعجيب أنه رفض أن يأخذ قرشاً واحداً، هذا الذي ذهب رجل ميسور الحال، قال له: أنا ميسور الحال، ولا أقبل بهذا، فقال الطبيب: هذه العملية هدية لك، ثم عاد إلى الشام، والمبلغ الذي كان مقرَّرًا أن يدفعه لهذا الطبيب الذي أجرى عمليته رصده لعملية قلب لفقير، وأرسل للطبيب في أمريكا صورة لهذا الفقير الذي أجريتْ له العملية، وأن هذا الأجر الذي لم تأخذه أنت خصَّصتُه أنا لإنقاذ رجل أصيب قلبه، وهو فقير، ولا يملك أجر علاجه ، وهذا شيء جميل حقًّا .

قال العلماء: سعيد بن المسيب من كبار التابعين، خطب ابنتَه عبدُ الملك بن مروان لابنه الوليد بن عبد الملك الذي أنشأ مسجد بني أمية، فرفض سعيد الخطيب، وعنده تلميذٌ فقيراً جداً، غاب درسين، فلما تفقده أخبره قائلاً: زوجتي توفيت يا سيدي، فقال له: لمَ لمْ تعلمنا فنعزيك؟ أفتريد زوجة؟ قال له: نعم، ولكني فقير، فقال سعيد: أزوَّجك ابنتي، فهذا التلميذ الفقير لا يملك من حطام الدنيا شيئاً، طبعاً وافق، ولكن دخل في همٍّ كبير، ولكن في الليلة نفسها قرع الباب، فقلت: من الطارق؟ قال: سعيد، فقال: خطر في بالي أربعون سعيداً إلا سعيد بن المسيب، لأنه من أربعين عاماً ما خرج عن خط واحد، من البيت إلى مجلس القضاء، فلما فتحت الباب رأيت شيخي سعيد بن المسيب، ووراءه ابنته، فدفعها إليَّ، في يوم واحد تمَّ العقد ثم الزواج، وكلما عقَّدْنا الزواج في زماننا يكثر السفاح، وكلما سهَّلنا الزواج قلَّ السفاح، النكاح يرضي الله، والسفاح يغضبه، ليس الآن مِن عمل عظيم كأن تسهِّل إجراءات الزواج، غرفة تكفي مبدئياً، ولا داعي للحلي الثمينة، فقد سمعت بقريةٍ في الريف، واللهِ أنا أكبرتُ عملهم، اجتمع وجهاؤها،

وقرروا أنَّ أيَّ شاب يخطب امرأة يقدم خاتم سحب، وساعة فقط، هذا هو المصاغ الذي يقدم فقط، وهذا تسهيل كامل وأعظم النساء بركةً أقلهن مؤونةً، وأعظم النساء بركة أقلهن مهرا، إنّ عقود القِران التي يبالغ بالبذخ فيها لا يسعد بعدها الزوجان في أغلب الأحيان، والعقود المتواضعة ترى بعدها الزواج قطعة من الجنة-

قال ربيعة: صدَّقوني، ورحَّبوا بي، وعقدوا لي على ابنتهم، فمِن أين آتيهم بالمهر يا رسول الله؟ فاستدعى النبي بريدة بن الحصيب، وكان سيداً من سادات بني أسلم، وقال له: يا بريدة، اجمع لربيعة وزن نواة ذهباً، فجمعوها لي، فقال لي عليه الصلاة والسلام: اذهب بهذا إليهم ، وقل لهم: هذا صداق ابنتكم، -وهكذا التعاون، فإذا كانت مجموعة المؤمنين في ولاء وفي محبة أمكن ذلك، هذا ابن أخيك، وأنت ميسور، ادفع له المهر لزواجه، وهكذا مجتمع المؤمنين، قال تعالى :

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى)

(سورة المائدة الآية: 2)

فأتيتهم ودفعته لهم، فقبلوه، ورضوا به، وقالوا: كثير طيب، -هذه العادة سيِّئة، أنّ كل شيء قدِّم لك تسأل عن سعره، فأنت إنسان مادي، فمن جاءك ورضيت دينه وخلقه ففيه الخير فارض به- .

فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم، وقلت: ما رأيت قوماً قط أكرم منهم، فلقد رضوا ما أعطيتهم على قلته، وقالوا: كثير طيب، فمن أين ما أولم به؟ -والوليمة من السنة- فقال النبي صلى الله عليه وسلم لبريدة: اجمعوا لربيعة ثمن كبش، فابتاعوا لي كبشاً عظيماً سميناً، فقال لي النبي صلى الله عليه وسلم: اذهب إلى عائشة، وقل لها: أن تدفع لك ما عندها من الشعير، فأتيتها، فقالت: إليك المكتل، ففيه سبعة آصع، لا، والله ما عندنا طعام غيره، فمن عند رسول الله الشعير، ومِن بريدة الكبش والمهر .

فانطلقتُ بالكبش والشعير إلى أهل زوجتي، فقالوا: أما الشعير فنحن نعدُّه، وأما الكبش فأْمُرْ أصحابك أن يعدُّوه لك، فأخذتُ الكبشَ أنا وأناسٌ من أسلم وذبحناه، وسلخناه، وطبخناه، فأصبح عندنا خبز ولحم، فأولمت، ودعوت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأجاب دعوتي))

إليك هذا الموقف لربيعة علام يدل ؟

قال:

((ثم عليه الصلاة والسلام منحني أرضاً إلى جانب أرض أبي بكر، فدخلتْ عليَّ الدنيا، حتى إني ذات مرةٍ اختلفت مع أبي بكر رضي الله عنه على نخلة، فقلت: هي في أرضي، فقال: بل هي في أرضي، فنازعته، فأسمعني كلمة، فلما بدرت منه الكلمة ندم، وقال: يا ربيعة رُدَّ عليَّ بمثلها، حتى يكون قصاصاً، فقلت: لا والله، لا أفعل، فقال: إذاً آتي رسول الله، وأشكو له امتناعك عن القصاص مني،

وانطلق إلى النبي فمضيتُ في إثره، فتبعني قومي بنو أسلم، وقالوا: هو الذي بدأ بك، ثم يسبقك إلى رسول الله فيشكوك، فالتفتُّ إليهم، وقلت لهم: ويحكم أتدرون من هذا؟ هذا الصديق، وذو شيبة المسلمين، ارجعوا قبل أن يلتفت فيراكم، فيظن إنما جئتم لتعينوني عليه، فيأتي رسولَ الله فيغضب النبيُّ لغضبه، ويغضب اللهُ لغضبهما فيهلك ربيعة، -يعرفون مقام بعضهم- ثم أتى الصديقُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم وحدثه الحديث كما كان، فرفع النبي رأسه إلي، وقال: يا ربيعة، مالك وللصديق؟ فقلت له: يا رسول الله، أراد مني أن أقول له كما قال لي، فلم أفعل، فقال : نعم، لا تقل له كما قال لك .

-لا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا أهل الفضل- و لكن قل: غفر الله لأبي بكر، فقلت: غفر الله لك يا أبا بكر، فمضى وعيناه تفيضان من الدمع، وهو يقول: جزاك الله عني خيراً يا ربيعة بن كعب، جزاك الله عني خيراً يا ربيعة بن كعب))

خلاصة القصة :

هذا سيدنا ربيعة بن كعب، صحابي جليل من أصحاب رسول الله، كان فقيراً، وقد أكدتْ هذه القصةُ أشياءَ كثيرة، يمكن أن نلخصها بسرعة:

1- إذا قُدِّمتْ لك خدمة فينبغي أن تراها قرضاً أو دينًا، ينبغي ألاّ تنساها، وإذا قدَّمتَ خدمة فهي من فضل الله عليك، وينبغي أن تنساها .

2- إذا لم يتمكن الإنسانُ أن ينفق من ماله ولا من قوته يمكنه أن يقدم خدمات، أعرف شخصًا يحب أن يخدم المسجد، وينظّف سجاده، واللهِ هذا عمل عظيم، وإذا أعان أخوانه فهذا عمل جليل، ومن آثر آخرته على دنياه ربحهما معاً .

3- هذا الخيرُ لا يأتيك إلا بجهدك، قال تعالى:

(وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى)

(سورة النجم الآية: 39)

4- التأدب مع الأولياء، فهذه هي القصة، واللهُ أعلم أنها صحيحة، فموقف سيدنا ربيعة كامل .

أرجو الله سبحانه وتعالى أن نستفيد من هذه القصص، وأن تنعكس على حياتنا سلوكاً وسعادةً، لأن هذه المعلومات لا قيمة لها كمعلومات إلا أن تترجم إلى وقائع .

والحمد لله رب العالمين

السيرة - رجال حول الرسول - الدرس (23-50) : سيدنا نعيم بن مسعود

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 15-03-1993

بسم الله الرحمن الرحيم

بماذا كان يتصف نعيم بن مسعود في جاهليته الأولى ؟

أيها الأخوة الكرام، مع بداية الدرس الثالث والعشرين من دروس سيرة صحابة رسول الله رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، وصحابي اليوم سيدنا نعيم بن مسعود، مرة بعد مرة أوضح لكم أن وقائع هذه السير ربما كانت معروفة عندكم، إلا أن محور هذه الدروس أن نستنبط منها حقائق وأساليب وطرائق تعيننا على تعاملنا مع الله أولاً، ومع مَن حولنا ثانياً، فالعبرة في التحليل.

هذا الصحابي الجليل يتمتع بقدْرٍ عالٍ جداً من الذكاء، واخترتُ هذا الصحابي لأبيِّن لكم أنه يمكن أن يوظَّف الذكاء في سبيل الحق، ربما كانت معركة الخندق والنصر الذي حصل فيها، ربما في جزء كبير منه يرجع الفضل فيه إلى هذا الصحابي الجليل لذكائه الذي استخدمه في سبيل الحق، فما أكبَرَ خسارة ذلك الإنسان العاقل الذكي الذي يوظف ذكاءه للإيقاع بين الناس، أو لجمع الدرهم و الدينار، أو لاقتناص المناسبات، ويأتي يوم القيامة صفر اليدين .

هذا الصحابي الجليل كان فتىً يقظ الفؤاد، ألمعي الذكاء، خرّاجًا ولاّجًا، وهو تعبير يشفُّ عن مرونته، وعن ذكائه الاجتماعي، مرة سأل معاويةُ بن أبي سفيان عمرَو بن العاص وكانا من دهاة العرب، قال يا عمرو:

((ماذا بلغ من دهائك، قال: واللهِ ما دخلتُ مدخلاً إلا أحسنت الخروجَ منه، فقال يا عمرو: لست بداهية، أمّا أنا فو اللهِ ما دخلتُ مدخلاً أحتاج أن أخرج منه))

وكان خراجاً ولاجاً، لا تعوقه معضلة، ولا تعجزه مشكلة، متّقدَ الذكاء، بالتعبير الحديث ، الخط العريض في المجتمع مَن يتمتع بدرجة ذكاء تساوي مئة، والمئة تساوي المتوسط، والعباقرة درجتهم بالذكاء تزيد عن مئة وأربعين، لكن هذا الحظ من الذكاء قد يؤدي بصاحبه إلى أعماق جهنم مرة بعد مرة، والحظوظ التي تنالها من الله إمّا أنها درجات إلى الجنة، وإما أنها دركات إلى النار، بالصوت الحسن قد تقرأ القرآن، وقد تغني، والمهارات بأنواعها قد توظفها في الحق أو بالباطل .

هذا الصحابي الجليل يتمتع بصحِة حدث، وسرعة بديهة، وشدة دهاء، ولكنه كان في الجاهلية صاحب صبوة، وخَدِين متعة، وكان يَنشُدُهما أكثر ما يَنشُدُهما عند يهود يثرب، وسوف ترون كيف أنّ المؤمن إذا تعرف إلى الله أقل ما يقال بأنه غَيَّر سلوكَه مئة وثمانين درجة؟ رجُل بسْطٍ، رجل شراب، رجل

نساء، كان ينشد هذه المتعة عند يهود يثرب في المدينة، هذا في الجاهلية، ولكن ما قولكم: إنّه من رحمة الله تعالى أنْ فتح باب التوبة لعباده، قال تعالى:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

(سورة الزمر الآية: 53)

باب التوبة مفتوح على مصراعيه، كان كلما تاقت نفسه لقينة، أو هفَّ سمعه لوتر شدّ رحاله من منازل قومه في نجد، ويَمَّمَ وجهه شطر المدينة، حيث يبذل المال ليهودها بسخاء، ليبذلوا له المتعة بسخاء أكثر، هذه صفحة من جاهليته، ومن هنا كان نعيم بن مسعود كثير التردد على يثرب، وثيق الصلة بمَن فيها من اليهود، وبخاصة بني قريظة، هذا قبل أن يسلم .

ما سبب إعراض نعيم عن رسالة الإسلام ؟

لما بعث الله النبي صلى الله عليه وسلم برسالة الإسلام إلى العالمين، أعرض هذا الصحابي عن الدين الجديد أشد الإعراض، خوفاً من أن يحول هذا الدين بينه وبين متعه وملذاته.

هذا الوهم الكبير الذي عند معظم الناس أنه إذا تديَّن فسوف يحرم من مباهج الحياة، من متع الحياة، من الملذات، ومن المسرات، ومن السهرات المختلطة، ومن النزهات، من السهرات الصاخبة، هكذا يتوهم بعضهم، ولو علم هؤلاء المتوهمون أن في الدين سعادةً لا تعدلها سعادة، ولو اطلع عليها الملوك لقاتلوا عليها أهلها، ولكنهم لا يعلمون، فقد تستمتع بشيء منحه الله بعض الجمال، فكيف إذا أقبلت على منبع الجمال؟ أبيت عند ربي يطعمني ويسقين، صدق القائل:

لو شاهدت عيناك من حسننا الذي رأوه لما وليت عنا لغيـــرنا

هذا الصحابي وجد نفسه مسوقاً إلى الانضمام شاء أو أبى إلى خصوم الإسلام، والإنسان لا يستطيع أن يخفي هويته دائماً، فأحياناً تضعه الظروف في مواقف حرجة، فإن لم يعلنها مدوية أنه مسلم، فسوف يجر إلى مواقف محرجة جداً، كثير من الأشخاص يعتذر عن شرب الخمر، ويقول: يصيب معدتي منها حموضة، لا هذه فلسفة فارغة، أنا مسلم لا أشرب الخمر، لأنك إذا امتنعت عن معصية لأسباب غير دينية، لم تكن داعية إلى الله عزوجل، أما إذا امتنعت عن معصية لأسباب دينية، فلعل الناس يقتدون بك، ويرونك مثلاً أعلى، لا تَخَفْ، فكلمة الحق لا تقطع رزقاً، ولا تقرب أجلاً .

أيها الأخوة أتمنى على الله عزوجل أن تضعوا أيديكم على هذا الموقف الخطير، لحظة تفكير سليمة، محاكمة منطقية، مراجعة مع نفسه، تأمل دقيق، تبَصُّر عميق، لقد استخدم عقله، وحقَّق كل سعادته في

الدنيا وفي الآخرة، بفضل هذه المحاكمة، فلا ينبغي للإنسان أن يمضي مع الحياة دون تأمل، دون توقف، دون تبصر، ودون مراجعة .

هذا الصحابي في غزوة الأحزاب فتح صفحة جديدة في علاقته بهذا الدين، ووقف موقفًا لا ينسى، إن صح التعبير وقف موقفاً تاريخياً، لأن التاريخ سجله له، وكل سعادتك أحياناً سببها تفكير صحيح، ومحاكمة منطقية، وإعمال العقل .

ماذا أعدت تلك الطائفة من يهود بني النضير لحرب النبي ورسالته ؟

أنا أبحث عن قصة لهذا الصحابي يرويها هو عن نفسه، فهذا الصحابي ما الموقف الذي وقفه؟ لا بد من تمهيد لهذا الموقف بما يسمى بفرش تاريخي .

قبيل غزوة الأحزاب بقليل هبَّت طائفة من يهود بني النضير في يثرب، وقام زعماؤها يُحزِّبون الأحزاب لحرب النبي صلى الله عليه وسلم، والقضاء على دينه، فقدموا على قريش، وحرضوهم على قتال المسلمين، وعاهدوهم على الانضمام إليهم عند وصولهم إلى المدينة، وضربوا لذلك موعداً لا يخلفونه، ثم تركوهم، وانطلقوا إلى غطفان في نجد، قوم نعيم بن مسعود، فأثاروهم ضد الإسلام ونبيه، ودعوهم إلى استئصال الدين الجديد من جذوره، وأسرُّوا بينهم بما تم بينهم وبين قريش، وعاهدوهم على ما عاهدوهم عليه، وآذنوهم بالموعد المتفق عليه، فما الذي حصل؟ .

خرجت قريش بقضها وقضيضها، وخيلها ورَجِلها، بكل ما تملك، وبكل وزنها، وبكل ثقلها ، وكل طاقاتها، بقيادة زعيمها أبي سفيان بن حرب متجهة شطر المدينة، كما خرجت غطفان من نجد بعدتها وعددها، بقيادة عيينة بن حصين الغطفاني زعيمها، وكان في طليعة رجال غطفان نعيم بن مسعود صاحب هذا الدرس .

ماذا فعل النبي حينما سمع بهذا الخبر ؟

فلما بلغ النبيَّ نبأُ خروجهم جمع أصحابه، وشاورهم في الأمر، فقرَّ قرارُهم على أن يحفروا خندقًا حول المدينة، ليصدوا عنها هذا الزحف الكبير الذي لا طاقة لها به، فغزوة الخندق كانت زلزلة شديدة للمؤمنين، قال تعالى:

(هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً)

(سورة الأحزاب الآية: 11)

هذا أسلوب اسمه الفرزُ العلمي، فمن غير امتحان الناس كلهم متشابهون، وبالامتحان يفرز الناس، بين صادق، وبين رجل أقل صدقاً، وبين رجل خائف، ورجل كاذب منافق، والحدث هو الذي يفرز، والواقع أنّ رجلاً منافقًا، قال: أيَعِدنا صاحبكم أن تفتح علينا بلاد قيصر وكسرى، و أحدنا لا يأمن أن يقضي حاجته، لكن كما قال الله عز وجل:

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً)

(سورة الأحزاب الآية: 23)

إليكم نقض بني قريظة العهد مع رسول الله عليه الصلاة والسلام :

أيها الأخوة، ما كاد الجيشان الزاحفان من مكة ونجد يقتربان من مشارف المدينة حتى مضى زعماء بني النضير إلى زعماء بني قريظة القاطنين في المدينة، وجعلوا يحرضونهم على الدخول في حرب النبي، ويحضونهم على مؤازرة الجيشين القادمين من مكة ونجد، فقال لهم زعماء بني قريظة: لقد دعوتمونا إلى ما نحبُّ ونبغي، ولكنكم تعلمون أن بيننا وبين محمدٍ ميثاقاً، على أن نسالمه ونوادعه لقاء أن نعيش في المدينة آمنين مطمئنين، وأنتم تدرون أن مداد ميثاقنا له لم يجفَّ بعد، معاهدة مغلظة، ومداد المعاهدة لم يجف بعد، فكيف نخون محمدًا؟ نخشى إذا انتصر محمد في هذه الحرب أن يبطش بنا بطشة جبارةً، وأن يستأصلنا من المدينة استئصالاً، جزاء غدرنا به، لكنَّ زعماء بني النضير ما زالوا يغرونهم بنقض العهد، ويزيِّنون لهم الغدر بمحمد، ويؤكدون لهم بأن الدائرة ستدور على المسلمين في هذه المرة لا محالة، ويشدون عزمهم بقدوم الجيشين الكبيرين، فما لبثت بنو قريظة أن لانت، ونقضوا عهدهم مع الرسول صلى الله عليه وسلم، ومزقوا الصحيفة التي بينهم وبينه، وأعلنوا انضمامهم إلى الأحزاب في حربه .

إليكم حال المسلمين في غزوة الأحزاب أو الخندق :

أيها الأخوة، فوقع الخبر على المسلمين وقوع الصاعقة، قال تعالى:

(إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا)

(سورة الأحزاب الآية: 10)

النبي عليه الصلاة والسلام يواجه الأحزاب خلف الخندق، وخلفه في المدينة نقض اليهود عهدهم، وأصبح محاصرًا، وصدِّقوا أيها الأخوة أن الإسلام بتقدير الخبراء قد انتهى، لم تنته المعركة فحسب، بل

الإسلام انتهى بتقديرهم، وهذه الحرب كان هدفها القضاء على الإسلام كلياً، لأنها حرب إبادة، فهؤلاء المسلمون يجب أن يبادوا عن بكرة أبيهم، هنا عظمة الدين، وهذا دين الله عزوجل، وزوال الكون أهون من أن يزول هذا الدين، وهذا الدين كلما ضُغِطَ عليه قويَ، لأن الله معه .

حاصرت جيوشُ الأحزاب المدينة، وقطعت عن أهلها الميرة والقوت، وشعر النبي صلى الله عليه وسلم أنه وقع بين فكي كماشة، بالتعبير الحديث، فقريش وغطفان معسكرون قبالة المسلمين خارج المدينة، وبنو قريظة متربصون متأهلون خلف المسلمين داخل المدينة، وعندك الطابور الخامس، هؤلاء هم المنافقون ضمن المدينة، وهم عند المسلمين مسلمون، لكنهم منافقون حقًّا، وهؤلاء الذين في قلوبهم مرض أخذوا يكشفون عن مخبآت نفوسهم، ويقولون: كان محمد يعدنا أن نملك كنوز كسرى وقيصر، وها نحن اليوم لا يأمن الواحد منا على نفسه أن يذهب إلى بيت الخلاء ليقضي حاجته، رجل موعود أن يفتح أمريكا والشرق كله، ووجد نفسه محاصرًا في بيته، أين يا سراقة؟ كيف بك إذا لبست سواري كسرى؟ والإسلام في نظر أعدائه بقي موضوع ساعات، ساعات وينتهي الإسلام، أنت أحيانًا تمر باختناق في حياتك، وأنت كمؤمن تمر باختناق شديد، قال تعالى:

(وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ)

(سورة آل عمران الآية: 146)

(تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة هود الآية: 49)

لكنَّ الإيمان ألاَّ تقنط من رحمة الله، وألاّ تيأس من رحمة الله، قال تعالى:

(حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ)

(سورة يوسف الآية: 110)

ربنا عزوجل يؤخر النصر، وبهذا التأخير تنكشف النفوس كلها، ثم طفق المنافقون ينفضون عن النبي جماعة إثر جماعة، بحجة الخوف على نسائهم وأولادهم وبيوتهم من هجمة يشنها عليهم بنو قريظة، قال تعالى:

(وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً)

(سورة الأحزاب الآية: 13)

حتى لم يبق مع النبي صلى الله عليه وسلم سوى بضع مئات من المؤمنين الصادقين، عشرة آلاف مقاتل حول المدينة، وبنو قريظة بأكملها نقضت عهدها، وهي وراء ظهر النبي، والمنافقون يثبطون العزائم، ويحبطون المساعي، أعتقد أنه ما مرت الدعوة الإسلامية بمأزق أشد من هذا المأزق، قال تعالى:

(هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً)

(سورة الأحزاب الآية: 11)

وفي ذات ليلة من ليالي الحصار الذي دام تقريبًا عشرين يوماً لجأ النبي صلى الله عليه وسلم إلى ربه، وجعل يدعوه دعاء المضطر، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى، قَالَ: دَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْأَحْزَابِ، فَقَالَ:

((اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ سَرِيعَ الْحِسَابِ اهْزِمْ الْأَحْزَابَ اللَّهُمَّ اهْزِمْهُمْ وَزَلْزِلْهُمْ))

[متفق عليه، أخرجهما البخاري ومسلم في صحيحهما]

يا أيها الأخوة، تعلموا هذا السلوك من رسول الله، كان إذا حزبه أمر بادر إلى الصلاة ، والإنسان المسلم إذا وقع في مشكلة، أو في ورطة كبيرة، أو في مأزق حرج، وغلا دمه في عروقه فعليه أن يلجأ إلى الله، وأنا أنصح نصيحة مشابهة، إذا حزبك أمر فبادرْ إلى ركعتين قبل الفجر، لأن الله عزوجل يقول: ينزل إلى السماء الدنيا، كما جاء في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ:

((يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ، يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ))

[متفق عليه، أخرجهما البخاري ومسلم في صحيحهما عن أبي هريرة]

إليكم قصة إسلام نعيم بن مسعود بعد تفكير عميق وتأمل :

نعيم بن مسعود مع معسكر الكفار والمشركين، أحد زعماء غطفان وهو مستلقٍ على فراشه في الخيمة، يتقلب على مهاده أرقاً، كأنما سمر جفناه، فما ينطبقان لنوم، فجعل يسرح ببصره وراء النجوم السابحة على صفحة السماء الصافية، ويطيل التفكير، وفجأةً رأى نفسه تسأله

قائلة:

((ويحك يا نعيم، -هذا هو الحوار الداخلي- ما الذي جاء بك من تلك الأماكن البعيدة في نجد لحرب هذا الرجل، ومن معه؟ هل هي حرب مقدسة، أم حرب قذرة؟ فأنت لا تحاربه انتصاراً لحق مسلوب، ولا حمية لعرض مغصوب، وإنما جئت لتحاربه لغير سبب معروف))

-لا تكن أحدكم إمعة، وتقول: أنا مع المجموع، لعل المجموع على خطأ، أنا مع أهلي، لعل أهلك على خطأ، أنا مع أبناء الحي، ولعل أبناء الحي على خطأ، أنا مع أصدقائي لعلهم على خطأ ، لا تكن أحدكم إمعة، وتكن أداة رخيصة، ولا تكن منديلاً تُمسَح به أقذر عملية، ثم يرمى، لا تكن كذلك، لا تكن أداةً، لا تكن صنيعة، لا تكن وسيلة، بل كن حراً تتحرك من قناعتك، وتتحرك بوحي من إيمانك، وبوحي من عقيدتك، تحرَّكْ بوحي من الحق والإنصاف، ولا تكن رقمًا مع الأرقام، ولا تكثر سواد الباطل .

الإنسان أحيانا ينجرُّ إلى معاداة أهل الحق انجرارًا، وله أخ مثلاً متفوق عليه بالدراسة ، ولهذا الأخ شيخ، فحسده، وأكل قلبه اتجاه أخيه، مما جعله يبغض شيخه، فيسوق القصص الواهية، ويطعن فيه، ويسخر منه من دون أن يدري ماذا يفعل؟ فلا تكن إمّعة- .

قال: إنك لا تحاربه انتصارًا لحق مسلوب، أو حمية لعرض مغصوب، وإنما جئت تحاربه لغير سبب معروف، أيليق برجل له عقل مثل عقلك أن يقاتل فيقتل، أو يقتل لغير سبب؟ -ومن علامات قيام الساعة موت كعقاص الغنم لا يدري القاتل لِمَ يقتل، ولا المقتول لما قُتِل، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يَدْرِي الْقَاتِلُ فِي أَيِّ شَيْءٍ قَتَلَ، وَلَا يَدْرِي الْمَقْتُولُ عَلَى أَيِّ شَيْءٍ قُتِلَ))

[أخرجه مسلم في الصحيح عن أبي هريرة]

لا يوجد سبب- ما الذي يجعلك تشهر سيفك في وجه هذا الرجل الصالح، ولم يعرِّفه بنبيّ ، الذي يأمر أتباعه بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى؟ ويحك يا نعيم، ما الذي يحملك على أنْ تغمس رمحك في دماء أصحابه الذين اتبعوا ما جاءهم به من الهدى والحق، -هذه المناقشة التي كانت سبب سعادته إلى أبد الآبدين، وأنا أقسم لكم أن أناسًا كثيرين ماتوا على الشرك، لا لأنهم كانوا فعلاً مشركين، إلا أنهم كانوا مع أتباعهم هكذا، لم يفكر، وإنما يعيش مع المجموع، ومع التيار العام، فسق على فسق، ولم يحسم هذا الحوار العنيف بين نعيم ونفسه إلا القرار الحازم الذي نهض من توئه لتنفيذه .

أنت عندك إمكانية أن تتخذ قرارًا حازمًا، يا رب أعاهدك على طاعتك مهما كلف الثمن ، لك مهنة لا ترضي الله، فعليك أن تستقيل منها سريعًا، لك تصرف ليس في صالح الشرع، فلتنزع عنه مباشرة- .

تسلل نعيم بن مسعود من معسكر قومه تحت جنح الظلام، ومضى يحث الخطى إلى النبي صلى الله عليه وسلم، مشرك مع الأعداء جاء ليقاتل المسلمين، فلما رآه النبي عليه الصلاة والسلام ماثلاً بين يديه، قال:

((نعيم بن مسعود! قال: نعم يا رسول الله، قال: ما الذي جاء بك في هذه الساعة؟ قال يا رسول الله: جئت لأشهد أن لا إله إلا الله، وأنك عبد الله ورسوله، وأنّ ما جئتَ به الحق، ثم أردف يقول: لقد أسلمت يا رسول الله))

ما هي الوظيفة التي كلفها رسول الله لنعيم ؟

قال:

((لقد أسلمت يا رسول الله، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي، فمُرْني بما شئت، -كنت أقول لكم دائماً: الإيمان ما إن يستقر في قلب المؤمن حتى يعبِّر عن نفسه بالحركة، ليس هناك مؤمن سلبي، المؤمن إيجابي، ويدعو إلى الله، والمؤمن يعطي من كل شيء، فالإيمان أساسه العطاء، وأن يعطي من كل شيء عنده، فكل إنسان يدَّعي أنه مؤمن، ولو فرضنا أنه بقي في مكانه وآمن، أنا أمنتُ، والدين معقول، وأنا يجب أن أسلم، ويقبع في مكانه، لا، لا يجوز له أن يبقى في مكانه، عندما أسلم نهض، وتوجه إلى رسول الله- وقال له: مُرْنِي بما شئت، -النبي عليه الصلاة والسلام في مواجهة عشرة آلاف رجل بأسلحتهم الفتاكة، واليهود نقضوا العهد، والإسلام صار موضوع ساعات، فماذا يفعل رجل واحد؟- فقال عليه الصلاة والسلام: إنما أنت فينا رجل واحد، فاذهب إلى قومك وخذِّلْ عنا إن استطعت، فإن الحرب خدعة))

الآن، سيوظف ذكاءه، وعقله الكبير، وسرعة بديهته، وفطانته، وكل أساليبه الذكية، الآن سيوظفها لصالح الدين الجديد، قال: نعم يا رسول الله، وسترى ما يسرك إن شاء الله .

الله عزوجل يقدر نصر حركة كبيرة، والمرجح أن المسلمين سيفوزون بها على يد رجل واحد .

ماذا فعل نعيم ؟

((مضى نعيم بن مسعود من توئه إلى بني قريظة، وكان لهم من قبل صاحباً ونديماً، وقال لهم: يا بني قريظة، لقد عرفتم وُدِّي لكم، وصدقي في نصحكم، فقالوا: نعم، والله ما أنت عندنا بمتهم، فقال: إن قريشًا وغطفان لهم في هذه الحرب شأن غير شأنكم، قالوا: وكيف؟ .قال: أنتم هذا البلد بلدكم، وفيه أموالكم، وأولادكم ونساؤكم، وليس بوسعكم أن تهجروه إلى غيره، أما قريش وغطفان فبلدهم وأموالهم وأولادهم ونساؤهم في غير هذه البلد، وقد جاؤوا لحرب محمد، ودعوكم لنقض عهده، ومناصرتهم عليه، فأجبتموهم، فإن أصابوا نجاحاً في قتاله اغتنموه، وإن أخفقوا في قهره عادوا إلى بلادهم آمنين، وتركوكم وحدكم، فينتقم محمد منكم شر انتقام، وأنتم تعلمون أنه لا طاقة لكم به إذا خلا

بكم، فقالوا: صدقت واللهِ، وهذا رأي حصيف، تحليل دقيق جداً، فقالوا: واللهِ أشرتَ ونصحتَ، بارك الله بك، ثم خرج من عندهم .

وأتى أبا سفيان بن حرب قائد قريش، وقال له ولمن معه: يا معشر قريش، قد عرفتم ودي لكم، وعداوتي لمحمد، فقالوا: نعم، وقد بلغني أمر فرأيت حقاً عليَّ أن أفضي به إليكم، نصحاً لكم، على أن تكتموه، ولا تذيعوه، قالوا: لك علينا ذلك، قال: إنّ بني قريظة قد ندموا على مخاصمتهم محمدًا، فأرسَلوا إليه يقولون: إنا قد ندمنا على ما فعلنا، وعزمنا أن نعود إلى معاهدتك ومسالمتك، فهل يرضيك يا محمد أن نأخذ لك من قريش وغطفان رجالاً كثيراً من أشرافهم، ونسلمهم إليك لتضرب أعناقهم، ثم ننضم إليك في محاربتهم حتى نقضي عليهم؟ فأرسل إليهم النبي، وقبِلَ منهم ذلك، فإنْ بعثت اليهود يا أبا سفيان تطلبُ منكم رهائن من رجالكم فلا تدفعوا إليهم أحداً، قال أبو سفيان: نِعْمَ الحليف أنت، بارك الله بك، وجزيت خيراً، فقد أنقذتّنا .

ثم خرج نعيم من عند أبي سفيان حتى أتى قومه غطفان، فحدثهم بمثل ما حدث به أبا سفيان، وحذرهم مما حذره منهم، وهنا انتهت مهمته، أراد أبو سفيان أن يختبر بني قريظة، فأرسل إليهم ابنه، فقال لهم: إن أبي يقرئكم السلام، ويقول لكم: إنه قد طال حصارنا لمحمد وأصحابه، حتى مللنا، وإننا قد عزَمْنا على أن نقاتل محمداً، ونفرغ منه، وقد بعثني أبي إليكم يدعوكم إلى منازلته غداً، فقالوا له: إن اليوم يوم سبت، ونحن لا نعمل فيه شيئاً، ثم إنا لا نقاتل معكم حتى تعطونا سبعين من أشرافكم، وأشراف غطفان، حتى يكونوا رهائن عندنا، يعني أنّ كلام ابن مسعود صحيح، فإنا نخشى إن اشتدَّ عليكم القتال أن تسرعوا إلى بلادكم، وتتركونا لمحمد وحدنا، وأنتم تعلمون أن لا طاقة لنا به. -والخطة نجحت مئة بالمئة- امتحنهم أبو سفيان، وطلبوا رهائن، والرهائن من أجل أن يذبحهم النبي، فلما عاد ابن أبي سفيان إلى قومه، وأخبرهم بما سمعه من بني قريظة، قالوا بلسان واحد: خسئ أبناء القردة والخنازير، واللهِ لو طلبوا منا شاة رهينة ما دفعناها إليهم، وهكذا دبَّتْ بينهم الوقيعة))

-اللهم اضرب الظالمين بالظالمين، وأخرجنا منهم سالمين، نجح نعيم بن مسعود في تمزيق صفوف الأحزاب، وتفريق كلمتهم- أرسل اللهُ على قريش وأحلافها ريحاً صرصراً عاتية ، فجعلت تقتلع خيامهم، وتكفأ قدورهم، وتطفئ نيرانهم، وتصفع وجوههم، وتملأ أعينهم تراباً، فلم يجدوا مفراً من الرحيل ، فرحلوا تحت جنح الظلام ، ولما أصبح المسلمون وجدوا أعداء الله قد ولوا مدبرين، وجعلوا يهتفون بعد أيام عيد الفطر السعيد، ومن الأوراد المتعارف عليها ما ورد في الصحيحين، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ:

((لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ أَعَزَّ جُنْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَغَلَبَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ فَلَا شَيْءَ بَعْدَهُ))

[البخاري ومسلم في صحيحهما عن أبي هريرة]

ظلّ نعيم بن مسعود بعد ذلك اليوم موضع ثقة رسول الله، فهذا عمل، ولمثله فليعمل العاملون .

إليك مقولة أبو سفيان حينما رأى راية الإسلام بيد نعيم ؟

أيها الأخوة، ما منكم واحد إذا طلب من الله عملاً عظيماً إلا يجريه على يديه إلاّ يسّره له، وأجراه على يديه، فكن طموحًا، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآَخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآَخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ)

(سورة التوبة الآية: 38)

تعلم العلم، وانشر العلم، وادعُ إلى الله، وكن مثلاً أعلى لأخوانك ولأصحابك، وكن نجمًا متألقًا.

فولي نعيم للنبي عليه الصلاة والسلام الأعمال، ونهض له بالأعباء، وحمل بين يديه الرايات، فلما كان يوم فتح مكة، هنا وقف أبو سفيان بن حرب يستعرض جيوش المسلمين، فرأى رجلاً يحمل راية غطفان، فقال لمن معه:

((من هذا؟ فقالوا: هذا نعيم بن مسعود، قال: بئس ما صنع بنا يوم الخندق، واللهِ لقد كان أشدَّ الناس عداوة لمحمد، وها هو ذا يحمل راية قومه بين يديه، ويمضي لحربنا تحت لوائه))

إنّ المؤمن كيس فطن حذر، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعاً)

(سورة النساء الآية: 71)

ما هو محور هذه القصة ؟

أيها الأخوة، محور هذه القصة أن هذه الطاقة الفكرية العالية التي تمتع بها هذا الصحابي الجليل وظفها في الحق، ولا تنسوا قوله تعالى حينما خاطب الله عزوجل قارون، فقال في كتابه العزيز:

(وَابْتَغِ فِيمَا آَتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآَخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ)

(سورة القصص الآية: 77)

سمعت عن امرأة صالحة كان لها بيت مساحته أربعمئة متر، باعته واشترت بيتًا مساحته مئة متر، والباقي وزّعته على الفقراء، والمساكين، وطلبة العلم، والمحتاجين، ولقيت ربَّها بثلاثمئة متر فائضًا عن حاجتها، فلا بد من عمل تقدِّمه بين يديك، ولا بد من عمل يعرض على الله عزوجل، ولا بد من عمل ترقى به في الجنة، أليس لك شيء؟ ولو دللتَ إنسانًا واحدًا على الله عزوجل، أمَا ساهمت أبداً في هداية

واحد، أما أقنعت واحدًا يؤمن بالله عزوجل، أما حاولت أنْ تزور إنسانًا لوجه الله، أما حاولت أن تحضر مجلس علم حتى تتعلم وتُعلِّم .

أيها الأخوة الأكارم، كما ورد في بعض الأدعية، يا رب لا يحلو النهار إلا بخدمة عبادك، ولا يحلو الليل إلا بمناجاتك، فمن عرف طريق السعادة لزمها، قال عليه الصلاة والسلام لبعض أصحابه:

((عرفت فالزم، وإني لك ناصح أمين))

والحمد لله رب العالمين

السيرة - رجال حول الرسول - الدرس (24-50) : سيدنا عبد الله بن سلام

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 22-03-1993

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد لهذه الشخصية التي نحن بصددها :

أيها الأخوة الأكارم، مع بداية الدرس الرابع والعشرين من دروس سيرة صحابة رسول الله رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، وصحابي اليوم سيدنا عبد الله بن سلام، ولهذا الصحابي قصة مؤثرة، لكن قبل أن نمضي بالحديث عن تفاصيلها لا بد من مقدمة نوضح فيها جوانب هذه الشخصية الفذّة .

مما يطرح في العصور الحديثة أن الإنسان ابن بيئته، ابن ثقافته، ابن مورثاته، ابن عاداته وتقاليده، وهذا الطرح يصور الإنسان منفعلاً وليس فاعلاً، فالإنسان مسلمٌ لأنه كان من أبوين مسلمين، فلو وُلد من أبوين غير مسلمين لما كان مسلماً، نشأ في بيت فيه علم وصلاح ، وأبوه ربَّاه هكذا، ولو نشأ في بيت آخر لما كان كذلك، هذا الطرح يمهد لإلغاء المسؤولية، ويقرر أن الإنسان منفعل، وهو ابن المعطيات الكبرى في حياته .

لذلك هذا الصحابي الجليل سوف يثبت لنا أن الإنسان أكبر من أي شيء حولنا، أكبر من بيئته، أكبر من محيطه، أكبر من وراثته، وألصق شيء في الإنسان دينه، وهذا الصحابي كان يهودياً، ليس مسلماً انتقل من دين إلى دين، فكل إنسان يرى أنه مستحيل أن ينتقل من دين إلى دين لأنه هكذا نشأ، هذا كله كلام لا قيمة له إطلاقاً في حقل الإيمان .

من هو عبد الله بن سلام وما هو دينه الذي كان معتنقه وكيف كان سلوكه قبل الإسلام ؟

اسمه الحصين بن سلام، واسمه له ضبطان: سلاّم أو سلاَم، وكان حبراً من أحبار اليهود، أيْ أحد كبار رجال الدين اليهودي، وكلكم يعلم أن الأحبار والرهبان يأكلون أموال الناس بالباطل، ويصدون عن سبيل الله، ويرفضون أي دين آخر لِمَا يتمتعون به، ومن ميزات كبيرة، ومن منزلة بين قومهم .

فكان هذا الرجل الحصين بن سلام حبراً من أحبار اليهود في يثرب، وكان أهل المدينة على اختلاف مللهم ونحلهم يجلُّونه ويعظّمونه، وهذا مصداق قول النبي عليه الصلاة والسلام ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ:

((تَجِدُونَ النَّاسَ مَعَادِنَ خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقِهُوا، وَتَجِدُونَ خَيْرَ النَّاسِ فِي هَذَا الشَّأْنِ أَشَدَّهُمْ لَهُ كَرَاهِيَةً، وَتَجِدُونَ شَرَّ النَّاسِ ذَا الْوَجْهَيْنِ الَّذِي يَأْتِي هَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ، وَيَأْتِي هَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ))

[متفق عليه، أخرجهما البخاري ومسلم عن أبي هريرة في صحيحهما]

الناسُ معادن، ولدينا حلقات دينية كثيرة في البلد، وفي كل حلقة أناس مستواهم الأخلاقي رفيع، وأناس مستواهم الأخلاقي وضيع، ومِن الخطأ أن تعمِّم، الذهب ذهب في أي مكان، وغير الذهب ليس ذهباً في أيِّ مكان، هذا من أحبار اليهود، ويبدو أنه يتمتع بأخلاق رفيعة، هي التي حملته على أن يسلم، فمن الممكن أن تعتقد، وأنت مصيب في اعتقادك أنّ الإنسان الأخلاقي أخلاقياته لا بد أن تسوقه في النهاية إلى الإيمان، إن رأيت إنسانًا أخلاقه عالية جداً فتفاءل له بالخير، أخلاقه الرضية لا بد أن تقوده في وقت ما إلى أن يكون في صف المؤمنين، هل عندكم برهان قرآني على هذه الفكرة؟ قال تعالى:

(إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ)

(سورة الأعراف الآية: 196)

الصالح يتولاه الله، فقد كان الحصين بن سلام معروفاً بين الناس بالتُّقى والصلاح، موصوفاً بالاستقامة والصدق، وكان يحيا حياةً هادئةً وديعة، ولكنها كانت في الوقت نفسه جادةً نافعة، فقد قسم وقته أقساماً ثلاثة: شطرًا في الكنيس للوعظ والعبادة، وشطرًا في بستان له يتعهد نخله بالتشذيب والتأبير، وشطرًا مع التوراة للتفقه في الدين، هكذا وصفوه، وكان كلما قرأ التوراة وقف طويلاً عند الأخبار التي تبشر بظهور نبي في مكة، يتمم رسالات الأنبياء السابقين، ويختمها .

الإيمان أنْ تأخذ كل ما في القرآن، أما إذا اخترت ما يعجبك، وأغفلت ما لا يعجبك فلست مؤمناً، و ما الذي أهلك اليهود؟ إنهم اختاروا من توراتهم ما يعجبهم، والذي لم يعجبهم رفضوه، فالآيات التي تتحدث عن مجيء نبي في العرب اسمه أحمد، هذه الآيات أغفلوها، وأنكروها، وألغوها إلا ما جاء في بعض الأناجيل، كما قال تعالى على لسان السيد المسيح عيسى بن مريم:

(وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ)

(سورة الصف الآية: 6)

إذاً: المؤمن يأخذ كل ما في القرآن، أما أن يختار فليس مؤمناً، هذا له دين خاص، يختار ما يعجبه من النصوص ليؤكد رأيه، وأخطر فئة في المجتمع هم أصحاب الرأي، دينهم رأيهم ، أما النصوص فيأخذون منها ما يعجبهم، ويدعون ما لا يعجبهم، إذاً: هم لم يحتكموا إلى النص، ولكن تحكّموا به .

فكان هذا الصحابي الجليل ينتظر مجيء هذا النبي، فإذا كنت تعبد الله، واللهُ سبحانه وتعالى أرسل لك رسولاً، فينبغي أن تتبعه، أما أن تصرّ على اتّباع النبي السابق فأنت إذاً لا تعبد الله، هذا معنى قول الله عز وجل:

(إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآَيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

(سورة آل عمران الآية: 19)

وقال تعالى:

(وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآَخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ)

(سورة آل عمران الآية: 85)

أنت مأمور، جاءك الأمر باتباع سيدنا عيسى فاتبعته، جاء أمر آخر باتباع سيدنا محمد، فإذا رفضت هذا الأمر فأنت لست عبداً لله، بل أنت عبد لنزواتك، لذلك قال الله عز وجل:

(إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ)

(سورة آل عمران الآية: 19)

إنك رفضت آخر كتاب، إنسان قيادي يرسل أمرًا إلى موظف عنده، أنْ كن في اليوم الفلاني في المكان الفلاني، فأخذ هذا الأمر ونفّذه، ثم جاء أمر آخر، فقال له: أنا لا أنفّذ هذا الأمر الثاني، فهذا ليس موظفاً مخلصًا، هذا ليس عبداً لله عز وجل، فقد تمسك بأمر ورفض أمراً آخر .

سيدنا عبد الله بن سلام كان عبداً لله عز وجل، نفذ أمر الله كله، فكان كلما قرأ التوراة وقف طويلاً عند الأخبار التي تبشر بظهور نبي في مكة، يتمم رسالات الأنبياء السابقين، ويختمها، وكان يستقصي أوصاف هذا النبي المرتقب وعلاماته، ويهتز فرحاً، لأنه سيهجر بلده الذي بُعِث فيه، وسيتخذ من يثرب مَهْجراً له ومقاماً، وكان كلما قرأ هذه الأخبار، أو مرّتْ بخاطره يتمنى على الله أن يفسح له في عمره حتى يشهد ظهور هذا النبي المرتقب، ويسعد بلقائه، ويكون أول المؤمنين به .

العجيب أن أهل الإيمان متقاربون، فقد تلتقي بإنسان على مستوى عالٍ من الإيمان، وببساطة تتعارفان، وببساطة تأتلفان، ويحب كل منكما الآخر، وببساطة تتوافقان في الأفكار، فما سر هذا؟ الإيمان يصبغ الناسَ صبغةً واحدة، فأنت تأنس بمن يشبهك، تأنس بمن تتوافق معه في أفكاره وفي قيمه وفي منطلقاته.

وقد استجاب الله جل جلاله دعاء الحصين بن سلام، فنسأ له في أجله، ومدّ في حياته حتى بُعث نبي الهدى والرحمة، وكُتِبَ له أن يحظى بلقائه وصحبته، وأن يؤمن بالحق الذي أنزل عليه .

إليكم قصة إسلامه :

فلنترك الآن كما هي العادة لعبد الله بن سلام الكلام ليسوق لنا قصة إسلامه، فهو لها أروى وعلى حسن عرضها أقدر .

قال الحصين بن سلام:

((لما سمعت بظهور رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذت أتحرى عن اسمه وعن نسبه وصفاته وزمانه ومكانه، وبين ما هو مسطور عندنا في الكتب حتى استيقنت من نبوته، -معنى ذلك بحسب هذا النص أنّ هناك أوصافًا ثانوية كثيرة وردت في التوراة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: حتى استيقنت من نبوته، لذلك فالعقل مهمته قبل النقل التحقُّقُ من صحة النقل، ومهمته بعد النقل فهمُ النقل، أما أن يحلَّ العقلُ محلَّ النقل فهذا انحراف خطير- .

قال: إلى أن كان اليوم الذي خرج منه رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة قاصداً المدينة، فلما بلغ يثرب، ونزل بقباء أقبل رجل علينا، وجعل ينادي بالناس معلماً قدومه، وكنت عند رأس نخلة لي أعمل فيها، وكانت عمتي خالدة بنت الحارث جالسة تحت الشجرة، فما إن سمعتُ الخبر حتى هتفتُ: الله أكبر الله أكبر، وأنا على رأس النخلة، فقالت لي عمتي حينما سمعت التكبير : خيّبك الله، واللهِ لو كنت سمعتَ بموسى بن عمران قادماً ما فعلت شيئاً فوق ذلك، أنت يهودي، ما هذا التكبير؟ فقلت لها: أي عمة، إنه واللهِ أخو موسى بن عمران، وعلى دينه، وقد بُعث بما بُعث به،))

-الرسالات واحدة، والمشكاة واحدة، والنور واحد، والمصدر واحد، والهدف واحد، قال تعالى:

(آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ)

(سورة البقرة الآية: 285)

فسكتت، وقالت: أهو النبي الذي كنتم تخبروننا أنه يبعث مصدقاً لما قبله، ومتمماً لرسالات ربه؟ فقلت: نعم، قالت: فذلك إذاً، ثم مضيت من توئي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فرأيت الناس يزدحمون على بابه، فزاحمتهم حتى صرت قريباً منه، فكان أول ما سمعته، وهو قول: أيها الناس أفشوا السلام، - سلم وأنت على الهاتف، وفي الطريق، روى لي أحد أخواننا الخطباء قصة فتاةٍ صغيرة، عمرها أربع سنين، وضعها في دار حضانة، فمرة استيقظوا متأخرين، فهيأ لها شطيرة لتأكلها في الطريق، فقالت له: يا أبت، قال عليه الصلاة والسلام: الأكل في الطريق دناءة، فخجل أبوها منها، الطفل إذا تعلم العلم فهذا شيء جميل جداً، وهو في صحائف والديه، وشيء رائع جداً، فعلِّمْ ابنك السلام حتى وهو على الهاتف، وإذا دخل إلى البيت، أو التقى معك، أو مع والدته، وإن التقى بصديقه فليقلْ: السلام عليكم .

قالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ:

((لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ انْجَفَلَ النَّاسُ قِبَلَهُ وَقِيلَ: قَدْ قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَدْ قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ، قَدْ قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ، ثَلَاثًا فَجِئْتُ فِي النَّاسِ لِأَنْظُرَ، فَلَمَّا تَبَيَّنْتُ وَجْهَهُ

عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ، فَكَانَ أَوَّلُ شَيْءٍ سَمِعْتُهُ تَكَلَّمَ بِهِ أَنْ قَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصِلُوا الْأَرْحَامَ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ))

[أخرجه الترمذي في سننه]

هذا أول حديث سمعه عبد الله بن سلام من رسول الله، قال: فجعلت أتفرس فيه وأتملى منه، فأيقنت أن وجهه ليس بوجه كذاب، -ومن تكريم الله لك يا أخي أنه زودك بحاسة سادسة، تشعر أن هذا صادق، وتشعر أن ذاك كذاب، مخادع .

رجل أحب أن يذهب إلى الحج، ومعه مبلغ ضخم، فأراد أن يودعه أمانة عند رجل صالح، فدخل إلى المسجد، فرأى شخصًا صلاته فيها خشوع، وتفرس فيه خيراً، فقال له: أحببت أن أضع عندك بعض مالي، فقال له: أنا صائم أيضاً، فقال له: صيامك لم يعجبني .

فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ ثُمَّ قَرَأَ

((إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ))

[أخرجه الترمذي في سننه عن أبي سعيد الخدري]

ويقال: إن سيدنا عثمان، وهو على المنبر دخل رجل بعد أن جلس فترة طويلة، قال: أيدخل أحدكم وأثر الزنا بين عينيه، فقالوا: أوَحْيٌ بعد رسول الله، قال: لا، ولكنها فراسة صادقة- .

ثم دنوت منه وشهدت أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فالتفت النبي عليه الصلاة والسلام، وقال: ما اسمك؟ فقلت: الحصين بن سلام، فقال عليه الصلاة والسلام: بل عبد الله بن سلام، -ومِن الناس مَن اسمه حرب، وذاك اسمه عدوان، فغيِّروا الأسماء إنْ كانت تعيب صاحبها، فلا مانع، إذا كنت معلمًا، أو كنت مدير مؤسسة، أو عندك موظف اسمه يثير الضحك فغيِّر له اسمه، ولا مانع من تغييره، بل هو من السنة .

قال رسول الله:

((من أنت؟ قال: أنا زيد الخيل، فقال له: بل زيد الخير))

غيَّر له اسمه، فمن عادة النبي صلى الله عليه وسلم أنه يغيِّر أسماء أصحابه إن لم ترق له، ومن السنة أيضاً أن تنادي أخاك بأحب الأسماء إليه، فالنبي كان ينادي أصحابه بأحب الأسماء إليهم، وإذا كان في الاسم مشكلة غيره، فقد يكون بين أطفال المدارس مَن له اسم يثير بعض السخرية، فالمعلمون المؤمنون يغيِّرون هذا الاسم طوال العام الدراسي، لكن في دفاتر التفقدات، ويوم الامتحانات، وفي الشهادة يكتب الاسم الحقيقي، فأنت تريحه وتهدئه، وسمعت أنّ من حق الإنسان في النظام المدني أن يغيِّر اسمه- .

قال: والذي بعثك بالحق ما أحبُّ أن لي اسماً آخر بعد اليوم، -المؤمن مطواع- ثم انصرفت من عند

رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيتي، ودعوت زوجتي وأولادي إلى الإسلام فأسلموا جميعاً، وأسلمتْ معهم عمتي خالدة، وكانت شيخة كبيرة))

لماذا كتم عبد الله إسلامه ، وما هي الخطة التي كان يرسمها وما الهدف منها ؟

قال:

((ثم إني قلت لهم: اكتموا إسلامي وإسلامكم عن اليهود حتى آذن لكم، فقالوا: نعم، ثم رجعت إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وقلت له: يا رسول الله، إن اليهود قوم بُهْتان وباطل، فهو يعرفهم، وإني أحب أن تدعو وجوههم إليك، وأن تسترني عندك في حجرة من حجراتك، ثم تسألهم عن منزلتي عندهم قبل أن يعلموا بإسلامي، ثم تدعوهم إلى الإسلام .

قال: فإنهم إنْ علموا أنني أسلمت عابوني، ورموني بكل ناقصة، وبهتوني، فأدخلني النبي عليه الصلاة والسلام في بعض حجراته، ثم دعاهم إليه، وأخذ يحضُّهم على الإسلام، ويحبب إليهم الإيمان، ويذكرهم بما عرفوه في كتبهم من أمره، فجعلوا يجادلونه بالباطل، ويمارونه بالحق، وأنا أسمع، فلما يئس من إيمانهم، قال لهم: ما منزلة الحصين بن سلام فيكم؟ قالوا: الحصين سيدنا وابن سيدنا، وحبرنا وابن حبرنا، وعالمنا وابن عالمنا، فقال عليه الصلاة السلام: أرأيتم إن أسلم، أفتسلمون؟ قالوا: حاشا لله، ما كان له أن يسلم، أعاذه الله من أن يسلم ، قال: فخرجت إليهم، وقلت لهم: يا معشر اليهود اتقوا الله، واقبلوا ما جاءكم به محمد، فو الله إنكم لتعلمون أنه لرسول الله، وتجدونه مكتوبًا عندكم في التوراة باسمه وصفته، وإني أشهد إنه لرسول الله، وقد آمنت به وصدقته، وأنا أعرفه، فبهتوا، وقالوا: كذبت، والله إنك لشرُّنا وابن شرنا، وجاهلنا وابن جاهلنا، ولم يتركوا عيباً إلا عابوني به، -ليسوا أهل إنصاف، ومعظم الناس الآن كذلك، ليس لديهم إنصاف، ويظن أحدهم أنك على سجيته، وعلى مذهبه، وعلى خطته في الحياة، أكل المال الحرام، والاختلاط، ويثني على ذكائك، وفصاحتك، وأنك حكيم، وما شاء الله، فلما امتنعتَ أن تصافح زوجته، وامتنعتَ أن تأكل المال الحرام، يقول عنكَ: هذا مجنون، قبل قليل كان ذكياً حصيفاً ولبقاً ومهذباً وحكيماً، فلما عرف أنك متمسك بدينك اتهمك بالجنون، وهذه القصة تعاد دائماً- .

فقلت للنبي عليه الصلاة والسلام: ألم أقل لك يا رسول الله، إن اليهود قوم بهتان وباطل ، وإنهم أهل غدر وفجور، معنى هذا أنه يعرفهم، و يعرف خبث نفوسهم، وقد روى البخاري قصته العجيبة، عَنْ أَنَسٍ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَلَامٍ بَلَغَهُ مَقْدَمُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ فَأَتَاهُ يَسْأَلُهُ عَنْ أَشْيَاءَ، فقالَ:

((إنِّي سَائِلُكَ عَنْ ثَلَاثٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا نَبِيٌّ، مَا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ، وَمَا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ، وَمَا بَالُ الْوَلَدِ يَنْزِعُ إِلَى أَبِيهِ أَوْ إِلَى أُمِّهِ، قَالَ: أَخْبَرَنِي بِهِ جِبْرِيلُ آنِفًا، قَالَ ابْنُ سَلَامٍ: ذَاكَ عَدُوُّ الْيَهُودِ مِنْ الْمَلَائِكَةِ، قَالَ: أَمَّا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ فَنَارٌ تَحْشُرُهُمْ مِنْ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ، وَأَمَّا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ فَزِيَادَةُ كَبِدِ الْحُوتِ، وَأَمَّا الْوَلَدُ فَإِذَا سَبَقَ مَاءُ الرَّجُلِ مَاءَ الْمَرْأَةِ نَزَعَ الْوَلَدَ وَإِذَا سَبَقَ مَاءُ الْمَرْأَةِ مَاءَ الرَّجُلِ نَزَعَتْ الْوَلَدَ، قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: إِنَّ الْيَهُودَ قَوْمٌ بُهُتٌ فَاسْأَلْهُمْ عَنِّي قَبْلَ أَنْ يَعْلَمُوا بِإِسْلَامِي فَجَاءَتْ الْيَهُودُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَيُّ رَجُلٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ فِيكُمْ، قَالُوا: خَيْرُنَا وَابْنُ خَيْرِنَا وَأَفْضَلُنَا وَابْنُ أَفْضَلِنَا ،فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ، قَالُوا: أَعَاذَهُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ فَأَعَادَ عَلَيْهِمْ، فَقَالُوا مِثْلَ ذَلِكَ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ عَبْدُ اللَّهِ، فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، قَالُوا: شَرُّنَا وَابْنُ شَرِّنَا وَتَنَقَّصُوهُ، قَالَ: هَذَا كُنْتُ أَخَافُ يَا رَسُولَ اللَّهِ))

[أخرجه البخاري في الصحيح]

ما هي البشارة التي بشر بها عبد الله بن سلام من رسول الله عليه الصلاة والسلام ؟

أقبل عبد الله بن سلام على الإسلام إقبال الظامئ الذي شاقه المورد، وأولع بالقرآن، فكان لسانه لا يفتأ رطباً بآياته البينات، وتعلق بالنبي صلى الله عليه وسلم حتى غدا ألزم له من ظله، ونذر نفسه للعمل للجنة حتى بشَّره بها النبي صلى الله عليه وسلم بشارة ذاعت بين الصحابة، وليس من السهل أن تنتقل من دين إلى دين، لكن الإسلام أقوى من كل شيء، والإيمان أقوى من كل شيء، والإنسان ليس منفعلاً، بل فاعلاً، ليس ابن بيئته، ولا ابن وراثته، ليس ابن أبويه، ولا ابن محيطه، ولا ابن معطياته، ولكنَّه ابن نفسه، وابن قناعته، قال تعالى:

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ)

(سورة لقمان الآية: 21)

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ)

(سورة المائدة الآية: 104)

إليكم قصة هذه البشارة :

وكانت لهذه البشارة قصة رواها قيس بن عبادة وغيره، قال الراوي:

((كنت جالساً في حلقة من حلقات العلم في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة، - وبالمناسبة يقولون: محلّق، فما معنى محلق؟ صوابها الحلْقة، ويقال: الحلقة، قال لي أحدهم: هذا المحلق الجنوبي خط ممتاز، قلت له: إنْ حلقت في الجو فأنت المحلق، قال: المحلق الجنوبي، هذا غلط، لأنّه حلّق يحلّق يعني هذا أنه طريق جوي، لكن الصواب المتحلق الجنوبي، فهناك دقة في اللغة- .

وكان في الحلقة شيخ تأنس به النفس، ويستروح به القلب، فجعل يحدث الناس حديثاً حلواً مؤثراً، فلما قام قال القوم: من سرَّه أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا، قلت من هذا؟ فقالوا: عبد الله بن سلام، فقلت في نفسي: والله لأتبعنه، فتبعته، فانطلق حتى كاد أن يخرج من المدينة، ثم دخل منزله، فاستأذنت عليه فأذن لي، قال: ما حاجتك يا بن أخي؟ قلت: سمعت القوم يقولون عنك لما خرجت من المسجد: من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا، فمضيت في إثرك لأقف على خبرك، ولأعلم كيف عرف الناس أنك من أهل الجنة؟ .

قال: بينما أنا نائم ذات ليلة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاني رجل فقال لي: قم، فقمت، فأخذ بيدي فإذا أنا بطريق عن شمالي، فهممت أن أسلك فيها، فقال لي: دعها فإنها ليس لك، فنظرت فإذا أنا بطريق واضحة عن يميني، فقال لي: اسلك هذه))

-المؤمن مسدد ، والدليل القرآني قال:

(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى)

(سورة الكهف الآية: 13)

الهدى الأول: الهدى العام، هدى الحواس، والقدرات التي أودعها الله بالإنسان .

الهدى الثاني: هدى الوحي .

الهدى الثالث: هدى التوفيق .

الهدى الرابع: الدخول إلى الجنة، قال تعالى:

(سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ * وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ)

(سورة محمد الآية: 5-6)

قال: اسلكها، فسلكتها، حتى أتيت روضة غناء واسعة الأرجاء، كثيرة الخضرة، رائعة النضرة، وفي وسطها عمود من حديد، أصله في الأرض، ونهايته في السماء، وفي أعلاه حلقة من ذهب، فقال لي: ارقَ عليَّ، قلت: لا أستطيع، فجاءني وصيف فرفعني، فرقيت حتى صرت في أعلى العمود، وأخذت

بالحلقة بيدي كلتيهما، وبقيت متعلقًا بها حتى أصبحت، فلما كانت الغداة أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقصصت عليه رؤياي، عَنْ قَيْسِ ابْنِ عُبَادٍ، قَالَ:

((كُنْتُ جَالِسًا فِي مَسْجِدِ الْمَدِينَةِ فَدَخَلَ رَجُلٌ عَلَى وَجْهِهِ أَثَرُ الْخُشُوعِ، فَقَالُوا: هَذَا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ تَجَوَّزَ فِيهِمَا ثُمَّ خَرَجَ وَتَبِعْتُهُ، فَقُلْتُ: إِنَّكَ حِينَ دَخَلْتَ الْمَسْجِدَ، قَالُوا: هَذَا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، قَالَ: وَاللَّهِ مَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَقُولَ مَا لَا يَعْلَمُ وَسَأُحَدِّثُكَ لِمَ ذَاكَ، رَأَيْتُ رُؤْيَا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَصَصْتُهَا عَلَيْهِ، وَرَأَيْتُ كَأَنِّي فِي رَوْضَةٍ ذَكَرَ مِنْ سَعَتِهَا وَخُضْرَتِهَا وَسْطَهَا عَمُودٌ مِنْ حَدِيدٍ أَسْفَلُهُ فِي الْأَرْضِ وَأَعْلَاهُ فِي السَّمَاءِ فِي أَعْلَاهُ عُرْوَةٌ، فَقِيلَ لِي: ارْقَ، قُلْتُ: لَا أَسْتَطِيعُ فَأَتَانِي مِنْصَفٌ فَرَفَعَ ثِيَابِي مِنْ خَلْفِي فَرَقِيتُ حَتَّى كُنْتُ فِي أَعْلَاهَا فَأَخَذْتُ بِالْعُرْوَةِ، فَقِيلَ لَهُ: اسْتَمْسِكْ فَاسْتَيْقَظْتُ وَإِنَّهَا لَفِي يَدِي فَقَصَصْتُهَا عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: تِلْكَ الرَّوْضَةُ الْإِسْلَامُ، وَذَلِكَ الْعَمُودُ عَمُودُ الْإِسْلَامِ، وَتِلْكَ الْعُرْوَةُ عُرْوَةُ الْوُثْقَى فَأَنْتَ عَلَى الْإِسْلَامِ حَتَّى تَمُوتَ، وَذَاكَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ))

[متفق عليه، أخرجهما البخاري ومسلم عن قيس ابن عباد في صحيحهما]

إنّ الإنسان إذا اقترب من الله سبحانه وتعالى قرباً شديداً يريه رؤيا مثل فلق الصبح، وأعرف رجلاً دعا ربه دعاءً من كل قلبه، وبإخلاص شديد، وحضور قلب، أن يرزقه زوجة صالحة، فأقسم بالله أنه رأى في المنام أن اذهبْ إلى المكان الفلاني، والشارع الفلاني، والحارة الفلانية، والبناء الفلاني، والطابق الفلاني، والبيت الفلاني، فدل أمه على هذا البيت، فذهبت وخطبت له فتاة صالحة هي الآن زوجته، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ:

((رُؤْيَا الْمُؤْمِنِ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ))

[متفق عليه، أخرجهما البخاري ومسلم عن أبي هريرة في صحيحهما]

موضوع الإيمان أكبر بكثير من أن يهتز، ترى في بعض المركبات التي لها مقطورة وقاطرة عروة، وهناك معامل متخصصة في صنعها، لأنها تجر ثلاثون طنًا، من سبائك معينة ، ومن خلائط معينة، ولو أنها تفلتت لحدثت كارثة كبيرة جداً، فهي عروة متينة حقًّا، قال تعالى:

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

(سورة البقرة الآية: 256)

المؤمن ارتباطه بالدين ارتباط مصيري، ولا شيء في الأرض يزعزعه، ولا شيء يثنيه عن خط سيره، والنبي عليه الصلاة والسلام، قال:

((والله يا عمّ، لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه))

تفسير معاني القصة :

فهذه القصة تروي كيف كان هذا الصحابي الجليل؟ كان يهودياً، وكان حبراً من أحبار اليهود، وكيف أن انتقال الإنسان من دين إلى دين شيء صعب جداً، وسوف يلاقي عِداءً وحقداً، وربما قتالاً، ومع ذلك فإيمانه كان أكبر، والهدى الذي عرفه كان أقوى من كل معطيات البيئة؟ فهذا الذي يزعم أن بيئته صعبة، وهو ناشئ في بيئة معينة، وظروفه صعبة وقاسية، وأهله فيهم شدّة وغلظة، هذا الكلام مرفوض تماماً، والإنسان إذا عرف الله عز وجل حقًّا يهون أمام هذه المعرفة كلُّ شيء، وأمام طاعة الله لا يعبأ بشيء، وإليكم هذا الدليل، قال تعالى:

(قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى)

(سورة طه الآية: 71)

كانوا موعودين، وكانوا بمناصب رفيعة جداً، قال تعالى:

(وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ)

(سورة الأعراف الآية: 113-114)

وعندما آمنوا، قالوا له:

(قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

(سورة طه الآية: 72-73)

فهذا الصحابي الجليل حجة على كل من يزعم أن بيئته صعبة، ويقول: معطياتي صعبة ، ونشأت في بيئة معينة، وأنا على دين كذا، فهذا مرفوض .

وأنا أعرف رجلاً ترك طريق الدين وانحرف، لأن مصلحته فيها معصية، فآثر مهنته ومصلحته على دينه، ولو أنه غيرها لرزقه الله من فوقه ومن تحت رجليه، ولكنَّه ما عرف الله عز وجل في حياته فهوى .

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

ما هو النسب المعترف فيه في الإسلام ؟

أيها الأخوة الأكارم، مع بداية الدرس الخامس والعشرين من دروس سيرة صحابة رسول الله رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، وصحابية اليوم السيدة أسماء بنت أبي بكر .

أيها الأخوة الأكارم، لا فرق في البطولة بين رجل وامرأة، فالإسلام يصنع المعجزات، يصنع الأبطال رجالاً كانوا أم نساءً، فصحابيَّتُنا الجليلة جمعت المجد من أطرافه كلها، أبوها صحابي جليل، وجدها صحابي جليل، وأختها صحابية، وزوجها صحابي، وابنها صحابي، وحسبها بذلك شرفاً وفخرًا، وبما أننا ذكرنا النسب فليَ تعليق عليه، النسب تاج لا يوضع إلا على رأس المؤمن، فإن لم يكن مؤمناً فلا قيمة له، والدليل قال تعالى:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ)

(سورة المسد الآية: 1-2)

أبو لهب عم النبي، وإذا كان هناك إيمان فالنسب تاج يزيد الشريف شرفاً، ويزيد ذا المروءة مروءةً، أما إن لم يكن هناك إيمان فلا قيمة للنسب إطلاقاً، بل هو حجة على صاحبه، وأقوى دليل حديثُ أبي هُرَيْرَةَ الطويل، وفيه:

((وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ))

[أخرجه مسلم في الصحيح عن أبي هريرة]

فمن دون إيمان فلا قيمة للنسب .

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ:

((قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ، قَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا، وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا))

[متفق عليه، أخرجهما البخاري ومسلم عن أبي هريرة في الصحيح]

لا تقل: أصلي وفصلي أبدا   إنما أصل الفتى ما قد حصل

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ مِنْهُمْ الْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ))

[أخرجه الترمذي في سننه عن أنس بن مالك]

فأبو سفيان زعيم قريش وقف بباب عمر ساعات طويلة فلم يُؤذن له، وبلال وصهيب يدخلان ويخرجان بلا استئذان فآلمه ذلك فلما دخل عليه، قال: زعيم قريش يقف ببابك ساعات طويلة ولم يؤذن له، وصهيب وبلال يدخلان بلا استئذان، فأجابه بكلمة واحدة، قال: يا أبا سفيان أأنت مثلهما؟ هذا هو الجواب، فالنسب والحسب والأسرة والعائلة والرفعة هذه من دون إيمان لا قيمة لها إطلاقاً، لكن إذا آمنت فربما كان النسب تاجاً تتوِّج به إيمانك، هذا موضوع النسب .

قال عليه الصلاة والسلام:

((سَلْمَانُ مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ))

[أخرجه الطبراني في الكبير والحاكم في المستدرك عن عمرو بن عوف]

هذا موضوع النسب لا يُتكلم به، ولا يُفتخر به، ولا يُذكر إلا مع الإيمان، وهو تاج يتوِّج الإيمان، فإن لم يكن هناك إيمان فلا أحد يعبأ به، أبوها سيدنا الصديق خليل النبي عليه الصلاة والسلام في حياته، وخليفته بعد مماته، جدها أبو عتيق والد أبي بكر رضي الله عنه، أختها أم المؤمنين عائشة الطاهرة المبرَّأة، زوجها حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم الزبير بن العوام.

ما هو موقف سيدنا معاوية من رسالة ابن الزبير ؟

يروي التاريخ أن سيدنا معاوية جاءه كتاب شديد اللهجة فيه تجاوز، أما بعد، فيا معاوية معاوية باسمه فقط، من دون لقب، لا أمير المؤمنين، ولا خليفة المسلمين، ولا شيء من هذا القبيل، إن رجالك قد دخلوا أرضي فانهَهُم عن ذلك، وإلا كان لي معك شأن، والسلام .

دفع معاوية بكتابه إلى ابنه يزيد، فقال له:

((يا يزيد، ماذا نصنع؟ لما قرأ الكتاب غلا الدم في عروقه، وقال: أرى أن ترسل له جيشاً أوله عنده، وآخره عندك، يأتونك برأسه، وكان معاوية حكيمًا حليم، فقال: يا بني غيرُ ذلك أفضل، أملى على الكاتب، وقال له: اكتبْ، أما بعد، فقد وقفتُ على كتابِ ولد حواري رسول الله، ولقد ساءني ما ساءه، والدنيا كلها هينة جنب رضاه، ولقد نزلت له عن الأرض ومَن فيها .

فردّ عليه ابن الزبير: أما بعد، فيا أمير المؤمنين، أطال الله بقاءك، ولا أعدمك الرأي الذي أحلك من قومك هذا المحل، واستدعى ابنه يزيد، وقال له: انظر ماذا كان اقتراحك؟ أن نرسل له جيشاً أوله

عنده، وآخره عندنا، يأتون برأسه، انظر إلى الجواب، قال: يا بني، من عفا ساد، ومَن حلم عظُم، ومَن تجاوز استمال إليه القلوب))

بماذا لقبت أسماء بنت أبي بكر ولماذا سميت بهذا اللقب ؟

كانت أسماء من السابقين إلى الإسلام، إذ لم يتقدم عليها في هذا الفضل العظيم غير سبعة عشر إنساناً، بين رجل وامرأة، فكان ترتيبها المسلمة الثامنة عشرة، فهذه الصحابية الجليلة لقبت بذات النطاقين، أنا أقول الجليلة لأن الإسلام يصنع الأبطال، ذكوراً كانوا أم إناثاً، وأنا أشهد الله أن في مجتمعاتنا من النساء ما إن إحداهن لتَعْدِل عند الله مئة ألف رجل، بطاعتها لله، وتفانيها بخدمة زوجها، وأولادها، وتقديمها للمجتمع عناصر طيبة، وحسن تربيتها، وصبرها على أسرتها.

عن أسماء بنت يزيد الأنصارية أنها قالت:

((يا رسول الله، أنا وافدة النساء إليك، إن الرجال فُضِّلوا علينا بالجمع والجماعات، وعيادة المرضى، وشهود الجنائز، والحج، والعمرة، والرباط، فقال عليه الصلاة والسلام: انصرفي أيتها المرأة وأعلمي مَن وراءك من النساء أنَّ حسنَ تَبَعُّلِ إحداكن لزوجها، وطلبها مرضاته، واتباعها موافقته يعدل ذلك كله))

[ورد في الأثر]

هذه السيدة الجليلة الصحابية الكريمة لقبت بذات النطاقين، لأنها صنعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولأبيها يوم هاجرا إلى المدينة زاداً، وأعدَّتْ لهم سقاءً، فلما لم تجد ما تربطهما به شقت نطاقها شقين، فربطت بأحدهما المزود، وبالثاني السقاء، فدعا لها النبي عليه الصلاة والسلام أنْ يبدلها الله منهما نطاقين في الجنة، فلقِّبَتْ يومئذٍ أسماءُ بنت أبي بكر ذات النطاقين .

من هو زوجها وكيف كانت تعامله ومن قام بتحنيك ابنها عبد الله وهو في المهد ؟

أيها الأخوة، تزوج بها الزبير بن العوام وكان شاباً مرملاً، يعني فقيراً، وليس له خادم ينهض بخدمته، وليس له مال يوسع به على عياله غير فرس اقتناه، والبطولة أن تزوج ابنتك للمؤمن، فقيراً كان أم غنياً، ولا تعبأ بالمال، لأنه إن كان فقيراً، وكان مؤمناً فسوف يغنيه الله من فضله .

سعيد بن المسيب من كبار التابعين، وكان قاضياً من كبار القضاة في عهد عبد الملك بن مروان، وكان له ابنة من خير النساء، تحفظ كتاب الله، فقيهة، وتحفظ الحديث الشريف، وعلى مستوىً رفيع من الكمال الخُلقي والخَلقي، ولأنها من أعلى النساء علماً وخَلقاً وخُلقاً خطبها عبد الملك لابنه الوليد،

والقصة طويلة، لكن آخر فقرة في القصة عنده تلميذ فقير جداً، غاب عنه أسبوعين، فلما تفقده قال: يا سيدي، ماتت زوجتي، قال: لمَ لمْ تخبرنا؟ فقال: استحييت أن أخبرك، وكنت قد هيأتها للدفن، فقال له: هل لك من زوجة؟ فقال: لا يا سيدي، أنا فقير، فقال له: أزوجك ابنتي، فما صدق من شدة الفرح، ولا يملك شيئاً، وفي الليلة نفسها طُرقَ الباب، فقلت: من الطارق ؟ قال: سعيد، قال هذا التلميذ الفقير: استعرضت كلَّ مَن اسمه سعيد، فلم يخطر على بالي أن يكون الطارق سعيد بن المسيب، فلما فتح الباب رأى شيخه، ومعه ابنته التي عقد له عليها بالنهار ، ودفعها إليه، وقال: خذْ زوجتك، لقد كرهتُ أن تنام الليلة وحدك .

الآن لا يصل إليها الخاطب، يقضي سنتين ونصف في الخِطبة، يكاد يموت، وغرفة النوم لم تنتهِ، فتعقيد الحياة يذهب برونقها في زماننا هذا، عَنْ أَبِي حَاتِمٍ الْمُزَنِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم:

((إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَأَنْكِحُوهُ إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ فِيهِ، قَالَ: إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَأَنْكِحُوهُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ))

[أخرجه الترمذي في سننه عن أبي حاتم المزني]

كانت أسماء نِعْمَ الزوجة الصالحة لزوجها، تخدمه، وتسوس فرسه، واحد خطب امرأة ، فأراد أن ينصحها، قال: يا فلانة، إن في خلقي سوءاً، فأجابته إجابة مفحمة، قالت له: إن أسوأ خلقاً منك من حاجك إلى سوء الخلق، هكذا المرأة المؤمنة .

كانت له نِعْمَ الزوجة الصالحة، تخدمه، وتسوس فرسه، ترعاه، وتطحن النوى لعلفه، حتى فتح الله عليه، فغدا من أغنى أغنياء الصحابة، ولما أتيح لها أن تهاجر إلى المدينة فراراً بدينها إلى الله ورسوله، كانت قد أتمَّتْ حملها بابنها عبد الله بن الزبير، وعبد الله بن الزبير هذا الذي كان مع غلمان يومًا يلعبون، فمر عمر بن الخطاب، فلما رأوه، وكان ذا هيبة شديدة تفرَّقوا إلا عبد الله بن الزبير، بقي واقفاً بأدب، شيء يلفت النظر، فلما وصل إليه قال: يا غلام، لمَ لمْ تهرب مع من هرب؟ قال: أيها الأمير، لستَ ظالماً فأخشى ظلمك، ولستُ مذنباً فأخشى عقابك، والطريقُ يسعُني ويسعُك .

لم يمنعها الحمل من تحمّل مشاق الرحلة الطويلة، فما إن بلغت قباء حتى وضعت وليدها عبد الله بن الزبير في أثناء الهجرة، فكبّر المسلمون، وهلّلوا، لأنه كان أول مولود يولد للمهاجرين في المدينة، فحملته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ووضعته في حجره، فأخذ شيئاً من ريقه الشريف، وجعله في فم الصبي، ثم حنكه ودعا له، ومن السنة تحنيك المولود عند ولادته، والأذان في أذنه اليمنى، والإقامة في أذنه اليسرى، فكان أول ما دخل في جوفه ريق رسول الله صلى الله عليه وسلم .

إليكم شمائلها :

وقد اجتمع لأسماء بنت أبي بكر من خصال الخير، وشمائل النبل، ورجاحة العقل ما لم يجتمع إلا للقليل النادر من الرجال، فقد تجد امرأة تعدل عند الله مئة ألف رجل، برجاحة عقلها، وصدق إيمانها، واستقامتها، وإخلاصها، وتفانيها في خدمة زوجها وأولادها، ويجب أن نعرف أن المرأة كالرجل في التكليف وفي التشريف، لكن لها خصائص تميزها عن الرجل، وله خصائص تميزه عن المرأة، وليست مجال انتقاص لكليهما، مثلاً: الأمية في النبي صلى الله عليه وسلم نقص أم كمال؟ كمال، أمّا الأمية فينا فنقصٌ، إنّها صفة واحدة، لكنها في النبي كمال، وفي المؤمنين نقص، هذا مثل واقعي، المكان المعد للبضاعة في السيارات إذا كان واسعاً جداً في الشاحنات نقص أم كمال؟ كمال، أما في السيارات التي مهمتها نقل الركاب؟ فهو نقص .

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ:

((يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ، تَصَدَّقْنَ وَأَكْثِرْنَ الِاسْتِغْفَارَ فَإِنِّي رَأَيْتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ، فَقَالَتْ امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ جَزْلَةٌ: وَمَا لَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ، قَالَ: تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ وَتَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ وَمَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَغْلَبَ لِذِي لُبٍّ مِنْكُنَّ، قَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ: وَمَا نُقْصَانُ الْعَقْلِ وَالدِّينِ، قَالَ: أَمَّا نُقْصَانُ الْعَقْلِ فَشَهَادَةُ امْرَأَتَيْنِ تَعْدِلُ شَهَادَةَ رَجُلٍ فَهَذَا نُقْصَانُ الْعَقْلِ وَتَمْكُثُ اللَّيَالِي مَا تُصَلِّي وَتُفْطِرُ فِي رَمَضَانَ فَهَذَا نُقْصَانُ الدِّينِ))

[متفق عليه، أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح عن عبد الله بن عمر]

لم يقصد النبي عليه الصلاة والسلام أن يذم المرأة، لكن عقل المرأة مع عاطفتها مجموعهما واحد، وعقل الرجل مع عاطفته مجموعهما واحد، فحينما تُهَيَّأُ المرأة لتكون أمًا فلا بد من عاطفة جياشة، ولا بد من إحساس مرهف، ولا بد من رقة في المشاعر، أمّا حينما يُهَيَّأُ الرجل ليقود أمة، أو يكسب رزقاً فلا بد من عقل يزيد على عاطفته، ولا بد من أجل تربية الأم أولادَها من عاطفة تزيد على عقلها، إذاً: فالمجموع ثابت، فكمالها في زيادة عاطفتها على عقلها، وكماله في زيادة عقله، ومجموع العقل والعاطفة في النوعين واحد .

لكن هناك طُرفة، إنّ امرأة في الطريق رأت شيخاً أزهرياً، فقالت: يا سيدي، أيحق للنبي عليه الصلاة والسلام أن يقول عنا: ناقصات عقل ودين؟ فقال: لا والله، ليس له حقّ، لكنْ هذا ليس الآن، بل هذا للصحابيات، أمّا أنتن هذه الأيام فلا عقل ولا دين، أجابها إجابة مفحمة .

ولنضربْ مثلاً: جاء الزوجُ إلى البيت الساعة الثانية ظهرًا، الغرف مضطربة، والمطبخ غير نظيف، والأولاد غير مرتَّبين، والبيت في أعلى درجات الاضطراب والفوضى وعدم التنظيف، دخل إلى البيت

فإذا امرأته تلقي عليه محاضرةً في أيديولوجيات معينة، أيرضيه منها ذلك؟ فمهما كان عقلها راجحاً جداً، وإدراكها عميقاً جداً، واطلاعها واسعًا جداً، وألقت عليه محاضرة، والبيت هذا حاله، أيرضيه ذلك؟ لا بد أن تكون أحاسيسها مرهفة .

قيل: هذه أسماء بنت أبي بكر كانت من الجود حيث يضرب بها المثل، حدث ابنها عبد الله فقال: ما رأيت امرأتين قط أجود من خالتي عائشة وأمي أسماء، لكن جودهما مختلف، أما خالتي فكانت تجمع الشيء إلى الشيء حتى إذا اجتمع عندها ما يكفي قسمته بين ذوي الحاجات، وأما أمي فكانت لا تمسك شيئاً إلى الغد .

يروى أن النبي صلى الله عليه وسلم جاءه سائل، فقال له:

((اذهب إلى فلان، يقصد أحد الصحابة، فانطلق إلى داره فإذا هو يلتقط الحَبّ من الأرض، حبَّ القمح المتناثر، فقال في سرِّه: هذا الذي يلتقط الحب أيعقل أن يعطيني شيئًا الآن؟ مستحيل، فقال الصحابي: يا رجل، لِمَ أتيت إليَّ ؟ فاضطرب، وقال: واللهِ لقد أرسلني النبي الكريم إليك لتعطيني مما أعطاك الله، فلما رأيتك تلتقط الحب توقعت ألاّ تعطيني شيئاً، فقال له: يا أخي، نجمع هكذا لننفق هكذا، اذهب وخذ أيّة ناقة شئت ، فأخذ ناقة فتبعها عشرة من أولادها، فقال: خذهنّ جميعاً، فقال له: عجبت لأمرك! تلتقط الحَبَّ من الأرض، وتنفق هذا الإنفاق، فأجابه قائلاً: يا أخي، نجمع هكذا لننفق هكذا))

إليكم أحد مواقفها التي خدمت به الإسلام وأهله :

عندما خرج الصديق مهاجراً بصحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم حمل معه كل ماله، ومرة قال له الرسول عليه الصلاة والسلام:

((يا أبا بكر، ماذا أبقيت لنفسك؟ قال: الله ورسوله، -لم يُبق عليه إلا جبته، حمل ماله كله ومقداره ستة آلاف درهم، ولم يترك لعياله شيئاً- فلما علم والده أبو قحافة برحيله، وكان ما يزال مشركاً جاء إلى بيته، وقال لأسماء: واللهِ إني لأراه قد فجعكم بماله، بعد أن فجعكم في نفسه، فقالت له: كلا يا أبت، إنه قد ترك لنا مالاً كثيراً، ثم أخذت حصى، ووضعته في الكوة التي كانوا يضعون فيها المال، وألقت عليه ثوباً ثم أخذت بيد جدها، -وكان مكفوف البصر- وقالت: يا أبتِ، ضع يدك على المال، وانظر كم ترك لنا من المال؟ فوضع يده عليه، وقال: لا بأس إذا كان ترك لكم هذا كله، فقد أحسن))

فقد حلّت مشكلة لئلا يغضب وينفجر على ابنه الذي أخذ المال كله، وقد عرفت حكمة أبيها وشدة قلقه على النبي عليه الصلاة والسلام، وهما يقدِمان على رحلة مجهولة، فأخذ المال كله لينفق عليه، لذلك عليه الصلاة والسلام قال: ما ساءني قط، فاعرفوا له ذلك، وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ عَاصِبٌ رَأْسَهُ بِخِرْقَةٍ فَقَعَدَ عَلَى الْمِنْبَرِ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ:

((إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ النَّاسِ أَحَدٌ أَمَنَّ عَلَيَّ فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ مِنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ أَبِي قُحَافَةَ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ النَّاسِ خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، وَلَكِنْ خُلَّةُ الْإِسْلَامِ أَفْضَلُ سُدُّوا عَنِّي كُلَّ خَوْخَةٍ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ غَيْرَ خَوْخَةِ أَبِي بَكْرٍ))

[أخرجه البخاري في الصحيح]

وعَنْ عَلِيٍّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((رَحِمَ اللَّهُ أَبَا بَكْرٍ، زَوَّجَنِي ابْنَتَهُ ،وَحَمَلَنِي إِلَى دَارِ الْهِجْرَةِ، وَأَعْتَقَ بِلَالًا مِنْ مَالِهِ، رَحِمَ اللَّهُ عُمَرَ يَقُولُ الْحَقَّ وَإِنْ كَانَ مُرًّا، تَرَكَهُ الْحَقُّ وَمَا لَهُ صَدِيقٌ، رَحِمَ اللَّهُ عُثْمَانَ تَسْتَحْيِيهِ الْمَلَائِكَةُ، رَحِمَ اللَّهُ عَلِيًّا اللَّهُمَّ أَدِرِ الْحَقَّ مَعَهُ حَيْثُ دَارَ))

[أخرجه الترمذي في سننه]

وسيدنا الصديق ما عبد صنمًا قط، ولا شرب خمرًا قط، ليس له جاهلية، أرادت أسماء أن تسكن نفس الشيخ، وألاّ تجعله يبذل لها شيئاً من ماله الخاص، ذلك لأنها كانت تكره أن تجعل لمشرك عليها يداً حتى لو كان جدها، وهذا الموقف من أبرز مواقف السيدة أسماء الذي يدل على رجاحة عقلها، وقوة إيمانها، وشدة حزمها .

إليكم هذا الحوار الذي دار بين أسماء وابنها عبد الله بن الزبير بشأن مبايعة عبد الملك بن مروان على الخلافة :

وحينما لقيت ولدها قبل أن يموت بقليل، ابنها هو عبد الله بن الزبير، بُويع له بالخلافة بعد موت يزيد بن معاوية، ودانت له الحجاز ومصر والعراق وخراسان، وأكثر بلاد الشام، لكن بني أمية ما لبثوا أن سيّروا لحربه جيشاً عرمرماً بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفي، فدارت بين الفريقين معارك طاحنة، أظهر فيها ابن الزبير من ضروب البطولة ما يليق بفارس كَمِيٍّ مثله، غير أن أنصاره جعلوا ينفضُّون عنه شيئاً فشيئاً، فلجأ إلى بيت الله الحرام، واحتمى هو ومن معه في حمى الكعبة المعظمة، وقبيل مصرعه بساعات دخل على أمه أسماء وكانت عجوزاً فانيةً، قد كُفّ بصرُها، وكانت سنها تزيد عن مئة، قال لها:

((السلام عليك يا أمي ورحمة الله وبركاته، قالت: وعليك السلام يا عبد الله، ما الذي أقدمك في هذه الساعة، والصخور التي تقذفها منجنيقات الحجاج على جنودك في الحرم تهز دور مكة هزاً، قال: جئت لأستشيرك، قالت: تستشيرني في ماذا؟ قال: لقد خذلني الناس، وانحازوا عني رهبة من

الحجاج، أو رغبة بما عنده، حتى أولادي وأهلي انفضوا عني، ولم يبق معي إلا نفر قليل من رجالي، وهم مهما عظم جلدهم فلن يصبروا إلا ساعة أو ساعتين، -لأنه ليس ثمة تكافؤ، دولة بني أمية ألقتْ بكل ما عندها من قوة لإنهاء هذه الخلافة التي ظهرت إلى جانب خلافة يزيد، ورسلُ بني أمية يفاوضونني على أن يعطوني ما شئت من الدنيا، يبدو أنه كان أصلح من يزيد- ولما جمع معاوية وجهاء القوم ليأخذ البيعة لابنه يزيد تكلم الجميع، فأثنوا على يزيد إلا الأحنف بن قيس بقي ساكتاً، فأربك بسكوته المجلس، فقال معاوية: يا أحنف، لمْ تقل شيئاً، فقال: أخاف الله إنْ كذبت، وأخافكم إن صدقت، فكان تلميحاً أبلغ من تصريح.

ورسلُ بني أمية يفاوضونني على أن يعطوني ما شئت من الدنيا، إذا أنا ألقيت السلاح، وبايعت عبد الملك بن مروان، فما ترين من رأي؟ أن ألقي السلاح، وآخذ من الدنيا ما شئت، وتنتهي الحرب، فماذا تتوقعون مِن أمٍّ يأتيها ابنها بين خيارَيْن صعبَيْن: الأول أن يموت، والثاني أن يبقى حياً، على يصبح غنياً، ويدع هذا الأمر .

فقالت له: الشأن شأنك يا عبد الله، أنت أعلم بنفسك، فإن كنت تعتقد أنك على حق، وتدعو إلى حق فاصبر، وجالدْ كما صبر أصحابك الذين قتلوا تحت رايتك، -فهل هي قضيةُ مزاح؟ لا، إنها حق أو باطل، وليس من مساومة على الحق- وإن كنت إنما أردت الدنيا بهذه الخلافة فلبئس العبد أنت، أهلكت نفسك، وأهلكت رجالك، -كان هذا رأيها، فهل بعد هذا العقل من عقل؟- قال لها: ولكني مقتول اليوم لا محالة، وأنا على حق، وأردت الحق، وإن فعلت كما تريدين فأنا مقتول لا محالة، قالت: ذلك خير لك من أن تسلم نفسك للحجاج مختاراً، فيلعب برأسك غلمان بني أمية، موتك أشرف لك ألف مرة من أن تستسلم، قال: لست أخشى القتل، وإنما أخاف أن يمثلوا بي، قالت: ليس بعد القتل ما يخافه المرء فإنّ الشاة المذبوحة لا يؤلمها السلخ، هل هذه امرأة؟ نعم، هذه امرأة تقول هذا الكلام لابنها الذي على وشك الاستشهاد، قال لها: فأنا ما جئت إليك في هذه الساعة إلا لأسمع منك ما سمعت، واللهُ يعلم أني ما وهنت، ولا ضعفت، وهو الشهيد عليَّ أني ما قمت بما قمت به حباً في الدنيا وزينتها، وإنما غضب لله أن تستباح محارمه، وها أنا ذا ماض إلى ما تحبين، فإذا أنا قُتِلت فلا تحزني عليَّ، وسلمي أمرك لله))

ما هو الأمر الذي كانت السيدة أسماء تخشى منه ، وكيف استقبلت وداع ابنها عنها ؟

قالت:

((إنما أحزن عليك يا بني لو قتلت على باطل، قال: يا أمي كوني على ثقة بأن ابنك لم يتعمد إتيان منكر في حياته، ولا عمل بفاحشة قط، ولم يَجُرْ في حكمٍ، ولم يغدر في أمان، ولم يتعمد ظلم مسلم ولا معاهد، ولم يكن شيء عنده آثر من رضا الله عز وجل، لا أقول ذلك تزكية لنفسي، فالله أعلم مني بي، وإنما قلت لأدخل العزاء على قلبك يا أمي، قالت: الحمد لله الذي جعلك الله على ما يحب، وعلى ما أحب أنا، اقترب مني يا بني كي أتشمَّم رائحتك، ولألمس جسدك، فقد يكون هذا آخر العهد بك، فأكبَّ عبد الله على يديها ورجليها يوسعهما لثماً وتقبيلاً، وأجالت هي أنفها في رأسه ووجهه وعنقه وتشمَّمَتْهُ، وقبَّلته، وأطلقت يديها تتلمس جسده، ثم ما لبثت أن ردتهما عنه، وهي تقول: ما هذا الذي تلبسه يا عبد الله؟ قال: درعي، قالت: ليس هذا يا بني لباس من يريد الشهادة، قال: إنما لبستها كي أطيب خاطرك، وأسكن قلبك، قالت: انزعها عنك، فذلك أشد لحميَّتك، وأقوى لوثبتك، وأخف لحركتك، ولكن البسْ بدلاً منها سراويل مضاعفة، حتى إذا صرعت لم تنكشف عورتك، نزع عبد الله بن الزبير درعه، وشد عليه سراويله، ومضى إلى الحرم لمواصلة القتال، وهو يقول: لاَ تَفتُري عن الدعاء لي يا أمي، فرفعتْ كفيها إلى السماء، وهي تقول: اللهم ارحم طول قيامه، وشدة نحيبه في سواد الليل، والناس نيام، اللهم ارحم جوعه وظمأه في هواجر المدينة ومكة، وهو صائم، اللهم ارحم بره بأبيه وأمه، اللهم إني سلمته لأمرك، ورضيت بما قضيته له، فأثبني عليه ثواب الصابرين، ولم تغرب شمس ذلك اليوم إلا وعبد الله بن الزبير قد لحق بجوار ربه، ولم يمضِ على مصرعه سوى أربعة عشر يوماً إلا وأمه أسماء بنت أبي بكر قد لحقت به، وقد بلغت من العمر مئة عام لم يسقط لها سن))

الآن تخطب بنت ثلاثة عشر عامًا السن محشاة، عمرها ثلاثون سنة أو خمس وعشرون نصف أسنانها ساقطة، وقد بدلت، لكن أسماء لم يسقط لها سن ولا ضرس، ولم يغب من عقلها شيء . اللهم ارزقنا الزوجة الصالحة، لأن الزوجة الصالحة كنز، والدنيا كلها متاع، وخير متاعها الزوجة الصالحة، فهي المربية لأولادها كي يكونوا مؤمنين صادقين .

ما مضمون الكتاب الذي أرسله سيدنا عمر لسيدنا حذيفة ؟

سيدنا عمر بن الخطاب أرسل كتاباً إلى واليه على بلاد فارس حذيفة بن اليمان الصحابي المعروف، والكتاب أرسله لحذيفة بعد أن بلغه أنَّه تزوج كتابيةً، وهذا من حقه، أليس كذلك؟ قال تعالى:

(وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آَتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآَخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ)

(سورة المائدة الآية: 5)

وقال له فيه:

((إذا أتاك كتابي هذا فطلِّق، -هذه الكلمة (طلق) تستلزم أن يكون هذا الزواج صحيحاً، ولا يقع الطلاق إلا على أساس زواج صحيح، لكن سيدنا عمر أمره عجيب، أمره خطي يخاطب به واليه على بلاد فارس حذيفة بن اليمان، يقول فيه: إذا جاءك كتابي هذا فطلق، سيدنا حذيفة من كُتَّاب الوحي، وكان فقيهًا وعالمًا جليلاً- فردّ على الخليفة بكتاب آخر قال فيه: يا أمير المؤمنين، أحلال هذا الزواج أم حرام؟ -أنا أنفذ أمرك، لكن أريد أن أطمئن، وهو يراد أن يذكِّره بقوله تعالى:

(وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ)

(سورة المائدة الآية: 5)

أنّه يحل التزوج بهن، فردّ عليه العمر الخليفة بما ينبئ أنه عالم بالحل والإباحة، ومع ذلك طلب إليه أن يطلق لأمر آخر برَّره- قال سيدنا عمر: إني أعلم هذا، أنا أعلم أن زواجك حلال، ولكني أخشى الفتنة بين المسلمات

يعني هذه المسلمة المؤمنة الطاهرة العفيفة إذا تزوّجتَ أنت بغير مسلمة فمَن يتزوج المسلمة؟ .

كيف فسر محللو السيرة زواج حذيفة بن اليمان من الكتابية ؟

أيها الأخوة، لكنّ كتَّاب السيرة حللوا هذا الموقف تحليلات كثيرة:

1- تحليل مصلحة عامة ومصلحة خاصة، وربما تحققت مصلحة سيدنا حذيفة الخاصة، لأنها تناقضت مع المصلحة العامة، وهو والي أمير المؤمنين على بلاد فارس، فإن كانت زوجته كتابية ربما تتسرب إليها بعض الأسرار فتنقلها إلى قومها .

2- عندما يعزف الشباب المؤمنون عن الزواج من المسلمات فهذا يجعل بينهن فتنة، فهن لمن إذاً؟ كلما ذهب طالب إلى أوربا فإنّه يتزوج هناك، ويعود بامرأة أجنبية ليس لها عاداتنا، ولا تقاليدنا، ولا إيماننا، ولا قيمنا، حدثني صديق، قال: جاء ابني من بلاد الغرب بزوجة، وبيتهم له شرفة واسعة جداً، فصارت تستلقي بثياب السباحة، وتقول: هذا حمام شمسي، وكل الأبنية مُطِلّة على هذه الشرفة .

سيدنا عمر أدرك أن الإسلام حينما أباح الزواج بالكتابية لئلا يستوحش أهل الكتاب، أما حينما تكون الزوجة مصدر خطر على المسلمين، أو حينما تنشأ فتنة بين المسلمات لعزوف الشباب عن الزواج بهنّ

فهذا من شأنه أن يكون محرماً لحكمة سماها علماء الأصول سد الذرائع ، وأنا أعرف عشرات القصص، بل بضع عشرات مفادها أن مَن تزوج امرأة أجنبية نشأ أولاده على غير دين الإسلام، وهناك نساء عُدن إلى بلادهن مع البنات، وزوجها لا يدري، وليس بإمكانه أن يفعل شيئاً، لذلك فإنّ موقف سيدنا عمر عندما قال له: طلّقْ، موقف سليم، لأنه يخشى الفتنة على المسلمات، وهذا من العمل الصالح.
هذه أضفتها للدرس لأن طبيعة الدرس متعلقة بالسيدة أسماء بنت أبي بكر، فمثل هؤلاء النساء الطاهرات العفيفات ينبغي أن يبحث الشباب عنهن، ولأن الدنيا كلها متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة.

والحمد لله رب العالمين

السيرة - رجال حول الرسول - الدرس (26-50) : سيدنا عدي بن حاتم الطائي
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 12-04-1993

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة مختصرة عن موضوع الدرس :

أيها الأخوة الأكارم، مع بداية الدرس السادس والعشرين من دروس صحابة رسول الله رضوان الله عليهم أجمعين، وصحابي اليوم: عدي بن حاتم الطائي، والده حاتم الطائي كان مضرب المثل بالكرم، وعدي بن حاتم له قصة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونحن اليوم في أمس الحاجة إلى المعاني التي تستنبط منها، وكما قلت لكم دائماً: الذي يعنينا أن نربط السيرة النبوية وسيرة صحابة الرسول رضوان الله عليهم أجمعين بحياتنا وواقعنا .

ففي السنة التاسعة للهجرة دان للإسلام ملِكٌ من ملوك العرب بعد نفور شديد، ولان للإيمان بعد إعراض و صدٍّ، وأعطى الطاعة لرسول الله صلى الله عليه و سلم بعد طول إباء، إنه عدي بن حاتم كان ملكًا من ملوك الجزيرة العربية، والحقيقة ترونها بعد قليل أن بطولة رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت في هذه القدرة الفائقة التي أكرمه الله بها على استجلاب أعدائه قبل أصدقائه .

من السهل جداً أن تجلب من يحبك لكن ليس من السهل أن تلين قلوب أعدائك الذين امتلئوا بغضاً لك .

دخل على النبي عليه الصلاة والسلام رجلٌ، وقال:

((واللهِ يا رسول الله ما على وجه الأرض رجل أبغض إليَّ منك، والآن ما على وجه الأرض رجل أحب إليَّ منك))

فهذه القدرة التي أكرم الله بها نبيه على امتلاك قلوب أعدائه، بينما نحن ننفر الأصدقاء، فضعاف المؤمنين بسبب نقص ثقافتهم، وعدم اتباعهم للسنة النبوية، فمن يلوذون بهم يبتعدون عنهم، وقلت لكم مرةً: العاجز هو الذي يعجز عن اكتساب الأصدقاء، ولكنّ الأعجزَ منه هو الذي يعجز على الاحتفاظ بهم، أن تصل إلى القمة أمرٌ ليس سهلاً، ولكن إذا قيس ذلك بقدرتك على بقائك في القمة فهو سهل جداً، أن تصل إلى مكتسبات شيء وأن تحافظ عليها شيء أعظم، أن تحقق إنجازاً في مسيرة الإيمان، وأن تثبت عليه شيء أعظم، وأن تقفز قفزة نوعية في رمضان، وأن تحافظ عليها على مدار العام شيء أعظم، وأن تهتدي إلى الله شيء، وأن تتابع الهدى شيء آخر، أن تنطلق بسرعة معينة وأن تحافظ على هذه السرعة شيء آخر .

فالعاجز هو الذي عجز عن اكتساب أخ في الله، والأعجز منه هو الذي لم يستطع أن يحافظ على هذه الأخوّة، ولأسباب مادية، ولأسباب تافهة خسر أخوَّته، لكن النبي عليه الصلاة والسلام كان من شدة كماله ورحمته وحبه للخلق يتألف أعداءه قبل أصدقائه، وهذا عدو لدود من أعداء النبي، وسترون بعد قليل كيف أنّ قلبه لان بالإحسان؟ وبالبر تستعبد قلوب الكثيرين، الأقوياء يملكون القوالب، بينما الأنبياء يملكون القلوب، الأقوياء يملكون القوالب بقوتهم المادية، لكن الأنبياء يملكون القلوب بكمالهم، أنت بكمالك بإمكانك أن تملك القلوب .

لماذا عادى عدي بن حاتم الطائي النبي عليه الصلاة والسلام قبل إسلامه ؟

ورث عدي الرئاسة عن أبيه، فكان ملكاً في الجزيرة، كان يرأس قبيلة طيىء، وفرضت له الربع في غنائمها، وأسلمت له القيادة، ولما صدع رسول الله صلى الله عليه وسلم بدعوة الهدى والحق، ودانت له الجزيرة العربية حيًّا بعد حي، رأى عدي في دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم زعامة واسعة النفوذ، يوشك أن تقضي على زعامته، وستفضي إلى إزالة رياسته، فعادى النبيَّ، ولماذا عاداه؟ حفاظاً على مصالحه، وما أكثرَ الأشخاص في كل زمان وفي كل مكان، حفاظاً على مصالحهم، وعلى مكتسباتهم، وعلى مراكزهم، وعلى جاههم، وعلى تبجيل الناس لهم ، وعلى تعظيم الناس إياهم، يعادون الحق .

يا أيها الأخ الكريم، إيّاك ثم إيّاك أن تقف في خندقٍ معادٍ للحق من أجل مصالحك، ولا بد عندئذ أن تخسر الاثنتين معاً، وإذا وقفت مع الحق ربحت الدنيا والآخرة، وإذا وقفت مع الباطل حفاظاً على مصالحك خسرت الآخرة، وخسرت مصالحك، قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ)

(سورة الأنفال الآية: 36)

لا، لأن الله مع الحق، ولن تستطيع أن تطفئ نور الله، ولن تستطيع أن تضعف قوة الحق، إياك أن تكون في درب الحق معترضاً، فإن الحق لا يلوي على شيء مهما كان شأنه، وما ضر السحاب نبح الكلاب، ما ضر البحر العظيم أن ألقى فيه غلام بحجر، إن الذين يحبون أن يغبروا على الإسلام كمن يكنس الطريق ليغبر على السماء، وما يغبرون إلا على أنفسهم، لأن هذا الإسلام دين الله، بقي شامخاً كالطود على مدار العصور والحقب، ولولا أنه دين الله لقُضيَ عليه منذ ألف عام ، ولكن هذا الدين العظيم كلما وقفتَ في وجهه ازداد قوةً، كلما أردت أن تقضي عليه ازداد مضاءً ، فهذا عدي بن حاتم

رأى في زعامة النبي زعامة تطغى على زعامته، ورأى في رئاسة النبي رئاسة ستزيل رئاسته، فماذا يفعل؟ عليه أن يعادي النبي .

أيها الأخوة، يقف الحسد وراء خمسة أعشار معارضات الحق، الإنسان أحياناً يرفض الحق حسداً من عند نفسه، والمثل المأثور:

((إذا عزَّ أخوك فهن))

كن معيناً له يقبلك الله، ويقبله، ويرفع شأنك، ويرفع شأنه، وفضلُ الله عز وجل واسع، رحمة الله تسع الخلق كلهم، ولقد قرأت بيتين من الشعر ذات يوم:

ملك الملوك إذا وهب لا تسألن عن السبب

الله يعطي من يشـاء فقف على حد الأدب

أنا عدلت فيه كلمة واحدة قلت:

ملك الملوك إذا وهب قم فاسألن عن السبب

لأن الله عادل، يتعامل مع عباده وفق قواعد ثابتة .

ملك الملوك إذا وهب لا تسألن عن السبب

الله يعطي من يشـاء فقف على حد الأدب

إذا وجدت أخاك متفوقا فنافسه، قال تعالى:

(خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ)

(سورة المطففين الآية: 26)

ظل عدي بن حاتم على عداوته للإسلام قريباً من عشرين عاماً، لكن الله حليم، فالإنسان يضيق ذرعاً بالكفار، يا رب لماذا هؤلاء يعيشون، وحياتهم بيدك، ورزقهم بيدك؟ وحينما خلق الله عز وجل الإنسانَ سمح له أن ينكر وجوده ورزقه، أليس كذلك؟ لا إكراه في الدين، ترى إنسانًا ملحدًا، وله قلب، ودسامات، وشرايين، ورئتان، وكليتان، وأمعاء، وأعصاب، وكذا ألف عضو يعمل في جسمه بانتظام، وعنده فكر وذكاء وحرفة، ويكسب مالاً، وينفق، ويشتري بيتاً، ويتزوج، وهو ملحد، واللهُ لم يضق به ذرعاً، لا إكراه في الدين .

لذلك أعطي الإنسان في الدنيا الكثير، قال له: ابنَ آدم لي عليك فريضة، ولك عليَّ رزق ، فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك، فالبطولة أن يأتي الإنسان ربه طائعاً، راغباً محباً، فظل عدي بن حاتم على عداوته للإسلام قرابة عشرين عاماً ثم أسلم ، ولإسلام عدي قصة لا تنسى .

لماذا هاجر عدي إلى الشام ؟

يقول عدي بن حاتم:

((ما من رجل من العرب كان أشدَّ مني كراهة لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين سمعت به، فقد كنت امرأ شريفاً، وكنت نصرانياً، وكنت أسير في قومي بالمرباع ، معه أموال طائلة، ربع أموال قومه، -وله زعامة وملك وشرف، ووالده أكرم العرب وربع دخلهم له وحده، فماذا يريد من الإسلام؟ بالمنطق المادي هو وصل إلى قمة الدنيا- .

فأخذت الربع من غنائمهم، كما كان يفعل غيري من ملوك العرب، فلما سمعت برسول الله صلى الله عليه وسلم كرهتُه، ولما عظم أمره، وامتدت شوكته، وجعلتْ جيوشُه وسراياه تشرِّق وتغرِّب في أرض العرب، قلت لغلام لي يرعى إبلي: لا أبا لك، أعدد لي من إبلي نوقاً سماناً سهلة القياد، واربطها قريباً مني، فإذا سمعت بجيش لمحمد أو بسرية من سراياه قد وطئت هذه البلاد فأعلِمْني، -فقدْ هيَّأ الطائرة، ولكل عصر أساليبه- .

وفي ذات غداة أقبل علي غلامي، وقال: يا مولاي، ما كنت تنوي أن تصنعه إذا وطئت أرضَك خيلُ محمد فاصنعه الآن، فقلت: ولِمَ ثكلتك أمك؟ فقال: إني رأيت رايات تجوس خلال الديار، فسألت عنها فقيل لي: هذه جيوش محمد قد قدمت، فقلت له: أعدد لي النوق التي أمرتك بها ، وقربها مني، ثم نهضت من ساعتي، فودعت أهلي وأولادي إلى الرحيل عن أرضي التي أحبها ، وجعلت أعد السير نحو بلاد الشام للِّحاق بأهل ديني من النصارى، وأنزل بينهم، لكنه وقع في غلطة كبيرة ارتكبها، فكانت سببَ إسلامه، وقد أعجلني الأمر عن استقصاء أهلي كلهم، فلما اجتزت مواقع الخطر، تفقدت أهلي فإذا لي أن تركت أختًا لي في مواطننا بنجد، مع من بقي هناك من طيىء، ولم يكن مِن سبيل إلى الرجوع إليها، فمضيت بمَن معي حتى بلغت الشام، وأقمت فيها بين أبناء ديني، أما أختي فقد نزل بها ما كنت أتوقعه وأخشاه))

أخته سفانة من أذكى نساء العرب، ولها قصة مع رسول الله في كتاب آخر .

إليكم قصة سفانة أخت عدي مع رسول الله :

قال:

((ولقد بلغني وأنا في ديار الشام أن خيل محمد صلى الله عليه وسلم أغارت على ديارنا، وأخذت أختي في جملة من أخذته من السبايا، وسيقت إلى يثرب، وهناك وضعت مع السبايا في حظيرة عند باب المسجد، فمر بها النبي صلى الله عليه وسلم، فوقفت، -وكانت ذكية جداً، وقالت: يا رسول الله،

خاطبته بالرسالة وهذا عقل راجح، وهي لم تسلم- وقالت له: يا رسول الله، هلك الوالد ، وغاب الوافد، فامننْ عليَّ مَنَّ الله عليك، فقال عليه الصلاة والسلام: ومَن وافدُك؟ الوالد معروف حاتم الطائي، الوافد من؟ قالت: عدي بن حاتم، فقال عليه الصلاة والسلام: الفار من الله ورسوله، ثم مضى، وتركها صلى الله عليه وسلم، ولم يتكلم بشيء، فلما كان الغد مر بها، فقالت له مثل قولها بالأمس، وقفت، وقالت: يا رسول الله، هلك الوالد، وغاب الوافد، فامننْ عليَّ مَنَّ الله عليك، قال: من الوافد؟ قالت: عدي بن حاتم، قال: الفار من الله ورسوله، ثم تركها ومضى، فلما كان بعد الغد مرَّ بها، وقد يئست فلم تقل شيئاً، وكان وراء النبي رجلٌ أشار لها من خلفه أن قومي وكلميه كما كلمته بالأمس، فقامت إليه، وقالت: يا رسول الله، هلك الوالد، وغاب الوافد، فامننْ عليَّ مَنَّ الله عليك، وفي رواية أخرى أوسع قالت: يا رسول الله، هلك الوالد، وغاب الوافد، فإن رأيت أن تخلِّيَ عني، ولا تشمت بي أحياء العرب، لأنها شريفة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم:

((أكرموا عزيزَ قومٍ ذلَّ، وغنيًّا افتقر، وعالماً ضاع بين الجهال))

قالت: فإن أبي كان سيد قومه، يفكّ العاني، ويعفو عن الجاني، ويحفظ الجار، ويحمي الذِّمار، ويفرج عن المكروب، ويطعم الطعام، ويفشي السلام، ويحمل الكَلَّ، ويعين على نوائب الدهر، وما أتاه أحد في حاجة فردَّه خائب، أنا بنت حاتم الطائي .

-هناك تعليق للنبي عميق جداً- فقال عليه الصلاة والسلام: يا جارية، هذه صفات المؤمنين حقاً، ولو كان أبوك مسلماً لترَحمْنا عليه، -معنى ذلك أنّ الإنسان قد يكون بعقل راجح جداً ، وبذكاء لامع، قد يعمل أعمالاً طيبة فيثني عليه الناس بها، ولكنها ليست طاعة لله عز وجل، فرق كبير بين أن تكون كاملاً لتنتزع إعجاب الناس، وبين أن تكون كاملاً لتتقرب إلى الله عز وجل، الأول سلوك اجتماعي ذكي، أمّا الثاني فهو عبادة، والسلوك الاجتماعي الذكي تحصل ثماره في الدنيا فقط، لكن العبادة تحصل نتائجها في الدنيا و الآخرة معاً .

ومرةً ذكرت ذلك في موضوع الأمانة، أنك استقرضتَ مئة ألف، ووقعت سندًا، وأديته في وقته، يا أخي أنا أمين، لا، لست أمينًا، ليست هذه هي الأمانة، أنت موقع على سند، وخصمك مر، وإذا لم تدفع شهَّرَ بك، وأقام عليك دعوى، وحجز على أموالك، وأخذ منك المبلغ عنوة في المحاكم، وأنت حينما دفعت هذا المبلغ دفعته طلباً للسلامة، وحفاظاً على مكانتك وسمعتك، الأمين رجل أعطاك مئة ألف في سيارة، ثم وقع حادث في هذه السيارة، ومات في هذا الحادث، ولم يعلم أحد في الدنيا كلها بهذا المبلغ، لا شركاؤه، ولا ورثته، ولا أيّ إنسان كائنًا من كان، وليس في الأرض كلها من يطالبك به، ولا من يُدِينُك به، فتوجهتَ بمحض اختيارك إلى ورثته، وأعطيتهم هذا المبلغ، هذه هي الأمانة دفعت هذا المبلغ إرضاء لله عز وجل .

والإنسان أحيانا يأخذ موقفًا رحيمًا، وهو ليس رحيماً، يأخذ موقفًا عادلا، وهو ليس عادلاً ، هذا سلوك ذكي تمليه عليه مصلحته، وبهذه الطريقة نفسر كل ما عند الأجانب الكفار من تصرفات تعجبنا، يا أخي أخلاق المسلمين، لا ليست أخلاق المسلمين، ولكنهم أذكياء جداً، وهكذا تقتضي مصالحهم، أما إذا أردت أن ترى وحشيتهم فاستمع إلى الأخبار، يبحثون عن حقوق الحيوان، مستشفيات للحيوانات، وقيود نفوس للحيوانات، ألبسة خاصة للحيوانات، ومكان تسوُّق خاص للحيوانات، ولحوم خاصة للحيوانات، وما حالُ بني البشر الذين تذبحونهم؟ وما موقفهم من شعوب العلم الثالث؟ ظلم، ونهب ثروات، واضطهاد، واستعباد، وقتل، وتشريد- .

ثم قال عليه الصلاة والسلام:

((ارْحَمُوا ثلاَثةَ: عَزيزَ قوْمٍ ذلَّ، وَغنِيَّ قوْمِ افِتَقرَ، وَعَالِماَ بَيْنَ جُهَّال))

[ورد في الأثر]

-قد تكون في المطار، ورأيتَ رجلاً تعرفه من أهل العلم، جالس بين السياح، ضائعًا بينهم، غير معروف، فإذا سلمت عليه باحترام، وأكرمته بمكان خاص فقد عملت بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((ارْحَمُوا ثلاَثةَ: عَزيزَ قوْمٍ ذلَّ، وَغنِيَّ قوْمِ افِتَقرَ، وَعَالِماَ بَيْنَ جُهَّال))

[ورد في الأثر]

وامتن عليها بقومها، فأطلقهم جميعاً تكريماً لها، فقالت: أصاب الله ببرك مواقعه، ولا جعل لك إلى لئيم حاجة، ولا سلب نعمةً عن كريم إلا جعلك سبباً في ردِّها عليه .

-أحيانا تخدم إنسانًا فيرفس ويجحد، وقد تخدم إنسانًا، ويكون كريمًا فلا ينسى لك هذا المعروف طوال حياته، اللهم ارزقنا العمل الصالح مع الكرماء، يقول سيدنا علي:

((والله والله مرتين لحفر بئرين بإبرتين، -فهل هذا يكون؟ بئر ارتوازية عمقها تسعون مترًا تُحفر بإبرة- وكنس أرض الحجاز في يوم عاصف بريشتين، -صحراء كلها رمال أيمكن هذا بريشة طائر؟- ونقل بحرين زاخرين بمنخلين، وغسل عبدين أسودين حتى يصيرا أبيضين، -عشر مرات بالليفة الخشنة، ويبقى أسود- قال: أهون عليَّ من طلب حاجة من لئيم لوفاء دين))

سيدنا عليٌّ سئل: ما الذل؟ قال:

((أن يقف الكريم بباب اللئيم ثم يرده))

لما قال النبيُّ عليه الصلاة والسلام: خلوا سبيلها فإنّ أباها يحب مكارم الأخلاق، -والآن اسمعوا دقة موقف النبي-

((قال لها: يا جارية إلى أين تريدين أن تذهبي؟ قالت: أريد اللحاق بأهلي في الشام، فقال: ولكن لا تعجلي بالخروج حتى تجدي من تثقين به من قومك، ليبلغك بلاد الشام، فإذا وجدت الثقة فأعلميني، وكأنها ابنته لما انصرف النبي عليه الصلاة والسلام سألت عن الرجل الذي أشار إليها أن تكلمه، فقيل لها: إنه علي بن أبي طالب رضوان الله عليه، ثم أقامت حتى قدم ركب فيهم من تثق به، فجاءت النبي صلى الله عليه وسلم، وقالت: يا رسول الله، لقد قدم رهط من قومي لي فيهم ثقة وبلاغ، فكساها النبي صلى الله عليه وسلم، ومنحها ناقة تحملها، وأعطاها نفقة تكفيها، وأطلق سراح قومها كلهم إكراماً لها، ولم يسمح لها بالخروج إلا مع من تثق به، كي يبلغها أهلها بسلام، فخرجت مع الركب))

إليكم قصة إسلام عدي بن حاتم الطائي :

فلنعُدْ إلى عدي بن حاتم في بلاد الشام، وهو هارب، قال عدي:

((ثم جعلنا بعد ذلك نتنسم أخبارها، ونترقب قدومها، فو الله إني لقاعد في أهلي إذ أبصرت امرأة في هودجها تتجه نحونا، فقلت: ابنة حاتم، فإذا هي هي، فلما وقفت علينا بادرتني بقولها القاطع الظالم، لقد احتملت بأهلك وولدك وتركت بقية والدك وعورتك، فقلت: أيْ أُخَيَّة لا تقولي إلا أنْ تقولي خيراً، وجعلتُ أسترضيها حتى رضيت، وقصَّتْ علي خبرها، فإذا هو كما تناهى إليَّ، فقلت لها وكانت امرأة حازمة عاقلة: ما ترين في هذا الرجل، يعني محمداً، قالت: أرى والله أن تلحق به سريعاً، فإن يكن نبياً فلسابق فضله، وإن يكن ملكاً فلن تذل عنده، وأنت أنت، -وعلى الحالتين الذهاب إليه غنيمة، فإذا كان نبياً فأنت من السابقين، وإذا كان ملكًا فلن تذلَّ عنده، وديننا كله مكارم أخلاق صريحة، والإسلام كله صدق وأمانة وأخلاق واستقامة- .

قال عدي: فهيأت جهازي، ومضيت حتى قدمت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، -لا تقل: جِهازي بكسر الجيم، صوابها جَهازي بفتح الجيم، قال تعالى:

(وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ)

(سورة يوسف الآية: 59)

((ومضيتُ حتى قدمتُ إلى عند رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير كتاب ولا أمان، وكان عديّ بن حاتم يتصور أن يقتله النبي، وكان بلغني أنه قال: إني لأرجو أن يجعل الله يد عدي في يدي، نتعاون، وقد بعث له بهذا الخبر، فدخلت عليه وهو في المسجد، فسلمت عليه، قال: من الرجل؟ قلت: عدي بن حاتم، فقام إلي، وأخذ بيدي، وانطلق بي إلى بيته، فو الله إنه لماضٍ بي إلى البيت إذ لقيَتْه امرأة ضعيفة كبيرة، ومعها صبي صغير، فاستوقفته، وجعلت تكلمه في حاجة لها، فظل معها حتى قضى حاجتها، وأنا واقف، فقلت في نفسي: والله ما هذا بملِك، ثم أخذ بيدي حتى أتينا منزله، فتناول

وسادة من أدم محشوة ليفاً، فألقاها إليَّ، وقال: اجلس على هذه، فاستحييت منه ، وقلت: بل أنت تجلس عليها، قال: بل أنت، فجلستُ عليها، وجلس رسول الله على الأرض، إذّ لم يكن في بيته سواها، فقلت في نفسي: والله ما هذا بأمر ملك، ثم التفتَ إليَّ وقال: إيه يا عدي بن حاتم، ألم تكن ركوسياً تدين بدين بين النصرانية والصابئة؟ قلت: بلى، قال: ألم تكن تسير في قومك بالمرباع، تأخذ ربع أموالهم، فتأخذ منهم ما لا يحل لك في دينك، فقلت: بلى، وعرفت عندئذٍ أنه نبي مرسل، يعلم ما نجهل، ثم قال لي: لعلك يا عدي، إنما يمنعك من الدخول في هذا الدين ما ترى من حاجة المسلمين وفقرهم، فو الله ليوشكن المال أن يفيض فيهم، حتى لا يوجد من يأخذه،-إذا رأيت أخوانك كلهم فقراء، والأغنياء ليسوا في المسجد، الأغنياء في النوادي والفنادق والملاهي، فلا تنكمش- ولعله يا عدي إنما يمنعك من الدخول في هذا الدين ما ترى من قلة المسلمين وكثرة عدوهم، فو الله لتوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف إلا الله، ولعله يا عدي إنما يمنعك من الدخول في هذا الدين أنك ترى أن المُلْك والسلطان في غيرهم، وايمُ الله لتوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم، وإن كنوز كسرى قد صارت إليهم، فقلت: كنوز كسرى؟ قال: نعم كنوز كسرى، قال عدي : عندئذ شهدت شهادة الحق، وأسلمت))

هل صدق النبي في الوعد الذي قطعه لعدي ؟

عُمِّرَ عدي طويلاً، وكان يقول:

((لقد تحققت اثنتان، وبقيت الثالثة، وإنها والله لا بد كائنة ، فقد رأيت المرأة تخرج من القادسية على بعيرها لا تخاف شيئاً، حتى تبلغ البيت، وكنتُ في أول خيل أغارت على كنوز كسرى، هو نفسه وأخذتها، وأحلف بالله لتجيئَن الثالثة، ولقد شاء الله أن يحقق قول نبيه عليه الصلاة والسلام، فجاءت الثالثة في عهد الخليفة الزاهد العابد عمر بن عبد العزيز، حيث فاضت الأموال على المسلمين حتى جعل مناديه ينادي: من يأخذ أموال الزكاة؟ من فقراء المسلمين؟ فلا يجد أحداً))

سيدنا عمر بن عبد العزيز لا يجد فقيرًا يعطيه الزكاة، وصدق النبي عليه الصلاة والسلام، وبرّ عدي بن حاتم بقسمه .

لا تنكمش أيها الأخ عن التوبة إلى الله أنْ ترى المؤمنين ضعافًا أو فقراء أو أمرهم بيد عدوهم، لكنَّ الله معهم، وسينصرهم إن شاء الله تعالى .

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

العداوة التي ورثها عكرمة بن أبي جهل عن أبيه لرسول الله والأذى الذي لحق بالمسلمين من عكرمة

أيها الأخوة الأكارم، مع بداية الدرس السابع والعشرين من دروس صحابة رسول الله رضوان الله عليهم أجمعين، وصحابي اليوم سيدنا عكرمة بن أبي جهل .

أيها الأخوة الأكارم، هذه القصة لها دلالات عظيمة، ومن أبرز دلالاتها أن أشدّ الناس عداوةً إذا اهتدى إلى الله عز وجل يكون من أشدِّ الناس نصرة، والمؤمن لا ييأس من أعداء الله، مهما تكن العداوة شديدة، ومهما يكن البُعدُ واسعاً، هذا العدو اللدود، وهذا الخصم العنيد، وهذا المقاتل في سبيل الطاغوت إنسان لو اهتدى إلى الله سبحانه وتعالى لصار أقربَ الناس إليك، فلذلك هذه القصة تعطينا تفاؤلاً، ودلالة عظيمة في أن المؤمن يطمع حتى في أعدائه، وسوف ترون كيف أنّ النبي صلى الله عليه وسلم بحكمته البالغة، ورحمته الواسعة، وعطفه الشديد، وبُعدِ نظره ، كيف أنه صنع من ألدِّ أعدائه نصيراً وصحابياً؟.

هذا الصحابي كان في أواخر العقد الثالث من عمره، فسِنّه ما بين خمس وعشرين وثمانٍ وعشرين سنة، يوم صدع نبي الرحمة بدعوى الهدى والحق، وكان من أكرم الناس حسباً، وأكثرهم مالاً، وأعزهم نسباً، من علية القوم، ومن الفرسان، وكان جديراً أن يسلم كما أسلم نظراؤُه، من أمثال سعد بن أبي وقاص، ومصعب بن عمير، وغيرهما من أبناء البيوت المرموقة في مكة، لولا عنادُ أبيه، فمَن هو أبوه؟ إنه أبو جهل، زعيم الضلال، وزعيم المناوأة والشرك، وزعيم القسوة، وحتى أيامنا هذه إذا أردتَ أن تصف إنساناً بالقسوة والغلظة والبطش وقسوة القلب تقول عنه: أبو جهل، هذه كلمة يستعملها الناس إلى يومنا هذا .

عكرمة بن أبي جهل وجد نفسه مدفوعاً بحكم زعامة أبيه إلى مناوأة النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا أكبر خطأ، أنْ يتحرك الإنسانُ بلا وعي، وينطلق بلا هدف مع الناس، إن أحسنَ الناس أحسنتَ، وإن أساؤوا أسأت، هذا هو التيار الجارف، إنها بلوى عامة، وهكذا المجتمع، وتقول الزوجة: هكذا زوجي يريد، أكبر غلط للإنسان أنْ ينساق مع مَن حوله بلا وعي، يخاصم بلا سبب، ويناوئ بلا مبرر، ويرتكب المعاصي بلا قناعة، ويقاتل من دون فهم، ويسالم من دون سبب وجيه، هذا هو الإمعة، والنبي عليه الصلاة والسلام نهى أن يكون أحدُنا إمَّعة، والإمّعة هو الذي يقول: أنا مع الناس، إن أحسنوا

أحسنتُ، وإن أساؤوا أسأت، هكذا كلام العوام، هذا هو الجهل بعينه، وهذا هو التخلف العقلي، هذا هو ضعف الشخصية .

عكرمة بن أبي جهل بحكم بيئته، وانسجاماً مع عداوة أبيه، وانطلاقاً ممن حوله ناصب النبيَّ صلى الله عليه وسلم أشدّ العداوة، وآذى أصحابه أفدحَ الإيذاء، وصب على الإسلام والمسلمين من النكال ما قرّتْ به عينُ أبيه، فقد قرَّت عينُ أبيه لشدة ما نال من أصحاب رسول الله، وما نكّل بهم، ولشدة ما ناصب النبيَّ صلى الله عليه وسلم من العداوة والبغضاء والتجريح و الطعن .

هل تحققت رغبة أبو جهل يوم بدر وما هي النتيجة التي حصل عليها ؟

لما قاد أبوه معركة الشرك يوم بدر، وأقسم باللات والعزى ألاّ يعود إلى مكة إلا بعد القضاء على الإسلام بهزيمة محمد صلى الله عليه وسلم .

أيها الأخوة الأكارم، إياك أن تحتمي بغير الله، وأن تلوذ بغير الله، فما من عبد يعتصم بمخلوق دوني أعرف ذلك من نيته إلا جعلتُ الأرض هوياً تحت قدميه، وقطعتُ أسباب السماء بين يديه .

فأبوه زعيم الشرك، قاد معركة الشرك، وأقسم باللات والعزى ألاّ يعود إلى مكة إلا إذا هزم محمداً صلى الله عليه وسلم، ونزل ببدر، وأقام بها ثلاث ليالٍ ينحر الجُزُر، ويشرب الخمور ، وتعزف له القيان بالمعازف، خمر على النساء، على الغناء، على قسم باللات والعزى ليهزمنّ محمداً صلى الله عليه وسلم قبل أنْ يعود إلى مكة، لكن اللات والعزى لم يلبِّيان نداء أبي جهل، لأنهما لا يسمعان، قال تعالى :

(إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

(سورة فاطر الآية: 14)

هذه الآية رائعة جداً في وصف أهل الشرك، وعلى فرض أنهم يسمعون فلا يستجيبون لكم، فلم ينصراه في معركته لأنهما عاجزان، ولم يسمعاه لأنهما أصمّان، فالويل لمَن يعتمد على أصمّ وعاجز، لكن الله سبحانه وتعالى أينما توجهتَ إليه يسمعك، وحيثما أقبلتَ عليه يستجبْ لك، وهو على كل شيء قدير، لا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض، في معركة بدر خرَّ أبو جهل الطاغية الكبير صريعًا، ورأى ابنُه عكرمةُ بعينه رماحَ المسلمين تنهل من دمه، وسمعه بأذنيه وهو يطلق آخر صرخة انفرجت عنها شفتاه .

عاد عكرمة إلى مكة بعد أن خلف جثّة سيد كفار قريش في بدر، فقد أعجزته الهزيمة أنْ يظفرَ بجثة أبيه ليدفنها في مكة، تعلمون أن النبي عليه الصلاة والسلام جمع هذه الجثث في قليب ، أي في بئر،

وناداها واحداً واحداً، فعَنْ أَنَس بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَرَكَ قَتْلَى بَدْرٍ ثَلَاثًا ثُمَّ أَتَاهُمْ فَقَامَ عَلَيْهِمْ فَنَادَاهُمْ، فَقَالَ:

((يَا أَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ، يَا أُمَيَّةَ بْنَ خَلَفٍ، يَا عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، يَا شَيْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، أَلَيْسَ قَدْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا فَإِنِّي قَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا، فَسَمِعَ عُمَرُ قَوْلَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! كَيْفَ يَسْمَعُوا وَأَنَّى يُجِيبُوا وَقَدْ جَيَّفُوا؟ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ أَنْ يُجِيبُوا، ثُمَّ أَمَرَ بِهِمْ فَسُحِبُوا فَأُلْقُوا فِي قَلِيبِ بَدْرٍ))

[أخرجه مسلم في الصحيح عن أنس بن مالك]

ما هو الموقف الذي اتخذه عكرمة بعد وفاة أبيه ؟

أيها الأخوة، لكن بعد مقتل أبيه أخذ عكرمة موقفًا آخر، كان في بادئ الأمر يعادي النبي صلى الله عليه وسلم حَمِيَّةً لأبيه، فأصبح يعاديه اليوم ثأراً لأبيه، ومن هنا انبرى عكرمة ونفر ممَّن قُتِل آباؤُهم في بدر يؤجِّجون نار العداوة في صدور المشركين على محمد صلى الله عليه وسلم، حتى كانت موقعة أحد، فخرج عكرمة بن أبي جهل إلى أحد وأخرج معه زوجته أمَّ حكيم، لتقف مع النسوة في بدر وراء الصفوف، وتضرب معهنّ على الدفوف، تحريضاً لقريش على القتال، وتنديداً لفرسانها إذا حدثتهم أنفسهم بالفرار، خرج عكرمة بن أبي جهل، وأخذ معه زوجته أم حكيم كي تكون الزوجة دافعًا لزوجها في اقتحام الأخطار، ولإحراز النصر، لعل هذا النصر يكون ثأراً لموقعة بدر .

جعلت قريش على ميمنة الجيش خالد بن الوليد، وعلى ميسرته عكرمة بن أبي جهل، وكان قائداً لامعاً جداً، وأبلى الفارسان المشركان في ذلك اليوم بلاءً رجّح كفة قريش على محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه، الذين عصوا أمر النبي عليه الصلاة والسلام، وتحقق للمشركين النصر الكبير، مما جعل أبا سفيان يقول: هذا يومٌ بيوم بدر، وفي يوم الخندق حاصر المشركون المدينة أياماً طويلة، فنفذ صبر عكرمة بن أبي جهل، وضاق ذرعاً من الحصار، ونظر إلى مكان ضيق من الخندق، وأقحم جواده فاجتازه، ثم اجتازه وراءه بضعةُ نفر في أجرأ مغامرة، ذهب ضحيتها عمرُو بن عبد وُدٍّ العامري أمَّا هو فلم ينجُ إلا بالفرار .

ما هو الرأي الذي أجمعت عليه قريش ومن خالف هذا الرأي ولماذا فر عكرمة إلى اليمن ؟

أيها الأخوة، لكن العقدة في القصة يوم فتح مكة، في يوم الفتح رأت قريش ألاّ قِبَلَ لها بمحمد صلى الله علي وسلم وأصحابه، فأجمعت على أن تُخلِيَ له السبيل إلى مكة، وقد أعانها على اتخاذ قرارها هذا ما

عرفته من أن النبي عليه الصلاة والسلام أمَر قواده ألاّ يقاتلوا إلا مَن قاتلهم من أهل مكة، لكن عكرمة بن أبي جهل، انظروا إلى عداوته وإلى إصراره على ذلك، وإلى شدة حقده وبغضه للنبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه، لكن عكرمة بن أبي جهل ونفرٌ ممّن معه خرجوا على إجماع قريش، وتصدَّوا للجيش الكبير، فهزمهم خالد بن الوليد، والذي أسلم قبل فتح مكة بعام، هزمهم في معركة صغيرة، قُتِل فيها من قُتِل، ولاذ بالفرار من لاذ، وكان في جملة الفارِّين عكرمة بي أبي جهل .

خرج عكرمة مِن مكة موطنه الذي نبت به، وبعد أن خضعت للمسلمين، والنبي عليه الصلاة والسلام عفا عما سلف من قريش تجاهه، إلا أن النبي عليه الصلاة والسلام استثنى منهم نفراً سمّاهم بأسمائهم واحداً واحد، وأمر بقتلهم، وإنْ وُجِدوا تحت أستار الكعبة، منهم عكرمة، عفا عن كل أهل قريش غير فلان وفلان، وهؤلاء أمرَ بقتلهم، ولو تعلقوا بأستار الكعبة، فأهدر النبي عليه الصلاة والسلام دمَهم، وقد مَّر معنا من قبلُ قوله تعالى:

(وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ)

(سورة الزمر الآية: 37)

كانت عزَّتُه عليه الصلاة والسلام تقتضي أنْ يعاقب أعداءه، هكذا كانت حكمة النبي صلى الله عليه وسلم، وكان في طليعة هؤلاء النفر الذين أهدر النبيُّ دمَهم، وأمر بقتلهم، ولو تعلّقوا بأستار الكعبة عكرمةُ بن أبي جهل، عداوة ما بعدها عداوة، تذكروا أول الدرس، فقد قلت: هذه القصة لها دلالة كبيرة، لأنّ ألَدَّ أعداء المسلمين، وأشدَّ خصومهم إذا اهتدى إلى الله يصبح أقرب الناس إليهم .

لي صديق حدثني أنه زار بلدًا في أمريكا الشمالية، كندا، وفي مونتريال زار مركزاً إسلامياً، وهناك في أثناء تفقد المركز الإسلامي وهو من ثلاثة طوابق، قال لي: وَجدتُ رجلاً في غرفة في زاوية المسجد يصلي، فأردت أن أصغي إلى قراءته، أدهشني أنه يصلي ويبكي، ويصلي ويدعو وتنهمر دموعه، قال لي: شيء لا يصدق، ركعتان تستغرقان معه ساعتين، بينما التراويح عشرون ركعة تتم في ساعة في مساجدنا، وأنا مصرٌّ على أن أستمع إلى دعائه وابتهاله ، وتهجده وتلاوته للقرآن، وبعد أن انتهى من صلاته، معه فراش صغير اندسّ فيه، ونام على شقه الأيمن، فالمضيف الذي جاء بي إلى هذا المركز أخذته من يده في الطابق الأسفل، وصعدت به إلى الطابق الثالث، وقلت له: أرأيته، قال: نعم، قلت له: مَن هذا؟ قال: هذا من أبناء كندا الأصليين، اهتدى إلى الله عز وجل، وكان يمضي عطلة نهاية الأسبوع على سواحل البحار، وفي النوادي الليلية، ويرتكب هو وزوجته كل الموبقات، فلما دُعِيَ إلى الإسلام، وأناب إلى الله، واصطلح معه نذر أن يمضي يومين من كل أسبوع معتكفًا في هذا المسجد هو وزوجته، قلت له: أين زوجته؟ قال: في قسم النساء، مثله تصلي وتتهجد، ولا يبدو من جسمها شيء حتى إنها تلبس القفازين، وعليها جلباب كامل، ووجهها مستور، قلت: يا سبحان الله **!!** إنسان متفلت

غارق في المعاصي والآثام يصبح من العباد الخلص، وهو من سكان كندا، هذه القصة غريبة جداً .
كان عكرمةُ في طليعة هؤلاء النفر الذين أهدر النبيُّ عليه الصلاة والسلام دمَهم وأمر بقتلهم، لذلك تسلّل متخفياً من مكة، ويَمَّمَ وجهه شطر اليمن، إذ لم يكن له ملاذٌ إلا هناك، وهذا بالتعبير الحديث يُسمَّى اللجوء السياسي، هرب من الجزيرة العربية إلى اليمن في جنوبها .

من هي أم حكيم وكيف أسلمت وماذا طلبت من رسول الله ؟

أيها الأخوة، أم حكيم زوجتُه، فمَن هي أم حكيم؟ زوجته مضت مع هند بنت عتبة إلى منزل رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما هذه الجرأة؟ زوجة أعدى أعداء النبي عليه الصلاة والسلام التي مضغت كبد سيدنا حمزة ذهبت إلى بيت النبي عليه الصلاة و السلام، ومعها عشرة نسوة، ليبايعن النبي عليه الصلاة والسلام، فدخلن عليه، وعنده اثنتان من أزواجه، وابنته فاطمة، ونساء من بني عبد المطلب، تنقبت هندٌ، أيْ سترت وجهها بالنقاب، وقالت:

((يا رسول الله! الحمد لله الذي أظهر الدين الذي اختاره لنفسه، وإني لأسألك أن تَمُسَّنِي رحمتُك بخير، فإني امرأة مؤمنة مصدقة، ثم قالت له: أنا هند بنت عتبة يا رسول الله! فقال عليه الصلاة و السلام: مرحباً بك، -امرأة من ألدِّ أعداء النبي عليه الصلاة والسلام، حرّضت القرشيين كانت في معركة أحد خلف الرجال، ولها أبيات من الشعر لا يليق أن أذكرها لكم في هذا الدرس في تحريض الرجال على قتل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه- قالت: يا رسول الله! واللهِ ما كان على وجه الأرض بيتٌ أحبَّ إليَّ أن يذلّ من بيتك، ولقد أصبحتُ و ما على وجه الأرض بيتٌ أحبَّ إليّ أن يعزّ من بيتك، صريحة، فقال عليه الصلاة والسلام: وزيادة أيضاً، فقامت أم حكيم زوج عكرمة بن أبي جهل فأسلمت، وقالت: يا رسول الله! قد هرب منك عكرمة إلى اليمن خوفاً أن تقتله فأمِّنْه أمَّنك الله، فقال عليه الصلاة والسلام: هو آمن، -فالنبيّ كريم اللهم صلِّ عليه، والكريم هذا شأنه، سريع الرضى، هناك أشخاص لو قبَّلتَ رجله لا يرضى، إذا حقد لم يرض- .

فخرجت من ساعتها في طلبه، ومعها غلام لها رومي، فلما أوغلا في الطريق، راودها الغلام عن نفسها فجعلت تمنّيه، وتماطله حتى قدمت على حيٍّ من العرب، فاستعانتهم عليه فأوثقوه ، وتركوه عندهم، ومضت هي إلى سبيلها حتى أدركت عكرمة عند ساحل البحر في منطقة تهامة ، وهو يفاوض نوتياً، والنوتي هو الملاّح صاحب السفينة، هذا النوتي مسلم، والنوتي يقول له: أخلص حتى أنقلك، فقال عكرمة: وكيف أخلص حتى تنقلني؟ قال: تقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فقال عكرمة: ما هربت إلا منها، هذا النوتي اشترط عليه أن يسلم حتى يأخذه بسفينته، وفيما هو

كذلك أقبلت أم حكيم على عكرمة، وقالت: يا بن عمي، جئتك من عند أفضل الناس، جئتك من عند خير الناس، جئتك من عند أبرِّ الناس، مِن عند محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام، ولقد استأمنتُ لك منه، وأمّنك فلا تهلك نفسك، قال: أنت كلمتِه؟! قالت: نعم ، أنا كلمته، وأمّنك، وما زالت به تؤَمِّنه، وتطمئنه حتى عاد معها، ثم حدثته حديث غلامها الرومي فمرّ به وقتله قبل أن يسلم، ليس لنا علاقة بالأحكام قبل أن يسلم .

وفيما هما في منزل نزلا به في الطريق أراد عكرمة أن يخلوَ بزوجته فأبَت ذلك أشدّ الإباء، وقالت: إني مسلمة، وأنت مشرك، فتملكه العجب، قال: إن أمراً يحول دونك ودون الخلوة بي لأمر عظيم))

فهل للإنسان شيءٌ أقرب من زوجته؟ وكان ذكاؤه شديداً، ما هذا الدين؟ أنت زوجتي، وأنا زوجك، قالت له: إني مسلمة، وأنت مشرك .

إليكم قصة إسلام عكرمة بن أبي جهل ؟

((فلما دنا عكرمة من مكة، قال عليه الصلاة والسلام لأصحابه: سيأتيكم عكرمة بن أبي جهل مؤمنًا مهاجرًا فلا تسبُّوا أباه، فإن سبَّ الميت يؤذي الحي، ولا يبلغ الميت، -قال تعالى:

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

(سورة القلم الآية: 4)

ما هذه الأخلاق السامية؟ ينهى النبيّ عليه الصلاة والسلام أن يسبَّ أصحابُه أبا جهل زعيمَ الشرك والكفر .

أحيانًا قد يلتقي الإنسانُ بأخ يقول له: أبوك لا يصلي، فليس فيه دين، كلام ليس فيه لباقة ، الرسول عليه الصلاة والسلام راعى مشاعر عكرمة في أبيه الكافر المشرك، العدو اللدود الصنديد- .

وما هو إلا قليل حتى وصل عكرمة وزوجه إلى النبيّ عليه الصلاة والسلام، فلما رآه النبي صلى الله عليه وسلم وثب إليه مِن غير رداء فرحًا به، والرداء مثل العباءة، فمِن شدة فرح النبي عليه الصلاة والسلام بإسلامه وثب إليه من غير رداء فرحًا بإسلامه، -لذلك فالنبي عليه الصلاة والسلام أرحمُ الخلق بالخلق، هل عندك إمكانية إذا كان لك عدو لدود نال منك أشدّ النيل، ثم رأيته رجع إلى الله، وأقبل عليه واصطلح معه أن تحترمه كما لو أنه أخوك؟ -

ولما جلس عليه الصلاة والسلام وقف عكرمة بين يديه، وقال: يا محمد عليه الصلاة والسلام، إنّ أم حكيم أخبرتني أنك أمّنتي، فقال عليه الصلاة والسلام: صَدَقَتْ، فأنت آمن، قال عكرمة: إلامَ تدعُ يا محمد؟ قال: أدعوك إلى أن تشهد أنه لا إله إلا الله، وأني عبد الله ورسوله، وأن تقيم الصلاة، وأن تؤتي الزكاة، حتى عدَّ أركان الإسلام كلّها، فقال عكرمة: والله يا رسول الله ما دعوتَ إلا إلى حق، وما أمرتَ

إلا بخير، ثم أردف يقول: يا رسول الله، قد كنتَ فينا واللهِ قبلَ أن تدعوَ إلى ما دعوتَ إليه، وأنتَ أصدقُنا حديثاً، وأبَرُّنا براً، ثم بسط يده، وقال: إني أشهد أنه لا إله إلا الله، وأشهد أنك عبده ورسوله، ثم قال: يا رسول الله، علِّمني خير شيء أقوله، فقال عليه الصلاة والسلام: قل أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، فقال عكرمة: ثم ماذا؟ فقال عليه الصلاة والسلام: تقول أُشْهد الله، وأُشْهد مَن حضر أني مسلم مجاهد مهاجر فقال عكرمة ذلك، عند هذا قال عليه الصلاة والسلام: اليوم لا تسألني شيئاً أعطيه أحداً إلا أعطيك إياه .

-وأنتم كمؤمنين ينبغي أن تفرحوا أشدّ الفرح إذا اصطلح أحد خصومكم مع الله عز وجل، ويجب أن ترحِّبوا به، وأن تقدّموا له كل طلباته، وهذه فرصة نادرة- اسمعوا ما قاله عكرمة للنبي عليه الصلاة والسلام، قال:

((يا رسول الله، إني أسألك أن تستغفر لي كل عداوة عاديتك، أنا كنت عدُوًّا لدودًا لك، أو كل مقام لقيتُك فيه، وكل كلام قلتُه في وجهك، أو في غيبتك، فاستغفر لي الله عز وجل، فقال عليه الصلاة والسلام: اللهم اغفر له كل عداوة عادانيها، وكل مسيرٍ سار به إلى موضع يريد به إطفاء نورك، واغفر له ما نال من عرضي في وجهي، أو أنا غائب عنه، فتهلّل وجه عكرمة بشْراً، وقال: أمَا واللِه يا رسول الله، لا أدع نفقَة كنتُ أنفقتها في الصَّدِّ عن سبيل الله إلا أنفقتُ ضعفَها في سبيل الله، ولا قتالاً قاتلتُهُ صداً عن سبيل الله إلا قاتلتُ ضعفه في سبيل الله، -هكذا الاصطلاح مع الله، أيام الجاهلية سيجعل مكانها أيام جهاد وصبر وعطاء وخدمة ودعوة وطلب علم، وأيام الإساءة حل محلَّها أيامُ الإحسان، وأيامُ الجفاء حلَّ محلها أيامُ الود- ومنذ ذلك اليوم انضمَّ عكرمةُ إلى موكب الدعوة فارسًا باسلاً في ساحات القتال، وعابدًا قوّامًا قرّاءً لكتاب الله في المساجد، فقد كان يضع المصحف على وجهه، ويقول: كتاب ربي، كلام ربي، وهو يبكي من خشية ربه))

ما هذه النقلة أيها الأخوة؟ لا أعتقد بوجود قصةِ إنسان انتقل هذه النقلة الحادة من قصة عكرمة إلى درجة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أهدر دمه، وأمر بقتله، ولو تعلق بأستار الكعبة، ثمّ إنه أصبح عابداً قارئاً مصلياً مجتهداً، وعاهد نفسه كل على أنّ كل نفقة أنفقها في الصدِّ عن سبيل الله سينفق ضعفها في سبيل الله، وكل قتال قاتل فيه بالصد عن سبيل الله سيقاتل عنه ضعفين في سبيل الله .

هل وفى عكرمة بوعده وفي أية معركة صدر هذا البر وكيف كان موقفه ؟

أيها الأخوة، الآن جاء وقتُ البِّرِّ بقسَمِه، في معركة اليرموك أقبل عكرمة على القتال إقبال الظامئ على الماء البارد في اليوم الحارِّ، ولما اشتد القتالُ على المسلمين في أحد المواقف الصعبة نزل عن جواده، وكسر غمد سيفه، وأوغل في صفوف الروم، فبادر إليه سيدنا خالد، وقال :

((يا عكرمة لا تفعل، فإنَّ قتْلَك سيكون شديداً على المسلمين، فبماذا أجابه؟ قال له: إليك عني يا خالد، لقد كان لك مع رسول الله سابقة، أمّا أنا وأبي فقد كنا من أشد الناس على النبي صلى الله عليه وسلم عداوةً، فدعني أكَفِّر عمَّا سلف مني .

أنت لك مواقف، وقد أسلمتَ في وقت مناسب، وقاتلتَ، وأحرزتَ النصر، أمّا أنا فقد قاتلتُ رسول الله في مواقف كثيرة أوَ أفرُّ من الروم اليومَ، إنّ هذا لن يكون أبداً، ثم نادى في المسلمين: من يبايع على الموت؟ فبايعه عمُّه الحارث بن هشام، وضرار بن الأزور في أربعمئة من المسلمين، فقاتلوا دون فسطاط خالد بن الوليد أشد القتال، وذادوا عنه أكرم الذود، ولما انجلت معركةُ اليرموك عن ذلك النصر المؤزر للمسلمين، كان يتمدّد على أرض المعركة ثلاثةُ مجاهدين أثخنتهم الجراح، هم الحارث بن هشام، وعياش بن أبي ربيعة، وعكرمة بن أبي جهل، أمّا عكرمة فقد استشهد .

-أرأيتم إلى شوقه إلى الاستشهاد، أرأيتم إلى رغبته الجامحة في التكفير عن سيئاته، فإذا كان من أخوانا المؤمنين مَن له جاهلية ألا ينبغي أن يبذل في الطاعات ضعفَ الوقت الذي بذله في المعاصي؟ ألا ينبغي أن يعاهد الله على أنْ يكون قوله وعمله وطاقته في سبيل الله؟ فهذا عكرمة، فلا تيئس من أعداء المسلمين .

غارودي زعيم حزب في فرنسا ينكر وجود الله عز وجل، وهو اليوم من المسلمين، ويدعو إلى الإسلام، وله مؤلفات، فلا تيأس من أعداء المسلمين، لكن كن موَّفقاً في حسن مخاطبتك إياهم، فمهمة الداعية توضيحُ الحق وتبيينُه، لأن هذا العدو إنسانٌ له نفس وفكر وله فطرة وطبيعة ، وسيدنا عكرمة كان عدُوًّا لدودًا مهدور الدم، فإذا به من محبِّي رسول الله، والحقيقة ما عرف التاريخ أبطالاً عاشوا قِيَماً مثل أصحاب رسول الله- .

الحارث دعا بماء ليشربه، فلما قُدِّم له نظر إليه عكرمة، وهو جريح ينازع سكرات الموت، وهذا لا يعرفه إلا الجرحى، فالجريح يشعر بعطش لا يقابل ويتمنى كأس ماء، فدعا الحارث بماء ليشربه، فلما قُدِّم له نظر إليه عكرمة، فقال: ادفعوه إليه، فلما قرّبوه إليه نظر إليه عياش، فقال: ادفعوه إليه، فلما دنا من عياش وجدوه قد قضى نحبه، فلما عادوا إلى صاحبيه وجدوهما قد قضيا نحبهما، لقد آثروا بعضهم، وهم على أرض المعركة في النزع الأخير))

رضي الله عنهم أجمعين، وسقاهم من حوض الكوثر شربةً لا يظمؤون بعدها أبداً .

مغزى القصة :

أيها الأخوة، المغزى من هذه القصة أنه لو كان لك عدو لدود فكن معه محسناً، وخاطِبْه بالمنطق، وكن مثالياً معه لعل الله سبحانه وتعالى يكرمك بإسلامه وهدايته، فإذا اهتدى فهو في صحيفتك، ولا تنسوا أن سيدنا عمر لما دخل عمير بن وهب على النبي، قال: دخل عمير والخنزير أَحَبُّ إليَّ منه، وخرج من عند رسول الله وهو أحبُّ إليّ من بعض أبنائي .

ليس في الإسلام عداوة، هناك عداوة مؤقتة، أنت تبغض عمله، ولا تبغضه، هو عبد لله تكره عمله فقط، فأَحسِنْ إليه عسى الله أن يهديه ويجزيك أجره .

والحمد لله رب العالمين

السيرة - رجال حول الرسول - الدرس (28-50) : سيدنا عمير بن سعد الأنصاري
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 26-04-1993

بسم الله الرحمن الرحيم

كيف نشأ عمير بن سعد الأنصاري ؟

أيها الأخوة الأكارم، مع بداية الدرس الثامن والعشرين من دروس صحابة رسول الله رضوان الله عليهم أجمعين، وصحابيّ اليوم سيدنا عمير بن سعد، وقصته وقعت يوم كان في السنة العاشرة من عمره، انظروا إلى عظمة الإسلام شيخ في الثمانين يجاهد في سبيل الله ليصل إلى القسطنطينية، ويدفن هناك، وطفل في العاشرة من عمره، كأن صحابة رسول الله رضوان الله عليهم يمثّلون كل النماذج البشرية، ويمثّلون كل الأعمار، وكل الأحوال، وكل الأطوار، وكل البيئات، وكل المستويات، وكل القدرات والإمكانات، والإسلام يجعل من الإنسان بطلاً ولو كان صغيراً، ويجعل من الشيخ بطلاً ولو كان متقدماً في السن .

الغلام الصغير عمير بن سعد الأنصاري تجرّع كأس اليُتْم والفاقة منذ نعومة أظفاره، فقد مضى أبوه إلى ربه، ولم يترك له مالاً ولا معيلاً، لكن أمه ما لبثت أن تزوجت رجلاً ثريًّا من أثرياء الأوس في المدينة يدعى الجلاّس بن سويد، فكفل ابنها عميراً، ولقي عمير مِن برِّ الجلاس وحسن رعايته وجميل عطفه ما جعله ينسى أنه يتيم .

أحب عمير الجلاس حبَّ الابن لأبيه كما أولع الجلاس بعمير ولع الوالد بولده، كأن عمير ابن الجلاس، وكأن الجلاس والد عمير، وكان كلما نما عمير وشب يزداد الجلاس له حباً وبه إعجاباً كما كان يرى به أمارات الفطنة والنجابة التي تبدو في كل عمل من أعماله .

يا أيها الأخوة الأكارم، إذا كان لأحدنا طفل صغير فليتأمّل منه خيرًا إن شاء الله، فهذا عمير في العاشرة من عمره كان بطلاً، وسوف ترون من قصته العجب العجاب، والذي عنده طفل عليه أن يعتني به، وعليه أن يرعاه، وأن يعلمه، عليه أن يؤدِّبه، فعليه أن يربِّيَه على قراءة القرآن ، وعليه أن ينشئه على حب النبي العدنان عليه أتم الصلاة والسلام .

متى أسلم عمير ، وهل أسعد إسلامه والدته ؟

أسلم الفتى عمير، وبايع النبيَّ عليه الصلاة والسلام وهو صغير لم يجاوز العاشرة من عمره، فوجد الإيمان في قلبه الغض مكاناً خالياً فتمكن منه .

أيها الأخوة الأكارم، كلما بكّرتم بالإيمان كلما تمكّن الإيمان في قلوبكم، وكلما كانت نشأتكم منذ البداية على طاعة الله وطاعة رسوله وحب القرآن وحبِّ أهل الإيمان، كلما نما الإيمان وترعرع حينما تكبرون، مَن لم تكن له بداية محرقة، لم تكن له نهاية مشرقة، ريح الجنة في الشباب، هذه القصة عجيبة جداً لطفل في العاشرة مِن عمره .

مرة قلت لكم: دخل وفدٌ من الحجازيين على عمر بن عبد العزيز فانزعج الخليفة منهم، لأن فيهم غلاماً صغيراً، وكأن هذا الغلام انتقص من قدره، والأغرب من ذلك أن هذا الغلام وقف ليتكلم، فقال له الخليفة عمر:

((اجلس، وليقمْ مَن هو أكبر منك سناً، فقال: أصلح الله الأمير، المرء بأصغريه قلبه ولسانه، فإذا وهب اللهُ العبدَ لساناً لافظاً، وقلباً حافظاً فقد استحق الكلام، ولو أن الأمر كما تقول لكان في الأمة مَن هو أحقُّ منك بهذا المجلس))

الغلام الثاني دخل على أحد الخلفاء الكبار مِن بني أمية، هشام بن عبد الملك، فلما رأى طفلاً صغيراً بين الوفد عاتب الحاجب، وقال:

((ما شاء أحدٌ أن يدخل عليَّ إلاّ دخل، حتى الأطفال، فقال هذا الغلام الصغير: أيها الأمير، إنّ دخولي عليك لن ينقص من قدرك، ولكنه شرَّفني، أصابتنا سَنَة أذابت الشحم، وسنة أكلت اللحم، وسنة دقَّت العظم، ومعكم فضولُ مالٍ، فإن كانت هذه الأموال لكم فتصدقوا بها علينا، وإن كانت لله فعلام تحبسوها عن عباده، فقال الخليفة: واللهِ ما ترك هذا الغلام لنا في واحدة عذرًا))

ومِن البطولات الغلمان، يُذكر أنّ عبد الله بن الزبير لما مرّ به سيدنا عمر، وكان مع جمع غفير من غلمان المدينة يلعبون، وكان عمرُ ذا هيبة عظيمة، فلما رأوه فرّوا وولّوا هاربين إلا عبد الله بن الزبير، فلَفَت نظرَ عمر بن الخطاب وقوفُه وأدبهُ، فقال:

((يا غلام، لِمّ لمْ تهرب مع من هرب؟ قال: أيها الأمير، لستَ ظالماً فأخشى ظلمك، ولستُ مذنباً فأخشى عقابك، والطريقُ يسعني ويسعك))

ما هذا الإسلام الرفيع؟ ما هذا الأدب؟ وما هذه الفصاحة؟ بل ما هذه الجرأة؟ .

تفتح قلب عمير للإيمان، وتمكن الإيمان من قلبه، وألفى الإسلامُ في نفسه الصافية الشفافة تربة خصبة فتغلغل فيها، فإذا نشأ الإنسان في طاعة الله، أو أسْلم على كِبَرٍ فلا بأس، جزاه الله الخير، لكن الكبير في

السن لا يعلم كثيراً مِن دينه، قال لي أحدُهم وهو يُعَبِّر عن تقدمه في السن: أنا الدولاب عندي ماسح، والعداد قالب، لا يكاد يعلم ما حوله، تكلمه عشر ساعات فيبقى محدودا، ومَنْ شبَّ على شيء شاب عليه، ومَن شاب على شيء مات عليه، ومَن مات على شيء حُشِرَ عليه، ومَن بلغ الأربعين ولم يغلب خيرُه شَرَّه فليتجهز إلى النار، فأروع ما في الحياة أن ترى شاباً ناشئاً في طاعة الله، إن الله ليباهي الملائكة بالشاب المؤمن، فيقول:

((انظروا عبدي ترك شهوته من أجلي))

وَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَيَعْجَبُ مِنْ الشَّابِّ لَيْسَتْ لَهُ صَبْوَةٌ))

[أخرجه أحمد عن عقبة بن عامر في مسنده]

همّه فهمُ القرآن وحفظه، همه حضور مجالس العلم، همه صلاة الليل، همه فهم العلم، هذا الشاب المؤمن يساوي وزنه ذهباً كما يقولون، إنه شيء ثمين جداً .

أيها الأخوة الأكارم، أقول هذا لآباء الشباب المؤمنين: واللهِ أيها الأب، لو أنك تملك ملء الأرض ذهباً فإنّ هذا لا يقاس بابنٍ لك نشأ في طاعة الله، لأن هذا الابن ثروة حقًّا، وكل ثروتك تتركها في الدنيا، لكن هذا الابن المؤمن ثروة دائمة دنيا وأخرى، هذا الابن المؤمن الذي ينفع الناس مِن بعدك، هذا الابن المؤمن الذي يعلم الناس مِن بعدك، هذا الابن المؤمن الذي يعد استمراراً لك من بعدك، وهو الثروة الكبرى، لذلك فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنَّ مِنْ أَطْيَبِ مَا أَكَلَ الرَّجُلُ مِنْ كَسْبِهِ وَوَلَدُهُ مِنْ كَسْبِهِ))

[أخرجه أبو داود في سننه عن عائشة]

كانت أمُّه كلما رأته ذاهباً إلى المسجد أو آيباً منه تغمرها الفرحة، ويملأ قلبها السرور، وإذا كنتُ أعجب لشيء لا أعجب إلا مِن أبٍ ينهى ابنه عن الصلاة في المساجد، ولا أعجب حائرًا إلاّ من أبٍ لا يريد ابنه أن يسلك طريق الإيمان، فيضغط عليه بكل الوسائل ليصرفه عن طريق الحق، إن أخبره ابنه أنه كان مع رفاق السوء وفي دور الملاهي فلا يتكلم كلمة راشدة، ولا يعترض، أمّا إذا بلغ الأب أن الابن كان في مجلس علم أو في مسجد يقيم الدنيا ولا يقعدها، فما أشقى هذا الأب الذي يمنع ابنه عن سلوك أهل الإيمان؟ .

إليكم التجربة القاسية التي تعرض لها عمير ؟

سارت حياة الغلام عمير بن سعد على هذا النحو هانئة وادعة، لا يعكّر صفوها معكر، ولا يكدِّر هناءتها مكدِّر حتى شاء الله، وها نحن الآن دخلنا في العقدة، أول قسم في فنّ القصة اسمه البداية،

والبداية تنتهي حينما تستقرّ الأحداث، أما إذا تأزّمت وتداخلتْ ونشأت المشكلة فهذه هي العقدة، حتى شاء الله أن يُعرِّض الغلام اليافع لتجربة من أشدّ التجارب عنفاً، وأعظمِها قساوةً ، وأن يمتحنه الله امتحاناً قلّما مرّ بمثله فتىً في سنه، في السنة التاسعة للهجرة أعلن النبي صلى الله عليه وسلم عزمه على غزو الروم في تبوك، وأمَر المسلمِين بأن يستعدّوا، ويتجهزوا لذلك، هذه من أصعب الغزوات لبعد المسافة، والوقت كان في أشد أشهر الصيف حرارةً، وكان عليه الصلاة والسلام إذا أراد أن يغزو غزوة لم يصرِّح بها، وأوهم أنه يريد جهةً غير الجهة التي يقصد إليها، لأن الحرب خدعة، إلا في غزوة تبوك فإنه بيَّنها للناس لِبُعْدِ الشُّقَّة، وعِظَم المشَقَّة، وقوة العدو، ليكون الناس على بيّنة من أمرهم، وليأخذوا للأمر أهبتَه، ويعدّو له عدّته، وعلى الرغم من أن الصيف كان قد دخل، وأنّ الحرّ قد اشتدّ، والثمار قد أينعت، والظلال قد طابت، والنفوس قد ركنت إلى التراخي والتكاسل، على الرغم من كل ذلك فقد لبّى المسلمون دعوةَ النبي عليه الصلاة و السلام، وأخذوا يتجهزون، ويستعدّون، فالمؤمن الصادق أداؤه للواجبات الدينية ليس على مزاجه، ولا حسبَ فراغه، ليس له خِيار .

غير أن طائفة من المنافقين أخذوا يثبِّطون العزائم، ويوهنون الهمم، ويثيرون الشكوك، و يغمزون الرسول صلوات الله عليه، ويطلقون في مجالسهم الخاصة من الكلمات ما يدمغهم بالكفر دمغاً دائماً، فالمنافق دائمًا يشكّك، ويقول: أنا لا أقبض فلانًا، دائماً يطعن، دائماً يثبِّط العزائم، دائماً يبثُّ الشكوك، ويثير الفتنَ، ويشقُّ الصفوفَ، ويوهن العزائمَ، هذه مهمة المنافق، إنه طابور خامس ، يضعف معنويات المؤمنين، ويضخم مِن قوة أعدائهم، ويحلُّ بينهم الشقاق بين المؤمنين، ويضعف عزائمهم، ويطعن في نواياهم .

وفي يوم من هذه الأيام التي سبقتْ رحيلَ الجيش عاد الغلامُ عمير بن سعد إلى بيته بعد أداء الصلاة في المسجد، وقد امتلأت نفسُه بطائفة مشرقة من صور بذل المؤمنين وتضحيتهم، لقد رآها بعينه، وسمعها بأذنه، رأى نساء المهاجرين والأنصار يُقْبِلن على رسول الله، ينزعن حليهن ، ويلقينها بين يدي النبي عليه الصلاة والسلام، وأبصر الغلامُ عميرُ بعين رأسه عثمانَ بنَ عفان يأتي بجرابٍ فيه ألف دينار ذهباً، وقدَّمه للنبي عليه الصلاة والسلام .

مَن الذي قال لك: قوةُ المال أقلُّ من قوة العلم؟ المال قوةٌ كبيرة في الحياة، والعلم قوة كبيرة، وإذا تعاون المال والعلم تحقّق المستحيل، أُناس آتاهم الله علماً، وأناسٌ آتاهم الله مالاً، أناس آتاهم الله وجاهةً وقوةً، هذه القُوى الثلاث تشكّل القوة الكبرى في المجتمع، لذلك فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ))

[أخرجه مسلم في الصحيح عن أبي هريرة]

لا بد من التفوق، وإنّ علو الهمة من الإيمان، لأنك إذا كنت كذلك كنت عوناً للمسلمين، وكنت قوةً لمجموع المسلمين .

وحملَ عبدُ الرحمن بن عوف على عاتقه مئتي أوقية من الذهب، وألقاها بين يدي النبي الكريم، هذا ما جاد به هؤلاء الأغنياء، أمّا الفقراء فصحابي جليل حمل على كتفه فراشه الذي لا يملك غيره، وَعَرَضَه للبيع، ليشتري بثمنه سيفاً يقاتل به في سبيل الله، فالكبير والصغير، والرجل والمرأة، والغني والفقير، كل هؤلاء الصحابة الكرام بذلوا لهذه المعركة الحاسمة الشاقة والطويلة.

هذا الطفل الصغير عمير بن سعد استعاد هذه الصورة الفذة الرائعة، لكنه عجب أشَدّ العجب لتباطؤ الجلاس زوج أمه عن الاستعداد للرحيل مع الرسول صلى الله عليه وسلم، وعجِب لتأخره عن البذل على الرغم من قدرته ويساره، وحينما عرض عمير بن سعد على عمه زوج أمه هذه الصور الفذّة، وهذه البطولات الرائعة، وهذا البذل السخي، وهذه التضحية، أراد أن يستثير حماسة عمّه، فقصَّ عليه أخبار ما سمع، وأخبار ما رأى، وخاصة خبر أولئك النفر من المؤمنين الذين قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم وسألوه في لوعةٍ أن يضمّهم إلى الجيش الغازي في سبيل الله فردَّهم النبي عليه الصلاة والسلام، لأنه لم يجد عنده من الركائب ما يحملهم عليه، فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حَزَناً ألا يجدوا ما يبلغهم أمنيتَهم في الجهاد .

لكن الجلاس زوج أم عمير بن سعد الذي أحبّه حبًّا جمًّا ما كاد يسمع من عمير ما سمع حتى انطلقت من فمه كلمة أطارت صواب الفتى المؤمن، قال الجلاس:

((إن كان محمّدٌ صادقاً فيما يدّعيه من النبوة فنحن شرٌّ من الحمير، -ما هذه الكلمة؟ هذه كلمة الكفر بعينها- فدهش عمير مما سمع، ولم يكن يظن أن رجلاً له عقل عمّه وسنّه تندُّ من فمه مثل هذه الكلمة، التي تُخرج صاحبَها من الإيمان دفعة واحدة، وتدخله في الكفر من أوسع أبوابه))

هنا المشكلة، غلام في سن العاشرة حُمِّل ما لا يطيق فإنْ سكت على عمّه، وتستر عليه فقد خان الله ورسوله، لأن النبي يحسبه مؤمناً، بينما هو منافق وليس مؤمناً، بل كافرٌ محسوب على النبي أنه من أصحابه، وإنْ أذاع هذا الكلام كان عقوقاً لعمّه، وهو الذي أنقذه من الفقر واليتم ، وأكرمه، وأطعمه، وألبسه، ورعاه، وقدّم له كل ما يحتاج، إنه موقف عسير وخطير وشديد، وإنه لصراع عنيف، وكان على الفتى أنْ يختار بين أمرين، أحلاهما مُرٌّ، إن أبلغ النبي فقد عقَّ عمّه، وإن سكت عنه فقد خان النبي

ما هو موقف عمير من الجلاس حينما سمع منه تلك الكلمة، وهل أنكر الجلاس كلام عمير أمام رسول الله وكيف تبينت الحقيقة ؟

أيها الأخوة، التفت عمير بن سعد إلى الجلاس، وقال:

((واللهِ يا عمّ ما كان على ظهر الأرض أحدٌ بعد محمد بن عبد الله أحبّ إليّ منك، وقد كنتَ آثرَ الناس عندي، وأجلَّهم يداً عليّ، ولقد قلتَ مقالة: إنْ ذكرتُها فضحتُك، وإنْ أخفيتُها خنتُ أمانتي، وأهلكت نفسي وديني، وقد عزمتُ على أن أمضي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبره بما قلت، فكن على بيِّنة من أمرك، وتصرف الفتى هذا لم يكن من خلف ظهر علمه .

-طبعاً العم كبير وثري، ومن وجهاء المدينة، والطفل عمره عشر سنوات، فهل يُعقل أنْ يقبل التحدِّي؟- فمضى الفتى عمير بن سعد إلى المسجد، وأخبر النبي عليه الصلاة والسلام بما سمع من عمه الجلاس بن سويد، فاستبقاه النبي عليه الصلاة والسلام عنده، وأرسل أحدَ أصحابه ليدعو له الجلاس، وما هو إلا وقت قليل حتى جاء الجلاس فحيّا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

(سورة المجادلة الآية: 8)

وجلس بين يدي النبي، وقال عليه الصلاة والسلام: يا جلاس، مقالةٌ سمعها منك عمير بن سعد، وذكر له ما قاله، فقال: يا رسول الله، كذب عليَّ وافترى، فما تفوهت بشيء من ذلك، فكيف صار وضع هذا الطفل الصغير؟ وأخذ الصحابة ينقّلون أبصارهم بين الجلاس وفتاه عمير بن سعد، كأنهم يريدون أن يقرؤوا على صفحتيْ وجوههما ما تكنُّه صدورهما، وجعلوا يتهامسون، فقال واحد من الذين في قلوبهم مرض: فتى عاق، أبَى إلا أن يسيء لمَن أحسن إليه، وقال آخرون: بل إنه فتىً نشأ في طاعة الله، وإن قسمات وجهه لتنطق بالصدق، التفت النبي عليه الصلاة والسلام إلى عمير فرأى وجهه محتقنًا بالدم، والدموع تنحدر من عينيه، وتتساقط على خديه وصدره، وهو يقول: اللهم أنزل على نبيك بيانَ ما تكلمتُ فيه .

هذا الطفل الصغير يدعو الله عز وجل أن ينزل وحياً يصدِّق مقالته، فانبرى الجلاس، وقال: إنّ ما ذكرته لك يا رسول الله هو الحق، وإن شئتَ تحالفنا، نقسم بين يديك، وإني أحلف بالله أني ما قلت شيئاً مما نقله إليك عمير، فما إن انتهى من حلفه، وأخذت عيونُ الناس تنتقل عنه إلى عمير بن سعد حتى غشيت رسول الله صلوات الله وسلامه عليه السكينةُ، فعرف أصحابُه أنه الوحي، نزل الوحي مباشرةً، فلزموا أماكنهم، وسكنت جوارحهم، ولاذوا بالصمت، وتعلقت أبصارهم بالنبي عليه الصلاة والسلام،

وهنا ظهر الخوف والوجل على الجلاس، وبدا التلهُّفُ والتشوُّفُ على عمير، وظل الجميع كذلك حتى سُرِّيَ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتلا قوله جل جلاله:

(يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ)

(سورة التوبة الآية: 74)

فارتعد الجلاس مِن هول ما سمع، وكاد ينعقد لسانه من الجزع، ثم التفت إلى النبي عليه الصلاة والسلام وقال: بل أتوب يا رسول الله، بل أتوب، صدق عمير يا رسول الله، وكنت أنا من الكاذبين ، اسأل اللهَ أنْ يقبلَ توبتي، جعلت فداك يا رسول الله، وهنا توجّه النبيُّ عليه الصلاة والسلام إلى الفتى عمير بن سعد، فإذا دموعُ الفرح تبلّل وجهه المشرق بالإيمان، فمدَّ النبيُّ عليه الصلاة والسلام يدَه الشريفة إلى أذنه، وأمسكها برفق، وقال: وفّتْ أذنُك يا غلام ما سمعت، وصدَّقك ربك ، وعاد الجلاس على إثر هذه الحادثة إلى حظيرة الإسلام، وحسُن إسلامُه .

-أمّا أروع ما في القصة- وقد عرف الصحابة صلاحَ حاله ممَّا كان يغدقه على عمير من بر، فعوضاً أنْ يطردَ عميرًا ضاعف له إكرامه، وأغدق عليه من البر الشيء الكثير، وكان الجلاس يقول كلما ذكر عميرًا: جزاه الله عني خيراً، فقد أنقذني من الكفر، وأعتق رقبتي من النار))

هذه صورة من حياة عمير بن سعد، وكانت سنه لا تزيد عن عشر سنوات، فما قولكم أليس الإسلام عظيمًا يصنع الأبطال وهم صغار؟ لقد وقف موقفاً رائعاً، وكان فيه مخلصاً .

إليكم خطبة عمير لأهل حمص يوم تولى شؤون أهلها :

حينما كبر هذا الغلام وصار في سن الرشد أراد سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يعيِّن والياً على حمص، نثر كنانته، وعجم عيدانها عوداً عوداً، فلم يجد خيراً من عمير بن سعد، رأى في هذا الصحابي الجليل أفضل إنسان يتولى أمر حمص، وصل عمير إلى حمص، ودعا الناس للصلاة في المسجد، ولما قُضِيَت الصلاة خطبَ الناسَ، وحمد الله، وأثنى عليه، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم، وقال:

((أيها الناس، إن الإسلام حصن منيع، وباب وثيق، وحصنُ الإسلام العدلُ، وبابُه الحقُّ، فإذا دُكَّ الحصنُ، وحُطِّم البابُ استُبيحَ حِمَى هذا الدين، وإنّ الإسلام ما يزال منيعاً ما اشتد السلطانُ، وليست شدة السلطان ضرباً بالسوط، ولا قتلاً بالسيف، ولكن قضاءً بالعدل، وأخذاً بالحق))

ما هذه الكلمات ؟

لماذا أرسل عمر لعمير كتاباً وما هو الاختبار الذي وضعه فيه وماذا رأى من عمير ؟

قضى عمير بن سعد حولاً كاملاً بحمص، لم يكتب خلاله لأمير المؤمنين كتاباً، ولم يبعث إلى بيت مال المسلمين من الفيء درهماً و لا ديناراً، فأخذت الشكوك تساورُ عمرَ بن الخطاب، إذ كان شديد الخشية على ولاته من فتنة الإمارة فلا معصوم عنده غير النبي عليه الصلاة والسلام، قال لكاتبه:

((اكتب إلى عمير بن سعد، وقل له: إذا جاءك كتاب أمير المؤمنين فدع حمص، وأقبل عليه، واحمل معك ما جَبَيْتَ من فيء المسلمين، تَلَقَّى عميرٌ الكتاب، فأخذ جراب زاده، وحمل على عاتقه قصعته ووعاء وضوئه، وأمسك بيده حربته، وخلّف حمص وإمارتها وراءه، وانطلق يحثّ الخطى مشياً على قدميه إلى المدينة، فما كاد يبلغ عمير المدينة حتى كان قد شحب لونه، وهزل جسمه، وطال شعره، ظهرت عليه وعثاءُ السفر، دخل عميرٌ على عمر رضي الله عنه فدهش الفاروق من حالته، وقال: ما بك يا عمير؟ قال: ما بي من شيء، فأنا صحيح معافى بحمد الله، أحمل معي الدنيا كلها، وأجُرُّها من قرنيها، قال: ما معك من الدنيا؟ قال: معي جرابي وضعت فيه زادي، ومعي قصعتي آكل فيها، وأغسل عليها رأسي وثيابي، ومعي قربة لوضوئي وشرابي، ثم إن الدنيا كلها يا أمير المؤمنين تَبَعٌ لمتاعي، وفضلة لا حاجة لي، ولا لأحد غيري بها .

فقال عمر: وجئت ماشياً؟ قال: نعم، قال: أما أعطِيتَ من الإمارة ولا دابة تركبها، هم لم يعطوني، وأنا لم أطلب منهم، وأين ما أتيت به لبيت المال؟ قال: لمْ آتِ بشيء، ولِمَ؟ قال: لمّا وصلتُ حمص جمعتُ صلحائها، وولّيتُهم جمعَ فيئهم، فكانوا كلما جمعوا شيئاً استشرتُهم في أمره ، فوضعته في مواضعه، وأنفقته على المستحقين منهم، فقال عمر لكاتبه: جدِّد عهداً لعمير على ولاية حمص، فقال عمير: هيهات فإن ذلك شيء لا أريده، ولن أعمل لك، ولا لأحد من بعدك يا أمير المؤمنين، ثم استأذنه بالذهاب إلى قرية من ضواحي المدينة يقيم فيها مع أهله، فأذِنَ له، وبقي عمرُ يشكُّ فيه، فلم يمضِ على ذهاب عمير إلى قريته وقت طويل حتى أراد عمرُ أن يختبر صاحبه، وأن يستوثق من أمره، فقال لأحد ثقاته يُدعى الحارث: انطلق يا حارث إلى عمير بن سعد، وانزل به كأنك ضيف، فإن رأيتَ عليه آثارَ نعمة فعُدْ كما أتيت، وإنْ وجدتَ حالاً شديداً فأعطِه هذه الدنانير، وناوله صُرّة فيها مئة دينار، فانطلق الحارث حتى بلغ قرية عمير، وسأل عنه فدُلّ عليه، ولما لقيه قال: السلام عليك ورحمة الله، قال: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، مِن أين قدمت؟ قال: من المدينة، قال: كيف تركت المسلمين؟ قال: بخير، قال: كيف أمير المؤمنين؟ قال: صحيح صالح، قال: أليس يقيم الحدود؟ قال: بلى، قال: اللهم أعِن عمرَ فإني لا أعلمه إلا شديد الحب لك .

أقام الحارث في ضيافة عمير ثلاث ليال، كان يخرج له كل ليلة بقرص من الشعير يقدمه له، فلما كان

اليوم الثالث قال للحارث رجلٌ من القوم: لقد أجهدتَ عميرًا وأهله، فليس لهم إلا هذا الرغيف، وقد أضرّ بهم الجوع والجهد، فإن رأيتَ أن تتحّول فتحوّلْ إليَّ، عند ذلك أخرج الحارث الدنانير، ودفعها إلى عمير، فقال عمير: ما هذه؟ قال: دفع بها إليك أمير المؤمنين، قال: رُدَّها إليه، واقرأ عليه السلام، وقل له: لا حاجة لعمير بها، فصاحت امرأته مثل كل النساء، خذها يا عمير، فإن احتجتَ إليها أنفقتها، وإلا وضعتها في مواضعها، فالمحتاجون هنا كثيرون، فلما سمع الحارث قولها ألقى الدنانير بين يدي عمير وانصرف، فأخذها عمير، وجعلها في صرر صغيرة، ولم يبت ليلته تلك إلا بعد أن وزّعها بين ذوي الحاجات، وخصّ منهم أبناء الشهداء، وعاد الحارثُ إلى المدينة، وقال له عمر: ما رأيت يا حارث؟ قال: حالاً شديدة يا أمير المؤمنين قال: أدفعتَ إليه الدنانير؟ قال: نعم، قال: وما صنع بها؟ قال الحارث: لا أدري، وما أظنه يبقي لنفسه منها درهماً واحداً، فكتب الفاروق إلى عمير، يقول له: إذا جاءك كتابي هذا فلا تضعه من يدك حتى تقبل عليّ، وتوجَّهَ عمير إلى المدينة، ودخل على عمر رضي الله عليه، فرحّب به، وأدنى مجلسه، ثم قال له: ما صنعتَ بالدنانير يا عمير؟ قال: وما عليك منها بعد أن خرجتَ لي عنها؟ قال: عزمتُ عليك أن تخبرني بما صنعت بها؟ فقال: ادَّخرتها لنفسي لأنتفع بها في يومٍ لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، فدمعت عينا عمر، وقال: أشهد أنك من الذين يؤثرون على أنفسهم، ولو كانت بهم خصاصة، فالآية انطبقت عليه، ثم أمر له بوسق من طعام وثوبين، فقال: أما الطعام فلا حاجة لنا به يا أمير المؤمنين، فقد تركت عند أهلي صاعين من شعير، وإلى أن نأكلهما يكون الله عز وجل قد جاء بالرزق، وأما الثوبان فآخذهما لأم فلان، -يعني زوجته- فقد بلي ثوبها، وكادت تعرى))

أرأيتم مثل هذا الزهد؟ أرأيتم مثل هذه العفة؟ أرأيتم مثل هذا الورع؟ هذا عمير بن سعد يوم كان صغيراً، وهذا عمير بن سعد يوم صار كبيراً ووالياً، وتعفّف عن كل شيء يناله من هذه الإمارة .

هل حزن الفاروق على موت عمير ولماذا ؟

أيها الأخوة، جاءته المنية رضي الله عنه وبلغ الفاروقَ نعيُه، ووشح الحزنُ وجهَه، واعتصر الأسى فؤاده، وقال:

((وددتُ أن لي رجالاً كثيرًا مثل عمير بن سعد، استعين بهم في أعمال المسلمين))

هكذا كان أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا نمط من أنماط الصحابة، فكل إنسان عنده طفل صغير، ولعل هذا الطفل الصغير يكون كهذا الصحابي الجليل، فاعتنُوا بأولادكم، علّموهم،

وأدِّبوهم، وعلّموهم القرآن، وفقّهوهم، ودلُّوهم على الله عز وجل، فلعل الله عز وجل يجعل من أولادكم قرّةَ عين لكم .

والحمد لله رب العالمين

السيرة - رجال حول الرسول - الدرس (29-50) : سيدنا سعيد بن عامر الجمحي
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 03-05-1993

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة عامة :

أيها الأخوة الأكارم، مع بداية الدرس التاسع والعشرين من دروس سير صحابة رسول الله رضوان الله عنهم أجمعين، وصحابيّ اليوم سيدنا سعيد بن عامر الجمحي، وقبل أن نبدأ الحديث عن سيرة هذا الصحابي الجليل لا بد من كلمة أمهِّد بها لمحور هذه السيرة .

أيها الأخوة، الإنسان له شهوتان كبيرتان في حياته، شهوة المال، وشهوة النساء، ولو أردتم أن تحصوا المعاصي المتعلقة بهاتين الشهوتين لوجدتم أن تسعة أعشار المعاصي متعلقة بكسب المال، ومقاربة النساء لذلك ترى في القرآن الكريم، وفي السنة المطهرة آيات كثيرة وأحاديث كثيرة تشدِّد على الانضباط، فنحن إذا اخترنا صحابياً جليلاً، وبرزتْ فيه صفةُ العفّة التي هي مِن آثار الإيمان، والإيمان عفّة، فهذا الصحابي سعيد بن عامر المؤمن، المؤمن مسموح له في القنوات النظامية، قال تعالى:

(الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ)

(سورة المؤمنون الآية: 2-7)

النقطة الدقيقة أن هذا الصحابي سوف ترون لديه عفة ما بعدها عفة، ونزاهة ما بعدها نزاهة، والحقيقة هذه ثمرة يانعة تجدها عند المؤمن، فما قيمة المعلومات إنْ لم تكن مثمرة ثمارًا يانعة؟ كل إنسان ذكي ينتسب إلى الجامعة يقرأ عددًا من الكتب، ويحفظ ما فيها، ويكون طليق اللسان، الكلام سهل جداً، النقطة الدقيقة لو أنّك تعلمتَ، وفهمتَ، وتكلمتَ ولم تكن في مستوى الكلام فهذا الشيء لا يقدِّم ولا يؤخِّر، فنجاح الإنسان ليس في مدى معلوماته، بل في مدى تطبيقاته ، وسوف ترون بعد قليل أن هذا الصحابي الجليل كان في أعلى درجات العفة .

من هو الصحابي الذي وقع بين أيدي زعماء قريش ليمثلوا به ويقتلوه ؟

هذا الصحابي سعيد بن عامر الجمحي كان واحداً من الآلاف المؤلفة الذين خرجوا إلى منطقة التنعيم، وإذا أكرمَ اللهُ أحدَكم بالحج أو بالعمرة، فلأداءِ العمرة ينطلق المعتمِرُ إلى التنعيم، مكان مسجد السيدة عائشة، هذا المكان كان في عهد النبي خارج مكة، وفي ظاهرها .

آلاف مؤلفة خرجوا إلى منطقة التنعيم في ظاهر مكة، بدعوة من زعماء قريش، ليشهدوا مصرع خبيب بن عدي، أحد أصحاب محمد، بعد أن ظفروا به غدراً بعد معركة بدر الحاسمة، التي جعلت أنوف قريش في الوحل، ثلاثمئة صحابي على ضُعفٍ في قوتهم وعدتهم وعتادهم، لكنهم على قوةٍ في إيمانهم جعلوا صناديد قريش زعيمة الجزيرة العربية راغمة أنوفها، ويذلُّونها، فتركت معركة بدر أثرًا نفسيًّا سلبيًّا جداً عند قريش، لذلك غلت دماؤهم، واشتد حقدهم، وأي صحابي عثروا عليه ولو غدراً يقتلونه، ويمثلون به، ليشفوا غليلهم، فهذا الصحابي سيدنا خبيب بن عدي رضي الله عنه لحكمة أرادها الله وقع بأيدي كفار قريش .

كلمة على الهامش :

أيها الأخوة، كلكم يعلم أن هذه الحياة الدنيا لا قيمة لها، فأيُّ إنسان شاءت حكمة الله أن ينتهي أجله، وكان الله راضيًا عنه ينطبق عليه قول الله عز وجل:

(قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ)

(سورة يس الآية: 26)

وعندما يُسعِدُ اللهُ إنسانًا فهذا شأنٌ لا يوصف، وإذا ألقى الله عز وجل في قلبك رحمته فأنت أسعد الناس، ولو كنت أفقر الناس، وأنت أسعد الناس، ولو كنت أشد الناس مرضاً، وأنت أسعد الناس، ولو كانت ظروف حياتك في منتهى القسوة والخشونة، وإذا حَجَبَ عنك رحمته، وكنت مترفًا إلى أعلى درجة كنت أشقى الناس فخبيب أُلقِيَ القبض عليه، وسيق ليُقتَل مع التمثيل به .

يجب أن تعلموا أيها الأخوة، أنّ فعل الإيمان بالنفس كفعلِ السحر، أمرٌ لا يصدق، ليس هذا لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فحسب، بل هو لكل مؤمن سلك مسلكهم، ولكل مؤمن عرف ربه، ولكل مؤمن التزم منهج ربه، ولكل مؤمن أخلص لله، ولا بد أن يكرمه الله عز وجل، يقال: هذه كرامات، تعريف الكرامة أنك حينما تطيع الله، وحينما تخلص، وحينما تحبُّ الله حقًّا، فلا بد أنّ الله جل جلاله يبادلك حبًّا بحبٍّ عن طريق التكريم، فيُحدِث لك أمورًا غريبة، وترى الأمور ميسرة لك، ولك هيبة

كبيرة عند الناس، وأنت مرتاح، ليس عندك الشعور بالقهر، شعورك النفسي سويٌّ، وأنت أسعد الناس ولو أنك تفتقر إلى كل شيء، هذا الحديث يطول، قال تعالى:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة النحل الآية: 97)

أيها الأخوة، أنا إذا التقيت بأخ كريم من أخواننا، وسألته السؤال التقليدي: كيف حالك؟ صدِّقوني أحياناً أشعر بغبطة ما بعدها غبطة، إذا قال لي هذا الأخ: الحمد لله، فإنّه يقولها من أعماق نفسه، سعيد بالله، وهو لا يملك بيتًا، ولم يتزوج، ولا عمل له، لكنه سعد بالله رغم أصعب الظروف، وأخشن أنواع الحياة، وأقسى المنغِّصات، وتلتقي بإنسان معه أموال، لو أحبَّ أن ينفق باليوم مئة ألف وعاش مئة سنة لكَفَتْه، ويقول لك: السوق مسموم، ولا يعاش في هذا البلد، يا لطيف .

عنده أموال لا تأكلها النيران، وتشعر أنه من أشقى الناس، وتلتقي بمؤمن في أدنى مستويات المعيشة، فيقول لك: الحمد لله، أنا تقريباً شعرتُ بالتجربة، لأنّ اتصال المؤمن بالله اتصال حقيقيٌّ، واصطلاحه مع الله، وأوبته إليه، وعودته إليه، وإخلاصه له، وطاعته له، وبذله، وإنفاقه، هذا كله يكسبه كرامة عند الله تتجلى بنواحي شتى، إحداها الطمأنينة، قال تعالى:

(الَّذِينَ آَمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

(سورة الرعد الآية: 28)

إحداها الشعور بالرضى، فلا يسخط، وعلامة المؤمن أنّه راضٍ عن الله، راضٍ عن نفسه، راضٍ عن جسمه، وعن وضعه العائلي، وعن عمله، وعن زوجته وأولاده، يقول لك: الله حكيم فاختار لي الأحسن دائمًا، فحالة الرضى لا تقدر بثمن .

يا أيها الأخوة، أن ترضى عن الله، معنى ذلك أنك تعرفه، أن ترضى بالقضاء والقدر، معنى ذلك أنك مؤمن بأنَّ الله حكيم ورحيم وغني وكريم وعادل، وأن تفتقد أشياء كثيرة في الدنيا، وأنت متفائل، معنى ذلك أن كل همِّك الآخرة، والدنيا لا قيمة لها، وهذا كلام النبي صلى الله عليه ، وأحيانًا لا يستوعبه الإنسان، فعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

[أخرجه الترمذي في سننه عن سهل بن سعد]

أظنّ جازمًا أنه ما مِن مخلوق أهون على كل الناس كالبعوضة، فإذا وقفتْ على يد شخص بعوضةٌ وقتلها هل يشعر في نفسه أنه قاتل؟ هل يشعر أنه مجرم مذنب؟ لا، إذاً: فلا قيمة لها، فكيف بجناحها؟

((لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

[أخرجه الترمذي في سننه عن سهل بن سعد]

لذلك إن الله يعطي الدنيا لمَن يحبّ، ولمن لا يحب، فليست الدنيا مقياساً إطلاقاً، قد تكون أفقر الناس، وأنت عند الله في مرتبة عالية جداً، والقاعدة معروفة، إنّ الله أعطى المال لمَن لا يحبُّ، أعطاه لفرعون، وأعطاه لقارون، وأعطاه لمن يحب، أعطاه لسيدنا ابن عوف، فكان من أغنى الصحابة، فإذا أعطاه للكافر وللمؤمن هل يصلح كمقياس؟ لا يصلح لذلك البتة .

القوة أعطاها لفرعون، وأعطاها لسليمان الحكيم، سيدنا سليمان كان ملكًا من أعظم الملوك، قال تعالى:

(قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ)

(سورة ص الآية: 34)

وفرعون كان قال تعالى :

(فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

(سورة النازعات الآية: 24)

فما دام الشيء أُعطِي لأحبِّ الناس إلى الله ولأبغضِهم إليه فهل يُعدُّ مقياساً؟ فلا القوة مقياس، ولا المال مقياس، وقد تجد شخصًا وسيمًا بهيَّ الطلعة، ولكنه فاجر فاسق كافر، وترى شخصًا كما وصفه الواصفون، قصير القامة، أحنف الرِّجل، مائل الذقن، ناتئ الوجنتين، ضيق الكتفين، أسمر اللون، ليس شيء من قبح المنظر إلا وهو آخذٌ منه بنصيب، وكان مع ذلك سيد قومه، فحتى الشكلُ لا قيمة له، ولا المال، ولا الغنى، ولا القوة، والسلطة لها قيمة، قيمة واحدة فوق القيم كلها هي مدى معرفتك بالله، ومدى طاعتك له، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)

(سورة الحجرات الآية: 13)

هذا هو المقياس .

لذلك فأنا تكلمتُ يومًا على منبر الجمعة في خطبة عن الحج: أن الإنسان في الدنيا تتحكم فيه قيم مادية طاغية، تحجبه عن حقيقته الإنسانية، لأنه يستخدم موازين خاطئة، وحجبٌ مُضَلِّلة، ويكون عنده أقنعة مزيفة، ولكنْ عند الموت تسقط كل هذه الأقنعة المزيفة، وتُزاح الحجب المضللة ، وتتلاشى القيم المادية، وتحطم الموازين غير الصحيحة، ليحاسب في ضوء قيم جديدة، وموازين جديدة، فما هي هذه المقاييس؟ وما هي هذه الموازين والقيم؟ إنها مدى معرفتك بالله، ومدى معرفتك بمنهج الله، ومدى استقامتك على منهج الله، وحجم عملك الصالح الذي نفعت به الخلق، فهي أربعة موازين فاستمسِكْ بغرزها، ثمّ إنّ مكتسبات الإنسان إذا وضعت على هذا المحك يجب أن تستخدم مقياس ربنا عز وجل، فلا تفرح بالدنيا .

فهذا سيدنا خبيب بن عدي إما أنه ليس بشرًا، بل فوق البشر، وإمّا أننا لسنا بشرًا، وسنشاهد بعد حينٍ إنسانًا أُلقِيَ القبضُ عليه غدراً، وسيق ليُقتَل، ويمثَّل به، وهو في أسعد لحظات حياته، الآن إذا تلقى الشخصُ خبرًا سيّئًا عن صحته فلا أحدَ يتكلم معه أبداً، فقد لجأ إلى النوم من شدة الألم واليأس والخوف.

ما هو الذنب الذي اقترفه خبيب ليساق إلى هذا المشهد المؤلم وهل شهد سعيد مصرع خبيب ؟

ذهبَ شبابُ مكة ليشاهدوا مصرعَ خبيب، فقد كان خبيب بن عدي شابًا موفور الشباب، فتىً متدفقًا موفورَ الفتوة، ومع ذلك هذا مصيره الذي أراده الله له، لكن العبرة في الخاتمة الحسنة، وهي الجنة، قال تعالى:

(قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ)

(سورة يس الآية: 26)

وصلت هذه الجموع الحاشدة بأسيرها إلى المكان المُعَدِّ لقتله، فوقف الفتى سعيد بن عامر الجمحي بقامته الممدودة يطلّ على خبيب، ولم يكن مسلماً يومئذٍ، وقف يطل على خبيب، وهو يقدم إلى خشبة الصلب، وسمع صوته الثابت الهادئ من خلال صياح النسوة والصبيان، وهو يقول: إن شئتم أن تتركوني أركع ركعتين قبل مصرعي فافعلوا، فالصلاة عنده أعظم شيء في حياته، أنا راضٍ بما كتبه الله لي، فنظر إليه سيدنا سعيد بن عامر الجمحي وهو يصلي ركعتين، ويستقبل الكعبة ويصلي، وقال:

((يا لحسنهما ! ويا لتمامهما ! -صلاة متقنة فيها خشوع، فإذا جاءت شخصًا رسالة مزعجة فإنه يقول: واللهِ لم أعرف كيف أصلي؟ وهذا سيموت بعد قليل ويُعدم، ويصلّي صلاةً ما أروعها من صلاة- دهش زعماء قريش، فما خاف، -أين الفزع؟ أين الجزع؟ أين التوسل؟ أين البكاء؟ أين لطم الخدود؟ أين الصياح بالويل؟- .

ففعلوا، -لكنه كان ذكياً- وكان حكيماً، فما أطال الركعتين، -ولو أنه أطالهما لظنوا أنه خائف، ويؤخِّر وقت الإعدام- فاتَّجه إلى زعماء قريش، وقال: واللهِ لولا أن تظنّوا أني أطلتُ الصلاة جزعًا من الموت لاستكثرتُ ِمنها، لكن اقتصرت على ركعتين خفيفتين لئلا تظنوا أني خائف من الموت، ثم شهد قومُه، وشهد أيضًا سعيدُ بن عامر الجمحي صحابي اليوم، وكان وقتها مشركاً، شهد سعيدٌ قومَه بعينَيْ رأسه وهم يمثِّلون بخبيب، وهو حيّ، فيقطعون من جسده القطعة تلو القطعة، وهم يقولون: أتحبُّ أن يكون محمداً مكانَك، وأنت ناجٍ؟ فيقول والدماء تنزف منه: واللهِ ما أحبُّ أن أكون آمناً وادعاً في أهلي وولدي، وعندي عافية الدنيا ونعيمها ويصاب محمّدٌ بشوكة، ما هذا؟ -واللهِ إني كنت ولا زلتُ أقول: إذا كان الصحابة من البشر، فنحن لسنا من البشر، نحن دون البشر، وإن كنّا بشرًا فَهُمْ فوق البشر، إنسان يقطع لحمه، وتقطع أعضاؤه، ثم يُسأل: أتحب أن يكون محمدٌ مكانك؟ ماذا فعل لَهُ النبي؟ هداه

إلى الله، ماذا أعطاه النبي حتى قُتِل من أجل إيمانه برسول الله؟ لقد أعطاه الهدى والإيمان، فإذا جاء أحدَنا شرٌّ من شريكه، يقول: لَعَنَ اللهُ الساعة التي شاركتُه فيها، أليس كذلك؟ وإذا جاءته متاعب من شخص يلعن الساعة التي رآه فيها- لكنّ خبيبًا سيق إلى القتل وإلى التمثيل لأنه آمن بالله ورسوله عليه الصلاة والسلام، لذلك دهش أبو سفيان، بل صُعق، فقال:

((ما رأيت أحداً يحب أحداً كحُبِّ أصحابِ محمدٍ محمداً))

-أخواننا، الإيمان حبٌّ، فيجب أن تحبّ اللهَ، وأن يكون اللهُ أحبَّ إليك من كل شيء، كيف ذلك؟ إذا تلقيت أمرًا من إنسان مخالفًا لأمر الله، لو قطعوك إرْباً إرْباً فلا تعص الله، لأن اللهَ أحبُّ إليك من أيّ شيء، قال تعالى:

(قُلْ إِنْ كَانَ آَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

(سورة التوبة الآية: 24)

يجب أن تحبَّ رسولَ الله، وعلامةُ محبتك له اتّباعُك له، ويجب أن تحبّ المؤمنين، وحينما تكره مؤمناً فهذا مؤشر خطير، ومعنى ذلك أنك في خندق المنافقين، فهذا مؤمن مطيع لله، متأدِّب مع الله، عبد لله، منصف، وعلى جادة الحق، فلماذا تكرهه؟ فكراهية المؤمنين علامة ليست طيبة، بل هي علامة خطيرة، والدليل قول الله عز وجل:

(إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ)

(سورة التوبة الآية: 50)

إذا أخذ أخٌ من أخوانك شهادة عليا، وأنت لا تملك هذه الشهادة، تقول: لا يستحقها، تفرح أم تنزعج ؟ أخوك اشترى بيتًا، أو تعيَّن في منصب رفيع، أو تزوج بنَت شخص غنيّ، فأكرمه وأعطاه بيتًا، أو أصابته نعمة وأنت انزعجت، فهذه علامة النفاق، وإذا أصابه خير، وفرحت فأنت مؤمن سليم القلب والنفس، واللهِ الذي لا إله إلا هو لا أشعر بطمأنينة إلا عندما أشعر أن أي أخ وصل إلى خيرٍ وفلاح، وكأني أنا أصبتُه، وأعدُّه كسبًا للمؤمنين، والحمد لله، فعلامة إيمانك أن تفرح لأخوانك المؤمنين، وهذا التحاسد والتباغض والطعن، هذا كله من صفات المنافقين، وليس المؤمن بفاحش ولا صخّاب ولا عيّاب، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ عَن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ:

((الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ، مَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ فَإِنَّ اللَّهَ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ بِهَا كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))

[متفق عليه، أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح عن عبد الله بن عمر]

لكن سيدنا سعيد بن عامر نظر إلى خبيب بن عدي، وقد رفع بصره إلى السماء مِن فوق خشبة الصلب، وكان يقول: اللهم أحصهم عددا، واقتلهم بددا، ولا تبق منهم أحدا، -فلك الحق أن تدعو على الكفار المجرمين، الذين يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم- ثم لفظ أنفاسه الأخيرة، وبه ما لم يستطع على إحصائه من ضربات السيوف، وطعنات الرماح، فقد صبُّوا كل حقدهم وكل ضيقهم على هذا الصحابي الجليل، وقتلوه ومثّلوا به، وكان مما قال قبل موته بيتين من الشعر:

ولستُ أبالي حين أقتَلُ مسلما   على أي شق كان لله مصرعِي

وذلك في ذات الإلهِ وإن يشأ   يبارك على أوصال شِلوٍ ممزع

إنّ الله عز وجل قادر في المعركة أن لا يذيق الشهيدَ طعمَ الألم، وهذا شيء ثابت في السنة، وفي صحيح البخاري، الشهيد لا يشعر بألم الجراح إطلاقاً، وهناك شواهد قطعية واقعية، فالإنسان اخترع المخدِّر، فترى المريضَ مستلقيًا على المنصة في غرفة العمليات، والشرايين مربوطة، والقلب صناعي، وبالمنشار شققنا الصدر، وفتحنا القفص الصدري، وخرج القلب، وفتحوا القلب، ووصلوا إلى الدسام، والإنسان المريض مرتاح، الإنسان يخترع مخدرًا ليخفف عنه الألم، وخالق الكون إذا استحق إنسانٌ الشهادة، والأعداء طعنوه وقطّعوه إربًا إربًا أفلا يستطيع الله أن يمنع عنه العذاب؟ واللهِ أنا مؤمن إيمانًا قطعيًّا أن كل إنسان يموت في سبيل الله لا يمكن أن يشعر بالألم إطلاقاً، وثمّة أدلة كثيرة .

النبي الكريم وصف الشهيد بثلاث صفات: أن لدمه رائحة المسك، وأن الله يريه مقامه في الجنة، وأن الله يعفيه من ألم الجراح، لا يشعر بآلام، هذه الصفات الثلاث وردت في حديث صحيح رواه الإمام البخاري، وذلك حينما يضع الإنسان نفسه في سبيل الله ليموت يشعر بهذا الشعور .

لقد لَفَظ خبيب أنفاسه الأخيرة، واستحق جنة ربه، قال تعالى:

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ)

(سورة الذاريات الآية: 15-19)

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ * إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ)

(سورة الحاقة الآية: 19-24)

وكل شيء بحساب .

ما هو الأثر الذي تركه خبيب في سعيد وهل كان هذا الأثر سبباً في إسلامه ؟

((عادت قريش إلى مكة، ونسيت في زحمة الأحداث الجسام خبيباً ومصرعه، لكن الفتى اليافع سعيد بن عامر الجمحي لم يغِب خبيبٌ عن خاطره لحظة، فصورة خبيب وكيف قتلوه؟ وكيف قطعوا من لحمه؟ وكيف عذبوه؟ وكيف صلى؟ وكيف دعا عليهم؟ هذه الصورة لم تغِبْ عن ذهنه إطلاقاً، فكان يراه في الحلم إذا نام، ويراه بخياله إذا استيقظ، ويمثُل أمامه وهو يصلي ركعتين هادئتين مطمئن أمام خشبة الصلب، ويسمع رنين صوته في أذنيه، وهو يدعو على قريش ، فيخشى أن تصعقه صاعقة، أو تخرّ عليه صخرة من السماء، يشعر نفسه أنه مجرم، لأنه ما نصره، ولأنه سكت .))

-لذلك أيها الأخوة، إذا كان الشخصُ بمكان، وله أخ مؤمن ظُلِم، وهو قادر أن ينصره، ولم ينصره، فإنّ الله عز وجل سيحاسبه حساباً شديداً، وإذا ظلم في حضرتك مؤمن، وأنت قادر أن تنصره، لكنّك آثرت السلامة، وأنت قوي، وفي مركز قوي، وهذا الذي يظلمه تحت يدك، وهذا مؤمن وتعرفه مستقيمًا بريئًا، وهذه التهمة ألبسوه إياها إلباسًا، وأنت تستطيع أن تنصره، وقلت: لا علاقة لي، له رب يتولى أمره، ما شاء الله على هذا الكلام، أنت خليفة في الأرض، قال تعالى:

(وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ)

(سورة محمد الآية: 4)

لكن الحقيقة سيدنا سعيد بن عامر الجمحي كان وقتها قريبًا من الإسلام، رغم أنه كان مشركاً، بل كان على مشارف الإيمان، لذلك فقدْ علِم أن الحياة عقيدة وجهاد، -صدق القائل:

قِفْ دونَ رأيك في الحياة مناضلاً   إن الحياة عقيدة وجهــاد

والباقي لا شيء، تفاهة في تفاهة، اعتنقتَ مذهبًا عظيمًا، وبذلت من أجله الغالي والرخيص، والنفس والنفيس، فأنت في الدرجات العلا إيمانا وثوابا، وأعظم شيء في الحياة أن تؤمن بالله، وأن تضع كل إمكاناتك في الدعوة، إنّ الإيمان الراسخ يفعل الأعاجيب، ويصنع المعجزات، فو اللهِ إنّ الإيمان الحقيقي ليصنع من الإنسان شخصيةً أخرى .

وهذا مثل بسيط جداً، وقد يكون تافهًا، قال لي أخ: وقفتُ على بائع أريد أن أشتري بيضًا، فقلت له: أريد أن أشتري بيضًا طازجًا، فقال لي: البيض الذي عندي منذ أربعة أيام، وجارنا أحضر بيضًا الآن، لقد صُدِمْتُ، لأن هذا هو المؤمن حقًا، هذا أبسط شيء في الإيمان، تاجر نصوح لا يكذب، وشراء البيض أمرٌ بسيط، لكن صدقه يلفت النظر- .

قال له أبو سفيان:

((أتحب أن يكون محمد مكانك، وأنت معافىً؟ فيقول خبيب: واللهِ ما أحبّ أن أكون في أهلي وولدي، وعندي عافية الدنيا ونعيمها، ويصاب رسولُ الله بشوكة))

-فهذا ليس إنسانًا عاديًّا، كلامه ليس ككلامنا، وموقفه ليس كموقفنا، فنحن نرضى بالسلامة لأنفسنا، ولو على حساب غيرنا، أما خبيب فحبُّه ما بعده حبٌّ لهذا النبي، الذي مات بسبب إيمانه به- لقد شعَر سيدنا سعيد بن عامر الجمحي أنّ هذا الرجل الذي يحبه أصحابُه هذا الحب ليس إنسانًا عاديًّا، بل هو نبي مؤيَّد من السماء، -ونحن لم يُتَحْ لنا أن نرى أنبياء، فإذا جلس مع مؤمن أعلى منه، يقول: واللهِ استأنست، وشعرت براحة، فأحواله طيبة ومستقرة، فإذا جلستَ مع مؤمن سبقك أكثر منك إيمانًا تشعر براحة، والجلوس معه سعادة، فكيف لو التقينا مع نبي؟-

إلى أن شرح الله صدر سعيد بن عامر الجمحي إلى الإسلام، وأعلن براءته من آثام قريش، ومن أوزارها، وخلعه لأصنامها وأوثانها، ودخوله في دين الله، وهاجر سعيد بن عامر إلى المدينة، ولزم النبي صلى الله عليه وسلم، وشهد معه خيبر وما بعدها من الغزوات، ولما انتقل النبي الكريم إلى جوار ربه وهو راضٍ عنه، ظل مِن بعده سيفاً مسلولاً في أيدي خليفتيه أبي بكر وعمر، وعاش مثلاً فريداً فذاً للمؤمن الذي اشترى الآخرة بالدنيا، وآثر مرضاة الله وثوابه على سائر رغبات النفس وشهوات الجسد))

إليكم النصيحة التي قدمها سعيد لعمر وهو على كرسي الخلافة :

فمركز الثقل في السيرة علاقته بسيدنا عمر، وكل إنسان له مركز ثقل، لقد أسلم خبيب متأخرًا، ودخل مع النبي، وجاهد معه، لكن بطولته والصفحات المتألقة في حياته كانت في عصر سيدنا عمر بن الخطاب، الذي كان يعرف لسعيد بن عامر صدقه وتقواه، ويستمع إلى نصحه، ويصغي إلى قوله .

فمرة دخَلَ سعيد بن عامر الجمحي على سيدنا عمر في أول خلافته، فقال:

((يا عمر، أوصيك أن تخشى الله في الناس، -فهذه قاعدة إيمانية، أنا سوف أقدمها هدية لكم، أنت بائع، تاجر، موظف، مهما كانت الحرفة التي تتعامل مِن خلالها مع الناس، إذا خفتَ الله في الناس، فما آذيتَهم، وما غششتَهم، وما كذبتَ عليهم وما احتلت عليهم، وعاملت كل واحد منهم كأنّ الله هو المحامي، وكأن الله هو الوكيل، فإذا خفتَ الله في الناس فأنت في موكب النجاة، اسمعوا الجواب-: لن يخيفك الله من الناس، -قال لي واحد: واللهِ يا أستاذ دخل عليّ موظف تموين، فصارت ركبي ترجف، فانطلقتُ رأساً إلى طبيب القلب، وخططتُ فشعرتُ بضيق، إنسان يدخل إلى محلك، فيسبِّب لك أزمة قلبية، أمّا لو فرضنا بائعًا ما دخل زبون إلى المحل إلا وباعه بصدق وأمانة ونصيحة، وما كذب، ولا

غشَّ، ولا أخذ أكثر مما ينبغي، ولا استغلَّ جهل الزبون، فأنت تخاف من الله، فلن يخوِّفك من الناس، هذا شيء مستحيل، فلنسْمعْ ما قاله سعيد بن عامر لعمر، ولنفقهْ دقة العبارة- قال له: أوصيك أن تخشى الله في الناس، ولا تخش الناس في الله، -ما أجمل هذه الكلمة، وألاّ يخالف قولك فعلك، فإن خيرَ القول ما صدقه الفعل .

فهل تجد إنسانًا في الأنظمة الحديثة يخاطب ملِكًا بهذه الطريقة؟ هذا مستحيل- قال: يا عمر، الحمد لله الذي أخرجنا من جور الحكام إلى عدل الإسلام، يا عمر، أقم وجهك لمن ولاّك الله وجهه من بعيدِ المسلمين وقريبهم، وأحِبَّ لهم ما تحب لنفسك وأهل بيتك، واكرهْ لهم ما تكره لنفسك وأهل بيتك، وخضّ الغمرات إلى الحق، ولا تخف في الله لومة لائم، -إنسان مغمور ضعيف عييّ اللسان أعطِه حقه الكامل- فقال عمر: من يستطيع ذلك يا سعيد؟ فقال: يستطيعه رجل مثلك ممَّن ولاهم الله أمر أمة محمد، وليس بينهم وبين الله أحد))

أنت أعلى واحد قوة ومرتبة عند الله عز وجل .

مرة سيدنا عمر كان يخطب، فقطع الخطبة، وتكلم كلامًا لا معنى له، مثل الإعلانات في الأخبار، لا علاقة للأخبار في الإعلان، يخطب وفجأةً قطع الخطبة، وقال: يا عمر، كنتَ عميرًا ترعى غنمات لبني مخزوم، وتابع الخطبة، ما علاقة هذا الكلام بالموضوع؟ فلما انتهت الخطبة سأله أحد الصحابة، وهو سيدنا ابن عوف عن تلك الجملة الدخيلة على الخطبة، فأجابه: واللهِ وأنا أخطبُ قالت لي نفسي: أنت أمير المؤمنين، وليس بين الناس وبين الله أحد إلا أنت، فأردت أن أعرِّف نفسي حقيقتها، لقد كنتَ عُميرًا رَاعي الغنم، وهذه حقيقته، وقطع الخطبة وعرّف الناس مَن هو، وتابع، عظماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء .

الإنسان العاقل لا يتكبر، ومَن تكبَّر فإنّ الله يضعه، ومن تواضع لله رفعه، ومن تكبر وضعه .

هل كان سعيد من قائمة الفقراء يوم تولى إمارة حمص وأين وضع المال الذي فرضه عمر له ؟

ويدعو سيدنا عمر عميرًا إلى مؤازرته، وقال له:

((يا سعيد، إني ولَّيتُك على أهل حمص، فقال يا عمر: ناشدتك الله ألا تفتنِّي، فغضب عمر، وقال: ويحكم ويحكم !! وضعتم هذا الأمر في عنقي، ثم تخليتم عني، يجب أن تعينوني، -لا يقدر إنسان أنْ ينجح بمفرده، حتى الدعوة إلى الله، كل واحد يعين على حسب قدراته، هذا بماله، وهذا بعلمه، وهذا بإمكاناته، وهذا بعضلاته، وهذا بخبرته، وهذا باختصاصه أما أن يكون الشخصُ سلبيًّا فهذا ليس من المسلمين- .

والله لا أدعك، ثم ولاه على حمص، وقال له: ألا نفرض لك رزقاً؟ قال: وما أفعل به يا أمير المؤمنين، فإن عطائي من بيت المال يزيد عن حاجتي، ثم مضى إلى حمص، بعد فترة قليلة وفد على أمير المؤمنين بعض من يثق بهم من أهل حمص، فقال لهم اكتبوا لي أسماء فقرائكم حتى أسديَ حاجتهم، فرفعوا إليه كتاباً فإذا فيه فلان وفلان وسعيد بن عامر، قال: من سعيد بن عامر؟ قالوا: أميرنا، قال: أميركم فقير! قالوا: نعم، والله إنه لتمرّ عليه الأيام الطوال ولا توقد في بيته النار .

فبكى عمر حتى بللت دموعه لحيته، ثم عمد إلى ألف دينار، فجعلها في صرة، وقال: اقرؤوا عليه السلام مني، وقولوا له: بعث إليك أمير المؤمنين بهذا المال لتستعين به على قضاء حاجتك، فجاء الوفد إلى سعيد بالصرَّة، فنظر إليها فإذا هي دنانير، فجعل يبعدها عنه، ويقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، كأنما نزلت به نازلة، أو حلَّ بساحته خطب، فهبَّتْ زوجته مذعورة، وقالت : ما شأنك يا سعيد، أمات أحدٌ مِن المؤمنين؟ قال: بل أعظم من ذلك، قالت: أأصيب المؤمنون في وقعة؟ قال: بل أعظم من ذلك، فقالت: وما أعظم من ذلك؟ قال: دخلتْ عليَّ الدنيا لتفسد آخرتي، وحلّت الفتنة في بيتي، قالت: تخلَّصْ منها، وهي لا تدري من أمر الدنانير شيئاً، والنساء يحبون المال، قال: أو تعينيني على ذلك؟ قالت: نعم، فأخذ الدنانير فجعلها في صرة، ثم وزعها على فقراء المسلمين، لقد خاف أنْ يصبح غنيًّا يتنعم، ويأكل والناس جائعون))

ما هي الشكوى التي صدرت من أهل حمص على سعيد وماذا كان جواب سعيد عنها ؟

سيدنا عمر قام بجولة تفقدية إلى المحافظات، أو إلى الولايات في دولته، فذهب إلى بلاد الشام وحمص يومئذٍ تُدعى الكُويفة، تصغير الكوفة، تشبيهًا لها بالكوفة، لكثرة شكاوى أهلها من عمالهم وولاتهم، كما كان يفعل أهل الكوفة، فلما نزل فيها لقيه أهلها للسلام، وأول سؤال سألهم:

((كيف وجدتم أميركم؟ فشكوه إليه، وذكروا أربعًا من أفعاله، أربع شكاوى، وكل واحدة منها أعظم من الأخرى، فقال عمر: فجمعتُ بينه وبينهم، بالمناسبة إن اشتكى إنسان لك على آخر فاجمعهما معاً، فقد ترى أنّ أربعة أخماس الكلام ليس على حقيقته، أربع أخماس الكلام يُلغى إذا جمعت الاثنين معاً، فلا يتكلم بحضرة خصمه كما لو كان غائبًا، فأمامه يخجل، فكل شيء فيه كذب يلغيه ، فاجمعهما، قال عمر: فجمعتُ بينه و بينهم، و دعوت الله ألا يخيِّب ظني فيه، لأن عمر هو الذي اختاره واليًا عليهم، فقد كنتُ عظيم الثقة به، فلما أصبحوا عندي هم و أميرهم، قلت: ما تشكون من أميركم؟ قالوا: لا يخرج إلينا حتى يتعالى النهار، فقلت لسعيد: ما تقول في ذلك يا سعيد؟ فسكت قليلاً، ثم قال: والله إني كنتُ أكره أن أقول ذلك، أما وإنه لا بد منه، فإنه ليس لأهلي خادم ، فأقوم في كل صباح فأعجن لهم

عجينهم، ثم أتريث قليلاً حتى يختمر، ثم أخبزه لهم، ثم أتوضأ وأخرج للناس .

قال عمر: هذه واحدة، وما الثانية؟ قالوا: لا يجيب أحداً بليل، فما تقول يا سعيد؟ قال: واللهِ كنت أكره أن أعلن هذا أيضاً، فأنا قد جعلت النهار لهم والليل لله عز وجل، الليل ليس لهم، النهار لهم، والليل لله صلاةً و قيامَ ليل، و ذكرًا و تهجدًا و دعاء، قلت: وما تشكون أيضاً؟ قالوا: إنه لا يخرج إلينا يوماً في الشهر، قال: وما هذا يا سعيد؟ قال: ليس لي خادم يا أمير المؤمنين، وليس عندي ثياب غير التي عليّ، فأنا أغسلها في الشهر مرة، وأنتظرها حتى تجف، ثم أخرج إليهم، قال: ثم ماذا؟ قالوا: تصيبه من حين لآخر غشية، فيغيب عمن في مجلسه، كأنه يغيب عن الوعي، قال: ما تقول في هذا يا سعيد؟ قال: شهدت مصرع خبيب بن عدي، وأنا مشرك، ورأيت قريشًا تقطّع جسده وهي تقول: أتحب أن يكون محمدٌ في مكانك؟ فيقول: واللهِ لا أحب أن أكون آمناً في أهلي وولدي، وعندي عافية الدنيا ونعيمها، ويصاب رسول الله بشوكة، وإني واللهِ كلما ذكرت ذلك اليوم، وكيف أني تركت نصرته إلا ظننت أنّ الله لن يغفر لي؟ فقال عمر: الحمد لله الذي لم يخيِّب ظني به، ثم بعث له بألف دينار ليستعين بها على حاجته، ثم رأتها زوجته، هذه المرة رأت زوجته المال، قالت له: الحمد لله الذي أغنانا عن خدمتك، اشتر لنا مؤونة، واستأجر لنا خادماً، فقال لها: وهل لك فيما هو خير من ذلك؟ قالت: وما ذلك؟ قال: ندفعها إلى من يأتينا بها، ونحن أحوج ما نكون إليها، قالت: وما ذاك؟ قال: نقرضها لله قرضاً حسناً، قالت: نعم وجزيت خيراً .

فقدْ أعانته، وهذه الألفُ الثانية وزَّعها، وقال لزوجته: انطلقي بها إلى أرملة فلان، وإلى أيتام فلان، وإلى مساكين فلان، وإلى معوزي آل فلان، ووزع الألف الثانية))

ما هي رسالة الإيمان ؟

هذا سعيد بن عامر الجمحي الذي كان يتأخَّر صباحاً، وبالليل لا يجيب أحدًا، وبالشهر يغيب يومًا، وأحياناً تأتيه غاشية فيغيب عن الوعي، وهذا الرجل قد شهد مصرع خبيب، وكيف رأى هذا الصحابي الجليل الذي عذَّبَه الكفار أشدّ التعذيب، ومات وهو في أسعد لحظاته؟ هذا أثر الإيمان في نفس الإنسان .

إنّ العفة مِن علامة إيمانك، العفة عن أموال الناس، والعفة عن أعراض الناس، والناس يُؤْتَوْن من المال والنساء، فإذا حصنتَ نفسك من فتنة النساء بغض البصر، وعدم الاختلاط، ومن جهة المال بتحرير الدخل، فقد سددت عندئذٍ على الشيطان أكبر المنافذ، التي يمكن أن ينفذ إليك منها، عنده فخ فعال، وعنده شبكة محكمة، وعنده مقلب مدمِّر، ألا وهو النساء، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((النساء حبائل الشيطان))

[أخرجه أحمد في مسنده]

كيف أنّ الإنسان ينهار إذا بُعِث في مهمة شاقة؟ واعلمْ أنّ المرءَ يسقط بالنساء والمال، وبهذين يسقط جميع الناس، الرشاوى والفضائح في إيطاليا ما أسبابها؟ المال والنساء، فالمؤمن محصن ضدَّ المال والنساء، وهو في حرز حريز .

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

ما هي الرسالة الخاصة التي يهديها الله لبعض الأشخاص وما مصيرهم إن لم يستجيبوا لها ؟

أيها الأخوة الأكارم، مع بداية الدرس الثلاثين من دروس سيرة أصحاب رسول الله رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، وصحابيٌّ اليوم سيدنا عمير بن وهب، ولهذا الصحابي قصة فريدة، وقبل أن نخوض في الحديث عن تفاصيل رحلته في طريق الإيمان لا بد من توضيح بعض الأفكار .

أيها الأخوة، ربنا جل جلاله خبير بخلقه، وأخصُّ الإنسان بحديثي الآن من بين الخلق جميعًا، في بعض الأحيان ربنا سبحانه وتعالى يريه الكثيرَ من آياته الدالة على وجوده، وعلى علمه، وعلى وحدانيته، وعلى كماله، وبعض الأشخاص تتدخل العناية الإلهية لحكمة مطلقة متعلقة بعلم الله بهؤلاء الأشخاص تدخلاً مباشرًا، فهذا الشخص عمير بن وهب أراه الله من آياته، ولأن الله سبحانه تعالى عليم به تتضح له الحقائق، وينطلق في طريق الإيمان .

فهؤلاء سحرة فرعون حينما رأوا عصا سيدنا موسى انقلبت ثعباناً مبيناً، وتلقّفت كل ما صنعوا من السحر خروا لله ساجدين، لذلك قال بعضهم: إما أن تطيعه فيكرمك، فهذا طريق، وأحياناً يكشف لك عن جوانب عظمته أو عن آياته، وهو يعلم أنك تستجيب فيكون الكشف سابقًا للطاعة، وإما أن يكون الكشفُ بعيدًا الطاعة .

هذه القصة فريدة من نوعها، فأحياناً الإنسان يرى منامًا يأتي مثل فلق الصبح، وأحياناً ينقذه الله عز وجل من ورطة محققة بحكمة ما بعدها حكمة، وبقدرة ما بعدها قدرة، فالإنسان إذا وضعه الله عز وجل أمام آية من آياته الدالة على وجوده، والدالة على كماله، والدالة على علمه، والدالة على وحدانيته، ولم يستجب فالويل له .

يمكنك أن تتفكر في الكون، وأن تتيقن من خلاله وجود الله عز وجل، وذلك من كماله، من وحدانيته، ومن ألوهيته، ومن ربوبيته، وتمشي في طريق طاعته إلى أن تنكشف لك الحقيقة، لكن أحياناً وهذه حالات قليلة، وأنت متلبس بالمعصية، وأنت غارق في اتباع الشهوات يكشف الله لك بعض الحقائق، لعلمه بأنك تستجيب، فهذا الذي لا يستجيب إنسان خاسر، وكل واحد منا ضمن عمله، وفي أثناء سفره، وضمن إقامته، ومن خلال علاقاته قد ينشأ معه شيء على خلاف المألوف ، وعلى خلاف العادة، إنها عناية إلهية، والقصص في هذا كثيرة جداً، فإذا كشف اللهُ لك جانباً من آياته التي تدل على وجوده،

وعلى وحدانيته، وعلى ربوبيته، وعلى ألوهيته، وعلى علمه، فعليك أن تسرع الخطى، لأنها فرصة نادرة لا تتكرر، وإذا كان التسعة والتسعون بالمئة من الناس مكلفون أن يهتدوا إلى الله بعقولهم، وأن يستجيبوا له، وبعدئذ يكشف لهم عن جوانب آياته الباهرة فإن بعض الأشخاص، وهم قلة قليلة، ولحكمة بالغة يكشف لهم عن وجوده، وعن علمه، وعن آياته قبل أن يطيعوا، فإذا لم يطيعوا كان هذا الكشف حجة عليهم .

ما هو الحديث الذي جرى بين عمير بن وهب وبين صفوان بن أمية ؟

سيدنا عمير بن وهب، هذا اسمه الدقيق عمير بن وهب الجمحي عاد من موقعة بدر ناجياً بنفسه، لكن ابنه وهبًا خلّفه أسيراً عند النبي عليه الصلاة والسلام، أب و ابنه كانا في معركة بدر، وهذه المعركة حُسِمت لصالح المسلمين، والقتلى كثير، وأسرى كثيرون وقعوا في قبضة النبي عليه الصلاة والسلام، أمّا الأب فنجا ووقع الابن أسيرًا .

أيها الأخوة، نحن أحياناً بأساليب معوجة، وبأساليب لا ذكاءَ فيها، نخسر أصدقاءنا، لكن النبي عليه الصلاة والسلام للكمال الذي أكرمه الله به يستقطب أعداءه، إنه شيء غريب، عمير بن وهب من ألَدِّ أعداء النبي عليه الصلاة والسلام، كان كافراً مشركاً عنيداً مناهضاً ضالاً مضلاً فاسقاً فاجراً أراد أن يطفئ نور الله، فحارب أصحاب رسول الله، ونكل بهم، بل لم يدَّخر وسعاً في إيقاع الأذى بهم، فكان هذا الرجل من ألدِّ أعداء النبي، وبعد أن وقع ابنه أسيراً عند رسول الله، خاف أن يؤخذ الابنُ بجريرة أبيه، وأن يسوموه سوء العذاب، جزاءَ ما كان ينزل برسول الله صلى الله عليه وسلم من الأذى، ولقاء ما كان يلحق بأصحابه من النكال .

في أحد الأيام توجَّه عمير إلى البيت الحرام للطواف بالكعبة، لأن الحج كما تعلمون عبادة قديمة، قال تعالى:

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ)

(سورة آل عمران الآية: 96)

فالعرب كانوا يطوفون حول الكعبة، فرأى صفوان بن أمية جالساً إلى جانب الحِجْر، والحِجْر ذلك القوس المبني إلى جانب الكعبة، وهو قديم، فأقبل عليه، وقال:

((عِمْ صباحاً يا سيد قريش، فقال صفوان: عِمْ صباحاً يا أبا وهب، اجلس نتحدث ساعة، فجلس عمير، إنهما رجلان موتوران، رجلان حاقدان، رجلان يغليان حقداً على رسول الله، جلس عمير بإزاء صفوان بن أمية، وطفق الرجلان يتذاكران بدراً، ومصابهما العظيم، ويعدِّدان الأسرى الذين وقعوا في قبضة النبي عليه الصلاة والسلام، ويتفجعان على عظماء قريش ممّن قتلتهم صناديدُ المسلمين،

وغيَّبهم القليبُ في أعماقه، فتنَهَّد صفوان بن أمية، وقال: واللهِ ليس في العيش خير بعدهم، ما هذه الحياة؟ فقال عمير : صدقت واللهِ، ثم سكت عمير قليلاً، وقال: وربِّ الكعبة لولا ديون عليّ ليس عندي ما أقضيها، ولولا عيال أخشى عليهم الضياع من بعدي، لمضيتُ إلى محمد وقتلتُه، وحسمت أمره، وكففتُ شرَّه، وأرحتُكم منه، ثم أتْبَعَ يقول بصوت خافت: وإن وجود ابني وهب لديهم ما يجعل ذهابي إلى يثرب أمراً لا يثير الشبهات، قال تعالى:

(أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)

(سورة الزمر الآية: 36)

اغتنم صفوان بن أمية كلام عمير بن وهب، ـولم يشأ أن يفوِّت هذه الفرصة، فالكافر أحيانًا يكون ذكيًّا، وليس الذكاء قيمة مطلقة، الذكاء نعمة إذا وظفته في الحق، وبلاء كبير إذا وظفته في الباطل، الذكاء شأنه كشأن أيٍّ مِن حظوظ الدنيا، سُلَّمٌ ترقى به إلى أعلى عليين، أو دركات تهوي بها إلى أسفل سافلين، هؤلاء الذين اخترعوا هذه الأسلحة الفتاكة، مرة يقولون لك: القنبلة الذكية، ومرة يقولون: قنبلة عنقودية، صواريخ موجّهة بأشعة الليزر، هذا الصاروخ ركب على أشعة الليزر، ودخل في مدخنة المصنع، والقنبلة تُسَيَّر من قبل الطيّار على شاشة أمامه، هؤلاء الذين اخترعوا هذه الأسلحة الفتاكة أهم جهلاء؟ لا والله، إنهم أذكياء، هذا الذي أمر بإلقاء قنبلة على هيروشيما فأفنت ثمانمئة ألف في ثلاث ثوانٍ أهو إنسان غبيّ؟ لا واللهِ، ذكي، فهل للذكاء حينئذٍ قيمة مطلقة؟ لا والله، قيمة متعلقة بتوظيفه، فإذا وظفت الذكاء في معرفة الله، وفي الدعوة إليه، وفي العمل الصالح فهذا الذكاء نعمة من الله، أما إذا وظفته في شيء آخر فهو نقمة، ولحكمة أرادها الله لا ندري أبعادَها أكثرُ الحيوانات التي تشمئزون منها، والتي إذا ذكر اسمُها، أو رآها الإنسان يكاد يخرج من جلده، هذه الحيوانات تتمتع بأعلى قدر من الذكاء من بين الحيوانات ، ومع ذلك لا يحمَّل الإنسان رؤيتها، لماذا فعل الله ذلك؟ لبيان أنّ الذكاء وحده لا يكفي، قال الشاعر:

جمال الوجه مع قبح النفوس كقنديل على قبر المجوس

لذلك كلّ المجرمين في العالم الغربي يتمتعون بأعلى درجة من الذكاء، ويستخدمون الذكاء لسلب أموال الناس، ولقتلهم، وابتزاز ما عندهم، لذلك إذا آتى اللَّهُ عبدًا ذكاء فلا ينبغي أن يعدّه نعمة إلا إذا وظفه في الحق، أما إذا وظّفه في الباطل فهو نقمة ما بعدها نقمة، ويزداد وقوعًا في النار بسبب ذكائه، قال تعالى:

(إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ * سَأُصْلِيهِ سَقَرَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ * لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ * لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ * عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ)

(سورة المدثر الآية: 18-30)

كان صفوان ذكيًّا، ووجدها فرصة لا تعوض، ومناسبة لا تفوت- فقال له:

((يا عمير اجعل دَيْنَك كلَّه عليَّ، بالغاً ما بلغ، فأنا أقضيه عنك، هذه أول مشكلة حللناها، وسأضمُّ عيالك إلى عيالي ما امتدت بي الحياة، أولادك أولادي، وإنّ في مالي من الكثرة ما يسعهم جميعاً، ويكفل لهم العيش الرغيد، ثم قال لعمير: فامضِ لما أردتَ، وأنا معك، اذهب واقتله، وأرحْنا منه، فقال عمير: إذاً: اكتمْ حديثنا هذا، ولا تطلع عليه أحداً، قال صفوان: لك ذلك، إنّه حديث تمَّ بين اثنين، ولا يعلم أحد فحواه))

إذا أرادوا أن يعقدوا اجتماعًا، ولا يتسرب خبرُه أبداً يقعدون في الصحراء تحت خيمة ، فالمفروض أنّ هذا الاجتماع لا يتسرب منه شيء أبداً .

إليكم قصة إسلام عمير بن وهب :

أيها الأخوة، قام عمير من المسجد، ونيران الحقد تتأجّج في فؤاده على محمد صلى الله عليه وسلم، وطفِق يعُدُّ العدة لإنفاذ ما عزم عليه، فما كان يخشى ارتيابَ أحد في سفره فابنُه أسيرٌ لدى المسلمين بالمدينة، وهو ذاهب ليفكَّ أسْرَه، أمَرَ عميرُ بن وهب بسيفه فشحذ، وسقي سمًّا، ودعا براحلته فأعدت، وقدمت له فامتطى متنها، ويمّم وجهه شطر المدينة و ملء ردائه الضغينةُ والشرُّ .

بلغ عمير المدينة، ومضى نحو المسجد يريد النبي عليه الصلاة والسلام، فلما غدا قريباً من بابه أناخ راحلته، ونزل عنها، وبدأت العقدة، وصل عمير إلى المدينة ليفُكَّ أسر ابنه، فالأمر مُغطًّى بحُجة واضحة .

كان سيدنا عمر بن الخطاب عملاقُ الإسلام، وأحد أركان هذا الدين جالساً مع بعض الصحابة قريباً من باب المسجد، يتذاكرون بدراً، وما خلفته وراءها من أسرى قريش وقتلاهم، و يستعيدون صور البطولة التي قدّمها المسلمون من المهاجرين والأنصار، ويذكرون ما أكرمهم الله به من النصر، وما أراهم في عدوهم من النكاية والخذلان، فحانت منه التِفاتَةٌ فرأى عمير بن وهب ألدَّ أعداء رسول الله ينزل عن راحلته، ويمضي نحو المسجد متوشحاً سيفه، فَهَبَّ عمر مذعوراً، وقال: هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب، والله ما جاء إلا لشر، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ ثُمَّ قَرَأَ (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ))

[أخرجه الترمذي في سننه عن أبي سعيد الخدري]

إنّ المؤمنَ مسدَّدٌ رشيد، ولقد ألَّبَ المشركين علينا في مكة، وكان عينًا علينا قبيل بدر، ثم قال لجلسائه: امضوا إلى النبي عليه الصلاة والسلام، وكونوا حوله، واحذروا أن يغدر به هذا الخبيث الماكر .

وفي رواية أخرى أنه انطلق إليه، وقال له: ما الذي جاء بك إلينا؟ ولِمَ هذا السيف على عاتقك؟ ثم قيّده في حمالته، وساقه إلى النبي عليه الصلاة والسلام، دخل سيدنا عمر وعمير بن وهب على سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، وقال عمر: يا رسول الله، هذا عدو الله عمير بن وهب، قد جاء متوشحاً سيفه، وما أظنه إلا يريد شراً، فقال عليه الصلاة والسلام: أدخِلْه عليّ، فأقبل الفاروق على عمير، وأخذ بتلابيبه، وطوّق عنقه بحمّالة سيفه، ومضى به نحو النبي عليه الصلاة والسلام، والنبي رقيق، نور يشعّ، إنه نفس إنسانية تفيض رحمة، والإنسان يمتحن، فأن ترحم مَن تحب هذا أمرٌ طبيعي جداً، وأهل الدنيا الكفار يرحمون مَن حولهم، مَن يلوذ بهم، ولكن عظمة الإيمان أن المؤمن يحب الناس جميعاً، فيرحم أعداءه قبل خصومه، فقال عليه الصلاة والسلام: يا عمر، أطلقه وفكَّ عنه هذا القيد، فأطْلَقه، ثم قال: يا عمر استأخر عنه، فتأخر عنه، ثم توجّه النبي عليه الصلاة و السلام إلى عمير بن وهب، وقال: ادنُ يا عمير، فدنا، وقال: أنْعِمْ صباحاً يا محمد، وهذه تحية العرب في الجاهلية، فقال عليه الصلاة و السلام: يا عمير، لقد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك هذه، لقد أكرمنا الله بالسلام، وهي تحية أهل الجنة، فقال عمير بفظاظة ما بعدها فظاظة وغلظة ما بعدها غلظة: واللهِ ما أنت ببعيد عن تحيتنا، وإنك بها لحديث عهد .

أيها الأخوة، قد تتحمل إنسانًا مؤمنًا، وهناك شخص صدره واسع، ونَفَسُه طويل، حليم، يتلقى فظاظة خصومه بصدر رحب، ويمتصُّ مواقفهم الفجّة، وهناك شخص لا يتحمل، إذا أردت أن تكون داعية إلى الله عز وجل فلا بد من حلم كثير، ولا بد من سعة صدر، ولا بد من تجاوز، ولا بد أن تكون في أعلى مستويات الرحمة والحب .

فقال يا عمير: ما الذي جاء بك إلينا؟ فقال: جئت أرجو فكاكَ هذا الأسير الذي في أيديكم، قال النبي: فما بالُ هذا السيف الذي في عنقك، قال له : قبّحها الله من سيوف، وهل أغنت عنا شيئاً يوم بدر؟ إنّه يخادع، قال: أصْدِقْني يا عمير، ما الذي جئت له يا عمير؟ قال: ما جئتُ إلا لذلك، قال له: يا عمير، بل قعدتَ أنت وصفوان بن أمية عند الحِجر، فتذاكرتما أصحابَ القليب من صرعى قريش، ثم قلت لصفوان: لولا دَيْن عليَّ وعيال عندي لخرجتُ حتى أقتل محمداً، فتحمّل لك صفوان بن أمية دَيْنَك وعيالك على أن تقتلني، أليس كذلك يا عمير؟ هذه الآية التي أعطاها الله لعُمير، فذهل عمير لحظة، ثم ما لبث أن قال: أشهد أنك رسول الله، انتهى الأمر .

إنّ الله عز وجل يُري الإنسان وهو في المعصية وهو في الضلال يريه آية من آياته، فإنْ لم يستجب فقد ضيّع فرصة لا تتكرر، ثم قال مرة ثانية: لقد كنا يا رسول الله نكذِّبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء، بعض الناس يكون محدودًا في نظرته، فيقول لك: هذه سحبة فلا تصدق ، كلهم دجالون، هؤلاء الكفار كلماتهم قاسية جداً- وما ينزل عليك من الوحي، لكن يا رسول الله خبري مع صفوان بن أمية لم يعلم به أحد إلا أنا وهو، ووالله لقد أيقنتُ يا رسول الله أنه ما أتاك به إلا الله، الآن أنت رسول الله حقًّ وصدقًا، فالحمد لله الذي ساقني إليك يا رسول الله سوقاً -وفي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ:

((عَجِبَ اللَّهُ مِنْ قَوْمٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ فِي السَّلَاسِلِ))

[أخرجه البخاري في الصحيح عن أبي هريرة]

وفي رواية أبي داود وأحمد:

((عَجِبَ رَبُّنَا عَزَّ وَجَلَّ مِنْ قَوْمٍ يُقَادُونَ إِلَى الْجَنَّةِ فِي السَّلَاسِلِ))

[أخرجه البخاري في الصحيح عن أبي هريرة]

ما هو الأمر الذي وجهه رسول الله إلى أصحابه وماذا نستفيد منه ؟

فقال عليه الصلاة والسلام:

((فقّهوا أخاكم، -صار الآن أخاكم، ليس هناك عداوة دائمة أبداً في الإسلام، أنت تعادي سلوكه، وتعادي كفره، وتعادي فسقه، وتعادي فجوره، فإذا عاد إليك فهو أخوك حقاً، وانتهى الأمر- قال: فقّهوا أخاكم، وعلّموه القرآن، وأطلقوا أسيره، إكراماً له، وفرح المسلمون بإسلام عمير بن وهب أشدّ الفرح، حتى إن عمر بن الخطاب قال: واللهِ لَلْخنزير كان أحبَّ إلي من عمير بن وهب حين قدم على رسول الله، وهو اليوم واللهِ أحبُّ إليَّ من بعض أبنائي ، -فهذا هو الدين، لمجرد أن يؤمن المرء، لمجرد أن يصطلح مع الله، لمجرد أن يتوب إلى الله، لمجرد أن يعود إلى الطريق الصحيح، فهو أخوك حقاً، وما لم تكن هذه المودة، وهذه المحبة، وهذا التناصح، وهذا البذل، وذاك العطاء بين المؤمنين، فو اللهِ لا خير فينا، ولا ينظر الله إلينا، وواللهِ ما من وقت مَرَّ على المسلمين في تاريخهم هم في أمَسِّ الحاجة إلى أن يتعاونوا، ويتكاتفوا ويعذر بعضهم بعضا، ويسامح بعضهم بعضاً، ويعين بعضهم بعضاً، وما مِن وقت مرَّ على المسلمين في تاريخهم كهذا الوقت الذي هم في أمسِّ الحاجة إلى التعاون، وما من وقت مرّ على المسلمين في تاريخهم أصعب من هذا الوقت، حيثُ أعداؤهم يهجمون عليهم هجمة شرسة وحشية في كل أنحاء العالم، والأخبار بين أيديكم، وقد قال الله عز وجل:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

(سورة المائدة الآية: 2)

الحقيقة المؤشر الصحيح للمؤمنين أنه يجب أنْ يكونوا كالصف الواحد، كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضاً، كالجسد الواحد إن اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، فعَن النُّعْمَان بْن بَشِيرٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى))

[متفق عليه، أخرجهما البخاري ومسلم عن النعمان بن بشير في الصحيح]

سوف أعطيك مقياسًا واضحًا أيها الأخ الكريم، لك أخ مؤمن أَلَمَّتْ به ملمّة، فهل تتألم؟ إن تألمت وربِّ الكعبة إنك لمؤمن، وإن لم تتألم فقد وضعتَ نفسك شئت أم أبيْتَ في صفّ المنافقين، قال عز وجل:

(إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ)

(سورة آل عمران الآية: 120)

لمجرد أن تفرح بملمّة ألمّت بمؤمن، بنازلة نزلت به، بمصيبة حلّت به، لمجرد أن تفرح فلست مؤمناً، لقد وضعت بذلك نفسك مع المنافقين، أمّا إذا رأيت أخاك المؤمن قد أكرمه الله بشيء من الدنيا، بمرتبة، بوظيفة، بزواج، ببيت، بدعوة، ففرحت به، واغتبطت له، وأعنته فأنت مؤمن وربّ الكعبة، أمَّا إذا حسدتَه، وأردتَ أن تبحث عن عيوبه، وأردتَ أن تطعن فيه، وأردتَ أن تُزَهِّد الناس فيه لحسد يغلي في قلبك فأنت واللهِ مع المنافقين، والدليل قول الخبير العليم:

(إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ)

(سورة آل عمران الآية: 120)

المنافق يتألم أشد الألم إذا أصاب المؤمنَ خيرٌ- .

صار عميرٌ يزكّي نفسَه بتعاليم الإسلام، ويشرق فؤاده بنور القرآن، ويحيا أروع أيام حياته وأغناه))

أيها الأخوة، إنّ أحدكم بعد ما تاب إلى الله، واصطلح معه، وسار على طريق الإيمان، إذا لم يقل: أنا أسعد إنسان في الأرض يكون في توبته خلل، لأن ربنا عز وجل يكرم التائب بسعادة لا توصف، براحة لا سبيل إلى وصفها، ويشعر المؤمن التائب أنه ملك، وأنه أسعد الناس.

ذات مرة قال لي أخ كلمة، وكان في الحج: واللهِ يا أستاذ، ليس في الأرض مَن هو أسعد مني إلا أن يكون أتقى مني، فأنت سعادتك بإيمانك، سعادتك بطاعتك، سعادتك بعملك الصالح، سعادتك بأخوانك، سعادتك بمجلس العلم، سعادتك بمسجدك، إذا كان لك هذا الانتماء فأنت مع المؤمنين، أمّا الذي يتبع غير

سبيل المؤمنين نُوَلِّهِ ما تولى، أنت مع المجموع، أنت عضو في جماعة، أنت خلية في جسد، أنت غصن في شجرة، تتألم لألم أخوانك، وتفرح لفرحهم، تسخِّر إمكاناتك في خدمتهم، أنت إذًا: مؤمن، وهكذا يكون الإيمان .

>ما هو الخبر الذي كان ينتظره صفوان وما هو الخبر الذي صدم به ولماذا عاد عمير إلى مكة ؟

لماذا كان صفوان في أروع أيام حياته؟ لأنه يتوقع بعد أيام أن يأتي الخبر المفرح بأن محمَّداً قد قتل، كان صفوان صامتًا لا يتكلم، لقد اتفق صفوان وعمير ألا يتكلما، ولكن كان يقول: يا معشر قريش، أبْشِروا بنبأ عظيم يأتيكم قريباً، ثم إنه لمَّا طال الانتظار على صفوان بن أمية قالوا: أين هذا الخبر السار؟ فكان يخرج كل يوم إلى ظاهر مكة يسأل القوافل عن أخبار المدينة، فلا يسمع شيئًا، ولا يصله شيء، ولمَّا طال الانتظار أخذ القلق يتسرب إلى نفسه شيئاً فشيئاً، حتى غدا يتقلب على أحرّ من الجمر، لقد كفل له أولاده، وكفل له دَيْنَه، فماذا ينتظر؟ و طفق يسأل الركبان والقوافل عن عمير بن وهب، فلا يجد عندهم جواباً يشفيه، إلا أنه مرة جاءه راكب فقال : إنّ عميراً قد أسلم يا سيدي، صاحبك أسلم، فنزل عليه الخبرُ نزولَ الصاعقة، إذْ كان يظن أن عمير بن وهب لا يسلم ولو أسلم جميعُ مَن في الأرض، لكنَّ الآية الباهرة التي جاءته من الله، والتي أكدّت له صدق النبي، وأنه رسول استفاد منها، فإذا أرَى الله عز وجل عبدًا آية فلا يركب رأسه .

أما عمير بن وهب فإنه ما كاد يتفقه في دينه، ويحفظ ما تيسّر له من كلام ربه، حتى جاء إلى النبي عليه الصلاة والسلام، وقال: يا رسول الله، لقد غبَرَ عليّ زمان، أي مضى علي زمان، وأنا دائب على إطفاء نور الله، شديد الأذى لمَن كان على دين الإسلام، وأنا أحب أنْ تأذن لي أن أقدم على مكة لأدعو قريشاً إلى الله ورسوله فأُكفِّر عما سبق مني، فرجع إلى مكة داعية، لقد خرج منها قاتلاً، فعاد داعية، وهذه أنوار النبي صلى الله عليه وسلم، هذه عظمة الرسالة، وهذه عظمة النبوة، لذلك على الإنسان ألاّ يعد حياته التي عاشها قبل أن يسلم، والوقت الذي أمضاه قبل أن يتعرف إلى الله عز وجل، لا يعدّ هذا الوقت من حياته .

ذهب رجل إلى قرية، وزار مقبرتها، فلفت نظره شيء عجيب على الشواهد، هذا عاش ثلاث سنوات، وقد يكون طفلاً، وهذا أربع، وهذا خمس، وهذا ثماني سنوات، غير معقول، مقبرة بأكملها كلهم صغار، فسأل، فقيل له: هؤلاء أهل القرية لا يعدُّون من حياتهم السنوات التي سبقت إيمانهم، فالواحد منا متى تعرَّف إلى الله؟ في العشرين، والآن عمره أربعون سنة، كم مضى مِن عمرك يا أخي؟ أنا مضى مِن

عمري أربعون سنة لا عشرون، الباقي لا دخل لها، الباقي كنتُ لا أعرف عن ديني خلاله شيئًا، فعمر الإنسان الحقيقي هو العمر الذي تعرّف إلى الله فيه .

أذِنَ النبي عليه الصلاة و السلام لعمير، فوافى مكة، وأول بيت طرقه بيتُ شريكه بيت صفوان بن أمية، فدهش صفوان، قال: يا صفوان، إنك لسيد من سادات مكة، وعاقل من عقلاء قريش، أفَتَرَى أن هذا الذي أنتم عليه من عبادة الأصنام، والذبح لها، أيصح في العقل أن يكون ديناً؟ أين عقلك؟ هل هذا دين؟ حجر تنحتونه أنتم وتعبدونه، وتقدمون له الهدي! فليس هذا معقولاً ، لقد صار عمير عاقلاً، انظر فالإسلام يفتح الذهن، وينوِّر النفس، ويوقظ الفكر، قال له: أمّا أنا فأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، -فالجماعة رحمة، وإذا كان الإنسان مع الجماعة، ويجد فلانًا و فلانًا و فلانًا، وصديقه، وجاره، كلهم يصلون، وعابدون الله عز وجل، ويحضرون مجالس العلم، ويتفقهون، حينئذٍ يأنس بهم، أمّا إذا انزوى الإنسانُ وحده، انفرد به الشيطان، فعَن ابْنِ عُمَرَ، قَالَ:

((خَطَبَنَا عُمَرُ بِالْجَابِيَةِ، فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي قُمْتُ فِيكُمْ كَمَقَامِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِينَا، فَقَالَ: أُوصِيكُمْ بِأَصْحَابِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَفْشُو الْكَذِبُ حَتَّى يَحْلِفَ الرَّجُلُ وَلَا يُسْتَحْلَفُ، وَيَشْهَدَ الشَّاهِدُ وَلَا يُسْتَشْهَدُ، أَلَا لَا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا كَانَ ثَالِثَهُمَا الشَّيْطَانُ، عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْوَاحِدِ وَهُوَ مِنَ الِاثْنَيْنِ أَبْعَدُ، مَنْ أَرَادَ بُحْبُوحَةَ الْجَنَّةِ فَلْيَلْزَمِ الْجَمَاعَةَ، مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَذَلِكُمُ الْمُؤْمِنُ))

[أخرجه الترمذي في سننه عن ابن عمر]

عَنْ مَعْدَانَ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ الْيَعْمُرِيِّ، قَالَ: قَالَ لِي أَبُو الدَّرْدَاءِ: أَيْنَ مَسْكَنُكَ؟ قُلْتُ: فِي قَرْيَةٍ دُوَيْنَ حِمْصَ، فَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ:

((مَا مِنْ ثَلَاثَةٍ فِي قَرْيَةٍ وَلَا بَدْوٍ لَا تُقَامُ فِيهِمُ الصَّلَاةُ إِلَّا قَدِ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ، فَعَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ، فَإِنَّمَا يَأْكُلُ الذِّئْبُ الْقَاصِيَةَ))

قَالَ السَّائِبُ: يَعْنِي بِالْجَمَاعَةِ الْجَمَاعَةَ فِي الصَّلَاةِ .

[أخرجه أبو داود في سننه]

فالذي يعيش وحده تأتيه الوساوس، ويفتي لنفسه، ويتكاسل في أداء عباداته، ويستبيح بعض المحرمات، يقول لك: لا شيء بها، أنت ترى أن ليس فيها شيء، فمَن أنت؟ قرأت مرة بيت شعر:

يقولون هذا عندنا غير جائز فمن أنتم حتى يكون لكم عند

ما هذه (عندنا)؟ ومن أنت؟ وشرع مَن هذا؟ الشرع كلام الله وسنة رسوله، هل أنت مصدر تشريعي؟ أنت عبد لله عز وجل، قال تعالى:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُبِيناً)

(سورة الأحزاب الآية: 36)

لذلك كم مِن صديق هدَى صديقه بالمنطق؟ أقول لكم: ما هو الواجب على المهتدي؟ أنْ يهديَ أصدقاءه الذين عاشوا معه، كل أخ من أخواننا له جيران، وله أصدقاء، وله زملاء عمل ادْعُهم إلى بيتك، فأنت تستفيد إذْ تصطلح مع الله، وتُقبِل عليه، وتسعد بقربه، وتشعر أنك تطير في السماء، ورفيقك الذي عشت معه ثلاثة عشر عامًا إنْ تركه في ضلالاته وبُعْده ومعاصيه فأنت لست مؤمناً، فعليك أن تدعو إلى الله مَن يلوذ بك .

إذا هداك اللهُ، وتعرفتَ إليه، وسعدتَ بقربه، انْظُر إلى مَن كان معك سابقاً، وأقرب الناس إليك زوجتك، أم أنك تمدحها على جودة طبخها، ولكنها لا تصلي، فهل هذا مؤمن؟ يهمّك منها طبخها فحسْب، أما المؤمن الصادق فأقرب الناس إليه زوجته، وأولاده، وأخواته البنات، وأولاد عمه، وأولاد خالته، وجيرانه، وزملاؤه، فإذا اهتديت وسعدتَ فأسْعِدْهُم، واجلسْ معهم جلسة، واسهرْ معهم سهرة، أعطِهم شريطًا ليسمعوه، وهذا هو السعي الطيب، الذي قال الله تعالى في حقّه:

(إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً)

(سورة الإنسان الآية: 22)

سعيك في الدنيا .

إذا ذهبت إلى صديقك في طرف المدينة الآخر، وركبتَ، وانتقلتَ من حافلة إلى حافلة، لكي تجلس معه جلسة، فتحتاج إلى جهد ووقت، لكن الله لا يضيعُ عنده شيء، قال تعالى:

(إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً)

(سورة الإنسان الآية: 22)

قال عمير لصفوان: أمّا أنا فأشهد أنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ثم طفق عمير يدعو إلى الله في مكة، حتى أسلم على يديه خلقٌ كثير، فأنت حينما تدعو إلى الله فقد أحْيَيْتَ مَن هديتَه حياةَ نفسٍ غالية، قال تعالى:

(مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ)

(سورة المائدة الآية: 32)

يصبح المؤمنُ أُمّة، هو وزوجته، وجيرانه .

وذاتَ مرة أكرمني اللهُ بأخ زارني في البيت، يطلب مني ألاّ أسمح لأولاده أنْ يحضروا دروس العلم، هكذا طلب، فظللتُ أقنعه حتى صار يأتي هو وأولاده وشركاؤه وصهره، وما بقي أحد إلا وأحضره إلى المسجد بعد أن تألق .

>الرواية الثانية التي تتعلق بخبر عمير وصفوان :

هناك رواية ثانية في كتاب آخر تذكر أنّ سيدنا عمير بن وهب جاء النبي بعد فتح مكة، وصفوان كما تعلمون ممّن أهْدَر النبيّ دمَهم، اقتُلوهم، ولو تعلّقوا بأستار الكعبة، هو وعكرمة بن أبي جهل ونفر آخرون، وعمير صديق حميم وفيٌّ، ذهب إلى النبي، وقال:

((يا نبي الله، إنّ صفوان بن أمية سيد قومه، وقد خرج هارباً منك، ليقذف بنفسه في البحر لينتحر، وهو خائف، لأنه مهدور الدم، مقتول، فأمنْهُ يا رسول الله، فقال: هو آمِن، فقال: أعطني آية يَعرف بها أمانك، أريد علامة ، فأعطاه النبي عِمامته، قال له: خذ عمامتي، فقال عمير لصفوان: يا صفوان، هذه عمامة النبي، وقد أمّنك، قال تعالى:

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)

(سورة التوبة الآية: 128)

ذهب إلى صفوان وقد ولى هارباً شطر البحر لينتحر، فقال له:

((إن رسول الله يا صفوان أفضل الناس، وأبَرّ الناس، وأحلم الناس، وخير الناس، عزّه عزّك، وشرفه شرفك، فقال له : إني أخاف على نفسي أن يقتلني، فقد هدر دمي، قال له: هو أحلم من ذلك، وأكرم، فجاء صفوان النبيَّ الكريمَ، والشاهد العمامة، والكلام صحيح، فقال للنبي الكريم: إنّ هذا يزعم أنك قد أمّنتني، فقال: صدق، قال له: اجعلني بالخيار، أن أستشير عقلي شهرين، قال له: أنت في الخيار أربعة أشهر، وعندما دخل رسول الله مكة، قال أبو سفيان: يا ابن أخي ما أحلمك، وما أكرمك، وما أوصلك، وما أحكمك))

هذا عمير بن وهب أراه الله عز جل أراه آية، وقد اهتدى وهدى، وكل واحد منا له نصيب يصيبه مما يُشْبه هذه القصة، وهذا الذي أصابه حُجّة عليه، فعليه أن ينتبه، فهو يتعامل مع الله عز وجل .

والحمد لله رب العالمين

السيرة - رجال حول الرسول - الدرس (31-50) : سيدنا أبو هريرة الدوسي

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 17-05-1993

بسم الله الرحمن الرحيم

ما هي الحكمة الربانية في توزيع القدرات بين البشر وهل خصصت الجنة للدعاة فقط ؟

أيها الأخوة الأكارم، مع بداية الدرس الواحد والثلاثين من دروس سير أصحاب رسول الله رضي الله عنهم تعالى أجمعين، وصحابيّ اليوم تعرفونه جميعاً، فما من مسلم إلا ويطرق سمعَه اسمُ هذا الصحابي الجليل في كل خطبة تُلقى، وفي كل درس يُعطى، وفي كل كتاب يُقرأ، إنه الصحابي الجليل أبو هريرة الدوسي رضي الله عنه .

وقبل أن نمضي في الحديث عن هذا الصحابي الجليل نذكر سببَ اختيار هذا الصحابي، في فكرة أساسية مؤدَّاها أن الله سبحانه وتعالى أعطى الإنسان حرية الاختيار، وجعل للجنة أبوابًا عدة، فكل إنسان بإمكانه أن يصل إلى الجنة من أيِّ باب من هذه الأبواب، هناك من يطلب العلم فقط ليتعلّم ويعلّم، وهناك من يتعلّم ويقدِّم خدمات للناس، وهناك من يبني المساجد، وهناك من يرعى الأيتام، وهناك من يعين الضعفاء، وهناك من ينصر المظلومين، فالطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق، فمِنَ السذاجة وضيق الأفق والجهل أن تظنّ أن الجنة للدعاة إلى الله فقط، لا، فهي أيضًا لأصحاب الحرف، ولمن أتقنوا حرفهم، ولمن خدموا المسلمين، ولأصحاب الأموال الذين أنفقوا أموالهم رخيصة في سبيل الله، ولأصحاب الجاه الذين وضعوا جاههم في خدمة الضعفاء، ولمن أنشؤوا المساجد، ولمن أسّسوا دور الأيتام، أبواب الجنة مفتحة لكل هؤلاء، فأنتم ترون كيف أنّ صحابياً جليلاً باعُه طويل في الجهاد، كسيدنا خالد؟ وأن صحابياً جليلاً آخر باعه طويل في الإنفاق، وأن صحابياً جليلاً آخر باعه طويل في تعلُّم العلم وتعليمه .

فهذا الصحابي الجليل أبو هريرة رضي الله عنه نمطٌ فريد، فما من صحابي روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يزيد عن خمسة آلاف وستمئة حديث كأبي هريرة، لذلك بعض العلماء لهم تعبير مهني يقولون: هذا مريد علم، هذا مريد خدمة، ترى طالب علم همُّه الأول أن يخدم المسجد، ويحسِّنه، وينظفه، فهذا على العين والرأس، وتجد إنسانًا آخر همه حفظُ الآيات والأحاديث والتفاسير، وهو على العين والرأس، وهناك إنسان ثالث همه الإنفاق ومساعدة الفقراء ، فهو كذلك على العين والرأس، فكل إنسان يعمل في حقله، والشيء العجيب أنّ الإنسان مخيَّر، ومع أن الحياة تحتاج إلى آلاف آلاف الأعمال فقد نسق الله عز وجل بين اختيار الإنسان وبين إعمار الكون على مستوى الحياة الاقتصادية

والاجتماعية، فكل إنسان يحقق اختياره ويستمتع بعمله، ومجموع الأعمال يحقق إعمار للأرض، لكنْ كيف تمّ هذا التنسيق بين اختيار الناس وبين تحقيق حاجات البشر جميعاً؟ لقد تمّ هذا بترتيب وتدبير الله سبحانه على مستوى مدينة واحدة، فيها خطاطون، وفيها منشدون، وفيها قراء قرآن، وفيها تجار، وكل إنسان اختار مهنة أحبّها، وبرع فيها، لكن كيف تنسق اختيار هؤلاء جميعاً؟ حيث إن هذه المدينة فيها كل الحِرَف، وفيها كل الفعاليات .

على كُلٍّ مقدمتي هذه هدفُها أن أحدناً لا يتوقف عمله، فأي قطر إسلامي يعدّ من أكبر الأقطار الإسلامية تعداداً من حيث سكانه، إندونيسيا، فيها مئة وخمسون مليون مسلم، والأمة العربية من خليجها إلى محيطها مائتا مليون، أكبر قطر إسلامي أسلم أبناؤه عن طريق التجار والبيع والشراء، لذلك ففي الحديث الشريف عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدريِّ عَن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((التَّاجِرُ الصَّدُوقُ الْأَمِينُ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ))

[أخرجه الترمذي في سننه عن أبي سعيد الخدري]

لماذا؟ لأنه داعية كبير، وهو لا يدري، ولأنه حقق للناس حاجات أساسية باعهم بضاعة جيدة بسعر معتدل، وكان لطيفًا معهم، رحيمًا بهم، سَمْحًا في التعامل معهم، فهذا التاجر الصدوق يمكن أن يكون داعية إلى الله وهو ساكت .

ما هو الاسم الذي سماه رسول الله لأبي هريرة ولماذا كان يكنى بأبي هريرة

والآن إلى الصحابي الجليل أبي هريرة رضي الله عنه، لقد كان الناس يدعون هذا الصحابي الجليل في الجاهلية عبد شمس، الناس بأسمائهم، فرعون، قارون، سيدنا زيد، ولا تجد إلا كنية واحدة في القرآن كله، وهي أبو لهب، لأن اسمه الأساسي عبد العزى، والقرآن لا يصح أن يذكر اسمًا أساسه الشرك لذلك قال تعالى:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ)

(سورة المسد الآية: 1-2)

أحيانا يتألم الإنسان إذا نودي باسمه، لا تتألم يا أخي، فقد نادى الله الأنبياء بأسمائهم، فقال:

(إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ)

(سورة آل عمران الآية: 55)

ناداه باسمه، قال تعالى:

(يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ)

(سورة مريم الآية: 12)

أما أصحاب الكنى:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)

(سورة المسد الآية: 1)

القرآن الكريم لم يذكر من أسماء الكنى إلا أبا لهب قياساً على هذا، فاسم هذا الصحابي الجليل عبد شمس، فلما أكرمه الله بالإسلام، وشرّفه بلقاء النبي عليه الصلاة والسلام، قال له:

((ما اسمك؟ قال: عبد شمس، فقال عليه الصلاة والسلام: عبد الرحمن، فقال: نعم، عبد الرحمن))

بأبي أنتَ وأمي يا رسول الله، ومِن السنة أن تُغَيِّر أسماءَ مَن تحب إنْ كانت قبيحة منفِّرة، أو كانت من أسماء ترمز إلى الشرك، ولا تليق بالمؤمن الموحِّد، ما اسمك يا زيد؟ فقال: اسمي زيد الخيل، قال : بل أنت زيد الخير، هناك أسماء لا تليق، مثل عدوان، لماذا؟ ينبغي أن نغيِّرها، أعتقد أنّ من حق الإنسان أن يغيّر اسمه إلى اسم يروق له، لكن دائماً من حق الولد على والده أن يحسن تسميته كي يزهو باسمه .

أمّا لماذا كان يكنى بأبي هريرة؟ فإنّ سبب ذلك كانت له هرة وهو صغير، يلعب بها، فجعل لدّاته أي أصدقاؤه ينادونه أبا هريرة، وشاع ذلك، وذاع حتى غلب على اسمه، ونحن عندنا في تاريخ الأدب أسماء، مثل الجاحظ لجحوظ عينيه، المتنبي، أبو تمام، أسماء كثيرة غلبت على أسماء أصحابها الحقيقية الكنى والألقاب .

بالمناسبة سيدنا عمر سُمِّي الفاروق، وهذا لقبه، وكنيته أبو حفص، وابن الخطاب، والكنية أبو فلان أو ابن فلان، والصديق لقب، القرشي نسب، فلان الحداد شهرة، والشهرة شيء، واللقب شيء، والنسب شيء، والاسم شيء، وأكثر أسماء الأسَر أساسُها الصنعة، السمّان، الحدّاد، وغير ذلك .

لماذا كان ينادي رسول الله أبا هريرة بهذه الكنية ؟

فلما اتصلت أسبابه بأسباب رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل يناديه كثيراً بأبي هِرّ، إيناساً له وتحبباً، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم رقيق لطيفًا، ومثل هذا ما رواه الشيخان وغيرُهما عَنْ أَنَسٍ، قَالَ:

((كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا، وَكَانَ لِي أَخٌ، يُقَالُ لَهُ: أَبُو عُمَيْرٍ، قَالَ: أَحْسِبُهُ فَطِيمًا، وَكَانَ إِذَا جَاءَ، قَالَ: يَا أَبَا عُمَيْرٍ، مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ نُغَرٌ، كَانَ يَلْعَبُ بِهِ، فَرُبَّمَا حَضَرَ الصَّلَاةَ وَهُوَ فِي بَيْتِنَا، فَيَأْمُرُ بِالْبِسَاطِ الَّذِي تَحْتَهُ فَيُكْنَسُ وَيُنْضَحُ، ثُمَّ يَقُومُ وَنَقُومُ خَلْفَهُ فَيُصَلِّي بِنَا))

[أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح عن أنس]

وكان يتحبب للسيدة عائشة، ويقول لها: يا عويش، فعَن مسلم بن يسار، قال: بلغني أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل على عائشة، فقال:

((يا عويش، مالي أراك أشرق وجهك))

[ورد في الأثر]

وفي اللغة العربية الاسم يصغَّر تعظيماً، ويصغَّر تحقيراً، ويصغَّر تحبُّباً، فمِن تصغير التعظيم قولُ لبيد بن ربيعة:

وَكُلُّ أُنَاسٍ سَوْفَ تَدْخُلُ بَيْنَهُمْ   دُوَيْهِيَةٌ تَصْفَرُّ مِنْهَا الأَنَامِلُ

الدويهية تصغير داهية، وهذا تصغير تعظيم، يعني هذا الأمر داهية كبير، وتصغير التحقير تقول هذا شويعر، تصغير شاعر، عويلم، هذا تصغير التحقير، أما تصغير التحبّب يا عويش، فصار يُؤْثِر أبا هر على أبي هريرة، ويقول: ناداني بها حبيبي رسول الله، والهرّ ذَكَرُ، والهريرة أنثى، والذكرُ خير من الأنثى، هكذا عُلّلتْ .

ما هي الحرفة التي اتخذها أبو هريرة بعد إسلامه وعلى يد من أسلم ؟

أسلم أبو هريرة على يد الطفيل بن عمرو الدوسي، وظل في أرض قومه دوس إلى ما بعد الهجرة بست سنين، حيث وفد مع جموع من قومه على رسول الله صلى الله عليه وسلم، هذا الصحابي الجليل انقطع لخدمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاتخذ المسجد مقاماً، واتخذ النبي معلماً وإماماً، إذ لم يكن له في حياة النبي زوج ولا ولد، وتعرفون ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم في حديث يَعْلَى الْعَامِرِيِّ: أَنَّهُ جَاءَ حَسَنٌ وَحُسَيْنٌ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا يَسْتَبِقَانِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَضَمَّهُمَا إِلَيْهِ، وَقَالَ:

((إِنَّ الْوَلَدَ مَبْخَلَةٌ مَجْبَنَةٌ))

[أخرجه الترمذي في سننه]

أحيانًا التفرغ له معنى، فمع طلب العلم رائع جداً، والكلام موَجّه إلى أخواننا الشباب، وأنتم الآن في طور اليفاع، وأنتم الآن متفرغون، لا زوجة ولا ولد، والزواج مسؤولية ومتاعب، فريثما تتزوج أحدكم فعليكم بمضاعفة الجهد، لأن هذا الوقت الذي تعيشونه الآن لا تعرفون قيمته إلا بعد الزواج، فالزواج مشغلة، فاستغلوا وقتكم، وضاعفوا جهدكم، واطلبوا العلم حثيثاً، ومَن لم تكن له بداية محرقة لم تكن له نهاية مشرقة، ما المانع أن تحفظ القرآن الكريم؟ ما الذي يمنعك أن تطلب العلم طلباً حثيثاً؟ ما الذي يمنعك أن تضاعف من إنتاجك العلمي والتحصيلي وأنت شاب؟ والشيء المؤلم أنّ الإنسان حينما تتقدم به السن يتحرّق ألمًا على الوقت الذي مضى في شبابه على غير ما يتمنى، وقد قال الشاعر أبو العتاهية في هذا المعنى:

فَيَا لَيْتَ الشَّبَابَ يَعُودُ يَوْماً   فَأُخْبِرَهُ بِمَا صَنَعَ الْمَشِيبُ

فإذا سمح اللهُ لشابٍّ أنْ يستفيد من خبرات الآخرين، أو أكرمه بخبرات الشيوخ مقدَّمة له على طبق من ذهب، فعليه أن يستفيد منها، ومِن علامات ذكاء الإنسان وتوفيقه أنه يستفيد من خبرات الآخرين دون أن يدفع الثمن الباهظ لها، تجلس مع إنسان كبير في السن، يقول لك: آه، فتخرج من أعماق أعماقه، لقد ضيَّعتُ الوقت الثمين في شبابي، ترى الآن الشباب يقفز نشيطًا خمس درجات معاً على سُلَّم البناء، لكنّه بعد الأربعين والخمسين يميل للراحة والسكون والنوم، ويميل إلى إلغاء هذه الزيارة، وهذا اللقاء، فقد بدأت متاعبُه، أما وهو شاب يغلي غلياناً، ويتوقد نشاطاً، فالإنسان الشاب يستغل نشاطه، وأروع شاب هو الذي يمضي شبابه في تجارب الشيوخ، وحضور مجالس العلم، فيعطيك خبرات الشيوخ، وأنت شاب، فاستغِلَّ هذه الفرصة قبل أن تُشغَل، والحديث الشريف تعرفونه جميعاً:

((اغتنم خمساً قبل خمس، فراغك قبل شغلك، حياتك قبل موتك، صحتك قبل سقمك، شبابك قبل هرمك، غناك قبل فقرك))

وفي القرآن الكريم آية تحضنا على التسابق؟ قال تعالى:

(سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آَمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)

(سورة الحديد الآية: 21)

وقال سبحانه:

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ)

(سورة الصافات الآية: 61)

وقال عزوجل:

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ)

(سورة المطففين الآية: 26)

إليك قصة إسلام أم أبي هريرة والفرحة التي غمرت قلب ولدها :

أيها الأخوة، إلا أن هذا الصحابي كانت له أم عجوز أصَرَّتْ على الشرك، فكان لا يفتأ أن يدعوها إلى الإسلام إشفاقا عليها، وبراً بها، فتنفر منه، وتصده فيتركها، والحزن عليها يفري فؤاده فرياً .

والله أيها الأخوة، قد ألتقي بأخ شاب فتراه يتحرّق على هداية أمِّه وأبيه وهداية أخوته وأخواته، واللهِ أُكْبِرُه، فالإنسان إذا لم يكن فيه خيرٌ لأقرب الناس إليه فلا خير فيه لأحد، فالشاب المؤمن بأساليب ذكية جداً يُسمِع والدَه الحقَّ، ويُسمع والدته الحق، وينصح بأدب، ولا يدخر وسعاً لهداية أقرب الناس إليه،

وكلكم يعلم أن الابنَ لن يستطيع أن يردَّ جميل أبويه إلا في حالة واحدة، أن يكونا ضالَّين فيتم هدايدهما على يديه، فإذا فعل ذلك فقد ردّ الجميل كلّه، لأنّه أعتقهما من النار.

وفي ذات يومٍ دعاها إلى الإيمان بالله ورسوله، فقالت في النبي عليه الصلاة والسلام قولاً أحزنه، فمضى إلى النبي يبكي، فقال له النبي عليه الصلاة والسلام:

((ما يبكيك يا أبا هريرة؟ فقال: إني كنت لا أفتر عن دعوة أمّي إلى الإسلام فتأبى عليّ، وقد دعوتها اليوم فأسمعتني فيك ما أكره، وقال للنبي عليه الصلاة والسلام: فادعُ الله جل وعز كي يميل قلبَ أم أبي هريرة للإسلام، فدعا لها النبي صلوات الله وسلامه عليه .

قال أبو هريرة: فمضيتُ إلى البيت، فإذا بالباب قد ردّ، وسمعت خضخضة الماء، فلما هممتُ بالدخول قالت أمي: مكانك يا أبا هريرة، ثم لبستْ ثوبها، وقالت: ادْخُل، فدخلتُ، فقالت: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، فعدتُ إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وأنا أبكي من شدة الفرح .

-فالشاب المؤمن إذا كانت هذه رغبتُه، وهذا رجاؤه، وقد سمعتُ عن إنسان له أب ملحد ، ولهذا الأب أصدقاء كثر، فما زال هذا الشاب يقنع أباه بأدب ومنطق وحُجة، وكذلك أسمعه أشرطة، وخدمه، إلى أنْ مال قلبُ هذا الأب، ولعله صلى من أجل ابنه، فانتهزها الابنُ مناسبة، وأقام في البيت مولداً، دعا إليه كبار العلماء في هذه البلدة، ودعا إكرامًا لأبيه أصدقاء الأب كلهم، الذين هم على شاكلته، وقال لي: إنّ بعض العلماء تحدّث، وقال: إن هذا المولد نتج عنه خير كبير ، وهذا شيء رائع جداً، أنْ يمكّنك الله عز وجل ويسمح لك أن تهدي الطرف الآخر .

ذات مرة قال لي شخص: إنه جاءه مولود بعد سبع بنات، فأراد أنْ يقيم حفلاً لتقبُّل التهاني، وهو يعمل مدرسًا في معهد متوسط، وكل مَن حوله بعيدون عن الدين بعداً شديداً، وبعضهم لا يصلي إطلاقاً، وهو قريب لي، فاقترحتُ عليه بدل هذا اليوم الذي أعده لاستقبال أصدقائه أن يقيم مولداً للنبي صلى الله عليه وسلم، وتبرّعت أنا بإلقاء كلمة في هذا المولد، وجاء أولئك العلمانيون، وجلسوا، وفوجئوا أنّ الحفل مولد، طلبتُ مِنَ المنشد وأرشدتُه إلى أن ينتقي القصائد الجيدة، ثم ألقيتُ كلمة فيها توفيق إلهي .

أيها الأخوة، ثلاثة من ثلاثة وعشرين مدعوًّا لزموا هذه الدروس، وهم أبْعدُ الناس، فإذا أقمْتَ احتفالاً فلا تجعله احتفالاً عاديًّا، ولكنْ لِيَكُنْ احتفالك هادفاً، جاءك مولود، أو تزوجت فأقِمْ احتفالاً وادعُ علماء يتكلمون كلامًا طيبًا، واستغل هذا الاحتفال لتسميع الناس الحقَّ، فنحن هنا نتمنى على أخواننا أن يسمعوا الطرف الآخر، إذا وجد شخصٌ مجتهد ومتفوق جداً وأخلاقي، وقلت له: انتبه لوالدك، فهذا تحصيل حاصل، أو قلت له: اجتهد، فهذا تحصيل حاصل أيضًا، فأنت ما فعلت شيئًا مع هذا المجتهد، أما الإنسان الشارد الشقي إذا تلطفتَ معه، وأقنعته حتى مال لقبُه إليك فهذه البطولة، فبطولتك في إقناع الطرف الآخر، وبطولتك في إقناع البعيدين عن الدين، في إقناع أهل الدنيا، في إقناع العلمانيين، في إقناع الذين

رأوا أن الدين ليس لهذا العصر، وأنه سلوك أساسه الضعف والخوف، هذه رؤيتُهم- .

قلت: أبشِرْ يا رسول الله، فقد استجاب الله دعوتك، وهدى أمّ أبي هريرة إلى الإسلام))

فهل عندك يا أخي هذه الرحمة تجاه والديك؟ وإذا كان أبوك لا يصلي فهل أنت مرتاح، إذْ تعتقد أنه لا مشكلة نهائياً، أمَا خطر في بالك أنْ تنصحَه، وتتلطف معه، وتسمعه شريطًا، وتعينه على نفسه .

أنا أردت من هذا أنّ كل أخ مِن أخواننا الكرام له أب، وله أم، وله أخوات، وأصهار، وجيران، وأولاد عم، فلا بد أنْ يغار عليهم، ألست مسلماً؟ ألا تحب للناس ما تحب لنفسك؟ مَن منكم يصدِّق قول النبي عليه الصلاة والسلام في بيان المعنى الدقيق اللغوي للأخوة؟ فعَنْ أَنَسٍ رَضِيِ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ:

((لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ))

[متفق عليه، أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح عن أنس]

من أخوه؟ أخوه في الإنسانية، لأن المطلق على إطلاقه، وهو أوسع دائرة، لم يقل(لأخيه المؤمن)لأن الصفة قيدٌ، ولو قال: (أخيه المؤمن)لقيَّدها، ولو قال: (أخيه المسلم)لقيّدها، (أخيه النَسَبي)لقيّدها، فما قيدها النبيّ، بل قال:

((حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ))

وما دام مطلقًا فهو ينطبق على أوسع دائرة الأخوة في الإنسانية، فأنت لن تكون مؤمناً إلا إذا أحببت لأي إنسان ما تحبه لنفسك، فلا تيأس، الدرس الماضي أو قبل الماضي تحدّثنا عن عمير بن وهب، بماذا وصفه سيدنا عمر؟ بأنه كلب أو خنزير، ثم قال بعد أن أسلم:

((وخرج من عند رسول الله وهو أحبُّ إليَّ من بعض أولادي))

إليك حبه لرسول الله :

أحبَّ أبو هريرة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حُبًّا خالط لحمَه ودمه، فكان لا يشبع من النظر إليه، ويقول:

((ما رأيت شيئاً أملح ولا أصلح من رسول الله، حتى ولكأن الشمس تجري في وجهه))

ولله دَرُّ سيّدنا حسان بن ثابت حين قال واصفا كمالَ خَلْق النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

وَأَحْسَنُ مِنْكَ لم تَرَ قطُّ عَيْني وَأَجْمَلُ مِنْكَ لَمْ تَلِدِ النّسَاءُ

خُلِقْتَ مُبَرَّأً مِنْ كُلّ عَيْبٍ كَأَنّكَ قَدْ خُلِقْتَ كَمَا تَشَاءُ

هذا الجمال الذي كان يتمتع به النبي، وأخواننا الحجاج الذين أكرمهم الله بالحج والعمرة والزيارة، إذا وصلوا إلى المدينة المنورة سيَرَوْن آثار هذا الجمال، فالقبة الخضراء لها منظر لا يُنْسِى، وكذا الحرم النبوي، ومقامه الشريف، والروضة، وآثار جماله في مقامه، وفي قبره .

كان هذا الصحابي الجليل يحمد الله تبارك وتعالى على أن مَنَّ عليه بصحبة النبي، واتِّباع دينه، بينما تسأل بعض الناس: كيف حالك يا أخي؟ يقول لك: واللهِ السوق مسموم، لا عمل، ولا حركة .

كيف صحتك؟ يقول: والله الحياة كلها مشاكل، نعمة الهدى ألا تنتبه لها؟ أنت مستقيم، أليس هذه أعظم نعمة؟ انظروا إلى أبي هريرة، لقد كان فقيرًا معدَما، الحمد لله الذي هدى أبا هريرة للإسلام، هذه أول نعمة، الحمد لله الذي علم أبا هريرة القرآن، الحمد لله الذي مَنَّ على أبي هريرة بصحبة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

كان سيدنا عمر إذا أصابته مصيبة، يقول:

((الحمد لله ثلاثًا؛ الحمد لله إذ لم تكن في ديني ، -الدين سليم كله، والأمر سهل، السيارة حديد تنحل أعطالها ومشاكلُها- والحمد لله إذ لم تكن أكبر منها، والحمد لله إذ ألهمتُ الصبرَ عليها))

هكذا كان يقول سيدنا عمر عند أيّة مصيبة تقع له.

يا أيها الأخوة، كلما سُئِلْتُمْ: كيف الحال؟ فقولوا: الحمد لله الذي هداني إليه، والحمد لله الذي علمني دينه، والذي علمني القرآن، والذي أعانني على طاعته، والذي رزقني ذرية صالحة، والذي آواني في بيت، والذي زوَّجني، والذي أكرمني بأولاد أطهار، هذه هي النعم، أمّا السوق مسموم، لا بيع ولا شراء، هذا كلام أهل الدنيا المنقطعين عن الله .

إليك حبه للعلم وملازمته له :

سيدنا أبو هريرة أولع بالعلم، وجعله ديدنه، وغاية ما يتمناه، وحدث زيد بن ثابت، فقال :

((بينما أنا وأبو هريرة وصاحب لي في المسجد ندعو الله تعالى، ونذكره في المسجد، إذّ طلع علينا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأقبل نحونا حتى جلس بيننا، وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ متواضعًا، فسكتنا إجلالاً له، فقال: عودوا إلى ما كنتم فيه، فدعوتُ اللهَ أنا وصاحبي قبل أبي هريرة، وجعل النبي يقول: آمين، ثم دعا أبو هريرة .

-إنه موقف رهيب، يريد أن يدعوَ أمام رسول الله، إذا تكلّم الطالب أمام أستاذه فإنه يرتبك، ولا يستطعِ الحديث- فقال: اللهم أسألك ما سألك صاحباي، وأسألك علماً لا يُنسى، فقال عليه الصلاة والسلام:

آمين، يا أبا هريرة، فقلنا: ونحن نسأل الله علماً لا يُنسى، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: سبقكم بها الغلام الدوسي))

وكأن الله عز وجل أكرم أبا هريرة بعلم لا يُنسى، لذلك روى عن رسول الله خمسة آلاف حديث وستمئة، وأكثر الخطب والدروس والكتب، يقال فيها: عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وذات يوم مرَّ بسوق المدينة فهاله انشغالُ الناس بالدنيا، واستغراقهم بالبيع والشراء، والأخذ والعطاء، فوقف عليهم، وقال:

((يا أهل المدينة ما أعجزكمّ! قالوا: وما رأيت من عجزنا يا أبا هريرة؟ قال: ميراث رسول الله يقسم، وأنتم هاهنا، قالوا: وأين هو؟ قال: هو في المسجد، فخرجوا سراعاً، ووقف أبو هريرة لهم حتى رجعوا، فلما رأوه قالوا: يا أبا هريرة، لقد أتينا المسجد، فدخلنا فيه فلم نرَ شيئًا يُقسَم، قال لهم: أوَ مَا رأيتم في المسجد أحداً؟ قالوا: بلى رأينا قوماً يصلون، وقومًا يقرؤون القرآن، وقوماً يتذاكرون في الحلال والحرام، قال: ويحكم هذا ميراث رسول الله))

وعَنْ كَثِيرِ بْنِ قَيْسٍ، قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا مَعَ أَبِي الدَّرْدَاءِ فِي مَسْجِدِ دِمَشْقَ فَجَاءَهُ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ، إِنِّي جِئْتُكَ مِنْ مَدِينَةِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِحَدِيثٍ بَلَغَنِي أَنَّكَ تُحَدِّثُهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا جِئْتُ لِحَاجَةٍ، قَالَ: فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ:

((مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالْحِيتَانُ فِي جَوْفِ الْمَاءِ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا وَرَّثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ))

[أخرجه أبو داود في سننه]

مر معي في درس الفجر بجامع النابلسي حديثان، أولهما عَنْ مُعَاوِيَةَ، يَقُولُ سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ:

((مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ، وَاللَّهُ يُعْطِي، وَلَنْ تَزَالَ هَذِهِ الْأُمَّةُ قَائِمَةً عَلَى أَمْرِ اللَّهِ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ))

[متفق عليه، أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح]

أمّا الحديث الثاني فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُصِبْ مِنْهُ))

[أخرجه البخاري في الصحيح]

فقد جمعتُ في ذهني معنى هذين الحديثين، فإذا أراد الله بعبدٍ خيراً علّمه وأدّبه، إذا علَّمك وأدَّبك فأنت محبوب، وإذا كان المرءُ بلا علم ولا تأديب فهو مهمل .

قال لي شخص: عنده معمل، عَلِمَ شخص أنّ عندي معملَ ألبسة، فقال لنفسه: إنه أخونا، فنشتري منه قطعتين أو ثلاثة، انزعج صاحبُ المعمل، وقال: أنا أبيع قطعة أو قطعتين؟ إنما أبيع ثلاثمئة قطعة ونحوها، فاستحيا القادمُ بنفسه، وفي اليوم التالي لم يأتِه زبائن، وهكذا مرّ عشرون يومًا ولم يدخل أحد معمله، لقد أدّبه الله عز وجل، وهذا خير، إذا كان الله يعلمك ويؤدبك فمعنى هذا أنك محبوب، معنى هذا أنّ الله أراد بك خيراً، يعلمك، ويؤدبك، والحديثان صحيحان .

إليك رحمة رسول الله بأصحابه :

قال أبو هريرة:

((مرَّ بي رسول الله يوما، وكنتُ جائعًا، منقطعًا للعلم، فمرّ بي رسول الله صلى الله عليه وسلم فعرف ما بي من الجوع، فقال أبا هريرة، قلت: لبيك يا رسول الله، قال: اتبعني، فدخلتُ معه، فرأى قدحًا فيه لبن، فقال لأهله: من أين لكم هذا؟ قالوا: أرسل به فلان إليك ، قال: يا أبا هريرة، انطلق إلى أهل الصفة فادعُهم، وأطعمهم جميعاً من هذا اللبن))

اللهم صلِّ عليه، كان مثل الأب، فإذا دَعَوتَ إلى الله عز وجل فاشعُرْ بعواطف مقدسة سامية تجاه أخوانك .

أنا أقول كلمة: إنْ لم تكن مشكلتهم مشكلتك فلست أهلاً أن تدعو إلى الله، مسرّاتهم مسرّاتك، وأحزانهم أحزانك، وبالمقابل متاعبك متاعبهم، هذه هي المشاركةُ الوجدانيةُ، هذه المشاركةُ تنسي همومَ الحياة، فإذا كنتَ تعيش بين أخوة طيبين يتعاطفون معك، يألمون لألمك، ويفرحون لفرحك، ويهبُّون لنجدتك، ويسرعون لإغاثتك، فهذا مجتمع مؤمن وربِّ الكعبة، واللهُ عز وجل لا يحبّنا إلا إذا تعاونّا، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ عَلَى مُسْلِمٍ سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ))

[أخرجه الترمذي في سننه]

إذا أردتم رحمتي فارحموا خلقي .

خطابه لنفسه :

سيدنا أبو هريرة بعد أن فُتحتْ البلاد، وجاءت الغنائم، أكرمه الله عز وجل بمال وفير، فتزوج ، وأنجب أولاداً، وسكن بيتًا، وبقيت تلك المرحلة الماضية ذكرى، وكل إنسان له عند الله ترتيب، فقد يفرِّغك في أول حياتك، وبحسب ظنك أنت معذَّب، ولستَ متزوجًا، وما عندك بيت، لكن في الحقيقة فرَّغك تفريغًا خاصًّا، وقد قال أحد العلماء: أنا سجني خلوة، وإبعادي سياحة، ومرضي مناجاة، هل عندك إمكانية أن تتلقى كل المتاعب بنفسٍ طيِّبة؟ إنْ أبعدوك فتلك سياحة، وإنْ وضعوك في السجن فتلك خلوة مع الله، ألَمَّ بك مرض فهذا شفافية وقربٌ من الله عز وجل .

مرة خاطب نفسه فقال:

((يا أبا هريرة، هاجرتَ مسكيناً، وكنتَ أجيراً لبثرة بنت غزوان ، بطعام بطني، فكنتُ أخدمُ القومَ إذا نزلوا، وأحْدُو لهم إذا ركبوا، فزوَّجَنِيها الله، تزوج هذه المرأة ، والحمد لله الذي جعل الدين قياماً، وصيّر أبا هريرة إماماً))

سيدنا عمر فعلها، فقال مخاطبًا نفسه:

((كنتَ عميرًا، وأصبحت عمر، ثم أصبحت أمير المؤمنين))

إذا كان لأحدٍ ماضٍ متعب، ماضٍ فيه فقر، فلا ينسَ ماضيه، دخل ورأى بيتًا مرتبًا، فيه خمس أو ستُّ غرف، وسيارته على الباب واقفة، ودخلُه كبير، وكان سابقاً في وضع صعب جداً، فلا ينسَ الماضي، ويرفع رأسه ويتكبر، فإنّ الله كبير، وإذا أعطاك فازْدَدْ تواضعًا له، وازددْ خدمة للناس، واجعل هذا المال خدمة للناس يزدْك الله عطاءً .

هل غيرت الولاية طبعه وما هي المشكلة التي تعرضت ابنته لها ؟

أصبحَ أبو هريرة واليًا على المدينة مِن قِبَل معاوية بن أبي سفيان أكثر من مرة، فلم تبدِّل الولايةُ من سماحة طبعه، وخفة ظلّه شيئًا، ولقد مرّ يومًا بأحد أسواق المدينة وهو والٍ عليها ، وكان يحمل الحطب لأهل بيته، فمرّ بثعلبة بن مالك، فقال له:

((أوْسِعِ الطريق للأمير يا ابن مالك، فقال له ابن مالك: يرحمك الله، أما يكفيك هذا المجال كله، فقال له: أوْسِعِ الطريق للأمير، وللحزمة التي على ظهر الأمير، أنا حجمي واسع، ومعي حزمة، ولست منتبهاً، فقال له: أوْسِعِ الطريق للأمير، قال له: يا سبحان الله !! ألا يكفيك هذا الطريق؟ قال له: أوْسِعْ الطريق للأمير، وللحزمة التي على ظهر الأمير، ثم وسّع له))

فهكذا يكون التواضع، كان مع سماحة نفسه، ومع شدة علمه تقياً ورعاً، يصوم النهار، ويقوم ثلث الليل، ثم يوقظ زوجته، فتقوم ثلثه الثاني، ثم يوقظ ابنته فتقوم ثلثه الأخير، فهذا البيت فيه قيام ليل بشكل دائم .

تقول ابنته له:

((يا أبتِ إن البنات يعيِّرْنَني، فيقلن: لمَ لا يحلّيك أبوك بالذهب؟ فيقول أبو هريرة لابنته: قولي لهنّ يا بنيتي: إن أبي يخشى عليَّ حرَّ اللهب))

ولم يكن امتناع أبي هريرة عن تحلية ابنته ضنًّا بالمال، أو حرصاً عليه، إذ كان جواداً سخي اليد في سبيل الله .

فبعث إليه مروان بن الحكم مئة دينار ذهباً، فلما كان الغد أرسل إليه يقول:

((إنّ خادمي غلط فأعطاك الدنانير، وأنا لم أردك بها، إنما أردتُ غيرك فسقَط في يدي أبي هريرة، وقال: أخرجتها في سبيل الله، ولم يَبِتْ عندي منها دينار، فإذا خرج عطائي فخذها منه، لقد فعل مروانُ بن الحكم هذا ليختبره، فوجده صادقًا، وما ترك شيئًا من تلك الدنانير عنده))

إليك بره لوالدته :

كان هذا الصحابي الجليل برًّا بأمِّه، وكان كلما أراد الخروج من البيت وقف على باب حجرتها، وقال:

((السلام عليك يا أماه ورحمة الله وبركاته، فتقول: وعليك السلام يا بني ورحمة الله وبركاته، ويقول: رحمك الله كما ربّيتني صغيراً، تقول: ورحمك الله كما بررتني كبيراً، ثم إذا عاد إلى بيته فعل مثل ذلك))

شيء جميل .

رأى مرة سيدنا أبو هريرة رجلين، أحدهما أسنُّ من الآخر، يمشيان معًا، فقال لصغيرهما:

((ما يكون هذا الرجل منك؟ قال: أبي، قال له: لا تسمِّه باسمه، ولا تمشِ أمامه ، ولا تجلس قبله))

[ورد في الأثر]

ما هو سبب بكاء أبي هريرة وما هو دعاؤه عند موته ؟

لما مرض أبو هريرة مرض الموت بكى، فقيل له:

((لِمَ تبكي يا أبا هريرة؟ فقال: أما إني لا أبكي على دنياكم هذه، ولكني أبكي لبعد السفر، وقلة الزاد، لقد وقفتُ في نهاية طريق يفضي إلى الجنة أو إلى النار، ولا أدري في أيّهما أكون .))

وقد عاده بنفسه مروان بن الحكم، وكان خليفة، فقال له:

((شفاك الله يا أبا هريرة، فقال: اللهم إني أحبُّ لقاءك فأحبَّ لقائي، وعجِّل لي فيه، فما كاد مروان يغادر داره حتى فارق الحياة))

رحم الله أبا هريرة رحمة واسعة، فقد حفظ للمسلمين ما يزيد عن خمسة آلاف وستمئة وتسعة من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أو نحوها، وجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خيراً، هذا صحابيٌّ علمٍ حفِظَ عن النبي أقواله، ونقلها لمَن بعده، وأنت اختر لنفسك أنْ تتحرى العلم النافع والعمل الصالح، وتتحرى الدعوة إلى الله، وكلها طرق مفضية إلى الله عز وجل .

والحمد لله رب العالمين

السيرة - رجال حول الرسول - الدرس (32-50) : السيدة صفية بنت عبد المطلب
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 24-05-1993

بسم الله الرحمن الرحيم

هل حقوق المرأة في الإسلام نفس حقوق الرجل وهل هناك فرق بين خصائص الرجال عن النساء

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس الثاني والثلاثين من سيرة صحابة رسول الله رضوان الله عليهم أجمعين، وصحابية اليوم السيدة صفية بنت عبد المطلب، ومن حين لآخر نريد أن نبيِّن لأخواننا الكرام أن دور المرأة في الحياة لا يقلُّ أبداً عن دور الرجل، لكنْ لكلِّ من المرأة والرجل موقعٌ خاصٌ به، وبها، وما الفساد إلا في تبادل المواقع .

موقع الطيار، في غرفة القيادة، هل يعدُّ الطيار ضيِّق الأفق، حبيساً في غرفة ضيقة، إذا كان وراء المقود، وأمام الأجهزة الكثيرة، وبرقبته أرواح ثلاثمئة إنسان من الركاب؟ هذا موقعه الصحيح، فإذا شعر أنه حبيس هذه الغرفة الصغيرة، ولا بدَّ من أن يخرج ليجلس مع الركاب، ويتسامر معهم، وينطلق، ربما سقطت الطائرة، لأنه تخلَّى عن مركز القيادة .

هل يقال للطبيب الجراح: أنت هنا حبيسُ هذه الغرفة الضيقة؟ لا، بل هنا موقعه الصحيح، هنا يُجري أخطر عملية جراحية، فحينما قال الله عزَّ وجل:

(وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ)

(سورة الأحزاب الآية: 33)

ليس معنى هذا أن المرأة حبيسة المنزل، ولكن معنى هذا أنها تربِّي أجيالاً، وأن هذا البيت موقعها الصحيح، وأن بإمكان المرأة أن تهزَّ العالم بتربيتها لأولادها، أليس المجتمع محصلة تربيةٍ بيتية؟ فإن كانت التربية البيتية صالحة، صلح المجتمع، وإن كانت التربية البيتية سيئة ساء المجتمع .

أيها الأخوة، أنه كلما تقدمتَ في طريق العلم، وكلما ارتقيتَ في سلم الأيمان، اكتشفتَ أن المرأة كالرجل تماماً في التكليف، وفي التشريف، ثم اكتشفتَ أيضاً، أن للمرأة خصائص متعلقة بها ، ومتعلقة بمهمتها، وتتناسب مع مهمتها، وأن للرجل خصائص جسمية، وعقلية، ونفسية، واجتماعية، تتعلَّق بدوره في الحياة، وبمهمته، وربما ظهرت بطولاتٌ من النساء، أين منها بطولات الرجال؟ وربما ارتقت المرأة في معرفة الله، وفي الإقبال عليه، وفي الشوق إليه، وفي العمل الصالح، الذي يقرِّبها إليه، وربما فاقت الرجال في ذلك، هذا هو المنطلق السليم، واللهُ جل جلاله يقول:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل الآية: 97)

لذلك المرأة قد تزيد عاطفتها على إدراكها، والرجل قد يزيد إدراكه على عاطفته، لكن مجموع الإدراك والعاطفة في الرجل واحد، ومجموع الإدراك والعاطفة في المرأة واحدٌ، فهي عملية توزيع فقط .

إليكم نسب السيدة صفية بنت عبد المطلب :

صحابية اليوم امرأةٌ نادرة، ليست كمعظم النساء، امرأة تمثِّل نموذجاً خاصاً من بين النساء، إنها السيدة صفية بنت عبد المطلب، صحابيةٌ باسلة، امرأة حازمة، قدَّمتْ للمسلمين أول فارسٍ سلَّ سيفاً في سبيل الله بعد أن أنشأته تنشئة سليمة .

إنها صفية بنت عبد المطلب، الهاشمية، القرشية، عمَّة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أخت أبيه، هذه المرأة العظيمة، اكتنفها المجد من كل جانب، أبوها عبد المطلب بن هاشم، جد النبي عليه الصلاة والسلام، وزعيم قريش، وسيِّدها المطاع، وأمُّها هالة بنت وهبٍ، أخت آمنة بنت وهبٍ، والدة النبي عليه الصلاة والسلام .

بالمناسبة، إذا تحدثنا عن النسب فهو حديث مقبول بشرطٍ واحد؛ أن يكون الإنسان مؤمناً ، فإذا تحدثنا عن نسبه، فنسبه تاجٌ يضاف إلى إيمانه، أما إذا تحدثنا عن النسب، وليس صاحبه مؤمناً، فهذا النسب لا يقدِّم ولا يؤخِّر، هل من قرابة أشد من قرابة العمومة؟ أبو لهبٍ كان عم النبي عليه الصلاة والسلام، لا قيمة للنسب مع الكفر، لا قيمة للنسب مع المعصية، أما مع الإيمان فالنسبُ تاجٌ يتوِّج الإيمان .

أما زوجها الأول الحارث بن حرب، أخو أبو سفيان زعيم قريش، وزوجها الثاني العوَّام بن خويلد، أخ خديجة بنت خويلد، سيدة نساء العرب في الجاهلية، وأولى أمهات المؤمنين في الإسلام، جمعت المجد من كلِّ أطرافه .

توفي زوجها العوَّام بن خويلد، يعني النبي عليه الصلاة والسلام وصف الزبير بن العوام بأنه حواري رسول الله، والقصة المعروفة، أن عبد الله بن الزبير، حينما أرسل كتاباً إلى معاوية ببن أبي سفيان، وقال:

((أما بعد، كان عبد الله بن الزبير مجرد مسلم، وكان معاوية بن أبى سفيان خليفة المسلمين أرسل له كتاباً قال فيه: أما بعد، فيا معاوية، إن رجالك قد دخلوا أرضي، فانههم عن ذلك، وإلا كان لـيَ ولك شأنٌ، والسلام .

أمسك معاويةُ الكتابَ، ثم دفعه إلى ابنه يزيد، وقال: يا يزيد، ما قولك في هذا الكتاب؟ فقال يزيد: أرى أن ترسل له جيشاً أوله عنده، وآخره عندك، ليأتوك برأسه، تبسَّم هذا الخليفة الحليم، وقال: يا بني غير ذلك أفضل، أمر الكاتب أن يكتب:

أما بعد، فقد وقفت على كتابِ ولد حواري رسول الله، ولقد ساءني ما ساءه، والدنيا كلها هينة جنب رضاه، لقد نزلتُ له عن الأرض ومن فيها .

فجاء الجواب: أما بعد، فيا أمير المؤمنين، اختلف الأسلوب، لا أعدمك الله الرأيَ الذي أحلَّك من قومك هذا المحل، فدفع الجواب إلى ابنه يزيد، وقال: يا بني، من عف ساد، ومن حلم عظم، ومن تجاوز استمال إليه القلوب))

فكان الزبير بن العوام ابن هذه المرأة البطلة، كان حواري رسول الله، وقد وصفه معاوية في رسالته لابن الزبير بحواري رسول الله صلى الله عليه وسلم .

انظر إلى تربية السيدة صفية لولدها الزبير بن العوام :

فهذه الصحابية ربَّت ابنها على الخشونة والبأس، ربّته على الفروسية والحرب، وجعلت لعِبه في بَرْي السهام، ودأبتْ على أن تقذفه في كلِّ مخوفةٍ، وتقحمه في كل خطر إقحامًا، فإذا رأته أحجم، أو تردّد ضربته ضرباً مبرِّحاً، حتى إنها عوتِبتْ في ذلك مِن قِبَل أحد أعمامه، حيث قال لها:

((ما هكذا يُضرَب الولد، إنَّك تضربينه ضرب مبغضةٍ، لا ضرب أمٍّ، فقالت شعراً:

من قال: قد.... أبغضته فقد كذب

و إنما أضربه......... لكي يلب

و يهزم الجيش.... ويأتي بالسلب

يلب: يصبح لبيباً))

هذه الصفة مهمة جداً، نشَّأت ابنها نشأة خشونةٍ، ونشأة بأسٍ، ونشأة حزمٍ، ودفعته إلى اقتحام الأخطار، وإلى التعامل مع المصاعب، كي يصلب عوده، والطفل اليوم إنْ رأى حشرة صغيرة يصيح خوفاً، ولا يقوى على فعل شيء، بل لا يتحمَّل شيئًا، وإذا اختلفت مواقيتُ طعامه تراه يضْطَرب، ويصيح، ويغضب، ويفعل ما لا يصح أنْ يفعل .

ما الذي يفسد الناشئة وكيف يمكن أن تربى ؟

الحقيقة، يبدو أنّ النعيم الزائد للصغار يفسدهم، وتربية الصغار على الخشونة والبأس يقوِّيهم، ويجعل عودهم صُلباً، وتجربتهم في الحياة عميقة، وأخطر ما في حياتنا تربية أولادنا، فإن نَجَحْنا في تربية أولادنا، نجح المجتمع، وإن أخفقنا أخفق المجتمع، وواللهِ لا أرى على وجه الأرض عملاً أعظم مِن أن تعتني بأولادك، وأن تربيهم تربية إسلامية، وأن تنشِّئهم نشأةً مستقيمة ، وأن تحملهم على طاعة الله،

وأن تجعلهم علماء، وأن تعلّمهم كتاب الله وسنة رسول الله، وأن تعلّمهم مكارم الأخلاق، وأن تحملهم على الطاعات، واللهِ ما من عملٍ أجلُّ مِن هذا العمل، وهذا الكلام موجه إلى الآباء .

أيها الآباء، بين يديك كنز، ألا تدري ما هو؟ ابنك كنزٌ بين يديك، إنْ نشَّأته تنشئةً فاضلة كان ذخراً لك في الدنيا والآخرة، وكان امتداداً لك إلى أبد الآبدين، فالأب الذي ربَّى أولاده تربيةً قويمة ثم مات، فإنّه لم يمت ذكرُه، ولو أنه فارق الحياة .

مرة حضرنا حفلاً لأحد العلماء الأجلاء، والدعاة إلى الله عزَّ وجل، وفي نهاية الحفل سمعنا أن وزارة الأوقاف عيَّنت ابنه خطيباً لهذا المسجد الكبير، فقلت: يا سبحان الله، لولا أن هذا الأب ربَّى ابنه تربيةً علميةً إسلاميةً لمَا احتلّ مكان أبيه، ثم قام وخطب فينا خطاباً أكَّد أهليته لهذا المنصب، فقلت: واللهِ لم يمُتْ أبوه، فما دام غاب عن أنظارنا، كان ابنه مكانه، وقد علمه، ورباه وهذبه، وهو الآن من الدعاة إلى الله عزَّ وجل .

إذا كان لك ابن فربَّيتَه تربية إسلامية، وفقَّهته في الدين، وعلَّمته كتاب الله، وسنة رسول الله، وقوَّمت اعوجاجه، وهذَّبت مشاعره، وحملته على طاعة الله، فأنت لا تموت ولو غادرتَ الدنيا، ولو أن جسمك غاب تحت الثرى، هذا ابنك خليفةٌ لك، ابنك استمرارٌ لك، ابنك صدقةٌ جاريةٌ لك، لا ينقطع خيرها إطلاقاً .

أيها الأخوة، لا يصلح مجتمعنا إلا بتربية أولادنا، ولا حلَّ للمسلمين إلا أن يؤسِّسوا أُسَراً إسلامية، مسالكها إسلامية، ونشاطاتها إسلامية، تقول لي: أنا مسلم، أتعاطف مع المسلمين، يا أخي إن المسلمين يُذبَّحون في العالم، فماذا نفعل؟ أنت اضمَن لي بيتك فقط أنْ يكون إسلامياً، اضمن لي عملك أن يكون إسلامياً، تجد في العمل مخالفات، وفي التعامل مخالفات، وفي البيت مخالفات، ونحن يا ربِّ عبيد إحسان، وما نحن عبيد امتحان، ما هذا؟ مثل هؤلاء المسلمين، لا يستحقون النصر، ولا يستحقون الحفظ.

مرة التقيت مع رجلٍ يريد أنْ يؤدّيَ زكاة ماله لبعض الجمعيات الخيرية، فقال لي: أنا أحب أن أجعل ابني يدفع هذا المبلغ لأعلّمه على الإنفاق وأدَرِّبه عليه، فقدَّم المبلغ لابنه، وكلَّفه أن يذهب إلى الجمعية الخيرية ليدفع لها المبلغ، حتى يتعوَّد الابن على الإنفاق، وليس على القبض، فالابن لا بدَّ أن يربَّى، والنبي عليه الصلاة والسلام، قال:

((اخشوشنوا فإن النعم لا تدوم))

[ورد في الأثر]

هل تعرف مَن هو الذي يخفق في تزويج بناته؟ هو الأب الذي أغرقهم في النعم، فهذه الفتاة التي تشتهي كلَّ شيء، ثم تراه بين يديها، مِن أطيب الطعام، وأفخر اللباس، هذه الفتاة لا تصلح أن تكون زوجةً، وقد يأتيها زوجٌ مؤمنٌ عظيم، لكن دخله محدود، فلا تستطيع العيش معه، النبي الكريم قال:

((اخشوشنوا فإن النعم لا تدوم))

[ورد في الأثر]

يعني عوِّد أولادك على الطعام الطيب والخشن، فالإنسان الغارق في النعيم لا يصلح أن يكون إنساناً منتجاً .

هل استجابت صفية لرسالة الإسلام حينما دعاها رسول الله وهل عانت ما عانى المسلمون من أذى قريش ؟

وحين بُعث النبي عليه الصلاة والسلام بدين الهدى والحق، وأرسله الله للناس نذيراً وبشيراً، أمره أن يبدأ بذوي القربى، فقال تعالى:

(وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)

(سورة الشعراء الآية: 214)

يقاس عليها، هل بيننا شخصٌ ليس له أقرباء؟ فلماذا أنت ساكت إذًا؟ لم لا تنقل هذا العلم إلى أقربائك، إلى أهلك، إلى أولادك، إلى من حولك، إلى جيرانك، إلى أصدقائك؟ قال تعالى:

(وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)

(سورة الشعراء الآية: 214)

قد يكون الواحدُ منا طليق اللّسان، فانشط وتكلّمْ، أمَّا إنْ لم تكن عندك إمكانية، فسمِّعه شريطًا، لا يوجد معك ثمن شريط، أحضِرْه إلى المسجِد، اسمعه الحق، اعتن به، احرصْ على هدايته، عاونه، أكرمه، اخدمه حتى يميل قلبه إليك، والدعوة إلى الله تحتاج إلى أن تفتح القلوب بالإحسان، قبل أن تفتح الآذان باللسان، فلما بُعث النبيُّ، وأمره الله أن يبدأ بذوي قرابته، جمعهم صغاراً وكباراً، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ:

((قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ، قَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا، وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا))

(متفق عليه، أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح عن أبي هريرة)

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ:

((لَمَّا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ دَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُرَيْشًا فَاجْتَمَعُوا فَعَمَّ وَخَصَّ، فَقَالَ: يَا بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ، يَا بَنِي مُرَّةَ بن كَعْبٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ، يَا بَنِي هَاشِمٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ، يَا فَاطِمَةُ أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنْ النَّارِ، فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا سَأَبُلُّهَا بِبَلَالِهَا))

(أخرجه مسلم في الصحيح عن أبي هريرة)

هذا التوجيه الصحيح، هذا أعظم توجيه، كل إنسان يطرح أفكارًا خلاف هذا التوجيه فهو مخطئ، ربِّ أخوانك على تمتين علاقتهم بالله فقط .

وعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ:

((إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا بِقَوْلِهِ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنْ النَّارِ فَلَا يَأْخُذْهَا))

(متفق عليه، أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح عن أم سلمة)

إذا كان النبي عليه الصلاة والسلام، لا يستطيع أن ينقذك من عذاب الله، أفيستطيع إنسانٌ آخر؟ انظر إلى هذا الكلام ما أجمله وما أصوبَه:

((يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا))

(متفق عليه، أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح عن أم سلمة)

دعاهم إلى الإيمان، وحضَّهم على التصديق برسالته، أقبل على هذا النور العظيم مَن أقبل، وأعرض عنه مَن أعرض، موطن الشاهد أن صفية بنت عبد المطلب، موضوع درسنا اليوم، كانت مع من أقبل على هذا الدين الجديد، ومع من أسلم لرسول الله صلَّى الله عليه وسلم، ومع من قبل هذه الدعوة الجديدة، انضمتْ صفية بنت عبد المطلب عمَّة النبي إلى ركب المؤمنين، هي وفتاها الصغير الزبير بن العوام، وعانت مع ابنها ما عاناه المسلمون .

أيها الأخوة، هناك أشخاص حملوا الإسلام، فأنت مِمَّن؟ عندما تديَّنت أكرمك الناس، والإسلام حملك، ولما تديَّنت احترمك الناس وقدّروك، لستَ مثل الذي هو جالس على المنصة، يحمله مَن يحمله، ويهرولون به، هكذا بعض المسلمين، فأنت مطلوب منك أن تحمل الإسلام، فماذا بذلت؟ وماذا فعلت؟ لستَ مكلفًا في شيء، إلا أن تأتي إلى المسجد، ولكن احذرْ أنْ تقول: أنا اليوم مشغول، عندي وعندي، ويتقاعس ويتخاذل، الصحابة الكرام بذلوا الغالي والرخيص، والنفس والنفيس، وتحملوا المقاطعة والجوع، وتحملوا الاضطهاد والتنكيل، وأُخرجوا من ديارهم .

تصوَّروا رجلا يسكن في بلده، وله بيت، ومحل، وسيارة، ومكانة اجتماعية، ثم أُخرج من بلده، وأقام في بلد بعيد، يفترش الأرض، ويلتحف السماء، وليس معه ثمن أدنى طعام، فالهجرة ليست سهلة، فالنبي هاجر، والهجرة حقيقة، وهي اقتلاع من الجذور، هذه هي حقيقة الهجرة .

أقول لكم بصراحة وبساطة: كان من الممكن أن يخلق الله النبي وأصحابه من دون كفار ، فلما جاء الوحيُ للنبيِّ آمنوا جميعاً، وسلكوا درب السلامة، وعاشوا حياة سعيدة، وانتهى الأمر، لا فتوحات، ولا حروب، ولا مضايقات، ولا خصومات، ولا تنكيل، ولا إخراج من الديار، كان ذلك ممكنًا، ولكن متى يرقى الإنسان؟ لا ترقى إلا بالمعاناة، لا ترقى إلا بالمعارضة، ولا ترقى إلا بتحمُّل المشقات .

لذلك والنبي عليه الصلاة والسلام يجري عليه كلُّ ما يجري على البشر، ولولا ذلك لما كان سيد البشر، لقد جاع وخاف، قال:

((أوذيت في الله ولم يُؤذَ أحدٌ مثلي، وخفت ولم يخف أحدٌ مثلي، ومضى علي ثلاثون يوماً لم يدخل جوفي إلا ما يواريه إبط بلال))

فهل الهجرة سهلة؟ وهو في غار حراء، وفي غار ثور، وهو في معركة الخندق، حيث قال بعضهم لبعض: أيعدنا صاحبكم، أن تفتح علينا بلاد قيصر وكسرى ، وأحدنا لا يأمن أن يقضي حاجته، لم يقل: نبي، لم يقل: رسول الله، قال: صاحبكم، وفي نظره أنّ الإسلام قضية بضع ساعات ، ثم ينتهي الإسلام كلياً، ويندثر، هكذا ظن المنافقين .

فأنت لا ترقى إلا بالمجاهدة، ولا ترقى إلا بالمعارضة، ولا ترقى إلا بالمكابدة، ولا ترقى إلا بالمقاومة، فإذا عارضَك في البيت أهلُك بعض المعارضة، لأنك أخذتَ لنفسك هذا المسلك، فلتصبرْ ولتحتسبْ، وقد أحْسنَ المتنبي في قوله:

إذا اعْتَادَ الفَتَى خَوْضَ المَنَايَا فَأهْوَنُ مَا يَمُرُّ بِهِ الوُحُولُ

إليكم بيان هجرتها إلى المدينة تاركة وراء الستار الذكريات التي عاشتها في مكة :

أيها الأخوة، السيدة صفية بنت عبد المطّلب، عمَّة النبي صلى الله عليه وسلّم، وابنها الزبير بن العوام تحملا في مكة الشدائد، والمضايقات، والتنكيل، والمعارضات، والعزلة، والمقاطعة، والفقر، قال تعالى:

(وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ)

(سورة محمد الآية :4)

ليبلوكم حتى يرقيكم، فلما أذِن اللهُ لنبيِّه صلى الله عليه وسلّم، وللمؤمنين بالهجرة إلى المدينة، خلّفت السيدة الهاشمية وراءها مكة، بكلِّ ما لها فيها من طيوب الذكريات، ودروب المفاخر والمآثر، ويمَّمَتْ وجهها شطر المدينة مهاجرة بدينها إلى الله ورسوله .

هاجرت مع من هاجر، لكنّ الآن الهجرة معاكسة، يقول لك: أخذت البطاقة الخضراء، والسفر لأمريكا، حيث الزنا على قارعة الطريق، هاجر وفوجئ بابنته مع صديق لها، في خلوة في البيت، أعوذُ بالله، فثارت نخوته، وعنَّف ابنته، بعد دقائق جاءت الشرطة لتأخذه إلى المخفر، لأنه قسا على إنسان مدعو من قبل ابنته، هذه الهجرة إنما هي في سبيل الشيطان، رَوَى سَمُرَةُ بْنُ جُنْدَبٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قالَ:

((لَا تُسَاكِنُوا الْمُشْرِكِينَ وَلَا تُجَامِعُوهُمْ، فَمَنْ سَاكَنَهُمْ أَوْ جَامَعَهُمْ فَهُوَ مِثْلُهُمْ))

[أخرجه الترمذي في سننه عن سمرة بن جندب]

أنت يجب أن تبقى في بلد يُعبد الله فيه، فيه مساجد، ومجالس علم، وانضباط، وفيه بقية شرف، وبقية مروءة، أقول: بقية، بقية حياء، هكذا المؤمن، قال تعالى:

(بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ)

(سورة هود الآية: 86)

هاجرتْ، كم تقدِّرون عمر هذه السيدة الجليلة التي ربَّت ابنها تربيةً خشنة، تربية على البأس، وعلى الشجاعة، وعلى اقتحام المخاطر، وآمنتْ مع النبي عليه الصلاة والسلام، وتحمَّلتْ كلَّ الصعاب، وهاجرتْ معه، كم تقدرون عمرها؟ كان عمرها ستين عاماً، امرأةٌ لا كالنساء .

إليكم بعض مواقفها التي خدمت به الإسلام والمسلمين :

1- يوم أحد :

في معركة أحد خرجتْ مع جند المسلمين، في ثُلَةٍ من النساء جهاداً في سبيل الله، فجعلتْ تنقل الماء، وتروي العطاش، وتبري السهام، وتصلح القسي، كله عمل خاص بالنساء، لكن حمزة بن عبد المطلب، من هو؟ أخوها، أخوها وقد قتل في معركة أحد، وبُقِر بطنه، وانتزعت كبده، ومضغتْ، وثُلِمت أذناه، وقطع أنفه، ومثِّل به، وابنها الزبير بن العوام حواري النبي صلى الله عليه وسلم، فلما رأت المسلمين ينكشفون عن رسول الله إلا قليلا منهم، ووجدتْ المشركين يوشكون أن يصلِوا إلى النبي ويقضوا عليه، طرحتْ سقاءها أرضاً .

طبعاً هذا موقف شخصي، المرأة ليست مكلفة بالجهاد، لطبيعتها الأنثوية، لكن هذا موقف شخصي، عمرها ستون عاماً، وعملها في المعركة عمل إنساني، لكن لما رأت النبي عليه الصلاة والسلام، ابن أخيها قد انكشف، واضطرب المسلمون، ألقت السقاء، وهبَّت كاللبؤة التي هوجم أشبالها، وانتزعت من

يد أحد المنهزمين رمحه، ومضت تشقُّ به الصفوف، وتضرب بسنانه الوجوه، وتزأر في المسلمين قائلة:

((وَيْحكم انهزمتم عن رسول الله، فلما رآها النبي عليه الصلاة والسلام، مقبلة خشي عليها أن ترى أخاها حمزة، وهو صريع، خاف عليها، -خاف على مشاعرها .

لكن والله أيها الأخوة، بين نساء الصحابة نساء ولكنّهن في عظمة عظماء الرجال، أنا أقرأ عنهن، ولا أصدّق أن امرأةً في أحد، قُتِل زوجها، وقُتِل أبوها، وقُتل أخوها، وقُتِل ابنها، ورأتهم صرعى في أرض المعركة، واحداً جانب الآخر، وهي تقول:

((ما فعل رسول الله، ولم تسكن مشاعرها، إلا بعد أن رأت النبي عليه الصلاة والسلام سليماً معافى، قالت: يا رسول الله، كل مصيبة بعدك تهون))

ما هذه المرأة؟ واللهِ إنها مِن نوع خاص- فالنبي عليه الصلاة والسلام أشار إلى ابنها الزبير قائلاً:

((المرأة يا زبير، المرأة يا زبير، أمَّك يا زبير، أبعِدْها عن ساحة المعركة، فأقبل عليها الزبير، وقال: يا أمي إليك، يا أمي إليك، فقالت له: تنحَّ عني لا أمَّ لك، قال: إن رسول الله يأمرك أن ترجعي، قالت: ولمَ؟ إنه قد بلغني أنه مُثِّل بأخي، وذلك في الله، فقال له النبي الكريم: خلِّ سبيلها يا زبير، فخلَّى سبيلها))

-وهذه الخنساء، مات أخوها صخر، فملأت الشعر العربي بكاءً عليه، بكت وأبكت، فليس مِن ديوان شعر مفعم بالحزن والرثاء كديوان الخنساء، وكانت ممّا قالت فيه:

حَمَّالُ أَلْوِيَةٍ هَبَّاطُ أَوْدِيَـةٍ   شَهَّادُ أَنْدِيَةٍ لِلْجَيْشِ جَرَّارُ

نَحَّارُ رَاغِيَةٍ مِلْجَاءُ طاغِيَةٍ   فَكَّاكُ عَانِيَةٍ لِلْعَظْمِ جَبَّـارُ

والأبيات طويلة مشهورة- .

فلما وضعت المعركة أوزارها، وقفت صفية وهي في السِّتِّين من عمرها على أخيها حمزة، فوجدته قد بُقِر بطنُه، وأُخرجتْ كبدُه، وجُدِع أنفه، وثُلِمتْ أذناه، وشُوِّه وجهه، فاستغفرت له وجعلت تقول: إن ذلك في الله، ولقد رضيتُ بقضاء الله، واللهِ لأصبرنّ، ولأحتسبنّ إن شاء الله، -هنا عظمة المؤمن، فهو كالجبل رسوخاً، وليس أقل مصاب يقلبه ويهز أعماقه، فمِنَ الناس اليوم مَن يشك في القضاء والقدر، ولأقلِّ مصاب يقول لك: واللهِ أنا محتار، إيماني تزلزل، ما هذا الإيمان الذي عندك؟ هذا ليس إيمانًا، هذا مِن ضعف الإيمان، قال تعالى:

(وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ)

(سورة آل عمران الآية: 169)

إذا كان الشخص يرتدي ثيابًا جميلة، وبعد قليل جاءه رجلٌ بمقص وقصّ ثيابه، وقطعها ، ورمى الثياب، وكان في أجمل حالة، ثم غدا عاديًّا، وقد سلِم جسمُه، فهذا الجسد عبارة عن ثياب للنفس، فإذا استشهد المؤمن في ساحة المعركة، فجسده هو ثوبه القديم، ولو ذبح، وقتل، والنبي الكريم أبلغنا أن الشهيد لا يشعر أبداً بألم الجراح، وهو عليه الصلاة والسلام لا ينطق عن الهوى، والشهيد لكرامته على الله عزَّ وجل يرى مقامه في الجنة وقت استشهاده، وتفوح من دمائه رائحة المسك، لأنه قدَّم حياته الله عزَّ وجل، فَقَبِلَهَا اللهُ منه، وأكرمه بها، فكل ما تراه عينك على جسد الشهيد، لا قيمة له إطلاقاً، هو في:

(جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ)

(سورة البروج الآية: 11)

(قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ)

(سورة يس الآية: 26)

بقيَ الإنسانُ بكامل صحته، وكامل قوته، وكامل شبابه، وكامل تألُّقه، وثيابُه ممزَّقة ملقاة على الأرض، هو في الجنة، قال تعالى:

(وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ)

(سورة آل عمران الآية: 169)

فهذه ثيابُه التي خلعها، وألقاها جانباً، وأبدله الله خيراً منها- .

وقد قيل: لقد دُعِيَ النبي عليه الصلاة والسلام إلي التمثيل بالكفار، نظير تمثيلهم بعمِّه حمزة، فقال عليه الصلاة والسلام:

((لا أمثل بهم، فيمثل الله بي، لو كنت نبياً))

[ورد في الأثر]

لقد نُهيَ عن التمثيل، والنبي يخاف الله، وهو وقّاف عند كلام الله .

2- يوم الخندق :

أيها الأخوة، لكن موقف هذه السيدة الجليلة يوم الخندق موقفٌ غريب عجيب بطوليّ، فكان من عادة النبي صلى الله عليه وسلم إذا عزم على غزوة من الغزوات أن يضع النساء والذراري في الحصون، خشية أن يغدر بالمدينة غادرٌ في غيبة حُماتِها، فلما كان يوم الخندق جعل نساءَه وعمّته معهم، وطائفة من نساء المسلمين، في حصنٍ لحسان بن ثابت، ورِثه عن آبائه، وكان من أكثر حصون المدينة مناعة، وأبعدها منالاً، وبينما كان المسلمون يرابطون على حوافِّ الخندق، في مواجهة قريش، وأحلافها، وقد شغلوا عن النساء والذراري بمنازلة العدو، فأبصرتْ صفيةُ بنت عبد المطلب شبحاً يتحرَّك في عتمة الفجر، فأرهفتْ له السمع، وأحدَّتْ إليه البصر، فإذا هو يهوديٌ أقبل على الحصن، وجعل يَطوف به،

متحسساً أخباره، متجسساً على مَن فيه، فأدركتْ أنه عينٌ لبني قومه، جاء ليَعلم أفي الحصن رجالٌ يدافعون عمن فيه، أم أنه لا يضمّ بين جدرانه إلا النساء والأطفال ؟ فإذا علم هذا اليهودي المتجسس أنّ هذا الحصن لا يضمّ إلا نساءً وأطفالاً، داهموا هذا الحصن، وسبَوْا النساء والذراري، فقد نقضوا عهدهم مع النبي، وانتهى الأمر ، وصاروا في صف الأعداء من قريش وأحلافها .

فقالت في نفسها:

((إن يهود بني قريظة قد نقضوا ما بينهم وما بين رسول الله من عهدٍ، وظاهروا قريشاً وأحلافها على المسلمين، وليس بيننا وبينهم أحدٌ من المسلمين يدفعون عنا، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ومَن معه مرابطون في نحور العدو، فإن استطاع عدو الله، هذا اليهودي أن ينقل إلى قومه حقيقة أمرنا سبَى اليهودُ النساءَ، واسترقُّوا الذراري، -وكانت الطامَّة على المسلمين، هذه أخت الرجال حقًّا- عند ذلك بادرت إلى خمارها، فلفَّته على رأسها، وعمدت إلى ثيابها فشدَّتها على وسطها، وأخذت عموداً على عاتقها، ونزلت إلى باب الحصن، فشقَّته في أناةٍ وحذقٍ، وجعلت ترقب من خلاله عدو الله في يقظةٍ وحذر، حتى إذا أيقنت أنه غدا في موقفٍ يُمَكِّنها منه، حملت عليه حملةً حازمةً صارمةً، وضربته بالعمود على رأسه، فطرحته أرضاً، ثم عززتْ الضربة الأولى بثانيةٍ وثالثة، حتى أجهزت عليه، وأخمدتْ أنفاسه بين جنبيه، وبادرتْ إليه ، فاحتزّتْ رأسه بسكين كانت معها، وقذفت بالرأس من أعلى الحصن، فطفق يتدحرج على سفوحه، حتى استقر بين أيدي اليهود، الذين كانوا يتربَّصون في أسفله، فلما رأى اليهود رأس صاحبهم، قال بعضهم لبعضٍ: قد علمنا أن محمدًا لم يكن ليترك النساء والأطفال وحدهم، من غير حماةٍ، ثم عادوا أدراجهم))

لقد أجرى اللهُ على يديها حفظَ نساء المسلمين وسلامتهنّ بهذه الشجاعة النادرة، رضي الله عن صفية بنت عبد المطلب، كانت مثلاً فذَّةً للمرأة المسلمة، ربَّت وحيدها فأحكمت تربيته، أصيبت بشقيقها، فأحسنت الصبر عليه، اختبرها اللهُ في الشدائد، فوجد فيها المرأة الحازمة، العاقلة ، الباسلة، إن صفية بنت عبد المطلب، كانت أول امرأةٍ قتلت مشركاً في الإسلام، هذه بطولة، وهذه حالة خاصة بالطبع، فلا نُكلّف النساء أن يكنّ كذلك، هذه حالة خاصة، وهذا موقف شخصي ، لكن وهي في الستين من عمرها كانت في أعلى درجات إيمانها، وأعلى درجات محبَّتها لدين الله ، ولرسول الله، وأعلى درجات دفاعها عن هذا الدين العظيم .

محور هذا الدرس :

أيها الأخوة، تذكروا أن محور هذا الدرس؛ إمّا أن تحمل الإسلام، وإمّا أن يحملك الإسلام، فإذا حملك الإسلام فلا تزيد عن هؤلاء الذين يُحْمَلون في الحج، ويُطافُ بهم حول الكعبة ، أمّا المطلوب فأنْ تحمل أنت الإسلام، وأن تكون شامخاً كالطوْد، قاسياً كالعود، صُلباً كالصخر، وأن تبذل الغالي والرخيص، والنفس والنفيس، وأقل ما في الأمر أنْ تطلب العلم، وأنْ تحافظ على مجالس العلم، وأقلُّ أحوالك أنْ تستقيم على أمر الله، وأن تقيم الإسلام في بيتك، وفي عملك، وفي دكانك، وفي مكتبك، وفي متجرك، أقل شيء أن تكون مسؤولاً عن بيتك، وعن أولادك، وبصلاح بيتك وبتربية أولادك على الإسلام فقد فعلتَ الكثير في خدمة الإسلام وعزته .

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

إليكم قصة إسلام النعمان بن مقرن المزني مع جمع غفير من قبيلته :

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس الثالث والثلاثين من دروس سيرة صحابة رسول الله رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، وصحابي اليوم، سيدنا النعمان بن مقرِّنٍ المُزني، فقد كانت قبيلة مزينة، تتخذ منازلها قريبة من يثرب، والتي أضحتْ بعد ذلك المدينة المنورة، مدينة رسول الله صلى الله علية وسلَّم، على الطريق الممتدة بين المدينة ومكة، وكان النبي عليه الصلاة والسلام قد هاجر إلى المدينة، وجعلت أخباره تصل تباعاً إلى مزينة مع الغادين والرائحين، لأن مزينة كانت على الطريق، بين مكة والمدينة .

لكن هذه القبيلة، لا تسمع إلا خيراً عن رسول الله وأصحابه، لقد كانتْ منصفة، والمؤمن من صفاته أنه منصف، ينصف الناس من نفسه، وحينما يكابر الإنسان، ويجحد، ويبالغ، ويمدح مَن كان قريباً منه، ويحابي، ويذمُّ بلا سبب، إذا فعل ذلك فقد ابتعد عن إيمانه، وعن إسلامه، بُعْدَ الأرض عن السماء، فهذا إنسان بعيد عن مرضاة الله عزَّ وجل، هناك أمهات يمدحن بناتهن مدحاً غير معقول، فإذا جاءت الكنّةُ إلى بيتهم حوسبت حساباً عسيراً، وسُلِبت كلُّ إمكانياتها، وأبْرزت أخطاؤها، فهذا جحود، وهذا ليس إسلاماً ولا إيماناً، فهذا ابني أمدحه، وابن الآخرين أذمُّه، فلست حينئذٍ منصفاً، ولست مؤمناً، وإنّ الله يحب المنصف العادل، ويحب الذي يقول الحق، ولو كان مراً، هؤلاء سرُّ إسلامهم، وسرّ قربهم من الله عزَّ وجل، وسبب سرعة إسلامهم، وسبب دخول الإيمان إلى قلوبهم، وسبب إقبالهم على هذا الدين الجديد، أنهم أنصفوا .

وفي ذات عشيةٍ، جلس سيِّد القوم، الصحابي الجليل الذي ندرس عظمة موقفه في الإسلام في ناديه مع أخوته، ومشيخة قبيلته، فقال:

((يا قوم، واللهِ ما علِمنا عن محمدٍ إلا خيراً، ولا سمعنا من دعوته إلا مرحمةً، وإحساناً، وعدلاً، فما بالنا نبطئ عنه، والناس يسرعون إليه؟ .))

-إنسان أقبل على هذا الدين، أقبل على ربه، انضوى تحت لواء المؤمنين، استقام على منهج الله، بذل كلِّ شيءٍ في سبيل الله، تألّقت روحه، أشرقت نفسه، اطمأن قلبه، وأنت جاره، صديقه، أخوه، زميله، ألا تغار منه؟ فما بالنا نبطئ عنه، والناس يسرعون إليه؟ وهكذا قال بعض العلماء: الشريعة رحمة كلُّها، عدلٌ كلُّها، مصلحة كلُّها، فأية قضيةٍ خرجت من الرحمة إلى القسوة، من العدل إلى الجور، من

المصلحة إلى المفسدة، فليست من الشريعة، ولو أدخلت عليها بألف تأويلٍ وتأويل، هذا هو الشرع- .

ثم قال النعمان: أمّا أنا فقد عزمتُ على أن أغدوَّ عليه إذا أصبحت، فمَن شاء منكم أن يكون معي فليتجهَّز .

-يا أخوان، إذا الشخص معلم، طبيب، مدير مستشفى، مدير معمل، وقام ويصلي أمام عمَّاله، فهو قدوة بصدق، وإذا جاءت امرأةٌ فغضَّ بصره عنها أمام عماله، هل تعلم أن كلَّ هؤلاء يكبرون هذا السلوك؟ فكلما علا شأنك، وكبرت، وكلما كان حجمك أكبر، وقيادتك أكبر، فأعمالك الصالحة مضاعفة بالثواب بحسب كلِّ مَن اتبعك فيها- .

قال لقومه: أمّا أنا فقد عزمت على أن أغدوَ عليه إذا أصبحت، فمن شاء منكم أن يكون معي فليتجهَّز، وكأنما مسَّت هذه الكلمات وتراً مرهفاً في نفوس القوم، فما إن طلع الصباح حتى وجد أخوته العشرة، وأربعمئة فارسٍ من فرسان مُزينة قد جهَّزوا أنفسهم للمضي معه إلى يثرب، للقاء النبي صلوات الله وسلامه عليه، والدخول في دين الله، -انظر إلى القدوة، لذلك في القرآن آية تشير إلى القدوة، فهل تعرفوها؟ قال تعالى:

(يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ)

(سورة الأحزاب الآية: 30)

وفي آية ثانية، يقول تعالى:

(نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ)

(سورة الأحزاب الآية: 31)

نساء النبي، إن أحسنَّ، يُؤْتَيْنَ أجورهن مرتين، وإن أسأن يعاقبن مرتين، لذلك سيدنا عمر كان إذا أراد إنفاذ أمرٍ جمع أهله وخاصَّته، وقال:

((إني قد أمرت الناس بكذا، ونهيتهم عن كذا، والناس كالطير، إن رأوكم وقعتم وقعوا، وايم الله لا أوتينَّ بواحدٍ وقع فيما نهيت الناس عنه، إلا ضاعفت له العقوبة، لمكانه مني))

-فصارت القرابة من عمر مصيبة، وحينما ترقى إلى مستوى قيادي فلك حساب مضاعف، فإن أطعتَ الله عزَّ وجل فلك أجرٌ طاعته، ولك أجرُ مَن اقتدى بك، ولك أجرُ مَن قلَّدك ، ولك أجرٌ من رأى هذا العمل عظيمًا، واقتدى به- .

لكن النعمان بن المقرِّن المزني فقد استحيا أن يَفِدَ مع هذا الجمع الحاشد على النبي صلى الله عليه وسلم دون أن يحمل له وللمسلمين شيئاً يقدِّمه، وفي المسلمين فقراء، وذو حاجة، فأراد أن يقدِّم للنبي بعض الهدايا، لكن السنة العجفاء المجدبة التي مرَّت بها مزينة لم تترك لها ضرعاً ولا زرعاً، فطاف النعمان

ببيته، وبيوت أخوته، وجمع كلما أبقاه القحط من غنيمات، وساقها أمامه، وقدم بها على النبي صلى الله عليه وسلم، وأعلن هو ومن معه إسلامهم بين يديه .

-هذا إسلام جماعي- النبي عليه الصلاة والسلام حينما رأى ذلك سُرَّ أشدَّ السرور، واهتزت يثربُ من أقصاها إلى أقصاها، فرحاً بالنعمان بن مقرِّن وصحبه، إذْ لم يسبق لبيتٍ من بيوت العرب أنْ أسلم منهم هذا الجمع الغفير، وتقبَّل الله عزَّ وجل غُنيماته، وأنزل فيه قرآناً يُتلى إلى يوم القيامة:

(وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

(سورة التوبة الآية: 99)

أخوك فقير قدَّمت له شيئًا، فالله يتقبّله، وإذا قدّم إنسان إلى أخيه هدية بِنِية تمتين العلاقات ، وبِنِية إكرامه، وبِنِية مسح شيء من الضغينة، هذه الهدية يتقبلها الله عزَّ وجل، وهكذا فلْيَكُن المؤمن، قال تعالى:

(وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ)

(سورة التوبة الآية: 99)

أحياناً يقدِّم أخٌ خدمة إلى المسجد، قد يساهم في حلِّ قضيةٍ، أو يقضي حاجة أخيه، أو يحل مشكلة عويصة، أو يسدّ نقصًا، أو يقوِّي ضعفًا، أو يطفئ فتنة، أو يزيل نفورًا، فتجد هذا الذي يدعو إلى الله يمتلأ قلوبَ الآخرين امتناناً له .

لماذا أرسل سعد بن أبي وقاص وفداً برئاسة النعمان إلى كسرى وما هو الحوار الذي جرى بين النعمان وكسرى ؟

انضوى النعمان بن مقرن المزني تحت راية النبي صلى الله عليه وسلم، وشهد معه غزواته كلها، غير وانٍ ولا مقصِّر، ولما آلت الخلافة إلى سيدنا الصديق وقف معه هو وقومه من بني مزينة وقفة حازمة، كان لها أثرٌ كبير في القضاء على فتنة الردة .

كانت الأضواء مسلطة على موقف سيدنا النعمان في موقعة القادسية، وفيما تلاها من وقعات، ومنها وقعة نهاوند، فكل إنسان له مجال تفوّق فيه يُذكَر به، فلمَّا صارت الأمور إلى الفاروق رضي الله عنه، وقد صار للنعمان بن مقرِّن في عهده شأنٌ ما يزال التاريخ يذكره بلسانٍ نديٍ بالحمد، رطبٍ بالثناء، فقُبَيْل القادسية أرسل سعدُ بن أبي وقَّاص قائد جيوش المسلمين وفداً إلى كسرى يزدجرد، برئاسة النعمان بن مقرن، ليدعوه إلى الإسلام، وهنا وقفة لا بدَّ منها .

أيها الأخوة الأكارم، كما تقول العامَّة: الإسلام ليس دين السيف، الإسلام دين العقل، بل الإسلام دين المنطق، الإسلام دين الدعوة السلمية، فلا يمكن أن يشهر السيف من قبل المسلمين، قبل أن يُدعَى الكفَّار إلى الإسلام دعوةً هادئة مبنية على التبيين، والتوضيح، والتبليغ، فإذا رفض هذا الكافر أن يسلم، وأن ينضوي تحت لواء المسلمين، وأن يحميه المسلمون، لأنّ عقيدتهم لا تسمح له أن يقاتل مع المسلمين، لذلك تؤخذ منه الجزية، وإذا رفض أن يسلم، ورفض أن يدفع الجزية، فعندئذٍ يقاتل، لتكون كلمة الله هي العليا .

لذلك أهل سمرقند فتحت بلادهم فتحاً عسكرياً، ثم علموا أن فتحهم ليس شرعياً، فأرسلوا وفداً خفيةً إلى سيدنا عمر بن عبد العزيز، وأطلعوه على ما جرى، وعلى طريقة فتح بلادهم، فما كان مِن سيدنا عمر، كما يروي التاريخُ، إلاّ أن أرسل قصاصة ورق، كتب فيها ما يلي:

((إلى فلان الفلاني، قائد جيوش المسلمين في سمرقند، ما إن يصلك كتابي هذا، فاخرجْ من سمرقند، وادعُ أهلها إلى الإسلام، فإن أبَوْا فادعُهم لدفع الجزية، فإن أبَوْا فقاتلهم، وافتح بلادهم مرةً ثانية . -هذا الوفد الذي عاد ومعه تلك قصاصة، فيها أمرٌ إلى قائد جيش أن ينسحب من بلدٍ احتلها ، وانتصر على أهلها، ودانتْ للمسلمين، لم يصدِّق- فلما قُدِّمت هذه القصاصة إلى قائد الجيش قبَّلها ، وأمر جيشه بالانسحاب، فلما رأوا ذلك، قالوا: نحن أسلمنا، وابقوْا على ما أنتم عليه))

فسيدنا سعد بن أبي وقاص، قائد جيوش المسلمين، قبل أن يحارب كسرى يزدجرد، لا بدَّ أن يدعوه إلى الإسلام، فإن أبى، دعاه إلى دفع الجزية، فإن أبى، يقاتله، فإذا قاتله، فليس المقصود أن يبيده، المقصود أن يأسره، فلعله يسلم بطريقة المعاملة إنْ لم تفلحْ بطريقة الحوار، هذا هو منهج الإسلام في نشر الدعوة.

ولما بلغ الوفد عاصمة كسرى في المدائن، استأذنوا بالدخول عليه، فأذن لهم، ثم دعا الترجمان فقال له:

((سَلْهُمْ ما الذي جاء بكم إلى ديارنا، وأغراكم بغزونا، لعلكم طمعتم بنا، واجترأتم علينا، لأننا تشاغلنا عنكم، ولم نشأ أن نبطش بكم؟))

-هذا كلام كسرى للمترجم، ليوجِّهه لسيدنا النعمان بن مقرن المُزني- .

فالتفت النعمان بن مقرن إلى من معه، -انظروا إلى أدبه، وإلى تواضعه- وقال:

((إن شئتم أجبته عنكم، وإن شاء أحدكم أن يتكلم آثرتُه عليَّ بالكلام، فماذا ترون؟ قالوا جميعاً: بل تكلَّم أنت، -لأنه رئيس وفد، وما اختاره سيدنا سعد إلا على علم، والقاعدة: إذا عزَّ أخوك فهن أنت، فهي ليست قضية منافسة- ثم التفتوا إلى كسرى، وقالوا: هذا الرجل يتكلَّم بلساننا، فاستمع إلى ما يقول:

فحمِدَ النعمانُ الله، وأثنى عليه، وصلى على نبيِّه صلى الله عليه وسلم، ثم قال: إن الله رحمنا، فأرسل

إلينـا رسولاً يدلُّنـا على الخير، ويأمُرنا به، ويعرِّفنا الشرَّ، وينهانا عنه، ووعدنا من يجبه فيما دعانا إليه بخيري الدنيا والآخرة، -إنّه وصف رائع للنبي عليه الصلاة والسلام، إنه كلام مختصر مفيد، جامع مانع- .

ثم قال: فما هو إلا قليل، حتى بدَّل الله ضيقنا سَعَة، وذلّتنا عزةً، وعداواتنا إخاءً ومرحمة))

والله كلامٌ بليغٌ بليغ، وهو موجزُ فحوى دعوة النبي عليه الصلاة والسلام، توضيح الخير ، والأمر به، توضيح الشر، والنهي عنه .

أليس المسلمون في أمسِّ الحاجة، وهم في ضيقٍ شديد اليوم، وهم في ذلةٍ ما بعدها ذلة، وهم في عدواةٍ فيما بينهم ما بعدها عداوة، لأن يهتدوا بهدي النبي عليه الصلاة والسلام؟ فما هو إلا قليل، حتى بدَّل الله ضيقنا سَعَة، وذلّتنا عزةً، وعداواتنا إخاءً ومرحمة .

إذًا: المؤمنون متراحمون، أمّا مجتمع الضغينة، والحقد، والحسد، والغيرة، والبغضاء، والطعن، فهذا مجتمعٌ نتن، وهذا مجتمعٌ ليس مجتمعاً مسلماً، هذا مجتمعٌ لا نزهو به، ولا نفتخر به أمام أعداء الإسلام، وقد أمرنا أن ندعوَ الناس إلى ما فيه خيرهم، وأن نبدأ بمن يجاورنا .

سبب مجيئي إليكم، أن الإسلام أمرنا أن ندعوَ إليه، وأن نبدأ بمَن هو في جوارنا، إنسان ما تعلّم في جامعة، ولا في مدرسة، ابن الصحراء، لكن الإيمان أطلق لسانه، لكنّ حبَّ الله عزَّ وجل جعل كلامه موزوناً، دقيقاً، فاسمعوها مرة ثانية:

قال:

((إن الله رحمنـا، فأرسل إلينـا رسولاً يدلنا على الخير، ويأمرنا به، ويعرِّفنا الشرَّ ، وينهانا عنه، ووعدنا إن أجبناه إلى ما دعانا إليه أن يعطينا الله خيري الدنيا والآخرة، فما هو إلا قليل حتى بدّل الله ضيقنا سعة، وذلتنا عزةً، وعداواتنا إخاءً ومرحمة، وقد أمرنا أن ندعوَ الناس إلى ما فيه خيرهم، وأن نبدأ بمن يجاورنا، فنحن ندعوكم إلى الدخول في ديننا، وهو دينٌ حَسَّنَ الحسَنَ كلَّه، وحضَّ عليه، وقبَّح القبيح كلَّه، وحذَّر منه، وهو ينقل معتنقيه من ظلام الكفر وجوره، إلى نور الإيمان وعدله، فإن أجبتمونا إلى الإسلام، خلَّفنا فيكم، كتاب الله، وأقمناكم عليه، على أن تحكموا بأحكامه، ورجعنا عنكم، وتركناكم، وشأنكم، فإن أبيتـم الدخول في دين الله، أخذنا منكم الجزية، وحميناكم، فإن أبيتم إعطاء الجزية حاربناكم))

هذا منهج .

هل تقبل كسرى كلام النعمان وما هو موقفه إزاء ذلك وما هو الخير الذي حصل عليه المسلمون من خلال هذا الموقف؟

فاستشاط يزدجرد غضباً، وغيظاً مما سمع، وقال:

((إني لا أعلم أمةً في الأرض كانت أشقى منكم، ولا أقلَّ عدداً، ولا أشدَّ فرقةً، ولا أسوأ حالاً .))

-من أنتم؟ هذه هي الحقيقة، كنا في الجاهلية كذلك، مثلاً: مدَّ رجلٌ شريف رجله في قومه، فقال: من كان أشرف مني فليضربها، فضربها رجل، ونشبت حربٌ دامت عشر سنين، أكلت الأخضر واليابس، كان الرجلُ منهم يضع ابنته في التراب، وهي حية، هذا ما كانوا عليه قبل الإسلام، قال تعالى:

(وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ)

(سورة التكوير الآية: 8-9)

كان الرجال العشرة يشتركون على امرأة واحدة، فيتزوجوها بالتناوب، وإذا جاءها مولود، اختارتْ منهم واحدًا فنسبَتْه إليه، وصار له أبًا، إنها جاهلية بأتمّ معنى الكلمة، لكن الإسلام رفع هذه الأمة، قال الله عزَّ وجل:

(وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ)

(سورة آل عمران الآية: 103)

قال: وقد كنا نكِل أمركم إلى ولاة الضواحي، فيأخذون لنا الطاعة منكم، ثم خفف شيئاً من حدته، وقال: فإن كانت بكم الحاجة، أي الفقر، هي التي دفعتكم إلى المجيء إلينا، أمرْنا لكم بقوتٍ إلى أن تخصِب دياركم، وكسونا سادتكم، ووجوه قومكم، وملّكنا عليكم ملكاً من قبلنا، يرفق بكم .

فردَّ عليه رجل من الوفد رداً أشعل النار من جديد، فغضب يزدجرد، قال: لولا أن الرسل لا تُقتَل لقتلتكم، يبدو أنه استفزّه، قوموا فليس لكم شيءٌ عندي، وأخبروا قائدكم أني مرسِلٌ إليه رستم، حتى يدفنه، ويدفنكم معاً في خندق القادسية، لقد غضب، وأنتم مصيركم القتل في خندق القادسية .

ثم أمر فأتي له بحِملٍ من التراب، وقال لرجاله: حمِّلوه على أشرف هؤلاء، وسوقوه أمامكم، على مرأى من الناس، حتى يخرج من أبواب عاصمة ملكنا، فقالوا للوفد: من أشرفكم؟ يريدون أنْ يحملوه ترابًا، ويمشوا به في الطريق، كي يذلّونه لأنهم في نظره أسرى عنده، انظر إلى التضحية، فبادر إليه عاصم بن عمر، أحد صغار الوفد، فقال له: أنا أشرفهم، فحمَّلوه عليه، حتى خرج من المدائن، ثم حمل الترابَ على ناقته، وأخذه معه، لسعد بن أبي وقّاص، وبشّره بأن الله سيفتح على المسلمين ديار الفرس، ويملّكهم تراب أرضهم، ثم وقعت وقعة القادسية، واكتظ خندقها بجثث آلاف القتلى، ولكنهم لم يكونوا من جند المسلمين، إنما كانوا من جنود كسرى))

انظر إلى هذه المواقف ما أجلّها، أحد أعضاء الوفد الصغار، توقيراً لرئيسه، ولبقية الوفد، قال: أنا أشرفهم، احمله عليّ، وكان هذا الحملُ وسامَ شرفٍ علّقه على صدره .

إليكم بطل نهاوند الذي أحسن عمر في اختياره وكان النصر حليفه وختمت له الشهادة فيها :

حينما هُزِم الفرس في معركة القادسية شرَّ هزيمة، جمعوا جموعهم، وجيَّشوا جيوشهم، حتى اكتمل لهم، مئةٌ وخمسون ألفاً من أشدَّاء المقاتلين، للمعركة الثانية، معركة نهاوند، وتفاصيل القادسية تعرفونها، فلما وقف الفاروق على أخبار هذا الحشد العظيم، عزم أن يمضي إلى مواجهة هذا الخطر الكبير بنفسه، لكن وجوه المسلمين، ثنوه عن ذلك، وأشاروا عليه، أن يُرسل قائداً يعتمد عليه، في مثل هذا الأمر الجلل، فقال عمر:

((أشيروا عليّ برجلٍ، لأولّيَه ذلك الثغر، فقالوا: يا أمير المؤمنين، أنت أعلم بجندك، فقال: واللهِ لأولّيَنّ على جند المسلمين رجلاً يكون إذا التقى الجمعان أسبقَ من الأسنة، إنه النعمان بن مقرن المزني، -صار سيدنا النعمان قائد معركة نهاوند- فقالوا: هو لها، أي واللهِ أصبتَ، -قد كان النعمانُ رجلاً كألف- فكتب إليه يقول:

مِن عبد الله عمر بن الخطاب، إلى النعمان بن مقرن، أما بعد، فإنه قد بلغني أن جموعاً من الأعاجم كثيرةً، قد جمعوا لكم بمدينة نهاوند، فإذا أتاك كتابي هذا، فسِرْ بأمر الله، وبعون الله، وبنصر الله، بمَن معك مِن المسلمين، ولا توطئهم وعراً فتؤذيهم .))

-هناك أسلوب في قيادة الجيش، إنْ أتعِب الجندي فهذا غلط، يجب أن تريحه، وأن تعلي مكانته، وأن ترفع معنوياته، وأن توفّر كلَّ طاقته للمعركة، لا أن تجهده قبل المعركة- قال له: فإن رجلاً واحداً من المسلمين، أحبُّ إلي من مئة ألف دينارٍ، والسلام عليك))

-رجل واحد من المسلمين أحبُّ إليَّ من مئة ألف دينار، تفرح بالجزية، تضحِّي لي بمسلم، والقائد لا ينجح في الحرب إلا إذا شعر الجندي أن حياته غالية جداً على قيادة الجيش، أما نحن، فنقول: إنّ عندنا أعدادًا كبيرة لا يهمنا الأمر، هذه بعض المجتمعات التي رفعت شعارَ لا إله ، من عقيدتها في الحرب أنها تكسح الألغام بالقوى البشرية، أي إنْ وُجِد حقل ألغام أُرسِلت سرية، فيتفجَّر الألغام بها، فيتمّ كسحها، فإذا شعر الجندي أنه رخيص على قيادته، وليس له قيمة فلن يحارب على الإطلاق، أما إذا شعر أنه غالٍ جداً على قيادته، والقيادة مستعدة لبذل كل شيء لإنقاذ حياته، فحينئذٍ يكون شجاعاً، هذه أسرار قوة الجيش- .

هبّ النعمان بجيشه للقاء العدو، وأرسل أمامه طلائع من فرسانه، لتكتشف له الطريق، فلما اقترب الفرسان من نهاوند توقَّفت خيولهم، فدفعوها فلم تندفع، فنزلوا عن ظهورها، ليعرفوا ما الخبر؟ فوجدوا حوافر الخيل، فيها شظايا من الحديد، تشبه رؤوس المسامير، فنظروا إلى الأرض ، فإذا العجم قد نثروا في الدروب المؤدية إلى نهاوند حسكَ الحديد، ليعوِّقوا الفرسان والمشاة عن الوصول إليهم .

أخبرَ الفرسانُ النعمان بما رأوا، وطلبوا منه أن يمدَّهم برأيه، فأمرَهم أن يقفوا في أمكنتهم، وأن يوقدوا النيران في الليل، ليراهم العدو، عند ذلك يتظاهرون بالخوف منه، والهزيمة أمامه، ليغروه باللحاق بهم، وإزالة ما زرعه من حسك الحديد، فنجحت الخطةُ، وجازت الحيلة على الفرس، فما إن رأوا طليعة جيش المسلمين تمضي منهزمة أمامهم، حتى أرسلوا عمَّالهم، فكنسوا الطرق من الحسك، فكرَّ عليهم المسلمون، واحتلوا تلك الدروب، وعسكرَ النعمانُ بن المقرن المزني بجيشه على مشارف نهاوند، وعزم على أن يباغت عدوه بالهجوم، فقال لجنوده: إني مكبرٌ ثلاثاً، المباغتة من علامات نجاح المعركة، فإن كبَّرتُ الأولى فليتهيَّأْ مَن لم يكن قد تهيَّأ ، وإن كبَّرت الثانية، فليشددْ كلُّ رجلٍ منكم سلاحه على نفسه، وإن كبرتُ الثالثة فإني حاملٌ على أعداء الله فاحملوا معي .

كبرَّ النعمان بن مقرنٍ تكبيراته الثلاث، واندفع في صفوف العدو، كأنه الليث عادياً، وتدفق وراءه جنود المسلمين تدفُّقَ السيل، ودارت بين الفريقين رحى معركةٍ ضروس، قلَّما شهد التاريخُ لها نظيراً، كانت من أشهر معارك المسلمين في فتح بلاد الفرس، تمزَّق جيش الفرس شرَّ ممزق، وملأت قتلاه السهل والجبل، وسالت دماؤهم في الممرات والدروب، فزلق جواد النعمان بن مقرن بالدماء فصُرِع، وأصيب النعمان نفسه إصابة قاتلة، فأخذ أخوه اللواء من يده، وسجَّاه ببردةٍ كانت معه، وكتم أمره على المسلمين، وما أخبر أحدًا، ولما تمَّ النصر الكبير الذي سمَّاه المسلمون فتح الفتوح، سأل الجنودُ المنتصرون عن قائدهم الباسل، فرفع أخوه البردة عنه، وقال: هذا أميركم، قد أقرَّ اللهُ عينه بالفتح، وختم له بالشهادة .

خلاصة القول :

أيها الأخوة، ملخص الملخص، نحن ماذا فعلنا؟ لا جنة من دون عمل، ومن دون تضحية، ومن دون بذل، وأقل شيء أنْ تطلب العلم، وأنْ تعلّم، وأقل شيء يمكن أن تقدمه للمسلمين أنْ تتعلم القرآن، وأن تعلّمه، وأن تفعل الخير، وأن تطعم الفقراء، وأن تنصر الضعفاء، وأن تزيل البأساء عن البائسين، وأن تسهم في خدمة مجتمعك المسلم، فمِن دون عمل أنتَ تستهلك جهود الآخرين، وتأخذ ما عندهم، لكنْ أنْ تصلي وتصوم، وتظن أن هذا هو الإسلام؟ لا والله، الإسلام عمل، ولو فَهم الصحابة الكرام الإسلام كما نفهمه اليوم، واللهِ لما خرج الإسلام من مكة إطلاقاً، ولبقي في مكة، فانظرْ إلى أين وصلوا، وأين هذه نهاوند؟ هذه في شرق المدائن، وفي أعماق بلاد الفرس، لقد وصل الإسلامُ إلى الصين .

يا أيها الأخ الكريم، إن لم تكن الأمور واضحة في ذهنك وضوح الشمس، وإنْ لم تكن حياتك مفعمة بما تعتقد، وبما تنطلق، فالطريق إلى الله لا يزال طويلاً، لكنّ الحقيقة أن الصحابة الكرام على اختلاف مشاربهم، وانتماءاتهم، وعلى اختلاف أصولهم، وقبائلهم، صبَغَهُم الإسلام جميعاً بصبغةٍ واحدة .

الإيمان رفع شأنهم، ويجب أن تعلموا أن الله هو هو، إلههم إلهنا، ربهم ربنا، إذًا: فينا تقصير، وهذا بسببنا، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُغَفَّلٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((اللَّهَ اللَّهَ فِي أَصْحَابِي، اللَّهَ اللَّهَ فِي أَصْحَابِي لَا تَتَّخِذُوهُمْ غَرَضًا بَعْدِي، فَمَنْ أَحَبَّهُمْ فَبِحُبِّي أَحَبَّهُمْ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ فَبِبُغْضِي أَبْغَضَهُمْ ،وَمَنْ آذَاهُمْ فَقَدْ آذَانِي، وَمَنْ آذَانِي فَقَدْ آذَى اللَّهَ، وَمَنْ آذَى اللَّهَ يُوشِكُ أَنْ يَأْخُذَهُ))

[أخرجه الترمذي في سننه عن عبد الله بن مغفل]

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ))

[متفق عليه، أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح عن أبي سعيد الخدري]

فأنا أرى أن قدوتنا أصحاب رسول الله، في ورعهم، في عباداتهم، في إقبالهم، في بذلهم، في تضحياتهم.

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

لماذا أراد النبي أن يوسع نطاق دعوته وهل استجاب ثمامة بن أثال لذلك وكيف تلقى ثمامة رسالة النبي ؟

أيها الأخوة الأكارم، مع دروس صحابة رسول الله رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، ومع الدرس الرابع والثلاثين، وصحابي اليوم سيدنا ثمامة بن أثال، ولهذا الصحابي قصة فريدة، يبدو أنَّ كل صحابي يمثلُّ نموذجاً فذًّا، يمكن أن يكون قدوةً لشريحةٍ كبيرةٍ من المجتمع، ففي السنة السادسة للهجرة، عزم النّبي صلّى الله عليه وسلّم، على أن يوسِّع نطاق دعوته .

فالمؤمن لو أنّه اهتدَى إلى الله عزَّ وجل، واهتدى معه أهلُه، لكنه طموح، ولا يرضى أن يهتدي معه فقط ثلةٌ قليلةٌ من بني عشيرته، ويبقى النّاسُ في جهالةٍ جهلاء، ليس هذا من شأن المؤمن، لكنّ المؤمن يهمه أن يعمَّ الهدى الأرضَ كلها، وأن ينتشرَّ الهدى في الخافقين .

فلذلك أراد النّبي عليه الصلاة والسلام في السنة السادسة للهجرة أنْ يوسِّع نطاق دعوته إلى الله، لأنَّ دعوة النّبي عليه الصلاة والسلام موجهة إلى الأمم كلّها، وإلى كلِّ الشعوب، قال تعالى:

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً)

(سورة سبأ الآية: 28)

الأنبياء السابقون كلُّ نبيٍّ منهم كان مرسلاً إلى قومٍ بالذات، لكن النبي عليه صلوات الله وسلامه أرسله الله إلى أمم الأرض كلها، لذلك كان خاتم النبيِّين، فكتب ثمانية كتبٍ إلى ملوك العرب والعجم، وبالمناسبة الرسائل لها دور كبير، فبعضُ الناس قد يتوب إلى الله من خلال رسالة صادقة، سيدنا عمر أرسل إلى صديقه الذي ذهب إلى الشام ووقع على الخمرة، وأدمن عليها، فلما بلغه النبأ تألم أشد الألم، وكتب له:

((من عبد الله عمر بن الخطاب إلى فلان، أما بعد، أحمد الله إليك :

(غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ)

(سورة غافر الآية: 3)

فجعل هذا الصديق يقرأ كتاب عمر بن الخطاب ويبكي، إلى أن حملته هذه الرسالة على التوبة))

المؤمن الصادق يدعو تارةً بلسانه، تارةً بقلبه، تارةً بمعروفه، تارةً بزيارته، تارةً ببذله، تارة بالإقناع، تارة بالمنطق، همه كبير وهدفه نبيل، وشرفه من شرف دعوته، ويمثِّل هذا الدين،

((أنت على ثغرةٍ من ثغر الإسلام، فلا يؤتين من قِبَلك))

كلُّ مسلم يشعر أنه سفير المسلمين ويمثِّلهم .

بعث بها إليهم يدعوهم فيها إلى الإسلام، وكان مِن جملة مَن كاتبهم ثمامة بن أثال الحنفي، أحد ملوك العرب، سيدٌ من سادات بني حنيفة المرموقين، وملكٌ من ملوك اليمامة الذين لا يُعصَى لهم أمر، تلقَّى ثمامة رسالة النبي صلى الله عليه وسلم بالزراية والإعراض، وأخذته العزة بالإثم، فأصمَّ أذنيه عن سماع دعوة الحق والخير، قال تعالى:

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا)

(سورة التحريم الآية: 4)

صحَّة السماع تعني المبادرة إلى التطبيق، وصحة السماع تعني أن تتوب إلى الله عزَّ وجل، قال عز وجل:

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا)

(سورة التحريم الآية: 4)

ماذا قرر ثمامة بعد أن تلقى رسالة النبي وهل نجا الصحابة من شر ثمامة ؟

أيها الأخوة، ركبه شيطانه، فأغراه بقتل النبي عليه الصلاة والسلام، وهذا الملك هكذا عنَّت له نزوة طارئة، أن يقتل النبي ويريح الناس منه، وقد قال الله عز وجل:

(مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ)

(سورة الحج الآية: 15)

فمَن توهَّم أن الله عزَّ وجل لا ينصر النبي عليه الصلاة والسلام، فليفعلْ ما يشاء، ولن تتحقق رغبته وأمنيته، لأن أمنيته سرابٌ بِقِيعَةٍ، واللهُ عزَّ وجل ناصر نبيه، رسول رب العالمين، أيعقل أن يسلمه؟ هذا معنى قول الله عزَّ وجل:

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ)

(سورة المائدة الآية: 67)

لا يستطيع أحدٌ أن يقتل النبي، أبداً، هذا معنى:

(وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ)

(سورة المائدة الآية: 67)

يعصمك مِن أن تُقتَل، فإذا قُتِلتَ فقد انتهت الدعوة مع قتلك، قال تعالى:

(وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ)

(سورة المائدة الآية: 67)

هذه عصمة النبي، معصوم عن الخطأ، والله عصمه مِن أن يُقتَل .

فدأب يتحيَّن الفرص للقضاء على النبي صلى الله عليه وسلم، حتى أصاب منه غرة غفلة، وكادت تتم الجريمة الشنعاء لولا أن أحد أعمام ثمامة ثناه عن عزمه في آخر لحظة، فنجَّى الله النبي من شرِّه، فإلى هذه الدرجة بلغت عداوته للنبي عليه الصلاة والسلام، لكن ثمامة إذا كان قد كفَّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه لم يكفَّ عن أصحابه، حيثُ جعل يتربَّصُ بهم، حتى ظفر بعددٍ منهم، وقتلهم شرَّ قتلة، لذلك أهدرَ النبي عليه الصلاة والسلام دمه، وأعلن هذا في أصحابه، أنّ هذا الرجل دمه مهدور .

كيف أسر ثمامة بين أيدي المسلمين وكيف عامله النبي ؟

أذكِّركم كلمة كنت أرددها: هكذا تدار الأمم، لا بالانتقام، ولكن بالعقل والغفران، هذا الإنسان، ما جزاؤه؟ القتل والتنكيل، ولم يمض على ذلك طويل وقتٍ حتى عزم ثمامة بن أثال على أداء العمرة، على النمط الجاهلي، فانطلق من أرض اليمامة، مولياً وجهه شطر مكة، وهو يمنِّي نفسه بالطواف حول بالكعبة، والذبح لأصنامها، وبينما كان ثمامة في بعض طريقه، قريباً من المدينة، نزلت به نازلة، لم تقع له في الحسبان، ذلك أن سرية من سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت تجوس خلال الديار، خوفاً من أن يطرق المدينة طارق، أو يريدها معتدٍ بشر، فأسرت السريةُ ثمامة بن أثال، وهي لا تعرفه، فألقت عليه القبض وأسرَتْه، وأتت به إلى المدينة، وشدّته إلى ساريةٍ من سواري المسجد، وهذه طريقة سجنه، وهي تنتظر أمر النبي عليه الصلاة والسلام في شأن هذا الأسير، ولما خرج النبي عليه الصلاة والسلام إلى المسجد، وهمَّ بالدخول فيه، رأى ثمامة مربوطاً في السارية، فقال لأصحابه:

((أتدرون من أخذتم؟ قالوا: لا، يا رسول الله! قال: هذا ثمامة بن أثال الحنفي .

-ماذا قال النبيّ عليه الصلاة والسلام لهذا الملك الحاقد الذي أراد قتله، والذي جمع أصحاباً له، ونكَّل بهم وقتلهم شر قتله؟ هنا الوقفة، وهنا الحقيقة، فأيّ إنسان على وجه الأرض تمكَّن مِن عدوٍّ لدودٍ، وخصمٍ عنيدٍ، ومبغضٍ حاقدٍ، وألقى القبض عليه، فلا بدَّ أن يقتله، وربما كان قتله لا يشفي غليل الأول، فماذا يفعل به إذًا؟ يأمر بتعذيبه، والتمثيل به، ثم قتله- قال عليه الصلاة السلام، حينما رأى ثمامة بن أثال مربوطاً إلى ساريةٍ من سواري المسجد، قال: أحسنوا إسارَه، -لماذا؟ إنه خلاف المألوف، الجواب هو أن النبي عليه الصلاة والسلام، لا يمكن أن يبغض إنساناً لذاته، لكن يبغضه لعمله، فإذا كان هناك أملٌ في هدايته، ونقله من الضلالة إلى الهدى، ومِن الضياع إلى الرُشد، ومن

الخطأ إلى الصواب، فمرحباً بذلك، فالنبيّ عليه الصلاة والسلام، قال: أحسنوا إسارَه، أيْ أحسِنوا إلى هذا الأسير- ثم رجع عليه الصلاة والسلام إلى أهله، وقال: اجمعوا ما كان عندكم من طعام، وابعثوا به إلى ثمامة بن أثال، -ليطعمه من طعام بيته، فجمع من طعام أهله شيئًا، وأرسله إلى ثمامة بن أثال- ثم أمر بناقته أن تُحلب له في الغُدو والرواح، وأن يُقدَّم لبنها إلى ثمامة بن أثال))

ما هذا يا رسول الله؟! هذا الذي أراد أن يقتلك، أراد أن ينكّل بأصحابك، وبل نكّل بهم، وجمع عدداً منهم، وقتلهم شر قتلة، ثم تجمع له من طعام بيتك، وتأمر بحلب ناقتك، وترسلها إلى ثمامة، ليأكل وليشرب، وتمَّ ذلك كلُّه قبل أن يلقاه النبيّ عليه الصلاة والسلام، وقبل أن يكلمه، بعد أن أكل وشرب وشبع، وشعر أن هذا من عند النبي عليه الصلاة والسلام أقبلَ النبيُّ عليه الصلاة والسلام على ثمامة، يريد أن يستدرجه إلى الإسلام .

فإذا كان لك عدو لدود، وخصم عنيد، وإنسان أوقع فيك أشدَّ أنواع الأذى، ثم وقع في قبضتك، فأنت بين أمرين؛ إمّا أن تنتقم منه، وتشفي غليلك، وإمّا أن تسعى كي يُسلم، وكي يهتدي ، وقد ملكتَ أمره، ووقع في قبضتك، فإذا اخترت الانتقام، فما أبعدك عن الإيمان، وإن اخترت له الهداية، وصفحت عنه، وعفوت عنه، فقد أفلحتَ وأنجَحتَ، وربنا عزَّ وجل يأمرنا بالصفح فيقول :

(فاصْفَح الصَّفْحَ الْجَمِيلَ)

(سورة الحجر الآية: 85)

هذه أخلاق الأنبياء .

إليكم قصة إسلام ثمامة بن أثال :

أيها الأخوة، أقبل عليه النبيّ صلى الله عليه وسلم، وقال:

((ما عندك يا ثمامة؟ فقال ثمامة: عندي يا محمد خير، فإن تقتل تقتل ذا دم، -يعني إن قتلتني فأنت محق، والحق معك، وأنا أستحق أن أقتل لأنني قاتل- وإن تنعم علي بالعفو، تنعم على شاكر- أنا لا أنسى لك هذا المعروف- وإن كنت تريد المال، فسَلْ تُعط منه ما شئت))

وإن أردت المال فاطلبْ منه ما تشاء، وسل منه تُعطَ ما تشاء، فالنبي ما قال شيئًا، فتركه وعاد . تركه النبيّ عليه الصلاة والسلام يومين على حاله، يؤتى له بالطعام والشراب، ويحمل إليه لبن الناقة، ثم جاءه ثانية، قال:

((ما عندك يا ثمامة؟ -مرة ثانية، خطة حكيمة- قال: ليس عندي إلا ما قُلت لك من قبل))

فتركه النبيّ عليه الصلاة والسلام، حتى إذا كان في اليوم التالي، جاءه فقال:

((ما عندك يا ثمامة؟ قال: عندي ما قلت لك: إن تنعم، تنعم على شاكر، وإن تقتل تقتل ذا دم، وإن كنت تريد المال، أعطيتك منه ما تشاء .

فالتفت النبيّ عليه الصلاة والسلام إلى أصحابه، وقال: أطلِقوا ثمامة، وفكُّوا وثاقه، وأطلقوه))

يعني عفا عنه، لكن هذا من شأن النبيّ عليه الصلاة والسلام، فالله عزَّ وجل فتح بصيرته، ولا شك أن النبيّ عليه الصلاة والسلام توسَّم فيه الخير، وهذا موقف غريب جداً، وموقف غير معقول، قاتل نكَّل بأصحابه، عفا عنه، وأكرمه هذا الإكرام، وأطعمه الطعام، وسقاه هذا اللبن! .

غادر ثمامة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومضى حتى إذا بلغ نخلاً من حواشي المدينة، قريباً من البقيع، فيه ماءٌ، أناخ راحلته عنده، وتطهَّر من مائه، فأحسن طهوره، ثم عاد أدراجه إلى المسجد، فما إن بلغه، حتى وقف على ملأٍ من المسلمين، وقال:

((أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

-فهذا الإنسان على جانب عالٍ من الذكاء، ما أراد أن يسلم وهو مقيَّد، وما أحب أن يُسلم تحت ضغط الأسر، لكن حينما عفا عنه النبي، أعلن إسلامه- وقال: يا محمد، والله ما كان على ظهر الأرض وجهٌ أبغض إليّ من وجهك، -العرب كانوا صرحاء، وما تسمع الآن إلا مديح كاذب ، وزورٌ وبهتان- وقد أصبح وجهك أحبَّ الوجوه كلُّها إليّ .

-هذا بالإحسان، وأنت أيها المؤمن، بإمكانك تنقل إنسان من أشد أنواع العداوة والبغضاء إلى أشد أنواع الحب والولاء، بإحسانك، افتح القلوب بإحسانك، قبل أن تفتح الآذان لبيانك، وقد أخرج ابن أبي شيبة وابن أبي الدنيا عن سعيد بن المسيب، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((رأس العقل بعد الإيمان بالله مداراة الناس))

ويتابع ثمامة- فيقول: ووالله يا محمد، ما كان دينٌ أبغض إليّ من دينك، فأصبح دينك اليوم أحبَّ الدين كله إليّ، ووالله يا محمد، ما كان بلدٌ أبغض إلـيّ من بلدك، فأصبح بلدك أحب البلاد كلها إليّ، ثم قال: يا محمد، لقد كنت أصبت في أصحابك دماً، فما الذي توجبه عليّ؟ فقال عليه الصلاة والسلام: لا تثريب عليك يا ثمامة، فإن الإسلام يجُبُّ ما قبله.

-أنت حينما تتوب فكل شيءٍ سبق هذه التوبة عفا الله عنه، وبشَّره بالخير، الذي كتبه الله له بإسلامه، فانطلقت أسارير ثمامة، وانفرجتْ- وقال: والله يا محمد، لأصيبن من المشركين أضعافَ ما أصبت من أصحابك، ولأضعن نفسي وسيفي ومن معي في نصرتك، ونصرة دينك))

وهنا وقفة أُخرى، إذا أقنعتَ إنسانًا له شأن، فاعتقد اعتقاداً جازماً صحيحًا، فإنّ كل أتباع هذا الإنسان يصيرون إلى دينه، وإذا أقنعتَ مثلاً رب أُسرة بالإيمان، إذا أقنعت الابن قناعة كافيةً فهذا أجود، لكن

يبقى موقفُه ضعيفًا في الأسرة، أمّا لو أقنعت الأب لوجَّه أولاده جميعاً، لو أقنعتَ مدير مؤسسة، أو أقنعت مدير مستشفى مثلاً، فكلما رفعت مستوى الدعوة، هؤلاء لهم أتباع، هؤلاء لهم مراكز قِوى، هؤلاء بإمكانهم أن يؤثروا في الآخرين، ولقد دعا النبي اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ربَّه أن يعز الإسلام برجلين، فعَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ:

((اللَّهُمَّ أَعِزَّ الْإِسْلَامَ بِأَحَبِّ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ إِلَيْكَ بِأَبِي جَهْلٍ أَوْ بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، قَالَ: وَكَانَ أَحَبَّهُمَا إِلَيْهِ عُمَرُ))

[أخرجه الترمذي في سننه عن ابن عمر]

ثمامة يؤدي العمرة على شرع الله ورسوله :

كان ثمامة أصلاً متوجِّهًا للعمرة، وبالمناسبة في بعض مواسم الحج السابقة، ألقيتْ بعض الندوات والمحاضرات، وكان في المجلس رجل من العالم الغربي، أسلم وحسُن إسلامه، وامتلأ قلبه بالإيمان، وهو على مستوى رفيع جداً من الثقافة، فألقى محاضرة في مكة المكرمة، قال فيها: نحن أقوى أُمم الأرض، فإذا أقنعتمونا بالإسلام، فكل قوتنا تتحوّل لكم، يعني نحن أقوى أُمة، بأيدينا السلاح المدمِّر، السلاح الفتَّاك، التكنولوجيا، الأقمار الصناعية، الكمبيوتر، فإذا أقنعتمونا بالإسلام، وهديتمونا إليه، فكل قوتنا تصبح بين أيديكم، يعني أنت همَّك الأول هداية الناس، فإذا اهتدى إنسان قوي، فكل قوته تصبح للإسلام، لذلك يقول الإمام مالك إمام دار الهجرة :

((لو أن ليّ دعوةً مستجابةً، لادَّخرتها لأولي الأمر))

لأن في صلاحهم، صلاح الأمة، القوة لها شأن كبير، إذا كان الإنسان قويًّا فأقنعته بالدين، فإنّ كل قوته، وكل ذكائه، وكل أتباعه، وكل إمكاناته، تصبح في خدمة هذا الدين .

قال:

((يا رسول الله! إن خيلك أخذتني، وأنا أريد العمرة، فماذا ترى أن أفعل؟، فقال عليه الصلاة والسلام: امض لأداء عمرتك، ولكن على شِرعة الله ورسوله .

مضى ثمامة إلى غايته، حتى إذا بلغ بطن مكة وقف يجلجل بصوته العالي، قائلاً: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد، والنعمة، لك والملك، لا شريك لك، لا شريك لك))

فكان أول مسلمٍ على ظهر الأرض يدخل مكة ملبِّياً، ولا تزال مكة بيد الكفار، ولا يزال فيها الأصنام .

ما هو موقف قريش حينما سمعت ثمامة يلبي نداء الإسلام، ولماذا فرض ثمامة الحصار على قريش، وبمن استنجدوا ؟

سمعت قريشٌ صوتَ التلبية، فهبَّت غاضبةً مذعورة، واستلت سيوفها مِن أغمادها، واتجهت نحو الصوت لتبطش بهذا الذي اقتحم عليها عرينها، ولما أقبل القوم على ثمامة، رفع صوته بالتلبية رفع العيار، وهو ينظر إليهم بكبرياء، فهمَّ فتىً من فتيان قريش أن يرديه بسهمٍ، فأخذوا على يديه، وقالوا: ويحك أتعلم من هذا؟ إنه ثمامة بن أثال، ملك اليمامة، فقتْلُه يشعل علينا نارَ حربٍ كبيرةٍ، أخذوا على يديه، ومنعوه أن يناله بسهم، وقال الناصح: والله إن أصبتموه بسوءٍ لقطع قومه عنا الميرة، وأماتونا جوعاً، ثم أقبل القوم على ثمامة، بعد أن أعادوا السيوف إلى أغمادها، وقالوا: ما بك يا ثمامة، أصَبَوْتَ؟ يعني أسلمت، وتركتَ دينك ودين آبائك، قال: ما صبوت، ولكني اتبعتُ خير دينٍ، اتبعت دين محمد، ثم أردف يقول: أقسم بربِّ هذا البيت إنه لا يصل إليكم بعد عودتي إلى اليمامة حبةٌ من قمحها، أو شيءٌ من خيراتها، حتى تتبعوا محمداً عن آخركم .

ثم اعتمر ثمامة بن أُثال على مرأى من قريش كما أمره النبيّ عليه الصلاة والسلام أن يعتمر، وذبح تقرباً إلى الله، لا للأنصاب والأصنام، ومضى إلى بلاده، فأمر قومه أن يحبسوا الميرة عن قريش، فصدعوا لأمره، واستجابوا له، وحبسوا خيراتهم عن أهل مكة، لكنّ النبي عليه الصلاة والسلام حينما أكرمه، وحينما عفا عنه، أراد من خلال ذلك أن يهتدي، ويهتدي معه قومه ، وهذا بالتعبيّر العام ضربة معلم، رحمة، عفو، حنكة، سياسة، عفو عند المقدرة، دعوة إلى الله عميقة، لأن هذا إنسان قوي، إذا أسلم فكلُّ أتباعه، يصبحون مسلِمين .

أخذ الحصار الذي فرضه ثمامة على قريش، يشتدُّ شيئاً فشيئاً، فارتفعت الأسعار، والآن النظام العالمي الجديد يتخذُّ الحصار علاجًا، لكن بغير الحقّ، بل بالباطل، فارتفعت الأسعار وفشا الجوع في الناس، واشتد عليهم الكرب، حتى خافوا على أنفسهم وأبنائهم أن يهلكوا جوعاً، عند ذلك كتبوا إلى النّبي صلّى الله عليه وسلّم، صار النَّبي ندًّا لهم، كان ضعيفاً مستضعفاً، ائتمروا على قتله، أخرجوه من بلاده، نكّلوا بأصحابه، وهم أشداء أقوياء، ولكن الله لهم بالمرصاد ثم أرادوا أن يتوسَّلوا إلى النّبي عليه الصلاة والسلام ليأكلوا، فكتبوا إلى النّبي عليه الصلاة والسلام قائلين: إن عهدنا بك أنك تصل الرحم، وتحضُّ على ذلك، وها أنت قد قطعتَ أرحامنا، فقتلتَ الآباء بالسَّيف، وأمتَّ الأبناء بالجوع، وإنَّ ثمامة بن أُثال، قد قطعَ عنا ميرتنا، وأضرَّ بنا، فإن رأيت أن تكتب إليه أن يبعث إلينا بما نحتاج إليه فافعل .

عرفوا أنّ مفتاحه عند رسول الله، فكتب النّبي عليه الصلاة والسلام إلى ثمامة بأن يطلق لهم ميرتهم، فأطلقها، وهذا انضباط .

إليكم موقفه وهو ينصح بني حنيفة من دعوة مسيلمة الكذاب مع الأدلة التي استخدمها لبيان الحق

ظلَّ ثمامة بن أثال ما امتدّت به الحياة وفياً لدينه، حافظاً لعهد نبيه، فلّما التحق النبي صلّى الله عليه وسلّم بالرفيق الأعلى، طفق العرب يخرجون من دين الله زرافاتٍ ووحدانًا، الذي دخل بسهولة، يخرج بسهولة، أمّا الذي دخل بعد قناعة عميقة، وبعد محاكمة فكرية، فعزيزٌ عليه الارتداد، ولن يكون .

فإذا جاء معك إلى المسجد مِن أول دعوة دعوته بها، فاستجاب، وقعد في مجلس العلم بهذه البساطة، فهذا الإنسان الذي جاء بهذه البساطة يمكن أن يترك لأتفه الأسباب، أما الذي عنده محاكمة، فكّر، وتأمل، واستمع، وناقش، وسأل، واعترض، وقال: عندي شبهة فاكشفوها لي، وما استسلم إلا بعد محاكمة طويلة، وبعد سؤالٍ وجواب، وبعد حوارٍ مديد، وبعد تبصُّر، وبعد تأمُّل، فهذا الإنسان دخل ساحة الدين بقناعةٍ، وبحثٍ، ودرسٍ، ومِن رابع المستحيلات أن يتركه بسببٍ تافه، أنت مع مَن؟ مع خالق الكون، ومَن عاهدت؟ عاهدت الله عزَّ وجل، واللهُ عظيم، فاثبتْ واذكرْ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وثباتهم، وعاقبة أمرهم .

من علامات قيام الساعة أن يصبح المرء مؤمناً، ويمسي كافراً، يمسي كافراً ويصبح مؤمناً، يبيع دينه بعرضٍ من الدنيا قليل، تجده ترك الصلاة لأتفه الأسباب، ترك الاستقامة بعدما كان مستقيمًا، قبِلَ مالاً حراماً، يقول لك: عندي أولاد، ماذا أفعل؟ أهذا هو السبب؟.

لما قام مسيلمة الكذاب، في بني حنيفة، يدعوهم إلى الإيمان به، وقف ثمامة في وجهه، وقال لقومه:

((يا بني حنيفة، إياكم وهذا الأمر المظلم، الذي لا نور فيه، -كم فرقة إسلامية ظهرت في التاريخ الإسلامي؟ ظهرت وتلاشت، لكن هذا الدين دين الله عزَّ وجل، هذا الدين العظيم، لأنّه دين الله بقي شامخاً، كالطود الأشم، فالمؤامرات التي حيكت ضدَّ الإسلام، أكثر مِن أن تحصى، ومع ذلك فالإسلام هو الإسلام، والدين هو الدين، والإسلام كالطود الشامخ، وكالسفينة العملاقة التي لا تهتز بأتفه الأمواج.

قال: يا بني حنيفة، إياكم وهذا الأمر المظلم الذي لا نور فيه، إنه واللهِ لشقاءٌ كتبه الله عزَّ وجل على مَن أخذ به منكم، وبلاءٌ على من لم يأخذ به، ثم قال: يا بني حنيفة، إنه لا يجتمع نبيَّان في وقتٍ واحد، وإن محمداً رسول الله لا نبي بعده، ولا نبي يُشْرَك معه، ثم قرأ عليهم:

(حم * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ)

(سورة غافر الآية: 1-3)

ثم قال: أين كلام الله هذا من قول مسيلمة؟ يا ضفدع نِقِّي ما تَنِقِّين، لا الشراب تمنعين، ولا الماء تكدِّرين .

-هذا كلام مسيلمة، ولما كذَّب مسيلمة الكذاب بالفطرة، فقد تنكر الفطرة القائمة في نفسه، والإيمان بالقرآن يتمّ بالفطرة، من دون دليل، تقرأ القرآن، تشعر أنه كلام خالق الكون، تقرأ كلامًا منحولاً، مفترى، تشعر أنه سخيف، تافه، كلامٌ لا يقف على قدمين، وهناك الأدلة علمية، والأدلة الإعجازية، ولدينا أدلة نقلية وعقلية، مع دليل بسيط، هو دليل الفطرة، مثلاً لما قال ربنا عزَّ وجل :

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

(سورة آل عمران الآية: 190-191)

تشعر أنَّ هذا كلام الله:

(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآَثَارَهُمْ)

(سورة يس الآية: 12)

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلاً * فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً)

(سورة الإنسان الآية: 23-24)

تشعر بالفطرة، بلا دليل، بلا تعليل، بلا محاكمة، أنَّ هذا كلام الله، أمَّا: يا ضفدع نِقّي ما تنقّين، لا الشراب تمنعين، ولا الماء تكدرين، فهذا هراءٌ وجزاف- .

ثم انحاز لِمَن بقي على الإسلام من قومه، ومضى يقاتل المرتدين، جهاداً في سبيل الله وإعلاءً لكلمة الله في الأرض، فقد أدرك الحقَّ، واستجاب له، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال الآية: 24)

الإنسان قبل الإيمان ميت، قال سبحانه:

(أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا)

(سورة الأنعام الآية: 122)

والكافر في ظلماتٍ بعضها فوق بعض، لكنّ المؤمن استنار عقلُه، وطهُرت نفسه، وامتلأ قلبه سعادةً، وضبط سلوكه، وسددَّ خطاه، وامتلك رؤية صادقة، وعزماً متيناً، وإرادةً صلبةً، هذا هو الإيمان .

إليكم مواقف ثمامة قبل الإسلام وبعده :

فهذا ثمامة بن أثال، فكم كان البَوْنُ شاسعًا بين حياته قبل الإسلام، يوم كان ملِكًا، غاشمًا، حقودًا، قاتلاً، وأراد أن يقتل النّبي، ثمَّ صُرِف عن قتله، وجَمَع نفرًا من الصحابة وقتلهم شرَّ قتله، فلمّا عرف الله عزَّ وجل، أصبح إنسانًا آخر، كلُّ طاقاته، وكلُّ إمكاناته موظفةٌ في خدمة الحق؟ .

هذا هو المؤمن بذكائه، بلسانه، بعضلاته، بوقته، باختصاصه، بخبراته، بأولاده، بأسرته ، كلُّ إمكاناته سخَّرها في سبيل الله مضحِّيًا صادقًا، أما قبل ذلك فكانت كلُّ إمكاناته في سبيل الشيطان، في سبيل المصالح الدنيوية، لذلك فالحياة لا تستقيم إلا بالإيمان، ولا يسعد الإنسان إلا بالإيمان، مِن هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((لَا تُصَاحِبْ إِلَّا مُؤْمِنًا، وَلَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيٌّ))

[أخرجه الترمذي عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ في سننه]

إنْ صاحبتَ المؤمن فالمؤمن منصف، والمؤمن وفي، والمؤمن صادق، وقّاف عند حدود الله عزَّ وجل، يحب لكَّ ما يحبُّ لنفسه، ويكره لك ما يكره لنفسك.

هذا ثمامة بن أثال، جزاه الله عن الإسلام والمسلمين خيراً، وأكرمه بالجنة التي وعِد المتقون .

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

أيهما الصواب أن الإنسان منفعل أم فاعل ؟

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس الخامس والثلاثين من دروس سير صحابة رسول الله رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، وصحابي اليوم سيدنا سلمان الفارسي، وقد قال عليه الصلاة والسلام، في الحديث الصحيح:

((سلمان منا آل البيت، وأنا جدُّ كل تقي، ولو كان عبداً حبشياً))

[ورد في الأثر]

هذه القصة، لعل بعضكم أو أكثركم يعرف خطوطها العريضة، ولكن لا بدّ من مقدمةٍ حتّى نعرف أبعاد هذه القصة .

أحياناً هناك مَن يقول: إن الإنسان ابن بيئته، ابن الظروف المحيطةِ به، ابن أمه وأبيه، ابن وراثته، ابن مستوى ذكائه، وكأن الإنسان منفعلٌ، وليس فاعلاً، تؤثِر فيه الظروف، والبيئة، وتؤثر فيه وراثته، ونوع التعليم الذي تلّقاه يؤثِر فيه، وكأن الإنسان والحالة هذه كرة، إن رأت منحدراً، انطلقت، فإن رأت صعوداً وقفت، لكن الحقيقة خلاف ذلك .

الإنسان ليس منفعلاً، بل هو فاعل، فإذا أراد الإنسان شيئاً تخطّى كل العقبات، وإذا صمم على شيء تجاوز كل المشكلات، والحقيقة أنّ الكسالى والمقصِّرين، والعصاة يتمسكون بنظرية أن الإنسان منفعل، يقول لك: ظروفي صعبة، وبيئتي سيئة، وما تلقيت تربية جيدة، وما تعلمت، فكل أخطائه يعزوها إلى جهاتٍ خارجةٍ عنه ويستريح .

لكن الحقيقة عكس ذلك، الإنسان فاعل وليس منفعلاً ، فهذا الماء منفعل، فإنْ سفحته في منحدر سال نحو الأسفل، وإن سفحته في أرضٍ مستوية تجمّع بشكلٍ أفقي، وإن أصابته شمسٌ تبخّر، وهناك قوانين تحكم هذا الماء، فالماء مُنفعل، لكن الإنسان ربما يتحرك بخلاف راحته، وربما يتجاوز كل المثبّطات في بيئته، وربما يحطم كل عقبةٍ تقف أمامه، ولولا أن الإنسان بهذه الصفة لما كان مكرماً، لو كان الإنسان منفعلاً كما يتوهّم بعض الناس لمَا كان له قيمة، فحكْمه عندئذٍ حكمُ الأشياء المادِّية، تتحرك بحسب القوانين، وبحسب المعطيات، لكن الإنسان إذا أراد شيئاً ، وصل إليه، ولذلك قال بعض الأدباء: إن القرار الذي يتخذه الإنسان في شأن مصيره، قلما تنقضه الأيام، إذا كان صادراً حقاً عن إرادةٍ

وإيمان.

أيُعقَل لإنسان في الخامسة والخمسين أنْ يتعلم القراءة والكتابة؟ نعم، إذا كان ذا عزم وبصيرة، أو أنْ يحفظ القرآن الكريم بكامله، أو أنْ يطلب العلم، أو يبدأ بتعلم القراءة والكتاب، وما يموت إلا وهو شيخ الأزهر، أحد شيوخ الأزهر الكبار بدأ تعلّمه للقراءة والكتابة في الخامسة والخمسين، وحفظ القرآن، وطلب العلم، ومات في السادسة والتسعين، وما مات إلا وهو شيخ الأزهر، وشيخ الأزهر بمصر، أعلى مرتبة في سُلّم المناصب الدينية في مصر .

فالإنسان إذا أراد شيئاً لا تستطيع قوةٌ في الأرض أن تقف أمامه، لأن الله جهّزه تجهيزًا أساسه الصدق، ولأن ربنا عزّ وجل حينما خلقه في الدنيا، قال له:

((عبدي، اطلُبْ تُعط))

قال تعالى:

(كُلّاً نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً)

(سورة الإسراء الآية: 20)

لكن الله سبحانه وتعالى لا يتعامل مع التمنيات، بل يتعامل مع الصادقين، اصْدُقْ يصدقْك الله سبحانه وتعالى، أي يحقق نواياك .

يوجد عندنا شيء آخر، مثلٌ منتزعٌ من عالم الزراعة، لو جئنا بكمية بذور، ولتكن مئة بذرة، ووزّعناها على الفلاحين، وراقبنا نبات هذه البذور، فإذا وجدنا عند تسعين فلاحا أنّ هذه البذرة لم تنبت نباتاً جيداً، ولم تثمر الثمر المطلوب، والأوراق صفراء، والبُنية ضعيفة، ورأينا عند عشرة فلاحين، البذرة في أعلى درجات عطائها وإنتاجها، فالعلّة في الفلاح أم في البذرة؟ في الفلاح، هل تستطيع أن تتهم البذرة؟ ما دام عشرة أشخاص اعتنوا بها عناية فائقة، أعطت محصولاً كبيراً، والنبات تألّق، فلذلك هؤلاء العشرة حجةٌ على التسعين، ولو قلت: البذرة سيئة، فلماذا نبت هذا النبات الجيد عند الآخرين؟ معناها البذرة جيدة، لكن معظم الّذين زرعوها أهملوها ، ولم يعتنوا بها، ولم يكونوا في المستوى المطلوب، فإذا رأيت الأكثرية مقصّرة، فهل المعنى أن الإنسان منفعل؟ لا .

ما اسم قرية سلمان الفارسي وهل كان أبوه من الطبقة العليا في قريته وكيف كانت علاقة أبيه معه ؟

موضوعنا اليوم سيدنا سلمان الفارسي، فلا يوجد إنسان أبعد عن الهدى من هذا الإنسان ، إليكم الأسباب، لكن أنا كما عوّدْتُكم أبحث عن قصةٍ لصحابيٍ جليل يرويها هو، فروايته أشفى للغليل، فسيدنا سليمان كان فتىً فارسياً من أهل أصبهان، من قريةٍ يقال لها: جيّان، يقول سلمان الفارسي عن نفسه:

((كنت فتىً فارسياً، من أهل أصبهان،))

-واسمحوا لي بالخروج عن رواية سلمان قليلا .

ذات مرةٍ كنا في إيران، وركبنا طائرةً حلّقتْ على ارتفاع ألف كيلو متر، حتى وصلنا إلى مدينة اسمها مشهد، ثم زرنا قرية في طرف المدينة، اسمها طوس، هي بلدة الإمام الغزالي، فكيف قدم الإمام الغزالي من طوس إلى الشام؟ طوس تبعد عن طهران ألف كيلو متر، من طوس إلى طهران، إلى عربستان، إلى بغداد، إلى الشام، فتشعر أن الإنسان الصادق، لا يوجد عقبات أمامه- وكان أبي دهقان القرية، معنى دهقان القرية، أي رئيسها- غالباً أبناء الملوك، أبناء الزعماء ، أبناء الأغنياء، لشدة المال، والرخاء، والجاه، يعزفون عن الهدى، مشغولون في دنياهم، في نُزهاتهم، في مقاصفهم، في ألعابهم، في الأموال التي بين أيديهم، في المركبات التي يركبونها، فأبعدُ الناس عن طلبِ الحق هم أبناء الأغنياء، وأبناء الأثرياء، وأبناء الأقوياء، هؤلاء الدنيا العريضة التي بين أيديهم تشغلهم عن الله عزّ وجل، فمن كان أبو سيدنا سلمان؟ الله عزّ وجل جعل هذا الصحابي الجليل حجّةً على كل الناس، كان أبو سيدنا سلمان دهقانَ القرية، وكان أغنى أهلها ، وأعلاهم منزلةً، فشيء مألوف أنْ ترى إنسانًا من الطبقة الوسطى أو الفقيرة يريد الله عزّ وجل، ويريد الآخرة، يقول لك أهل الدنيا: هذه عملية تعويض، لأنه فَقَدَ الدنيا فالتفت للآخرة، هذا كلام غير صحيح، غير صحيح إطلاقاً، فسيدنا سلمان حجة على هذا الكلام، وقد كان أهل الكهف مِن أبناء النخبة الثرية أيضًا، قال تعالى:

(فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفقاً)

(سورة الكهف الآية: 16)

أين كانوا يسكنون؟ في القصور، تركوا القصور إلى الكهوف، أرادوا الله عزّ وجل، فإذا كان موضعَ الهدى، إنسانٌ فقير، قالوا: أراد التعويض عن خسارة الدنيا فالتجأ إلى الآخرة .

مرة قرأت مقالة في مجلة جاء فيها أن هؤلاء المتدينين فشلوا في الحياة، وذهبت الدنيا من بين أيديهم، فلم يبقَ لهم إلا الآخرة، فانكبّوا عليها، هذا ظن الذين كفروا، لكن المؤمن، وهو في أعلى درجات القوّة، وفي أعلى درجات الغنى، وفي أعلى درجات الشباب، يُقبِل على الله عزّ وجل ، ويضع الدنيا تحت قدميه -.

قال:

((وكنت أحبّ الخلق إليه، ثم ما زال حبه بي يشتد، ويزداد على الأيام، حتى حبسني في البيت، خشيةً علي، كما تحبس الفتيات))

ما هي الديانة التي كان يعتنقها سلمان، وما الذي لفت نظره في كنيسة النصارى، وما هو موقف والده حينما أثنى سلمان على دين النصارى ؟

قال:

((وقد اجتهدت في المجوسية، كان مجوسيًا،))

-وحتى هذا التاريخ أحد أخواننا زار بعض البلاد شمال باكستان، فهناك من يعبدون النار حتى الآن، وأطلعني على تقويم كيف تُنشأ الأبنية، وتوقد فيها النيران ليلاً ونهاراً؟ وهذا الذي يوقد النار ليلاً ونهاراً ذو مستوى عالٍ في دين المجوس ، وقال: وقد اجتهدت في المجوسية، حتى غدوت قيمّ النار، فالذي يوقد النار هو في مرتبة دينية عالية جداً، كان مجوسيًا، على غني، على وجاهة، على حب، وكل هذه العوامل مثبطاتٌ للهدى- حتى غدوت قيم النار التي كنا نعبدها، وأنيط بي أمرٌ إضرامها، حتى لا تخبو ساعة في ليلٍ أو نهار، وكانت لأبي ضيعةٌ عظيمةٌ تدرُّ علينا غلةً كبيرة، وكان أبي يقوم عليها، ويجني غلّتها، وفي ذات مرةٍ شغله عن الذهاب إلى القرية شاغل، فقال: يا بني، إني قد شُغلت عن الضيعة بما ترى، فاذهب إليها، وتولّ اليوم عني شأنها، فخرجت أقصد ضيعتنا، وفيما أنا في بعض الطريق، مررت بكنيسةٍ من كنائس النصارى، فسمعت أصواتهم فيها، وهم يصلّون، فلفت ذلك انتباهي، قال: فلما تأملتهم، أعجبتني صلاتهم، ورغبت في دينهم، وقلت: واللهِ هذا خيرٌ مِن الذي نحن فيه .

-بالمناسبة، ما مِن إنسان إلى حدٍ ما في الأعم الأغلب يغدو مؤمناً صادقاً إلا وله طلبٌ قديم منذ نعومة أظفاره يتمنّى أن يكون مؤمناً، ويتمنّى أن يكون طائعاً لله عزّ وجل، يبحث عن الحق بحثًا مستمرًا، وعنده رغبة جامحة، وصدق في طلب الحقيقة .

فالإنسان منطقي، لكن يحتاج إلى لحظة صدقٍ مع نفسه، سيدنا نعيم بن مسعود، جاء إلى المدينة، ليحارب رسول الله، جاء مع الأحزاب، الذين حاصروا النبيَّ عشرين يوماً، وفي إحدى الليالي فكرّ هذا الصحابي تفكيراً صافياً، فقال: لماذا أنا مع هؤلاء؟ لماذا أحارب هذا الرجل الصالح، إلامَ يدعو؟ يدعو إلى عبادة الله خالق الأكوان، وأصحابه أناسٌ طيبون، منصفون، عادلون ، لماذا أحاربهم؟ فعلى الإنسان أن يفكر، لماذا أنا أفعل هذا؟ لماذا ابتعد عن هذا؟ لما لا أستجيب؟ وفي الحديث عَنْ حُذَيْفَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَا تَكُونُوا إِمَّعَةً، تَقُولُونَ: إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنَّا، وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا، وَلَكِنْ وَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا، وَإِنْ أَسَاءُوا فَلَا تَظْلِمُوا))

[أخرجه الترمذي في سننه عن حذيفة]

تأمل سلمانُ، وأدار فكره- ثم قال: فو اللهِ ما تركتهم، حتى غربت الشمس، ولم أذهب إلى ضيعة أبي، ثم إني سألتهم، أين أصل هذا الدين؟ قالوا: في بلاد الشام، وسلمان يعيش في أصبهان، في بلاد الفرس، ولما أقبل الليل، عُدت إلى بيتنا، فتلقاني أبي يسألني عما صنعت؟ فقلت : يا أبتِ، إني مررت بأناسٍ يصلون في كنيسة لهم، فأعجبني ما رأيت من دينهم، وما زلت عندهم حتى غربت الشمس، فذعر أبي

مما صنعت، وقال: أيْ بني، ليس في ذلك الدين خير، -وهذا شأن الآباء، وشأن الذين عطّلوا عقولهم، فقد ألِف ما هو مقيمٌ عليه، ويرفض كلّ تجديد، والإنسان العاقل لا تنطبق عليه الآية الكريمة:

(إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ)

(سورة الزخرف الآية: 22)

العاقلُ يقيّم الأمور، ويتفحّص، ويتأمّل، ويزن بميزان العقل، وبميزان المنطق، وبميزان الفطرة . بالمناسبة، هل تدرون من هو الجاهل؟ لعل أكثركم، يقول: الذي لا يعلم، لا، الذي لا يعلم اسمه أمّيّ، أمّا الجاهل فممتلئ معلومات، لكن كلها غلط، والذي لا يعلم، يقال له: أمِّيّ، أما الذي يعلم مقولات كلها غير صحيحة، فهذا هو الجاهل، فتعريف الجهل: هو عدم مطابقة الكلام للواقع- .

قال:

((دينك يا بني، ودين آبائك خيرٌ منه، قلت: كلا والله، إن دينهم لخيرٌ من ديننا، فخاف أبي مما أقول، وخشي أن أرتد عن ديني، وحبسني بالبيت، ووضع قيداً في رجلي، -قيد الغنى، وقيد الوجاهة، وقيد التفوق في المجوسية، وقيد المحبة، والقيد الخامس قيدٌ حديديٌ وضعه في رجله- خشية أن يرتد عن دينه))

سلمان من أولئك الباحثين عن الحقيقة :

قال:

((لما أتيحت لي الفرصة، بعثت إلى النصارى، أقول لهم: إذا قدم عليكم ركبٌ يريد الذهاب إلى بلاد الشام، فأعلموني، فما هو إلا قليلٌ حتى قدم عليهم ركبٌ متجهٌ إلى الشام، فأخبروني به، فاحتلت على قيدي حتى حللته، وخرجت معهم متخفياً، حتى بلغنا الشام .))

-لذلك قالوا: هناك أبٌ أنجبك، وهناك أبٌ زوّجك، وهناك أبٌ دلّك على الله، فالأب الذي أنجبك، ينتهي فضله عند الموت، أي هو ساهم بإيجادك، ساهم بأنه جعلك إنساناً، فلما جاء ملك الموت انتهى فضله، والأب الذي زوّجك ينتهي فضله عليك بفراق زوجتك، أما الأب الذي دلّك على الله، فهذا يمتد فضله إلى أبد الآبدين، لأنه كان سبباً في إدخالك الجنة، فلذلك هو يبحث عن رجل يدلّه على الله- .

قال:

((فلما نزلنا في الشام، قلت: من أفضل رجلٍ من أهل هذا الدين؟ قالوا: الأسقف راعي الكنيسة فجئته، فقلت: إني قد رغبت في النصرانية، وأحببت أن ألزمك وأخدمك وأتعلّم منك وأصلي معك، قال: ادخل، فدخلت عليه، وجعلت أخدمه، ثم ما لبثت أن عرفت أن الرجل رجل سوء، فقد كان يأمر أتباعه بالصدقة، ويرغّبهم بثوابها، فإذا أعطوه منها شيئاً لينفقه في سبيل الله اكتنزه لنفسه، ولم يعطِ الفقراء

والمساكين منها شيئاً، حتى جمع سبع قلالٍ من الذهب، -القلال جمع قُلّة، والقلة الجرة الكبيرة- قال: فأبغضْتُه بغضاً شديداً لِمَا رأيته منه، ثم ما لبث أن مات، فاجتمعت النصارى لدفنه، وتعظيمه، وتأبينه، فقلت لهم: إن صاحبكم كان رجل سوء، يأمركم بالصدقة، ويرغّبكم فيها، فإذا جئتموه بها اكتنزها لنفسه، ولم يعطِ المساكين منها شيئاً، قالوا: مِن أين عرفت ذلك؟ قلت لهم: أنا أدلُّكم على كنزه، قالوا: نعم دُلنا عليه، فأريتهم موضعه، فاستخرجوا منه سبع قلالٍ مملوءةٍ ذهباً وفضةً، فلما رأوْها، قالوا: واللهِ لا ندفنه، ثم صلبوه ورجموه بالحجارة،))

-أعظم الأعمال إجراماً أن ترفع مبادئ وشعارات، وأن تفعل خلافها، أن تدعو إلى شيء وألاّ تأتمر به، ماذا قال أحد الأنبياء؟ قال تعالى:

(وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ)

(سورة هود الآية: 88)

مِنَ الممكن أنْ يكون لإنسان مظهر، لكن مخبره غير مظهره، هذه أول تجربة من تجارب سيدنا سلمان الفارسي- .

ثم إنه لم يمضِ غير قليل حتى نصّبوا رجلاً آخر مكانه، فلزمته، قال: فما رأيت رجلاً أزهد منه في الدنيا، ولا أرغب منه في الآخرة، ولا أدأب منه على العبادة ليلاً ونهاراً، فأحببته حباً جماً، وأقمت معه زماناً، فلما حضرته الوفاة، قلت له: يا سيدي إلى من توصي بي، ومع مَن تنصحني أن أكون من بعدك، -لأن الله عزّ وجل يصف أهل الدنيا، وقد فاتهم الإيمان، قال تعالى:

(يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً)

(سورة الفرقان الآية: 27)

مع الرسول، أيْ أنت بحاجة إلى رفيق، إلى إنسان يعينك على أمر دينك، أنت بحاجة إلى جماعة، إلى مجتمع مسلم، يقوّي فيك عزيمة الإيمان، يبعدك عن مزالق الشيطان، يرغّبك في الآخرة، لا تصاحب من لا ينهض بك إلى الله حاله، ولا يدلك على الله مقاله- .

قال: أيْ بني، لا أعلم أحداً على ما كنت عليه، إلا رجلاً بالموصل، هو فلان، لم يحرّف، ولم يبدِّل، - المعنى: مَن هم أهلُ الضلال؟ الذين حرفوا وبدلوا- هو بالموصل فالحق به، فلما مات صاحبي، لحقت بالرجل، فلما قدمت عليه، قصصت عليه خبري، وقلت له: إن فلاناً، أوصاني عند موته، أن ألحق بك، وأخبرني أنك مستمسكٌ بما كان عليه من الحق، فقال: أقم عندي ، فأقمت عنده، فوجدته على خير حال، ثم إنه لم يلبث أن مات، فلما حضرته الوفاة، قلت له: يا سيدي، لقد جاءك من أمر الله ما ترى، وأنت تعلم من أمري ما تعلم، فإلى من توصي بي، ومن تأمرني باللحاق به؟ فقال: أي بني، والله ما أعلم أن رجلاً على مثل ما كنا عليه، إلا رجلاً بنصيبين هو فلان فالحق به، -معناها أهل الحق قلة، قال تعالى:

(وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنّاً إِنّ الظَّنّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقّ شَيْئاً)

(سورة يونس الآية: 36)

فلما غُيّب الرجل في لحده، لحقت بصاحب نصيبين، وأخبرته خبري، وما أمرني به صاحبي، فقال لي: أقم عندنا، فأقمت عنده فوجدته على ما كان عليه صاحباه من الخير، فو الله ما لبث أن نزل به الموت، فلما حضرته الوفاة، قلت له: لقد عرفت من أمري ما عرفت، فإلى من توصي بي؟ قال: يا بني، والله إني لا أعلم أحداً بقي على أمرنا، إلا رجلاً بعموريا، هو فلان، فالحق به، فلحقت به، وأخبرته خبري، فقال سلمان: كنتُ أصِل إليهم في أواخر حياتهم كلهم، فقال: أقم عندي، فأقمت عند رجلٍ، كان واللهِ على هدي أصحابه، وقد اقتنيتُ عنده بقراتٍ وغنيمة ، ثم ما لبث أنْ نزل به ما نزل من أصحابه من أمر الله، فلما حضرته الوفاة، قلت له: إنك تعلم من أمري ما تعلم فإلى مَن توصي بي، وما تأمرني أن أفعل؟ فقال: يا بني، والله ما أعلم أن هناك أحداً من الناس بقي على ظهر الأرض، مستمسكاً بما كنا عليه، ولكنه قد أظلّ واقترب زمانٌ يخرج فيه بأرض العرب نبيٌ يبعث بدين إبراهيم، ثم يهاجر من أرضه إلى أرضٍ ذات نخل بين حرتين، وله علاماتٌ لا تخفى، هو يأكل الهدية، ولا يأكل الصدقة، وبين كتفيه خاتم النبوة، فإن استطعتَ أن تلحق بتلك البلاد فافعلْ -فصارت تنقلاتُه كلها رحلةٌ في البحث عن الحقيقة . المكان الفلاني، مكان جميل جداً، الفندق الفلاني، المسبح الفلاني، الملعب الفلاني، المقصف الفلاني، هؤلاء أهل الدنيا، أما أهل الآخرة، العالم الفلاني، المُربي الفلاني، المُرشد الفلاني، ينتقل من عالمٍ إلى عالم، ومن رجل إلى رجل، فلعله يتعلّم منه أمر الدين- قال: ثم وافاه الأجل))

ما هو الظرف الذي عاشه سلمان حتى وصل إلى يثرب ؟

قال:

((فمكثتُ بعده بعموريا زمناً، إلى أن مر بنا نفرٌ من تجّار العرب، من قبيلة كلب، فقلتُ لهم: إن حملتُموني معكم إلى أرض العرب، أعطيتكم بقراتي كلها، وغُنيمتي هذه، فقالوا: نعم نحمِلك، فأعطيتهم إياها، وحملوني معهم، حتى إذا بلغنا وادي القُرى غدروا بي، وباعوني لِرجلٍ يهودي، عبدًا رقيقًا، وأخذوا بقراتي وغُنيمتي، وباعوني بيع الأرقاء، وأصبحتُ عبداً عند هذا اليهودي .))

-يستوقفنا هنا موقف، يعني أنّ الإنسان أحيانًا قد يضعه الله عزّ وجل في ظروف صعبة ، يشتغل بمحلٍّ صاحبُه قاسٍ جداً، أو يكون موظفًا، يتعيّن في قرية نائية، خشونة في العيش، وشدّة ، فالله عزّ وجل هو الذي يعلم، وربما كان هذا التعيين بهذه القرية النائية خلوةً لا يمكن أن تحققها في المدينة، وربما كان صاحب هذا المحل القاسي دافعاً لك إلى الله، لا تعرف، قال تعالى:

(وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة البقرة الآية: 216)

سيدنا سلمان الفارسي صحابي جليل، يباع بيع الأرقاء، لرجل يهودي، وكان قاسياً جداً، وسوف تروْن معي بعد قليل، من قسوته الشيءَ الكثير، هو يُريد الله عزّ وجل، لكن العبرة في النهاية، العبرة في خريف العمر، العبرة في النتائج- .

قال: فالتحقتُ بخدمته، ثم ما لبث أن زاره ابن عمٍ له من بني قُريظة، فاشتراني منه، بيع ليهودي آخر، -وسلمان يبحث عن ماذا؟ عن الحقيقة .

أيها الأخوة، تلك الحقيقة تستحق كل هذا البحث، وتستحق كل هذا الجهد، تستحق كل هذه التنقلات، لأنك إن وصلت إليها وصلت إلى كل شيء، وإن فُزت بها، فُزت بكل شيء، وإن نقلتك الحقيقة إلى الله عزّ وجل، ما فقدت شيئاً، ولا خسِرت شيئاً، وأن أكبر خسارةً تخسرُها، أن تخسر نفسك التي بين جنبيك، وأنّ أكبر نجاحٍ تنجحه، أن تُزكّيها وأن تعرفُها بربها، فهو يبحثُ عن الحقيقة، ويطلبُ الله عزّ وجل، واللهُ لا يخطئ، بل هو حكيم في ذلك، وهذا قدر الله عزّ وجل- ، قال: فاشتراني منه، ونقلني معه إلى يثرب، فرأيتُ النخل .

-بالمناسبة، النخل الذي في المدينة الآن هو النخل نفسه الذي كان على عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم، لأن النخلة من الأشجار المُعمِرة، التي تُعمِرُ أكثر من ستة آلاف عام، فالتمر الذي أكله النبيّ من نخلات المدينة هي النخلاتُ نفسُها الموجودة الآن، إذا أكلت الآن تمرًا من نخل المدينة، فاعتقدْ جازماً أنه النخل نفسه الذي أكل منه النبيّ عليه الصلاة والسلام، ولمّا كنتُ في الحج السابق تألمتُ أشد الألم، لأن هذا النخل أُهمل إهمالاً شديداً، وأكثره يبس، طبعاً العمارات والأسواق، والمحلات التجارية والطُرقات، فهذه المنشآت قضت على بساتين النخل، وهذه البساتين كان ينبغي أن تبقى كما كانت إلى الآن، فترى حُقولاً من النخل كلها يابسة، قد أُهمِلت- .

قال: رأيت النخل الذي ذكره لي صاحبي بعموريا، وعرفت المدينة بالوصف الذي نعتها به، فأقمتُ بها معه))

أطلبْ من الله أنْ يهديك فقط، وسلِّمْ له يجمعك مع فلان، وينقلك إلى فلان، يمكن أن يكون الإنسان ساكنًا ومُقيم بحلب فرضاً، وجاءت خدمته الإلزامية في الشام، فاستعمل الوسائط حتى يبقى في حلب ما أمكن، فإذا به في الشام يلتقي مع أهل الحق، فانخرط بينهم، وأكرمه الله بالهُدى، إذًا: هذا التعسير وقتها كان لصالحك .

حدثني رجُل، فقال: كنت في أمريكا، ودخلتُ أحد مراكِزها الإسلامية، فرأيت رجلاً من هيئته، ومن شكله، يُعد من الطبقة الأولى في المجتمع، وهو يغسِلُ المسجد بهمّةٍ ما بعدها همّة، فلما سألتُ عنه، قالوا: هذا رجل يحتل مركزًا رفيع جداً في بلده، لكن كُلِّف بمهمةٍ في الخليج، فنزل في الخليج في مدينة

مع رجُلٍ مسلمٍ حقاً، ومؤمنٍ حقاً، فدلّه على الله، وأسلم على يديه، فلما عاد إلى بلده، وقد أسلم، فلزم المسجد، فهذه المهمة التي كُلِف بها في الخليج، هذه بعلم الله عزوجل خيرٌ له، والدليل:

(وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَّأسْمَعَهُمْ)

(سورة الأنفال الآية: 23)

ربنا عزّ وجل قد يجمعك مع شخص يومًا من الدهر، أو تذهب إلى مكان، فتلتقي مع إنسان مؤمن، وينشأ بينكما حديث، فتتعلّق به، وتكون هدايتُك على يديه، وأنت لا تدري، فاطلبْ من الله الهداية وانتظر، كلام دقيق أقوله لكم: ادعُ اللهَ واضرع إليه، فما دمت صادقاً في طلب الحقيقة يجمعك مع الأشخاص الذين يُؤهِّلونك للحق، هذا سيدنا سلمان نقله الله من يهوديّ إلى يهوديّ، حتى بلغوا الخمسة، والسادس يهودي اشتراه، والسابع باعه إلى ابن عمه، والسابع من بني قُريظة، ساكن بالمدينة، والأحداث تجري بقدر .

ما الخبر الذي سمعه سلمان من خلال حديث سيده في العمل مع ابن عم له ؟

قال:

((كان النبيّ حينئذٍ يدعو قومه في مكة، لكني لم أسمع له بذكر، لانشغالي بما يوجبه عليّ الرقُّ، -فهو عبدٌ رقيق، كل وقته ملكُ سيّده- ثم ما لبث أن هاجر النبيّ عليه الصلاة والسلام إلى يثرب، وهو لا يدري، فو اللهِ إني في رأس نخلةٍ لسيدي، أعمل فيها بعض العمل، وسيدي جالسٌ تحتها، إذ أقبل عليه ابن عمٍ له، وقال له: قاتل الله بني قَيْلَة، قيلة الأوس والخزرج، واللهِ إنهم الآن لمجتمعون بقباء على رجُلٍ قدم عليهم اليوم من مكة، يزعُم أنه نبيّ، فما إن سمعتُ مقالته حتى مسني ما يشبه الحمّى، واضطربتُ اضطراباً شديداً، حتى خشيت أن أسقط على سيدي من شدة الفرح، وبادرتُ إلى النُّزول مَن النخلة، وجعلت أقول للرجل: ماذا تقول؟ أعد عليّ الخبر ، فغضب سيدي، ولكمني لكمة شديدةً، وقال لي: مالك ولهذا؟ عُد إلى ما كنتَ عليه من عملك))

قد تقرؤون في السيرة أن النبيّ عليه الصلاة والسلام، وهو سيد الخلق، وحبيب الحق، وهو سيد الأنبياء، وسيد الرسُل، المعصوم، ذهب إلى الطائف يدعو قومه، وقد ورد في بعض الروايات أنهم كذبوه، وأنهم سخِروا منه، وفي رواية أنهم ضربوه، فقد يسألُ سائل: لماذا ضُرِب النبيّ عليه الصلاة والسلام؟ لولا أن النبيّ بشر، يجري عليه ما يجري على البشر، لمَا كان سيد البشر .

وهناك معنىً آخر، هو أن النبيّ عليه الصلاة والسلام ضُرب في الطائف من أجل أن المؤمن إذا تلقّى لكمةً لأنه آمن بالله عزّ وجل، ينبغي أن يكون له في رسول الله أُسوةٌ حسنة، والإنسان بسبب اتجاهه الديني قد يتحمل متاعب كثيرة جداً، يتحمّل لكمات وضربات، ويُحاصر أحياناً، ويُقاطع، ويُضيّق عليه

في رزقه، وفي بيته، هذا جهاد في سبيل الله، فالنبيّ قدوة لنا، تحمّل ما تحمل من أجلنا، حتى إذا مررت بظرفٍ صعبٍ يكون لك في النبيّ أسوةٌ حسنة .

إليكم قصة إسلام سلمان الفارسي :

قال:

((ولما كان في المساء أخذت شيئاً من تمرٍ كنت جمعته، وتوجهت به حيث ينزل الرسول، فدخلت عليه، وقلت له: إنه قد بلغني أنك رجلٌ صالح، ومعك أصحابٌ لك غرباء ذو حاجة، وهذا شيءٌ كان عندي للصدقة، فرأيتكم أحق به من غيركم، ثم قربته إليه، -أيْ ليأكل- فقال لأصحابه: كلوا، وأمسك يده، فلم يأكل، فقلت في نفسي: هذه واحدة، ما أكل من الصدقة، -ويُروى أن سيدنا رسول الله تأخر عليه الوحيّ مرةً، فقال تعليمٌ لنا:

((لعلها يا عائشة، تمرةٌ أكلتها من تمر الصدقة))

لبيان شدة ورعه صلى الله عليه وسلم- .

((قلت في نفسي: واللهِ هذه واحدة، ثم انصرفت، وأخذت أجمع بعض التمر، فلما تحول النبي من قباء إلى المدينة جئته، فقلت له: إني رأيتك لا تأكل الصدقة، وهذه هدية لك، أكرمتك بها ، فأكل منها، وأمر أصحابه فأكلوا معه، قال: وهذه الثانية، ثم جئتُ رسول الله وهو ببقيع الغرقد، -وهو البقيع نفسه، ولم يكن يومئذٍ مدفنًا، اسمه بقيعُ الغرقد، إلى جوار الحرم النبوي- قال: حيث كان يواري أحد أصحابه، فرأيته جالساً وعليه شملتان، فسلّمت عليه، ثم استدرت أنظر إلى ظهره لعلي أرى الخاتم، الذي وصفه لي صاحبي في عمورية، فلما رآني النبيّ أنظر إلى ظهره، عرف غرضي، فألقى رداءه عن ظهره، فنظرت فرأيت الخاتم، هكذا يروى، فعرفته فانكببت عليه أقبّله وأبكي .))

-فالقصد أنّه وصل إلى بيت القصيد- فقال عليه الصلاة والسلام: ما خبرك؟ -ما هي قصتك يا ابني؟- فقصصت عليه قصتي من أولها إلى آخرها سُرّ النبيّ صلى الله عليه وسلم سروراً بالغاً .

-أيها الأخوة، وهذه علامة إيمان فيكم، إذا كان لك قريب، أو صاحب، أو أخ، أو ابن أخ ، ورأيتَه اهتدى، وصلى، وأقبل معك، ولزم مجالس العلم، فإذا لم تفرح فرحً لا يعدله فرح ففي إيمانك خلل، فيجب أن تفرح، لأنّ النبيّ فرح فرحًا كبيراً بسلمان، والدليل أنّه سَرّه أن يسمع أصحابه هذه القصة- ثم قال:

((فأمرني أن أسمعهم إياها، فقصّها على مسامعهم، فأُعجبوا منه أشد العجب، وسُروا بها أشد السرور))

ما هي العبرة من قصة سلمان الفارسي ؟

أيها الأخوة، ولسيدنا سلمان الفارسي قصص طويلة جداً، لكن هذه بدايته، فنحن لا نقول لكم: اذهبوا إلى أصبهان، ولا إلى تركيا، ولا إلى نصيبين، ولا إلى عمورية، ابقَ في بلدك، والزم مجالس العلم، واعمل أعمالاً صالحة، والقرآن بين أيديكم، والسنة بين أيديكم، والأعمال الصالحة مُتاحة أمامكم، ومجالس العلم موفورة عندكم، فكم بذل سلمانُ من الجهد، وكم تحمل من المشاق حتى توصل إلى الحقيقة؟ .

هذه قصة سيدنا سلمان الفارسي، في البحث عن الحقيقة، يعني كل ظروفه كانت تحول بينه وبين الهدى، ومع ذلك تجاوز كل العقبات، ووصل إلى النبيّ عليه الصلاة والسلام، وهذه القصة، يجب أن تكون نبراساً لنا في حياتنا، ابحثْ عن الحقيقة، فإن أدركْتَها ووصلت إليها فقد وصلتَ إلى كل شيء، وسعدت إلى الأبد، وإن غابت عنك الحقيقة، فما وصلت إلى شيء، وما فُزتَ بشيء، وكان الخسار والبوار، والعياذ بالله .

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحد البياني في سلم الإيمان :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس السادس والثلاثين من دروس سيرة أصحاب رسول الله رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، وصحابي اليوم سيدنا عقبة بن عامر الجهني .

هذا الصحابي الجليل يمثّل نموذجاً إنسانياً فذًّا، أراد الحدَّ الأدنى في سلّم الإيمان، ثم عدل عنه إلى الحدَّ الأقصى، وسوف ترون كم هي المسافة كبيرةٌ بين الحد الأدنى والحد الأقصى؟ وفي سورة الواقعة إشارةٌ في آخرها إلى هذا المعنى، قال تعالى:

(فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ)

(سورة الواقعة الآية: 8-11)

يوجد عندنا سابق مقرَّب، وهناك أصحاب اليمين، فالمؤمن مِن بيته إلى دكانه، من بيته إلى وظيفته، صائم مصَلٍّ مستقيم، يدفع زكاة ماله، نفسيته طيبة، فهنيئًا له، أنعم وأكرم بهذا المؤمن، لكن هناك مستويات أعلى، هذا الذي يجنِّد كل إمكاناته، وطاقاته، وعلمه، وحجَّته، ووقته، وعضلاته في سبيل الحق، هذا من السابقين السابقين، هذا يرفعه الله سبحانه وتعالى إلى أعلى عليِّين .

والإنسان أيها الأخوة، مطلوبٌ منه أن يكون طموحاً، فبإمكانك أن تأخذ الحد الأدنى فلا تؤذي أحداً، وتبتعد عن أن تعتدي على أحد، من بيتك إلى عملك، تؤدِّي صلاتك، وتدفع زكاة مالك ، تغض بصرك، تحسن إلى جيرانك، هذا مستوى، لكن هناك مستوى أعلى وأرقى؛ أن تساهم في نشر هذا الدين، أن تسخِّر كل إمكاناتك، في الدعوة إلى الله، أن تجعل من شخصك مثلاً أعلى للناس، أن تنفق المال في سبيل الله، لا أن تنفقه في المباحات، أن تجعل من وقتك كلّه وقتاً مستغلاً في سبيل الله، وقتًا مكرَّسًا للدعوة في سبيل الله .

إليكم قصة عامر بن عقبة الجهني وهو يبايع النبي بيعة الهجرة :

سيدنا عقبة بن عامر الجُهني، صحابيٌّ جليل، له غنيمات، يحرص عليها حرصاً بالغاً، كان يرعاها خارج المدينة، ثم خطر في باله، أن يلتحق برسول الله صلى الله عليه وسلّم، فالنبي عليه الصلاة

والسلام، يبلغ مشارف المدينة، في الهجرة، ونحن في ذكرى الهجرة هذه الأيام ، وها هم أولاء أهل المدينة الطيبة يتزاحمون على الدروب، وفوق السطوح، مهلّلين مكبِّرين فرحاً بلقاء النبي صلى الله عليه وسلَّم، نبي الرحمة، وصاحبُه الصدِّيقُ، وها هن الفتيات الصغيرات، ينشدن:

طلَعَ الْبَدرُ عَلَيـن ـا منْ ثَنِياتِ الوَداع

وَجَبَ الشُكْرُ عَلَين ـا مَا دَعَـا للّهِ دَاع

وهذا موكب النبي الكريم، يتهادى بين الصفوف، تحفُّه المهج المشتاقة، وتحيطه الأفئدة التوّاقة، وتنثر حواليه دموع الفرح، وبسمات السرور .

لكن عقبة بن عامر الجهني لم يشهد موكب رسول الله صلى الله عليه وسلَّم، ولم يسعد باستقبالِهِ مع المستقبلين، ذلك أنه كان قد خرج إلى البوادي بغنيماتٍ له ليرعاها هناك، بعد أن اشتد عليها السغب، وخاف عليها الهلاك، وهي كل ما يملك من حطام الدنيا .

فلو أردنا، أن نسقط هذا الكلام على حياتنا اليومية، إنسان مشغول بدكانه، يقول لك: نحن هذه الأيام عندنا موسم، فهو إنسان مشغول بتجارته، وآخر مشغول بمعمله، وثالث اشترى أرضًا، وهو يزرعها، أين أنت؟ فيجيب: واللهِ في المزرعة، فمَن شغلته الدنيا فهذا مباح، والمباح مِن الحلال، ولا يعنينا هنا الحرام إطلاقاً .

لكنَّ الفرحة التي غمرت المدينة المنورة، ما لبثت أن عمَّت بواديها القريبة والبعيدة، وأشرقت في كل بقعةٍ من بقاعها الطيبة، وبلغت تباشيرها عقبة بن عامر الجهني، وهو مع غنيماته بعيداً في الفلوات، أخبار مجيء النبي وصلت إلى البوادي، كما أنّ أخبار استقباله وصلت إلى البوادي والحواضر .

لاحظْ الآن شعور سيدنا عقبة، فقد كان بعيدًا عن رسول الله، بعيدًا عن استقباله، مشغولاً بغنيماته، لكن لا تنسَ أيها الأخ الحديث القدسي،

((مَنْ شَغَلَهُ الْقُرْآنُ وَذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِينَ، وَفَضْلُ كَلامِ اللَّهِ عَلَى سَائِرِ الْكَلامِ كَفَضْلِ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ))

[أخرجه الترمذي عن أبي سعيد الخدري في سننه]

شيء كبير بالتعبير العامي، لمَّا تطلب العلم، ولمَّا تنتزع من وقتك الثمين وقتًا لحضور مجالس العلم، ولمَّا تنتزع من وقتك وقتًا لمعرفة الله، ولمَّا تنتزع وقتًا من وقتك الثمين لإصلاح ذات البين ، فهذا عمل عظيم، كله مسجل .

يقول أصحاب السِّيَر: فلنترك الكلام لعقبة بن عامر ليروي لنا قصته مع رسول الله صلى الله علية وسلَّم، قال عقبة: قدم رسول الله صلى الله عليه وسلَّم المدينة، وأنا في غنيمات لي أرعاها فما إن تناهى

إليَّ خبر قدومه صلّى الله عليه وسلّم، حتى تركتُها، ومضيت إليه، لا ألوي على شيء، إيمان جيد، فلّما لقيته، قلت:

((يا رسول الله، تبايعني؟ فقال عليه الصلاة والسلام: فمن أنت؟ قلتُ: أنا عقبة بن عامر الجهني .))

-انظرْ إلى الأدب، أخ يداوم معه منذ ثماني سنوات، لا يعرف اسمه، ولا عمله، ولا كم مرة التقيت معه؟ ألا يجب أن يكون بينكم تعارف؟ أحياناً هذه المعرفة تثمر خيراً كبيراً، من ثمراتها التواصل، والتوادد والتعاون، يرقى عند الله عزَّ وجل، أحياناً يُعاوَن معاونة طيبة، يرقى عند الله عزَّ وجل، والتعارف من سنة رسول الله، أمّا الفوضى، ليس لي علاقة مع أحد، هناك جامعات فيها نظام الاستماع، وأيّ إنسان يتمكن أنْ يدخل هذه الجامعة حاليًا، يحضر ويدخل في شعبة الطب، ويأخذ شهادة، أما إذا كان اسمه موجودًا في السجلات، يُعدُّ طالبًا نظاميًا، ويصبح دكتورًا بعد ذلك .

الأخ المتفوق الذي له أعمال طيبة يحفظ اسمه مباشرةً، أمّا الذي ليس له أي سيئة، ولا حسنة، وهو على الحياد، فهذا قلما يذكره الأخوة الكرام إذا غاب، أما بعضُ الأخوة إذا غاب درسًا واحدًا أحدث فراغًا، فكنْ من هذا النوع، فلان لم يأتِ اليوم، فنحن أسرة متآخية، فلِمَ؟ اسألوا عنه- قال عليه الصلاة والسلام:

((أيُّما أحبُّ إليك، تبايعني بيعة أعرابية، أو بيعة هجرةٍ؟ قلت: بل بيعة هجرةٍ، -وهذه أعلى رتبة ومنزلة وقربًا- فبايعني رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على ما بايع عليه المهاجرين))

ماذا فعل عقبة بعد بيعة الهجرة ؟

قال:

((أقمتُ معه ليلة، ثم مضيت إلى غنمي، ليلة واحدة، وكنا اثنا عشر رجلاً مِمَّن أسلموا، نقيم بعيداً عن المدينة، لنرعى أغنامها في بوادينا، فقال بعضنا لبعض: والله لا خير فينا، إذا نحن لم نقدُم على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، يوماً بعد يوم، ليفقّهنا في ديننا، وليسمعنا ما ينزل عليه من وحي السماء، فليمض كلَّ يومٍ واحدٌ منا إلى يثرب، وليترك غنمه لنا، فنرعاها له، هذا اتِّفاقٌ جميل، فقلت لهم: اذهبوا إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم واحداً بعد آخر، وليترك لي الذاهب غنمه، لأني كنت شديد الإشفاق على غنيماتي مِن أن أتركها لأحد .))

-حينما أخبر النّبيُّ عليه الصلاة والسلام سيدَنا الصديق أنه مهاجر، سمح له أن يكون رفيقه، فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ:

((لَقلَّ يَوْمٌ كَانَ يَأْتِي عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا يَأْتِي فِيهِ بَيْتَ أَبِي بَكْرٍ أَحَدَ طَرَفَيْ النَّهَارِ فَلَمَّا أُذِنَ لَهُ فِي الْخُرُوجِ إِلَى الْمَدِينَةِ لَمْ يَرُعْنَا إِلَّا وَقَدْ أَتَانَا ظُهْرًا فَخُبِّرَ بِهِ أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ: مَا جَاءَنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ إِلَّا لِأَمْرٍ حَدَثَ فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ، قَالَ لِأَبِي بَكْرٍ: أَخْرِجْ مَنْ عِنْدَكَ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّمَا هُمَا ابْنَتَايَ يَعْنِي عَائِشَةَ وَأَسْمَاءَ، قَالَ: أَشَعَرْتَ أَنَّهُ قَدْ أُذِنَ لِي فِي الْخُرُوجِ، قَالَ: الصُّحْبَةَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: الصُّحْبَةَ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ عِنْدِي نَاقَتَيْنِ أَعْدَدْتُهُمَا لِلْخُرُوجِ فَخُذْ إِحْدَاهُمَا، قَالَ: قَدْ أَخَذْتُهَا بِالثَّمَنِ*))

[أخرجه البخاري في صحيحه عن عائشة]

فالإنسان في بعض أطوار إيمانه لا يستطيع أن يدع أخوانه المؤمنين أبداً، حياته معهم، المسجد بيته، فهو في المسجد كالسمك في الماء، فإذا خرج منه شعر بالضياع- ثم طفق أصحابي يغدون الواحد تلوَّ الآخر إلى النّبي صلّى الله عليه وسلّم، ويترك لي غنمه أرعاها له، فإذا جاء أخذت منه ما سمع، وتلقّيت عنه ما فقه، لكنني ما لبثت أن رجعت إلى نفسي، وقلت: ويحك، أمن أجلُّ غنيماتٍ لا تسمن ولا تغني، تفوِّت على نفسك صحبة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، والأخذ عنه مشافهةً، من غير واسطة، ثم تخلّيت عن غنيماتي، ومضيت إلى المدينة، لأقيم في المسجد، بجوار رسول الله صلّى الله عليه وسلّم))

فالملازمة جزء أساسي من دين الإنسان، والمتابعة، والثبات، والدوام، أن تكون دوماً مع المؤمنين، دوماً معهم في مهماتهم، في دروسهم، في أعيادهم، في مسراتهم، في مناشطهم، أنت معهم دائماً، أما أن يغيب الإنسان لمصالحه الشخصية، ويؤثرها على الله ورسوله، فهذا لا يغني ولا يشفي .

المراتب العلمية التي حصل عليها عقبة بفضل الإسلام :

سيدنا عقبة بن عامر الجهني إنسان يرعى غنيمات في البادية، ما مرتبته الاجتماعية؟ راعي غنم، وأعتقد أن أقل وظيفة في الأرض أن تكون راعي غنم، اذهب إلى أطراف البادية فستجد راعي الغنم إنسانًا لا يملكُّ شيئاً من الدنيا، لا ثقافة، ولا علم، ولا إمكانيات، لكن سيدنا عقبة بن عامر الجهني، لما لازم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ولعلكم لا تصدقون، لم يكن يخطر على بال عقبة بن عامر الجهني حين اتخذ هذا القرار الحاسم الحازم، الذي آثر غنيماته في البادية على مجلس رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، أنه سيغدو بعد عقدٍ من الزمان، والعَقْد عشرُ سنوات عالماً:

1- عالماً من أكابر علماء الصحابة .

2- قارئاً من شيوخ القرَّاء .

3- قائداً من قوَّاد الفتح .

4- والياً من ولاة الإسلام المعدودين .

ولم يخطر على باله مجرَّد التخيُّل وهو يتخلّى عن غنيماته، ويمضي إلى الله ورسوله، أنه سيكون في طليعة الجيش الذي يفتح دمشق، هو الذي ساهم مع قيادة الجيش في فتح دمشق، ويتخذ لنفسه داراً بين رياضها النضرة عند باب توما، ولم يكن يتصور أنه سيكون أحد القادة الذين سيفتحون مصر، وأنه سيغدو والياً عليها، ويتخذ لنفسه داراً في سفح جبلها المقطم، كلُّ هذا كان بعد أن تخلّى عن غنيماته .

لذلك هذا الحديث القدسي يجب أن يبقى في أذهانكم:

((مَنْ شَغَلَهُ الْقُرْآنُ وَذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِينَ، وَفَضْلُ كَلامِ اللَّهِ عَلَى سَائِرِ الْكَلامِ كَفَضْلِ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ))

[أخرجه الترمذي عن أبي سعيد الخدري في سننه]

الله عزَّ وجل أكرم الأكرمين، إذا شغلك شيءٌ عن طلب العلم فدعْه، ولا تقبلْ عملاً يحرمك من طلب العلم، شرطوا عليك دوامًا إلى الساعة العاشرة ليلاً كلَّ يوم، إذًا: فلن تحضر أي درس، يقولون لك: أما أعجبك هذا الدوام؟ لا، إذًا: مع السلامة، الله الرازق، ومَن بيده الخير، لا أحد يقبل عملاً يحرمه من كل دروس العلم، فليس معقولاً ذلك .

لا تسمح لزوجة، أو لأيّ عمل مهما كان نوعه؛ دكان، معمل صغير، مزرعة، مدجنة، أن يستهلكك نهائيًا، فالعمر قصير مهما طال، والأجل قريب، وملك الموت بالمرصاد، فماذا قدَّمت ؟ واللهِ لا شيء، هذه قاصمة الظهر .

أيها الأخوة، موقف لا أنساه أبداً، أخ كان يحضر بعض الأحيان، بلَّغني ابنه أنه توفي، رحمه الله، فحضرتُ جنازته، وقام أحد الدعاة فأبَّنه، قال: أخوكم أبو فلان، كان مؤذنًا، ترحموا عليه، كلمة واحدة، لم يتمكن أن يتكلَّمَ كلمة ثانية، ولا كلمة ثالثة، فلعله لم يجد إيجابيات أخرى لتأبينه، فالإنسان يعمل عملاً في الدنيا ويتكلمون عند تأبينه عشر دقائق فقط، أو عشرين دقيقة، أو نصف ساعة، فأنت حجمك عند الله بحجم عملك الصالح، فماذا فعلت أنت؟ حينما يوقفك ربنا عزَّ وجل بين يديه، يقول لك: يا عبدي، ماذا فعلت؟ أين عملك؟ أين جهادك؟ أين طاعتك؟ أين بذلُك؟ أين تضحيتك؟ فتجد ما قدَّمت .

انظر إلى ملازمته لرسول الله وما هي السورتان اللتان لازمتا عقبة طوال عمره ؟

لزم عقبةُ بن عامر الجهني رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم لزوم الظل لصاحبه، فكان يأخذ له بزمام بغلته أينما سار، فأنا قصدي أن هناك أعمالاً صالحة كثيرة، فالزمْ عملاً صالحًا لوجه الله، خدمة مسجد، تأمين حاجة مؤمنين، دعوة إلى الله، رعاية أيتام، رعاية فقراء، تأسيس جمعيات خيرية، تأليف كتب، أن ترفع الإسلام على كتفيك، أن تُسهم في نشر هذا الدين، أن توقظ إنسانًا غافلاً عن الله، إذا أردت أن تسعد فأسعِدِ الآخرين .

قال لي صديق: شاهد امرأة تحمل طفلاً صغيراً، وإلى جانبها رجل، وكأن هذه المرأة مضطربة، فوقف، وقال: ما المشكلة؟ طفل صغير حرارته 41 درجة، على مشارف الموت، وهي امرأةٌ غريبة، جاءت من لبنان مع زوجها، لا تدري ماذا تفعل؟ قال لي: واللهِ أركبتها هي وزوجها في السيارة، وأخذتها إلى الطبيب، ثم إلى المستشفى للحقن، ثم إلى صيدليات مناوبة، وعدتُ بها إلى المكان الذي أخذتُها منه الساعة الرابعة فجراً، أقسمَ لي بالله أنه بقي عشرة أيام مغموساً في سعادةٍ لا توصف، فالمسلم يحتاج إلى عمل لوجه الله، انطلِقْ ساعةً من نهار لله عزَّ وجل، لا تبتغي بها إلا وجه الله عزَّ وجل، وانظر كيف أن الله سبحانه وتعالى يتجلّى على قلبك؟ أحياناً يتعب الإنسانُ كثيراً، فينام ساعة من الزمن فيرتاح، لكن عندما يؤدّي عملاً لوجه الله، يشعر أن الله راضٍ عنه، أن الله يحبه، فيرتاح راحةً نفسية تعوِّضه ما بذل من جهدٍ جسدي .

بعض أخواننا الذين يعملون في خدمة الفقراء، يخرج من بيت ويدخل بيتًا في رأس الجبل، حتى يتفقد أحوال أسرة، ليس له مصلحة شخصية، بيته فخم، وسيارته حديثة، لكنه يتقصى أحوال الناس حتى يصل إلى رضاء الله عزَّ وجل، الخلق كلهم عيال الله، وأحبهم إلى الله، أنفعهم لعياله .

أين أنتَ موظف؟ توظَّفتُ عند الله، الوظائف عند الله عزَّ وجل كثيرة، ليس له مِن ورائها مصلحة خاصة، إما في الدعوة إلى الله، أو في خدمة الخلق .

دُعيتُ منذ فترة لإلقاء محاضرات على طلاب جيء بهم من أطراف الدنيا، من الدول الإسلامية التي ظهرت بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، من بلاد داغستان، ومن يوغوسلافيا، خطباء مساجد، يحتاجون لمعارف كثيرة، لإلقاء محاضرات، شعرتُ بسعادةٍ لا توصف، كانت لوجه الله، ولم أبتغِ درهماً ولا دينارًا، اسأل نفسك هذا السؤال مساءً: ما عملك؟ ما العمل الذي تلقى الله به؟ خدمة، دعوة، تعليم، معاونة، تمريض مريض، تأمين دواء لمريض، زيارة فقير، عيادة مريض، رعاية أرملة، رعاية يتيم، إنقاذ حيوان .

فهذا سيدنا عقبة، لزم النبي عليه الصلاة والسلام، فكان كظله، يمضي بين يديه، وكثيراً ما أردفه النبي وراء ظهره، حتى دُعي برَدِيفِ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وربما نزل له النبي الكريم عن بغلته، ليكون هو الذي يركب، والنبي عليه الصلاة والسلام هو الذي يمشي .

تحدَّث عقبة، فقال:

((كنت آخذًا بزمام بغلة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في بعض طرق المدينة، فقال لي النبي: اركب، وهو يمسك بزمام البغلة، فهممتُ أن أقول: لا، لكنني أشفقت أن يكون في هذا معصيةٌ لرسول الله، ثم ما لبثت أن نزلتُ عنها، وركب النبي عليه الصلاة والسلام، ثم قال لي: يا عقبة، ألا أعلّمك سورتين لم يُرَ مثلهما قط؟ قلت: بلى يا رسول الله، فأقرأني، قال تعالى:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ)

(سورة الفلق الآية: 1)

قال تعالى:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ)

(سورة الناس الآية: 1)

ثم أقيمت الصلاة، وتقدَّم وصلّى بهما، وقال: اقرأهما كلما نِمْتَ، وكلما قمتَ، -هذا توجيه النبي- قال عقبة: فما زلت أقرأهما ما امتدت بي الحياة))

قال تعالى:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ * مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ)

(سورة الناس الآية: 1-6)

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ * وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ)

(سورة الفلق الآية: 1-5)

ما هما الأمران اللذان تشربهما عقبة من الإسلام ؟

1- العلم :

فهذا الصحابي الجليل، جعل همه في أمرين اثنين: العلم، والجهاد، وانصرف إليهما بروحه وجسده، وبذل لهما من ذاته أسخى البذل وأكرمه، أما في مجال العلم فقد جعل يعبُّ من مناهل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الثرَّة العذبة، حتى غدا مقرئًا .

فكلّ أخ يحضر مجلس علم، فلا بد أنْ يتعلم، فاكتسِبْ لقب طالب علم، عندنا وهْمٌ مؤلم جداً، أنّ فلانًا ليس معه شهادة، مَن قال لك ذلك؟ هذا الذي حضر أكثر مِن عشر سنوات، كل أسبوع أربعة دروس أو خمسة، درس تفسير، ودرس فقه، درس حديث، ودرس سيرة، هذا صار عالم، لأنه يتعلم، ثم هذه المعلومات، تتراكم، ثم تتراكم، ثم تتراكم، والدليل سلوكه، أديب، أخلاقي ، وفيّ، صادق، مستقيم، عنده حياء، منصف، هذه الأخلاق كلُّها من هذا العلم، وعَنْ مَسْرُوقٍ، قَالَ:

((كَفَى بِالْمَرْءِ عِلْمًا أَنْ يَخْشَى اللَّهَ، وَكَفَى بِالْمَرْءِ جَهْلًا أَنْ يُعْجَبَ بِعِلْمِهِ))

[أخرجه الدارمي في سننه]

يجب ألاّ تقللوا من قيمة حضور الدروس في المساجد، هذه المساجد جامعات، لكن من نوع آخر، لا تحتاج لرسم دخول، ولا في نهايتها امتحانات كتابية، الامتحان في المسجد التطبيق، إذا طبَّقت نجحت، وإذا لم تطبق لم تنجح، ما هي الجامعة؟ مقعد، وأستاذ، وسبورة، وحديث، وكتاب، هذه هي الجامعة، والجامع يؤدِّي الدورَ نفسه، دينٌ، وعلمٌ، لكن المسجد يرقى بنفسه ويهذبها .

حينما يطلب مني أخٌ أن يتعلّم التجويد، صدقوني يكبر في عيني كثيرًا، لأنك أنت مسلم إنْ قدموك إلى الصلاة، فأسقطتَ حكمين أو ثلاثة، أسقطْتَ إدغامًا أو غنة، ينتقدك المصلون، فتعلّم ، وكلما كان السن أصغر كان أثرَ العلم أكبر، وكلما كبر الإنسان فتعلُّمه كالكتابة على الماء، لأنّ إمكانية التلقّي والتعلم تتناقض مع تقدُّم السنّ، ماذا يشغلك؟ احفظ من كتاب الله بعض السور، وقمْ بعدد من المذاكرات مع أخوانك في القرآن الكريم، قراءة، وتجويدًا، وحفظًا، هذا تجده في ساعاتٍ عصيبة، ويصبح القرآن مؤنسًا لك .

ترك الغنيمات، وتبع النبي عليه الصلاة والسلام، فصار مقرئًا، محدثاً، فقيهاً، فرضياً، ومعنى فرضي، أي عالماً بالفرائض، أي علم المواريث، أديباً، فصيحاً، شاعراً، وكان من أحسن الناس صوتاً بالقرآن الكريم، وكان إذا ما سجى الليل، وهدأ الكون، انصرف إلى كتاب الله تعالى ، يقرأ من آياته البيِّنات، فتصغي إلى ترتيله أفئدةُ الصحابة الكرام، وتخشع له قلوبهم، وتفيض عيونهم بالدمع من خشية الله .

سيدنا عمر دعاه يوماً، وقال له:

((اعرضْ عليَّ شيئاً من كتاب الله يا عقبة، فقال: سمعاً وطاعة يا أمير المؤمنين، وجعل يقرأ له ما تيسر، وعمر يبكي، حتى بللت دموعُه لحيتَه، وقد ترك عقبة مصحفاً، مكتوباً بخط يده))

كان كاتبًا، لكن إياكم أن تدعوا أعمالكم، لا، لا أقول هذا، لكن أنا أخاف أن يستهلك العملُ صاحبَه، لكن لا تسمح لعملك أنْ يستهلك كل وقتك، أنت إنسان، أنت مخلوق لعبادة الله عزَّ وجل، لمعرفة الله، لا تفهم مني مرةً ثالثة، أن تدع العمل، ولكن افهمْ مني ألاّ تسمح لمهنتك أنْ تقضيَ عليك، ألاّ تسمح لبيتك أن يلهيك، البيت له وقت، والعمل له وقت، وهناك وقت لله عزَّ وجل ، وهذا الوقت مقدَّس، لا أعتدي عليه أبداً، وحينما تمضي وقتاً في طلب العلْم فقد أدَّيت زكاة الوقت، لأن الله عزَّ وجل قادر أنْ يتلف لك عشر ساعات بأتفه الأسباب، إذا ضَنَنْتَ بساعة عن مجلس علم، أتلف لك الله عزَّ وجل عشرَ ساعات بشيء تافه جدا، لكن حينما تبذل وقتك في سبيل الله يبارك لك ربنا عزَّ وجل في وقتك، ويطرح فيه البركة .

سيدنا عقبة، ترك مصحفاً مكتوباً بخط يده، وبقي مصحفه هذا، إلى عهدٍ غير بعيدٍ، موجوداً في مصر، في الجامع المعروف بجامع عقبة بن عامر، وقد جاء في آخره، كتبه عقبة بن عامر الجهني، ومصحف عقبة هذا، من أقدم المصاحف التي وجدت على ظهر الأرض، لكنه فُقد من جملة ما فقد من تراثنا الثمين، ونحن عنه غافلون .

2- الجهاد :

أما في مجال الجهاد، فحسبنا أن نعلّم أنّ عقبة بن عامر الجهني شهد مع رسول الله صلّى الله عليه وسلم أُحُداً، وما بعدها من المغازي، وأنه كان أحد الكماة الأشاوس المغاوير، الذين أبلوا يوم فتح دمشق، أعزَّ البلاء وأعظمه، فكافأه أبو عبيدة بن الجراح على حسن بلائه، بأن بعثه بشيراً إلى عمر بن الخطاب في المدينة، ليبشِّره بالفتح، فظلَّ ثمانية أيامٍ بلياليها، من الجمعة إلى الجمعة، يغِذّ السير دون انقطاعٍ حتى بشَّر الفاروق بالفتح العظيم، ثم إنه كان أحد قادة جيوش المسلمين التي فتحت مصر، فكافأه أمير المؤمنين، معاوية بن أبي سفيان، بأن جعله والياً عليها ثلاثة سنين، ثم وجَّهَهُ سيدنا معاوية بن أبي سفيان لغزو جزيرة رودس، تصوَّروا هذه المهمة، أعرابيٌّ لم يعرف البحر، ولكنّ الله يسدِّده ويساعده، أخيرًا صار قائدًا بحريًّا . وقد بلغ مِن ولع عقبة بن عامر الجهني بالجهاد أنه وعى أحاديث الجهاد في صدره، واختَّص بروايتها للمسلمين، وأنه دأب على حذق الرماية، فعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ، يَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ عَلَى المنبر يقول:

((وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلَا إِنَ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

هذا الحديث من دلائل نبوة النبي صلّى الله عليه وسلم، الآن أحدث سلاح، قيمته في دقة الإصابة، من البحر الأحمر، إلى بناء معين، في مدينة معيّنة .

ما هي الوصية التي تركها عقبة أمانة في عنق أولاده وأين دفن ؟

مرض سيدنا عقبة بن عامر الجهني مرضَ الموتِ، وهو في مصر، فجمع بنيه وأوصاهم، فقال: يا بني، أنهاكم عن ثلاث، فاحتفظوا بهن، لا تقبلوا الحديث عن رسول الله صلّى الله عليه وسلم إلا من ثقةٍ، ولا تستدينوا، ولو لبستُم العباءة، ولا تكتبوا شعراً، فتشغلوا به قلوبكم عن القرآن، ولما أدركته الوفاة دفنوه في سفح المقطم، ثم انقلبوا إلى تركته يفتشونها، ماذا ترك؟ فإذا هو قد خلَّف بضعًا وسبعينً قوساً، مع كلِّ قوسٍ قرنٌ ونبال، وقد أوصى بهن أن يُجعلن في سبيل الله .

نضَّر الله وجه القارئ العالم، الغازي، عقبة بن عامر الجهني، وجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خيراً، فهذا سيدنا عقبة بن عامر الجهني، بفضل مؤاثرته رسول الله، على دنياه المحدودة، وصل إلى هذه المراتب، وأختم بقول الله تعالى:

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ)

(سورة ق الآية: 37)

والحمد لله رب العالمين

السيرة - رجال حول الرسول - الدرس (37-50) : السيدة رملة بنت أبي سفيان
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 05-07-1993

بسم الله الرحمن الرحيم

علام يدل موقف رملة بنت أبي سفيان وزوجها حينما خرجا من دين آبائهما ودخلا في الإسلام ؟

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس السابع والثلاثين من دروس سيَر صحابة رسول الله رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، وصحابيّة اليوم السيدة رملة بنت أبي سفيان، أبو سفيان زعيم قريش، ناصَبَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم العداءَ عشرين عاماً، وابنته بضعةٌ منه، مِن صُلبه، آمنتْ برسول الله صلى الله عليه وسلم، ودخلت في الإسلام، ودخل معها زوجها، وآمنت بالله ورسوله، وكان إسلامها طعنةً في قلب أبي سفيان، ماذا يقول لوجوه قريش، وقد خرجت ابنته عن سلطانه، وعن دينه، ودين آبائه؟ إنها حكمٌ بالغةٌ تجري في الحياة البشرية، قال تعالى:

(يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ)

(سورة الروم الآية: 19)

لو أن القضية قضية بيئة، أو قضية وراثة، أو قضية محيط، أو قضية ظروف وتفاعلات ، ما كان ينبغي أن تخرج رملة بنت أبي سفيان عن دين أبيها، و أبوها زعيم قريش، ومن أغنى أغنياء قريش، ومن سادات قريش، في بيت العز، وبيت المال، وبيت الغنى، لكن يجب أن تعلموا دائماً أن الإنسان مخيَّر، وأن الإنسان إذا اختار شيئاً يلغي كل العوامل الخارجية، ولأنه أكبر من كل الظروف المحيطة به، إن القرار الذي يتخذه الإنسان في شأن مصيره، قلما تنقضه الأيام، إن كان صادراً حقاً عن إرادةٍ وإيمان .

سيدنا إبراهيم في أية بيئة نشأ؟ دعاة البيئة، دعاة المحيط، دعاة المورثات، دعاة المؤثِّرات، دعاة المعطيات، هؤلاء الذين يؤَلِّهون هذه العوامل نردُّ عليهم، فنقول: سيدنا إبراهيم في أية بيئة نشأ؟ في بيئة تعبد الأصنام .

سيدنا النبي عليه الصلاة والسلام في أية بيئة نشأ؟ بلغت الجاهلية في مكة درجة عالية جداً من الخطورة، الربا، الفواحش، الزنا، الخمور، القهر، الاستبداد، الطبقية، جاهلية أولى .

فرملة بنت أبي سفيان إسلامها أيةٌ من آيات الله، ودليلٌ على أن الإنسان مخيَّر، وإسلامها حجةٌ على مَن يعتقد أن البيئة تؤثّر أبلغ الأثر، والبيئة لها تأثير لا شكّ فيه، لكن ليس لها كل التأثير، فما كان يخطر في

بال أبي سفيان أنّ في وسع أحدٍ من قريش أن يخرج عن سلطانه، فهو الزعيم الأوحد، والشخصية الأولى، والسيد المطاع، ذو الحسب والنسب، ذو القوة والسلطان، وابنته بضع منه، تخرج عن دين آبائه، وهو سيد مكة المطاع، وزعيمها الذي تدين له بالولاء، لكن ابنته رملة المكنَّاة بأم حبيبة قد بددت هذا الزعم، وذلك حين كفرتْ بآلهة أبيها، وآمنتْ هي وزوجها عبيد الله بن جحش بالله وحده لا شريك له وبرسوله، ودخلا في الإسلام، وانضما إلى النبي عليه الصلاة والسلام .

ما هو موقف أبي سفيان من رملة وزوجها حينما اعتناقا الإسلام ؟

حاول أبو سفيان بكل ما أوتي من سطوة وبأس، ولم يدرِ أنّ المسلم كلما ضغط عليه، ازداد تمسكاً بإسلامه، وأنّ هذا الدين كلما أردت أن تقضي عليه فكأنّك تصبُّ على النار الزيتَ، والأذكياء يهادنون الدين، والحمقى يواجهونه، فإنْ واجهته ازداد قوة، فالمسلم لا تجدي معه كلَّ الضغوط، فلا سياط الجلادين اللاذعة، ولا سبائك الذهب اللامعة، تثنيه عن عزمه، وتقوِّض إيمانه ، وهذا هو الإيمان .

قال أبو طالب للنبي صلى الله عليه وسلم:

((يا بن أخي، هؤلاء مشيخة قومك وسرواتهم قد سألوك النصف، أن تكف عن شتم آلهتهم، ويدَعوك وإلهك، فقال: أي عم أوَلاَ أدعوهم إلى ما هو خير لهم منها؟ قال: وإلامَ تدعوهم؟ قال: أدعوهم إلى أن يتكلموا بكلمة يدين لهم بها العرب، ويملكون بها العجم، فقال أبو جهل مِن بين القوم: ما هي وأبيك لنُعطِينَّكها وعشرَ أمثالها؟ قال: تقول: لا إله إلا الله، فنفروا، وقالوا: سلنا غير هذه، قال: لو جئتموني بالشمس حتى تضعوها في يدي ما سألتكم غيرها، فغضبوا، وقاموا من عنده غضابا، وقالوا: والله لنشتمنّك وإلهك الذي يأمرك بهذا))

[ورد في الأثر]

فقضية الإسلام ليست خاضعة للمساومة، ولا للمبادلة، قضية الإسلام قضية مبدأ، وقضية مصير.
أحياناً في المؤتمرات، ولقد مكثوا مرةً عشر دورات، ولم تنجح هذه الدورات في المفاوضات، للاتفاق على جدول الأعمال فقط، عشر جولات انتهت بالفشل الذريع، ولم يتفقوا على جدول الأعمال، يقولون: هذا الموضوع غير قابل للمناقشة، وإيّاكم أن تطرحوه، فإن طرحتموه معنى ذلك أنكم لا تريدون الصلح، كذلك في حياة المسلم هناك قائمة موضوعات غير قابلة للمناقشة، ولا يمكن أن تُعرَض على بساط البحث، هذه مِنَ المسلّمات، قضية عقيدة، قضية مبدأ، قضية مصير .
حاول أبو سفيان بكل ما أوتي من قوةٍ، ومن سطوةٍ، ومن بأسٍ، أن يردَّ ابنته وزوجها إلى دينه، ودين آبائه، فلم يفلح، والكافر أحياناً يتوهم بسذاجة أنّ فلانًا مِنَ الممكن أنْ نغريه بالمال ، وأنْ نغريه بالنساء،

هذا ظن الكافر، وهو ظنٌ غبي، بل هذه سذاجة محضة، والمسلم لا يخضع، ولا يتأثر لا بالضغوط، ولا بالإغراءات، لأنه عرف الله عزَّ وجل .

قال بعضهم: إن الإيمان الذي رسخ في قلب ابنة أبي سفيان كان أعمق مِن أن تقتلعه أعاصيرُ أبي سفيان وأثبت من أن يزعزعه غضبه .

قالت أم سعد بن أبي وقاص لابنها:

((يا سعدُ، إمّا أن تكفر بمحمد، وإلا سأدع الطعام حتى أموت، فقال: يا أمِّي، لو أن لكِ مئة نفسٍ، فخرجت واحدةً واحدةً لمَا كفرتُ بمحمد، فكلِي إن شئتِ، أو لا تأكلِي))

سيدنا عبد الله بن عمر فيما تروي الكتب أغرى بدوياً راعياً، على أن يبيعه شاة، ويعطيه ثمنَهَا، فقال له البدوي:

((ليست لي، فقال له: قل لصاحبها ماتت، قال له: ليست لي، قال له : خذ ثمنها، قال له: ليست لي، قال: واللهِ إنني لفي أشدِّ الحاجة إلى ثمنها، ولو قلتُ له ضاعت، أو أكلها الذئب، لصدقني، فإني عنده صادقٌ أمين، ولكن أين الله ؟))

هؤلاء الذين يأكلون أموال الناس بالباطل، هؤلاء الذين يغشّون الناس، ويتجاوزون الحدود، ويعتدُون على أعراض الناس، واللهِ ما عرفوا ربَّهم، ولو عرفوا الله عزَّ وجل لتهيَّبوا أن يعصوه في أدق المخالفات وأدناها .

أبو سفيان ركبه الهمُّ بسبب إسلام رملة، فما كان يعرف بأي وجهٍ يقابل قريشاً، سيقولون له: عليك بابنتك التي من صلبك، فقد أسلمتْ، أين أنت؟ أغافلٌ عنها؟ كيف أقنعوها؟ أين قوتك؟ .

هل هاجرت رملة وزوجها إلى الحبشة وما هي ردة فعل قريش حينما علمت بهجرة المسلمين إلى الحبشة ؟

لما وجدت قريشٌ أن أبا سفيان ساخطٌ على رملة وزوجها، اجترأتْ عليها، وطفقتْ تضيِّق عليهما الخناق، وجعلتْ ترهقهما أشدَّ الإرهاق، حتى باتا لا يطيقان الحياة بمكة، ولقد ضغطت قريشٌ على المسلمين بشكلٍ لا يوصف، ونحن نشأنا في بلاد المسلمين، والحمد لله، ونحضر مجالس العلم، ولا نشعر بهذا الضغط، لكن الضغط الذي مارسه قريشٌ كان شديدًا مؤلِمًا ، تعذيب حتى الموت، ومقاطعة حتى الجوع، ولما أذِنَ النبيّ عليه الصلاة والسلام للمسلمين بالهجرة إلى الحبشة، كانت رملة بنت أبي سفيان وطفلتها الصغيرة حبيبة، وزوجها عبيد الله بن جحش في طليعة المهاجرين إلى الله بدينهم، الفارِّين إلى حِمى النجاشي بإيمانهم .

لكن أبا سفيان بن حرب ومن معه من زعماء قريش عزّ عليهم أن يفلت من بين أيديهم أُولئك النفر من المسلمين، وأن يذوقوا طعم الراحة في بلاد الحبشة، فأرسلوا رسلهم إلى النجاشي، يحرِّضونه عليهم، ويطلبون منه، أن يسلّمهم إليهم .

الإنسان هو الإنسان، سلمونا فلانًا وفلانًا، دائماً مطاردة، هذا يجب أن تسلّمونا إياه، وهذا ما فعله أبو سفيان وزعماء قريش، لقد أرسلوا إلى النجاشي رسلاً معهم الهدايا الثمينة، للبطارقة حتى يشكلوا رأيًا عامًّا ضاغِطًا على النجاشي، وكان عمرو بن العاص وهو أحد دُهاة العرب رئيسَ وفدِ قريش إلى النجاشي، كي يقنع النجاشي بتسليم هؤلاء الذين هاجروا إلى الحبشة ، وفرُّوا بدينهم، ورأوا في بلاد النجاشي الراحة والأمان .

ومن دهاء عمرو بن العاص أنه أراد أن يثير حفيظة النجاشي، وهو النصراني، أثاره بموضوعٍ خطير، فقدْ ذكَّره أن هؤلاء الذين لجؤوا إلى بلاده يقولون في المسيح وأمِّه مريم قولاً يسوءه، فبعث النجاشي إلى زعماء المهاجرين، وسألهم عن حقيقة دينهم، والنص معروف عندكم أنا أُلقيه عليكم كثيراً، قال له:

فعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ ابْنَةِ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَتْ:

((لَمَّا نَزَلْنَا أَرْضَ الْحَبَشَةِ جَاوَرْنَا بِهَا خَيْرَ جَارٍ، النَّجَاشِيَّ أَمِنَّا عَلَى دِينِنَا، وَعَبَدْنَا اللَّهَ لَا نُؤْذَى وَلَا نَسْمَعُ شَيْئًا نَكْرَهُهُ، فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ قُرَيْشًا ائْتَمَرُوا أَنْ يَبْعَثُوا إِلَى النَّجَاشِيِّ فِينَا رَجُلَيْنِ جَلْدَيْنِ، وَأَنْ يُهْدُوا لِلنَّجَاشِيِّ هَدَايَا مِمَّا يُسْتَطْرَفُ مِنْ مَتَاعِ مَكَّةَ، قَالَتْ: فَكَانَ الَّذِي كَلَّمَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، فَقَالَ لَهُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ، يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا، نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ، فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوَحِّدَهُ وَنَعْبُدَهُ وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ وَصِلَةِ الرَّحِمِ وَحُسْنِ الْجِوَارِ وَالْكَفِّ عَنْ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنْ الْفَوَاحِشِ وَقَوْلِ الزُّورِ وَأَكْلِ مَالَ الْيَتِيمِ وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ، قَالَ: فَعَدَّدَ عَلَيْهِ أُمُورَ الْإِسْلَامِ فَصَدَّقْنَاهُ وَآمَنَّا بِهِ وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ فَعَبَدْنَا اللَّهَ وَحْدَهُ فَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَحَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا، وَأَحْلَلْنَا مَا أَحَلَّ لَنَا، فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمُنَا فَعَذَّبُونَا وَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا لِيَرُدُّونَا إِلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ، وَأَنْ نَسْتَحِلَّ مَا كُنَّا نَسْتَحِلُّ مِنْ الْخَبَائِثِ، فَلَمَّا قَهَرُونَا وَظَلَمُونَا وَشَقُّوا عَلَيْنَا وَحَالُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ دِينِنَا خَرَجْنَا إِلَى بَلَدِكَ وَاخْتَرْنَاكَ عَلَى مَنْ سِوَاكَ، وَرَغِبْنَا فِي جِوَارِكَ وَرَجَوْنَا أَنْ لَا نُظْلَمَ عِنْدَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ، قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: فَلَمَّا خَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ، قَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، إِنَّهُمْ يَقُولُونَ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ قَوْلًا عَظِيمًا فَأَرْسِلْ إِلَيْهِمْ فَاسْأَلْهُمْ عَمَّا يَقُولُونَ فِيهِ، قَالَتْ: فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ يَسْأَلُهُمْ عَنْهُ،

قالَتْ: وَلَمْ يَنْزِلْ بِنَا مِثْلُهُ فَاجْتَمَعَ الْقَوْمُ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: مَاذَا تَقُولُونَ فِي عِيسَى إِذَا سَأَلَكُمْ عَنْهُ؟ قَالُوا: نَقُولُ وَاللَّهِ فِيهِ مَا قَالَ اللَّهُ وَمَا جَاءَ بِهِ نَبِيُّنَا كَائِنًا فِي ذَلِكَ مَا هُوَ كَائِنٌ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالَ لَهُمْ: مَا تَقُولُونَ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، فَقَالَ لَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: نَقُولُ فِيهِ الَّذِي جَاءَ بِهِ نَبِيُّنَا هُوَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَرُوحُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ الْعَذْرَاءِ الْبَتُولِ، قَالَتْ: فَضَرَبَ النَّجَاشِيُّ يَدَهُ إِلَى الْأَرْضِ فَأَخَذَ مِنْهَا عُودًا، ثُمَّ قَالَ: مَا عَدَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ مَا قُلْتَ هَذَا الْعُودَ فَتَنَاخَرَتْ بَطَارِقَتُهُ حَوْلَهُ حِينَ قَالَ مَا قَالَ، فَقَالَ: وَإِنْ نَخَرْتُمْ وَاللَّهِ، اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ سُيُومٌ بِأَرْضِي، وَالسُّيُومُ الْآمِنُونَ))

[أخرجه أحمد في مسنده]

إنه كلام بليغ، فلما اقتنع النجاشي بهذا الكلام ذكروه أنهم يقولون في عيسى بن مريم ، قولاً يسوءُه، لا يعدونه ابنَ الله، هو نبيٌّ من الأنبياء، طلب النجاشي إليهم، أن يسمعوه شيئاً من القرآن الكريم الذي ينزل على قلب نبيِّهم، فلما أخبروه بحقيقة الإسلام، وتلوا عليه بعضاً من آيات القرآن، بكى النجاشي، حتى اخضلَّت لحيته، وقال لهم: مَا عَدَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ مَا قُلْتَ هَذَا الْعُودَ ، ثم أعلن النجاشي إيمانه بالله وحده لا شريك له، وتصديقه لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وأسلم .

والنجاشي مِلِك، لذلك لما جاءت رسل النجاشي، أراد النبي عليه الصلاة والسلام، أن يخدمهم بنفسه، إكراماً له، ولما توفّي النجاشي صلى عليه النبيُّ صلى الله عليه وسلم صلاة الغائب ، على أنه مسلم، وفي بعض الكتب يعدُّ من الصحابة، لكن لم يلتق بالنبي صلى الله عليه وسلم، بل التقى به عن بُعْد، وأسلم وغدا المهاجرون بعد ذلك في بحبوحة، وفي رعاية، وفي طُمأنينة، وتحت ظل النجاشي .

ما هي الرؤيا التي رأتها أم حبيبة في المنام وهل تحققت هذه الرؤيا ؟

حسبت أم حبيبة بعد ذلك أنّ الأيام صفت لها بعد طول عبوس، وأن رحلتها الشاقة في طريق الآلام قد انتهتْ إلى واحة الآمان، إذ لم تكن تعلم ما خبَّأتها لها المقادير، فيما سيحدث لها في حياتها من أخطر الأحداث، شاء الله تبارك وتعالى، ولحكمةٍ بالغةٍ أرادها أن يمتحن أمَّ حبيبة امتحاناً قاسياً، تطيش فيه عقول الرجال .

قبل أن نتابع القصة، ماذا يعني أن يؤمن النجاشي؟ معنى ذلك أنّ الإيمان مكلَّف به جميع الناس، والملوك كذلك، والملِك إذا آمن وأسلم، فأنْعِمْ وأكرم به من ملك، يؤيِّده الله، ويثبِّت ملكه، ويزيد قوةً ومضاءً، والإنسان كلما اتسعت سلطته يزداد عمله الصالح .

أضرب لكم مثلاً بسيطًا؛ معلم في صف يضمُّ ثلاثين طالبًا، أقصى ما عنده أنه يوجِّه هؤلاء الطلاب توجيهاً صحيحاً، لكن المدير تحت سلطته سبعمئة وثمانين طالبًا، فإذا كان مديرًا حازمًا أخلاقيًّا فإنّه ينتقي مدرسين ممتازين، لضبطِ المدرسة، أمّا مدير التربية فعنده محافظة بأكملها، ووزير التربية أعلى

مِن ذلك، فكلما عَلَت السلطة ازدادَ العملُ الصالح، فأنت بإمكانك أن تعمل بقدر سلطتك، فحينما يكون الإنسان في مرتبة عالية فقد أتيح له أنْ يعمل من الأعمال الصالحة ما لا حدود له، فمن الممكن أنّ الملك إذا نوَّر اللهُ عزَّ وجل قلبَه أنْ يعملَ أعمالاً لا تأتي بها الجبال الراسيات .

وبالمناسبة، هناك شيئان يتوازنان، كلما ازداد حظُّك من الدنيا؛ حظ العلم، أو حظ المال ، أو حظ السلطان، أو الذكاء، أو الوسامة، أو الغنى، ازداد معها شيئان؛ مسؤوليتك، وفرص العمل الصالح التي تتاح لك، وإذا ضيَّع هذه الفرصة، صارت مسؤوليته أمام الله كبيرةً عسيرة، لذلك صدقوا حينما قالوا: فلان مسؤول كبير، بالمعنى اللغوي، أي مسؤول مسؤولية كبيرة، بهذا المعنى بالضبط، فالنجاشي آمن بالله ورسوله، ازداد قوةً، وازداد حكمة، وازداد قرباً من الله عزَّ وجل .

نعود إلى امتحان أم حبيبة القاسي، لقد كان هذا الامتحان تطيش له عقول الرجال، ذوي الأحلام، وتتضعضع أمامه أفهامُ ذوي الأفهام، وهذا الابتلاء ربما أخرجها من عقلانيتها، فما هذا الابتلاء؟ ذات ليلةٍ، أَوَتْ أم حبيبة إلى مضجعها، فرأت فيما يراه النائم أنّ زوجها عبيد الله يتخبَّط في بحرٍ لُجيٍّ، غشيته ظلماتٌ بعضها فوق بعض، وهو في أسوأ حال، والرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح، أو تُرى له، فهبَّتْ من نومها مذعورةً مضطربة، ولم تشأ أن تذكر له أو لأحدٍ غيره شيئاً مما رأت، لأن الرؤيا مزعجة جداً، لكن ما لبثت أن تحققت رؤياها، فزوجها المؤمن، المهاجر، الذي صحبها إلى الحبشة، فلم ينقضِ يوم تلك الليلة المشؤومة، حتى كان عبيد الله بن جحشٍ قد ارتد عن دينه وتنصَّر، ثم أكبَّ على حانات الخمَّارين، يعاقر الخمرة أمَّ الخبائث ، فلا يرتوي منها، ولا يشبع .

ما هما الخياران اللذان اقترحما زوج أم حبيبة عليها وما هو الخيار الذي ظلت عليه وهل أصابها حيرة وألم من جراء ذلك ؟

أيها الأخوة، قد خيَّرها بين أمرين أحلاهما مرٌّ؛ إما أن أطلقك، وإما أن تتنصَّري، هذه مصيبة، أبوها مشرك، فهل تعود إلى أبيها ذليلة، وزوجها نصراني، وهي في بلاد الحبشة غريبة ؟ هذه القصة تعطيكم الدليل العظيم على حكمة النبي في زواجه مِن أمّ حبيبة .

فوجدت أمُّ حبيبة نفسها فجأةً بين ثلاث: إما أن تستجيب لزوجها، الذي جعل يلحُّ عليها في دعوته إليها إلى التنصُّر، والعياذ بالله، وتبوء بخزي الدنيا، وعذاب الآخرة، وهذا أمرٌ لا تفعله ، ولو مُشِّط لحمُها عن عظمها بأمشاطٍ من حديد، هذا مستحيل، هذا أول احتمال، وقد ألغيناه .

وإمّا أن تعود إلى بيت أبيها في مكة، وهو ما زال قلعة للشرك، فتعيش فيه مقهورةً، مغلوبة، ذليلة، وّإما أن تبقى في بلاد الحبشة وحيدةً شريدةً لا أهل لها، ولا وطن، ولا معين، فآثرت ما فيه رضاء الله عزَّ وجل، وأزمعت على البقاء في الحبشة، حتى يأتي اللهُ بفرجٍ من عنده.

ما هي البشرى التي دخلت على قلب أم حبيبة بعد ألم تلك الأيام التي فارقتها بشرك زوجها، وكيف تم عقد زواجها ؟

لم يَطُل انتظارُ أمِّ حبيبة كثيراً، فما إن انقضت عدَّتُها من زوجها الذي لم يعش بعد تنصره إلا قليلاً حتى جاءها الفرَجُ .

خدم رجلٌ والدته اثنتي عشرة سنة، وفي أحد الأيام ضاقت نفسه بخدمته لها، وغضب ، وأسمعها كلماتٍ قاسيةً جداً، وقال لها: لستُ أنا ابنك الوحيد، اذهبي إلى غيري، اخرُجي من بيتي، فبكت، وقهرها بهذه الكلمة، فاستدعتْ أحدَ أبنائها، وأخذها معه إلى البيت، وما هي إلا أيام حتى توفّاها الله عزَّ وجل، فهَدَرَ عملَ اثنتي عشرة سنة، وهذا بعد أشهر قليلة من ارتداده عن الإسلام مات .

لقد خُتِم عملُه بالكفر، ومعاقرة الخمرة، لذلك فعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ تُحَدِّثُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يُكْثِرُ فِي دُعَائِهِ أَنْ يَقُولَ:

((اللَّهُمَّ مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ، قَالَتْ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَوَ إِنَّ الْقُلُوبَ لَتَتَقَلَّبُ، قَالَ: نَعَمْ، مَا مِنْ خَلْقِ اللَّهِ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ بَشَرٍ إِلَّا أَنَّ قَلْبَهُ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ، فَإِنْ شَاءَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَقَامَهُ، وَإِنْ شَاءَ اللَّهُ أَزَاغَهُ، فَنَسْأَلُ اللَّهَ رَبَّنَا أَنْ لَا يُزِيغَ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا، وَنَسْأَلُهُ أَنْ يَهَبَ لَنَا مِنْ لَدُنْهُ رَحْمَةً إِنَّـهُ هُوَ الْوَهَّابُ، قَالَتْ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَلَا تُعَلِّمُنِي دَعْوَةً أَدْعُو بِهَا لِنَفْسِي، قَالَ: بَلَى، قُولِي: اللَّهُمَّ رَبَّ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، وَأَذْهِبْ غَيْظَ قَلْبِي، وَأَجِرْنِي مِنْ مُضِلَّاتِ الْفِتَنِ مَا أَحْيَيْتَنَا))

[أخرجه أحمد في مسنده]

لقد جاءها السعد يرفرف بأجنحةٍ خضراء فوق بيتها المحزون، على غير ميعاد، في ذات ضحىً طَرَق بابَها طارقٌ، فلما فتحته، فوجِئت بأبرهة، مَن هي أبرهة؟ اسم مؤنث بالطبع، وهي وصيفة النجاشي، ملك الحبشة، فحيَّتها بأدبٍ وبِشْر، واستأذنتْ بالدخول عليها، وقالت:

((إن الملك يحيِّيكِ، ويقول لك: إن محمداً رسول الله، قد خطبك لنفسه .))

-هل تعرفون لماذا يتزوج النبي عليه الصلاة والسلام مثل هذه المرأة؟ لقد تنصَّر زوجها، وعاقر الخمرة، وأبوها أبو سفيان، بيته قلعة من قلاع الشرك، وهي في الحبشة طريدةٌ، شريدة، لا معين لها- فالنبي عليه الصلاة والسلام خطبها لنفسه، عن طريق الملك النجاشي، وقد بعث إليه كتاباً وكَّله فيه أن يعقد له عليكِ، فوكِّلي عندك من تشائين، هذه هي الوكالة في الزواج، فاستطارت أمُّ حبيبة فرحاً، وهتفت: بشَّركِ اللهُ بالخير، بشَّرك الله بالخير، وطفقت تخلع ما عليها من الحلي، فنزعت سواريها، وأعطتهما لأبرهة المبشرة، ثم ألحقتهما بخلخالها، ثم أتبعت ذلك بقرطيها، وخواتمها، ولم تُبْق شيئًا، - هذه بشارة عظيمة، لقد أعْطَتْ كلَّ شيءٍ تملكه من الحلي إكراماً لها .

ولو كانت تملك كنوز الدنيا كلها لأعطتها لها في تلك اللحظة- ثم قالت لها: لقد وكّلت عني خالد بن سعيد بن العاص، فهو أقرب الناس إلي))

وفي قصر النجاشي الرابض على رابية خضراء، وعلى تلّة خضراء، مطلةٍ على روضةٍ من رياض الحبشة النضرة، وفي أحد أبهائه الفسيحة، المزدانة بالنقوش الزاهية، المضاءة بالسُرج النحاسية الوضاءة، المفروشة بفاخر الرياش اجتمع وجوهُ الصحابة، المقيمين في الحبشة، وعلى رأسهم جعفر بن أبي طالب، وخالد بن سعيد بن العاص، وعبد الله بن حذافة السهمي، وغيرهم، ليشهدوا عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمِّ حبيبة بنت أبي سفيان .

أيها الأخوة، قد تضيق الدنيا، وتضيق، والطرق كلها مغلقة، فاصبر، فقد تأتي الدنيا وهي راغمة، ويأتي الفرج بعد اليأس، ويخلق اللهُ جلَّ جلاله مِنَ الضعف قوة، ومن الضيق فرجاً ، ومن الفقر غنىً، ومن الذل عزاً، فبطولتك أن تكون مع الله في طاعته، وعلى الله الباقي .

فلما اكتمل الجمع، تصدَّر النجاشي المجلس، وخطبهم، فقال:

((أحمد الله، القدوس، المؤمن، الجبَّار، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وأنه هو الذي بشَّر به عيسى بن مريم، أما بعد: فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم طلب مني أن أزوِّجه أمَّ حبيبة بنت أبي سفيان، فأجبته إلى ما طلب، وأمهرتها نيابة عنه أربعمئة دينارٍ ذهباً، وأدّى النجاشي عنه المهر على سنة الله ورسوله، ثم سكب الدنانير بين يدي خالد بن سعيد بن العاص .

قام خالد بن سعيدٍ، وقال: الحمد لله أحمده، واستعينه، وأستغفره، وأتوب إليه، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله بدِين الهدى والحق ليظهره على الدين كله، ولو كره الكافرون، أما بعد: فقد أجبتُ طلبَ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وزوجته موكِّلتي، أمَّ حبيبة بنت أبي سفيان، فبارك الله لرسول الله بزوجته، وهنيئاً لأم حبيبة بما كتب اللهُ لها من الخير، ثم حمل المال، وهمَّ أن يمضي به إليها، فقام أصحابه بقيامه، وهمُّوا بالانصراف أيضاً، وهنا قال لهم النجاشي: اجلسوا ، فإن سنة الأنبياء إذا تزوَّجوا أن يطعموا الطعام، ودعا لهم بطعامٍ، فأكل القوم، ثم انفضوا))

قالت أم حبيبة:

((فلما وصل المالُ إليَّ، أرسلتُ إلى أبرهة التي بشَّرَتْني خمسين مثقالاً من الذهب، وقلت لها: إني كنت أعطيتكِ ما أعطيت حينما بشَّرتني، ولم يكن عندي يومئذٍ مال، فما هو إلا قليلٌ حتى جاءت أبرهة إليها، وردَّت الذهبَ، وأخرجتْ حُقًّا فيه الحَلْيُ الذي أعطيتها إيَّاه، فردّته إليّ أيضاً، وقالت: إن الملك قد عزم عليّ، ألا آخذ منك شيئاً، وقد أمر نساءه أن يبعثْنَ لك بكل ما عندهن من الطيب، فلما كان الغد، جاءتني بورسٍ وعودٍ وعنبرٍ، ثم قالت الوصيفة أبرهةُ: إن لي عندك حاجة؟ فقلت: وما هي؟

فقالت: لقد أسلمتُ، واتبعتُ دين محمد، فاقرئي على النبي مني السلام، وأعلميه، أني آمنت بالله ورسوله، ولا تنسيْ ذلك))

أرأيتم الإحسان، الإنسان أحياناً يملك قلب إنسان بالمال، بالإكرام، لا تظن أنّ الناس تنقصهم معلومات، وفلسفات، وكلام منمَّق، إنما ينقصهم إحسان، فإنْ أحسنت فتحت قلوب الناس بإحسانك، قبل أن تفتح عقولهم ببيانك .

يا أيها الأخوة الكرام، أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، قال: لما نزلت سورة براءة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((بُعِثْتُ بِمُدَارَاةِ النَّاس))

[أخرجه البيهقي عن جابر بن عبد الله]

المداراة كما تعلمون بذْلُ الدنيا من أجل الدين، والمداهنة بذلُ الدين من أجل الدنيا، فإذا كنتَ مِمَّن يطمح أن يصير داعية إلى الله عزَّ وجل، وممَّن يطمح أن يهتدي الناس على يديه، أو بسببه، فليس أمامك إلا طريق واحد، وهذا الطريق أنْ تحسن إلى الناس، لأن الناس هل يتعلّمون بعيونهم أم بآذانهم؟ بعيونهم، ثم بآذانهم، فإذا التقى الإنسانُ بشخص، فأول لقاء لا يعرفه، فينظر إلى طوله ، ولونه، وأناقته، ونظافته، وثيابه، وإلى ألوان ثيابه، وإلى الانسجام بين الألوان، وإلى طريقة مشيته، وطريقة جلسته، وحركاته، ونظراته، فيتفحصه، فأنت التقيتُ مع شخص لا تعرفه، زرت أخاك في العيد، وقال لك: انتظرْني دقيقة، ووجدتَ عنده ضيوفًا، وقال لك: أنا مشغول، فاجلِسْ معه دقائق، تأمله، تأمَّل شكله، طوله، لونه، حذاءه، قميصه، ألوان ثيابه، طريقة جلسته، فإذا تكلَّم نسيتَ شكله، وجدت فيه علمًا، وفهمًا، ودقةً في التعبير، أو هو ذو كلام فارغ، وحديثُه خرافات، أو عنده آراء غير صحيحة، أو تصورات مضحكة، فإن تكلّم؛ إمّا أن يرقى، وإمّا أن يسقط، فإن تكلم نسيت شكله، فإذا سافرت معه، وعاملته بالدرهم والدينار، نسيتَ كلامه، الشكل يُسقِط، والكلام يُسقِط، ولا تبقى إلا المعاملة، والمعاملة هي الأساس .

ما موقف المؤمن إذا امتحن بالبلاء وهل بعد الصبر فرج ؟

أيها الأخوة، فالإنسان إذا ضاقت به الأمور، فعليه بالدعاء ، وعليه بالالتجاء إلى الله، وعليه بالصبر، والصبر مفتاح الفرج، وربنا عزَّ وجل يمتحنك، ويضعك في ظروف صعبة، والطرق كلّها مغلّقة، وفيما يبدُو لك أن الأمر صار فوق التحمل فاصْبِرْ، فإنّ الله يحبُّ العبد الصابر، قال عز وجل:

(إنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً)

(سورة ص الآية: 43)

هذه الآية مؤثرة جداً، قال تعالى:

(إنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ)

(سورة ص الآية: 43)

والصبر متى يكون؟ عند الصدمة الأولى، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ:

((مَرَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِامْرَأَةٍ تَبْكِي عِنْدَ قَبْرٍ، فَقَالَ: اتَّقِي اللَّهَ وَاصْبِرِي، قَالَتْ: إِلَيْكَ عَنِّي فَإِنَّكَ لَمْ تُصَبْ بِمُصِيبَتِي وَلَمْ تَعْرِفْهُ، فَقِيلَ لَهَا: إِنَّهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَتَتْ بَابَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمْ تَجِدْ عِنْدَهُ بَوَّابِينَ، فَقَالَتْ: لَمْ أَعْرِفْكَ، فَقَالَ: إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى))

[متفق عليه، أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح عن أنس بن مالك]

كلّ إنسان إنْ لجَّ وكفر سوف يصبر مقهوراً، يقول لك: ما بعد الصبر إلا المجرفة والقبر، أي إن لم تصبر، فماذا تفعل؟ نحن عبيدٌ لله عزَّ وجل، فبين الصابر وغير الصابر مرتبةُ الرضا، وهي عند الصدمة الأولى، لكن بعد حين تصبر، لكنك فقدتَ الأجر، لذلك فالمؤمن إذا جاءه ما يكرهه، فأوّلُ كلمة، يقولها: الحمد لله على كل حال، فعوِّد لسانك على الحمد، يا ربِّ لك الحمد على كل حال .

هل مر رسول الله بظروف صعبة كما يمر بها الناس إليكم بيان ذلك ؟

النبي عليه الصلاة والسلام كان قدوة لنا، فكيف جعلـه الله قدوة؟ لأنه لو جعله غنياً فقط، ونصح الفقراء بالصبر، فهذه النصيحة غير مقبولة، ماذا يقولون له؟ لم تذق الفقرَ يا سيدي، هذا كلام نظري، لكنه ذاق الفقر المدقع، قال:

((أوذيتُ وما أوذي أحدٌ مثلي، وخفت وما خاف أحدٌ مثلي، ومضى علي ثلاثون يوماً لم يدخل جوفي إلا ما يواريه إبط بلال))

ذاق الفقر، وذاق الغنى، فلما ذاق الفقر، فعَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ:

((قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ذَاتَ يَوْمٍ يَا عَائِشَةُ، هَلْ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ؟ قَالَتْ: فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ: مَا عِنْدَنَا شَيْءٌ، قَالَ: فَإِنِّي صَائِمٌ، قَالَتْ: فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأُهْدِيَتْ لَنَا هَدِيَّةٌ أَوْ جَاءَنَا زَوْرٌ، قَالَتْ: فَلَمَّا رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أُهْدِيَتْ لَنَا هَدِيَّةٌ أَوْ جَاءَنَا زَوْرٌ، وَقَدْ خَبَأْتُ لَكَ شَيْئًا، قَالَ: مَا هُوَ؟ قُلْتُ: حَيْسٌ، قَالَ: هَاتِيهِ، فَجِئْتُ بِهِ فَأَكَلَ، ثُمَّ قَالَ: قَدْ كُنْتُ أَصْبَحْتُ صَائِمًا))

[أخرجه مسلم في الصحيح عن عائشة]

أنا أستحلفكم بالله عزَّ وجل، هل منكم رجلٌ إذا دخل بيته لم يجد شيئاً يأكله إطلاقاً؟ مستحيل، فليس من بيت إلاّ وفيه زيتون، جبن، لبن مصفى، كأس من الشاي، معكرونة، برغل، أرز، المسلم، إذا تأخّر

الأكل، يخبط خبط عشواء، ويسبُّ، ويقيم، ويُقعِد، لكنّ النبي صلى الله عليه وسلم لم يجد شيئاً يأكله، ويقول: فَإِنِّي صَائِمٌ .

دخل عليه عدي بن حاتم، قال:

((فقذف إليَّ وسادةً من أدمٍ، محشوةً ليفاً، قال: اجلسْ عليها، قلت: بل أنت، قال: بل أنت، قال: فجلست عليها، وجلس رسول الله على الأرض))

ماذا يوجد في بيته؟ هل كان عنده طقم فاخر، وسجاد صيني؟ لا، بل وسادة واحدة، من أدمٍ محشوةٍ ليفاً، دفعها إلى عدي بن حاتم .

دخل عليه أعرابيٌّ يومًا فلم يعرفه، وهو صلى الله عليه وسلم جالس بين أصحابه، وصار يتأملهم ملياً، ثم قال:

((أيُّكم محمّد؟))

قيل له:

((لمن هذا الوادي يا محمد؟ قال: هو لكَّ ، قال: أتهزأ بي؟ قال: لا والله، قال : أشهد أنك رسول الله، تعطي عطاء من لا يخشى الفقر))

فقد ذاق النبيُّ طعمَ القهر، ففي الطائف مشى على قدميه ثمانين كيلو مترًا، كذَّبوه، وسخروا منه، وضربوه، فذاق طعم القهر، وذاق طعم النصر في مكة، وقد أحاط به عشرةُ آلاف سيف متوهِّج، بعد أنْ أُخرج منها شريداً، طريداً، خائفاً، مهدوراً دمه، فعاد إليها سيداً، فاتحاً، منتصراً، ومصير هؤلاء جميعاً منوطٌ بكلمةٍ مِن فمه، لو قال: اقتلوهم لقتلوهم، لكنه ماذا قال؟ عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ بعضادتي الباب يوم فتح مكة، وقد لاذ الناس بالبيت فقال:

((الحمد لله الذي صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ثم قال: ماذا تظنون يا معشر قريش؟ قالوا: خيرا، أخ كريم، ابن أخ كريم، وقد قدرت، قال: وأنا أقول كما قال أخي يوسف: لا تثريب عليكم اليوم، فقال عمر رضي الله عنه: ففضت عرقا من الحياء من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ ذلك أني قد كنت قلت لهم حين دخلنا مكة: اليوم ننتقم منكم ونفعل، فلما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال، استحييت من قولي))

ذاق موت الولد، والولد غالٍ جدًّا، مات ابنه إبراهيم فبكى عليه، فعَنْ أَنَس بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قالَ:

((دَخَلْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى أَبِي سَيْفٍ الْقَيْنِ، وَكَانَ ظِئْرًا لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام، فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِبْرَاهِيمَ فَقَبَّلَهُ وَشَمَّهُ ثُمَّ دَخَلْنَا عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ، وَإِبْرَاهِيمُ يَجُودُ بِنَفْسِهِ، فَجَعَلَتْ عَيْنَا رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَذْرِفَانِ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ رَضِيَ

اللَّهُ عَنْهُ: وَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فقالَ: يَا ابْنَ عَوْفٍ، إِنَّهَا رَحْمَةٌ ثُمَّ أَتْبَعَهَا بِأُخْرَى، فقالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ، وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ))

[متفق عليه، أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح عن أنس بن مالك]

ذاق الهجرة، وهي اقتلاع من الجذور، أرأيتَ إلى رجلٍ يسكن بيتًا مرتَّبًا، وله محله، ومصيفه، وسيارته، ثم غادرها خلال خمس دقائق، أين؟ إلى اليمن، فقد يقعد على الرصيف، فهذه هي الهجرة .

فالنبي عليه الصلاة والسلام، لولا أنه جرت عليه كلُّ خصائص البشر لمَا كان سيِّد البشر، لقد كذّبوه، واتّهموه ظلماً بأنه مجنون، وساحر، وكاهن، وضيِّقوا عليه، وأخرجوه، وتآمروا على قتله، وذاق الفقر، وذاق الغنى، وذاق النصر، وذاق الهزيمة، لقد ذاق كلُّ هذا، لهذا قال تعالى :

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً)

(سورة الأحزاب الآية: 21)

فاعتبروا يا أولي الألباب .

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

ما هما الفائدتان اللتان يجنيهما المسلم إذا درس سير الصحابة ؟

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثامن والثلاثين من دروس سير صحابة رسول الله رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، وصحابيُّ اليوم سيدُنا عبد الله بن حذافة السهمي .

أول ملاحظة، وهي أن ثمَّة دعاءً يدعو به بعض خطباء دمشق، يقولون:

((اللهم إنا نعوذ بك من فتنة القول، كما نعوذ بك من فتنة العمل))

القول له فتنة، وفتنة القول، أن ينطلق لسانك، ويقصِّر عملك، هذه فتنة، وفتنة العمل، أن تعجب به، فالدعاء:

((اللهم إنا نعوذ بك من فتنة القول، كما نعوذ بك من فتنة العمل، ونعوذ بك أن نتكلَّف ما لا نحسن، كما نعوذ بك من العجب فيما نحسن))

سقتُ هذا الدعاء تمهيداً لهذه الملاحظة؛ أن كلَّ مؤمنٍ إذا قرأ سيرة أصحاب رسول الله يصغر، ويصغر، حتى يرى أنه لم يقدِّم شيئاً للإسلام .

صحابيُّ اليوم، سيدنا عبد الله بن حذافة السهمي، كأن هؤلاء الصحابة من طينةٍ غير طينتنا، كأنهم يحبُّون الله حباً يفوق حدَّ التصوُّر، وقد تحملوا من المشاق ما لا يحتمله بشر، فالإنسان أيها الأخوة، إذا اطّلع على سير الصادقين، وعلى سير المخلصين، فهناك فائدتان كبيرتان:

الفائدة الأولى: فإنه يصغر عوضَ أن يكبر، والجاهل كبير بنظر نفسه، أما العالم فصغير، يقول: ماذا قدَّمت أنا؟ بعد قليل سوف ترون أن الذي فعله هذا الصحابي يفوق حدَّ الخيال، والتاريخ صادق .

الفائدة الثانية: إذا قرأ الإنسان سير صحابة رسول الله، فقراءته لها تجعله ينطلق أكثر وأكثر إلى طاعة الله ، وإلى التضحية، وإلى البذل .

من هو الصحابي الذي قدر له بأن يلتقي مع كسرى ملك الفرس بمهمة من رسول الله ؟

بطل هذه القصة رجل من الصحابة الكرام، يُدعى عبد الله بن حذافة السهمي، هذا الرجل له قصة مذهلة، والإسلام أتاح له أن يلتقي مع أسياد الدنيا في زمانه، وفي كل عصر هناك دول، منها دول

صغرى، ودول وسطى، ودول عظمى، ودول متخلفة، ودول متقدمة، وعلى كلٍّ بين الدول الكبرى تجد دولة هي أكبر دولة .

لقد كان في زمان النبي عليه الصلاة والسلام دولتان عظيمتان، وعلى رأس هاتين الدولتين رجلان عظيمان؛ كسرى عظيم الفرس، وقيصر عظيم الروم، وهذا الصحابي الجليل أتيح له أو أرسل بمهمةٍ ليلقى كسرى وقيصر في وقتين مختلفين، كِسرى ملك الفرس، وقيصر ملك الروم، وأن تكون له مع كلٍّ منهما قصة، ما تزال ذاكرة الدهر تعيدها، ولسانُ التاريخ يرويها .

في أي سنة من بعد الهجرة أرسل عبد الله بن حذافة السهمي إلى كسرى وما هي المدة التي استغرقها للوصول إليه وهذا الموقف من عبد الله علام يدل ؟

أما قصته مع كسرى ملك الفرس فكانت في السنة السادسة للهجرة، حين عزم النبي صلّى الله عليه وسلم أنْ يبعث طائفةً من أصحابه، بكتبٍ إلى ملوك الأعاجم، يدعوهم فيها إلى الإسلام، ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يقدِّر خطورة هذه المهمة، فهؤلاء الرسل سيذهبون إلى بلادٍ نائية .

في زماننا طيران، وطائرة أسرع من الصوت، وأنت على ارتفاع ستين ألف قدم، يقدَّم لكَّ الطعام الساخن، والفواكه، والمشروبات، والشاي، والقهوة، ويمكن أن تنام، وأن تشاهد فيلمًا، وأن تقرأ المجلات، وكلّ حين تقدم لكَّ الوجبات الشهيّة، في المطارات، قاعات الاستقبال مكيفة، فالسفر في زماننا هذا سهلٌ ميسور .

لكن تصور السفر في عهد النّبي عليه الصلاة والسلام، تصور إنساناً يركب حصاناً، أو يركب ناقةً، وينطلقُ بها من المدينة إلى القسطنطينية وحده، لا مؤنس معه، في ليالي الصحراء، أمّا في هذه الأيام فالإنسان أحياناً لو ذهب إلى مكتبه في قلب المدينة في الليل يشعر بالوحشة، ولو سارَّ في طريقٍ وحده بعد الساعة الثانية عشرة لشعر بالوحشة .

فهذا الصحابي، انطلق ليقطع الصحارى وحيداً، دون مؤنسٍ، ودون معينٍ، ليصل إلى ملك من ملُوك الأرض، لا يفهم لغته، ملكٌ متربعٌ على عرشٍ عظيم، يدعو هذا الصحابي ذاك الملك لترك دينه، والاحتمال أن يقتله احتمالٌ كبير .

أجمل شيء يا أيها الأخوة، أن يكون الإنسانُ واقعيًّا، وكلّ إنسان يبتعد عن الواقع لا يصدَّق، فالنّبي عليه الصلاة والسلام يعلم تماماً خطورة هذه المهمة، وهؤلاء الصحابة الكرام عاشوا في البادية، ولم يتعلّموا، بل هم أُمِّيُّون، سينطلق أحدُهم إلى كسرى، الذي يمثّل قمَّة الحضارة، قصور، وخدم، وحشم، وحجَّاب، وفرسان، وأسلحة، وأموال، وأرائك، وهم يجهلون لغات تلك البلاد، ولا يعرفون شيئاً عن أمزجة ملوكها .

بينما الآن فهناك إعلام، والأعمال كلُّها يتناقلها الإعلام، فأحياناً الملوك يحسبون حسابًا لتناقل الوكالات لما يفعلُون، أما قديمًا فلم يكن هناك إعلام، فلو قال الملك: اقتلوه، لقتلوه، وانتهى الأمر، ولنْ تسمع وقتها ضجة إعلامية، إذ لم يكن بين الشعوب تواصل، إنهم سيدعُون هؤلاء الملوك إلى ترك أديانهم، ومفارقة عزِّهم وسلطانهم .

تصوَّر مثلاً أنَّ يا فلانًا الفلاني، في القرية الفلانية، ومن البلد المتخلّف الفلاني، يقال له : اذهب إلى صاحب البيت الأبيض، وقل له: إنَّك كافر، وإنَّك على باطل، فعُدْ إلى ديننا، إنه أمرٌ صعب، ومهمةٌ فوق الخيال .

سيدعون هؤلاء الملوك إلى ترك أديانهم، ومفارقة عزِّهم وسلطانهم، والدخول في دين قومٍ كانوا إلى الأمس القريب، إنها رحلة خطيرة، الذاهب فيها مفقود، والعائد منها مولود .

إنها رحلة بالتعبير المعاصر، انتحارية، فإما أن يعود، وإما ألاّ يعود، هذه هي طبيعة هذه المهمة .

الإنسان أيها الأخوة، على قدر تضحيته، وعلى قدر بذله، وعلى قدر تجشُّمه للأخطار ، وعلى قدر عطائه يرقى عند الله عزَّ وجل، لذلك جمع النبي صلّى الله عليه وسلّم أصحابه، وقام فيهم خطيباً، وقال:

((أما بعد، فإني أريد أن أبعثُ بعضكم إلى ملوك الأعاجم، فلا تختلفوا عليّ، كما اختلفت بني إسرائيل على عيسى بن مريم:

(فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ)

(سورة المائدة الآية: 24)

-لقد كان الصحابة يتنافسون على الأعمال البطولية، تصور لو أُلْغِيَ التجنيدُ الإجباري، وصار اختيارياً، فكم عددُ مَن يذهبون طواعية؟ كان أصحاب رسول الله حينما يردُّهم النّبي لعدم وجود الرواحل يبكون، وفي هؤلاء قال سبحانه:

(وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ)

(سورة التوبة الآية: 92)

يبكون لأنه ما أتيح لهم أن يضحُّوا بأرواحهم في سبيل الله، فَأَرِنِي لي مِنَ المسلمين بهذا المستوى، وخذ فتحاً يشمل العالم كلّه، وخذ نصراً مؤزراً، الواحد منهم بألف، والألف من غيرهم كأُف، سأتلو على مسامعكم آيتين، الأولى قوله سبحانه:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي)

(سورة النور الآية: 55)

وهو شيء تحقق في عهد سيدنا عمر، قال:

((أين سراقة ؟ ائتوني به، فجاء سراقة، أين تاج كسرى؟ ضعوه على رأسه، ألبسوه سوارَيْه، قال عمر: بخ بخ ، أعرابيٌ من بني مدلج، على رأسه تاج كسرى))

أمّا الآية الثانية فهي قوله عز وجل:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً)

(سورة مريم الآية: 59)

وقعوا في خطيئتين هما:

(أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ)

(سورة مريم الآية: 59)

فقال أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلم: نحن يا رسول الله نؤدِّي عنك ما تريد، فابعثنا حيث شئت .

-أيها الأخوة، لسيدنا سعد موقف، لو لم يكن له إلاّ هذا الموقف لكفاه لدخول الجنة، فعَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَاوَرَ حِينَ بَلَغَهُ إِقْبَالُ أَبِي سُفْيَانَ، قَالَ:

((فَتَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ فَأَعْرَضَ عَنْهُ، ثُمَّ تَكَلَّمَ عُمَرُ فَأَعْرَضَ عَنْهُ، فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، فَقَالَ: إِيَّانَا تُرِيدُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ نُخِيضَهَا الْبَحْرَ لَأَخَضْنَاهَا، وَلَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ نَضْرِبَ أَكْبَادَهَا إِلَى بَرْكِ الْغِمَادِ لَفَعَلْنَا))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

هذا النصر، إذا نصرت رسول الله، أو نصرت نوّابه من بعده فقد نصرتَ الحق، فكنْ أنت دعامةً للحق، وجندياً من جنود الحق، ولا تقل كما قالت بنو إسرائيل لموسى عليه السلام:

(فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ)

(سورة المائدة الآية: 24)

انتدَب النّبيُّ عليه الصلاة و السلام ستّة من أصحابه الكرام، ليحملوا كتبه إلى ملوك العرب والعجم، وكان أحد هؤلاء الستة عبد الله بن حذافة السهمي))

فقد اخْتِيرَ لحمل رسالة النّبي صلّى الله عليه وسلّم إلى كِسرى ملك الفرس، على حصان، من المدينة إلى المدائن عاصمة الفرس .

ما المدة التي تستغرقها سفرُه؟ أكثر من شهر، وحده في الصحراء، فيها وحوش، وفيها قطّاع طرُق، وفيها أخطار مجهولة .

جهَّز عبد الله بن حذافة راحلته، وودَّع صاحبته وولده، ومضى إلى غايته ترفعه النجاد ، وتحطه الوهاد، وحيداً، فريداً، ليس معه إلا الله .

أحيانًا العوام يقولون كلمات: الله معك، إنها كلمة عظيمة، ودلالتها بعيدة، إذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان الله يحرسك، ويحفظك، ويرعاك، ويوفّقك، وينصرك، ويؤيِّدك فلا بأسَ عليك، صدق القائل:

وإذا العنايةُ لاحظتْك جفونها نم فالمخاوف كلُّهن أمان

إذا بلغت هذه المرتبة، أن يكون الله معك، وأن تشعر أنَّك في حمايته، وفي رعايته، وحفظه، فأنت في مرضاته، وأنت في خدمة عباده، وأنت جنديٌّ من جنود الحق، فإذا بلغت هذه المرتبة، وهو المؤنس في كلِّ وحشة فقد سمَوْتَ عاليًا .

ما مضمون الكتاب الذي أرسله النبي إلى كسرى وما موقف كسرى منه وهل استجاب الله دعوة نبيه بتمزيق ملك كسرى ؟

أيها الأخوة، بلغ ديار فارس، فاستأذن بالدخول على ملكها، وأخطرَ الحاشية بالرسالة التي يحملها له، عند ذلك أمر كسرى بإيوانه فزُيِّن، ودعَا عظماء فارس لحضور مجلسه فحضروا، ثم أذِنَ لعبد الله بن حذافة بالدخول عليه .

هناك في قصور في العالم، قصور في باريس، في لندن، في واشنطن، أبهاء، رخام، زينة، إضاءة، لوحات، مداخل، ثم يدخل هذه القصور أعرابي عليه رداءه وعمامته، إنها قضية ليست بالسهلة، بل هي مِنَ الصعوبة بمكان .

دخل عبد الله بن حذافة على سيد فارس، مشتملاً شملته الرقيقة، مرتدياً عباءته الصفيقة ، عليه بساطة الأعراب، لكنه كان عاليَ الهمَّة، مشدود القامة، تتأجج بين جوانحه عزَّةُ الإسلام، وتتوقَّد في فؤاده كبرياءُ الإيمان، فما إن رآه كسرى مقبلاً، حتى أومأ إلى أحدِ رجاله أن يأخذ الكتاب من يده، فقال:

((لا ، إنما أمرني رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن أدفعه إليك يداً بيد، وأنا لا أخالف أمر رسول الله، فقال كسرى لرجاله: اتركوه يدنو مني، فدنا من كسرى حتى ناوله الكتاب بيده، ثم دعا كسرى كاتباً عربياً مِن أهل الحيرة، وأمَرَه أن يفضَّ الكتاب بين يديه، وأن يقرأه عليه، فإذا فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمدٍ رسول الله، إلى كسرى عظيم فارس: -ماذا تفهمون من قوله عظيم فارس؟ إنّه حكم شرعي، فإذا كان لأحدٍ رتبة معينة، وله لقب معيَّن، فإذا خاطبته بهذا اللقب فلست آثماً، يا ترى هل كسرى عظيمٌ في مقياس الإيمان؟ وهل الذي يعبد النار عظيم، والذي يقهر الناس عظيم؟ لا والله، ليس عظيماً، لكن هذا لقب، ومن الحكمة أن تخاطب الناس بألقابهم، هذا له اسم، هذا دكتور، هذا أستاذ، هذا مقدَّم، فإذا خاطبت الناس بمراتبهم، فليس في الخطاب غضاضة، والمؤمن لبق حصيف حكيم- .

فقال عليه الصلاة والسلام في الرسالة:

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمدٍ رسول الله، إلى كسرى عظيم الفرس، سلامٌ على من اتّبع الهدى، -ولم يقل له : سلامٌ عليك، سلامٌ على من اتبع الهدى، أي إن اتبعتَ الهدى فسلامٌ عليك، وإن لم تتبع الهدى، فالسلام ليس عليك- أسلِم تسلَم، فإن أبيت، فإنما عليك إثمُ الأريسيِّين، -أي هؤلاء الذي يتبعونك، إن لم تسلم، فهم في رقبتك، وعليك إثمهم- فما إن سمع كسرى من هذه الرسالة هذا المقدار، حتى اشتعلت نار الغضب في صدره، فاحمر وجهه، وانتفخت أوداجه، -لأن الرسول عليه الصلاة والسلام، بدأ بنفسه، وبدأه بقوله: من محمدٍ رسول الله إلى كسرى، فكان تفكير كسرى تفكيرًا شكليًّا، ولم يقرأ المضمون، ولم يهتمَّ له، فغضِبَ للشكل- .

فجلب الرسالة من يد كاتبه، وجعل يمزِّقها دون أن يعلم ما فيها، وهو يصيح: أيُكتبُ لي بهذا، وهو عبدي؟ -لأنه من أتباعه، ولأن باذان عامله على اليمن، تابع لكسرى، والمناذرة وعاصمتهم الحيرة يتبعون كسرى- ثم أمر بعبد الله بن حذافة، أن يُخَرَّجَ من مجلسه، فخرج .

خرج عبد الله بن حذافة من مجلس كسرى، وهو لا يدري ماذا يفعل؟ أيُقتَل أم يترك حراً طليقاً، لكنه ما لبث أن قال: واللهِ ما أبالي على أيَّةِ حالٍ أكون بعد أن أدّيتُ كتاب رسول الله، وركب راحلته وانطلق، ولما سكت عن كسرى الغضب، أمر بأن يُدخل عليه عبد الله فلم يجدوه، فالتمسوه، فلم يقفوا له على أثر، فطلبوه في الطريق إلى الجزيرة، فوجدوه قد سبق، فلما قدم عبد الله على النبي صلَّى الله عليه وسلَّم، أخبره بما كان من أمر كسرى، وتمزيقه الكتاب، فما زاد عليه الصلاة والسلام، على أن قال:

((مزَّق الله ملكه))

وفي قصةٍ أخرى، ثار عليه ابنه فقتله، ومزِّق ملكه شرَّ ممزَّق، ولقد أعجبني من كاتب معاصر لفتةٌ حيث قال: وأيُّ إنسانٍ يريد أن يعيد مجد ملوك فارس، يمزِّق الله ملكه، والذي كان في فارس ، وكان اسمه ملك الملوك، ألم يمزِّق الله ملكه؟ كل من يريد أن يعيد مجد فارس، يمزِّق الله ملكه، هذه دعوة النبي .

وقد مُزِّق ملكه، وأيُّ ملكٍ يدعو النبي على ملكه سيمزّق، والإنسان يتجنَّب دعوة الصالحين، طبعاً دعوة الأنبياء، إذا دعا نبيٍ على إنسان فقد هلك، ودعوة الصالحين أيضاً مخيفة، فإذا دعا عليك إنسان صالح أردت أن تؤذيه، فأَعِدَّ لهذا العُدَّة، لأنَّك تحارب الله ورسوله .

كيف أسلم باذان نائب كسرى في اليمن إليكم بيان ذلك ؟

أما كسرى فقد كتب إلى باذان نائبه على اليمن:

((أن ابعث إلى هذا الرجل، الذي ظهر بالحجاز، رجلين جَلْدين من عندك، ومُرهما أن يأتياني به .

فبعث باذان رجلين من خيرة رجاله إلى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، وحمَّلهما رسالةً له، يأمره فيها بأن ينصرف معهما إلى لقاء كِسرى، دون إبطاء، وطلب إلى الرجلين أن يقفا على خبر النبي صلَّى الله عليه وسلَّم، وأن يستقصيا أمره، وأن يأتياه بما يقفان عليه من معلومات .

فخرج الرجلان يُغِذَّان السير، حتى بلغا الطائف، فوجدا رجالاً من تجَّار قريش، فسألاهم عن محمَّدٍ عليه الصلاة والسلام، فقالوا: هو في يثرب، ثم مضى التجَّار إلى مكة، فرحين مستبشرين، وجعلوا يهنِّئون قريشاً، أنْ قرّوا عيناً، فإنّ كسرى تصدَّى لمحمَّد، وكفاكم شرَّه .

-الكفار دائماً يتفاءلون بأحلامٍ مضحكة، فمنهم مَن يحلم بأن الله عزَّ وجلَّ أنه سينهي هذا الدين، ويبيد أهله، فالآن يقول لك: لن تقوم للإسلام قائمة بعد اليوم، وما علِم أنّ الإسلام شامخٌ كالطود، ولن تقوم في المستقبل قائمة لأعدائه، وهذه هي الحقيقة- .

أما الرجلان، فَيَمَّمَا وجهيهما شطر المدينة، حتى إذا بلغاها لقيا النبي عليه الصلاة والسلام، ودفعا إليه رسالة باذان، وقالا له: إن ملك الملوك كسرى كتب إلى ملكنا باذان، أن يبعث إليك من يأتيه بك، وقد أتيناك لتنطلق معنا إليه، فإن أجبتنا، كلَّمنا كسرى بما ينفعك، ويكفُّ أذاه عنك، وإن أبيت، فهو مَن قد علمت سطوته وبطشه وقدرته على إهلاكك، وإهلاك قومك، لم يغضب النبي، بل تبسَّم عليه الصلاة والسلام، وقال لهما: ارجعا إلى رحالكما اليوم، وائتيا غداً .

فلما غدوا على النبي صلَّى الله عليه وسلَّم في اليوم التالي، قالا له: هل أعددتَ نفسك للمُضِيِّ معنا إلى لقاء كسرى؟ فقال لهما النبي عليه الصلاة والسلام: لن تلقيا كسرى بعد اليوم، فلقد قتله الله ، حيث سلَّط عليه ابنه شيرويه في ليلة كذا من شهر كذا وقتله، إنه خبرُ الوحي، فحدَّقا في وجه النبي، وبدت الدهشة على وجهيهما، وقالا: أتدري ما تقول! أنكتب بذلك لباذان؟ قال: نعم، وقولا له: إن ديني سيبلغ ما وصل إليه ملك كسرى، وإنَّك إن أسلمتَ، أعطيتكَ ما تحت يديك، وملَّكتكَ على قومك .

خرج الرجلان من عند رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، وقدما على باذان، وأخبراه الخبر، فقال لهما: لئن كان ما قال محمَّدٌ حقاً فهو نبيّ -لم يكن وقتها أقمار صناعية، أو محطات بث مباشر، أو محطات وكالات أنباء عالمية، الخبر ينتقل خلال دقائق في العالم، لم يكن لها وجود، الخبر حتى ينتقل يحتاج لأشهر- .

فلم يلبث أن قدم على باذان كتابٌ من شيرويه، وفيه يقول: أما بعد فقد قتلت كسرى، ولم أقتله إلا

انتقاماً لقومنا، فقد استحلَّ قتلَ أشرافهم، وسبيَ نسائهم، وانتهابَ أموالهم، فإذا جاءك كتابي هذا فخذ لي الطاعة ممّن عندك .

فما إن قرأ باذان كتاب شيرويه، حتى طرحه جانباً، وأعلن دخوله في الإسلام، وأسلم من كان معه من الفرس في بلاد اليمن، قال تعالى:

(إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً * وَأَكِيدُ كَيْداً)

(سورة الطارق الآية: 15-16)

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)

(سورة إبراهيم الآية: 46)

ما هي المهمة التي كلف عمر بن الخطاب بها عبد الله وما هي قصة قول عمر حق على كل مسلم أن يقبل رأس عبد الله ؟

أيها الأخوة، لقد كان لقاؤه لقيصر عظيم الروم، في خلافة عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، وكانت له معه قصَّة، من روائع القصص .

ففي السنة التاسعة عشرة للهجرة، بعث عمر بن الخطاب جيشاً لحرب الروم، فيهم عبد الله بن حذافة السهمي، وكان قيصر عظيم الروم قد تناهت إليه أخبار جند المسلمين، وما يتحلّون به من صدق الإيمان، ورسوخ العقيدة، واسترخاص النفس في سبيل الله ورسوله، فأمَرَ رجاله إن ظفروا بأسيرٍ من أسرى المسلمين أن يبقوا عليه، وأن يأتوه به حياً، وشاء الله أن يقع عبد الله بن حذافة السهمي أسيراً في أيدي الروم، فحملوه إلى مليكهم، وقالوا:

((إنَّ هذا من أصحاب محمد السابقين إلى دينه، قد وقع أسيراً في أيدينا، فأتيناك به .

نظر ملك الروم إلى عبد الله بن حذافة طويلاً، ثم بادره قائلاً: إني أعرض عليك أمراً ، قال: وما هو؟

قال: أعرض عليك أن تتنصَّر، فإنْ فعلتَ خلَّيت سبيلك، وأكرمت مثواك، فقال الأسير في أنفةٍ وحزم: هيهات، إن الموت لأحبُّ إليَّ ألف مرة ممّا تدعوني إليه .

قال قيصر: إني لأراك رجلاً شهماً، فإن أجبتني إلى ما أعرضه عليك، أشركتك في أمري، وقاسمتك سلطاني .))

-فخلاصة قضية قيصر أنّ سمعة أصحاب رسول الله ملأت الآفاق، أشخاص أشدَّاء، أقوياء، متعففون، إيمانهم قوي، الدنيا عندهم صغيرة، فلهم سمعة كبيرة، وهو أراد أن يرى من هم هؤلاء؟ فأخذ يعرض عليه كلَّ إغراءٍ- .

فتبسَّم الأسير المكبَّل بقيوده، وقال: واللهِ لو أعطيتني جميع ما تملك، وجميع ما ملكته العرب على أن أرجع عن دين محمدٍ طرفة عينٍ ما فعلت .

-هذا هو الإيمان، الآن من أجل أن يظل رئيس دائرة يبيع دينه، ويترك الصلاة كلها، لا أريد أن يعرفوا عني شيئًا، إذا وضعوه رئيس دائرة مثلاً، لأتفه المكاسب يتخلّى عن دينه- قال : إذًا: أقتلك، قال: أنت وما تريد، ثم أمر به فصُلِب، وقال لقنَّاصته بالرومية:

((ارموه قريباً من يديه، وهو يعرض عليه التنصُّر فأبى، قال: ارموه قريباً من رجليه، وهو يعرض عليه التنصُّر فأبى .

عند ذلك أمرهم أن يكفّوا عنه، وطلب إليهم أن ينزلوه عن خشبة الصلب، ثم دعا بقدرٍ عظيمة، فصُبَّ فيها الزيت، ورُفعت عن النار حتى غلت، ثم دعا بأسيرين من أسارى المسلمين، فأمر بأحدهما أن يُلقى فيها فأُلقي، فإذا لحمه يتفتت، وإن عظامه لتبدو عارية بعد إلقاه، ثم التفت إلى عبد الله، ودعاه إلى النصرانية، فكان أشدَّ إباءً من قبل .

فلما يئس منه، أمر به أن يُلقى في القدر التي أُلقي فيها صاحباه، فلما ذُهِب به دمعت عيناه، فقال رجال قيصر لملكهم: يا سيِّدي إنه قد بكى، فظنَّ أنه قد جزع، فقال: ردّوه إلي، فلما مثُل بين يديه، عرض عليه النصرانية فأباها، قال: ويحك فما الذي أبكاك إذًا، ألم تكن خائفاً؟ قال: واللهِ ما أبكاني إلا أني قلت في نفسي: تُلْقى الآن في هذه القدر، فتذهب نفسك، وقد كنت أشتهي أن يكون لي بعدد ما في جسدي من شعرٍ أنفسٌ، فتُلقى كلُّها في هذه القدر في سبيل الله، فقال الطاغية: هل لك أن تقبِّل رأسي وأخلِّي عنك؟ فقال له عبد الله: وهل تُخلّي عن جميع أسارى المسلمين؟ فقال الطاغية: وعن جميع أسارى المسلمين أيضاً، قال عبد الله: فقلت في نفسي: عدوٌ من أعداء الله، أقبِّل رأسه، فيُخلّي عني وعن أسارى المسلمين جميعاً، لا ضيرَ في ذلك، ثم دنا منه، وقبَّل رأسه، فأمر ملك الروم، أن يجمعوا له أسارى المسلمين، وأن يدفعوهم إليه، فدُفِعوا له، وانطلق بهم إلى المدينة .

قدم عبد الله بن حذافة على عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأخبره خبره، فسُرَّ به الفاروق أعظم السرور، ولما نظر إلى الأسرى، قال: حقٌ على كل مسلمٍ أن يقبِّل رأس عبد الله بن حذافة، وأنا أبدأ بذلك، ثم قام وقبَّل رأسه))

هل يضيع الله أجر من أحسن عملاً ؟

يجب أن تعلموا أيها الأخوة، أن الله سبحانه وتعالى، لا يُضيع أجر من أحسن عملا، اسمعوا هذه الكلمة وصدِّقوها: واللهِ الذي لا إله إلا هو لزوال الكون أهْوَنُ على الله مِن أنْ يضيِّع عمل مؤمن، بل عملك كلُّه

محفوظ، تضحيتك، غض بصرك، إنفاق مالك، قيام الليل، صلاة الفجر، دعوتك إلى الله، نصحك لأخوانك، أمرك بالمعروف، نهيك عن المنكر، تحمُّلكَ المشاق، سهرك في سبيل الله، قال تعالى:

(وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ)

(سورة محمد الآية: 35)

أبداً، فإذا آمنت هذا الإيمان تجد نفسك منطلقاً إلى خدمة الخلق، وإلى بذل الغالي والرخيص، والنفس والنفيس، فترى أن الأعمال الصالحة مغنمٌ كبيرٌ، وترى أن إنفاق المال مغنم كبير، فالذي يرى أن إنفاق المال مغرمٌ فهو لا يعرف الله، والذي يرى أن الراحة مغنم، وبذل الجهد مغرم، فلا يعرف الله، إلى أن ترى أن عملك الصالح في سبيل الله، وهو الذي يرقى بك، وعندئذٍ يمكن أن تكون من المؤمنين .

يجب أن تعلم :

أيها الأخوة الأكارم، الإنسان إذا قرأ سير الصالحين، إذا قرأ سير أصحاب رسول الله رضوان الله عليهم أجمعين، إذا قرأ عن ورعهم، قرأ عن جهادهم، قرأ عن تضحياتهم، قرأ عن حبهم، عن شوقهم إلى الله عزَّ وجل، عن التزامهم، فربنا واحد، فليس لنا عذر إن لم نبذل، والله موجود، وثوابُه يفيض والله عزَّ وجل هو هو، والأعمال الصالحة متاحة لكل إنسان، في أي زمانٍ، وفي أي مكان .

إذا جئت في أيِّ عصر، فمِنَ الممكن أن تطلب العلم، وأنْ تنفق مالك، وأنْ تعلّم، وأنْ تلتزم التزامًا قويًّا، فيجب أن نعلم علم اليقين، أن أبواب الجنة مفتحة في كل عصر، وفرص البطولة متاحةٌ لكل مؤمن، والله سبحانه وتعالى هو هو، في أي زمانٍ وفي أي مكان، لكن أعظم شيء أن يعملَ الإنسان عملاً خالصًا لله وحده .

والحمد لله رب العالمين

السيرة - رجال حول الرسول - الدرس (39-50) : سيدنا زيد الخير
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1993-07-19

بسم الله الرحمن الرحيم

هل ينفع مع الإخلاص لله العمل القليل وهل ينفع مع عدم الإخلاص العمل الكثير ؟

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس التاسع والثلاثين من دروس سير صحابة رسول الله رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، وصحابيُّ اليوم اسمه الذي سماه به أهله زيد الخيل، فلما سأله النبيّ صلى الله عليه وسلم عن اسمه، قال: أنا زيد الخيل، فقال عليه الصلاة والسلام: بل أنت زيد الخير، فسميّ بعد ذلك بهذا الاسم، (زيد الخير)اخترتُ لكم هذه القصة، كي تستنبطوا منها في نهاية المطاف العبرة، فعن معاذ بن جبل أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين بعثه إلى اليمن: أوصني، قال:

((أخلص دينك يكفك القليل من العمل))

[أخرجه الحاكم في المستدرك عن معاذ بن جبل]

فمع الإخلاص لله عزَّ وجل ينفعُ كثيرُ العمل وقليله، ومن دون إخلاصٍ لا ينفع لا كثيرُ العمل ولا قليلُه، قال تعالى:

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً)

(سورة الفرقان الآية: 23)

قال بعض المفسرين: العمل الذي لا إخلاص فيه، لا خير فيه، ومردود على صاحبه .

أيها الأخوة الأكارم، تقْدُمون إلى المسجد، وتغادِرون المسجد، وتصلون الصلوات الخمس، فرقٌ كبيرٌ جداً، بين من هو مخلصٌ لله عزوجل، وهو يرقى، وبين من يرائي الناسَ بصلاته، ودروسه، وسائِر عباداته .

بماذا لقب زيد الخير في الجاهلية؟ واليكم قصته مع ذلك الشيخ الذي يبحث عن الطعام لأهل بيته :

أيها الأخوة، لكن هذا الصحابيّ الجليل، له في الجاهلية اسمٌ كبير، وكان علماً من أعلام الجاهلية، وقصته تؤكّد لكم ثانية صحة قول النبيّ عليه الصلاة والسلام في حديثه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ:

((تَجِدُونَ النَّاسَ مَعَادِنَ خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقِهُوا، وَتَجِدُونَ خَيْرَ النَّاسِ فِي هَذَا الشَّأْنِ أَشَدَّهُمْ لَهُ كَرَاهِيَةً، وَتَجِدُونَ شَرَّ النَّاسِ ذَا الْوَجْهَيْنِ الَّذِي يَأْتِي هَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ وَيَأْتِي هَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ))

[متفق عليه، أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح عن أبي هريرة]

الناسُ معادن، فزيد الخير، أو زيد الخيل، كما كان اسمه سابقاً، يدعُوه الناس في جاهليته زيد الخيل، فقد حكى الشيبانيّ، وهذه القصة منتزعة من كتب الأدب، كيف كانت حياة هذا الإنسان قبل أن يُسلم؟ عن شيخٍ من بني عامر، قال:

((أصابتنا سنةٌ مجدبة، هلك فيها الزرع والضرع .))

-العرب في الجاهلية، مَن هم؟ لا شيء، لقد كانوا فقراء، وعاشوا في الصحراء، كانوا يقتاتون على ما يغنمون في الغزو، وكانوا يقتتلون لأتفه الأسباب، فكان يغزو بعضُهم بعضاً، فسمىَّ الله حياتَهم هذه جاهلية، لأن أساسها الجهل- .

قال: فأصابتنا سنةٌ مجدبة، هلك فيها الزرع والضرع، فخرج رجلٌ منا بعياله إلى الحيرة، وتركهم فيها، وقال لهم: انتظِروني هنا حتى أعود إليكم، ثم أقسم ألا يرجع إليهم، إلا إذا كسب لهم مالاً أو يموت .

-نحن، والحمد لله لم نذق الفقر الذي لا يحتمل، ألا تجد شيئاً تأكله؟ كلُّنا يجد، أمّا أن ترى أهلك وأولادك يتضوَّرون جوعاً، ولا تملك درهماً تشتري لهم به طعامًا فهذه مصيبة الدهر، وقاصمة الظهر، فقد أخرج ابن أبي شيبة والبيهقي عن أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((كَادَ الْفَقْرُ أَنْ يَكُونَ كُفْرًا، وَكَادَ الْحَسَدُ أَنْ يَغْلِبَ الْقَدَرَ))

هذا كلامٌ بليغ، ومن بليغ الكلام أيضًا ما ورد عن سيدنا علي رضي الله عنه حيث قال:

((قِوام الدين والدنيا أربعة رجال، عالمٌ مستعملٌ علمه، وجاهلٌ لا يستنكف أن يتعلم، وغنيٌ لا يبخل بماله، وفقيرٌ لا يبيع آخرته بدنياه، فإذا ضيَّع العالم علمه، استنكف الجاهلُ أنْ يتعلَّم))

إذا رأيت الناس مُعرضين عن الدين، فهل تعلم مَن السبب؟ إنهم الدعاة إلى الله، إن قصَّروا، أو دعوا إلى شيء ولم يطبِّقوه، فهذا تضييع العالم لعلمه، وقد ذكرتُ لكم مرةً أن أبا حنيفة النعمان كان يمشي في الطريق، فرأى غلاماً صغيراً، وأمامه حفرة، فأراد أن ينصحه، فقال:

((يا غلام إياك أن تسقط، كان الغلام على درجةٍ من الذكاء والفطنة، أجابه الغلام: بل أنت يا إمام، إياك أن تسقط، أنا إن سقطتُ، سقطتُ وحدي، وأنتَ إن سقطتَ سقط العالَمُ معك))

لذلك قالوا:

((الورع حسن، لكن في العلماء أحسن، والسخاء حسن، لكـن في الأغنيـاء أحسن، والعدل حسن، لكـن في الأمراءِ أحسن، والحياء حسن، لكن في النساء أحسن، والصبر حسن، لكن عند الفقراء أحسن، والتوبة أمر حسن، لكن في الشباب أحسن))

أجملُ شيءٍ شابٌ تائب، وأجملُ شيءٍ عالمٌ ورع، وحاكمٌ عدل، وغنيٌ سخي، وفقيرٌ صابر، وامرأةٌ صاحبة حياء، وهكذا، فإذا ضيَّع العالمُ علمَه، استنكف الجاهلُ أن يتعلم، لذلك نحن نخشى على الدين لا من أعدائه، فإنّ أعداءه مكشُوفون، ولكن نخشى عليه من أدعيائه، لأن الناس يغترُّون بهم، ويظنونهم على حق، وهم على باطل، لهذا قال عليه الصلاة والسلام:

((ابن عمر، دينك دينك، إنه لحمُك ودمُك، خذ عن الذين استقاموا، ولا تأخذ عن الذين مالوا))

فهذا الرجل الذي ذكره الشيباني، والذي أقسم بالله ألاّ يعود إلى أهله إلا برزقٍ أو يموت جوعاً، فإذا أكرم اللهُ الإنسان بأن يسّر حاجته، كلما شكا ليّ أحدٌ أنّ دخله وسط، أقول له: واللهِ إنّ الله يحبك، لأن دعوة النبيّ أصابتك، النبيُّ عليه الصلاة والسلام، قال:

((اللهم من أحبني، فاجعل رزقه كفافاً))

الإنسان إن كان رزقه يكفي حاجاته، وهو متفرغ لمعرفة الله، فهذا هو الملك، مرة سأل ملِكٌ وزيرَه، فقال: مَن الملك؟ فتحرّج الوزير، ما هذا السؤال؟ ملِك يسأله: مَن الملك؟ فما فهم الوزيرُ مقصدَ الملك، ثم قال له: أنت الِملك، قال له: لا، يا أخي، الِملك رجلٌ لا يعرفُنا، ولا نعرفه ، رزَقَه اللهُ زوجةً ترضيه، وبيتاً يُؤويه، لأنه إنْ عَرَفَنا جَهدَ في الخضوع لنا، وإنْ عرفْناه جَهدْنا في إذلاله، فلا يعرفنا ولا نعرفه .

فإذا كان عقلُ الإنسان كبيرًا، فإنّه يبتعد عن الأضواء، ويبتعد عن الأماكن التي فيها محاسبة شديدة، أحياناً الإنسان يستخدم الكلمة ولا يفقه معناها، يقول لك: فلان مسؤول كبير، ومعناها اللغوي، أنه مسؤول مسؤولية كبيرة، وسَيُسْأَل عنها- .

فهذا الشيخ بلغ من الفقر حداً لا يُحتمل، تزوّدَ زاداً، ومشى يومه كله، حتى إذا أقبل الليل وجد أمامه خِباءً، وبالقرب من الخِباء مُهرٌ مُقيدٌ، يعني فرسًا أصيلة، فقال: هذا أول الغنيمة، وتوجه إليه، وجعل يحُلُّ قيده، فما إن همَّ بركوبه، حتى سمع صوتاً يناديه: خلِّ عنه، واغنمْ نفسك ، فتركه ومضى، فما نجحتْ معه المغامرة، ثم مشى سبعة أيام، حتى إذا بلغ مكاناً فيه مراحٌ للإبل ، وبجانبه خِباءٌ عظيم، فيه قبةٌ من أدمٍ، تشير إلى الثراء والنعمة .

فقال هذا الرجل الشيخ في نفسه: لا بدَّ لهذا المراح مِن إبل، ولا بد لهذا الخِباء من أهل، ثم نظر في الخِباء، وكانت الشمس تدنو من المغيب، فوجد شيخاً فانياً في وسطه، فجلس خلفه، وهو لا يشعر به، وما هو إلا قليل حتى غابت الشمس، وأقبل فارسٌ لم يُرَ قطُّ فارس أعظم منه، ولا أجسم منه، قد امتطى

صهوةً، وحوله عبدان يمشيان عن يمينه وشماله، ومعه نحو مئةٍ من الإبل، أمامها فحلٌ كبير، فبرك الفحلُ، فبركت حوله النُوقُ .

وهنا قال الفارس لأحد عبديه: احلبْ هذه، وأشار إلى ناقةٍ سمينة، واسق الشيخ، فحلب منها حتى ملأ الإناء، ووضعه بين يدي الشيخ، وتنحىَّ عنه، فجرع الشيخ منه جُرعة أو جُرعتين، وتركه، قال الرجل: فدببت نحوه متخفياً، وأخذت الإناء وشربتُ كلَّ ما فيه، فرجع العبد، وأخذ الإناء، وقال: يا مولاي، لقد شربه كله، -يعني والده- فقال الفارس: احلب هذه، وأشار إلى ناقةٍ أخرى، ووضع الإناء بين يدي الشيخ، ففعل العبد ما أمر به، فجرع منه الشيخ جرعةً واحدة وتركه .

قال الرجل: فأخذته وشربت نصفه، وكرهت أن آتي عليه كلّه، حتى لا أثير الشكَّ في نفس الفارس، ثم أمر الفارسُ عبدَه الثاني، بأن يذبح شاةً، فذبحها، فقام إليها الفارس، وشوى للشيخ منها، وأطعمه بيديه، حتى إذا شبع، جعل يأكل هو وعبداه .

وما هو إلا قليلٌ حتى أخذ الجميعُ مضاجعَهم، وناموا نوماً عميقاً له غطيط، ومعروف الغطيط، عند ذلك توجَّهتُ إلى الفحل، والفحلُ إذا تحرّك تحرّكتْ معه النوقُ كلها، فحللتُ عقاله، وركبتُه فاندفع، وتبعته الإبل، ومشيتُ ليلتي، فلما أسفر النهار نظرتُ في كل جهةٍ فلم أرَ أحداً يتبعني، فاندفعت في السير، حتى تعالى النهار، ثم التفتُ التفاتةً، فإذا أنا بشيءٍ كأنه نسرٌ أو طائر كبير، ما زال يدنو مني حتى تبيَّنتُه، فإذا هو فارسٌ على فرس، ثم ما زال يقبل عليَّ حتى عرفت أنه صاحبي جاء ينشد إبله، عند ذلك عقلتُ الفحل، وأخرجتُ سهماً من كنانتي، ووضعتُه على قوسي، وجعلتُ الإبلَ خلفي، فوقف الفارس بعيداً، وقال لي: احْلُلْ عقالَ الفحل، فقلت: كلا، لقد تركت ورائي نسوةً جائِعات بالحيرة، وأقسمتُ ألاّ أرجع إليهن إلاّ ومعي مالٌ أو أموت، قال: إنك ميِّت، احْلُلْ عقال الفحل، لا أبا لك، فقلت: لن أحلّه، فقال: ويحك إنك لمغرور، ثم قال: دلِّ زمام الفحل، أي أرْخ زمام الناقة، وكان فيه ثلاث عقد، ثم سألني في أية عقدةٍ منها تحبُّ أن أضع لك السهم- وفي الحديث عن عُقْبَة بْنِ عَامِرٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ، يَقُولُ:

((وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ))

[أخرجه مسلم في الصحيح عن عقبة بن عامر]

قال له: فأشرت إلى الوسطى، فرمى السهم فأدخله فيها، حتى لكأنما وضعه بيده، أي إنه رامٍ من الطراز الأول، ثم أصاب الثانية والثالثة، عند ذلك عرفتُ قوته، فأعدتُ سهمي إلى الكنانة ، ووقفتُ مستسلماً، فدنا مني، وأخذ سيفي وقوسي، وقال: اركَبْ خلفي، فركبت خلفه، فقال: كيف تظن أني فاعلٌ بك؟ قلت: أسوأ الظن، قال: ولِمَ؟ قلت: لما فعلته بك، وما أنزلتُ بك من عناءٍ، وقد أظفرك الله بي، فقال: أو تظن أني أفعل بك سوءًا، وقد شاركتَ مُهلْهلاً في شرابه وطعامه، ونادمته تلك الليلة، فلما سمعت اسم

المهلهل، قلت: أزيد الخيل أنت؟ قال: نعم، قلت: كن خير آسر ، قال: لا بأس عليك، ومضى بي إلى موضعه، وقال: واللهِ لو كانت هذه الإبل لي لسلّمتها إليك، ولكنها لأختٍ من أخواتي، فأقِمْ عندنا أياماً، فإني على وشك غارةٍ، قد أغنم منها، -هكذا كان العرب في الجاهلية يعيشون- .

((وما هي إلا أيامٌ ثلاثة حتى أغار على بني نمير، فغنم قريباً من مئة ناقة، فأعطاني إياها كلّها، وبعث معي رجالاً من عنده يحمونني، حتى وصلت الحيرة))

هذه قصّته في الجاهلية، فارس من أكابر فرسان العرب، ذو مروءة، شهم، شجاع، رامٍ ممتاز، هذا لا يعنينا، لكن ذكرتُ هذه القصة تمهيداً للقصة الثانية، تلك كانت صورة زيد الخيل في الجاهلية .

لماذا جمع زيد الخير السادة من قومه لزيارة يثرب؟ وماذا صنع النبي حينما رأى هذا الجمع ؟

فقد كتب كتَّاب السيرة، يقولون:

((لمَّا بلغت أخبار النبي صلى الله عليه وسلم، سمع زيد الخيل، ووقف على شيءٍ مما يدعو إليه .))

-فالإنسان أيها الأخوة، إذا بلغه الحق، ولم يستجب له، يعدُّ أحمقَ، لأن هذه الفرصة ربما لا تتكرر، فإذا دُعيتَ إلى الحق فاستجِبْ، لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال الآية:24)

الإنسان قبل أن يعرف الله ميِّت، قال تعالى:

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ)

(سورة النحل الآية: 21)

أما إذا عرف الله عزَّ وجل، فقد أصبح حياً، مثل المؤمن وغير المؤمن كمثل الحيِّ والميِّت .

سأسألكم سؤالاً: لو أن أحداً فتح صندوقَ بريده، فإذا فيه رسالة، فهل مِنَ الممكن أنْ يمزِّقها قبل أن يقرأها؟ هل تجدون في الأرض كلّها إنساناً واحداً يتلقَّى رسالةً، فيمزِّقها قبل أن يقرأها؟ .

أنا أتعجَّب مِن هذا الذي يرفض الإسلام قبل أن يتعلّمه، يرفض الدين قبل أن يطّلع عليه ، يرفض القرآن قبل أن يفهم تفسيره، هذا الذي يرفضُ الدين، أو يرفض القرآن، أو يرفض الإسلام، أو يتّهم الدين بتُهمٍ ما أنزل الله بها من سلطان، قبل أن يتعلّم، قبل أن يتمكن، قبل أن يعلم ، قبل أن يقف على حقيقته، هذا إنسان مجنون، يشبه تماماً ذلك الذي مزّق الرسالة قبل أن يقرأها- أعدَّ راحلته، ودعا السادة الكبراء من قومه إلى زيارة يثرب .

-أيها الأخوة، كل واحد له دور اجتماعي، الأب غير الابن، والمعلّم غير الطالب، والمدير العام غير الموظف، ورئيس الدائرة غير الكاتب، والإنسان كلما علا منصبه، أو علت مرتبته، إن أساء يضاعفْ له العذاب، وإن أحسن يضاعفْ له الثواب .

حتى إنني أقول: هناك حِسابٌ خاص لمن كانوا قادة، الأب إذا أخطأ تبعه أولاده، الأم إذا أخطأتْ، فلم تنضبط بشريعة الإسلام تتبعها بناتها، لذلك فحساب القدوة حسابٌ خاص، يؤخذ هذا من قوله تعالى:

(يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً)

(سورة الأحزاب الآية: 30)

سيدنا زيد الخيل، جمع سادة قومه، ودعاهم إلى زيارة يثرب، ولقاء النبيّ عليه الصلاة والسلام، بالمناسبة في القرآن آية كريمة دقيقة جداً ، قال تعالى :

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

(سورة القصص الآية: 50)

صدقني أيها الأخ الكريم، إذا استقمت على أمر الله استقامة تامة، تلتقي مع أهل الحق لقاءً عفوياً، فتُحبهم، وتثق بهم، وتُصدِّق دعوتهم، تعينهم وأنت لا تدري، إنه تطابق عفوي، أما كل مَنْ يُقيم على معصية، يُعادِيهم من زاوية هذه المعصية، فكلما اتسعت دائرة المعاصي، اتسعت معها دائرة بغضاء أهل الحق، فلو أنّ إنسانًا يأكل الربا، وجلس مع مؤمن، وتحدَّثا في هذا الموضوع، وآكلُ الربا مُصر على عمله، ويقول: أنت لا تفهم في هذا، وأنت مُتزمِّت، واتّهمه بالجهل، وعدم الفهم، إذًا: من أين جاءت هذه العداوة، وهذا التكذيب، وهذا الإنكار؟ من اقتراف المعصية، فإذا أردتَ أن تتعرف إلى أهل الحق فاستقم على أمر الله، فتلتقي معهم لقاءً عفوياً، وتحبهم من أعماق قلبك، لأن المنافق دائماً يكره المؤمن، وكل إنسان يرتكب المعاصي سراً، ويُظهر الطاعة علانية، فهذا إنسان مُنافق، والمنافق دائماً يُبغضُ أهل الإيمان، فإذا تغيَّر قلبك، فاعلم أنه لمعصيةٍ وقعت منك، ما تحابَّ اثنان، ثم افترقا، إلا كان أشدهما حباً لصاحبه أقربهما لله عزَّ وجل، الأقل محبة، هو الأكثر معصية، والأكثر محبة هو الأكثر استقامة- .

ركب زيد الخيل، ومعه وفدٌ كبيرٌ من طيِّئ، فيهم زر بن سدوس، ومالك بن جُبير، وعامر بن جوين، وغيرهم، وغيرهم، فلما بلغوا المدينة، توجَّهوا إلى المسجد النبويّ الشريف، وأناخوا ركائبهم ببابه، وصادف عند دخولهم أن كان عليه الصلاة والسلام، يخطبُ المسلمين على المنبر، من فوق المنبر، - يعني جاؤوا وقت خطبة الجمعة، فراعهم كلامه، وأدهشهم تعلُّق المسلمين به .

أقول لكم بصراحة: أنتم في هذه المجموعة إذا كنتم في محبة شديدة، في مؤاثرة، في تضحية، في مسامحة، كلٌّ منكم يلتمس لأخيه العذر، كلٌّ منكم يحب أن يرقى أخوه، فالحب بين المؤمنين علامة

الإيمان، أما البغضاء، والتحاسد، والطعن، والتشكيك، وإيقاع المشكلات بين المؤمنين، فهذا المجتمع لا يرضى الله عنه، ولا يرضيه، ولا قيمة له عند الله .

يا أيها الأخوة، نحن أسرة، أسرة بكل معنى الكلمة، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ وَلَا يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هَاهُنَا وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنْ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ))

[أخرجه مسلم في الصحيح عن أبي هريرة]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ:

((مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ فِي الدُّنْيَا يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ عَلَى مُسْلِمٍ فِي الدُّنْيَا سَتَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ))

[أخرجه مسلم في الصحيح عن أبي هريرة]

فما أبصرهم النبيّ عليه الصلاة والسلام، -لقد كان النبيُّ فطنًا، والأنبياء كلهم فطِنون- ورأى وفدًا يدخل المسجدَ أول مرة، حتى أدار بعض الكلام وخاطبهم به، فقال:

((إني خيرٌ لكم من العُزَّى، ومن كل ما تعبدون، إني خيرٌ لكم من الجمل الأسود، الذي تعبدونه من دون الله))

-فما الجمل الأسود؟ كل عصر فيه شيء ثمين، الآن يقولون لك: ما ثمن الأخضر اليوم ؟ الناس الآن يعبدون الأخضر من دون الله، أو هذه الخمسمئة، يقول لك: ثمنها اليوم ثمانية ملايين ، هذه يعبُدها الناس من دون الله، الشيء الثمين الغالي، الذي يزهو به الإنسان، هذا شيءٌ يعبده أهل الدنيا من دون الله، ويبدو أن الجمل الأسود، كان أغلى أنواع الجمال- فالنبيّ عليه الصلاة والسلام -تحدّاهم بالشيء الذي تعلقوا به- قال:

((إني خيرٌ لكم من الجمل الأسود، الذي تعبُدونه من دون الله))

وفي زماننا هذا يقول لك قائلٌ: هذه فيلا رائقة، هنيئاً لصاحبها، ثمنها ثلاثون مليونًا، يا أخي مثل الجنة، وإذا كانت مركَبة موديل 2000، هذه كم ($)، يقول لك: يا أخي هذه حقًّا سيارة، أقسم بالله رجلٌ قال: يتمنى أن تدوسَه، واللهِ سمعتها بأذني، من شدّة تعلقه بها، يتمنى أن تمشي فوقه .

فأنت أيها المؤمن، إنْ كنتَ في جلسة، ودخل شخص فلا تهمله، انتبه له، خاطبه، إن رأيته مثقفاً ثقافةً عاليةً، وأنت داعية، حدِّثه بالعلم، بالعلم يخضع، لا تقصَّ عليه منامًا، ولا كرامة، فإنْ يكنْ بقيَ عنده قليلُ اعتقاد بالدين أذْهبْتَه، فلا يجوز أن تُخاطب المُتعلم بأشياء ربما تُبعده عن الدين، كل إنسان خاطبه بلغةٍ يفهمها، فالنبي عليه الصلاة والسلام، وهو يخطب على المنبر، قال ما قاله للقادمين؛ زيد وصحبه .

مرة وهذا فضل الله عزَّ وجل، كنت أخطبُ فدخل أحد المُصلين، أنا حينما أخطب انتبه للحاضرين، فدخل مُصلٍّ وهو أخٌ كريم، مصاب بمرضٍ عُضال، وأنا أعلم أنه على وشك الموت، صدِّقوني لقد أشفقت عليه إشفاقاً كبيراً، وخصصته بحديثٍ خاص، وذكرتُ وقتها حديثاً شريفاً، حينما زار النبيّ أحد أصحابه وكان مريضاً، وقال:

((يا رسول الله، ادعُ الله أن يرحمني، فقال: يا ربّ ارحمه، فحدثنا النبيّ أن الله عزَّ وجل يقول: كيف أرحمه ممّا هو به أرحمه؟ هذه رحمتي، وعزتي، وجلالي، لا أقبض عبدي المؤمنَ، وأنا أحب أن أرحمه، إلا ابتليته بكل سيئةٍ كان عملها، سقماً في جسده، أو إقتاراً في رزقه، أو مُصيبةً في ماله أو ولده، حتى أبلغ منه مثل الذر، فإذا بقي عليه شيء، شددت عليه سكرات الموت، حتى يلقاني كيوم ولدته أمه))

هذا الحديث يُطيب قلب المرضى، ويجبر قلوبهم، ويطمئنهم أن الله يحبهم، وما فعل معهم ما فعل إلا ليطهِّرهم، واللهِ ما إن أتممتُ هذا الحديث، حتى بكى بكاءً شديداً، بكى حباً لله عزَّ وجل، وبعد يومين توفاه الله عزَّ وجل .

هل أثر كلام النبي في قلب زيد وهل شهد شهادة الحق وما هو موقف زر بن سدوس من النبي وماذا حصل بشأن الآخرين ؟

أيها الأخوة، لقد وقع كلام الرسول عليه الصلاة والسلام في نفس زيد الخيل ومَن معه موقعين مختلفين، بعضهم استجاب للحق، وأقبل عليه، وبعضهم تولّى عنه، واستكبر عليه، قال تعالى:

(فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ)

(سورة الشورى الآية: 7)

أما زر بن سدوس فما كاد يرى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في موقفه الرائع، تحُفُّه القُلوب، وتحوطه العيون، حتى دبَّ الحسدُ في قلبه، وملأ الخوف فؤاده، ثم قال لمن معه: إني لأرى رجلاً ليملِكن رقابَ العرب، واللهِ لا أجعله يملك رقبتي أبداً، ثم توجَّه إلى بلاد الشام، وحلق رأسه وتنصَّر:

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)

(سورة الإنسان الآية: 3)

وأما زيدٌ والآخرون، فقد كان لهم شأنٌ آخر، الآن بدأت القصة، فما إن انتهى النبيّ عليه الصلاة والسلام من خطبته، حتى وقف زيد الخيل بين جُموع المسلمين، وكان من أجمل الرجال، وأتمِّهم خلقةً، وأطولهم قامة، حتى إنه كان يركب الفرس، فتمَسُّ رجلاه الأرض، كما لو كان راكباً حماراً، وقف بقامته الممشوقة، وأطلق صوته الجهير، وقال:

((يا محمد، أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، فأقبل عليه النبيّ صلى الله عليه وسلم، قال: مَن أنت؟ قال: أنا زيد الخيل بن مُهلهل، فقال عليه الصلاة والسلام: بل أنت زيد الخير، لا زيد الخيل، الحمد لله الذي جاء بك من سهلِكَ وجبلك، ورقق قلبك للإسلام))

ثم أسلم مع زيد جميعُ مَن صحِبَه مِن قومه .

بماذا شهد رسول الله لزيد في خلقه وبماذا وصفه ؟

فعُرِف بعد ذلك بزيد الخير، يقولون كتاب السيرة:

((ثم مضى به النبيّ عليه الصلاة والسلام إلى منزله، -والنبي علمنا هذا الأدب، فعَنْ مَيْمُونِ بْنِ أَبِي شَبِيبٍ أَنَّ عَائِشَةَ مَرَّ بِهَا سَائِلٌ فَأَعْطَتْهُ كِسْرَةً، وَمَرَّ بِهَا رَجُلٌ عَلَيْهِ ثِيَابٌ وَهَيْئَةٌ فَأَقْعَدَتْهُ فَأَكَلَ، فَقِيلَ لَهَا فِي ذَلِكَ: فَقَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((أَنْزِلُوا النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ))

[أخرجه أبو داود في سننه عن ميمون بن شبيب]

فالقادم عليك أول مرة لا بد أنْ تعرفه، وعليك أنْ تدعوَه إلى بيتك، وأنْ تحترمه، وهذه من حكمة المؤمن- .

مضى به النبي عليه الصلاة والسلام إلى منزله، ومعه عمر بن الخطّاب، ولفيفٌ من الصحابة، فلما بلغوا البيت طرح النبي عليه الصلاة والسلام لزيدٍ متَّكأً .

-أيها الأخوة، أكثر ما أدهشني في هذه القصة هذا الموقف، كم مضى على إسلامه؟ نصف ساعة، أو ربع ساعة، والنبيّ إكراماً له طرح له مُتكأً، وسادة- فعظُم عليه أن يتكئ في حضرة النبيّ عليه الصلاة والسلام، وقال: واللهِ يا رسول الله، ما كنتُ لأتكئ في حضرتك، -هذا هو الأدب، لكنْ متى تعلمه؟ لم يمض على إسلامه ربعُ ساعة، المسلم كلُّه أدب .

أحد العلماء قال لأحد تلاميذه: يا بنيّ نحن إلى أدبك، أحوجُ منا إلى علمك، علامة رُقي الإنسان أدبه- وردّ المُتَّكأ وما زال يُعيده إلى النبيّ، وهو يرُدّه، ولما استقر بهم المجلس، قال عليه الصلاة والسلام لزيد الخير: يا زيد ما وصِف لي رجلٌ قط، ثم رأيته، إلا كان دون ما وصف، إلا أنت .

-يقول لك أحدهم: لقد أقمنا في مكان لا مثيل له، هل لكَ أنْ ترافقنا إليه فنرتع ونسعد؟ يقول لك: فلان قمَّة، تلتقي معه فلا تجد شيئًا مِنَ القمة، فهو أقل دون ما وُصِف بكثير، والإنسان دائماً يبالغ، وهذه طبيعة بشرية، فإذا عاينتَ ما وُصِفَ لك رأيته صغيراً- قال له: يا زيد، إنّ فيك خصلتين، يحبهما الله ورسوله، قال: وما هما يا رسول الله؟ قال: الأناة والحلم .

-هذه صفاتٌ يحبها الله، أمّا هذا الطائش، والعجول، والغليظ، والمتكبِّر، فلا يرتاح إليه الناسُ ، بل مَن كان فيه أناة وحلم فهو المقبول عندهم- فقال زيد الخير وكله أدب: الحمد لله الـذي جعلنـي على ما يُحب الله ورسولـه، ثم التفت إلى النبي عليه الصلاة والسلام، قال: يا رسول الله، أعطني ثلاثمئة فارس، وأنا كفيلٌ لك، بأن أغير بهم على بلاد الروم، وأنال منهم، فأكبر النبيّ عليه الصلاة والسلام، همته هذه، وقال له: لله درُك يا زيد، أيّ رجُلٍ أنت؟! .

-شيء عظيم جدا، أن يحبك رسول الله، وأن يُعجب بك، ولمّا همّ زيدٌ بالرجوع إلى بلاده في نجد ودَّعه النبيّ عليه الصلاة والسلام- وقال بعد أن ودَّعه: أيّ رجُلٍ هذا؟ كم سيكون له من الشأن، لو سلم من وباء المدينة؟))

هل أصاب زيد الخير من المرض الذي كان منتشر في المدينة وأين جاءته المنية وماذا كان همه ؟

أيها الأخوة، كان في المدينة أوبئة، وكانت المدينة المُنورة موبوءةً بالحمى، فما إن برحها زيد الخير حتى أصابته، فقال لمن معه: جنِّبوني بلاد قيس، فقد كانت بيننا وبينهم حماقاتٌ من حماقات الجاهلية، ولا واللهِ لا أُقاتل مسلماً حتى ألقى الله عزوجل، وتابع زيد الخير سيره نحو ديار أهله في نجد، على الرغم من أن وطأة الحمَّى كانت تشتد عليه ساعة بعد أُخرى، فقد كان يتمنَّى أن يلقى قومه، وأن يكتب اللهُ لهم الإسلامَ على يديه، وطفِق يسابق المنية، والمنية تُسابقه، لكنها ما لبثت أن سبقته، فلفَظ أنفاسه الأخيرة في بعض الطريق، ولم يكن بين إسلامه وموته مُتسعٌ.

عن معاذ بن جبل أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين بعثه إلى اليمن: أوصني ، قال:

((أَخْلِصْ دِينَكَ يَكْفِكَ الْقَلِيلُ مِنَ الْعَمَلِ))

[أخرجه الحاكم في المستدرك عن معاذ بن جبل]

هذا سيدنا زيد، لقد كان مُخلصًا، وما عاش بعد إسلامه طويلاً، قد مات في الطريق إلى أهله، فالإنسان عليه أن يُخلص، والمُخلِص في أعلى مقام عند الله عزَّ وجل، ونرجو الله سبحانه وتعالى أن نكون مُخلصين، وأن يبعدنا عن الرياء والنفاق .

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

من هو القائد الذي اختاره سيدنا عمر لفتح الأهواز ؟

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس الأربعين من دروس سير صحابة رسول الله صلى الله علية وسلم، ورضوان الله تعالى عليهم أجمعين، وصحابي اليوم سيدنا سلمةُ بن قيسٍ الأشجعي .

سيدنا الفاروق، عمر رضي الله عنه، الخليفة الراشد الذي قال عنه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَوْ كَانَ بَعْدِي نَبِيٌّ لَكَانَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ))

[أخرجه الترمذي في سننه]

فهذا الصحابي الجليل عملاق الإسلام، قضى ليلةً من الليالي سهران، يعسُّ في أحياء المدينة، يتجوَّل، لينام الناس ملء جفونهم آمنين مطمئنين، وكان خلال تطوافه بين الدور والأسواق يستعرض في ذهنه الأمجاد، الأمجاد من صحابة رسول الله، ليعقد لواحدٍ منهم الراية على الجيش الذاهب لفتح الأهواز .

الأهواز الآن تقع في غرب إيران، هذه بلادٌ شاسعة، لكنها جبلية وعرة المسالك، أزمع سيدنا عمر رضوان الله تعالى عليه أن يفتح هذه البلاد، وجهَّز الجيش، وبقي عليه أن يختار له القائد .

ويا أيها الأخوة، من أسباب نجاح أي قائدٍ حُسْنُ اختياره لقوَّاده، ولأعوانه، لأن البطانة إذا كانت صالحة صلح القائد، ومن الأدعية المأثورة، دعاءٌ بصلاح البطانة:

((اللّهم هيّئ له بطانة خير، تأمره بالخير، وتدلُّه عليه))

فسيدنا عمر رضي الله عنه كان حريصاً حرصاً بالغاً، على أن يختار قوَّاد الجيوش وولاة الأمصار من بين الأبطال الورعين، الأكْفاء، المستقيمين، المخلصين .

وأنت أيها الإنسان، لو عيَّنوك مدير مدرسة، فبطولتك في حسن اختيار المعلمين، إن أحسنتَ اختيارهم، وكانوا مخلصين، أكْفاء، انطلقتْ هذه المدرسة، في أي مجال، وفي أي عمل، في أعمال الحروب، في أعمال العلوم، في أعمال التجارات، في أي مجال، لن تفلح إلا إذا كان حولك أعوانٌ يجمعون بين الكفاءة والإخلاص .

ومن عادة سيدنا عمر، رضي الله عنه أنه إذا عيَّن والياً يكتب له هذا الكتاب:

((خذ عهدك، وانصرف إلى عملك، واعلم أنك مصروفٌ رأس سنتك، وأنك تصير إلى أربع خلال؛ إن وجدناك أميناً ضعيفاً استبدلناك لضعفك، وَسَلَّمَتكَ مِنْ مَعَرَّتِنَا أمانَتُكْ، وإن وجدناك خائناً قوياً، اسْتَهَنَّا

بقوَّتك، وأوجعنا ظهرك، وأحسنَّا أدبك، وإن جمعتَ الجُرمين، جمعنا عليك المضرَّتين، وإن وجدناك أميناً قوياً، زدناك في عملك، ورفعنا لك ذكرك، وأوطأنا لك عقبك))

استنبط هذا الخليفة الراشد، هذين المقياسين، الإخلاص والكفاءة، بالتعبير الحديث، أو الأمانة والقوة، بالتعبير القديم، من قول الله عزَّ وجل:

(قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ)

(سورة القصص الآية: 26)

سيدنا عمر من أسباب نجاحه في الخلافة، أنّه كان يختار ولاة الأمصار، وقوَّاد الجيوش من القمم، فلذلك قال:

((أريدُ رجلاً، إن كان أميراً، بدا وكأنه واحدٌ من أصحابه، وإن كان واحداً من أصحابه بدا وكأنه أمير))

لشدة حرصه وغيرته على مصالح المسلمين .

فالآن سيدنا عمر يريد أن يعيِّن قائداً لجيشٍ يذهب لفتح بلاد الأهواز، ثم ما لبثَّ، أن هتف قائلاً:

((ظفرتُ به، نعم ظفرتُ به إن شاء الله، ولما طلع عليه الصباح، دعا هذا الخليفة العظيم، سيدنا سلمة بن قيسٍ الأشجعي، وقال له: إني وليتك على الجيش المتوجه إلى الأهواز، فسِرْ بسم الله))

ما هي الوصية التي أوصى عمر بها هذا القائد ؟

أيها الأخوة، دققوا في الوصية التي تكتب بماء الذهب، والتي أوصى بها عمرُ هذا القائدَ العظيم، قال له:

((إني وليتك على الجيش المتوجه إلى الأهواز، فسِرْ بسم الله، وقاتلْ في سبيل الله مَن كفر بالله، وإذا لقيتم عدوكم من المشركين فادعوهم إلى الإسلام، فإن أسلموا، فإمّا أن يختاروا البقاء في ديارهم، ولا يشتركوا معكم في حرب غيرهم، فليس عليهم إلا الزكاة، وليس لهم في الفيء نصيب، وإمّا أن يختاروا أن يقاتلوا معكم، فلهم مثل الذي لكم، وعليهم مثلُّ الذي عليكم، فإن أبوا الإسلام، فادعوهم إلى إعطاء الجزية، ودعوهم وشأنهم، واحموهم من عدوهم، ولا تكلّفوهم فوق ما يطيقون، فإن أبوا فقاتلوهم، فإن اللهَ ناصرُكم عليهم، وإذا تحصَّنوا بحصنٍ، ثم طلبوا منكم أن ينزلوا على حكم الله ورسوله، فلا تقبلوا منهم ذلك، فإنكم لا تدرون ما حكم الله ورسوله، وإذا طلبوا منكم أن ينزلوا على ذمة الله ورسوله، فلا تعطوهم ذمة الله ورسوله، وإنما أعطوهم ذممكم أنتم، فإن ظفرتم في القتال، فلا تسرفوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدا .

-هذا الدرس ينبغي أن يوضع بين أيدي الذين يحاربون المسلمين، ويمثّلون في صبيانهم، ويغتصبون

نساءهم، ويذبحون رجالهم، ولا يرقبون فيهم إلاًّ ولا ذمة- قال سلمة: سمعاً وطاعة يا أمير المؤمنين، فودَّعه عمر بحرارةٍ بالغة، وشدَّ على يديه بقوة، ودعا له بضراعة))

لأنَّ عمر كان يقدِّر ضخامة المهمة التي ألقاها على عاتقه، وعاتق جنوده .

ما هي الحرب؟ الحرب أن تضع روحك على كفِّك، فإما أن تعود غانماً، وإما أن تموت شهيداً، كلمة موت عند الجبناء شيء مخيف، لكن المؤمنين، لهم شأنٌ آخر، جادوا بأنفسهم، ولله در القائل:

تجُود بالنفسِ إذْ أنتَ الضَّنينُ بها والجودُ بالنفسِ أقصَى غايةِ الجودِ

ما هي المشكلات التي عانى بها القائد وجيشه من منطقة الأهواز وهل تخلف عن أمر الخليفة عمر وما هي نتائج هذه المعركة ؟

أيها الأخوة، مضى الجيش، وانطلق إلى الأهواز، والذي لا يعرف بلاد الحجاز في الصيف، لا يقدِّر قيمة الجهاد في هذه البلاد، وانظرْ في تعليمات الحجاج عند وجودهم في الديار المقدسة: إياك أن تغادر مقرَّ سكنك إلى البيت الحرام في النهار، لأن الإنسان قد يصاب بضربة شمسٍ قاتلة، وهناك حجاجٌ كثيرون يصابون بضربة شمسٍ مع استعمال المظلة، فكيف إذا انطلق جيش من المدينة ليتجه نحو الشمال، في هذا الحر الشديد؟ .

مضى سلمة بن قيس، على رأس الجيش الغازي في سبيل الله، غير أنهم ما كادوا يتوغَّلون قليلاً في أرض الأهواز حتى دخلوا في صراع مرير مع طبيعتها القاسية، فقد طفق الجيش يعاني من جبالها الوعرة، وهو مُصْعِد، ويكابد من مستنقعاتها الموبوءة، وهو مسهل .

لقد وجدوا أفاعي وعقارب، وجبالاً وعرة، وسهولاً فيها مستنقعاتٌ آسنة، وفيها حشرات ، وأوبئة وأمراض، وأرضًا لا يعرفونها، وعدوًّا يخشون بأسه، وهم خرجوا من الصحراء، من أرضٍ حارةٍ، إلى أرضٍ باردة، هؤلاء هم الصحابة، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ))

[متفق عليه، أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح عن أبي سعيد الخدري]

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُغَفَّلٍ الْمُزَنِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((اللَّهَ اللَّهَ فِي أَصْحَابِي، اللَّهَ اللَّهَ فِي أَصْحَابِي، لَا تَتَّخِذُوهُمْ غَرَضًا بَعْدِي، فَمَنْ أَحَبَّهُمْ فَبِحُبِّي أَحَبَّهُمْ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ فَبِبُغْضِي أَبْغَضَهُمْ، وَمَنْ آذَاهُمْ فَقَدْ آذَانِي، وَمَنْ آذَانِي فَقَدْ آذَى اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَمَنْ آذَى اللَّهَ فَيُوشِكُ أَنْ يَأْخُذَهُ))

[أخرجه الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن مغفل المزني]

أي دعوني وأصحابي .

المؤمن الكامل، لا يستطيع أن يتكلَّم كلمةً واحدةً في حق الصحابة، من أنا؟ متى كان الجنديُّ يقيِّم رؤساء الأركان؟ متى كان الممرضُ يقيم الأطباء الكبار؟ متى كان البائعُ المتجول يقيِّم رؤساء غرف التجارة؟ ومَن نحن حتى نقيِّمهم؟ ومن نحن حتى نوازن بينهم، وبين غيرهم؟ ومن نحن حتى نتقصى أخطاءهم؟ .

كان الصحابة عندما يحاصِرون مدينة محصنة لها سور مرتفع، يرجو أحدُهم أخوانه أن يرفعوه إلى قمة الحصن، ويلقي بنفسه إلى داخله، ومَن بداخله؟ أعداءٌ ألدَّاء، معهم السيوف والرماح، ينتظرونه، كي ينهشوا لحمه بسيوفهم، ويقع هذا الصحابي خلف السور، ويضربه الكفار ، ستةً وثمانين طعنةً في جسمه، ويفتح باب الحصن، ويستشهد، ماذا فعلنا؟ لا نفعل شيئاً، يقولون هذه الأيام: لا نرى مراوح في المسجد، لا يُطاق الدرس بلا مروحة، وفي الشتاء يشكون البرد، ولا تشتغل المدفئات، والمواصلات صعبة، هذا درس فقط، ونزلت كلُّ هذه الشكاوى، مرة المواصلات، مرة المراوح، ومرة التدفئة، ماذا نفعل نحن؟ لا يتحمل الإنسان شيئًا من المشقة .

لذلك هؤلاء الصحابة، رضي الله عنهم، ورضوا عنه، يكفيهم شرفاً أن الله عزَّ وجل اختارهم لصحبة نبيه، اختارهم لصحبة سيِّد الخلق، وحبيب الحق، وشُرِّفوا بأنهم رأوا النبي عليه الصلاة والسلام، وآمنوا به، وعاونوه، وفدوه بأرواحهم .

يا أيها الأخوة، الإيمان يفعل المعجزات، مهما اشتدت المحن، ومهما ضاقت الأمور وتعسَّرتْ، ومهما اكفهرَّت الليالي، واشتدَّت الخطب، إيمان المؤمن أقوى من كلِّ شيء .

فقد كان هذا الصحابي الجليل، والقائد العظيم، يتخوَّل أصحابه بالموعظة، التي تهزُّ نفوسهم هزاً، ويملأ لياليهم بأرج القرآن، فإذا هم مغمورون بضيائه، سابحون في لآلائه، ناسون ما مسَّهم من عناءٍ ونصب .

من يقدر منا الآن أنْ يركب فرسًا، ويمشي في هذه الليالي، من دمشق إلى المدينة وحيداً؟ هكذا كان الصحابة .

النبي عليه الصلاة والسلام، يرسل الصحابي الجليل رسولاً إلى كسرى وحده، الآن تجد الوفد ثلاثين شخصًا، معهم مهمات، طائرات، قاعات شرف، فنادق خمس نجوم، أجنحة، سيارات مع سائقيها، مع مترجمين، الآن هذه المهمة متعة، فيها كلّ شيء، الإكرام شديد، والتعويضات باهظة، واستقبال، وولائم، يقول لك: غداء عمل، أي عمل هذا؟ فلذلك:

((لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ))

[متفق عليه، أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح عن أبي سعيد الخدري]

امْتَثَل سلمة بن قيس لأمر خليفة المسلمين، فما إن التقى بأهل الأهواز حتى عرض عليهم الدخول في دين الله، فأعرضوا ونفروا، دعاهم إلى إعطاء الجزية فأبوا واستكبروا، فلم يبق أمام المسلمين غير

ركوب الأسنة، فركبوها مجاهدين في سبيل الله، راغبين بما عنده من حسن الثواب، ودارت المعاركُ حامية الوطيس، مستطيرة الشرر، وأبدى فيها الفريقان مِن ضروب البسالة ما لم تشهد له الحروب نظيراً، إلا في القليل النادر، ثم ما لبثت أن انجلت المعارك عن نصرٍ مؤزَّر للمؤمنين المجاهدين، وهزيمةٍ منكرةٍ للمشركين أعداء الله .

ما الهدية التي أرسلها سلمة بن قيس الأشجعي إلى خليفة الإسلام عمر بن الخطاب ؟

أيها الأخوة، ولما وضعت الحرب أوزارها، بادر سلمة بن قيس إلى قسمة الغنائم بين جنوده، ومن بين هذه الغنائم حِلية نفيسة جداً، فهذا الصحابي، هذا القائد المخلص، المحب، المؤمن ، الورع، لما رأى هذه الحلية النفيسة، أحبَّ أن يُتْحِف بها أمير المؤمنين، وأن يقدِّمها هدية من الجنود جميعاً لأمير المؤمنين، فما دامت هذه الحلية من حق الجنود، فلا بدَّ أن يستأذنهم، فقال للجنود:

((إن هذه الحلية، لو قسِّمت بينكم، لما فعلتْ معكم شيئاً، فهل تطيبُ أنفسكم إذا بعثنا بها إلى أمير المؤمنين؟ .

-ماذا فعل هذا الصحابي؟ هل ارتكب جريمة؟ لقد قدَّم للخليفة هدية من حقه، ما دامت من حقِّ الجنود جميعاً، وقد استأذنهم- فقالوا مِن دون تردد جميعا: نعم .

فجعل الحليَة في سفطٍ، ما هو السَّفط؟ -صندوق- وندب رجلاً من قومه، من بني أشجع، وقال له: امض إلى المدينة، -مِن أين؟ من الأهواز إلى المدينة- اذهبْ وحدك، أنت وغلامك، وبشِّر أمير المؤمنين بالفتح، وأطرفْهُ بهذه الحلية))

أي قدم له هذه الهدية .

ماذا وجد رسول سلمة عمر يفعل حينما وصل إليه، وكيف استقبله، وما هي الأسئلة التي طرحها عمر على الرسول ؟

أيها الأخوة، فكان للرجل مع عمر بن الخطاب خبرٌ فيه عبرٌ وعظات، مضيتُ أنا وغلامي إلى البصرة، فاشترينا راحلتين، مما أعطانا سلمة بن قيس، وأوقرناهما زاداً، ثمَّ يمَّمنا وجوهنا شطر المدينة، فلما بلغناها نشدتُ أمير المؤمنين، أي طلبته، بحثت عنه، فوجدته واقفاً يغذِّي المسلمين، طبعاً فقراء المسلمين، وهو متكِّئ على عصاه كما يصنع الراعي، وكان يدور على القِصاع، وهو يقول لغلامه يرفأ:

((يا يرفأ، زدْ هؤلاء لحماً، يا يرفأ، زد هؤلاء خبزاً، يا يرفأ، زد هؤلاء مرقة .))

-سيدنا الصديق رضي الله عنه، كانت له جارة عجوز عندها شاة، فكان يحلبها لها، فلما صار خليفة، حزنتْ لأن هذه الخدمات لن تستمر، لقد أصبح خليفة، وفي اليوم التالي طرق باب الجارة، وقالت

لابنتها: يا بنيَّتي افتحي الباب، فلما فتحت الباب، قالت: مَن الطارق يا بنيتي؟ قالت : جاء حالب الشاة يا أمّاه، وهو خليفة المسلمين- .

((فلما أقبلتُ عليه، قال: اجلس، فجلست في أدنى الناس، وقدَّم لي الطعام، فأكلْتُ لحمًا، وسيد الطعام اللحمُ، فلما فرغ الناس من طعامهم، قال: يا يرفأ ارفع قِصاعك، ثم مضى فتبعته، فلما دخل داره استأذنتُ عليه بالدخول، فأذن لي، فإذا هو جالسٌ على رقعةٍ من شعر، أي جلد شعر، نصفه قد قُطِع، ونصفه ما زال موجودًا، متكئٌ على وسادتين من جلدٍ محشوَّتينِ ليفاً، فطرح إلي إحداهما، فجلست عليها، وإذا خلْفه سترٌ، فالتفتَ نحو الستر، وقال: يا أم كلثوم، ائتنا بغدائنا، فقلت في نفسي: ما عسى أن يكون طعام أمير المؤمنين الذي خصَّ به نفسه؟ .

قال: فناولته خبزةً بزيتٍ، عليها ملحٌ لم يدق، ملح خشن، فالتفتَ إليَّ، وقال: كُلْ، فامتثلت، وأكلت قليلاً، وأكل هو، قال: فما رأيت أحداً أحسن منه أكلاً، ثم قال: اسقونا، فجاءوه بقدحٍ فيه شرابٌ من سويق الشعير، نقيع الشعير، فقال: أعطوا الرجل أولاً، فأعطوني، فأخذت القدح، فشربت منه قليلاً، ثم أخذه وشرب حتى روي، ثم قال: الحمد لله الذي أطعمنا فأشبعنا، وسقانا فأروانا .

عند ذلك، التفت إليه، وقلت: يا أمير المؤمنين، جئتك برسالةٍ من عاملك سلمة، قال: مِن أين؟ قلت: من عند سلمة بن قيس، قال: مرحباً بسلمة بن قيس، ومرحباً برسوله، حدِّثني عن جيش المسلمين، فقلت: كما تحب يا أمير المؤمنين، السلامة والظَّفَرُ على عدوهم، وبشَّرته بالنصر، وأخبرته خبر الجيش جملةً وتفصيلاً، هذه هي المهمة الأولى .

فقال: الحمد لله أعطى فتفضَّل، وأنعم فأجزى، ثم قال: هل مررت بالبصرة؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين، قال: كيف المسلمون؟ قلت: بخيرٍ من الله، قال: كيف الأسعار؟ قلت: بخير، قال : وكيف اللحم؟ قلت: اللحم شجرة العرب، واللحم كثيرٌ وفير))

ما هو موقف الخليفة عمر حينما رأى هذه الهدية، وبماذا أمر الرسول أن يفعل بالهدية، وعلام يدل موقف الخليفة ؟

أيها الأخوة، قال:

((ما هذا الذي بيديك؟ قلت: يا أمير المؤمنين، لما نصرنا الله على عدونا، جمعنا الغنائم، فرأى سلمة فيها حلية، فقال للجند: إن هذه لو قسِّمت عليكم لما بلغت منكم شيئاً، فهل تطيب نفوسكم، إذا بعثت بها لأمير المؤمنين؟ فقالوا: نعم، ثم دفعت إليه بالسفط .

فلما فتحه، ونظر إلى ما فيه، من بين أحمر وأصفر وأخضر، وثب من مجلسه، وجعل يده في خاصرته، وألقى بالسفط على الأرض، فانتثر ما فيه، ذات اليمين، وذات الشمال، فظنَّ النساء، أنني أريد قتله .

ثم قال: قم غير محمودٍ لا أنت ولا صاحبك، قلت: ائذن لي بمركبٍ يحملني أنا وغلامي إلى الأهواز، فقد أخذ غلامك راحلتي، قال: يا يرفأ، أعطني راحلتين من إبل الصدقة، له ولغلامه، ثم قال لي: إذا قضيت حاجتك منهما، ووجدتَ مَن هو أحوج لهما منك فادفعهما إليه، -يعني الراحلتين- قلت: أفعل هذا يا أمير المؤمنين، ثم التفت إليَّ، وقال: أمَا واللهِ، لئنْ تفرَّق الجند قبل أن يقسم فيه هذا الحلي، لأفعلن بك وبصاحبك الفاقرة .

فمضيتُ من توئي حتى أتيت سلمة، وقلت له: ما بارك الله لي فيما خصصتني به، أقسم هذا الحلي في الجند قبل أن تحلَّ بي وبك داهية، وأخبرته الخبر، فما غادر مجلسه إلا بعد أن قسمه فيهم))

طبعاً سيدنا عمر، لولا أن يكون بهذا الورع، وهذه الشدة، وذلك الحزم، لما أكرمه الله ذلك الإكرام، قال عليه الصلاة والسلام:

((الإيمان عفّة عن المطامع، عفّة عن المحارم))

متى نستحق النصر من عند الله ؟

أيها الأخوة، لا تنسوا أنّ ركعتين من ورع، خيرٌ من ألف ركعةٍ من مخلّط، والإيمان عفة عن المطامع عفةٌ عن المحارم، والإنسان لا يرقى عند الله بعلمه، بل يرقى باستقامته، ولا يرقى بعباداته، بل يرقى بورعه، وهؤلاء الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين كانوا من الورع والخوف مِنَ الله في مكانٍ عليّ، ولولا أنهم كانوا كذلك لما قدَّر الله على أيديهم النصر .

فإذا أردتم أن ترقوا عند الله عزَّ وجل، وأن تستحقوا نصر الله وتأييده، وأن يكون الدين مسعداً لكم، وأن يجري الخير على أيديكم، فعليكم بالورع والعفة، فهما أساس هذا الدين .

الدين له مظاهر، وله جوهر، جوهر الدين الاستقامة والعمل الصالح، والاستقامة والعمل الصالح، لا يمكن أن يُبْنَيَا إلا على معرفة الله عزَّ وجل .

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

من هو الصحابي الذي حظه الله بأن يكون ناطقاً رسمياً للنبي وهل ينبغي على المسلم أن يتعلم اللغة العربية

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الواحد والأربعين من دروس سير صحابة رسول الله، وصحابي اليوم سيدنا ثابت بن قيس الأنصاري .

لحكمةٍ بالغة اختار اللهُ سبحانه وتعالى للنبي عليه الصلاة والسلام أصحابه، هم قِمَمٌ في البطولة، لكن البطولات منوَّعة، وهذا الصحابي الجليل كان الناطق الرسمي باسم النبي عله الصلاة والسلام، كان خطيبه، أي آتاه الله قدرةً بيانية، والإنسان يحتاج إلى أن يكون متمكناً من اللُّغة، لأنها قالب المعاني، والمعاني لا يمكن أن توصلها إلى الناس إلا بقالبٍ مقبول .

فإذا اختار أحدكم أن يكون داعية إلى الله عزَّ وجل، وهي صنعة الأنبياء، وهي أشرف عملٍ على وجه الأرض، لا بدَّ له إضافة إلى إيمانه، وتوحيده، وإخلاصه، واتصاله، وعباداته، وأوراده، وبذله، وتضحيته، وانضباطه، إضافةً إلى كلِّ ذلك، لا بدَّ له من بيان، لذلك كما قال سيدنا عمر:

((تعلموا العربية فإنها من الدين))

فأحياناً في مَجْمع كبير، مهما كنت متّقد الإيمان، ومهما كنت شديد الإخلاص، إن لم تكن متمكناً من اللُّغة فلن تستطيع أن تنقل أفكارك الدقيقة، ومشاعرك الإيمانية، ولا أن تؤثِّر في الآخرين، فهذه اللُّغة علم الأدوات، فحينما تريدُ أن تنطق بالحق فلا بدَّ لك من أداة، إنما هي اللُّغة، لذلك فالذي يبذل جهداً في تعلمُّ اللُّغة، وتعلم تلاوة القرآن، فله ثوابه عند الله تعالى، ويجب أن تتلو القرآن تلاوةً صحيحة، ويجب أن تتكلم بلغةٍ صحيحة، مبدئياً صحيحة، وبعد قليل نقول لك: لا بدَّ من لغةٍ أدبية .

قال أحدهم: تكاثرتْ عليَّ المصائبُ، وهذا كلام فصيح، وقال المتنبِّي:

رماني الدهرُ بالأرزاءِ حتى فؤادي في غشاءٍ من نبــال

فصرتُ إذا أصابتني سهـامٌ تكسَّرَتِ النِّصالُ على النِّصالِ

هذه صورة أدبية، والتعبير إما أن يكون تعبيراً مبتذلاً، عامِّياً، سوقياً، وإما أن يكون تعبيراً صحيحاً، وإما أن يكون تعبيراً أدبياً، فنحن قبل كل شيء، نطالب الأخوة الذين يطمحون إلى أن يكونوا دعاةً إلى

الله عزَّ وجل، أن يمتلكوا قدرةً بيانية، أن يكون تعبيرهم صحيحاً فصيحاً، إذا أتقنوا هذه الناحية، نطالبهم أن يرقوا بمستوى لغتهم إلى المستوى الأدبي .

فسيدنا ثابت بن قيس، هذا الصحابي الجليل كان خطيب النبي عليه الصلاة والسلام، فكلما كانت تأتيه الوفود، ويتبارون أمامه بشِعرهم وخطاباتهم، يدعو النبيُّ الكريمُ سيدَنا ثابت بن قيس ليقف خطيباً ينطق باسم النبي عليه الصلاة والسلام .

ولا أزال أعيد وأكرر؛ إنّ كل الحظوظ التي يمكن أن يؤتيك الله إياها، ابتداءً من وسامتك، ومن طول قامتك، ومن نصاعة لونك، ومن رجاحة عقلك، ومن طلاقة لسانك، ومن كثرة مالك، ومن أي حظٍ يؤتيك الله إياه، هذه الحظوظ، إما أنها درجاتٌ ترقى بها إلى أعلى علّيّين ، وإما أنها دركاتٌ تهوي بها إلى أسفل سافلين .

فلذلك تعلموا العربية فإنها من الدين، وإنّه لشيء عظيم جداً أن تتقن لغة القرآن، ولا تعرف هذه النعمة إلا إذا التقيتَ بمسلمٍ من بلدٍ لا ينطق بالعربية، أنت تستمع إلى اللُّغة العربية، وإلى القرآن الكريم، وإلى الحديث الشريف بيُسْرٍ وراحةٍ، من دون عناءٍ ولا جهدٍ، وغيرك يتلوَّى على أن يفهم معنى هذه العبارة، لذلك هؤلاء العرب الذين جعلهم الله أمةً وسطى، فالذي ولد في بلدٍ عربي، ونشأ على اللُّغة العربية، فهذه نعمةٌ لا تقدَّر بثمن، فعليه أن يصقل لغتَه صقلاً، وأن يهذّبها، وأن يطلب العلم .

إذا وَجد أخ مؤمن عنده كتابًا صغيرًا في اللُّغة العربية، في تيسير قواعد الُّلغة العربية، ألا يخطُر في باله أن يَسأل: ما الفرق بين قط، وبين أبداً؟ لن أفعل هذا قط، غير صحيح، ما فعلت هذا أبداً، غير صحيح، قطُّ تستغرق الزمن الماضي، ما فعلته قط، ولن أفعله أبداً، ألم يخطر ببالك أن تعرف الفرق بين (نعم، وبلى)؟ فرقٌ كبير:

(أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ)

(سورة الأعراف الآية: 172)

إذا قالوا: نعم، فقد كفروا، (نعم)أي لست ربنا، أما إذا قالوا: (بلى)، أي أنت ربُنا، (فنعم)تثبت النفي، و(بلى)تنفي النفي، ونفي النفي إثبات، فرقٌ كبير بين نعم وبين بلى، فرقٌ كبير بين (إذا)وبين (إن)، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا)

(سورة الحجرات الآية: 6)

(إنَّ)، تفيد احتمال الوقوع، لكن (إذا)تفيد تحقق الوقوع، أي:

(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ)

(سورة النصر الآية: 1)

لا بدَّ أنْ يأتي نصرُ الله، أما:

(إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا)

(سورة الحجرات الآية: 6)

فقد يأتي وربما لا يأتي، ألا تشتاق إلى معرفة معاني الأدوات؟ ماذا تعني (أنَّى):

(نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ)

(سورة البقرة الآية: 223)

ينبني على معرفة معنى (أنى) حكمٌ شرعيٌ دقيقٌ دقيق، خاصٌ خاص، لا بدَّ للزوج أن يعرفه . لذلك فهناك كتب في معاني الأدوات، نحن درسنا في الجامعة ثمانية وأربعين حالة لـ : ما، وهذا الكتاب اسمه (مُغني اللبيب عن كتُب الأعاريب)لابن هشام النحوي، فأحد أجزائه في معاني أدوات اللغة العربية، جزء بكامله منه، أربعمئة صفحة أو أكثر، تتحدَّث عن أدوات اللغة العربية، فالأدوات بعضُها حروف وبعضها أسماء، فهذه لغتكم، ولغة آبائكم وأجدادكم، هذه لغة نبيِّكم عليه الصلاة والسلام، هذه لغة القرآن، فتعلُّم العربية واجبٌ دينيّ، لأن فهم القرآن يحتاج إلى لغة، والنطق في تفسير القرآن يحتاج إلى لغة، فأكثر الناس يقول لك في قوله تعالى:

(وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ)

(سورة البقرة الآية: 282)

يعنون: إذا تتقي الله يعلّمك الله، ليس هذا هو المعنى المقصود إطلاقاً، هذا معنى غير صحيح، لو أن الله قال:

(واتقـوا الله يعلِّمْكُم الله)

لصحَّ المعنى، انظرْ إلى الفرق بين : يعلِّمُكُم - بضمِّ الكاف - وبين يعلّمكـم - بسكون اللام - لأنه لو قال الله: اتقوا الله يعلّمكم، لصار اتقوا فعلَ طلب، ويعلّمكم جواب الطلب، مجزوم لوقوعه جواباً لطلب، أما: اتقوا الله، ثم استئناف: ويعلِّمُكُمُ الله، أي الله يعلّمكم دائماً، علّمكم بالكون، وبالعقل، وبالقرآن، وبالدعاة، وبالعلماء، وبالأحوال النفسية، وبالأحداث، ما دام الله يعلّمكم دائماً، فلِمَ لا تتقون الله عزَّ وجل؟ هذا هو المعنى .

فالإنسان أحياناً يشعر بأمسِّ الحاجة لفهم خصائص اللغة، ذات مرة أحد المتعهدين استلم مشروعًا، فلمَّا تسلَّم أصحاب المشروع التعهُّد، خصموا منه خمسمئة ألف ليرة، فأقام عليهم دعوى، واحتجَّ بحرف (من)، ففي دفتر الشروط كتب عليه أن يقدِّم من أجود المواد، فقال: اسألوا مجمع اللغة العربية، هل تعني من أجود المواد أن أقدِّم أجود المواد؟ هذه من: للتبعيض، وربح الدعوى، واسترد المبلغ بشرح حرف (من)الذي كان معناه في النص التبعيض، أيْ بعض .

كلُّكم يعلم هذا القرار الذي أصدره وزير الخارجية البريطاني: على إسرائيل أن تنسحب من أراضٍ احتُلَّت، ترجمت إلى العربية: من الأراضي المحتلَّة، العرب وافقوا على هذا القرار، لأنه ينصُّ على أن إسرائيل عليها أن تنسحب من كل الأراضي المحتلَّة، والترجمة الإنكليزية أن تنسحـب من أراضٍ، فهذا التنكيـر للتبعيض، اختلف المعنى من الأرض إلى السماء، فاللغة العربية دقيقة جداً .

وأنا الآن لست في معرض بيان دقائق هذه اللغة، فهو بحثٌ ممتعٌ وطويلُ، فأحياناً حرف واحد يغيِّر المعنى تغييراً جذرياً، ألم يسأل الحَجَّاج شخصًا قائلاً له: من أنا؟ قال له: أنت قاسطٌ عادل، فسأل أصحابه: أتدرون ماذا قال لي؟ قالوا له: مدحك، قال: لا، بل قال لي: أنت ظالمٌ كافر، قالوا: وكيف؟ قال: قال تعالى:

(وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً)

(سورة الجن الآية: 15)

المُقسِط هو العادل، أما القاسط فهو الظالم، أما عادل، فقد قال تعالى :

(ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ)

(سورة الأنعام الآية: 1)

أي عدلوا عن الإيمان إلى الكفر، فهو عادلٌ قاسط .

على كلٍّ، من علامات إيمان الإنسان، أن يحبَّ اللغة العربية، وأن يحبَّ أهلها، وأن يتعلَّم قواعدها؛ نحوها، وصرفها، وأوزانها، وهذا شيء ممتع، لكني أرى بعض الأخوة، وأشعر أن إيمانهم قوي، وفيهم إخلاص، ولديهم عاطفة جيَّاشة، لكن إذا أرادوا أن يتكلَّموا وجدت كلامهم مضطَّربًا، وعباراتهم غير صحيحة، وجملهم غير متماسكة، لذلك كمن يقدِّم شراباً نفيساً بالتعبير العامي(بكيلة مصدِّية)لا يُشرَب بها، شراب نفيس يُقَدَّم في وعاء قميْ، صدئ، قديم، بشع، لكن هذا الذي يقدِّم أثمن شراب بكأسٍ فضّي مثلاً فهو المناسب، فلا بدَّ أن يتناسب المضمون مع الشكل ، أنت صاحب دعوة، وأنت مؤمن، فلا بدَّ أن يكون كلامك موزوناً، لذلك: تعلَّموا العربية، فإنَّها من الدين .

كيف أسلم ثابت بن قيس الأنصاري وما هي الميزة التي كان يتمتع بها قبل إسلامه ؟

أيها الأخوة، ثابت بن قيس الأنصاري، سيدٌ من سادات الخزرج المرموقين، ووجهٌ من وجوه يثرب المعدودين، وكان إلى ذلك ذكيَّ الفؤاد، حاضر البديهة، رائع البيان، جهير الصوت، إذا نطق بزَّ القائلين.

هذا ابن المقفَّع يصف صديقه، فقال:

((لي صديقٌ كان من أعظم الناس في عيني، وكان رأس ما عظَّمه في عيني صِغر الدنيا في عينيه، فكان خارجاً عن سلطان بطنه، فلا يشتهي ما لا يجد، ولا يُكثر إذا وجد، وكان خارجاً عن سلطان الجهالة، فلا يتكلَّم بما لا يعلم، ولا يماري فيما عَلِم، وكان أكثر دهره صامتاً، فإذا تكلَّم بزَّ القائلين، وكان يُرى ضعيفاً مستضعفاً، فإذا جدَّ الجِدُّ فهو الليث عادياً، وكان لا يدلي بحجَّةٍ، إلا إذا رأى قاضياً فَهْماً، وشهوداً عدولاً، فعليك بهذه الأخلاق، فإن لم تستطع، فإن أخذ القليل خيرٌ من ترك الكثير))

بالمناسبة، على كل مؤمن أنْ يعلم أنه سفير هذا الدين، فعلى مستوى سفراء يعمل، فهل لاحظت ذات مرة أن سفيراً اشترى ثوبًا من سوق الألبسة المستعمَلة؟ في اللقاءات والاجتماعات والمؤتمرات، تجد أناقة كاملة مئة بالمئة، لماذا؟ هل يمثّل شخصه؟ لا، فهو يمثّل دولته، السفير في الأساس سيارته التي يركبها عليها علم، ما معنى ذلك؟ أن في داخلها السفير، إذا وجد العلم يكون السفير موجوداً ضمن السيارة، ولماذا ذكرت هذه الكلمة؟ لأنّ كل مؤمنٍ في الحقيقة سفير هذا الدين، فمظهرك الخارجي مهم جداً، وأنت كمسلم هل تليق الفوضى بدكانك، يعلوها غبار واضطراب وقذارة؟ هذا لا يجوز، أنت تمثّل هذا الدين، مكتبك، دكانك، سبُّورتك، خطّك، أُضيف إلى ذلك: أن تحسين الخط من الدين، بعض الأطباء لا تفهم من خطه شيئًا، قال عليه الصلاة والسلام:

((أنت على ثغرة من ثغر الإسلام، فلا يؤتَيَنَّ من قِبلك))

فهذا سيدنا ثابت، أحد السابقين إلى الإسلام في يثرب، إذ ما كاد يستمع إلى آيات القرآن يرتِّلُها الداعية المكّي الشاب مصعب بن عمير، بصوته الشجي، وجرْسه الندي، حتى أَسَرَ القرآنُ سمعَه بحلاوة وقعه .

فإذا أكرمكم الله، وتعلَّمتم التجويد، يمكنك أنْ تقرأ وترتل، فهو أجمل على قلبك، فالإنسان أحياناً يطرب لنفسه، فأجمل ساعات حياته يمضيها وهو يرتّل القرآن ترتيلا، فقد كان بعض أصحاب النبي إذا تلا كتاب الله بكى، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: قَالَ لِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((اقْرَأْ عَلَيَّ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَقرأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ، قَالَ: نَعَمْ، فَقَرَأْتُ سُورَةَ النِّسَاءِ حَتَّى أَتَيْتُ إِلَى هَذِهِ الْآيَةِ، فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا؟ قَالَ: حَسْبُكَ الْآنَ، فَالْتَفَتُّ إِلَيْهِ فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ))

[متفق عليه، أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح عن عبد الله بن مسعود]

فأحد أكبر مصدر للسعادة أن تتقن قراءة القرآن، والعلم في الصغر كالنقش في الحجر ، والعلم في الكِبر كالكتابة على الماء، وهذا الكلام للشباب، تعلَّموا تجويد القرآن، فالحمد لله الأمور ميسَّرة، فلا يوجد

جامع إلا وفيه معهد لتحفيظ القرآن، وأساتذة، وتحفيظ، وتجويد، وتسميع ، فالآباء والأبناء عليهم أن يبادروا إلى تعلُّم تجويد القرآن وتسميعه .

كان هذا سبب إسلامه أنه استمع إلى صوت سيدنا مصعب بن عمير يتلو القرآن الكريم بصوتٍ شجيّ، القرآن له سحر، القرآن له أسْرٌ، أما إذا قُرئ قراءةً غير صحيحة فقد أفقد المسلمُ قوة القرآن في تأثيره، فهل هناك شكّ أن المسلم تأتي عليه ساعة، وهو يستمع إلى كتاب الله فيذوب ذوباناً؟ قال تعالى:

(وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً)

(سورة الأنفال الآية: 2)

هذا كلام الله عزّ وجل، فأنا أكاد أقول: ما من ساعةٍ أمتع في حياة المؤمن، من ساعةٍ يقرأ فيها كتاب الله، أو يستمع إلى كتاب الله من صوتٍ شجيٍّ، فيتفاعل، طبعاً إذا كان مستقيمًا، ومصطلحًا مع الله، وتائبًا، ومنيبًا، فالقرآن يحرِّك أعمق مشاعره .

كيف استقبل ثابت ومن معه من قومه رسول الله وصاحبه الصديق حينما قدما إليهم، وهل وظف ثابت لسانه في سبيل الحق ؟

أيها الأخوة، لمَّا قدم النبي عليه الصلاة والسلام إلى المدينة مهاجراً استقبله ثابت بن قيس في كوكبةٍ كبيرة من فرسان قومه أكرمَ استقبال، ورحَّب به وبصاحبه الصديق أجملَ ترحيب ألا تلاحظون هذا الأدب الرفيع الذي يتخلّق به أصحاب رسول الله؟ .

سيدنا زيد الخير، ما مضى على إسلامه إلا دقائق، حتى دفع النبيُّ له وسادةً ليتَّكئ عليها، فقال زيد:

((والله يا رسول الله! ما كان لي أن أتكئ في حضرتك))

الدين كلُّه أدب، في الحركة، في السكون، في الوقوف، فأنا بالأمس في جامع النابلسي، وفي أثناء الدرس رأيت أخًا، لا أعرفه، وقد يكون أول درس يحضره، رأيته قاعدًا ومادًّا رجليه، ومرتاح تماماً، وموسعًا بينهما كثيراً، وكأنه يقعد في بستان، ألم ينتبهْ أنّ هذا مسجد، فالنبي عليه الصلاة والسلام: ما رؤي مادًّا رجليه قط .

هذا سيِّد الخلق، طبعاً إذا كان معذورًا، فهذا بحث آخر، فالمعذور على العين والرأس، كيفما أراد فليجلس، ولو أحب أن يجلس على كرسي، أو لو أحب على الأرض، أو على طاولة، فكيفما أحب فليجلسْ، فالمعذور معذور، فعَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ صَفِيَّةَ زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخْبَرَتْهُ أَنَّهَا جَاءَتْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَزُورُهُ فِي اعْتِكَافِهِ فِي الْمَسْجِدِ، فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ، فَتَحَدَّثَتْ عِنْدَهُ ساعة، ثُمَّ قَامَتْ تَنْقَلِبُ فَقَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَهَا يَقْلِبُهَا، حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ بَابَ الْمَسْجِدِ عِنْدَ بَابِ أُمِّ سَلَمَةَ، مَرَّ رَجُلَانِ مِنْ الْأَنْصَارِ فَسَلَّمَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ لَهُمَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((عَلَى رِسْلِكُمَا إِنَّمَا هِيَ صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ، فقالا: سُبْحَانَ اللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَكَبُرَ عَلَيْهِمَا، فقالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ الشَّيْطَانَ يَبْلُغُ مِنْ الْإِنْسَانِ مَبْلَغَ الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَيْئًا))

[متفق عليه، أخرجهما البخاري ومسلم عن علي بن الحسن في الصحيح]

وهناك ظاهرة أخرى آلمتني؛ لدينا في جامع النابلسي ديوانان، وعدد مِنَ الكراسي، أحياناً أُفاجأ أن شباباً في ريعان شبابهم يجلسون في هذه الأماكن، والأخوة المعذورون الذين تؤلمهم ظهورهم ليس لهم مكان، فإذا أتم الله على أحدكم بنعمة الشباب والحيوية والنشاط، فليس له أي حق في أن يحتل هذه الأمكنة المريحة جداً، أليس كذلك؟ .

خطب زيد بن ثابت بين يدي النبي عليه الصلاة والسلام خطبة بليغة، افتتحها بحمد الله عزَّ وجل، والثناء عليه، والصلاة والسلام على نبيِّه، واختتمها بقوله:

((وإنا نُعاهدك يا رسول الله، على أن نمنعك مما نمنع منه أنفسنا، وأولادنا، ونساءنا، فما لنا لقاء ذلك؟ فقال عليه الصلاة والسلام: الجنَّة- الدليل:

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ)

(سورة التوبة الآية: 111)

((فما كادت كلمة الجنَّة تصافح آذان القوم، حتَّى أشرقت وجوههُم بالفرحة، وزَهتْ قسماتهم بالبهجة ، وقالوا: رضينا يا رسول الله، رضينا يا رسول الله))

منذ ذلك اليوم، جعل النبي عليه الصلاة والسلام ثابت بن قيس خطيبه، كما كان حسَّان بن ثابت شاعره.

كان له شاعر، وكان له خطيب، فقد كان في الجاهلية قبل الإسلام أعلى منصب رئيس القبيلة، ويليه الشاعر، كمنصب رفيع جداً، فالشاعر وقتها كان وزير إعلام، ينطق باسم القبيلة، يثني عليها، ويردُّ على خصومها، ويهاجم أعداءها، هكذا كان الشعر .

فصار إذا جاءت النبي وفود العرب لتفاخره، أو تناظره بألسنةٍ فصيحةٍ، ندب النبي لهم ثابت بن قيس، لمصاولة الخطباء، وحسَّان بن ثابت، لمفاخرة الشعراء، وأشرف عمل أن تكون في خدمة الحق، وأعظم عمل أن توظّف اختصاصك في الحق، وتقول: أنا أختصّ في هذا العمل، فهل لكم حاجة بعملي؟ .

اليوم التقيتُ مع طبيب، قلت له: جزاك الله خيراً، وهذا الطبيب منذ خمس أو ست سنوات اتصل بي، وقال: أي أخ يحب أن يجري عملية، أنا أجريها له مجَّاناً، جزاه الله خيرا، فبعثنا له أول شخص، والعملية تمَّت بنجاح، فلمَّا رأيته واللهِ أكبرته، فقد سخَّر علمه واختصاصه في خدمة الحق، فهو جرَّاح ماهر، وإذا كان الإنسان المؤمن وكل مَن له اختصاص، هذا بالطب، وهذا بالمحاماة، وهذا بالقضاء، فإذا كان الشخصُ محاميًا، وأعطى استشارة قانونية لإنسان فقير، وكتب له عقدًا، فهل يكون خاسرًا بهذا

العمل؟ هذا العقد وحده الرابح، والباقي كلُّه خسارة، إذا كنتَ طبيبًا، أو موظّفًا فساعِدْ ولو مواطنًا من دون أجر، وإذا كنتِ بائعًا فأعطِ شيء من إمكاناتك، ومن بضاعتك للفقراء المحتاجين، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون، سيدنا ثابت وظّف اختصاصه، وطلاقة لسانه، وخطابته في سبيل الحق .

ما هي البشارة التي أخبر بها رسول الله ثابت وما هي قصتها ؟

وقد كان ثابت بن قيس، مؤمناً عميق الإيمان، تقياً صادقّ التقوى، شديد الخشية من ربه ، عظيم الحذر من كلِّ ما يغضب الله عزَّ وجل، لقد رآه النّبي صلّى الله عليه وسلّم، ذات يومٍ هلعاً ، جزعاً، ترتعدُّ فرائصه، خوفاً وخشية، فقال:

((ما بك يا أبا محمد؟ قال: أخشى أن أكون قد هلكتُ يا رسول الله، قال: ولمَ؟ قال: لقد نهانا الله جلَّ وعز عن محبَّةِ أن نُحْمَدَ لِمَا لم نفعله، وأجدني أحبُّ الحمد، ونهانا عن الخُيلاء، وأجدني أحبُّ الزهو، فما زال النّبي عليه الصلاة والسلام يهدئ من روعه، حتى قال: يا ثابت، ألا ترضى أن تعيش حميداً، وأن تقتل شهيداً، وأن تدخل الجنة؟ فأشرق وجه سيدنا ثابت بهذه البشرى، وقال: بلى يا رسول الله، بلى يا رسول الله، فقال عليه الصلاة والسلام: إنَّ لكَّ ذلك))

مرة بشّر صحابيًّا بالجنة، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَقُولُ:

((يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي زُمْرَةٌ؛ هُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا تُضِيءُ وُجُوهُهُمْ إِضَاءَةَ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ الْأَسَدِيُّ يَرْفَعُ نَمِرَةً عَلَيْهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، قَالَ: اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ، ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ مِنْ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ))

[متفق عليه، أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح عن أبي هريرة]

لمّا نزل قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ)

(سورة الحجرات الآية: 2)

تجنَّب ثابت بن قيس، مجالس رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، على الرغم من شدَّة حبّه له، وفرط تعلّقه به، ولزم بيته، حتى لا يكاد يبرحه إلا لأداء المكتوبة، فافتقده النبي صلّى الله عليه وسلّم، وهذا من السنة، فعلى المسلم أنْ يتفقد أخوانه، ويسأل عنهم .

فافتقده النبي صلوات الله عليه، وقال:

((من يأتيني بخبره؟ فقال رجل من الأنصار: أنا يا رسول الله، وذهب إليه، فوجده في منزله محزوناً منكساً، قال: ما شأنك يا أبا محمد؟ قال: شرّ، قال: وما ذاك؟ قال: إنّك تعرف أني رجل جهير الصوت، وأنَّ صوتي كثيراً ما كان يعلو صوت النبي، وقد نزل من القرآن ما تعلم، وما أحسبني إلا أنني قد حبط عملي، وأنني من أهل النّار .))

-الآن تجد الشخص يرتكب الكبائر، وهو مطمئن، لكن ثابت بن قيس لأنّ صوته أعلى من صوت النبي صلّى الله عليه وسلّم لم يعُد قادرًا على النوم، خاف، ما هذه القصة؟ الصحابة كأنهم ليسوا من بني البشر، وكأنهم فوق البشر، أقول لكم: بعضُ الناس يرتكب الكبائر، ويقول: لا تدقق، أهذه معصية؟ أهذا حرام؟ أهذا ربا؟ أهذا زنا؟ أهذا فسق؟ فهو في غفلة، بل في ضياع، فعلامة المنافق أنّ الذنب عنده كالذبابة، وعلامة المؤمن أنّ الذنب عنده كأنه جبلٌ جاثمٌ على صدره ، يكاد يقع عليه، فكلّما عَظُمَ عندك الذنب، كنت أرقى عند الله، وكلّما صَغُرَ لديك الذنب، كنت أقلَّ عند الله- .

((فرجع هذا الرجل إلى النّبي عليه الصلاة والسلام، وأخبره بما رأى، وبما سمع، فقال: اذهبْ إليه، وقل له: لست من أهل النار، ولكنك من أهل الجنة))

فكانت هذه بشارةً عظمى لثابتٍ، وظلَّ يرجو خيرها طوال حياته، لقد كان صوته جهوريًّا، فكان إذا خطب يعلو صوتُه صوتَ رسول الله، بسببِ الخطابة ، فالخطيب يحتاج الخطابة إلى صوت جهير، ونبرات حادَّة، وتلوين بالصوت .

إليكم قصة استشهاده :

شهد ثابت بن قيس مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم المشاهد كلّها، سوى بدر، وأقحم نفسه في غِمار المعارك، طلباً للشهادة، التي بشَّره النبي بها، فكان يُخْطِئها في كلِّ مرة، وهي قاب قوسين منه أو أدنى، إلى أن وقعت حروب الردة بين المسلمين ومسيلمة الكذّاب، على عهد الصديق رضي الله عنه .

لقد كان ثابت بن قيس أميراً لجند الأنصار، وسالمٌ مولى أبي حذيفة، أميراً لجند المهاجرين، وخالد بن الوليد قائداً للجيش كلّه، أنصاره ومهاجريه، ومن فيه من أبناء البوادي، ولقد كانت الغلبَةُ في جُلِّ الجولاتِ لمسيلمة الكذاب، ولرجاله على جيش المسلمين، حتى بلغ بهم الأمر أنْ اقتحموا فسطاط خالد بن الوليد، وهمُّوا بقتل زوجته، وقطعوا حبال الفسطاط، ومزَّقوه شرَّ ممزَّق، والفسطاط الخيمة، فرأى ثابت بن قيس يوم ذاك، مِن تضعضع المسلمين، ما شحن قلبه أسىً وكمداً، وسمع من تنابذهم، ما ملأ

صدره هماً وغماً، فأبناء المدن، يرمون أهلَّ البوادي، وأهل البوادي يصفون أبناء المدن، بأنهم لا يحسنون القتال، ولا يدرون ما الحرب؟ .

عند ذلك تحنط ثابتٌ وتكفن، ووقف على رؤوس الأشهاد، وقال:

((يا معشر المسلمين، ما هكذا كنّا نقاتل مع رسول الله صلّى الله عله وسلّم، بئس ما عوَّدتم أعداءكم من الجراءة عليكم، وبئس ما عوَّدتم أنفسكم من الانخذال لهم، ثمَّ رفع طرفه إلى السماء، وقال: اللهم إني أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء من الشرك، -أي مسيلمة وقومه- وأبرأ إليك مما يصنع هؤلاء، - أي المسلمين- ثمَّ هبَّ هبة الأسد الضاري، كتفاً لكتف، مع الغُر الميامين، وهم البراء بن مالك الأنصاري، وزيد بن الخطاب، أخ سيدنا عمر بن الخطاب، وسالمٍ مولى أبي حذيفة، وغيرهم، وغيرهم من المؤمنين السابقين، وأبلى بلاءً عظيماً، ملأ قلوب المسلمين حمية وعزماً، وشحن أفئدة المشركين وهناً ورعباً، وما زال يجالد في كلِّ اتجاهٍ، ويضارب بكلِّ سلاح، حتى أثخنته الجراح، فخرَّ صريعاً على أرض المعركة، قرير العين بما كتب الله له من الشهادة التي بشَّره به حبيبُه النّبي عليه الصلاة والسلام، مثلوج الصدر، بما حقق الله على يديه للمسلمين من النصر))

وهناك بعض الأحاديث تصف حال الشهيد: لا يحسُّ بألـم الجراح إطلاقاً، وأنَّ الله يطلعه على مقامه في الجنة، في أثناء استشهاده، وأنه تفوحُّ من دمائه رائحة المسك، هذا شيء ثابت، وأعظم مقامٍ يناله الإنسان، أن يموت واللهُ راضٍ عنه .

ما هي الرؤيا التي رآها أحد رجال المسلمين عن ثابت وما هو رأي الصديق بهذه الرؤيا ؟

كان على ثابتٍ درعٌ نفيسة، فمرَّ به رجلٌ من المسلمين، فنزعها عنه، وأخذها لنفسه، وفي الليلة التالية لاستشهاده، رآه رجلٌ من المسلمين في منامه، فقال للرجل:

((أنا ثابت بن قيس، فهل عرفتني؟ قال: نعم، قال: إني أوصيك بوصيةٍ، فإياك أن تقول: هذا حلمٌ، فتضيِّعها، إني لمّا قتلت أمس، مرَّ بي رجلٌ من المسلمين، صفته كذا وكذا، فأخذ درعي، ومضى بها نحو خبائه، في أقصى المعسكر، من الجهة الفلانية، ووضعها تحت قدرٍ له، ووضع فوق القدر رَحْلاً، فأتِ خالد بن الوليد، وقل له: أن يبعث إلى الرجل من يأخذ الدرع منه، فهي ما تزال في مكانها، وأوصيك بأخرى، إياك أن تقول: هذا حلم نائم، فتضيعها، قل لخالدٍ: إذا قدمت على خليفة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في المدينة، فقل له: إنَّ على ثابت بن قيس من الدين كذا وكذا، وإن فلاناً وفلاناً من رقيقه عتيقان، فليقضِ ديني، وليحرر غِلماني .

-رسالة واضحة وضوح الشمس، معنى ذلك أنَّ الإنسان حينما يموت، يرى ويسمع، يرى كلَّ شيء، ويسمع كلَّ شيء، الميت ترفرف روحه فوق النعش، في أثناء تشييع الجنازة، يقول:

((يا أهلي، يا ولدي، لا تلعبنَّ بكم الدنيا، كما لعبت بي، جمعت المال مما حلَّ وحرم، فأنفقته في حلّه، وفي غير حلّه، فالهناء لكم، والتبعة علي))

قال عليه الصلاة والسلام ، يخاطب قتلى بدر، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَرَكَ قَتْلَى بَدْرٍ ثَلَاثًا، ثُمَّ أَتَاهُمْ فَقَامَ عَلَيْهِمْ فَنَادَاهُمْ، فَقَالَ:

((يَا أَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ، يَا أُمَيَّةَ بْنَ خَلَفٍ، يَا عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، يَا شَيْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، أَلَيْسَ قَدْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟ فَإِنِّي قَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا، فَسَمِعَ عُمَرُ قَوْلَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ يَسْمَعُوا وَأَنَّى يُجِيبُوا وَقَدْ جَيَّفُوا؟ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ أَنْ يُجِيبُوا، ثُمَّ أَمَرَ بِهِمْ فَسُحِبُوا فَأُلْقُوا فِي قَلِيبِ بَدْرٍ))

[أخرجه مسلم في الصحيح عن أنس بن مالك]

((فاستيقظ الرجل، فأتى خالد بن الوليد، فأخبره بما سمع، وما رأى، فبعث سيدنا خالد، من يحضر الدرع من عند آخذها، فوجدها في مكانها، وجاء بها كما هي، ولما عاد سيدنا خالد إلى المدينة، حدَّث أبا بكر الصديق، بخبر ثابت بن قيس، ووصيته، فأجاز الصديق وصيته، وما عُرف أحد قبله ولا بعده، أُجْزِيَتْ وصيته بعد موته سواه))

رضي الله عن سيدنا ثابت بن قيس وأرضاه، وجعل مقامه في أعلى عليين .

والحمد لله رب العالمين

السيرة - رجال حول الرسول - الدرس (42-50) : سيدنا عبد الله بن أم مكتوم
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 09-08-1993

بسم الله الرحمن الرحيم

لمحة عن حياة ابن أم مكتوم بما فيها إسلامه والأذى الذي لحقه من إسلامه :

أيها الأخوة، مع الدرس الثاني والأربعين من دروس صحابة رسول الله رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، وصحابي اليوم هو الصحابي الذي عُوتب فيه النبي عليه الصلاة والسلام من فوق سبع سموات من قِبَل الله عز وجل، إنه عبد الله بن أم مكتوم، وقصة هذا الصحابي لها ملابسات كثيرة، ولا بد من توضيح بعضها، لأن النبي عليه الصلاة والسلام كما هو ثابت في العقيدة معصوم عن الخطأ .

فهذا الذي نزل في شأنه قرآن يُتلى إلى يوم القيامة، نزل به جبريل الأمين على قلب النبي عليه الصلاة والسلام بوحي من عند الله، إنه عبد الله بن أم مكتوم، مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم، عبد الله بن أم مكتوم قرشيٌّ مكيٌّ، من مكة المكرمة، فهو مهاجر، تربطه بالرسول صلى الله عليه وسلم رحم، فهو قريب من أقرباء النبي عليه الصلاة والسلام، فقد كان ابن خال أم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضوان الله عليها، أما أبوه فقيس بن زائد، وأما أمه فعاتكة بنت عبد الله، وقد دُعيت بأم مكتوم، لأنها ولدته أعمى مكتوماً .

شهد عبد الله بن أم مكتوم مطلع النور في مكة، فشرح الله له صدره للإيمان، وكان من السابقين إلى الإسلام، بالمناسبة فالسابق ليس كغير السابق، الإنسان إذا دُعِي إلى الله فاستجاب في وقت مبكّر، فهذا له نهاية متألقة، أمّا الذي يستجيب لله ورسوله بعد فوات الأوان، أو قبيل الموت، أو بعد سن الشيخوخة، أو بعد أن ينفض يديه من الحياة، وبعد أن يمل الحياة، فهذا له حساب ليس كحساب السابق، والذي يأتي ربه شاباً في عنفوان الشباب، متألقاً قوياً تغلي الشهوات في صدره، هذا له حساب وذاك له حساب، والله سبحانه وتعالى أخبرنا فقال:

(لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ)

(سورة آل عمران الآية: 113)

من أسلم في وقت مبكر فله حساب خاص، الإسلام حينما ينتصر فالذين يعتنقونه هم منتفعون، أما حينما يكون الإسلام في ضعفه الذين يعتنقونه هم أصحاب المبادئ، هم المجاهدون، هذا الصحابي الجليل عاش محنة المسلمين في مكة بكل ما حفلت به من تضحية وثبات وصمود وفداء، وعانى من قريش ما عاناه أصحابه، وبلى من بطشهم وقسوتهم ما بلوه ، فما لانت له قناة، والشيء الغريب أن

بعض المحن تزيد المؤمن إيماناً، وتزيده تمسكاً، وتزيده تعلقاً، وتزيده التزاماً، وتزيده إقبالاً، وتزيده صبراً، وتزيده صلابة، وهكذا فليكن المؤمن .

النبي عليه الصلاة والسلام هو القدوة، في أشد أوقات المحن، في أصعب أيام الدعوة، عُرض عليه أن يكون أمير مكة، عُرض عليه أن يكون زوجاً لأجمل فتاة في مكة، عُرض عليه ليكون أغنى شباب أهل مكة، قال: والله يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه .

إذاً: قيمة الإنسان في ثباته على المبدأ، قيمة الإنسان أنه إذا عاهد الله عز وجل فقد حسمَ الأمر، أما هذا الذي يقدِّم ويؤخِّر، يتقدم ويتراجع، ينطلق ويقف، يتردد، فالذي يفعل هذا لن يصل إلى شيء .

كيف كان إقبال ابن أم مكتوم على رسول الله ؟

أيها الأخوة، وقد بلغ من إقباله على النبي صلى الله عليه وسلم، وحرصه على حفظ القرآن الكريم، أنه كان لا يترك فرصة إلا اغتنمها، ولا سانحة إلا ابتدرها، يعني حريص على أن يلتقي بالنبي عليه الصلاة والسلام حرصاً لا حدود له، والحقيقة أنّ الإنسان حينما يحرص على أن يلتقي بأهل الحق، على أن يلتقي بالمؤمنين، على أن يتواجد في بيوت الله، أن يكون معهم في السراء والضراء، أن يكون في مجالسهم، أن يكون في معاونتهم، فهذا الإنسان صادق الإيمان .

بل إن هذا الصحابي الجليل، عبد الله بن أم مكتوم بلغ من حرصه على لقاء النبي عليه الصلاة والسلام مبلغاً كبيراً، فكان إلحاحه على أن يكون مع النبي عليه الصلاة والسلام يحمله أحياناً على أن يأخذ نصيبه من النبي عليه الصلاة والسلام ونصيب غيره، عنده رغبة قوية جداً أن يكون مع النبي دائماً، وهذه علامة إيمان .

هناك إنسان لا ترتاح نفسه إلا مع المؤمنين، لا ترتاح نفسه إلا مع أهل الحق، وبالمقابل هناك علامة خطيرة، عندما يجلس الإنسانُ مع أهل الفسق والفجور، أو مع أهل الدنيا، أو مع المقطوعين عن الله عز وجل ويرتاح إليهم، ويقيم معهم علاقات حميمة، وينسى واجباته الدينية ، هذه علامة خطيرة جداً، وتدلُّ على أنّ الإنسان هش المقاومة، ضعيف الإرادة، ولذلك جاء الأمر الإلهي:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)

(سورة التوبة الآية: 119)

العجيب أننا فهمنا الأوامر خمسة: الصلاة والصوم والحج والزكاة والنطق بالشهادتين ، مع أن الأوامر القرآنية كثيرة جداً، وهذا أحد الأوامر، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)

(سورة التوبة الآية: 119)

أنت مع مَن؟ مَن الذي يعجبك؟ من الذي تركن إليه؟ من الذي ترتاح نفسك إليه؟ .

ما هي الشبهة التي لصقت بالنبي بحق ابن أم مكتوم وهل هذه الشبهة صحيحة وما الجواب عنها ؟

كان عليه الصلاة والسلام في هذه الفترة يمر بمحنة عصيبة، فكان عليه الصلاة والسلام كثير التصدي لسادات قريش، الآن بدأ الإيضاحُ التفسير، يبدو أمامي بابان كبيران لهذا المسجد ، لو أن الدرس انتهى وانطلقتم للخروج من هذا المسجد، وأمامكم بابان، وليس هناك أي إعلان يمنعكم من الخروج من أحدهما، فإذا خرج أحدكم من الباب اليميني هل يعد عاصياً؟ وإذا خرج أحدكم من الباب اليساري هل يُعد عاصيًا؟ ماذا أريد أن أقول؟ .

أريد أن أقول: إنه لا معصية قبل التكليف، ما دام ثمة مانع فالأمر مباح، لو أنه كُتب على الباب الشمالي ممنوع الخروج من هذا الباب، ثم خرج إنسان منه فيكون متلبساً بمعصية ، لكن البابان متشابهان، وليس هناك أي إعلان، ولا أي توجيه، ولا أي حظر، ولا أي منع، ولا أي إجبار، بابان متشابهان متساويان، انتهى الدرس، وصلينا العشاء، وانتهت الصلاة، وانطلقنا إلى بيوتنا، فهل بإمكان أحد أن يقول لواحد منكم: أنت لماذا خالفت، لماذا عصيت؟ فتجيبه: أنا عصيت مَن؟ ما الأمر الذي عصيته؟ أين الحظر الذي تجاوزته؟ أين المنع الذي اخترقته؟ أجبني، لكن لا جواب لديه، هؤلاء الذين يطعنون في قوله:

(عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى)

(سورة عبس الآية: 1-2)

هل هناك حكم إلهي؟ هل هناك تشريع؟ هل هناك توجيه ما؟ هل تصدقون أن النبي عليه الصلاة والسلام اختار أصعب الأمور بدافع حبه لله عز وجل؟ بربكم لو أن أحدكم دُعي إلى سهرة مع بعض أخوانه المحبين جداً، ودُعي إلى سهرة أخرى في اليوم نفسه مع أناس ملحدين منكرين فسقة فجار، الذين يتمنون أن يأكلوا وينهشوا لحم المؤمن، بربك أيها الأخ الكريم أي مجلس ترتاح له، وأي مجلس أهون عليك؟ أن تجلس مع أخوانك المحبين .

فالنبي عليه الصلاة والسلام إن جلس مع عبد الله بن أم مكتوم، ذلك الصحابي الجليل المحب العاشق، الذي يتمنى ألاّ يفارق النبي عليه الصلاة والسلام، فهذا أحبُّ إليه، وأيهما أهون على النبي، أن يجلس مع عبد الله بن أم مكتوم، أم أن يجلس مع زعماء الكفر والفسق؟ وماذا اختار النبي؟ اختار الأصعب، اختار الأشق حباً بالله عز وجل، لأنه انطلق من أن هؤلاء الزعماء الأقوياء الأشداء إذا أسلموا أسلم معهم أناس كثيرون، لأن الناس دائماً تابعون ومتبوعون، ولكل بلدة كبراء، والكبراء ماذا يفعلون؟ أي

شيء يفعلونه يقلدهم الناس فيه، فأنت إذا دعوت إلى الله، وتمكنت أن تقنع كبيراً بطريق الحق، فهذا الزعيم الكبير معه أتباع كثيرون ، فالنبي عليه الصلاة والسلام، ليس هناك تشريع يمنعه، وليس هناك مانع يصدُّه، وليس هناك حظر، وليس هناك شيء يمكن أن يُعد مخالفة لما فعل .

جاءه ابن أم مكتوم، وكان النبي مع زعماء قريش، وإنْ صحّ التشبيه أسوق هذا المثَل ، أنت مدرس رياضيات، وابنك في البيت، وأنت في لقاء مهم خطير، وأنت منهمك في إقناع هؤلاء الذين في غرفة الضيوف، فدخل عليك ابنك لتحل له مسألة في الرياضيات، فماذا تقول له؟ انتظر قليلاً، أنا لك اليوم كله، دعني الآن وشأني، هذا الذي فعله النبي عليه الصلاة والسلام مع ابن أم مكتوم .

وقد كان عليه الصلاة والسلام في هذه الفترة كثير التصدي لسادات قريش، شديد الحرص على إسلامهم، فالتقى ذات يوم بعتبة بن ربيعة، وأخيه شيبة بن ربيعة، وعمرو بن هشام المكنى بأبي جهل، وأمية بن خلف، والوليد بن المغيرة، وطفق يفاوضهم ويناجيهم ويعرض عليهم الإسلام، وهو يطمع أن يستجيبوا له، أو أن يكفوا أذاهم عن أصحابه، إذاً: النبي كان في مهمة مقدسة عظيمة، وهذه الحادثة تزيدنا حباً برسول الله، هذه القصة تزيدنا إكباراً له، تعظيماً لشأنه لمقامه العالي لأنه اختار الأصعب .

يعني إذا أب مثلاً رأى ابنه يدرس الساعة التاسعة، فاستلقى الأب في فراشه، واستيقظ الساعة الواحدة ورآه يدرس، ثم عاد إلى النوم الساعة، واستيقظ الساعة الثالثة استيقظ فرآه يدرس، فقد يغضب الأب من ابنه، فهل يعتب عليه أم يعتب له؟ فرق دقيق بين من يعتب على إنسان وبين من يعتب له، يقول له: يا بني لا بد أن تستريح، إن لجسدك عليك حقاً، هذه معاتبة ، ولكن هذه ليست عتابًا عليه، بل عتاب له، وشتان بين العتابين .

طفق النبي يشرح لهم ويبيِّن ويوضح ويتلو عليهم آيات القرآن فلعلهم يسلمون، فإن أسلموا أسلم معهم خلق كثير، وإن اقتنعوا بالإسلام ولم يسلموا فلعلهم يكفون أذاهم عن أصحابه ، وفيما هو كذلك أقبل عليه عبد الله بن أم مكتوم، وكان كفيف البصر .

أحياناً يدرك الإنسان الموقف بعينيه، ولكن لا يرى مَن عنده، طرق الباب يا رسول الله، علمني مما علمك الله، النبي رأى أن هذا الوقت غير مناسب، وبإمكانه أن يأتي في أي وقت يشاء غير هذا، فجاء النبي عليه الصلاة والسلام يستقرؤه آية من كتاب الله، ويقول: يا رسول الله علمني مما علمك الله، والنبي عليه الصلاة والسلام يعرض عنه ويعبس في وجهه، ثم يتولى نحو أولئك النفر من قريش، وأقبل عليهم أملاً في أن يسلموا، فيكون في إسلامهم عز لدين الله، وتأييد لدعوة رسول الله، وما إن قضى رسول الله حديثه معهم وفرغ من نجواهم، وهمَّ أن ينقلب إلى أهله حتى أمسك الله عليه بعضاً من بصره، وأحس أن شيئاً يخفق برأسه، ثم جاء الوحي، ونزل عليه قوله تعالى:

(عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى)

(سورة عبس الآية: 1-2)

هذا التركيب، ماذا يسمى في اللغة؟ التركيب نوعان؛ تركيب إنشائي وتركيب خبري، التركيب الإنشائي فيه أمر؛ مثلاً: مزق، لا تمزق، افعل، لا تفعل، الأمر والنهي، والتمني والترجي، والحض والاستفهام، والنداء، هذه تراكيب إنشائية، ولكن هناك تراكيب خبرية مثال ذلك: الوصف، هذه ورقة تقويم، هل في هذا الكلام تعنيف؟ لا، هل في هذا الكلام لوم؟ لا، هذا وصفُ خبر، والله عز وجل، قال:

(عبس وتولى أن جاءه الأعمى)

هذا وصفُ وضع النبي، فالإنسان يجب أن يكون دقيق الذهن، حسن الظن، ما استعمل الله عز وجل تركيباً إنشائياً فيه توبيخ، أو فيه تعنيف، أو فيه نهي، أو فيه أمر، تركيب خبري وصفي .

فالله جل جلاله يبيِّن للنبي عليه الصلاة والسلام أن هؤلاء السادة الكبراء لا خير فيهم، هذا علمُ الله، وهو عليه السلام يتوسم فيهم الخير، ويعلق آمالاً على هدايتهم، لكنّ اللهَ عز وجل لأنه خالقهم وهو الذي يعلم، قال له: يا محمد هؤلاء ليس فيهم خير، فلا تشغل بالك بهم، إنك لا تستطيع أن تهديهم لأنهم مخيرون، فإن الله يهدي من يشاء، هناك آيتان، قال تعالى:

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)

(سورة القصص الآية: 56)

أي إنك لا تستطيع هدايتهم، والآية الثانية :

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة البقرة الآية: 272)

لست مسؤولاً عن هدايتهم، لأنهم مخيرون، هم اختاروا الدنيا، هم اختاروا الإعراض، هم اختاروا الشرك، الله عز وجل وصف وبيّن وصف حال النبي، وبيّن له أنه الإله الذي يعلم .

يعني أحياناً يرى الإنسانُ رمادًا، يظن أن في هذا الرماد ناراً، فينفخ ويقول له إنسان آخر: لا تتعب نفسك، إنك تنفخ في رماد، وصدق القائل:

لقد أسمعت لو ناديت حيًّا ولكن لا حياة لمن تنادي

ولو نارًا نفخت فيها أضاءت ولكنك تنفخ في رمادِ

الله يعلم، وبعلمه وخبرته أخبر النبيَّ أن هؤلاء الكفار الصناديد زعماء الشرك، رؤوس الفتنة، عباد الأوثان لا خير فيهم، فلا تعلّقْ أملك عليهم، ولا تلتفت إليهم، فليسوا أهلاً لاهتمامك، بل التفتْ لهذا الأعمى الفقير الذي يصغي لكلامك، بربكم هل في هذا السلوك الذي فعله النبي نقص في حقه؟ هل فيه مخالفة لأمر إلهي؟ هل فيه معصية؟ هل فيه خرق لحظر؟ أبداً، هكذا ينبغي أن نفهم القرآن الكريم، الله عز وجل وصف حال النبي، وبين له أن هؤلاء الذين تحرص عليهم لا حياة لمن تنادي، قال القائل:

لقد أسمعت لو ناديت حيًّـا ولكن لا حياة لمن تنـــادي

ولو نـارًا نفخت فيها أضـاءت ولكنك تنفخ في رمــــادِ

قال العلماء: ست عشرة آية نزل بها جبريل الأمين على قلب النبي عليه الصلاة والسلام في شأن عبد الله بن أم مكتوم، لا تزال تُتلى منذ نُزلت إلى اليوم، وسوف تظل تتلى حتى يرث الله الأرض ومن عليها، فالمعنى أنّ هذا درس لنا إلى يوم القيامة، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ مِنْهُمْ الْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ))

[أخرجه الترمذي في سننه عن أنس بن مالك]

هؤلاء الأقوياء، هؤلاء الأغنياء المنحرفون عن طريق الحق، لا تعجبك أجسامهم ولا أموالهم، إنما يريد الله ليعذبهم في الحياة الدنيا، وتزهق أنفسهم وهم كافرون، هكذا وجَّه الله عز وجل نبيه عليه الصلاة والسلام .

ومنذ ذلك اليوم ما فتئ النبي عليه الصلاة والسلام يكرم منزل عبد الله بن أم مكتوم إذا نزل، ويدني مجلسه إذا أقبل، ويسأل عن شأنه ويقضي حاجته، ولا غرو أليس هو الذي عوتب فيه من فوق سبع سموات من قبل المولى جل وعلا؟ .

إليكم هجرة ابن أم مكتوم إلى المدينة وماذا صنع حينما قدم إليها وما هي المهمة التي كان يوكلها الرسول لابن أم مكتوم حينما يكون عنده شؤون خارج المدينة ؟

لما قستْ قريش على النبي صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا معه، واشتد أذاها لهم، أذن الله للمسلمين بالهجرة، فكان عبد الله بن أم مكتوم، أسرع القوم مفارقة لوطنه وفراراً بدينه، فقد كان هو ومصعب بن عمير أول من قدما المدينة من أصحاب رسول الله رضوان الله تعالى عليهم .

وما إن بلغ عبد الله بن أم مكتوم يثرب حتى طفق هو وصاحبه مصعب بن عمير يختلفان إلى الناس ويقرئانهم القرآن ويفقهانهم في دين الله، ولما قدم عليه الصلاة والسلام إلى المدينة اتخذ عبد الله بن أم مكتوم، وبلال بن رباح مؤذنين للمسلمين يصدعان بكلمة التوحيد كل يوم خمس مرات .

كان بلال يؤذن، وابن أم مكتوم يقيم الصلاة، وربما أذن ابن أم مكتوم، وأقام بلال الصلاة، ولكن بعد حين وجَّه النبي عليه الصلاة والسلام أن الذي يؤذن هو الذي يقيم الصلاة، وكان لبلال وابن أم مكتوم شأن آخر في رمضان، فقد كان المسلمون في المدينة يتسحرون على أذان أحدهما، ويمسكون عند أذان الآخر، فقد كان بلال رضي الله عنه يؤذن بالليل ويوقظ الناس، وكان ابن أم مكتوم يتوخى الفجر فلا يُخطئه .

وقد بلغ من إكرام النبي عليه الصلاة والسلام لابن أم مكتوم أن استخلفه على المدينة عند غيابه عنها بضع عشرة مرة، كانت إحداها يوم غادرها لفتح مكة، فكان النبي كلما غادر المدينة غازياً أو فاتحاً استخلف عليها أميراً هو عبد الله بن أم مكتوم، وهذه مرتبة عالية جداً، أن يختار النبي هذا الصحابي الجليل نائباً عنه في إدارة شؤون المدينة في غيابه .

ما هي الآية التي نزلت بشأن أصحاب الأعذار عن الجهاد وهل استجاب الله دعاء ابن أم مكتوم وماذا فعل حينما أعذره الله ؟

في أعقاب غزوة بدر أنزل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم آيات من القرآن ما يرفع شأن المجاهدين أيّما رفعة، يفضلهم على القاعدين، لينشط المجاهد إلى الجهاد، ويأنف القاعد من القعود، فأثر ذلك في نفس ابن أم مكتوم وعز عليه أن يُحرم من ذلك الفضل، وقال:

((يا رسول الله، لو أستطيع الجهاد لجاهدت، ثم سأل الله بقلب خاشع أن ينزل القرآن في شأنه وشأن أمثاله ممن تعوقهم عاهاتهم عن الجهاد،

-لقد رأى الجهاد شيئًا عظيمًا، وهو ذروة سنام الإسلام، فهو بحكم عاهته إذْ فَقَدَ بصره محرومٌ من هذه العبادة العظيمة، فكان يتألم وكان يبكي ، وكان يسأل النبي عليه الصلاة والسلام، أن يسأل ربه أن ينزل قرآنًا في شأن ابن أم مكتوم المعذور، وشأن أمثاله ممن تعوقهم عاهاتهم عن الجهاد- وجعل يدعو في ضراعة:

((اللهم أنزل عذري، اللهم أنزل عذري، فما أسرع أن استجاب الله لدعائه))

حدث زيد بن ثابت كاتب وحي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: كنت إلى جنب الرسول صلى الله عليه وسلم، فغشيته السكينة، ونزل عليه الوحي، فلما سُرِيَ عنه، قال: اكتب يا زيد، فكتبت:

(لاَ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِين)

(سورة النساء الآية: 95)

فقام ابن أم مكتوم، وقال: يا رسول الله، فكيف بمن لا يستطيع الجهاد؟ قال: فما انقضى كلامه حتى غشيت رسول الله صلى الله عليه وسلم السكينة، ولما سُري عنه، يعني جاءه الوحي مرة ثانية، قال: اقرأ ما كتبته يا زيد، فقرأت لا يستوي القاعدون من المؤمنين، قال: اكتب:

(غَيْرُ أُولِي الضَّرَر)

(سورة النساء الآية: 95)

-فصار في الآية استثناء، هؤلاء أولو الضرر مستثنون بهذه الآية، فكأن هذا الصحابي الجليل بصدقه وإخلاصه وتمنيه، أن ينزل الله به وبأمثاله المعذورين ما يبرر قعودهم، فاستجاب الله له، ونزلت هذه الآية التي جاءت بعد الآية الأولى .

الآن دققوا، وعلى الرغم من أن الله سبحانه وتعالى أعفى عبد الله بن أم مكتوم، وأمثاله من الجهاد، فقد أبت نفسه الطموح أن يقعد مع القاعدين، وعقد العزم أن يكون مع المجاهدين، ذلك بأن النفوس الكبيرة لا تقنع إلا بعظام الأمور-

((فحرص منذ ذلك اليوم على ألاَّ تفوته غزوة مع أنه أعمى، مع أنه ضرير، وحدَّد لنفسه وظيفتها في ساحات القتال فكان يقول: أقيموني بين الصفين، وحمِّلوني اللواء أحمله لكم وأحفظه، فأنا أعمى لا أستطيع الفرار))

كانوا يقيمونه بين الصفين، ويحمِّلونه اللواء ويجاهد .

إليكم قصة استشهاده :

في السنة الرابعة عشرة للهجرة، عقد عمر بن الخطاب العزم على أن يخوض مع الفرس معركة فاصلة تزيل دولتهم وتزيل ملكهم، وتفتح الطريق أمام جيوش المسلمين، فكتب إلى عماله يقول:

((لا تَدَعُوا أحداً له سلاح، أو فرس، أو نجدة، أو رأي، إلا وجهتموه إليه، والعَجَلَ العَجَلَ))

وطفقت جموع المسلمين تلبي نداء الفاروق، وتنهال على المدينة من كل حدب وصوب، وكان في جملة هؤلاء المجاهدين المكفوف البصر عبد الله بن أم مكتوم .

فأمَّر الفاروق على الجيش الكبير سعد بن أبي وقاص، ووصاه وودعه، ولما بلغ الجيش القادسية، برز عبد الله بن أم مكتوم لابساً درعه مستكملاً عدته، وندب نفسه لحمل راية المسلمين، والحفاظ عليها أو الموت دونها، والتقى الجمعان في أيام ثلاثة قاسية عابسة، واحترب الفريقان حرباً لم يشهد لها تاريخ الفتوح مثيلاً، حتى انجلى الموقف في اليوم الثالث عن نصر مؤزر للمسلمين، فزالت دولة من أعظم الدول، وزال عرش من أعرق العروش، ورُفعت راية التوحيد في أرض الوثنية، وكان ثمن هذا النصر المبين مئات الشهداء، وكان من بين هؤلاء الشهداء عبد الله بن أم مكتوم، فقد وجد صريعاً مضرجاً بدمائه، وهو يعانق راية المسلمين .

دققوا أيها الأخوة، صحابي جليل وهو كفيف البصر، يستشهد في أرض معركة حامية الوطيس، هكذا كان أصحاب رسول الله رضوان الله تعالى عليهم، هذه القصة سقتها إليكم من أجل أن تقفوا على دقائقها لأن النبي عليه الصلاة والسلام معصوم في أقواله وأفعاله وأحواله، وما سورة عبس وتولى إلا وصفٌ لشأن النبي، حيث انطلق من رغبته الصادقة في هداية قومه.

والحمد لله رب العالمين

السيرة - رجال حول الرسول - الدرس (43-50) : سيدنا حكيم بن حزام
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 16-08-1993

بسم الله الرحمن الرحيم

لمحة عن حياة حكيم بن حزام :

أيها الأخوة، مع الدرس الثالث والأربعين من دروس سير أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورضوان الله تعالى عليهم أجمعين، وصحابي اليوم سيدنا حكيم بن حَزَام، هذا الصحابي يبدو أنه الإنسان الوحيد الذي ولد في جوف الكعبة، كانت الكعبة مفتوحة في إحدى المناسبات للزوار، وكانت أمه حاملة به، فما إن دخلت جوف الكعبة حتى جاءها المخاض، فجيء لها بنطع رداء، وولدت في جوف الكعبة هذا الصحابيَّ الجليل .

هذا الصحابي الجليل قريب أم المؤمنين السيدة خديجة بنت خويلد رضي الله تعالى عنها وأرضاها، والنبي عليه الصلاة والسلام زوج عمته، فهو من أقرباء النبي، وكان حكيم بن حزام عاقلاً سرياً، معنى السري يعني شريفاً من عليه القوم، كان عاقلاً سرياً فاضلاً .

بالمناسبة ؛ ما من نعمة ينعم الله على عبد من عباده كنعمة العقل، فمن أوتي عقلاً وفكراً وحكمةً، فقد أوتي خيراً كثيراً، وسوف ترون بعد قليل أن الإسلام مبني على العقل، فمن كان عاقلاً وأريباً وحكيماً، ولم يبادر إلى الإسلام، فأمْرُه عجيب .

حكيم بن حزام كان عاقلاً سرياً فاضلاً، لذلك سوَّده قومه، وأناطوا به منصباً مهماً، هو منصب الرفادة، فقد كان مُوكَلاً إليه أن يعطي الحجاج المنقطعين ما يحتاجون كي يصلوا إلى بلادهم سالمين، هذا المنصب منصب ديني، وكان حكيم بن حزام موكلاً له هذا المنصب في الجاهلية، كان يُخرج من ماله الخاص ما يرفد به المنقطعين من حجَّاج بيت الله الحرام .

وهو من أعرق أسرة، ومن أشرف نسب، ويتمتع بقدرات ذاتية عالية المستوى نادرة .

بالمناسبة؛ تعرفون المخروط، شكل هندسي، كلما ازداد ارتفاع المخروط ازدادت رؤيته من هذا الارتفاع، وكلما ازداد حظك في الدنيا ازدادت مسؤوليتك، فالذي يؤتى عقلاً راجحاً في الدنيا هذا له حساب خاص، والذي يؤتى طلاقة لسان هذا له حساب خاص، والذي يؤتى شكلاً وسيماً فهذا له حساب خاص، والذي يؤتى مالاً وفيراً فهذا له شأنٌ، فكلما ازداد حظك من حظوظ الدنيا ازدادت مسؤوليتك، وازدادت تبعاتك .

كان حكيم بن حزام صديقاً حميماً للنبي عليه الصلاة والسلام قبل البعثة، فهو صديق وقريب، وكان أكبر من النبي صلى الله عليه وسلم بخمس سنوات، وقد تمتع الصحابة بأدب جمٍّ، كان أحدهم إذا سـأل:

((أيهما أكبر أنت أم النبي؟ فكان يقول: هو أكبر مني، ولكني ولدتُ قبله))

لشدة الأدب الذي كانوا يتمتعون به .

كان حكيم بن حزام أكبر من النبي صلى الله عليه وسلم بخمس سنوات، ولا تنسوا أن العمر الزمني هو أتفه أعمار الإنسان، فالإمام الشافعي مات في الخمسين، والإمام النووي مات في الثانية والأربعين، وهناك بعض العظماء ماتوا في الثلاثين، ومع ذلك كانت أعمارهم غنية بالأعمال الصالحة، فكلما ازداد عملك الصالح كان عمرك ثميناً، وكلما قلَّ عملك الصالح كان حياتك تافهة، وكنتَ إنسانًا هامشيًّا، قال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ)

(سورة محمد الآية: 12)

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آَمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آَمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

(سورة البقرة الآية: 126)

حينما دخل على سيدنا عمر بن عبد العزيز وفد الحجازيين، تَقَدَّمه غلام، فقال له:

((اجلس أيها الغلام، وليقمْ مَن هو أكبر منك سناً، فتبسم هذا الغلام، وكان رئيس الوفد، وقال: أصلح الله الأمير، المرء بأصغريه؛ قلبه ولسانه، فإذا وهب اللهُ العبدَ لساناً ذاكراً، وقلباً حافظاً فقد استحق الكلام، ولو أن الأمر كما تقول لكان في الأمة مَن هو أحقُّ منك بهذا المجلس، -كلام بليغ- العالم شيخ، ولو كان حدثاً، والجاهل حدث، ولو كان شيخاً))

كان يألف النبي عليه الصلاة والسلام، ويأنس به، ويرتاح إلى صحبته ومجالسته، وكان النبي عليه الصلاة والسلام يبادله وداً بود، وصداقة بصداقة، وكذلك المؤمن دمث الخلق، وقد كان النبي قبل البعثة شخصية جذابة، محبَّبة، ليس في الإسلام غطرسة وغلظة، رقيق الحاشية، لطيف المعشر، ليِّن العريكة، يألف ويؤلف، وهكذا المؤمن، ثم جاءت آصرة القربى، فتوثَّقت ما بينهما من علاقة، وذلك حين تزوج النبي عليه الصلاة والسلام من عمته خديجة بنت خويلد رضي الله عنها.

متى أسلم حكيم بن حزام، وما الشيء الذي كان يؤلمه ؟

أما الشيء الذي يدعو للعجب، والشيء الذي لا يُصدق، أنّ هذا الإنسان العاقل الفهم، الفطن، الذكي، صاحب النسب العريق، صديق النبي الحميم وقريبه، حينما جاء الإسلام، وحينما بُعث نبي الإسلام لم يؤمن به، ولم يصدقه، وبقي على الشرك عشرين عاماً إلى أن فُتحت مكة، فهذا الشيء عجيب حقًّا .

فأنا أيها الأخوة، حين أجد إنسانًا تفكيره محدود، وجاهل، وضائع، ومنحرف، وواقع في المعاصي، فهذا شيء طبيعي جداً، لأنّ ضعف التفكير يقود إلى كل هذه الحماقات، ضعف التفكير ، التخلف العقلي، ضيق الإمكانيات، ضيق الأفق، يقود لكل حماقة، أما والله الذي لا إله إلا هو يشتد عجبي من إنسان ذكي فهيم، يفهم سريعاً، يستوعب كثيراً، ويكون منحرفاً، أتساءل: يا رب كيف يجتمع هذا العقل الراجح مع هذا السلوك المنحرف؟ .

إنسان يتمتع بإمكانات عقلية كبيرة، لا يستقيم على أمر الله، ولا يطلب الجنة، بل يجعل الدنيا أكبر همِّه، ومبلغ علمه، ويبقى في حمأتها، وفي وحلها، وهو ذو العقل الحصيف، هذه مفارقة مزعجة .

كان المظنونُ برجلٍ مثل حكيم بن حزام حباه الله بذاك العقل الراجح، ويسر له تلك القربى من رسول الله عليه صلوات الله، أن يكون أول من يؤمن به، وأول من يصدقه، وأول من يهتدي بهديه .

الإنسان مخير، على الرغم من رجاحة عقله وفطانته، آثر قومه وآثر أن يبقى مع زعماء قريش ومع علية القوم ذوي الضلالة .

لكن الشيء الذي يدعو للعجب أيضاً أن هذا الصحابي الجليل أسلم يوم فتح مكة، فما كاد يدخل الإسلام ويتذوق حلاوة الإيمان حتى جعل يعض بنانه ندماً، ذاق حلاوة الإيمان، وذاق أمن الإيمان، وذاق حلاوة القرب من الله، وذاق لذة التوبة إليه، وذاق لذة الإنابة إليه، وذاق حلاوة الصلح معه، وذاق حلاوة الانضباط، وذاق حلاوة الطاعة، كل ذلك شعر به لما ذاق حلاوة الإيمان ، والنبي ذكّر أنّ الإيمان له ذوق وطعم، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ:

((ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ؛ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ))

[متفق عليه، أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح عن أنس بن مالك]

هذا الصحابي بعد أن أسلم بعد عشرين عامًا، بعد فتح مكة، وبعدما خاض مع المشركين معركة بدر، ومعركة أحد، ومعركة الخندق، بعد حين طويل، وبعد حقب طويلة أسلم .

الإنسانُ أحياناً يتعرف إلى الحقيقة، ولكن في سن متأخرة، أين الشباب؟ لقد أمضاه في اللهو، وأين ذهبت طاقةُ شبابه؟ وأين حيوية الشاب وإقباله والطاقات التي أودعها الله فيه؟ هذه كلها أنفقها في المعاصي .

هذا الصحابي جعل يعضّ أصابع الندم على كل لحظة قضاها من عمره، وهو مشرك بالله، مكذب لنبيه.

إليكم الحديث الذي دار بين حكيم وولده، وما العبرة منه ؟

أيها الأخوة، فمرة رآه ابنه يبكي، فقال:

((يا أبتاه، ما يبكيك؟ قال: أمور كثيرة، كلها أبكتني يا بني، أولها بُطْءُ إسلامي، ممّا جعلني أسْبَقُ إلى مواطن كثيرة صالحة، حتى لو أني أنفقت ملء الأرض ذهباً لما بلغت شيئاً منها،

-متى؟ بعد فوات الأوان، لو أن الشباب بالتعبير العام يغبون غبة كبيرة، يعني أقبلوا على الله، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم، وطلبوا العلم، وتعرّفوا إلى الله، وقرؤوا القرآن، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، وأنفقوا من أموالهم، فالله يرقيهم درجة درجة .

الوقت ثمين، فإذا لم يكن الإنسان متزوجًا فعليه أن يستغل العزوبة في طلب العلم، لأن الزواج مشغلة، فإذا كان للإنسان وقت فراغ فليستغِله في حفظ القرآن الكريم، وفي طلب العلم، وفي العمل الصالح، وفي خدمة الحق وأهله، وفي الالتزام بالمنهج الديني- .

ثم قال له: شيء آخر أبكاني، فإن الله أنجاني يوم بدر وأحد، فقلت يومئذ في نفسي: واللهِ لا أنصر بعد ذلك قريشاً على النبي صلى الله عليه وسلم،

-ماذا تستنبطون من هذا الكلام؟ أنه حينما كان يحارب النبيَّ يعرف أنه رسول، ويعرف أنه نبي، ويعرف أنه على حق، ويعرف أنه منصور ، هذه مشكلة كبيرة عويصة، تعادي إنسانًا، وتعلم أنه على حق، وتنتقص من قيمة إنسان، وتعلم أنه على حق، تشوش على إنسان، وتعلم أنه على حق، وتطعن في إنسان، وتعلم أنه على حق، وتحارب إنسان، وتعلم أنه على حق، فالمعنى أنها مصالح ذاتية، ومآرب خاصة، وتجمعات مصلحية، حينما تعرف أن فلانًا على حق وتحاربه، فهذه مصلحة، لم تعُد دعوة إلى الله، بل أصبحت مصلحة مادية، وحفاظًا على مناصب، وحفاظًا على زعامة، وعلى المكاسب، وهذا شيء خطير .

أقول لكم هذه الحقيقة: لو عاديت أهل الحق أشد عداوة، وأنت تعلم أنهم على باطل، أهون ألف مرة أنْ تعاديهم بكلمة، وتعلم أنت علم اليقين أنهم على حق، إذا كان الإنسان لا يعرف فهو معذور، أما الذي يعرف فلا يُعذر .

أيها الأخوة الكرام، نصيحة أزجيها لكم من أعماق قلبي، إياكم أن تقفوا في خندق تعادون به أهل الحق، إياكم أن تحاربوا الله ورسوله، لأنكم في النهاية مهزومون، فحين تحارب الله عز وجل، فأنت تحارب دعوة الحق، وهذه محاربة لله عز وجل، تعرف هذا المسجد فيه إخلاص، وفيه دعوة الحق، فلا تحاربه، ولا تدخل في معركة لا قِبَلَ لك بها، وإنّ لحوم العلماء مسمومة، قال تعالى:

(أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آَمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآَخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

(سورة يونس الآية: 62-64)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ، وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ))

[أخرجه البخاري في الصحيح عن أبي هريرة]

كلما رأيت عالمًا: هذا لا يفهم، من أنت؟ وهذا ليس لي ثقة في نواياه، أأنت إله لتعلم نواياه؟ ابق في أدبك، ابق ضمن أخلاقك الإسلامية، الدعاة قلة ولو كانوا كثيرين، ترى مدينة فيها خمسة ملايين، الناسُ الذين يُستفاد منهم يُعدُّون على الأصابع، وهؤلاء نريد أن نحطمهم، ونتهمهم ، وننزلهم على الأرض، ونشكك في دعوتهم؟- .

قال: فما لبثت أن جُررتُ إلى نصرة قريش جراً، سحَبُوه للمرة الثالثة، فسحبوه إلى معركة الخندق، - والله شيء صعب، والإنسان يتمزق أحياناً أنت تحارب شخصًا على حق، تعرفه نبياً ثم تحاربه؟ إذن حُقّ له أنْ يبكي، وأنْ تفيض عيناه- .

قال: ثم إنني كلما هممت بالإسلام، وآتي النبي مسلماً، نظرت إلى بقايا من رجالات قريش، لهم أسنان وأقدار، متمسكين بما هم عليه من أمر الجاهلية، فأقتدي بهم وأجاريهم .

-اليوم ترى شابًا أبوه وعده ببيت، ووعده بسيارة، وأبوه لا دين له، تراه يؤاثر جانب والده، يقول: ليس لي مصلحة في إغضابه، اختلاط، ودخل حرام، وتجارة لا ورعَ فيها، ومع ذلك يسير في ركبِ والده، لقد آثر دنياه على آخرته .

في الشام رجل من الغنى بمكان، لو طلبتْ منه ابنتُه خمسة ملايين بكلمة يعطيها هذه الملايين، ولا تأكل من طعامه لقمة واحدة، عنده ملهى، وماله كله حرام، تعمل معلمة في إحدى قرى دمشق، وتأكل من عملها، ولا تأكل من مال أبيها، قال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ)

(سورة الأنعام الآية: 95)

قال: ويا ليتني لم أفعل، فما أهلكنا إلا الاقتداء بآبائنا وكبرائنا، فلِمَ لا أبكي يا بنيَّ))

أيها الأخوة، لا تكن خطيئة لأحد، لا تكن ضحية لأحد، لا تكن أداة لأحد، لا تكن أداة رخيصة لأحد، لا تكن منديلاً يُمسح بك أقذر عملية ثم تلقى، انتبه، لا تكن أداة للآخرين، هناك أشخاص، أشبههم بالمنديل الورقي، تُمسح به أقذر عملية، ثم يُلقى بسلة المهملات، قال تعالى:

(وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى)

(سورة طه الآية: 79)

وقال عز وجل:

(فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ)

(سورة القصص الآية: 8)

وقال:

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً)

(سورة الكهف الآية: 28)

وقال:

(وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

(سورة لقمان الآية: 15)

وقال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ)

(سورة الممتحنة الآية: 13)

أيها الأخوة، كما عجبنا نحن من تأخُّر إسلام حكيم بن حزام، وكما كان يعجب هو نفسه من ذلك أيضاً، فإن النبي صلوات الله وسلامه عليه، كان يعجب من رجل له مثل حلم حكيم بن حزام وفهمه، كيف يخفى عليه الإسلام؟ وكان يتمنى له وللنفر الذين هم على شاكلته أن يبادروا في الدخول في دين الله . النبي عليه الصلاة والسلام لما أسلم سيدنا خالد، قال له:

((عجبت لك يا خالد! أرى لك فكراً، وكنت أرجو ألاّ يهديك إلا إلى خير))

يعني لماذا تأخرت؟ .

مرة ثانية، إذا آتى الله عبدًا عقلاً، وفكرًا، فيجب ألا يغلط، ويجب أن يعرف الحق في الوقت المناسب، والنبي عليه الصلاة والسلام في الليلة التي سبقت فتح مكة قال لأصحابه:

((إن بمكة لأربعة نفر أربأ بهم عن الشرك، وأرغب لهم في الإسلام .

-هناك نقطة دقيقة، إذا كان الإنسان يعصي الله، ولكنه يعصيه وهو متألم، مغلوب على أمره، فهذا عنده حياء وخجل مرضي، ضغطوا عليه لكنه متمزق من داخله، فهذا الذي يعصي الله وهو متألم أشد الألم نرجو له خاتمة طيبة، وهذا معنى قول النبي عليه الصلاة والسلام المرويّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ:

((إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ فِي أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ إِلَيْهِ الْمَلَكَ، فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعٍ يَكْتُبُ رِزْقَهُ وَأَجَلَهُ وَعَمَلَهُ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، فَوَ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، ثُمَّ يَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، ثُمَّ يَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا))

[متفق عليه، أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح عن عبد الله بن مسعود]

قيل: مَن هم يا رسول الله؟ قال: عتاب بن أسيد، وجبير بن مطعم، وحكيم بن حزام، وسهيل بن عمرو))

أربعة مشركين، لكن النبي عليه الصلاة والسلام يتوسم فيهم الخير .

بالمناسبة، رأيت رجلاً لا يصلي، وفي الظاهر لا دين فيه، لكن أخلاقه عالية، عنده حياء، وعنده مروءة، وقلبه رقيق، يحب الخير، وفكره ناضج، فإيّاك أن تيأس منه، هذا إنسان فيه خير، احرص عليه، اتصل به، قدِّمْ له كل خدمة، لأنه قريب جداً، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قِيلَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ؟ قَالَ: أَكْرَمُهُمْ أَتْقَاهُمْ، قَالُوا: يَا نَبِيَّ اللَّهِ لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ، قَالَ: فَأَكْرَمُ النَّاسِ يُوسُفُ نَبِيُّ اللَّهِ ابْنُ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنِ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنِ خَلِيلِ اللَّهِ قَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ، قَالَ: فَعَنْ مَعَادِنِ الْعَرَبِ تَسْأَلُونِي، قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: فَخِيَارُكُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقُهُوا))

[متفق عليه، أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح عن أبي هريرة]

ومن فضل الله عز وجل أنهم أسلموا جميعاً، وأن النبي كان صائباً في نظرته، وأنه كان صادقاً في فراسته، وأنه أوتي نظرة عميقة .

ماذا صنع النبي يوم دخل مكة فاتحاً، وعلام يدل صنعه ؟

أيها الأخوة، وحين دخل النبي عليه الصلاة والسلام مكة فاتحاً، انظروا إلى حكمة النبي ، إنسان له مكانته ومن علية القوم، عاقل تأخر بالإسلام، فكيف استجلبه؟ أمر النبي عليه الصلاة والسلام مناديه أن ينادي؛ من شهد أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله فهو آمن، ومن جلس عند الكعبة فوضع سلاحه فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن، جعل له شأنًا صلى الله عليه وسلم، فأعانه على نفسه، وعلى كبريائه.
كانت دار حكيم بن حزام أسفل مكة، ودار أبي سفيان في أعلاها، وكان النبي حكيمًا أيضاً، تقول مثلاً: مَن يدخل بيت في حيِّ المهاجرين من أهل الشام فهو آمن، وأناس آخرون يسكنون في الجهة المقابلة البعيدة، فاجعلْ لهم بيتًا ثانيًا في ذلك الحيِّ أيضًا، بيت بالشمال، وبيت بالجنوب؟ فالنبي عليه الصلاة والسلام، قال:

((من دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن))

فرحِم الناس أيضاً .

ما هو القسم الذي أقسمه حكيم، وهل بر بقسمه ؟

أسلم حكيم بن حزام إسلاماً ملك عليه لبه، وآمن إيماناً خالط دمه ومازج قلبه، وآلى على نفسه أن يكفِّر عن كل موقف .

هنا اقتدوا بالعقلاء، فالذي قضى صُيوفًا في المعاصي، وفي هذه الصيفية تاب إلى الله، يخاطب ربه: يا رب، أنا كما أمضيتُ تلك العطل فيما لا يرضيك، واللهِ لأمضينَّ غيرَها فيما يرضيك، وما أنفقتُ كثيرَ الأموال على المعاصي والآثام، والله لأنفقنَّ مثلها على الطاعات، وكما صحبتُ أهل الدنيا من أجل

دنياهم، والله لأصحبنّ أهل الإيمان من أجل ديني، فالذي تاب إلى الله عز وجل، وانتقل من طور إلى طور، والذي اصطلح مع الله، يناجي ربه هذه المناجاة .

آلى على نفسه أن يكفر عن كل موقف وقفه في الجاهلية، أو نفقة أنفقها في عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد برَّ بقسمه، فأول شيء فعَله دار الندوة، أكبر بناء في مكة، وهو مشهور في التاريخ، هي داره الشخصية، وهي دار عريقة ذات تاريخ، ففيها كانت قريش تعقد مؤتمراتها في الجاهلية، وفيها اجتمع ساداتهم وكبراؤهم يأتمرون برسول الله صلى عليه الصلاة والسلام، فأراد حكيم بن حزام أن يتخلص منها، وكأنه أراد أن يرخيَ ستاراً من النسيان على ذلك الماضي البغيض، فباعها بمئة ألف درهم، فقال له قائل من فتيان قريش:

((لقد بعتَ مَكْرُمَة قريش يا عمّ، فقال له حكيم: هيهات يا بني، ذهبت المكارم كلها، ولم يبق إلا التقوى، دار اجتمعنا فيها، وقررنا فيها قتْلَ رسول الله، أيُّ مَكْرُمَةٍ هذه؟ .

-أحياناً يقول لك إنسان: هذا عملٌ لا يرضي الله عز وجل، عمل مِن أثر أبي، هذا العود من بقايا أعواد أبي، لستَ محتاجًا إلى هذه السمعة، ولو كان من آثار أبيك، دعْك من كل هذا، والتمِسْ ما يقرِّبك من الله سبحانه- .

قال: وإني لأشهدكم أنني جعلت ثمنها في سبيل الله عز وجل))

أيؤمن رجلٌ ويسلم ويتوب ولا يغيِّر حالَه؟ يجب أن نغيِّر كل رفاق السوء، إذا كان له رفاق سوء، يجب أن يتخلص منهم جميعاً، هذه اللقاءات الباطلة، هذه الأماكن، هذه الطرقات المزدحمة بالنساء، صار بريئًا منها كلها .

إذا لم يحدُثْ تبدلٌ جذريٌّ، ولم يكن بالمعنى الحديث ثورة في حياتك على كل معصية، وعلى كل مكان سيء، وعلى كل صديق سيء، وعلى كل مخالفة، فليستْ هذه توبةً، ولا عودة إلى الله تعالى . حجَّ حكيم بن حزام بعد إسلامه، فساق أمامه مئة ناقة مجلّلة بالأثواب الزاهية، ثم نحرها جميعاً في سبيل الله، وأطعم لحمها للفقراء .

وفي حجة أخرى، وقف في عرفات ومعه مئة من عبيده، فقدْ كان غنيًّا، وقد جعل في عنق كل واحد منهم طوقاً من الفضة، نُقِشَ عليه عتقاء لله عز وجل عن حكيم بن حزام .

وفي حجة ثالثة، ساق أمامه ألف شاة، وأراق دمها كلها في منى، وأطعم بلحومها فقراء المسلمين تقرباً إلى الله عز وجل، وهذا ليكن الإسلام، ولتكن التوبة إلى الله عز وجل .

ما هي النصيحة التي أرشد بها النبي حكيم، وهل استجاب لهذه النصيحة ؟

بعد غزوة حنين سأل حكيم بن حزام رسول الله صلى الله عليه وسلم من الغنائم فأعطاه، ثم سأله فأعطاه، حتى بلغ ما أخذه مئة بعير، وكان يومئذ حديث عهد بالإسلام، فقال له النبي عليه الصلاة والسلام:

((يا حكيم، إن هذه الأموال حلوة خضرة، فمن أخذها بسخاوة نفس -يعني بعفة نفس- بورك له فيها، ومن أخذها بإشراف نفس – بطمع- لم يبارك له فيها، وكان كالذي يأكل ولا يشبع))

عَنْ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ:

((الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنْ الْيَدِ السُّفْلَى، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ، وَخَيْرُ الصَّدَقَةِ عَنْ ظَهْرِ غِنًى، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ))

[متفق عليه، أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح عن حكيم بن حزام]

فلما سمع حكيم بن حزام ذلك من النبي عليه الصلاة والسلام، قال: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق لا أسأل أحداً بعدك شيئاً . النبي أعطاه ونصحه، ولكن كانت النصيحة مؤثّرة جداً، وعلامة إيمانه الصادق أنه استجاب، وبر حكيم بقسمه أصدق البر، ففي عهد أبي بكر رضي الله عنه، دعاه الصديق أكثر من مرة لأخذ عطاء من بيت مال المسلمين فأبى أن يأخذه، ولما آلت الخلافة إلى الفاروق دعاه مرة ثانية إلى أخذ عطاء فأبى أن يأخذه، فقام عمر في الناس وقال:

((أشهدكم يا معشر المسلمين، أني أدعو حكيماً إلى أخذ عطائه فيأبى))

وظل حكيم كذلك لم يأخذ من أحد شيئاً حتى فارق الحياة .

ما هي المغزى التي يمكن أن نستنبطها من قصة حكيم بن حزام ؟

هذه قصة حكيم بن حزام فيها نقاط مضيئة، أبرزها أنه إذا آتاك الله عقلاً راجحاً، وفكراً ثاقباً، وإمكانات عالية، ينبغي أن تسرع بك إلى الله، ولا ينبغي أن تبطئ بك، لأن الحسرة عندئذ تكون كبيرة، ولأن الإسلام أساسه العقل، وأساسه الواقع، وأساسه الفطرة، فأي إبطاء في إسلامك، مع رجاحة عقلك فهذا يدعو للعجب العجاب، يعني الذي أنت فيه يتناقض مع العقل الراجح الذي أعطاك الله إياه، فأرجحكم عقلاً أشدكم لله حباً . فالنبي عليه الصلاة والسلام جعل العقل حاكماً على القلب، يقول أحدُهم: أخي أنا أحبُّ، والحبُّ ليس بيدي، بل الحبُّ بيدك، أعملْ عقلك تحبَّ الله عز وجل، أرجحكم عقلاً أشدكم لله حباً .

والحمد لله رب العالمين

السيرة - رجال حول الرسول - الدرس (44-50) : سيدنا زيد بن سهل الأنصاري

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 23-08-1993

بسم الله الرحمن الرحيم

ما هي نظرة الإسلام إلى المرأة، وما هي نظرة أهل الكفر إلى المرأة ؟

كرم الاسلام المرأة بتعليمها

أيها الأخوة المؤمنون، لا زلنا مع سير صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضوان الله تعالى عليهم أجمعين، ولا زلنا مع الدرس الرابع والأربعين من هذه الدروس، وموضوع درس اليوم سيدنا زيد بن سهل، أبو طلحة الأنصاري .

قبل أن نقرأ تفاصيل حياة هذا الصحابي، لا بد أن تعلموا أن المرأة في الإسلام لا تقل عن الرجل إطلاقاً، وكلما ازداد الإنسان علماً تبين له أن المرأة من حيث التشريف والتكليف كالرجل تماماً، وربما وهبها الله عز وجل من الأعمال الصالحة التي تفوق بها الرجال، فهذا الصحابي الجليل كان أحد الصحابة الذين كان لهم باع طويل في الدعوة إلى الله، هل تصدقون أن سبب هدايته إلى الله امرأة؟ .

لا تعجبوا أن تروا بين رواد المساجد عدداً كبيراً منهم كانت النساء، زوجات، أو أمهات، أو أخوات وراء هداية الرجال، فالمرأة كائن عظيم، والإسلام كرّمها، والكفر دنّسها، وجعلها سلعة، فلو أردتَ أن تبيع طلاء أحذية تحتاج إلى صورة امرأة شبه عارية على العلبة، كي تباع هذه السلعة، والكفار جعلوها سلعة رخيصة، بينما الإسلام جعلها كائناً عظيماً، وعلى كلٍّ من ثنيات هذه القصة تبدو لكم ملامح عظمة المرأة .

إليكم قصة إسلام أبي طلحة الأنصاري :

عرف زيد بن سهل النجّاري، صحابي اليوم المُكنّى بأبي طلحة، أن الرميصاء بنت ملحان النجّارية المكناة بأم سليم قد غدت أيّماً، أي أصبحت بلا زوج، وربنا عز وجل قال:

(وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

[سورة النور الآية: 32]

الأيامى كلمة مطلقة، تشمل الذكور والنساء، أي مخلوق من بني البشر ليس له زوج أو زوجة فهو أيّم، والأمر الإلهي متوجّهٌ إلى أولي الأمر أولاً، وإلى أولياء الأمور ثانياً، وإلى الأطراف المعنية بالزواج ثالثاً، والزواج سنة .

استطار فرحاً بهذا الخبر، وفرح فرحاً لا حدود له، حتى استخفه الفرح، ولا غرو فقد كانت أم سليم سيدة حصاناً رزاناً، راجحة العقل، مكتملة الصفات، وما أجمل أن يجتمع في المرأة كمالُ الخَلق، مع كمال الخُلق، مع رجاحة العقل، يبدو أن أم سليم كانت كذلك، فعزم أن يبادر إلى خطبتها قبل أن يسبقه أحد ممن يطمحون إلى أمثالها من النساء، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ:

((الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وَخَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ))

[أخرجه مسلم في الصحيح عن عبد الله بن عمرو]

الدنيا كلها متاع وخير متاعها المرأة الصالحة، ليس في النساء درجة الوسط إما أنها جنة، وإما أنها نار، فعَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ، قَالَ:

((جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: إِنِّي أَصَبْتُ امْرَأَةً ذَاتَ حَسَبٍ وَجَمَالٍ، وَإِنَّهَا لَا تَلِدُ، أَفَأَتَزَوَّجُهَا؟ قَالَ: لَا، ثُمَّ أَتَاهُ الثَّانِيَةَ فَنَهَاهُ، ثُمَّ أَتَاهُ الثَّالِثَةَ، فَقَالَ: تَزَوَّجُوا الْوَدُودَ الْوَلُودَ فَإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمْ الْأُمَمَ))

[أخرجه أبو داود في سننه عن معقل بن يسار]

المودة في الزوجة شيء لا يقدّر بثمن، والولود تنجب لك أولاداً هم ثمرة هذا اللقاء .

كان أبو طلحة على ثقة من أن أم سليم لن تؤثر عليه أحداً من طالبيها، يبدو أنه في مستواها، كمال في الخَلق والخُلق وشهامة ومروءة وشجاعة، لكن تعليق بين قوسين لو أن الإنسان جاءته امرأة كأمّ سُلَيْم ربما قعد عن طلب الحق، لأن المرأة الكاملة مشغلة، فيطمئن إليها، وتطمئن إليه فيكسلان، فالمرأة الوسط أيضاً نعمة، فعلى المسلم ذكرا كان أم أنثى أنْ ينطلق إلى التعليم، وإلى طلب العلم، وإلى العمل الصالح، وكل إنسان له حالة خاصة .

كان هو أيضاً رجلاً مكتمَل الرجولة، مرموقَ المنزلة، طائل الثروة، وهو إلى ذلك فارس بني النجار، وأحد رماة يثرب المعدودين .

مضى أبو طلحة إلى بيت أم سليم، يبدو أن الحياة كانت بسيطة، وهو في بعض طريقه تذكّر أن أم سليم قد سمعت من كلام هذا الداعية المكيّ مصعب بن عمير، فآمنت بمحمد، واتبعت دينه، لكنه ما لبث أن قال في نفسه: وماذا في ذلك؟ ليس ثمة مشكلة، ألم يكن زوجها قد توفي عنها مشركًا مستمسكاً بدين آبائه، وعلى عبادة الأصنام، نائياً بجانبه عن محمد ودعوته، وهو خارج هذا الاهتمام، وخارج هذا النشاط، بلغ أبو طلحة منزل أم سليم، واستأذن عليها، فأذنتْ له، وكان ابنها أنس حاضراً، فعرض نفسه عليها مباشرة، القرآن علّمنا، كما أن المرأة تُخطَب فالشاب يُخطَب، قال له:

(قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ)

[سورة القصص الآية: 27]

عندنا عادات بعيدة عن جوهر الإسلام، هل يُعقَل أنْ يعرض الأبُ ابنته على رجل للزواج؟ معنى ذلك أنّ فيها علة كبيرة، فإذا وجدت شابًا مؤمنًا لابنتك، يا بني أنا عندي ابنة مناسبة لك، هذه ما فيها غضاضة، ترى الحياء الحياء، وبقيت هذه الفتاة عانساً، شيء صعب أن تتجاوز فتاة سن الثلاثين بلا زوج، مصيرها عند أحد أخوتها تحت سيطرة زوجة أخيها، قال تعالى:

(وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

[سورة النور الآية: 33]

هل يوجد أب على وجه الأرض فيه ذرة إيمان يدفع ابنته للزنا؟ مستحيل، فلمن هذه الآية إذن؟ أليس الله يخاطب بها المؤمنين؟ نعم، القرآن أراد بهذه الآية أن الأب الذي يضع العراقيل أمام الخاطب فقد أكرهتَ ابنتَك على الزنا، وأنت لا تشعر، وأيقظتَ فيها جانب الشهوة، وأنت لا تشعر .

أنت مثلاً؛ إذا كان عندك صانع تعطيه ألف ليرة في هذا الزمان، وهو يرى أن دخلك كبير، ومحلك ضخم، وبضاعة، واستيراد وتصدير، وكأنك تدفعه إلى أن يسرق منك مالاً من وراء ظهرك، وتدفعه دفعاً لأنك لم تكفه، فأنت السبب، لا يصحُّ عند أبٍ عاقل أنْ يضع عراقيل أمام زواج ابنته .

أيها الأخوة، الأمر صار في زماننا صعبًا عسيرًا، يجب أن تقبل ببيت خارج دمشق، وبيت مؤلف من غرفة واحدة وإذا كان أبوه وأمه وحدهما في البيت فاقبلْ بغرفة عند أبيه وأمه، وعلِّم ابنتك أن يكون عندها حسن سياسة، لأنّ أي شيء مزعج في الزواج أخف من أن تبقى ابنتك بلا زواج، واللهِ عشرات بل مئات الفتيات الطاهرات العفيفات المستقيمات نتيجة تعنُّت آبائهن ووضع العراقيل أمام الخُطّاب،

ولشموخ أنف آبائهن، ولعرقلة الأمور، ولمظاهر زائفة، فمجتمعنا الإسلامي قتلته المظاهر، حتى صرنا على مشارف فساد أخلاقي شديد، بل حتى السفاح حل محل النكاح، فالآباء عليهم أن يساعدوا خطاب بناتهم في أي شيء، وهذه ابنتك مثل ابنك فلماذا هذه العنصرية؟ كما أمّنتَ لابنك بيتًا فأَمِّنْ لابنتك بيتًا، وزوجها شاب مؤمن، فليس من الغلط إذا ساعدت زوج ابنتك، هذه أشياء نعيشها جميعاً، الذي عنده بنات لا يضع عراقيل أبداً، ما دام هناك مسكن شرعي، ليس فيه اختلاط، وليس فيه فساد فيجب أن تبادر إلى قبول هذا الزوج، ما دام مؤمنًا مستقيمًا، ولا تجعل من ابنتك سلعة تغتني بها .

ماذا قالت هذه الفتاة العاقلة؟ قالت:

((إن مثلك يا أبا طلحة لا يُرَدُّ، لكنني لن أتزوجك وأنت رجل كافر، فظن أبو طلحة أن أم سليم تتعلل عليه بذلك، وأنها قد آثرت عليه رجلاً آخر أكثر منه مالاً أو أعز ونفراً، -فقدْ أساء ظنًا حين اعتقد أنّ خاطبًا أغنى منه قد سبقه إلى أم سليم ، فتعللت بموضوع الكفر كي تنسحب منه، وتتزوج ذلك الأغنى- .

فقال: والله، ما هذا الذي يمنعك مني يا أم سليم؟ قالت: ما الذي يمنعني إذاً؟ قال: الأصفر والأبيض، الذهب والفضة، -هذا سوء ظن محض- قالت: الذهب والفضة، قال: نعم، قالت: بل إني أشهدك يا أبا طلحة، وأشهد الله ورسوله أنك إن أسلمتَ رضيتُ بك زوجاً من غير ذهب ولا فضة، وجعلتُ إسلامك لي مهراً، -هكذا كان الصحابة .


النبي تحمل كل انواع المتاعب

أنا أقول لكم هذه الكلمات: لو أن الإسلام الذي نحن عليه هو الذي كان على عهد النبي، واللِه الذي لا إله إلا هو ما خرج الإسلام من مكة المكرمة إلى المدينة، ولمَا وصل إلى مشارق الأرض ومغاربها إلا بعدما أظهر الصحابة الكرام من المواقف البطولية ما يعجز عن إدراكه البشر- .

وما إن سمع أبو طلحة كلام أم سُليم حتى صرف ذهنه إلى صنمه الذي اتخذه من نفيس الخشب، وخص به نفسه كما يفعل السادة من قومه، لكن أم سليم أرادت أن تطرق الحديد وهو ما زال حامياً، فقالت له: ألست تعلم يا أبا طلحة أن إلهك الذي تعبده من دون الله قد نبت من الأرض؟ قال: بلى، قالت: أفلا تشعر بالخجل، وأنت تعبد جذع شجرة جعلت بعضه لك إلهاً، بينما جعل غيرك بعضه الآخر وقوداً به يصطلي، إنك إن أسلمت يا أبا طلحة رضيت بك زوجاً ولا أريد منك صداقاً غير

الإسلام، قال لها: ومن لي بالإسلام؟ قالت: أنا لك به، قال: وكيف؟ قالت: تنطق بكلمة الحق، فتشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ثم تمضي إلى بيتك، وتحطم صنمك، فانطلقتْ أسارير أبي طلحة، وقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، ثم تزوج مِن أمّ سليم، فكان المسلمون يقولون: ما سمعنا بمهر قط كان أكرمَ من مهر أم سليم، فقد جعلت صداقها الإسلام .

ومنذ ذلك التاريخ انضوى أبو طلحة تحت لواء الإسلام، ووضع طاقاته الفذة كلها في خدمة الإسلام))

خطب شابٌ بنت عالم اسمها وصال، قال: يا بني، هذه مهرها أنْ تلازم دروسنا، قال له: لك ما تشاء، وهو جالس في الدرس كان عقله عند خطيبته، ثم يبدو أنه انتبه للدروس، وفي الدرس الثاني انسجم، وفي الدرس الثالث ذاب، وفي الرابع انطلق، وفي الخامس اصطلح مع الله، وفي السادس بدأ يرقى، ونسي المخطوبة، فأرسلتْ له: يا فلان، أين العهد أن تتزوجني؟ فقال لها: يا وصال كنتِ سببَ الاتصال.

أحياناً الإنسان يهتدي على يد زوجته، أو على يد أخته، أو على يد امرأة عظيمة من ذوات قرابته، ليس في هذا عار، الإنسان عليه أن يصل إلى الله من أي طريق، كما قال الإمام الغزالي:

((طلبنا العلم لغير الله، فأبى العلم إلا أن يكون لله))

لقدْ جاء لهدف، وانتهى إلى هدف آخر .

سيدنا أبو طلحة، قال:

((كان أحد السبعين الذين بايعوا رسول الله صلى الله وسلم، ومعه زوجه أم سليم، وكان أحد النقباء الاثني عشر الذين أمّرهم النبي عليه الصلاة والسلام في تلك الليلة على مسلمي يثرب))

إليكم موقفه يوم أحد ، علام يدل ؟

أيها الأخوة، ثم إنه شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مغازيه كلها، وأبلى فيها أشرف البلاء وأعزه، لكن أعظم أيام أبي طلحة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما هو يوم أحد .

يا أيها الأخوة الكرام، الحقيقة أسعد إنسان هو الذي له مع النبي عليه الصلاة والسلام موقف، فإن لم يكن مع النبي فمع أصحابه، فإنْ لم يكن فمع التابعين، وإنْ لم يكن فمع الدعاة إلى الله، ومع أهل الحق، والمغزى أنْ يكون الإنسان جنديًا للحق، وألاّ يكون في خندق الباطل معاديًا لأهل الحق، وهذه القصة التي أمامكم شيء لا يصدق .

أحب أبو طلحة النبي صلى الله عليه وسلم حباً خالط شغاف قلبه، وجرى مجرى الدم في عروقه، فكان لا يشبع من النظر إليه، ليس من السهل أن تلتقي بنبي عظيم، ليس من السهل أن تقتبس من أنواره، من حكمه، من أحواله، من علمه .

كان لا يشبع هذا الصحابي الجليل من النظر إليه، ولا يرتوي من الاستماع إلى عذب حديثه، فلما كان يوم أحد انكشف المسلمون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنفذ إليه المشركون من كل جانب فكسروا رباعيته، أيْ سنه التي بين الثنية والناب، وشجُّوا جبينه، وجرحوا شفته، وأسالوا الدم على وجهه، النبي صلى الله عليه وسلم تحمّل، وقال:

((أوذيت وما أوذي أحد مثلي، وخفت وما خاف أحد مثلي، ومضى عليّ ثلاثون يوماً لم يدخل جوفي إلا ما يواري إبط بلال))

النبي أسوة لنا، تحمل كل أنواع المتاعب، تحمل الأذى، تحمل الفقر، تحمل الخروج من الوطن، تحمل الخوف، فهو بشر، ولأنه جرت عليه كل خصائص البشر كان سيد البشر، لولا أنه جرت عليه كل خصائص البشر لما كان سيد البشر .

فالنبي قدوة لنا، وإذا تحملتَ شيئًا مِنَ المتاعب في الدعوة إلى الله، وتحملت معارضة، ونقد لاذِعًا أحياناً، لك خصوم، هم أعداء لله عز وجل، أرادوا إطفاء نور الله فاستهدفوك، قال تعالى:

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[سورة آل عمران الآية: 139]

لما رأى أبو طلحة أن المسلمين انكشفوا عن النبي صلى الله عليه وسلم، وأنه كُسرت ثنيته، وجرحت وجنته، وسال الدم على جبهته، انتصب أبو طلحة أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم كالطود الشامخ، بينما وقف النبي عليه الصلاة والسلام خلفه يتترس به، ثم وَتَرَ أبو طلحة قوسه التي لا تُفل، وركّب عليها سهامه التي لا تخطئ، وجعل يذود بها عن رسول الله، ويرمي جنود المشركين واحداً إثر واحد، وكان النبي عليه الصلاة والسلام يتطاول من خلف أبي طلحة ليرى مواقع سهامه، فكان أبو طلحة رضي الله عنه يردُّه خوفاً عليه، ويقول له:

((بأبي أنت وأمي لا تشرف عليهم فيصيبوك، إنّ نحري دون نحرك، وصدري دون صدرك، جُعِلتُ فداك يا رسول الله .

-يا أخوان الإسلام حب، فإذا فُقِدَ الحب لم يبق في المرء إسلام، وهذا الدين فيه جانب علمي، وجانب انفعالي، فمن دون حب، كمركبة بلا محرك، هي ممتازة، وطلاؤها جيد، وتلمع ، ولكن لا محرك لها، فالذي يحركك إلى الله عز وجل هو الحبّ، والحب ثمنه الطاعة، وقد صدق أبو العتاهية في قوله:

تعصي الإله وأنت تظهر حبه   هذا محالٌ في القياس بديعُ

لو كان حبك صادقاً لأطعتـه   إن المحب لمن يحب يطيعُ

بصراحة أقول لكم: إذا لم تحبّ المؤمنين فهذه واللهِ مشكلة مستعصية، المنافقون يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، فيكفي أن يصلك خبر أن فلانًا المؤمن أصابه مكروه، يكفي أن ترتاح نفسُك

فتكون منافقًا، ولمجرد أن ترتاح لخبرٍ مفاده أن مؤمناً قد ابتلاه الله بمصيبة، والله الذي لا إله إلا هو ضع نفسك مع المنافقين ولا تخف، لأنّ علامة إيمانك أن تحب المؤمنين، وأن تتمنى لهم كل الحب، تتمنى عزهم، تتمنى أن يكونوا أقوياء، تتمنى أن ينتصروا، فهذا الذي يتمنى أن يكون العكس هو في خندق المنافقين وهو لا يدري- .

كان الرجل من جند المسلمين يمر بالنبي عليه الصلاة والسلام هارباً، ومعه الجعبة من السهام، فينادي عليه النبي، ويقول له: انثر سهامك لأبي طلحة .

-بالمناسبة قد تسأل: أيعقل أن يخذل الله الصحابة، وفيهم النبي عليه الصلاة والسلام؟ ممكن، بل لقد حصل ذلك، قال أحكمُ الحاكمين:

(لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ)

[سورة التوبة الآية: 25]

أنا أقول لكم دائماً: في حياتك يومان أيها الأخ؛ يوم كيوم بدر، ويوم كيوم حنين، فإذا كنت مفتقراً إلى الله تولاك الله، ونصرك الله، وأيدك الله، ووفقك، وحفظك، وإن قلت: أنا عندي مال وفير، عندي تجارب كثيرة متراكمة، عندي خبرات واسعة، أنا أجعل خصومي في قبضتي، إذا قلت: أنا، تخلّى الله عنك ووكّلك إلى نفسك، يوم بدر، قال تعالى :

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

[سورة آل عمران الآية: 123]

(لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ)

[سورة التوبة الآية: 25]

بعملك، باختصاصك، بدراستك، بتجارتك، بصناعتك، بزراعتك، بوظيفتك، بعلاقاتك، مع مَن هم أعلى منك، مع مَن هم أدنى منك، تقول: أنا، يتخلى الله عنك، تقول: أنا فقير إلى الله يتولاك، هذه نصيحة أزجيها لكم، قال تعالى:

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

[سورة البقرة الآية: 257]

هناك أربع كلمات مهلكات: (أنا، ونحن، ولي، وعندي)؛ أمّا (أنا) فقد قالها إبليس:

(قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ)

[سورة الأعراف الآية: 12]

فأهلكه الله، أمّا (نحن) فقالها قوم بلقيس:

(قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ)

[سورة النمل الآية: 33]

فظفر بهم سليمان مسلمين، وأمّا (عندي) فقالها فرعون:

(وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ)

[سورة الزخرف الآية: 51]

فأهلكه الله غرقًا، وقالها قارون:

(قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً)

[سورة القصص الآية: 78]

فخسَفَ الله عز وجل به وبداره الأرضَ،

صدق القائل:

مالي سوى فقري إليك وسيلة فبالافتقار
إليك فقري أدفعُ
مالي سوى قرعي لبابك حيلة فإذا رددت
فأي باب أقرعُ

ان المحب لمن يحب مطيع

كان عليه الصلاة والسلام يقول لمن انكشف عنه: انثر سهامك بين يدي أبي طلحة، ولا تمض بها هارباً، وما زال أبو طلحة ينافح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى كسر ثلاثة أقواس، وقتل ما شاء أن يقتل من جنود المشركين، ثم انجلت المعركة وسلّم اللهُ نبيه وصانه بصونه، وكما كان أبو طلحة جواداً بنفسه في سبيل الله في ساعات البأس))

ما هي قصة البستان الذي تصدق به أبو طلحة ؟

أيها الأخوة، فقد كان أكثر جوداً بماله في مواقف البذل ، كان له بستان من نخيل وأعناب لم تعرف يثرب بستاناً أعظم منه شجراً، ولا أطيب ثمراً، ولا أعذب ماءً .

ترى شخصًا عنده مزرعة، ولدينا مزارع جميلة جداً، مداخل، أشجار، نباتات زينة، ورود، أشتال، كروم، أشجار مثمرة، مسبح، يعني من هذا القبيل تقريباً .

قلت لكم في بداية القصة: إن أبا طلحة كان ثريًا، وعنده مزرعة من أجمل مزارع المدينة، جاء وصفها في كتب السيرة، وفيما كان أبو طلحة يصلي تحت أفيائه الظليلة، أثار انتباهه طائر غريب، أخضر اللون، أحمر المنقار، مخضب الرجلين، نظر إليه، وقد جعل يتواثب على أفنان الأشجار طرباً مغرداً متراقصاً، فأعجبه منظره، وسبّح بفكره معه، وما لبث أن رجع إلى نفسه فإذا هو لا يذكر، كم ركعة صلى؟ قد تجد في أثناء الصلاة شخصًا يرفع إصبعه يقرأ التشهد، وهو واقف، سارح في موضوعات ليس لها علاقة بالصلاة إطلاقًا .

حينما شعر أن هذا الطائر الصغير الجميل المغرد الذي يتراقص على أغصان الأشجار شَغَلَه عن صلاته، ما إن فرغ من صلاته حتى غدا على النبي عليه الصلاة والسلام، شكا له نفسه التي صرفها البستان وشجره الوارف، وطيره المغرِّد عن الصلاة، ثم قال:

((اشهدْ يا رسول الله، أني جعلتُ هذا البستان صدقة لله تعالى))

سيدنا سعد، قال:

((ثلاثة أنا فيهن رجل، وفيما سوى ذلك فأنا واحد من الناس، ما صليت صلاة فشغلت نفسي بغيرها حتى أقضيها))

هل شارك أبو طلحة المسلمين في غزوتهم في البحر، وفي عهد أي خليفة، وكيف كانت وفاته ؟

عاش أبو طلحة حياته صائماً مجاهداً، ومات كذلك صائماً مجاهداً، فقد أُثِر عنه أنه بقي بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم نحواً من ثلاثين عاماً صائماً لم يفطر، إلا في أيام الأعياد حيث يحرم الصيام، وأنه امتدت به الحياة حتى غدا شيخاً فانياً، لكن شيخوخته لم تحل دونه ودون مواصلة الجهاد في سبيل الله، والضرب في فجاج الأرض إعلاءً لكلمته وإعزازاً لدينه .

من ذلك؛ أن المسلمين عزموا على غزوة في البحر في خلافة عثمان، هؤلاء البداوة رعاة الشاة، صاروا قادة للأمم، صار لهم أسطول يغزون به الجزر في عهد عثمان بن عفان .

فأخذ أبو طلحة يعدّ نفسه للخروج مع جيش المسلمين المُبْحِر، فقال له أبناؤه، وكان شيخاً فانياً:

((يرحمك الله يا أبانا، لقد صرت شيخاً كبيراً، ولقد غزوتَ مع رسول الله، ومع أبي بكر، ومع عمر كثيراً، فهلاّ ركنت إلى الراحة، وتركتنا نغزو عنك؟ -بماذا أجابهم الشيخ الفاني وهو يطلب الجهاد في البحر؟- قال: إن الله عز وجل يقول:

(انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

[سورة التوبة الآية: 41]

ما معنى ثقالاً؟ المعنى الدقيق؛ الإنسان وهو صغير خفيف، طفل عمره خمس سنوات تراه يقفز مثل الكرة، يصعد على الدرج خمسة خمسة، ينزل عشرة عشرة، وهو خفيف، لكن في الخمسينات لم يعد خفيفًا، يصعد أربعة طوابق فيلهث، صار ثقيلَ الحركة، فالله بماذا أمرنا؟ قال :

(انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

[سورة التوبة الآية: 41]

أنت شاب، وأنت شيخ، وأنت كبير في السن، إن الله عز وجل يقول:

(انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

[سورة التوبة الآية: 41]

فهو قد استنفرنا جميعاً، شيوخاً وشباناً، لم يحدد سناً، ثم أبى إلا أن يخرج- .

((بينما كان الشيخ المعمر أبو طلحة على ظهر السفينة مع جند المسلمين في وسط البحر، مرض مرضاً شديداً فارق على أثره الحياة، فطفق المسلمون يبحثون له عن جزيرة ليدفنوه فيها، فلم يعثروا على مبتغاهم إلا بعد سبعة أيام، وأبو طلحة مسجى بينهم لم يتغير فيه شيء كأنه نائم، وفي عرض البحر، بعيداً عن الأهل والوطن، نائياً عن العشير والسكن، دُفن أبو طلحة في إحدى الجزر))

ما هو محور القصة، والعبرة التي يمكن أن نستنبطها منها ؟

أيها الأخوة، هل تصدقون أن هذا البطل العظيم، الذي وقف هذا الموقف العظيم أمام النبي عليه الصلاة والسلام، وبذل ماله الكثير، وجاهد وهو شيخ فانٍ، كل أعماله في صحيفة امرأته، التي دفعته إلى أن يسلم، فالمرأة لها مكانة عظيمة عند الله، المرأة كالرجل في التشريف والتكليف، وقد تفوقُ الرجل، قال تعالى:



(إنّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ)

[سورة الحجرات الآية: 13]

ربوا بناتكم على طاعة الله، علموهن القرآن الكريم، علموهن أحكام الفقه، علموهن حب النبي عليه الصلاة والسلام، فعن أسماء بنت يزيد الأنصارية أنها أتت النبي صلى الله عليه وسلم وهو بين أصحابه، فقالت:

((بأبي أنت وأمي، إني وافدة النساء إليك،

وأعلم نفسي أنه ما من امرأة كائنة في شرق ولا غرب سمعت بمخرجي هذا إلا وهي على مثل رأيي، إن الله بعثك بالحق إلى الرجال والنساء، فآمنا بك، وبإلهك الذي أرسلك، وإنا معشر النساء محصورات مقصورات، قواعد بيوتكم، ومقضى شهواتكم، وحاملات أولادكم، وإنكم معاشر الرجال فضلتم علينا بالجمعة والجماعات، وعيادة المرضى، وشهود الجنائز، والحج بعد الحج، وأفضل من ذلك الجهاد في سبيل الله، وإن الرجل منكم إذا خرج حاجا أو معتمرا أو مرابطا، حفظنا لكم أموالكم، وغزلنا لكم أثوابكم، وربينا لكم أموالكم، فما نشاركم في الأجر يا رسول الله؟ فالتفت النبي صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه بوجهه كله، ثم قال: هل سمعتم مقالة امرأة قط أحسن من مساءلتها في أمر دينها من هذه؟ فقالوا: يا رسول الله، ما ظننا أن امرأة تهتدي إلى مثل هذا؟ فالتفت النبي صلى الله عليه وسلم إليها، ثم قال لها: انصرفي أيتها المرأة، وأعلمي من خلفك من النساء، أن حسن تبعل إحداكن لزوجها، وطلبها مرضاته، واتباعها موافقته، يعدل ذلك كله))

[أخرجه البيهقي في سننه]

فالذي عنده بنت فهي ثروة كبيرة، هذه الفتاة إذا تزوجت رجلاً مؤمناً، وأسست أسرة مسلمة، كل خيرات هذه الأسرة الإيمانية في صحيفة الأب، والذي عنده فتاة يعلمها القرآن، يعلمها حب النبي عليه الصلاة والسلام، يعلمها أمر دينها، يعرفها بالله عز وجل، حتى إذا كانت زوجة، ولعل هذه المرأة تكون سبباً لرقي زوجها وأولاها، وكل إنسان يحتقر المرأة جاهلي، عنصري، بعيد عن روح الإسلام .

النبي الكريم كرم المرأة، قال:

((أكرموا النساء، فو الله ما أكرمهن إلا كريم، ولا أهانهن إلا لئيم، يغلبن كل كريم، ولا يغلبهن إلاّ لئيم، وأنا أحب أن أكون كريماً مغلوباً من أن أكون لئيماً غالباً))

هذه القصة محورها أن امرأة مسلمة بطلة، كانت وراء زوجها الذي أصبح من أكابر صحابة رسول الله، هذه امرأة، هذه واحدة كألف رجل، أو ألف امرأة، وأحيانًا ترى ألفًا كأفٍ، ألف امرأة لا يقيم الله لهن وزناً، لا شأن لهن عند الله عز وجل .

كل تفكير في أن المرأة دون الرجل تفكير جاهلي، تفكير غبي، تفكير أساسه العنصرية، المرأة كالرجل في التكليف والتشريف، وربما فاقت الرجل، لا ترَ أنّ ابنتك غير ابنك، فقد تكون ابنتك أرقى من ابنك، فعلِمها، لأن الزوجة الصالحة لا تُقدر بثمن .

والحمد لله رب العالمين

السيرة - رجال حول الرسول - الدرس (45-50) : سيدنا زيد بن ثابت

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 30-08-1993

بسم الله الرحمن الرحيم

في أي معركة منع النبي زيد بن ثابت بالمشاركة فيها، ولماذا، وهل حزن على هذا الانصراف ؟

أيها الأخوة، مع الدرس الخامس والأربعين من دروس سير صحابة رسول الله رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، وصحابي اليوم سيدنا زيد بن ثابت .

لهذا الصحابي قصة، لعلنا في أمس الحاجة إليها، ذلك أنه في مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان أصحاب النبي عليهم رضوان الله يموجون فيها موجاً استعداداً لمعركة بدر، والمؤمن دائماً صاحب همةٍ عاليةٍ، المؤمن دائماً ينشط لطاعة الله عز وجل، المؤمن دائماً يسخر كل طاقاته الفكرية والمادية وخبراته في سبيل الله، فحق للصحابة أن يرضى الله عنهم لأن أمر الله عندهم عظيم، ودعوة النبي عليه الصلاة والسلام إلى الجهاد ملأت قلوبهم، لذلك كانت المدينة تموج موجاً استعداداً لمعركة بدر .

هذا يقودنا إلى أن الناس إذا تواطؤوا في عصر على تعظيم شيء فكل الناس يتجهون إليه، حتى الصغار يقلدون الكبار، فلو تنافس الناس في الزخرفة والزينة، لرأيت حديث الناس كله عن زخرفة بيوتهم وزينتها، ولو تنافس الناس كلهم في جمع الأموال لرأيت حديثهم كله عن جمع الأموال، ولو تنافس الناس في طلب رضوان الله عز وجل لرأيت الناس جميعاً يتحدثون في هذا المجال، ففي كل عصر بحسب اتجاه الناس موضوع يهمهم جميعاً .

فيبدو أن الصحابة الكرام في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم لا شيء يشغلهم إلا الإقبال على الله، وطاعة الله، وخدمة الخلق، والدعوة إلى الله، والجهاد في سبيل الله، لذلك ترى المجتمع المؤمن في المناسبات الدينية يموج موجاً .

الآن ترى مثلاً حياً يسكنه أكثر من نصف مليون إنسان، تدخل إلى المسجد فجراً فتجد سبعة أو ثمانية، ترى أبنية مديدة، طوابق عديدة، أحياء مكتظة كثيفة، فأين الناس؟ منصرفون إلى متابعة برامج اللهو، طبعاً ناموا في الساعة الواحدة، وهذه البرامج كلها موضوعات ساقطة، وأهداف سخيفة تافهة لا تسمو بالإنسان، أردت من هذا التعليق أن أبيِّن ما يشغل الإنسان .

أقول: قل لي: ما الذي يشغلك؟ أقل لك: من أنت؟ ساحة نفسك ما الذي يملؤها؟ تملؤها الدنيا، فأنت من أهل الدنيا، تملؤها البطولات، فأنت من أهل البطولات، تملأها الدعوة إلى الله، فأنت من هؤلاء، فالنقطة دقيقة جداً وواضحة، راقب نفسك، تأمل نفسك، ما الذي يشغل ساحة النفس؟ قال تعالى:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ)

[سورة المؤمنون الآية: 1-3]

النبي عليه الصلاة والسلام كان يلقي النظرات الأخيرة على أول جيش، يتحرك تحت قيادته للجهاد في سبيل الله، وتثبيت كلمته في الأرض، بعد أن أسس النبي دولة الإسلام، وبعد أن تجهز أصحابه لمواجهة ألد أعدائهم، قريش المشركة الكافرة، والنبي عليه الصلاة والسلام شأنه شأن كل القادة، كان يستعرض جيشه قبل أن يعطي أمراً بالتقدم، وهنا أقبل على الصفوف غلامٌ صغير، وهذا الكلام للصغار، الصغار عند الله كالكبار، والنساء عند الله كالرجال، أما عند الجهلة ، الصغير صغير والمرأة امرأة، هذا عند الجهلة، أما عند الله الصغير كالكبير، والمرأة كالرجل، مخلوق أراد الله أن يكرمه في الدنيا والآخرة، فبحسب إخلاصه، وبحسب إقباله، وبحسب تضحيته يرقى عند الله عز وجل .

أقبل غلام صغير لم يتم الثالثة عشرة من عمره، يتوهج ذكاءً وفطنة ويتألق نجابة وحمية ، وفي يده سيف يساويه في الطول تماماً، أو يزيد عنه قليلاً، ودنا من النبي صلى الله عليه وسلم، وقال:

((جُعلت فداك يا رسول الله، ائذن لي أن أكون معك، وأجاهد أعداء الله تحت رايتك، فنظر النبي عليه الصلاة والسلام إليه نظرة سرور وإعجاب، وربَّت على كتفه بلطف وود، وطيَّب خاطره، وصرفه لصغر سنه .

-بالمناسبة، الإنسان كلما ارتقى عند الله يتلطف مع الصغار، والصغار أحباب الله .

ذاتَ مرة سيدنا عمر رضي الله عنه، دخل عليه ابنُه الصغير فقبَّله، وعنده أحد الأشخاص الذين رشَّحهم للولاية، فقال:

((يا أمير المؤمنين، أتقبِّل ابنك؟ واللهِ أنا لا أقبِّل أحداً من أبنائي، فأخذ الكتاب منه ومزّقه، وقال: انصرف، إن لم يكن بك رحمة على صغارك فلن يكون بك رحمة على أمتك))

، وصرفه ولم يُولِّه- .

عاد الغلام الصغير يجرجر سيفه على الأرض حزيناً أسوان؛ -لأنه حرم شرف صحبة رسول الله- وعادت من ورائه أمه النوار بنت مالك، وهي لا تقل عنه أسىً وحزناً))

والنساء كن بطلات، كانت المرأة ترجو أن يكون ابنها في عداد المجاهدين، كانت المرأة تزهو إذا قيل لها: إن ابنها استشهد في سبيل الله .

كانت هذه الأم تتمنى أن تكتحل عيناها برؤية غلامها، وهو يمضي مع الرجال مجاهداً تحت راية رسول الله، وكانت تأمل أن يحتل المكانة التي كان من المنتظر أن يحظى بها أبوه لدى النبي صلى الله عليه وسلم لو أنه ظل على قيد الحياة .

ما هي الفكرة التي لاحت في ذهن زيد بن ثابت، وما موقف والدته حينما أعلمها بهذه الفكرة؟
أيها الأخوة، لكن الغلام الأنصاري حين وجد أنه قد أخفق في أن يحظى بالتقرب من رسول الله في هذا المجال لصغر سنه، تفتقت فطنته عن مجال آخر، هنا موطن الشاهد .

إذا لم يُتح لك أن تجاهد في عصر من العصور، فهناك جهاد آخر، ربنا عز وجل قال:

(فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً)

[سورة الفرقان الآية: 52]

الصادق لا يعدم حيلة، الصادق إذا سُدَّ بابٌ فَتَحَ أبوابًا، إذا كان الجهاد لا يُتاح للمسلم في بعض العصور والظروف، لملابسات كثيرة هناك جهاد النفس والهوى، هناك جهاد التعلم والتعليم، هناك جهاد الدعوة إلى الله، هناك جهاد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هناك جهاد تهذيب النفس، هناك جهاد البذل، بذل المال وهو شقيق الروح، هناك أنواع منوعة من الجهاد .

فهذا الغلام الأنصاري تفتقت فطنته عن مجال آخر لا علاقة له بالسن، يقربه من النبي صلى الله عليه وسلم ويدنيه إليه، فما المجال إذًا؟ هو مجال العلم والحفظ، هذا المجال متاح لكم جميعاً، شيء لا يُقدر بثمن، لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((خيركم من تعلم القرآن وعلمه))

خيركم على الإطلاق، هذه الجلسة التي في المسجد، وهذا الانتظار، وذاك الاستماع، وهذا الاستيعاب، وتلك المراجعة، وهذه المذاكرة بعد الدرس، ثم هذا الحفظ، أو التدوين، ثم الإلقاء والتوجيه، فهذا جهاد لا يقلُّ عن أيّ جهاد، والله سبحانه وتعالى أكده بالقرآن الكريم، قال:

(فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً)

[سورة الفرقان الآية: 52]

انظر إلى هذا الغلام الصغير، حينما لم يسمح له النبي عليه الصلاة والسلام، أن يجاهد بجسمه، تفتق ذهنه عن جهاد آخر، عن العلم وعن الحفظ، فذكر الغلام الفكرة لأمه، فهشت لها وبشت، ونشطت لتحقيقها
.

هل سر النبي بتلاوة زيد، وما اللغة التي أمره أن يتعلمها، وما هي المنزلة العلمية التي حازها من النبي؟

حدثت النوار أم الغلام رجالاً من قومهم برغبة الغلام، وذكرت لهم فكرته، فمضوا به إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وقالوا:

((يا نبي الله، هذا ابننا زيد بن ثابت، يحفظ سبع عشرة سورة من كتاب الله، ويتلوها صحيحة كما أنزلت على قلبك، وهو فوق ذلك حاذق يجيد الكتابة والقراءة، وهو يريد أن يتقرب إليك، وأن يلزمك، فاسمع منه إذا شئت .

-يا أيها الأخوة الكرام، أقول لكم هذا الكلام: لو أن أحدكم اعتنى بابنه عناية بالغة حتى تعلم القرآن، أو حتى تعلم حديث رسول الله، أو تعلم أحكام الفقه، وحمله على طاعة الله، وعلى أداء الصلوات، وعلى التقرب إلى الله بالطاعات، فالأب إذا رأى ابنه على هذا الحال، واللهِ يدخل على قلبه سعادة لا أستطيع وصفها، ولو كانت هذه الأسرة متقشفة، حياتها خشنة، طعامها خشن، بيتها صغير، دخلها قليل، لكانت في غاية السعادة .

قبل أسبوع، وفي يوم الجمعة جرى احتفال بمناسبة تخريج دفعة عند نهاية دورة صيفية لمعهد تحفيظ القرآن، وسمعت كلمات من الصغار، وتلاوات، أثلجتْ قلبي من شدة الفرح، فكيف بالأب الذي ربَّى هذا الابن هذه التربية؟ فالأب الذي علم ابنه القرآن له عند الله يوم القيامة شأن خاص- .

سمع النبي الكريم من الغلام زيد بن ثابت بعضاً مما يحفظ، فإذا هو مشرق الأداء مبين النطق، تتلألأ الكلمات على شفتيه كما تتلألأ الكواكب على صفحة السماء، ثم إن تلاوته تَنُمُّ عن تأثر بما يتلو، واستيعاب، وحسن أداء .

-ذات مرة قرأ طالبٌ نصًّا، وهو يحمل رسالة، والنصُّ يصف طيرًا حرًّا، لا يشعر بقيد في ساقه، ولا بغُلٍ في جناحه، فقرأها ولا بَغْلٍ في جناحه، فهل يُعقَل أنّ الطائر يحمل بغلاً في جناحه؟ يقرأ ولا يستوعب، فيقع في أخطاء غير معقولة، وهذا دليل عدم فهم .

فالذي يقرأ القرآن أين يقف؟ موقفه دليل فهمه، أحياناً يعطي الآيات نبرة خاصة، آيات الوعيد لها نبرة، آيات الوعد لها نبرة، آيات الرحمة لها نبرة، آيات العذاب لها نبرة، الآيات الكونية لها نبرة، والآيات المدنية لها لونها، فكلما نوعت في تلاوتك، ونوعت في صوتك، فهذا دليل حِذقٍ في كتاب الله عز وجل، ووقفاته تدل على وعي لما يقرأ، وحسن في فهمه- سُرَّ به النبي عليه الصلاة والسلام، إذ وجده فوق ما وصفوا- يعني بالمئة تسع وتسعون، الناس يصفون شيئاً أو رجلاً أو طفلاً أو فتاة أو زوجة أو زوجاً وصفاً أكبر من حقيقته بكثير، دائماً تجد مبالغات، وأكثر ضررٍ نقع فيه تلك المبالغات .

ترى أناسًا إذا خطب ابنتَهم شابٌ، يصفونه بالوَلاية، صاحب دين تقي، ورع نقي، كل شيء على تمامه وزيادة، فإنْ حصل خلاف يا لطيف، صار الإنسان ساقطًا، جاهلاً، هكذا الناس، ليس عندهم وسطية، مع أن النبي عليه الصلاة والسلام، قال:

((أَحْبِبْ حَبِيبَكَ هَوْنًا مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ يَوْمًا مَا، وَأَبْغِضْ بَغِيضَكَ هَوْنًا مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْمًا مَا))

[أخرجه الترمذي عَنْ أبي هُرَيْرَةَ في سننه]

فعَنْ زَيْدِ بْن ثَابتٍ، قَالَ:

((أمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنْ أتَعَلَّمَ لَهُ كَلِمَاتٍ مِنْ كِتَابِ يَهُودَ، قَالَ: إنِّي وَاللَّهِ مَا آمَنُ يَهُودَ عَلَى كِتَابِي، قَالَ: فَمَا مَرَّ بي نِصْفُ شَهْرٍ حَتَّى تَعَلَّمْتُهُ لَهُ، قَالَ: فَلَمَّا تَعَلَّمْتُهُ كَانَ إذَا كَتَبَ إلَى يَهُودَ كَتَبْتُ إلَيْهِمْ، وَإذَا كَتَبُوا إلَيْهِ قَرَأتُ لَهُ كِتَابَهُمْ))

[أخرجه الترمذي عَنْ زيد بن ثابت في سننه]

-وفي الأثر:

((من تعلم لغة قوم أمن شرهم))

[ورد في الأثر]

مجتمع المسلمين، مجتمع راق، مجتمع حصيف، فلا بد من إنسان يتقن اللغة الأجنبية حتى يكون وسيطًا، أحياناً يأتي شخص أجنبي يريد أن يسلم، فما أروع أن يكون بين الأخوة المؤمنين، إنسان يتقن اللغة الأجنبية .

قد تكون هناك وثائق رسمية، فلا بد من ترجمتها، أو مصحف مترجم، أو نسخة مترجمة للمصحف مُنع إدخالها، فأنا ظننت أن الذي منع إدخاله من باب التعنت، فدفعته إلى أحد الأخوة المختصين باللغة الأجنبية، تبيّن له أن فيه دسائس، وفيه تزويرًا للحقائق، وفيه تحريف لمعاني آيات تحمل تشويهًا للإسلام، فمَن تعلم لغة قوم أمن مكرهم .

اليهود ماذا قالوا؟ قال تعالى:

(قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَداً مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ)

[سورة المائدة الآية: 24]

الصحابة الكرام، ماذا قالوا؟ عَنْ أَنَس بْنِ مَالِكٍ، قال:

((أنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَاوَرَ حَيْثُ بَلَغَهُ إقْبَالُ أبي سُفْيَانَ، قَالَ: فَتَكَلَّمَ أبُو بَكْرٍ فَأعْرَضَ عَنْهُ، ثُمَّ تَكَلَّمَ عُمَرُ فَأعْرَضَ عَنْهُ، فَقَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ: إيَّانَا يُرِيدُ رَسُولُ اللَّهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أمَرْتَنَا أنْ نُخِيضَهَا الْبِحَارَ لَأخَضْنَاهَا ،وَلَوْ أمَرْتَنَا أنْ نَضْرِبَ أكْبَادَهَا إلَى بِرْكِ الْغِمَادِ لَفَعَلْنَا))

[أخرجه أحمد في مسنده عن أنس بن مالك]

أكب زيد على العبرية حتى حذقها في وقت يسير، وجعل يكتبها للنبي عليه الصلاة والسلام كلها إذا أراد أن يكتب لليهود، ويقرأها له إذا هم كتبوا إليه، فصارتْ له قيمة عند رسول الله، وصار مستشارًا في اللغة العبرية .

-ماذا تتقن؟ قيمة الرجل ما يحسن، تتقن المحاسبة، فهذا جيد، ومكانتك جيدة، تتقن اللغة الأجنبية، نعم يتقنها، تتقن الاختصاص الفلاني؟ لا، إذًا فأتقِنه، فقيمة المرء ما يحسنه، لكن لا يحسن شيئًا فهذا لا

ينبغي، ماذا تحسن؟ لا شيء، ما هذا؟ يجب أن تتقن شيئاً، يجب أن تتقن اختصاصاً، تعلَّمْ كل شيء عن شيء ما، وشيئاً ما عن كل شيء، وهذا الذي تتقنه يجب أن يوظَّف في الحق، تتقن اللغة العربية أنْعمْ بها وأكرم، وكذلك اللغة الأجنبية التي تعلَّمتها، الرياضيات والفيزياء، والكيمياء، لتتقِنْ التجارة مثلاً، لتتقن الضرب على الآلة الكاتبة، لتتقن المحاسبة، فلا بد من اختصاص، ومن حرفة تتقنها، والنبي عليه الصلاة والسلام أمسك بيد عبد الله بن مسعود فرآها خشنة، فقال عليه الصلاة والسلام:

((إن الله يحب هذه اليد))

بالمناسبة لديّ كلام سأوجهه لأخواننا المختصين في اللغة الأجنبية، الآن ملايين إن صح التعبير في العالم الغربي يتشوقون إلى معرفة الإسلام، ولكن لا تستطيع أن تخاطبهم إلا بعقليتهم وبلغتهم فمَن مكَّنه الله مِن لغة أجنبية، واستطاع أن يؤلف كتباً باللغة الإنجليزية بطريقة يفهمها الأجانب، فقد حقّق إنجازاً لا يوصف إطلاقاً، ولا يقدر بثمن .

أتمنى على كل أخ يتقن اللغة الإنكليزية أن يوظف اختصاصه في ترجمة بعض الكتب الإسلامية، أو في تأليف بعض الكتب، يعني في العالم الغربي يقال لك: هذا الكتاب مطبوع منه ثمانية ملايين نسخة، وآخر عشرة ملايين، وثالث عشرين مليون نسخة، هناك إقبال على القراءة كبير، وهناك شغف لمعرفة الإسلام شديد، لا سيما بعد أن أفلست كل النظم الوضعية، هناك رغبة ملحة للاطّلاع على الإسلام، فكل إنسان يحمل لسانس باللغة الأجنبية أتمنى عليه، وأرجو منه أن يوظف اختصاصه في خدمة هذا الدين والدعوة له- .

أصبح سيدنا زيد بن ثابت ترجمان النبي عليه الصلاة والسلام، ولما استوثق النبي صلوات الله وسلامه عليه من رصانة زيد، وأمانته، ودقته، وفهمه، ائتمنه على رسالة السماء، وجعله كاتباً للوحي، شرف عظيم، فكان إذا نزل شيء من كتاب الله على قلب النبي عليه الصلاة والسلام، بعث إليه يدعوه- .

فإذا أتيح لشخص أن يشتغل بالعلم، أن يقرأ، أن يترجم، أن يؤلف، ولا سيما العلم الشرعي، فهذه رتبة سامية، لأنّ كل علم ممتع، وهناك علم ممتع ونافع في اختصاص نادر، يدر عليك مئات الألوف، أما العلم الشرعي فهو علم ممتع نافع مسعد في الدنيا والآخرة .

تسمع عن عالم جليل آخر، ماذا كان يعلم؟ كان نجاراً، فإن يُذكر اسمه مليون مرة لا يخطر في بال واحد أنه كان نجاراً، لذلك رتبة العلم أعلى الرتب، وعلمياً رؤساء الدول العظمى، كيف يتخذون قراراتهم؟ بناءً على توصية العلماء- .

سيدنا زيد بن ثابت أصبح المرجع الأول لكتاب الله، ولأمة محمد صلى الله عليه وسلم، فكان رضي الله عنه رأس من جمعوا كتاب الله في عهد الصديق، وطليعة من وحدوا مصاحفه في زمن عثمان، أفبَعدَ هذه المنزلة منزلة تسمو إليها الهمم، وهل فوق هذا المجد مجد تطمح إليه النفوس؟ .

إليكم موقفه يوم السقيفة :

لهذا الصحابي الجليل موقف لا يُنسى، والمؤمن بحكمته وفهمه وكياسته قد يوفق، وقد يحقن الدماء، بموقفه الحكيم .

ففي يوم السقيفة اختلف المسلمون فيمن يخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال المهاجرون:

((فينا خلافة رسول الله ونحن بها أولى، وقال بعض الأنصار: بل تكون الخلافة فينا ونحن بها أجدر، وقال بعضهم الآخر: بل تكون الخلافة فينا وفيكم معاً، فقد كان عليه الصلاة والسلام إذا استعمل واحدًا منكم على عملٍ قرن معه واحداً منا، وكادت تحدث فتنة ونبي الله صلى الله عليه وسلم ما زال مسجى بين ظهرانيهم، وكان لا بد من كلمة حاسمة حازمة رشيدة مشرقة بهدي القرآن الكريم تئد الفتنة في مهدها، فانطلقت هذه الكلمات من فم زيد بن ثابت، اسمعوا ماذا قال؟ التفت إلى قومه، وقال: يا معشر الأنصار، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان من المهاجرين فينبغي أن يكون خليفته من المهاجرين، وإنا كنا أنصار رسول الله فنكون أنصاراً لخليفته من بعده، وأعواناً له على الحق، ثم بسط يده إلى أبي بكر الصديق، وقال: هذا خليفتكم فبايعوه))

وأنهى الموقف . ما أروع المؤمن إذا حسم الفتنة، ما أروع المؤمن يألف ولا يفرِّق، وما أروع المؤمن إذا وفق، ما أروع المؤمن الذي تهمّه مصلحة المؤمنين، صار همزة وصل، وأداة جمع وتوفيق، وأداة تأليف، لا أداة فرقة، ولا أداة بعد، ولا أداة عداوة .

هل عرف الصحابة قدر زيد بالعلم، وهل أنفق علمه في خدمة الإسلام، وهل حزن المسلمون على وفاته ؟

أيها الأخوة، صار سيدنا زيد مع فقهه وعلمه وطول ملازمته للنبي عليه الصلاة والسلام منارة للمسلمين، يستشيره خلفاؤه في المعضلات، ويستفتيه عامتهم في المشكلات، ويرجعون إليه في المواريث خاصة، إذ لم يكن بين المسلمين إذ ذاك من هو أعلم منه بأحكامها، ولا أحذق منه في قسمتها، فقد خطب عمر رضوان الله عليه في المسلمين يوم الجابية، فقال:

((أيها الناس من أراد أن يسأل عن القرآن فليأت زيد بن ثابت، ومن أراد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذ بن جبل ، ومن اراد أن يسألَ عن المال فليأت إليَّ، فإن الله عز وجل جعلني عليه والياً، ولها قاسماً))

وطلاب العلم من الصحابة والتابعين عرفوا قدر زيد فأجلوه وعظموه لما وقر في صدره من العلم.

استمعوا لهذه الوقفة: بحر العلم سيدنا عبد الله بن عباس، يرى زيد بن ثابت قد هم لركوب دابته، فيقف بين يديه ويمسك له بركابه، ويأخذ بزمام دابته، فيقول له زيد بن ثابت:

((دع عنك يا ابن عم رسول الله، فقال ابن عباس: هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا، فقال له زيد: أرني يدك ، فخرج ابن عباس يده، فمال عليها زيد وقبّلها، وقال: وهكذا أمرنا أن نفعل بآل بيت نبينا))

أدب ما بعده أدب، تقدير ما بعده تقدير، حب ما بعده حب، إخلاص ما بعده إخلاص، وفاق ما بعده وفاق، علامة إخلاص أحدنا أن يحب أخاه، علامة إخلاص علمائنا أن يحبوا بعضهم بعضاً، علامة إخلاص المؤمنين أن يجتمعوا يداً واحدة، علامة إخلاص الدعوات إلى الله أن تتعاون لا أن تتناقض، علامة إخلاصك أن تؤثر مصلحة المؤمنين على مصلحتك الشخصية، علامة إخلاصك أن تجعل انتماءك وانتماء أخوانك لمجموع المؤمنين، علامة إخلاصك أن تدعو إلى أن يكون المؤمنون يدًا واحدة.

لما لحق زيد بن ثابت بجوار ربه، بكى المسلمون بموت العلم الذي ووريَ معه، فقال أبو هريرة:

((اليوم مات حَبرُ هذه الأمة، وعسى أن يجعل الله في ابن عباس خلفًا له))

ورثاه شاعر النبي عليه الصلاة والسلام ورثا نفسه معه، فقال:

فمَن للقوافي بعد حسانَ وابنه ومَن للمثاني بعد زيد بن ثابت

وكلنا على هذا الطريق سنموت، ولكن البطولة أن تخلف أثراً طيباً، فالبطولة أن تترك عملاً طيباً ، والبطولة أن تجعل ذكرك عطراً بعد موتك، صدق القائل:

دقات قلب المرء قائلة لــه إن الحياة دقائق وثـــوان

فاجعل لنفسك بعد موتك ذكرها فالذكر للإنسان عمر ثــان

خلاصة القول :

أيها الأخوة، سيدنا زيد ما أتيح له أن يجاهد مع النبي، كان صغيراً، كان طوله بطول السيف، رده النبي بلطف، طلب العلم، حفظ القرآن، تلاه أمام النبي، النبي كلفه أن يحذق العبرية، حذقها، كلفه أن يكتب الوحي كتبه، تعلم الفرائض صار حبر هذه الأمة، صار مرجعَ الأمة في القرآن الكريم، لذلك لا يقلُّ مداد العلماء عن دماء الشهداء، ولا يقلُّ الجهاد بالقرآن الكريم عن الجهاد بالسيف، لقوله تعالى:

(فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً)

[سورة الفرقان الآية: 52]

والحمد لله رب العالمين

السيرة - رجال حول الرسول - الدرس (46-50) : سيدنا أبو الدرداء
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1993-09-06

بسم الله الرحمن الرحيم

من هو أبو الدرداء، ومن كان صديقه في الجاهلية، وكيف أسلم ؟

أيها الأخوة، مع الدرس السادس والأربعين من دروس سيرة صحابة رسول الله رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، وصحابي اليوم أبو الدرداء رضي الله عنه وأرضاه .

اسمه عويمر بن مالك الخزرجي المكنى بأبي الدرداء، كان يمضي هذا الرجل قبل أن يكون صحابياً إلى صنمه الذي نصبه في أشرف مكان في بيته، فيحيّيه ويضمِّخه بأنفَس أنواع العطر، ثمّ يلقي عليه أفخر الثياب من فاخر الحرير، وكلما استيقظ صباحاً توجه إلى هذا الصنم يعبده من دون الله، وبعد أن يقف أمام صنمه الذي وضعه في أشرف مكان في بيته، ينطلق بعد هذا إلى متجره، انطلق مرةً إلى متجره فإذا شوارع يثرب وطرقاتها تضيق بأتباع محمد، وهم عائدون من بدر، وأمامهم أفواج الأسرى من قريش فازوّر عنهم، لكنه ما لبث أن أقبل على فتىً منهم ينتمي إلى الخزرج، وسأله عن عبد الله بن رواحة، ما شأنه؟.

فقال له الفتى الخزرجي:

((لقد أبلى في المعركة أكرم البلاء، وعاد سالماً غانماً، وطمأنه عليه))

فلِمَ سأل أبو الدرداء عن عبد الله بن رواحة؟ لأنه كان صديقاً له، وكان بينهما من أواصر المودة الشيء الكثير، فأبو الدرداء وعبد الله بن رواحة كانا أخوين متآخيين في الجاهلية، ولما جاء الإسلام اعتنق ابن رواحة الإسلام، ولم يعتنقه أبو الدرداء .

أقف هنا قليلاً، هذه الحادثة تتكرر، يكون في الحيّ أو القرية صديقان حميمان، أخوان طيبان، على مقعد واحد في الدراسة، في حي واحد، في بيت واحد، في متجر واحد، في مكان واحد، بينهما تقارب في السن، وتقارب في الطباع، يحبان بعضهما، فجأةً أحد الصديقين يتجه نحو الله عز وجل، ويلتحق بمسجد، يتأدب بأدب الإسلام، يعيش أجواء الدين، يقبل على كتاب الله الكريم، والآخر يبقى على ما هو عليه، بربكم هذا الذي اهتدى إلى الله، أليس من واجبه الأول أن يعين صديقه الحميم الذي أمضى معه ردحاً من الزمن؟ ألم يقل عليه الصلاة والسلام:

((إن الله ليسأل العبد عن صحبة ساعة))

أيها الأخوة، أريد من سيرة رسول الله، وأصحابه الكرام أن تكون واقعاً ملموساً بين أيديكم، أن نستفيد من أحداث السيرة، ومن أفعال الصحابة الكرام لنكون على هدًى مثلهم .

حينما جاء الإسلام اعتنق عبد الله بن رواحة الإسلام، وأعرض عنه أبو الدرداء، والملاحظ أنّ بعض الأخوان الذين لم ينضجوا بعد، عندما ينضم لمسجد، ويهتدي إلى الله عز وجل ، ويلتحق بجماعة المؤمنين يحتقر أصدقاءه القدامى، ويزور عنهم، ويترفع عنهم، فهم في نظره جهلة فاسقون، أهكذا الصحبة؟ ماذا يمنعك أن تزورهم من حين إلى آخر، وتتفقدهم، وأن تعرض عليهم ما أنت فيه من خير وهدى؟ لذلك فأبو الدرداء لم يسلم، لكن عبد الله بن رواحة لم يقطع العلاقة مع أبي الدرداء، وظل يتعهده بالزيارة، ويدعوه إلى الإسلام، ويرغبه فيه، ويجعله يأسف على كل يوم يمضي من عمره، وهو مشرك.

انطلق أبو الدرداء إلى متجره وتربع على كرسيه العالي، وأخذ يأمر غلمانه وينهاهم، وهو لا يعلم شيئاً مما يجري في منزله، ففي ذلك الوقت كان عبد الله بن رواحة يمضي إلى بيت صاحبه أبي الدرداء، وقد عزم على أمر، فدخل إلى بيته، ووصل إلى مكان الصنم الذي يعبده من دون الله، ماذا فعل بهذا الصنم؟ قطّعه بالفأس إرباً إرباً .

فلما رأت زوجة أبي الدرداء ما حل بالصنم الذي يعبده زوجها من دون الله، توقعت الهلاك، وقالت له:

((يا ابن رواحة، أهلكتَني عند أبي الدرداء، ولم يمض غير قليل حتى عاد أبو الدرداء إلى منزله فرأى امرأته جالسة أمام الحجرة، وهي تبكي وتنشج وعلامات الخوف من زوجها بادية على وجهها، قال لها: ما شأنك؟ قالت: أخوك عبد الله بن رواحة، جاءنا في غيبتك وصنع هكذا بصنمك .

-أنا أقول لكم دائماً: إنّ الإنسان أحياناً سرُّ هداه بلحظة تفكير صحيحة، وكان ممكنًا لأبي الدرداء أنْ يغضب ويثور، ويحمل الفأس ليكسر بها رأس الذي كسر صنمه، لكن يبدو أن صديقه يعرفه عاقلاً، يعرفه منطقياً- .

نظر إلى الصنم فوجَدهُ حطاماً، ماذا قال؟ ثم قال: لو كان في هذا الصنم خير لدفع الأذى عن نفسه، ثم انطلق من توه إلى عبد الله بن رواحة، ومضيا معاً إلى رسول الله صلى الله عليه، وأعلن دخوله في الإسلام، فكان آخر أهل حيه إسلاماً))

وبعد؛ أمَا رأيت إنسانًا قويًا صار ضعيفًا؟ أما رأيت إنسانًا كان في أعلى درجات الجاه فصار وضيعاً؟ أما رأيت غني افتقر؟ أما رأيت طبيبًا مرض؟ أما رأيت قويًا أصبح مشلولاً؟ أما رأيت إنسانًا عظيمًا صار في لحظة خبراً على الجدران؟ .

فهذا الإنسان الذي تخافه، أو الذي ترجوه، أو الذي تعبده من دون الله، وأنت لا تشعر، هذا الإنسان ألا تشله نقطة دم في بعض شرايين الدماغ، وبمكان آخر يفقد ذاكرته، وبمكان آخر يفقد عقله، وبمكان رابع يفقد بصره؟ ما هذا الإنسان الذي يقول: (أنا) وهو لا يستطيع أن يدفع عن نفسه شراً؟ .

الحقيقة عبادة الأصنام الحجرية انتهت مع مجيء الإسلام، ولكن أحياناً يكون للإنسان ابن خالة بمكان مرموق، دائماً متكئ عليه، ابن خالتي فلان، انتبه فمعي رقم تلفونه؟ خير إن شاء الله، هذا شرك .

أنت معتمد على هذا الإنسان وهو بعيد، فنحن لا نخاف على المسلمين مِن الشرك الجلي ، ولكن نخاف عليهم من الشرك الخفي، الشرك الخفي أن تعتقد أن إنساناً بإمكانه أن ينفعك أو أن يضرك، أن تعتقد أن إنساناً بإمكانه أن يعطيك أو أن يمنعك، لا معطيَ، ولا مانعَ، ولا رافعَ، ولا خافضَ إلا الله، هذا هو التوحيد، لذلك كلما وضعت الثقة بالله عز وجل أكرمك الله، وكلما وضعت الثقة بغير الله عز وجل تخلى الله عنك .

هل ندم أبو الدرداء على تأخر إسلامه ، وماذا صنع حتى يستدرك ما فات منه من الخير ؟

أيها الأخوة، ندم أبو الدرداء ندماً كبيراً على ما فاته من خير، وأدرك إدراكاً عظيماً ما سبقه إليه أصحابه من فقه في الدين، وحفظ لكتاب الله، وعبادة وتقوى ادخروها لأنفسهم عند الله .

المشكلة لدينا تسابق، الله عز وجل، قال: وفي ذلك فليتنافس المتنافسون، والجنة أبدية، مراتب الجنة بحسب أعمال الدنيا، فكل إنسان يحب أن ينافس الناس في الدنيا، ولا يحب أن ينافسهم في الآخرة فهو إنسان غبي، لأن منافسة الدنيا ينتهي شأنها بالموت .

لاحظ أحياناً سيارة تزاحم السيارات، تزاحم وترتكب الأخطار من أجل أن تصل إلى الإشارة الحمراء، والذي قصر يقف جنبه، فهذه المزاحمة حمقاء، ولو كان الطريق سالكًا إلى ما لا نهاية يمكن أنْ تزاحم، ولكن بعد مئتين متر هناك إشارة حمراء، فكل هذا الطيش والمزاحمة والتجاوز والوقوع في الأخطار جعَلَ الناس يسبُّون هذا السائق، وبعد دقيقة يقف عند الإشارة الحمراء مثله مثل الآخرين .

إذاً: هذه مزاحمة فيها غباء، هذا مثل بسيط، لو زاحمت الناس في الدنيا وحصلت على أكبر نصيب، فيأتي الموت ويسوّي بينك وبين أفقر إنسان .

لو زاحمت الناس وحصلت أكبر مرتبة اجتماعية، يأتي الموت ويساوي بينك وبين أضعف إنسان، هذا الموت أمرُه عجيب، ينهي غنى الغني وفقر الفقير، وقوة القوي وضعف الضعيف، وصحة الصحيح ومرض المريض، ينهي كل الميزات وكل السيئات، هذه المنافسة إذاً غير معقولة، إذاً أين المنافسة؟ في الآخرة .

فهذا أبو الدرداء رضي الله عنه ندم أشد الندم على تقصيره، وعلى تأخر إسلامه، فعزم على أن يستدرك ما فات، بالجهد الجاهد، وأن يواصل كلال الليل بكلال النهار، حتى يلحق بالركب، ويتقدم عليه، فانصرف إلى العبادة انصراف المتبتل، وأقبل على العلم إقبال الظمآن، وأكب على كتاب الله يحفظه ويتعمق في فهم آياته، ولما رأى التجارة تنغص عليه لذة العبادة، وتفوت عليه مجالس العلم تركها غير متردد ولا آسف .

هل هذا مِن أبي الدرداء حكم شرعي؟ لا، لكنه موقف شخصي يجب أن نفرق دائماً بين الحكم الشرعي الذي يصدر عن النبي صلى الله عليه وسلم من خلال أقواله أو أفعاله أو إقراره، وبين الموقف الشخصي الذي يصدر عن غير النبي .

فلديه سبب، إنه متأخر، فمثلاً؛ هل يمكن لشخص أن يقرأ عشرين ساعة في النهار؟ الشيء الطبيعي ثماني ساعات، لكن لو فرضنا إنسانًا نام طوال العام الدراسي، وصحا قبل شهر من الفحص، ودرس عشرين ساعة في اليوم، هذا وضع استثنائي، ليس هذا أصلاً، الأصل ثماني ساعات، وتنام ثماني ساعات، ودوام ثماني ساعات، دوام وراحة ودراسة، فسببَ ترك سيدنا أبي الدرداء التجارة، أنه شعر بالتقصير والندم، وشعر أن الصحابة قد سبقوه مراحل فسيحة، وأنه فاته خير كثير .

أحياناً يأتي شخصٌ أخر، مثلاً يقول لك: أما عندكم دروس، فتقول له: درس الجمعة، درس تفسير، ودرس الأحد درس فقه، ودرس الاثنين درس سيرة، ودرس للدعاة يوم السبت، ودرس الفجر، والخطبة، يأتي إلى جميع الدروس، ثم يقول: عندكم أشرطة لتلك الدروس، صدقاً بعض الأخوان أعطيه عشرين شريطًا، أقول لنفسي: يحتاج إلى شهر، بعد ثلاثة أيام يأتي بهم، ويقول: سمعتها كلها، لديكم غيرها . أحياناً في حالات خاصة الإنسان يحس أنه فاته خير كثير، كيف يعوض؟ .

سأله سائل عن تركه للتجارة، فقال:

((كنت تاجراً قبل عهدي برسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما أسلمت أردت أن أجمع بين التجارة والعبادة، فلم يستقم لي ما أردت، فتركت التجارة وأقبلت على العبادة))

أنا لا أحب أن يُفهم غيرُ ما ينبغي أن يُفهم، الإنسان أحياناً يكون عمله جزء من عبادته، يكون عنده زوجة وأولاد، وهو يعمل ليكسب المال لينفق على هؤلاء، أما إذا عرف الله عز وجل، واحتسب عمله عند الله انقلب عمله إلى عبادة .

يعني الإنسان ينبغي أن يجمع بين الدنيا وبين الآخرة، لقول النبي عليه الصلاة والسلام : ليس بخيركم من ترك دنياه لآخرته، ولا من ترك آخرته لدنياه، إلا أن يأخذ منهما معاً، فإن الأولى مطية للثانية .

فقد جعل الله قوام الحياة أن تكسب الرزق وتطعم، والأدلة كثيرة من حديث النبي عليه الصلاة والسلام، ألم تسمعوا أن النبي عليه الصلاة والسلام دخل إلى المسجد فرأى شاباً يصلي فيما بين الصلاتين، سأله قائلاً: مَن يطعمك، قال: أخي، قال: أخوك أعبد منك .

لكن طالب العلم لما جاء شريكه يشكوه للنبي، ماذا قال للشريك؟ لعلك تُرزق به، فطلب العلم عمل، الآن في العالم تُخصّص منحٌ دراسية، فيأتي الطالب للجامعة أو للثانوية، يدرس ولا يكلّف بعمل، يكلّف بالدراسة حصرًا، إذاً: إذا طلبت العلم فهذا عمل مشرف .

أنا أنصح أخواننا الشباب الذين يجدون من ينفق عليهم، ووجد بيتاً يؤويه، أنا أنصحه بطلب العلم، لأن العلم أثمن شيء في الحياة، وكثير مِنَ الأشخاص لا يُتاح لهم أن يدرسوا، ويضطرون أن يعملوا حتى يأكلوا، فإذا هيّأ الله لشاب أبًا ينفق عليه فليطلب العلم الشرعي، حتى يكون عالمًا، لأن مرتبة العلم هي أعلى الرتب .

أحد الخلفاء وهو في الحج طلب أن يلتقي بعالم، وهذا العالم كان عبدًا فالتقى به، فالعالم أعزّه العلم، لا أقول: كبر، بل أعزّه الله، وكان سيدنا الحسن مرةً يمشي مشية فيها شعور بالثقة، فقال له أحدُهم:

((أكبَرْتَ؟ قال: لا، ولكنه عز الطاعة، -المطيع يشعر بالعزة، الكبر قبيح مذموم، أما الذي يطيع الله عز وجل فيشعر بالعزة .

يبدو أن هذا العالم العبد وقف موقفًا أمام الخليفة في عزة-

قال الخليفة لابنه: قم يا بني، وتعلّم العلم، ألا ترى حالنا مع هذا العالم، وقفنا أمامه أذلاء))

إذا كنت مِن الطبقة الرفيعة في المجتمع، وطلبت العلم صرتَ متفوقاً، وإن كنت من الطبقة الوسطى، وطلبتَ العلم صرت سيداً، وإن كنت من الطبقة الدنيا، وطلبت العلم عشت بين الناس حميدَ السيرة .

يقول أبو الدرداء:

((والذي نفس أبي الدرداء بيده، ما أحب أن يكون لي اليوم حانوت على باب المسجد فلا تفوتني صلاة مع الجماعة، ثم أبيع وأشتري وأربح كل يوم ثلاثمئة دينار، ثم نظر إلى سائله، وقال: إني لا أقول: إن الله عز وجل حرم البيع، ولكني أحبّ أن أكون من الذين لا تلهيهم تجارة، ولا بيع عن ذكر الله))

لذلك هذه نصيحة لي ولكم، من أحب دنياه أضر بآخرته، ومن أحب آخرته أضر بدنياه ، وحينما يتفرّغ الإنسان تفرغًا كاملاً للتجارة يربح أكثر بحسب قواعد التجارة، ولكن المؤمن يعقد موازنة، يجمع بين العمل وبين طلب العلم، وبين العمل والعبادة، بين العمل وبين الدعوة إلى الله، وبين العمل وبين حضور حلقات الذكر، بين العمل وبين ما ينبغي أن يفعله .

ما هو المنصب الذي اشتغل به أبو الدرداء في دمشق، وما هو المنصب الذي رفضه حينما عرضه عليه الفاروق، وما هي نصيحته لأهل دمشق؟

في خلافة الفاروق رضوان الله عليه، أراد من أبي الدرداء أن يلي له عملاً في الشام فأبى، قال:

((إذا رضيت مني أن أذهب إليهم لأعلمهم كتاب ربهم وسنة نبيهم وأصلي بهم ذهبت،

-المنصب العلمي فيه عطاء، المنصب الإداري فيه أخذ، فمدير ثانوية عملُه محصور في مَن تأخر اليوم، ومَن لم يدفع القسط؟ كل عمله أساسه سلبُ ما عند الناس، أما المدرس فيعطي، ترى الطالب يميل إلى المدرس أكثر من ميله إلى المدير، فعنده العطاء، فعملُ المدير سلبٌ، يبني عمله على أمور إدارية، ضبط الوقود، وضبط الدوام، كله ضبط، أليس كذلك؟ لذلك من المناصب الرفيعة أن تكون معلماً، في أي مرحلة النبي عليه الصلاة والسلام، يقول:

((إنما بعثت معلماً، إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق))

يعني أعلى وظيفة تشغلها في الحياة أن تكون معلماً، الملائكة في السماء والحيتان في البحار تصلي على معلمي الناس الخير، كلام النبي كلام دقيق صلى الله عليه وسلم، قال:

((خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ))

[أخرجه البخاري عن عثمان في الصحيح]

لنا أخوان من فضل الله، أساس عملهم بعيد عن التعليم، يدرسون طلابًا صغارا في تحفيظ قرآن وتجويده، يقول عن نفسه: أنا أعيش في عالم آخر، وهذا شيء مسعد حقًا، مهنة التعليم أرقى حرفة، لأنها حرفة الأنبياء، لكن إذا ضعفت قيمة العلم في المجتمعات ضعفت معها قيمة التعليم .

أضرب مثلاً؛ الذي يقف ليبيع هذا اللحم المشوي الذي انتشر في الشام، راتبه الشهري ثمانية عشر ألف ليرة، لكن منصب التدريس دخله ضعيف جداً، ما معنى ذلك؟ أن بطن الناس أغلى عليهم من عقولهم، فإذا كان البطن أغلى من العقل، يصير الذي يقف على منصة اللحم ليبيعه يتقاضى ثمانية عشر ألفًا بالشهر، والذي يقف بين خمسين طالبًا ليعلمهم القيم واللغة يتقاضى أقلّ دخلٍ في عالم الوظائف، أليس كذلك؟ .

لو فرضنا إنسانًا حاز أعلى شهادة، فراتبُه ربما لا يكفيه، لكن تتقاضى المغنية سبعين ألف ليرة في سهرة واحدة، ما معنى ذلك؟ المعنى أنّ الطرب عند الناس أغلى عليهم من العقل، من عدم الحكمة أن تقيس المهنة بدخلها، تقاس المهنة بمدى ارتباطها برسالة الإنسان في الحياة، تقاس المهنة بمدى رضوان الله على صاحبها- .

فلما بلغها، أي الشام، قال: وجدتُ الناس قد أولعوا بالترف، وانغمسوا في النعيم، فهاله ذلك، ودعا الناس إلى المسجد، فاجتمعوا عليه، فوقف فيهم، فقال: يا أهل دمشق، أنتم الأخوان في الدين، والجيران

في الدار، والأنصار على الأعداء، يا أهل دمشق، ما الذي يمنعكم من مودتي، والاستجابة لنصيحتي، وأنا لا أبتغي منكم شيئاً، فنصيحتي لكم ومؤونتي على غيركم، ما لي أرى علماءكم يذهبون، وجهالكم لا يتعلمون، وأراكم قد أقبلتم على ما تكفل لكم به الله عز وجل، وتركتم ما أمرتم به، ما لي أراكم تجمعون ما لا تأكلون، وتبنون مالا تسكنون، وتؤمِّلون ما لا تبلغون، لقد جمعتِ الأقوامَ التي قبلكم، وأمّلت فما هو إلا قليل حتى أصبح جمعهم بوراً، وأملهم غروراً، وبيوتهم قبوراً .

-واللهِ هذه موعظة بليغة، يقول لك: وضعت سبعة أكياس إسمنت في هذه الأساسات، وهذه البناية يسكنها مليون شخص، فهل أنت تعيش مدى الحياة؟ هناك بيوت من اللبن عمرها أربعمئة سنة في الشام، وهذا يعني أنّ بناء الإسمنت المسلح يقاوم ألف سنة، عمر الإنسان كلّه ستون سنة، والبناية التي أُقيمت له ربما لا يسكنها- .

قال: هذه عاد يا أهل دمشق، قد ملأت الأرض مالاً وولداً، فمن يشتري مني تركة عاد اليوم بدرهمين؟ فجعل الناس يبكون حتى سُمع نشيجهم من خارج المسجد، -لقد كانت كلمة بليغة- ومِن ذلك اليوم طفق أبو الدرداء يؤمُّ مجالس الناس في دمشق، ويطوف بأسواقهم، فيجيب السائل، ويعلّم الجاهل، وينبّه الغافل، مغتنماً كل فرصة، مستفيداً من كل مناسبة))

هكذا ينبغي أن يكون الداعي إلى الله :

له مواقف رائعة جداً، مرةً مر على جماعة، قد تجمهروا على رجل، وجعلوا يضربونه ويشتمونه، فأقبل عليهم، وقال:

((ما الخبر؟ .

قالوا: رجل وقع في ذنب كبير .

قال: أرأيتم لو وقع في بئر أفلم تكونوا تستخرجونه منه؟ .

قالوا: بلى .

قال: إذاً: لا تسبوه، ولا تضربوه، وإنما عِظُوه وبصِّروه، واحمدوا الله الذي عافاكم من الوقوع في هذا الذنب .

قالوا: أفلا تضربه؟.

قال: لا، إنما أبغض فعله، فإذا تركه فهو أخي .

-ما قولكم بطريقة الدعوة إلى الله ؟- فأخذ الرجل ينتحب ويعلن توبته))

هذه طريقة في الدعوة إلى الله، أنت طبيب، لست خصمًا، إذا جاء الطبيبُ إلى مريض فهل يحقد عليه؟ لا، بل يرثي لحاله، ويحاول إنقاذه، وتطبيبه .

شاب أقبل على أبي الدرداء، قال:

((يا صاحب رسول الله، أوصني، قال: يا بني، اذكر الله في السراء يذكرك في الضراء، يا بني، كن عالماً أو متعلماً أو مستمعاً ولا تكن الرابعة فتهلك، يا بني، ليكن المسجد بيتك، فإن سمعت النبي عليه الصلاة والسلام، يقول: المساجد بيت كل تقي))

المؤمن في المسجد كالسمكة في الماء، والمنافق في المسجد كالعصفور في القفص، يكاد يختنق، لأنه يتضجّر، وقد ضمن الله عز وجل لمن كانت المساجد بيوتهم، الرّوح والرحمة والجواز على الصراط .

مر سيدنا أبو الدرداء على جماعة من الشبان جلسوا على الطريق يتحدثون وينظرون إلى المارين، قال:

((يا بني، صومعة الرجل بيته، يكف فيه نفسه وبصره، وإياكم والجلوس في الأسواق فإنه يلهي ويلغي))

الطرقات الآن فيها نساء كاسيات عاريات، البيت أرحم وأولى، إذا فسد الزمان فالبيت صومعة، وصار محرابُ البيت كهفًا، قال تعالى:

(وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقاً)

[سورة الكهف الآية: 16]

لماذا رفض أبو الدرداء زواج ابنته من يزيد بن معاوية، ولمن زوجها ؟

في أثناء إقامة أبي الدرداء في دمشق بعث إليه واليها معاوية بن أبي سفيان يخطب ابنته الدرداء لابنه يزيد، فأبى أن يزوجها ابنه، وأعطاها لشاب من عامة المسلمين، لأنه رضي دينه وخلقه، فسار ذلك في الناس وشاع الخبر .

سأله سائل عن السبب، فقال:

((إني تحرّيتُ فيما صنعتُه صلاح أمر الدرداء، قال: وكيف؟ قال: ما ظنكم بالدرداء إذا قام بين يديها العبيد يخدمونها، ووجدت نفسها في قصور يخطف لألاؤها البصر، أين يكون دينها حينئذ؟))

لذلك أعطاها لشاب من عامة المسلمين .

كيف وجد عمر بيت أبي الدرداء حينما زاره، وما هو سبب بكاؤهما ؟

حينما كان أبو الدرداء في الشام قدم سيدنا عمر متفقداً أحواله، فزار صاحبه أبا الدرداء في منزله ليلاً، فدفع الباب فإذا هو بغير غلق، فدخل في بيت مظلم لا ضوء فيه، فلما سمع أبو الدرداء صوته قام إليه ورحّب به وأجلسه، وأخذ الرجلان يتناوبان الأحاديث، والظلام يحجب كلاً منهما عن صاحبه .

قال له عمر:

((رحمك الله، ألم أوسّعْ عليك؟ ألم أبعث إليك؟ قال له أبو الدرداء: أتذكر يا عمر، حديثاً حدثنا به النبي صلى الله عليه وسلم .

قال: وما هو؟.

قال: ألم يقل:

((ليكن بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد الراكب))

قال: بلى .

قال: فماذا فعلنا بعده يا عمر؟ فبكى عمر، وبكى أبو الدرداء))

إليكم لحظته الأخيرة من الحياة :

ظل أبو الدرداء في دمشق يعظ أهلها، ويعلمهم الكتاب والحكمة، حتى أتاه اليقين، فلما مرض مرَض الموت، دخل عليه أصحابه: فقالوا:

((ما تشتكي؟ .

قال: ذنوبي .

قالوا: ما تشتهي؟ .

قال: عفو ربي، ثم قال لمَن حوله: لقِنوني لا إله إلا الله محمد رسول الله، فما زال يرددها حتى فارق الحياة))

ما هي الرؤيا التي رآها عوف بن مالك الأشجعي ؟

فلما لحق أبو الدرداء بجوار ربه، رأى عوفُ بن مالك الأشجعي فيما يراه النائمُ مرجاً أخضر فسيحَ الأرجاء، وارفَ الأفْياء، فيه قبة عظيمة من أدم، حولها غنم رابضة لم تر العين مثلها قط، قال:

((لمن هذا؟ قيل: هذا لعبد الرحمن بن عوف، فطلع عليه عبد الرحمن بن عوف، وقال له: يا ابن مالك، هذا ما أعطانا الله عز وجل بالقرآن، ولو أشرفت على هذه الثنية لرأيت ما لم تر عينك،

وسمعت ما لم تسمع أذنك، ووجدت ما لم يخطر على قلبك، قال ابن مالك: ولمَن ذلك كله يا أبا محمد؟ قال: أعده الله عز وجل لأبي الدرداء، لأنه كان يدفع عنه الدنيا بالراحتين والصدر))

ماذا نستنبط من هذه القصة ؟

نستنبط أن أبا الدرداء كان سبب هدايته صديقُه عبدُ الله بنُ رواحة، وأبو الدرداء عرض عليه عمر منصباً راقياً جداً، والي دمشق، فماذا فضل عليه؟ منصب التعليم، لأن منصب التعليم أرقى عند الله عز وجل، قال عليه الصلاة والسلام:

((خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ))

[أخرجه البخاري عَنْ عُثْمَانَ في الصحيح]

لا تنسوا أن هذا الصحابي الجليل زوّج ابنته من شاب من عامة المسلمين حفاظاً على دينها، لأن الأب إن لم يزوج ابنته من المؤمن فإن كل أعمالها غير الصحيحة في صحيفته، وقد تقول لله عز وجل يوم القيامة: يا رب لا أدخل النار حتى أُدخل أبي قبلي، لا تنتهي مسؤولية الأب عند تزويج ابنته، بل تبدأ، إلا إذا اختار لها الزوج الصالح .

هناك أشياء يمكن أن نستنبطها من هذه القصة، أرجو الله تعالى أن ننتفع بسلوك هذا الصحابي الجليل وعلمه .

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

هل السبل مفتوحة للإنسان حتى يدخل الجنة ، كيف ذلك ؟

أيها الأخوة، مع الدرس السابع والأربعين من دروس سيرة صحابة رسول الله رضوان الله عليهم أجمعين، وصحابي اليوم هو عمرو بن الجموح .

شيخ عزم على أن يطأ بعرجته الجنة، يعني أردت من هذا التعليق أن أبين لكم أن الإنسان مهما يكن حاله، ومهما يكن وضعه الصحي، ومهما يكن سنُّه، ومهما يكن وضعه الاقتصادي، ومهما تكن ظروفه، ومهما تكن مشكلاته، ومهما تكن بيئته، ومهما تكن معطياته، ومهما تكن قدراته، ومهما تكن إمكاناته، بإمكانه أن يدخل الجنة لأنه خُلِقَ لها، وما دام الله سبحانه وتعالى خلقنا للجنة، إذاً: فقد يسَّر لها السبل .

مبدئياً، الأبوة الكاملة يمكن أن تدخلك الجنة، أنت أب كامل، حرصت على أولادك، وربَّيتَهم تربية صالحة، ورعيتَ شؤونهم حتى زوَّجتَهم، وحتى نشؤوا على طاعة الله، ثم نامت عيناك راضيًا عنهم، ولقيت الله عز وجل وهو عنك راض، فهنيئًا لك، الأمومة الكاملة تدخل الجنة، البنوة الكاملة، ابن كان باراً بوالديه، يدخل ببرِّه الجنة .

صنعة حرفتك، أية حرفة أنت فيها بإمكانك من خلالها أن تدخل الجنة، طبعاً يجب أن تكون الحرفة في الأصل مشروعة، فالذي يبيع أفلام الفيديو هذه حرفة غير مشروعة، والذي يبيع لحم خنزير هذه حرفة غير مشروع، فإذا كانت الحرفة في الأصل مشروعة، ومارستها بطريقة مشروعة، وابتغيت بها رضوان الله عز وجل، ولم تشغلك عن فرض صلاة، ولا عن طاعة، ولا عن واجب، ولا عن مجلس علم، وابتغيت بها خدمة المسلمين، وأنت لا تدري تنقلب هذه الحرفة إلى عبادة .

إذاً: في أي وضع يمكنك أن تدخل الجنة، فما عليك إلا أن تفكر، وإلا أن تتعلم، وإلا أن تنطلق إلى العمل متوكّلاً على الله سبحانه .

لمحة عن حياة عمرو بن الجموح :

فعمرو بن الجموح زعيم من زعماء يثرب في الجاهلية، وسيد بني سلمة المسود، وواحد من أجواد المدينة، وذوي المروءات فيها، وقد كان من شأن الأشراف في الجاهلية، أن يتخذ كل واحد منهم صنماً

لنفسه في بيته، صنمًا خاصًّا به، كيف أن بعض الناس له يخت خاص، وطائرة خاصة في العصر الحديث، فأشراف الجاهلية من علائم شرفهم أن له صنماً خاصاً في بيوتهم، ليتبرك به أحدُهم عند الغدو والرواح، وليذبح له في المواسم، وليلجأ له في الملمات؟ .

كلما وحَّدتَ الله كبُر عقلك، وكلما أشركت معه صغُر عقلك، ولو اطلعت على بعض الديانات الوضعية في آسيا لرأيت العجب العجاب، فهناك إنسانًا يتطيب ببول البقر، وإنسان يضع روث البقر في غرفة الضيوف، وإنسان يعبد البقر من دون الله .

كان صنم عمرو بن الجموح يُدعى مناة، وقد اتخذه من نفيس الخشب، وأرقى أنواعه، ولا تعجبوا، فما يدع الناس شيئاً خرافياً إلا ويقعون في خرافة أشد، ولو تأملت حياتنا المعاصرة لرأيت فيها من الخرافات والأوهام والأضاليل ما لا يقل عن هذه الأوهام، ولكن بشكل آخر، وطريقة أخرى .

على يد من أسلم أولاد عمرو، وهل أسلمت زوجه، وممن كان يخشى عمرو، وبماذا كان يحذر زوجته ؟

جاء الإسلام فحررَّ العقول، وأعاد للإنسان إنسانيته، وعرَّفه قدرَه، هذا الصحابي الآن طبعاً، أما قبل إسلامه لم يكن صحابياً، أسلم أولادُه الثلاثة على يدي سيدنا مصعب بن عمير، ، وهم: معوذ ومعاذ وخلاد، وآمنتْ مع أبنائه الثلاثة أمهم هند، وهو لا يعرف من أمر إيمانهم شيئاً، كلهم على يد مصعب بن عمير، وقد تحدثنا عنه في درس سابق .

رأت هند زوجة عمرو بن الجموح أن يثرب غلب على أهلها الإسلام، وأنه لم يبق من السادة الأشراف أحد على الشرك سوى زوجها ونفر قليل، وكانت تحبه وتجله، وتشفق عليه من أن يموت على الكفر، فيصير إلى النار .

أيها الأخوة، حينما ألمح أحداً منكم يشفق على أمه وأبيه، ويخاف أن يختم لهما بعمل لا يرضاه لهما، أنا أكبُر هذا الشاب، هناك أخوة كرام عندهم حرص لا حدود له على هداية أهلهم، وهذا من الوفاء، حتى إنه يُقال: إن الابن مهما فعل مع أمه وأبيه فلن يستطيع أن يكافئهما على إحسانهما إلا في حالة واحدة؛ أن يراهما عبدين فيعتقهما، وهذا المعنى موسع، يعني إذا كانا عبدين لشهوتهما فدلّهما على الله، فأعتقهما، فبهذا العمل وحده بإمكانه أن يكافئ أمه وأباه على سبق إحسانهما إليه .

كان هو في الوقت نفسه يخشى على أبنائه أن يرتدوا عن دين آبائهم وأجدادهم، وأن يتبعوا هذا الداعية؛ مصعب بن عمير الذي استطاع في زمن قليل أن يحول كثيراً من الناس عن دينهم، وأن يدخلهم في دين محمد صلى الله عليه وسلم .

هناك في الدعوة شيء اسمه الجذب، كلما كنت أقرب إلى الله، كلما منحك الله قوة جذب أكثر، وكلما كنت أقرب إلى الله، وأكثر صدقاً وإخلاصاً، تجلى الله عليك حتى حوَّل قلوب الناس إليك .

مرةً قال لزوجته:

((يا هند، احذري أن يلتقي أولادك بهذا الرجل، -يعني مصعب بن عمير - حتى نرى رأينا فيه، فقالت: سمعاً وطاعة))

أنا أضرب لك هذا المثل دائماً، هل من المعقول أن تصلك رسالة تمزقها قبل أن تفتحها، هل يفعل هذا إنسان عاقل على وجه الأرض؟ جاءتك دعوة، استمع لتفهم، وبعدئذٍ خذ الموقف، هذا الذي يرفض أن يستمع إلى درس علم، هذا الذي يرفض أن يلتقي مع أهل الحق ، هذا الذي يرفض أن يقرأ كتاباً، هذا الذي يرفض أن يستمع إلى شريط، يرفض سلفاً، هو كمثل الذي تأتيه رسالة فيمزقها قبل أن يفتحها .

هل أصاخ عمرو لكلام زوجته ، وما موقفه حينما سمع القرآن، وبماذا نصحه ابنه، وما الموقف الذي اتخذه؟

أيها الأخوة، فهند بأدب جم قالت لزوجها:

((هل لك أن تستمع من ابنك معاذ ما يرويه عن هذا الرجل؟ قال: ويحك، هل صبأ معاذ عن دينه، وأنا لا أعلم؟ فأشفقت المرأة الصالحة على هذا الشيخ، وقالت: كلا، ولكنه حضر بعض مجالس هذا الداعية، وحفظ شيئاً مما يقوله، فقال: ادعيه لي، فلما حضر بين يديه، قال: أسمِعْني شيئاً مما يقوله هذا الرجل، قال: يقول سبحانه وتعالى:

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ)

[سورة الفاتحة الآية: 1-7]

فعمرو حينما قرأ ابنه عليه سورة الفاتحة، قال: ما أحسن هذا الكلام، وما أجمله! أوَ كلُّ كلامه مثل هذا؟ فقال معاذ: وأحسن من هذا يا أبتاه، فهل لك أن تبايعه، فإنّ قومك جميعاً بايعوه؟ سكت الشيخ قليلاً، ثم قال: لست فاعلاً حتى أستشير مناة، يعني صنمه، فأنظر ما يقول؟ .

-حدثني أخ ذهب إلى الهند، دخل إلى معابدهم؛ معابد السيخ، قال لي: صنم بوذا ارتفاعه ثلاثون مترًا، ضخم جداً، وقال: أنواع الفاكهة موضوعة أمامه، فسأل لمن هذه الفاكهة؟ قال: هي له يأكلها في الليل، والذي يحدثه دكتور في الجامعة، قال: يأكلها بالليل، وهو مِن خشب، فابتسم، وقال: الرهبان يأكلونها، غيَّر التعبير، تُقدم له أشهى أنواع الفواكه وأثمنها- .

فقال له الفتى: وما عسى أن يقول مناة يا أبتاه، وهو خشب أصمّ، لا يعقل ولا ينطق؟ فقال الشيخ في حدة: قلت لك: لن أقطع أمر دونه))

إليكم قصة إسلام عمرو :

أيها الأخوة، ثم قام عمرو بن الجموح إلى مناة، وكانوا إذا أرادوا أن يكلموه جعلوا خلفه امرأة عجوزاً، فتجيب عنه بما يلهمها إياه في زعمهم، يأتون بامرأة عجوز تقف خلفه، يسألون مناة، ويسمعون الجواب من العجوز، والعجوز وحدها هي التي تجيب، وليس مناة .

ثم وقف أمامه بقامته الممدودة، واعتمد على رجله الصحيحة، فقد كانت الأخرى عرجاء ، شديدة العرج، فأثنى عليه أطيب الثناء، ثم قال:

((يا مناة، لا ريب أنك قد علمت بأن هذا الداعية الذي وفد علينا من مكة لا يريد أحداً بسوء سواك، وأنه إنما جاء لينهانا عن عبادتك، وقد كرهت أن أبايعه على الرغم مما سمعت من جميل قوله، حتى أستشيرك، فأشر عليَّ، فلم يردّ عليه مناة بشيء، فقال: لعلك قد غضبت، وأنا لم أصنع شيئاً يغضبك بعد، ولكن لا بأس فسأترك أياماً حتى يسكت عنك الغضب .

كان أبناء عمرو يعرفون مدى تعلق أبيهم بصنمه مناة، وكيف أنه غدا مع الزمن قطعة منه؟ ولكنهم أدركوا أنه بدأت تتزعزع مكانته في قلبه، وأن عليهم أن ينتزعوه من نفسه انتزاعاً،

ـفذلك سبيله إلى الإيمان، المؤمن كيس فطن حذر، المؤمن العاقل الكيس لا يصل لأهدافه من دون تفكير، ومن دون حكمة وخطة .

سيدنا إبراهيم، ماذا فعل؟ كسر الأصنام، ووضع الفأس في عنق كبيرهم، قال تعالى حكاية عن فعلِه هذا:

(قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ)

[سورة الأنبياء الآية: 62-63]

أوقعهم في مشكلة، أنتم تعبدون هؤلاء الأصنام من دون الله، إنّ كبيرهم فعل هذا، قال تعالى:

(فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ * قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

[سورة الأنبياء الآية: 64-67]

إذاً: سيدنا إبراهيم ما كذبهم مباشرةً، بل سلك معهم أسلوبًا ذكيًّا، كذلك فعل أبناءُ عمرو بن الجموح- .

ذات ليلة أدلج أبناءُ عمرو بن الجموح مع صديقهم معاذ بن جبل إلى مناة، فطرحوه في الدِّمنة، مكان

أقذارهم، وعادوا إلى بيوتهم دون أن يعلم بهم أحد، فلما أصبح عمرو دلف إلى صنمه لتحيته فلم يجده، فقال: ويلكم من عدا على إلهنا هذه الليلة؟ فلم يجبه أحد بشيء .

فطفق يبحث عنه في داخل البيت وخارجه، وهو يرغي ويزبد، ويتهدد ويتوعد، حتى وجده منكساً على رأسه في الحفرة، فغسله، وطهره، وطيّبه، وأعاده إلى مكانه، وقال: أما والله لو أعلم من فعل بك هذا لأخزينّه، فلما كانت الليلة الثانية عاد الفتية على مناة ففعلوا به مثل فعلهم بالأمس، فلما أصبح الشيخ التمسه فوجده في الحفرة ملطخاً بالأقذار، فأخذه، وغسله، وطيّبه، وأعاده إلى مكانه، وما زال الفتية يفعلون بالصنم مثل ذلك كل ليلة، فلما ضاق بهم ذرعاً راح إليه قبل منامه، وأخذ سيفه، وعلقه برأسه، وقال له: يا مناة، إني واللهِ لأعلم من يصنع بك هذا الذي ترى، فإن كان فيك خير فادفع الشر عن نفسك، وهذا السيف معك، -انظروا إلى العقل الصغير، انظروا إلى الجاهلية، هذا كان من أشراف الجاهلية، ومن النخبة، والصفوة ، ومن علية القوم وأنبلهم، بل من أذكاهم، وهذا عقله كما ترون- .

ثم أوى إلى فراشه، فما إن استيقن الفتية من أن الشيخ قد غطّ في نومه، حتى هبوا إلى الصنم، فأخذوا السيف من عنقه، وذهبوا به خارج المنزل، وقرنوه إلى كلب ميت بحبل، وألقوهما في بئر لبني سلمة، تسيل إليها الأقذار، وتتجمع فيها، فلما استيقظ الشيخ، ولم يجد الصنم، خرج يلتمسه، فوجده مكبًّا على وجهه في البئر، مقروناً إلى كلب ميت، وقد سُلب منه السيف، فلم يُخرجه هذه المرة من الحفرة، وإنما تركه حيث ألقوه، وأنشأ يقول: والله لو كنتَ إلهاً لم تكن أنت وكلب وسط بئر في قرن، ثم ما لبث أن دخل في دين الله .

-هذه القصة لها مغزى في دين الله، فالمؤمن إذا استخدم الحكمة والعقل يصل إلى أهدافه بالتدريج، أمّا المجابهة فهي أسلوب الحمقى، فالمجابهة والسباب والشتائم والتقريع كلها أساليب بلهاء، ولكنهم تلطفوا به، وأقنعوه أن هذا الصنم لا يستطيع أن يدفع عنه شيئاً، فاقتنع بالتدريج.

تروي كتب الأدب أن قبيلة وُدٍّ صنعت صنماً لها من التمر، فلما جاعت أكلته، فالعرب قالت: أكلت ودٌّ ربَّها، ومرة رأى إنسانٌ ثعلباً يبول على رأس صنماً، فقال:

أرَبٌّ يَبُولُ الثُّعْلُبَانُ برَأسِهِ لَقَدْ ذَلَّ مَنْ بَالَتْ عَلَيهِ الثَّعَالِبُ

هكذا كان العرب في الجاهلية، فهؤلاء الذين يريدون أن يعتَدُّوا بالجاهلية، وأن يعظّموها ، وأن يتجاهلوا الإسلام، فهذه جاهلية العرب- .

بعد أن دخل عمرو بن الجموح في دين الله تذوق حلاوة الإيمان، حيث عضَّ أصابعه ندماً على كل لحظة قضاها في الشرك))

فيا أيها الأخ المسلم، علامة إيمانك الصادق؛ أن تكره أن تعود إلى ما كنت عليه كما يكره الرجل أن يُلقى في النار، علامة إيمانك الصادق؛ أن تمقت جاهليتك مقتاً لا حدود له، أما هذا الذي يحنُّ إلى جاهليته، يحنُّ إلى أيامه قبل الهدى، يحن إلى ماضيه، هذا دليل أنه لم يؤمن بعد .

إليكم قصة استشهاده :

قبيل موقعة أحد، رأى عمرو بن الجموح أبناءه الثلاثة يتجهزون للقاء العدو، ونظر إليهم غادين رائحين كأُسد الشرى، وهم يتوهَّجون شوقاً إلى نيل الشهادة، والفوز بمرضاة الله عز وجل، فأثار هذا الموقف حميته، وعزَم على أن يغدو معهم إلى الجهاد تحت راية رسول الله صلى الله عليه وسلم، لكن الفتية أجمعوا على منع أبيهم مما عزم عليه، فهو شيخ كبير طاعن في السن، وهو إلى ذلك أعرج شديد العرج، وقد عذره الله عز وجل فيمن عذرهم، فقالوا له:

((يا أبانا، إن الله قد عَذرَكَ، فعلامَ تكلف نفسك مما أعفاك الله منه؟ فغضب الشيخ من قولهم أشد الغضب، وانطلق إلى النبي صلى الله عليه وسلم يشكوهم، قال: يا نبي الله، إن أبنائي هؤلاء يريدون أن يحبسوني عن هذا الخير، وهم يتذرعون بأني أعرج، والله إني لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه الجنة، فقال عليه الصلاة والسلام: دعوه لعل الله يرزقه الشهادة، فخلوا عنه إذعاناً لأمر النبي عليه الصلاة والسلام .

وما إن أزفَ وقتُ الخروج حتى ودّع عمرو بن الجموح أهله وداع مفارق لا يعود، ثم اتجه إلى القبلة، ورفع كفيه إلى السماء، وقال: اللهم ارزقني الشهادة، ولا تردني إلى أهلي خائباً،

-فما معنى خائباً؟ يعني حياً، يعني إذا رجع حياً عاد خائباً، فإذا استشهد فقد حقق أمنيته- .

ثم انطلق يحيط به أبناؤه الثلاثة وجموع كثيرة من قومه بني سلمة، ولما حمي وطيس المعركة، وتفرق الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، شوهد عمرو بن الجموح يمضي في الرعيل الأول، ويثب على رجله الصحيحة وثباً، وهو يقول: إني لمشتاق إلى الجنة، إني لمشتاق إلى الجنة، وكان وراءه ابنه خلاد، وما زال الشيخ وفتاه يجالدان ويذودان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى خرا صريعين شهيدين على أرض المعركة، ليس بين الابن وأبيه إلا لحظات .

وما إن وضعت المعركة أوزارها حتى قام رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى شهداء أحد ليواريهم ترابهم، فقال عليه الصلاة والسلام لأصحابه:

((خلوهم بدمائهم وجراحهم، فأنا الشهيد عليهم))

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ:

((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُكْلَمُ أَحَدٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِهِ إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَاللَّوْنُ لَوْنُ الدَّمِ، وَالرِّيحُ رِيحُ الْمِسْكِ))

[متفق عليه، أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح عن أبي هريرة]

قد روى هذه القصة الإمام أحمد في مسنده عَنْ أَبِي قَتَادَةَ، قَالَ:

((أَتَى عَمْرُو بْنُ الْجَمُوحِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ قَاتَلْتُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّى أُقْتَلَ أَمْشِي بِرِجْلِي هَذِهِ صَحِيحَةً فِي الْجَنَّةِ، وَكَانَتْ رِجْلُهُ عَرْجَاءَ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: نَعَمْ، فَقُتِلُوا يَوْمَ أُحُدٍ هُوَ، وَابْنُ أَخِيهِ، وَمَوْلًى لَهُمْ، فَمَرَّ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْكَ تَمْشِي بِرِجْلِكَ هَذِهِ صَحِيحَةً فِي الْجَنَّةِ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِهِمَا وَبِمَوْلَاهُمَا فَجُعِلُوا فِي قَبْرٍ وَاحِدٍ))

[أخرجه أحمد في مسنده عن أبي قتادة]

ملخص الدرس :

رجل يزيد عمره عن الستين عاماً، أعفاه القرآن من الجهاد وهو معذور، ويصرّ على أن يجاهد في سبيل الله، وأن يدفع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، والقول الرائع: أن يا رب، لا تردني إلى أهلي خائباً، كأنهم ليسوا بشراً، أو كأننا نحن دون البشر، هكذا كان أصحاب النبي، بمثل هؤلاء فتح النبي عليه الصلاة والسلام البلاد، بمثل هؤلاء انتشر الإسلام في الخافقين، رضي الله عن عمرو بن الجموح، وأصحابه من شهداء أحد، ونوّر الله لهم في قبورهم .

والحمد لله رب العالمين

السيرة - رجال حول الرسول - الدرس (48-50) : سيدنا أبو ذر الغفاري
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 20-09-1993

بسم الله الرحمن الرحيم

ما هي الشهادة التي حازها أبو ذر الغفاري من رسول الله عليه الصلاة والسلام ؟

أيها الأخوة، مع الدرس الثامن والأربعين من دروس سيرة صحابة رسول الله رضوان الله عليهم، وصحابي اليوم هو سيدنا أبو ذر الغفاري رضي الله عنه وأرضاه، فعَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَا أَظَلَّتْ الْخَضْرَاءُ، وَلَا أَقَلَّتْ الْغَبْرَاءُ مِنْ ذِي لَهْجَةٍ أَصْدَقَ، وَلَا أَوْفَى مِنْ أَبِي ذَرٍّ شِبْهِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَام، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: كَالْحَاسِدِ يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَفَتَعْرِفُ ذَلِكَ لَهُ؟ قَالَ: نَعَمْ فَاعْرِفُوهُ لَهُ))

وَقَدْ رَوَى بَعْضُهُمْ هَذَا الْحَدِيثَ، فَقَالَ:

((أَبُو ذَرٍّ يَمْشِي فِي الْأَرْضِ بِزُهْدِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَام))

[أخرجه الترمذي في سننه عن أبي ذر]

بالمناسبة فإن شهادة النبي صلى الله عليه وسلّم لأصحابه شهادة حق، لأنه لا ينطق عن الهوى، ولأنه عليه الصلاة والسلام لا يعرف المحاباة والمديح، ولأنه الإنسان الكامل، فإذا مدح صحابياً يمدحه بما فيه، ولا ينطق عن الهوى أبداً، إن هو إلا وحي يوحى .

لذلك هؤلاء الذين سعدوا بوصف النبي عليه الصلاة والسلام هم سعداء حقاً، كيف لا، وقد قال الله عز وجل عن أصحابه الكرام رضي الله عنهم ورضوا عنه:

(لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الفتح الآية: 18]

من هو السعيد، وهل للنسب أية قيمة إذا لم يكن على صلة بالاستقامة والتقوى، ومتى يعترف بالنسب ؟ يا أيها الأخوة الكرام، والله الذي لا إله إلا هو ما في الأرض شيء أثمنُ من أن يرضى الله عنك، ولو كنت معذباً، ولو كنت فقيراً، ولو كنت مضطهداً، ولو كنت ضعيفاً، ولو كنت تعاني ما تعاني، ولو كنت في أدنى درجة السلّم الاجتماعي، فإذا رضي الله عنك فأنت أسعد الناس، لذلك فالذي قال:

فليتك تحلو والحياة مريــــرة ... وليتك ترضى والأنام غِضــابُ
وليت الذي بيني و بينك عامــر ... وبيني وبين العالمين خَــرابُ

لقد صدق، لكنه لِمن ذاق طعم الإيمان، وذاق طعم القرب، وذاق طعم الرضى، وذاق طعم أن يشعر الإنسان أن الله يحبه، وأن خالق الكون يرعاه، ويحميه، ويدافع عنه، ويجعل له وُدًّا، قال عز وجل:

(إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً)

[سورة مريم الآية: 96]

الإنسان أحياناً يملأ الدنيا إذا كانت له صلة مع شخص مهمٍّ، وإذا كانت معه صورة له، يضعها في جيبه دائمًا، وكلما التقى بإنسان، يقول: كنا بالأمس معًا في سهرة لعله إنسان لا قيمة له عند الله أبداً، فكيف إذا كانت لك مودة مع خالق الكون؟ .

على كل؛ وكما كنت أقول هذا لكم كثيراً: مهما يكن وضعك الصحي، أو الاجتماعي أو الاقتصادي، أو العلمي، أو الطبقي، أو العرقي، فلا شيء يحول بينك وبين أن تكون بطلاً عند الله عز وجل، من أي منبت كنتَ، من أي مشرب، من أي طبقة، من أي عرق، من أي جنس، من أي أمة، من أي لون، من أي شكل، من أي وراثة، من أي أسرة، من أي منطقة، أبداً، لأن هذا الدين دين الله عز وجل، وليس هناك عقبة إلا منك، لذلك ترون مِن الصحابة مَن هم في قمم النسب القريشي؟ ومن الصحابة من هم دخلاء على قريش، فسلمان وبلال وصهيب دخلاء على قريش، ماذا قال النبي عليه الصلاة والسلام؟:

((سَلْمَانُ مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ))

[أخرجه الطبراني في الكبير]

النبي عليه الصلاة والسلام ألغى النسب كله، قال:

((أنا جد كل تقي، ولو كان عبداً حبشياً))

هذا هو الإسلام، وما سوى ذلك جاهلية، فأيُّ إنسان يعتد بنسبه إن لم يكن مستقيماً فلا شأن له ، لكن النسب مع الاستقامة فهو على العين والرأس، تاج يُتوَّج الإنسان به، أما نسب بلا استقامة فكلام فارغ، قال تعالى:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)

[سورة المسد الآية: 1]

هذا شعار من يفتخرون بالأنساب دون أن يستقيموا على أمر الله، قال تعالى:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)

[سورة المسد الآية: 1]

فأيُّ إنسان يعتد بأسرته، بوسامته، بذكائه، بقومه، بأمته، فهو اعتداد أعمى، إنْ لم يقدم شيئًا يرفعه، فهذا سلوك جاهلي، وتفكير جاهلي، ونمط جاهلي، فعَنْ الْمَعْرُورِ بْنِ سُوَيْدٍ قَالَ: لَقِيتُ أَبَا ذَرٍّ بِالرَّبَذَةِ، وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ، وَعَلَى غُلَامِهِ حُلَّةٌ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: إِنِّي سَابَبْتُ رَجُلًا فَعَيَّرْتُهُ بِأُمِّهِ، فَقَالَ لِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((يَا أَبَا ذَرٍّ أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ، إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ، إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ، جَعَلَهُمْ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ))

[متفق عليه، أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح عن المعرور بن سويد]

كل إنسان عنصري فهو جاهلي، كل إنسان يحابي إنسانًا لا لأخلاقه، ولا لعلمه، ولكن لنسبه، أو لاتصاله بقومه، أو لعشيرته، أو أسرته، فهو إنسان جاهلي عنصري، لذلك في هذا الدرس ترون أن هذا الصحابي الجليل كان من أطراف المدينة، وادٍ من الوديان التي تصل مكة بالعالم الخارجي .

تعرفون الوديان ممرات إجبارية، فهناك وادٍ يعد ممراً إجبارياً بين مكة والعالم الخارجي، في هذا الوادي الذي اسمه (ودان) كانت تنزل قبيلة غفار، وقد تسألون لماذا في الوادي؟ لأن الوادي مسيل الماء، وفي قعر الوادي قد تتجمع المياه، وقد ينبت الكلأ، لذلك هذه القبيلة، قبيلة غفار كانت تنزل في قعر الوادي الذي يصل مكة بالعالم الخارجي، يعني على الطريق، وكانت غفار قبيلة فقيرة جداً، تعيش من ذلك النزر اليسير الذي تبذله لها القوافل، أيْ تعيش على فتات القوافل .

ربنا سبحانه وتعالى نوَّع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، منهم الغني، ومنهم الفقير، فمنهم القريب، ومنهم البعيد، ومنهم الحضري، ومنهم البدوي، ومنهم الذكي، ومنهم الأقل ذكاءً، ومنهم ذو العشيرة، ومنهم من كان دخيلاً على مكة .

من هو أبو ذر الغفاري، وما هي الميزات التي كان يتمتع بها، وعلام يبحث ؟

كان جندب بن جنادة المكنى بأبي ذر واحداً من أبناء هذه قبيلة غفار، وكان واحداً من هذه القبيلة التي تعيش في ذلك المكان، وعلى فتات القوافل، أو على قطع الطريق .

الإسلام أيها الأخوة، يصبغ الإنسان، وكنت أقول هذه الكلمة: لا يمكن أن يُضاف إلى كلمة مؤمن كلمة أخرى، فأي كلمة تضاف إلى المؤمن كلمة باطلة، لأن الإيمان يصبغ نفسية الإنسان بصبغة الكمال، قال تعالى:

(صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ)

[سورة البقرة الآية: 138]

لكن هذا الصحابي الجليل كان يمتاز بجرأة القلب، ورجاحة العقل، وبُعْدِ النظر .

اليوم زارني إنسان يتمتع بقدرات فكرية عالية جداً، قلت له: إنّ النبي عليه الصلاة والسلام عجب لا من إسلام خالد، ولكن عجب من تأخر إسلام خالد، قال له:

((عجبت لك يا خالد! أرى لك فكراً))

معناها الإسلام متوافق توافقاً تاماً مع العقل، كل من كان له عقل راجح يجب أن يستسلم لله عز وجل، هذا التلازم بين العقل الراجح وبين التدين، هذا تلازم ضروري، وتلازم ثابت وحتمي، فالنبي لما رأى سيدنا خالدًا، وقد أسلم قبل عام الفتح بقليل، قال له:

((عجبت لك يا خالد! أرى لك فكراً))

إذاً: سيدنا أبو ذر كان يمتاز بجرأة القلب، ورجاحة العقل، وبُعْدِ النظر، وفطرته كانت تأبى أن يعبد الأصنام، كان يضيق أشد الضيق بهذه الأوثان التي تُعبد من دون الله، ويستنكر على قومه، يستنكر فساد دينهم، وتفاهة معتقدهم .

كان عندنا درس للدعاة يوم السبت، فأحد أخواننا الكرام ألقى محاضرة مِن مقرر تاريخ الأديان، وفي هذه المحاضرة حديث عن الديانات في الهند، وقرأ لنا مقتطفات من قول رجل راجح العقل هناك، وله مكانة كبيرة جداً، يفضل البقرة على أمه، ويرى أن هذه البقرة يجب أن تُعبد من دون الله .

فالإنسان حين يرى تفاهة عقل الآخرين، فذاك الرجل له عقل راجح، والدليل وصل إلى قمة المجتمع الهندي، ومع ذلك حين تحدث عن دينه الهندوسي، وتحدث عن البقرة، وكيف أنها أفضل من أمه، وقال: هو يرضع من أمه سنتين فقط ، لكنه يشرب الحليب من البقرة طوال حياته ، إذاً: البقرة أفضل من أمه؟ هذا ما سمعناه منقول بنصه الحرفي .

فكان أبو ذر رضي الله عنه يضيق أشد الضيق بقومه، ويتطلع إلى ظهور نبي جديد، يملأ على الناس عقولهم وأفئدتهم، ويخرجهم من الظلمات إلى النور .

ما هو الغرض الذي أرسل به أبو ذر أخاه أنيس إلى مكة ؟

أيها الأخوة، الإنسان قد يبحث بهذا المجلس أو بذاك، بهذا المكان أو بغيره، ثم يقول لك: ما ارتويت، عندي فراغ ما مُلِئ، عندي حاجة عقلية ما ارتوت، عندي تطلع ما وجدته، إلى أن يهديه الله إلى جهة يرتاح لها تسد فراغ عقله، وتسد حاجة نفسه .

سيدنا أبو ذر كان عنده فراغ، كان عنده بحث دائم، ثم تناهت إلى أبي ذر وهو في باديته أخبارُ النبي عليه الصلاة والسلام الذي ظهر في مكة، وقال لأخيه أنيس:

((انطلق إلى مكة ، وقِفْ على أخبار هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي، وأنه يأتيه وحي من السماء، واسمع شيئاً من قوله واحمله إلي .

ذهب أنيس إلى مكة، والتقى بالنبي صلوات الله وسلامه عليه، وسمع منه، ثم عاد إلى البادية، فتلقاه أبو ذر باللهفة، وسأله عن أخبار النبي الجديد بشغف، فقال: لقد رأيت واللهِ رجلاً يدعو إلى مكارم

الأخلاق، ويقول كلامًا ما هو بالشعر، فقال: وماذا يقول الناس عنه؟، قال: يقولون: ساحر، وكاهن، وشاعر، فقال أبو ذر: والله ما شفيت لي غليلاً، ولا قضيت لي حاجة ، فهل أنت كافٍ عيالي حتى انطلق فأنظر في أمره؟ قال: نعم، ولكن كنْ من أهل مكة على حذر، لأن الرجل مُحارَب هناك، فإذا علموا أنك جئته ربما قتلوك))

إليكم قصة إسلام أبي ذر الغفاري :

أيها الأخوة، فتزود أبو ذر لنفسه، وحمل معه قربة ماء صغيرة، واتجه من غده إلى مكة يريد لقاء النبي عليه الصلاة والسلام، والوقوف على خبره بنفسه .

بلغ أبو ذر مكة المكرمة، وهو متوجس خيفة من أهلها، فقد تناهت إليه أخبار غضبة قريش لآلهتهم، وتنكيلهم بكل من تحدثه نفسه باتباع محمد، لذا كره أن يسأل أحداً عن محمد، لأنه ما كان يدري أيكون هذا المسؤول من شيعته أم من عدوه؟ لا يعرف .

لما أقبل الليل اضطجع في المسجد، فمر به رجل هو سيدنا علي بن أبي طالب، فعرف أنه غريب، فقال:

((هلم إلينا أيها الرجل، فمضى معه، وبات ليلته عنده، وفي الصباح حمل قربته ومزوده، وعاد إلى المسجد دون أن يسأل أحدًا عن شيء .

-أحياناً أيها الأخوة، قد يوجه الإنسان أسئلة محرجة، كأنْ يمشي مع شخص، يقول له: أراك هنا، أين ذاهب؟ لا تحرجه، ربما لا يحب أن يقول: أين هو ذاهب؟ فكل إنسان يكثر الأسئلة، يضيق على صاحبه-

ثم قضى أبو ذر يومه الثاني دون أن يتعرف إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فلما أمسى أخذ مضجعه من المسجد، فمر به علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال له: أما آن للرجل أن يعرف منزله؟ ثم اصطحبه معه فبات عنده ليلته الثانية، ولم يسأل أحدٌ منهما صاحبه عن شيء، فلما كانت الليلة الثالثة، قال علي لصاحبه: ألا تحدثني عما أقدمك إلى مكة؟ فقال أبو ذر: إن أعطيتني ميثاقاً أن ترشدني إلى ما أطلب فعلت، فأعطاه عليٌّ ما أراد من ميثاق، فقال أبو ذر: لقد قصدت مكة من أماكن بعيدة أبتغي لقاء النبي الجديد، وسماع شيء مما يقوله، فانفرجت أسارير سيدنا علي، وقال: والله إنه لرسول الله حقاً،-هذه على حد قوله تعالى:

(ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى)

[سورة طه الآية: 40]

هذه اللقاءات العابرة، اللقاءات التي يظن أنها صدفة، فليست هي صدفة، ولكنها بقدر، قال تعالى:

(فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَناً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

[سورة الأنفال الآية: 17]

(ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى)

[سورة طه الآية: 40]

فالله عز وجل علم صدقه، فجمعه بصاحبي جليل، ابن عم النبي عليه الصلاة والسلام-

قال: والله إنه لرسول الله حقاً، وإنه وإنه وإنه، وحدثه عن النبي، فإذا أصبحنا فاتبعني حيثما سرت، قال له: سر ورائي، فإن رأيت شيئاً أخافه عليك، وقفتُ كأني أريق الماء

- اتفقوا على إشارة - فانتبه وارجع، فإن مضيت فاتبعني حتى تدخل معي، فلم يقر لأبي ذر مضجعه طوال ليلته شوقاً إلى النبي ورؤيته، ولهفة إلى استماع شيء مما يوحى إليه .

وفي الصباح مضى عليٌّ بضيفه إلى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومضى أبو ذر وراءه يقفو أثره، وهو لا يلوي على شيء، حتى دخلا على النبي صلى الله عليه وسلم .

-يقولون: إنّ أول صحابي سلَّم على النبي بسلام الإسلام هو أبو ذر الغفاري، أما كان راجح العقل؟ بلى- حينما رأى النبي صلى الله عليه وسلم، قال: السلام عليك يا سول الله .

-لنا هنا كلام جميل، فحين يتكلم الإنسانُ فإمّا أنْ يعلو أو يسقط، قال زهير بن أبي سلمى في معلقته:

وكائِنْ ترَى مِنْ صَامِتٍ لكَ مُعجِبٍ زِيادَتُهُ أوْ نَقصُهُ فِي التّكَلُّــمِ

سيدنا عمر كان مرةً ماشيًا في الطريق، فقال: السلام عليكم يا أهل الضوء، ولم يَقُلْ: السلام عليكم يا أصحاب النار، يعني اللغة شيء ثمين، مرة منشئ الأخبار صاغ الخبر التالي: يُسمح باستيراد العلف للمواطنين، هذا غير صحيح، يجب أن يقول يُسمح للمواطنين باستيراد العلف- .

فقال عليه الصلاة والسلام: وعليك سلام الله ورحمته وبركاته، -فعندما تقول: السلام عليكم ، يعني أنني إنسان خيِّر فلا تخف مني، الإنسان عليه أن يكثر السلام، حتى إذا دخل على أهل بيته، حتى إذا دخل إلى محل ما فليبدأ بالسلام- .

كان أبو ذر أول من حيَّا الرسول بتحية الإسلام، ثم شاعت وعمَّت بعد ذلك .

أقبل النبي عليه الصلاة والسلام على أبي ذر يدعوه إلى الإسلام، ويقرأ عليه القرآن، فما لبث أن أعلن كلمة الحق، ودخل في الدين الجديد قبل أن يبرح مكانه، فكان رابع ثلاثة أسلموا أو خامس أربعة))

بعض الصحابة يقولون: كنت في وقت وأنا ثلث الإسلام، الثلث أي سبقه اثنان، الآن أنت كم سبقكم من واحد؟ ألف ومائتا مليون، أنت واحد على ألف مليون ومائتي مليون، سيدنا أبو ذر واحد على أربعة، يعني حينما دخل في الإسلام كان رابع خمسة أو ثالث أربعة .

ماذا فعلت قريش حينما علمت بإسلام أبي ذر، وكيف نجى من القتل، وبماذا أمره النبي ؟

قال أبو ذر:

((أقمت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة، فعلمني الإسلام، وأقرأني شيئاً من القرآن، ثم قال لي: لا تخبر بإسلامك أحداً في مكة، فإني أخاف عليك أن يقتلوك، فقلت: والذي نفسي بيده لا أبرح مكة حتى آتي المسجد، وأصرخ بدعوة الحق بين ظهراني قريش، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

-الحقيقة التفسير سهل، من شدة انبهاره بالدعوة، من شدة سعادته بالإسلام، فهل من المعقول أنّ في الناس مَن لا يعرف الإسلام؟ فتطوع أن يخرج إليهم، وأن يصرخ في وجههم بكلمة الحق، مع أنّ النبي نصحه ألاّ يفعل- .

قال: فجئت المسجد، وقريش جلوس يتحدثون، فتوسطتهم، وناديت بأعلى صوتي، يا معشر قريش، إني أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمد رسول الله، فما كادت كلماتي تلامس آذان القوم حتى ذعروا جميعاً، وهبوا من مجالسهم، وقالوا: عليكم بهذا الصابئ، وقاموا إليَّ، وجعلوا يضربونني لأموت، فأدركني العباس بن عبد المطلب عمُّ النبي صلى الله عليه وسلم، وأكب عليَّ ليحميني منهم، ثم أقبل عليهم، وقال: ويلكم، ويلكم، أتقتلون رجلاً من غفار، وممر قوافلكم عليهم؟ انتبهوا .

-انظر إلى الذكاء، لو قال: أتقتلون إنسانًا مؤمنًا لقتلوه، فهمْ يريدون قتله، لكنّهم خاطبهم بلغتهم، أحياناً الإنسان يُوفق ويخاطب الآخرين باللغة التي يفهمونها، ليس بحكيم من خاطب أناساً بلغة لا يفهمونها، أحياناً تخاطب إنسانًا قويًا، وتقول: والله يجب أن تفعل هكذا، ألاَ تخاف اللهَ، يظن الإنسان العاقل أنَّ أعظم شيء أن يخاف الإنسانُ من الله، فالمتغطرس لا يخاف الله إطلاقاً، فكل إنسان يجب أن يُخاطَب بلغة يفهمها، وهذه من الحكمة- .

قال: ولما أفقت من غيبوبتي بعد أن ضُربت ضرباً مبرحاً، جئت النبي عليه الصلاة والسلام، فلما رأى ما بي قال: يا أبا ذر، ألم أنهك عن إعلان إسلامك؟ فقلت: يا رسول الله، كانت حاجة في نفسي فقضيتها، فقال: الحقْ بقومك، وأخبرهم بما رأيت وما سمعت، وادعُهم إلى الله، لعل الله ينفعهم بك، ويأجرك فيهم، قال: فإذا بلغك أني ظهرت فتعال إلي))

ما معنى ظهرت؟ يعني نصرني الله، الآن النبي مستضعف متخف .

هل استجابت قبيلة أبي ذر إلى دعوته، ومتى أقام بالمدينة، ومتى فارقها، وأين أقام ؟

قال أبو ذر:

((فانطلقت حتى أتيت منازل قومي، فلقيني أخي أنيس، فقال: ما صنعت؟ قلت: لقد أسلمتُ وصدَّقتُ، فما لبث أن شرح الله صدره، وقال: مالي رغبة عن دينك، فإني قد أسلمت وصدقت أيضاً، ثم أتينا أمَّنا فدعوناها للإسلام، -والمرأة لها قيمة وشأن، فهي أمٌّ، وزوجة- فقالت: مالي رغبة عن دينكما، وأسلمتْ أيضاً .

منذ ذلك اليوم انطلقت الأسرة المؤمنة تدعو إلى الله، لا تكلُّ عن ذلك، ولا تملّ منه، حتى أسلم من غفار خلق كثير، وأقيمت الصلاة فيهم، -ما معنى قوله تعالى؟:

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً)

[سورة النحل الآية: 120]

أنت ممكن أن تكون أمة، إذا كان عند الإنسان صدق شديد، ودعا إلى الله يصبح وحده أمةً-.

أيها الأخوة، لكنّ فريقًا منهم، قال: نبقى على ديننا، حتى إذا قدم النبيُّ المدينة أسلمنا، فلما قدم النبي المدينة أسلموا- فعَن ابْنِ عُمَرَ، قالَ: قالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((غِفَارُ غَفَرَ اللَّهُ لَهَا ، وَأَسْلَمُ سَالَمَهَا اللَّهُ، وَعُصَيَّةُ عَصَتْ اللَّهَ))

[أخرجه مسلم في الصحيح عن ابن عمر]

وقبيلة أخرى أسلمتْ .

أقام أبو ذر في باديته حتى مضت بدرٌ وأحدٌ والخندقُ، ثم قدم إلى المدينة، وانقطع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، واستأذنه أن يقوم في خدمته، فأذن له، ونَعِمَ بصحبته، وسَعِدَ بخدمته، وظلَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤثره ويكرمه، فما لقيه مرةً إلا صافحة، وهشَّ في وجهه وبشَّ .

لما لحق النبي صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى لم يُطِق أبو ذر صبراً على الإقامة في المدينة، بعد أن خلت من سيدها، وأقفرت من هدي مجلسه، فرحل إلى بادية الشام، وأقام فيها مدة خلافة الصديق والفاروق رضي الله عنهم جميعا .

وفي خلافة عثمان نزل في دمشق، فرأى من إقبال المسلمين على الدنيا وانغماسهم في الترف ما أذهله، ودفعه إلى استنكار ذلك، فاستدعاه عثمان إلى المدينة، فقدم إليها، لكن ما لبث أن ضاق برغبة الناس في الدنيا، وضاق الناس بشدته عليهم، وتنديده بهم، فأمره عثمان بالانتقال إلى الربذة، وهي قرية صغيرة

من قرى المدينة، فرحل إليها، وأقام فيها بعيداً عن الناس، زاهداً بما في أيديهم من عرض الدنيا، مستمسكاً بما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وصاحباه من إيثار الباقية على الفانية))

إليكم زهده في الدنيا :

دخل عليه رجلٌ ذات مرة، فجعل يقلب الطرف في بيته، فلم يجد فيه متاعاً، فقال:

((يا أبا ذر، أين متاعكم؟ فقال: لنا بيت هناك، نرسل إليه صالح متاعنا، ففهم الرجل مراده، -أنّه يعني الدار الآخرة- وقال: ولكن لا بد لك من متاع ما دمت في هذه الدار، فأجاب: ولكن صاحب المنزل لا يدعنا فيه))

بعث إليه أمير الشام بثلاثمئة دينار، وقال له:

((استعن بها على قضاء حاجتك، فردها إليه ، وقال: أما وجد أمير الشام عبداً لله أهون عليه مني))

وفي السنة الثالثة والثلاثين للهجرة استأثرت يد المنون بالعابد الزاهد، الذي قال فيه النبي صلوات الله عليه:

((مَا أظلَّتْ الْخَضْرَاءُ، وَلَا أَقَلَّتْ الْغَبْرَاءُ، -الغبراء الأرض، والخضراء السماء - مِنْ ذِي لَهْجَةٍ أَصْدَقَ، وَلَا أَوْفَى مِنْ أَبِي ذَرٍّ شِبْهِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَام))

[أخرجه الترمذي في سننه]

يعني أصدق مع ربه، وأصدق في طلب الحق، وأصدق في الزهد في الدنيا .

مغزى القصة :

أردت من هذه القصة ذكرَ إنسان يعيش في وادٍ منقطع، وتعيش قبيلته على قطع الطريق أحياناً، وعلى فتات القوافل أحياناً، يصبح سيدنا، ويصبح صحابياً جليلاً، ويصبح في أعلى قمم التقوى والصلاح . مرةً ثانية، أيّ وضع أنت فيه؟ من أي انتماء أنت؟ من أي عرق كنت؟ من أي لون؟ من أي طبيعة؟ من أي مستوى؟ من أي أصل؟ لا شيء في الأرض يمنعك من أن تكون مؤمناً وبطلاً قريباً من الحق .

والحمد لله رب العالمين

السيرة - رجال حول الرسول - الدرس (49-50) : سيدنا عبد الله بن عباس
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1993-09-27

بسم الله الرحمن الرحيم

ما هي المزايا التي كان يتمتع بها ابن عباس ؟

أيها الأخوة، مع الدرس التاسع والأربعين من دروس سير صحابة رسول الله رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، وصحابي اليوم علم كبير من أعلام الصحابة إنه عبد الله بن عباس رضي الله عنه وأرضاه .
هذا الصحابي الجليل مَلَكَ المجدَ من كل أطرافه، فقد اجتمع له مجد الصحبة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومجد القرابة، فهو ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم، ومجد العلم، فهو حبر هذه الأمة، وبحر علمها الزاخر، ومجد التُّقى، فقد كان صوَّاماً بالنهار، قواماً بالليل، مستغفراً بالأسحار، بكاءً من خشية الله، حتى خدَّد الدمع خديه، صار على خديه خدود من شدة بكائه، وبكاءُ الرحمة أعلى أنواع البكاء، والقلب القاسي أبعد القلوب عن البكاء، ومن لم يبكِ، أو لم يتباكَ فعنده خلل خطير، وعلامة إيمان المؤمنين، قال تعالى:

(وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)

[سورة الأنفال الآية: 2]

علامة الإيمان أن جِلْدَ المؤمن يقشعر من خشية الله، قال تعالى:

(اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ)

[سورة الزمر الآية: 23]

أمَّا الذي لا يبكي، ولا يدعو، ولا يلجأ، ولا يمرِّغ جبهته في أعتاب الله عز وجل فقد اختل إيمانه .
الإيمان يشمل غذاء العقل وهو العلم، وغذاء القلب، وهو الذكر، أمّا غذاء الجسد فهو الطعام والشراب .
إنه عبد الله بن عباس، ربَّاني هذه الأمة، أعلمُها بكتاب الله، وأفقهُها بتأويله، وأقدرها على النفوذ إلى أغواره، وإدراك مراميه وأسراره .

الأدعية التي وردت عن النبي بشأن ابن عباس :

أيها الأخوة، يكفيه شرفاً ما قاله فيه عليه الصلاة والسلام، فَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَخَلَ الْخَلَاءَ فَوَضَعْتُ لَهُ وَضُوءًا، قَالَ:

((مَنْ وَضَعَ هَذَا؟ فَأُخْبِرَ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ))

[متفق عليه، أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح عن ابن عباس]

في حديث آخر، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ:

((ضَمَّنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَ: اللَّهُمَّ عَلِّمْهُ الْكِتَابَ))

[متفق عليه، أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح عن ابن عباس]

وفي رواية عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ:

((ضَمَّنِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى صَدْرِهِ، وَقَالَ: اللَّهُمَّ عَلِّمْهُ الْحِكْمَةَ))

[متفق عليه، أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح عن ابن عباس]

عَن ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَضَعَ يَدَهُ عَلَى كَتِفِي أَوْ عَلَى مَنْكِبِي، ثُمَّ قَالَ:

((اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ))

[أخرجه أحمد في مسنده عن ابن عباس]

معنى التأويل، أي إدراكُ كلام الله عز وجل، وإدراكُ معانيه الدقيقة، ومراميه البعيدة، وإدراك أعماقه، وهذه نعمة كبرى من نعم الله عز وجل، وهذا النص وصف اللهُ به سيدنا يوسف عليه السلام، فقال:

(وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

[سورة يوسف الآية: 6]

فأن تفهم النص فهماً عميقاً، فهماً دقيقاً، وتفهم مراميه البعيدة، وتفهم أبعاده كلها، هذه نعمة من نعم الله عز وجل، قال تعالى:

(فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلّاً آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ)

[سورة الأنبياء الآية: 79]

هذا يعبّر عنه العلماء باليقين الإشراقي، وصفه النبي عليه الصلاة والسلام، بل وصف سببه، قال:

((مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ أَوْرَثَهُ اللَّهُ تَعَالَى عِلْمَ مَا لَمْ يَعْمَلْ))

هذا هو اليقين الإشراقي، لكن اليقين الإشراقي يجب أن يكون منضبطاً بالكتاب والسنة .

كم كان عمره حينما توفي النبي، وكم هو العدد الذي وصل إليه في حفظ الحديث، وكيف كانت ملازمته للنبي قبل وفاته ؟

صحابي جليل، حبر هذه الأمة، عَلَم من أعلامها، أعلمُها بكتاب الله، حينما توفي النبي عليه الصلاة والسلام ما كان سنه يزيد عن ثلاث عشرة سنة فقط، ومع ذلك فقد حفظ عن النبي صلى الله عليه وسلم ألفًا وستمائة وستين حديثًا، أثبتها البخاري ومسلم، وقد سمعها منه مشافهة.

لما وضعته أمه حملته إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فحنكه بريقه الشريف، فكان أول ما دخل جوفه ريقُ رسول الله صلى الله عليه وسلم، ودخلت معه التقوى والحكمة، قال تعالى:

(يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ)

[سورة البقرة الآية: 269]

ما إن حُلت تمائمه - يعني فكت أربطته - حتى لازم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ملازمة العين لأختها، فكان يُعدُّ له ماء الوضوء إذا همَّ أن يتوضأ، ويصلي خلف رسول الله إذا وقف للصلاة، ويكون رديفه على راحلته إذا عزم على السفر، حتى غدا كظله، يسير معه أنَّى سار، ويدور معه أنى دار، ومع ذلك كان هذا الصحابي الفتى الصغير يحمل بين جنبيه قلباً واعياً، وذهناً صافياً، وحافظة دونها كل آلات التسجيل، ذاكرة رائعة قوية جداً .

إليكم سر هذا الدعاء :

قال مرةً عن نفسه:

((همَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم للوضوء ذات مرة، فما أسرع أن أعددتُ له الماء، فسُرَّ بما صنعت، ولما همَّ بالصلاة أشار إليّ أن أقف بإزائه، فوقفت خلفه ، فلما انتهت الصلاة مال عليَّ، وقال: ما منعك أن تكون بإزائي يا عبد الله؟ قلت: يا رسول الله، أنت أجلُّ في عيني، وأعزّ من أن أوازيك في الصلاة،

-ما هذا الأدب؟ الآن ترى معلمًا عمره خمسون سنة، وتلميذه الصغير يمشي أمامه بمتر أو بنصف متر.

يقولون: مرةً أحد رؤساء الجمهورية في فرنسا كان يمشي، وإلى جانبه رئيس الوزارة ، فقال له: خطوة إلى الوراء يا سيد، ليعرف الناس أن في هذا البلد رجل واحد- .

رفع النبي عليه الصلاة والسلام يده إلى السماء، وقال:

((اللَّهُمَّ عَلِّمْهُ الْحِكْمَةَ))

[متفق عليه، أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح]

فهل دعاء النبي قليل؟ نبي هذه الأمة، أقرب الخلق إلى الله عز وجل يدعو لإنسان، قال:

((اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ))

[أخرجه أحمد في مسنده]

إنّ هذا شرف عظيم، لقد استجاب الله عز وجل دعوة النبي عليه الصلاة والسلام، فآتى الغلام الهاشمي الحكمة، ففاق بها أساطين الحكماء .

إليكم أحد مواقفه الذي وضع لسانه عند المحك فصلح الله به الأمة :

استمعوا أيها الأخوة إلى موقف من مواقف هذا الصحابي الجليل الفتى الصغير؛ لما اعتزل بعض أصحاب عليٍّ وخذلوه، في نزاعه مع معاوية رضي الله عنهما، فعن عبد الله بن عباس، قال:

((لما اعتزلت الحرورية، وهم الخوارج، وكانوا من أشد الناس عبادة، قلت لعليٍّ: يا أمير المؤمنين، أبرد عن الصلاة لعلي آتي هؤلاء القوم فأكلمهم، فأتيتهم ولبست أحسن ما يكون من الحلل، فقالوا: مرحبا بك يا ابن عباس، فما هذه الحلة؟ قال: ما تعيبون عليَّ، لقد رأيت على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الحلل، ونزل:

(قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ)

[سورة الأعراف الآية: 32]

قالوا: فما جاء بك؟ قلت: أخبروني ما تنقمون على ابن عم رسول الله صلى الله عليه؟ قالوا: ننقم عليه ثلاثا، قلت ما هن؟ قالوا: أولُّهن أنه حكم الرجال في دين الله، وقد قال الله تعالى:

(إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ)

[سورة الأنعام الآية: 57]

قلت: وماذا؟ قالوا: وقاتل ولم يَسْبِ، ولم يغنَم، لئن كانوا كفارا لقد حَلّتْ له أموالهم، ولئن كانوا مؤمنين لقد حرمت عليه دمائهم، قلت: وماذا؟ قالوا: ومحا اسمه من أمير المؤمنين، فإن لم يكن أمير المؤمنين فهو أمير الكافرين .

قلت: أرأيتم إن قرأت عليكم من كتاب الله المحكم، وحدثتكم من سنة نبيه صلى الله عليه وسلم ما لا تشكون، أترجعون؟ قالوا: نعم، قلت: أما قولكم أنه حكَّم الرجال في دين الله، فإنَّ الله تعالى يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ)

[سورة المائدة الآية: 95]

وقال في المرأة وزوجها:

(وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا)

[سورة النساء ، الآية 35]

أنشدكم الله، أفحكمُ الرجال في حقن دمائهم وأنفسهم وصلاح ذات بينهم أحقُّ أم في أرنب فيه ربع درهم؟ قالوا: اللهم في حقن دمائهم وصلاح ذات بينهم، قال: أخرجت من هذه، قالوا : اللهم نعم، وأما قولكم: إنه قاتل، ولم يَسْبِ، ولم يغنم، أتَسْبُون أمَّكم، أم تستحلُّون منها ما تستحلُّون من غيرها؟ فقد كفرتم وخرجتم من الإسلام، إن الله تعالى يقول:

(النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ)

[سورة الأحزاب الآية: 6]

وأنتم تترددون بين ضلالتين فاختاروا أيتهما شئتم، أخرجت من هذه؟ قالوا: اللهم نعم، وأما قولكم محا اسمه من أمير المؤمنين، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا قريشا يوم الحديبية على أن يكتب بينه وبينهم كتابا، فقال: اكتب: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله فقالوا: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله، ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب محمد بن عبد الله، فقال: والله إني لرسول الله، وإن كذبتموني، اكتب يا علي، محمد بن عبد الله ورسول الله، كان أفضل من علي، أخرجت من هذه؟ قالوا: اللهم نعم، فرجع منهم عشرون ألفا ، وبقي منهم أربعة آلاف فقتلوا))

وكان من ثمرة هذا اللقاء، وما أظهره به عبد الله بن عباس من حكمة بالغة وحجة دامغة أنْ عاد منهم عشرون ألفاً إلى صفوف الإمام علي .

إذًا: ليس ثمة أقوى من الحجَّة، أحياناً تسمع قصصًا لا تنتهي، هذه القصص كلها تنقضها آية واحدة، إنّ فلانًا قرأ في الفنجان، وفلانًا يعلم الغيب، وفلانًا طمأنوه، والله عز وجل قال:

(قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ)

[سورة الأنعام الآية: 50]

النبي عليه الصلاة والسلام على عظم شأنه وعلو قدره لا يعلم الغيب، هذا مقام النبي، فكيف بمَن هو دون النبي؟ فما مِن شيءٍ أروع من التوحيد، وأروع من الحجة القوية، والمؤمن كأنه في قلعة، بالأدلة التي يملكها، والحجج التي آتاه الله إياها، والكتاب الذي نوّر الله قلبه به، والسنّة التي سالت مع دمائه، هذا كله يجعله في حصن حصين من كل خرافة، من كل دجل، من كل تزوير، من كل مبالغة، لأنّ أخطر شيء في الدين المبالغات .

يعني هناك أخ لا يُنجب أولادًا، إنه عقيم، التقى مع رجل من أهل العلم، ولكن من غير المنضبطين بالكتاب والسنة، قال له: كُلْ هذه التفاحة، وسوف تنجب إن شاء الله، والذي قدم له التفاحة عقيم، إذا كنت أنت لا تملك لنفسك أن تنجب ولداً، أفتملك هذا لغيرك؟ قال الله عز وجل:

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾

[سورة الشورى الآية: 49-50]

أيها الأخوة، أتمنى وأرجو من كل واحد أن يعمل جرد حساب لتصوراته، ولمعلوماته الدينية، هناك أشياء غير صحيحة، هناك عقائد فاسدة، عقائد زائغة، كل شيء تعتقده يجب أن يكون لك عليه دليل من كتاب الله وسنة رسوله، وإلا كنتَ ضحية أفكارك الزائغة .

أريد أن أقول لكم كلمة: إنّه ما مِن عقيدة تعتقدها إلا وتظهر في سلوكك، ولو أنه جدلاً أو فرضاً اعتقدت شيئاً ولم يظهر في السلوك فعندئذ هذه العقيدة لا قيمة لها، وهي لا تقدِّم ولا تؤخِّر، ولكنّ هذه العقيدة التي تعتقدها لا بد أن تظهر في سلوكك، إذًا: فانتبه .

لو أنّ إنسانًا توهَّم أن النبي عليه الصلاة والسلام، يأتي لأهل الكبائر من أمته فيشفع لهم، هكذا توهّم، فهذه العقيدة مؤداها خطير، فهذا الإنسان قد يتساهل، وينتقل من الصغائر إلى أكبر منها، فإذا شارف على الكبائر، قال:

((شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي))

[أخرجه الترمذي في سننه]

فهو يردِّد هذا الحديث، وقد خدعتهُ نفسُه الأمّارة بالسوء، وهذا الاعتقاد يوقعه في الكبائر، يوجد فهم سقيم جداً، لقوله تعالى:

﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾

[سورة الفرقان الآية: 70]

فكلما كانت السيئة كبيرة بُدِّلت بحسنة كبيرة، فهذا الفهم خطير جداً، يدفع الإنسان إلى أن يرتكب أكبر الكبائر متوهِّمًا أنّ الله يبدلها له أكبرَ الحسنات، ليس هذا هو المعنى إطلاقاً، المعنى أن المؤمن إذا تعرف إلى الله، وأشرق في قلبه نور الإيمان، وتجلّى اللهُ على قلبه، عندئذ الصفات السيئة التي كان متمثلاً بها تنقلب إلى صفات حسنة، لقد كان بخيلاً فصار كريماً، كان جبانًا فصار شجاعاً، كان ملحداً فصار منصفًا، كان قاسيًا القلب فصار رقيق القلب، هذا معنى الآية، ليس معنى الآية أنه كلما ارتكبت سيئة كبيرة تنقلب إلى حسنة كبيرة، هذا معنى خطير جداً، وفهمٌ سقيم .

فنحن نرجو الله تعالى ألاّ يتسرب إلى عقولنا عقائد زائغة، قد تؤدي إلى مضاعفات خطيرة

إليكم أدبه مع العلم وأهله :

بعد أن توفي النبيُّ عليه الصلاة والسلام، يقول هذا الصحابي الجليل عن نفسه:

((كان إذا بلغني الحديث عند رجل من صحابة رسول الله أتيت باب بيته في وقت قيلولته، وتوّسدتُ ردائي عند عتبة داره، فيسفو عليّ الريح من التراب ما يسفو، ولو شئت أن أستأذن عليه لأذِن لي، وإنما كنت أفعل ذلك لأطيِّب نفسَه، فإذا خرج من بيته، ورآني على هذا الحال، قال: يا ابن عمِّ رسول الله، ما جاء بك؟ هلاَّ أرسلتَ إليَّ فآتيك؟ فأقول: أنا أحَقُّ بالمجيء إليك، فالعلم يؤتَى ولا يأتي))

مرةً أحد خلفاء بني العباس حج البيت، وقال:

((أريد عالماً أستفيد من علمه، فأتباعه توجهوا إلى الإمام مالك، إمام دار الهجرة، وقالوا له: تفضّل فالخليفة يدعوك إليه، قال: قولوا له: يا هارون، العلم يؤتى ولا يأتي .

فلما أبلغوه، قال: حق، أنا آتيه، فلما أبلغوه أنه سيأتيك، قال: قولوا له: لا أسمح لك بتخطي رقاب الناس، قال: صدق، فلما وصل إلى مجلس علمه جلس على كرسي، فقال الإمام مالك: من تواضع لله رفعه، ومن تكبر وضعه، فقال: خذوا عني هذا الكرسي، وجلس مع الناس))

كان ابن عباس يذل نفسه في طلب العلم، وهو ابن عم رسول الله، ولكن مِن أجل أن يطلب العلم، والحقيقة أنّ النبي الكريم، يقول:

((تواضعوا لمن تعلمون منه، وتواضعوا لمن تعلّمونَه ، ولا تكونوا جبابرة العلماء))

الطالب الأديب يأخذ كل علم أستاذه عن طيب خاطر، لكن إن كان هناك سؤال فيه جفاء، وتعليق فيه قسوة، وانتقاد لاذع، وسوء أدب بالمعاملة، فهذا ينفر الإنسان، صدق القائل:

إن المعلم والطبيب كلاهما لا ينصحان إذا هما لم يُكرَما

حتى الصحابة الكرام دهشوا لأدب رسول الله، حتى قالوا متسائلين: ما هذا الأدب؟ قال :

((أدبني ربي فأحسن تأديبي))

ما رؤي مادًّا رجليه قط، اللهم صلِّ عليه، كان رقيقًا جداً، وكان يستحي كما تستحي العذراء في خدرها، وما واجه أحداً من أصحابه بما يكره، كان إذا أراد أن يوجه الناس يصعد المنبر، والمقصود عنده واحد، فيقول:

مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَرْفَعُونَ أَبْصَارَهُمْ إِلَى السَّمَاءِ .....*

مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَشْتَرِطُونَ شُرُوطًا لَيْسَتْ فِي كِتَابِ اللَّهِ ......*

مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَتَنَزَّهُونَ عَنْ الشَّيْءِ أَصْنَعُهُ ....*

مَا بَالُ أَقْوَامٍ قَالُوا: كَذَا وَكَذَا ....*

مَا بَالُ الْعَامِلِ نَبْعَثُهُ فَيَأْتِي يَقُولُ: هَذَا لَكَ، وَهَذَا لِي ....*

هذا زيد بن ثابت، كاتب الوحي، ورأس أهل المدينة في القضاء والفقه والقراءة والفرائض، كما يروي ذلك عمار بن أبي عمار، أن زيد بن ثابت ركب يوما، فأخذ ابن عباس بركابه، فقال له:

((تنحَّ يا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال له: هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا وكبرائنا، فقال زيد: أرني يدك؟ فأخرج يده، فقبَّلها، فقال: هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا))

يا أيها الأخوة، مجتمع المؤمنين مجتمع راقٍ جداً، واللهِ ينبغي أن نعيش هذه الأخلاق ، احترموا بعضكم، يؤلمني بعض المزاح بين الشباب، احترموا مشاعرَ بعضكم، اعرفوا قدر بعضكم، تكاملوا فيما بينكم، واجعلوا من مجتمعكم مجتمعاً يشبه مجتمع أصحاب رسول الله .

من هو المرجع العلمي لسيدنا عمر في حل المعضلات، ولماذا عاتبه الصحابة، وهل كان الحق مع سينا عمر ؟

بلغ هذا الصحابي الجليل من علو القدر على حداثة سنه أن سيدنا عمر بن الخطاب إذا واجهته معضلة دعا جُلَّ الصحابة، ودعا معهم عبد الله بن عباس، فإذا حضر رفع منزلته وأدنى مجلسه، وقال له: لقد أعضل علينا أمراً أنت له ولأمثاله .

الصحابة الكرام تألموا، طفل صغير يجلس بينهم، ويُسأل، ويُستفتى، ويؤخذ رأيه من قبل أمير المؤمنين، فمرة عاتبوا سيدنا عمر، وعوتِب مرةً في تقديمه له، وجعله مع الشيوخ، وهو ما زال فتى، فقال: إنه فتى الكهول، له لسان سؤول، وقلب عقول .

مرة عرض سيدنا عمر سورة النصر على أصحاب رسول الله، فقال: ماذا فهمتم منها تكلموا؟ فسأل ابن عباس، قال: هي نعيُ النبي، لقد فَهِم منها فهماً عميقاً، فَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ:

((كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُدْنِي ابْنَ عَبَّاسٍ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ: إِنَّ لَنَا أَبْنَاءً مِثْلَهُ، فَقَالَ: إِنَّهُ مِنْ حَيْثُ تَعْلَمُ، فَسَأَلَ عُمَرُ ابْنَ عَبَّاسٍ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ، فَقَالَ: أَجَلُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْلَمَهُ إِيَّاهُ، قَالَ: مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلَّا مَا تَعْلَمُ))

[أخرجه البخاري في الصحيح عن ابن عباس]

وعَن ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا، قَالَ:

((كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يَأْذَنُ لِأَهْلِ بَدْرٍ، وَيَأْذَنُ لِي مَعَهُمْ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: يَأْذَنُ لِهَذَا الْفَتَى مَعَنَا، وَمِنْ أَبْنَائِنَا مَنْ هُوَ مِثْلُهُ، فَقَالَ عُمَرُ: إِنَّهُ مَنْ قَدْ عَلِمْتُمْ قَالَ: فَأَذِنَ لَهُمْ ذَاتَ يَوْمٍ، وَأَذِنَ لِي مَعَهُمْ، فَسَأَلَهُمْ عَنْ هَذِهِ السُّورَةِ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ فقالُوا: أَمَرَ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا فُتِحَ عَلَيْهِ أَنْ يَسْتَغْفِرَهُ وَيَتُوبَ إِلَيْهِ، فَقَالَ لِي: مَا تَقُولُ يَا بْنَ عَبَّاسٍ؟ قَالَ: قُلْتُ: لَيْسَتْ كَذَلِكَ، وَلَكِنَّهُ أَخْبَرَ نَبِيَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَامُ بِحُضُور أَجَلِهِ، فَقَالَ: إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ فَتْحُ مَكَّةَ، وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ

أفْوَاجًا فذَلِكَ عَلَامَةُ مَوْتِكَ، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا، فقالَ لَهُمْ: كَيْفَ تَلُومُونِي عَلَى مَا تَرَوْنَ؟))

[أخرجه البخاري في الصحيح عن ابن عباس]

(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً)

[سورة النصر الآية: 1-3]

يعني انتهت مهمتك، بلغت الرسالة، وأديت الأمانة، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، وانتهى كل شيء، ونُعِيَتْ له نفسُه .

إليكم موعظته لصاحب الذنب :

من مواعظ هذا الصحابي الجليل، أنه كان يقول:

((يا صاحب الذنب، لا تأمن عاقبة ذنبك ، واعلم أن ما يتبع الذنب أعظمُ من الذنب نفسه، إن عدم استحيائك ممن على يمينك وعلى شمالك، وأنت تقترف الذنب لا يقلُّ عن الذنب، وإن ضحكَك عند الذنب، وأنت تدري، أو أنت لا تدري ما الله صانع بك أعظمُ من الذنب، وإن فرحَك بالذنب إذا ظفرت به أعظمُ من الذنب، وإن حزنَك على الذنب إن فاتك أعظمُ من الذنب، وإن خوفك من الريح إذا حركت سترك، وأنت ترتكب الذنب مع كونك لا تضطرب من نظر الله لك أعظم من الذنب، يا صاحب الذنب، استغفر لذنبك، ما كان بعد الذنب أعظم من الذنب نفسه))

كم سنة عمر في الحياة ، ومن صلى عليه يوم وفاته ؟

هذا الصحابي الجيل عُمِّر إحدى وسبعين سنة، ملأ فيها الدنيا علماً وفهماً وحكمةً وتقى، فلما أتاه اليقينُ صلى عليه محمد بن الحنفية، والبقية الباقية من أصحاب رسول الله رضوان الله تعالى عليهم، وجلَّة التابعين، وفيما كانوا يوارونه التراب سمعوا قارئاً لم يروه يقرأ قوله تعالى:

(يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي)

[سورة الفجر الآية: 27-30]

خلاصة الدرس :

أيها الأخوة الكرام، هذا الصحابي الجليل نموذجٌ للصغار، إن طفلاً صغيراً لا يزيد عمره عن ثلاث عشرة سنة يروي عن رسول الله ألفاً وستمائة وستين حديثًا صحيحًا، هذا الصحابي الجليل كان مرجعًا لسيدنا عمر، وهو عملاق الإسلام .

الإنسان قيمته بما يعلم، وقيمته بما يعمل، وأيٌّ مقياس آخر لا قيمة له، وكما قيل: ابتغوا العزة عند الله، ابتغوا الرفعة عند الله، أيْ استعمل المقياس الذي يرفعك عند الله .

والحمد لله رب العالمين

السيرة - رجال حول الرسول - الدرس (50-50) : سيدنا الربيع بن زياد الحارثي

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1993-10-04

بسم الله الرحمن الرحيم

ما مضمون هذه الآيات ؟

أيها الأخوة، مع الدرس الخمسين من دروس سير صحابة رسول الله رضوان الله عليهم أجمعين، وصحابيُّ اليوم هو الربيع بن زياد الحارثي رضي الله عنه .

قبل أن نمضي في الحديث عن هذا الصحابي هناك مقدمة أرجو أن ينتفع بها الأخوة الكرام، وهي أن في القرآن الكريم آيات تزيد عن مئة آية أو أكثر مضمونها: الهدى لمن يطلبه، قال تعالى:

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ)

[سورة ق الآية: 37]

من هذه الآيات آيات كثيرة، منها قوله تعالى:

(وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ)

[سورة الرعد الآية: 27]

(شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ)

[سورة الشورى الآية: 13]

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

[سورة الأحقاف الآية: 10]

(وَإِنْ يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ)

[سورة غافر الآية: 28]

(لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

[سورة المنافقون الآية: 6]

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ)

[سورة الزمر الآية: 3]

(إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ)

[سورة النحل الآية: 37]

يبدو من هذه الآيات الكثيرة أن هناك شيئاً يسبق سماع الحق، هو الطلب، هذه الآيات ومثيلاتها، لاح لي مثلٌ يمكن أن يعبّر أدق التعبير عن فحواها، إنسان بلا مأوى، يبحث عن بيت، بقي ستة أشهر ينام

عند فلان، وعند فلان، وهو في أمس الحاجة إلى بيت، هذا الإنسان لو التقى إنساناً آخر، وقال له: أتريد بيتاً؟ ينفعل أشدَّ الانفعال، ويتعلق بهذا الإنسان أشدَّ التعلق ، ويتلهف أشدَّ اللهفة، ويقول له: إي واللهِ، أين البيت؟ .

ترى هذا الإنسان الذي بحاجة ماسة لبيت، ويرى في طريقه من يعرض عليه بيتاً، آيباً، مطيعاً، يصبر، يتابع، يسأل، يستفهم، ينتظر من أجل أن يحقق حاجته التي هو في أمس الحاجة إليها .

فالإنسان يسكن بيتًا كما يريد، وإنسان قال له: هل تحتاج إلى بيت؟ إذا كان لا يحتاج إلى بيت، تراه يعرض، ولا يرد عليه، ولا يبالي به .

فالإنسان عندما يطلب الهدى، فأيُّ درس علم، أو تفسير آية، أو تفسير حديث، وأيُّ إنسان له صلة بالله، يتعلق به، يسأله، يحضر مجلسه، يصبر عليه، و يتودد له، فالقضية قضية حاجة سابقة، فإذا كان عندك رغبة، عندك طلب للحق، عندك رغبة في معرفة الله، عندك رغبة في طلب مرضاة الله عز وجل، يعنيك درس العلم، يعنيك كتاب الله، يعنيك أهل الحق، يعنيك العمل الصالح .

فهذا التفسير يبيِّن لك كيف أن الإنسان يتكلم بالحق؟ فإنسان يصغي، ويتأثر، وينفعل ويستجيب، وإنسان لا يبالي، ولا يهتم، ولا يتأثر، ولا يعلق كبير أهمية على هذا الدرس، فحين يلحظ الإنسان أنه ضعيف الاهتمام بالعلم، ضعيف الاهتمام بمرضاة الله عز وجل، ضعيف الاهتمام بمعرفة الله، فليتَّهمْ نفسه أنه ضعيف الصدق في طلب الحق، الحقيقة أحياناً أنّ العلة ليس في المتكلم، بل في المستمع، فالإنسان إذا نما صدقه، نما اهتمامه، ونمت معرفته، ونمت طاعته واستقامته .

الموت موعظة لك أيها المسلم :

قيل هذه مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما تزال تكفكف الدموع لفَقْدِ الصديق، سيدنا الصديق مات، وكل مخلوق يموت، ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت، وصدق القائل:

كل ابن أنثى و إن طالت سلامته   يوماً على آلة حدباء محمولُ

فإذا حملت إلى القبور جنــازة   فاعلم بأنك بعدها محمــولُ

أيها الأخوة الكرام، أنا كنت قبل قليل في تعزية، فتكلمت كلمات هدفها: التفكر في الموت ، تصور نفسك أنّك تمشي على طريق، وعلى حافتيه واديان سحيقان؛ وادٍ عن يمينك، ووادٍ عن شمالك، واحتمال الانزلاق في الواديْن كبير جداً، التفكر في الموت يقيم حول الطريق جداراً استنادياً يحميك من الزلل، ومن السقوط، والتفكر في الموت يبعث فيك دافعاً قوياً يدفعك إلى طاعة الله، فإذا أبطأت بك الهمّة، فالموت يحثك على طلب الحق، وإذا زلّتْ بك القدم فالموت يحميك من الزلل .

إذاً: أنتم ولو كنتم شباباً حينما نجعل من الموت عنصراً أساسياً في محاسبة أنفسنا، حينما نُدخِل الموت في حساباتنا اليومية، هذا الموقف، كيف ألقى الله به؟ لو جاءت منيتي بعد ساعة، ووقفت بين يدي الله عز وجل بماذا أجيب؟ لو أن إنسانًا اصطاد عصفوراً لغير مأكلة، جاء يوم القيامة وله دوي تحت العرش، يقول: يا رب، سله لمَ قتلني؟ .

مرة نصحت إنسانًا يعمل في وظيفة، وبإمكانه أن يوقع أشد الأذى بالناس، نظرًا لموقعه ، فقال لي: انصحني، قلت له: افعل ما تشاء، ولكنك إذا كنت بطلاً فهيِّئْ لخالق الكون جواباً عن كل تصرف تتصرفه .

يا أيها الأخوة، حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن تُوزن عليكم، من حاسب نفسه حساباً عسيراً كان حسابه يوم القيامة يسيراً، ومن حاسب نفسه في الدنيا حساباً يسيراً كان حسابُه يوم القيامة عسيراً، أمّا هذه الكلمات: لا تدقق، حُطَّ بالخرج، من هنا إلى يوم الله يفرجها الله، هذه كلها مِن وساوس الشيطان، كلمات شيطانية لا معنى لها، بل معناها مدمر وخطر .

ماذا كان ينتظر عمر من الوافدين عليه لمبايعته على كرسي الخلافة، ومن هو الصحابي الذي نصح عمر فتوسم فيه الخير ؟

سيدنا الصديق توفي، قيل: وها هي ذا وفود الأنصار، تقدم كل يوم إلى يثرب مبايعة خليفته الفاروق عمر بن الخطاب على السمع والطاعة، في المنشط والمكره .

المؤمنون لهم قيادة، ولهم رأس، المؤمن منضم إلى مجموع المؤمنين، يأتمر بما يُؤمر ، وينتهي عما يُنهى عنه .

ذات صباح قدم على أمير المؤمنين وفدٌ من البحرين مع طائفة أخرى من الوفود، وكان الفاروق رضوان الله تعالى عليه شديد الحرص على أن يسمع كلام الوافدين عليه .

فأنا أحياناً، أشعر كما أنتم بحاجة إلى أن تسمعوا، أنا أحياناً أشعر بحاجة إلى أن أسمع، عندما أسمع من أخٍ كلامًا منطقيًّا، كلامًا فيه وعي، ويَنُمُّ عن فهم، وبأدلة، فيه دقة، واللهِ هذا شيء يسعد كل إنسان يدعو إلى الله عز وجل، شيء مسعد حقًّا، شيء لا يُصدق أن ترى إنساناً قد اقتدى، واهتدى، واستفاد، ونفع الناس، وأينع عندهم الثمر، الحق ينبغي أن ينتشر، ينبغي أن يتوسع، الحق ينبغي أن يحاصِر الباطل، لا أن يحاصره الباطل .

قلت لأخ قبل أن آتي: ما أهدى رجل أخاً في الله، إلا أحدث الله له درجة في الجنة، وحجمك عند الله بحجم عملك الصالح، قال تعالى:

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ)

[سورة الأنعام الآية: 132]

اسأل نفسك هذا السؤال المحرج: أنا ماذا قدمت ليوم اللقاء، ماذا قدمت لله عز وجل؟ يقول: عبدي جئتُ بك إلى الدنيا، وبقيت فيها عمراً طويلاً، فماذا قدَّمتَ لنفسك؟ قال تعالى:

(وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ)

[سورة فاطر الآية: 37]

الذي عاش أربعين سنة، شاهد أربعين ربيعًا، وأربعين خريفًا، وأربعين صيفا، وأربعين شتاءً، فتناوبتْ عليه الفواكه والخضراوات، والأمطار، والرياح، والحر، والقرّ، ومن الأزهار، ومن الطيور، ومن الأفراح، ومن الأحزان، قال تعالى:

(وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ)

[سورة فاطر الآية: 37]

فكان الفاروق رضوان الله تعالى عليه شديد الحرص على أن يسمع كلام الوافدين عليه، فلعله يجد فيما يقولونه موعظة بالغة، أو فكرة نافعة، أو نصيحة لله ولكتابه ولعامة المسلمين، هذا يدلّ على أنّ الإنسان كلما ارتقى بالعلم ازداد تواضعاً، والإنسان المؤمن يستفيد من كل إنسان، حتى من الطفل الصغير .

الإمام أبو حنيفة كان يماشي في الطريق، رأى غلاماً أمامه حفرة، فقال له:

((يا غلام إياك أن تسقط، فقال هذا الغلام كلمةً حاسمةً مفحمة: بل أنت يا إمام، إياك أن تسقط، أنا إن سقطتُ سقطتُ وحدي، وإنك إن سقطتَ سقط معك العالم))

المؤمن لا يتأبى عن نصيحة، ولا عن موعظة، ولا عن كلمة حق، المؤمن يستشير، والمؤمن يستعير عقول الآخرين، والمؤمن يتقبل الملاحظات، صدره رحب .

عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ:

((اسْتَأْذَنْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْعُمْرَةِ، فَأَذِنَ لِي، وَقَالَ: لَا تَنْسَنَا يَا أُخَيَّ مِنْ دُعَائِكَ، فَقَالَ كَلِمَةً مَا يَسُرُّنِي أَنَّ لِي بِهَا الدُّنْيَا))

[أخرجه أبو داود في سننه عن عمر]

وفي غزوة بدر، قال له صحابي: ليس هذا المكان بموقع حرب مناسب، قال: دلني على الموقع المناسب، فدلّه، وأمر أصحابه أن ينتقلوا إليه، هكذا المؤمن كن بسيطًا، ولا تتكلف، ولا تتكبر .

فندب عمرُ عددًا من الحاضرين للكلام، فلم يقولوا شيئاً ذا بال، قال:

((إذا لم يكن لديك ما تقول فلا غناء في القول .

-تسمع أحيانا كلامًا مدة ساعة، كله لا خير فيه، كلام فارغ، كلام مكرر ومعاد، لا جدوى منه، ولا فائدة، المؤمن كلامه مليء ودقيق، كلامه دسم، وكلامه حق، وكلامه خطير، قال تعالى:

(وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ)

[سورة الأنعام الآية: 83]

فالتفت إلى رجل توسم فيه الخير، وأومأ إليه، وقال: هات ما عندك، فحمد الرجل الله، وأثنى عليه، ثم قال: إنك يا أمير المؤمنين، ما وليت أمر هذه الأمة إلا ابتلاء من الله عز وجل ابتلاك به، فاتَّق الله فيما وُلِّيتَ، واعلم أنه لو ضلّت شاة بشاطئ الفرات لسئلت عنها يوم القيامة ، فأجهش عمر بالبكاء، وقال: ما صدقني أحد منذ استخلفت كما صدقتني، فمن أنت؟ قال: أنا الربيع بن زياد الحارثي، أخو المهاجر بن زياد، قال: نعم .

فلما انفضّ المجلس، دعا عمر بن الخطاب أبا موسى الأشعري، وقال: تحَرَّ أمر الربيع بن زياد، فإن يك صادقاً، فإن فيه خيراً كثيراً، وعوناً لنا على هذا الأمر))

سيدنا عمر يحبّ الناصح، والمؤمن الصادق يستجيب للناصح، ويُسَرُّ به ولو كان في كلامه قسوة، أمّا الإنسان ضعيف الإيمان فإنّه يحب المديح، ويفرح بالمادحين، ويضيق ذرعًا بالناصحين .

فالإنسان إذا استمع إلى نصيحة الناصحين، وإلى انتقاد الناقدين، وإلى اعتراض المعترضين، فإنه يرقى سريعاً إلى الله، ويتخلص من أخطاء كثيرة، ومن عيوب وفيرة .

سيدنا عمر كان مع أصحابه مرةً، فقال له أحدهم متملقاً:

((والله ما رأينا خيراً منك بعد رسول الله، ما كان من هذا الخليفة الراشد إلاّ أن أحَدَّ النظر فيهم إلى درجة غير معقولة، فقال أحدهم: لا والله، لقد رأينا من هو خير منك، قال: من هو؟ قال: الصديق، فقال عمر رضي الله عنه: لقد كذبتم جميعاً، وصدق هذا، وعَدَّ سكوتهم كذباً، -كلمة الحق لا تقطع رزقاً، ولا تقرب أجلاً- لقد كذبتم جميعاً وصدق، واللهِ كنت أضل من بعيري، وكان أبو بكر أطيب من ريح المسك))

قرأت منذ أيام أن امرأة تعاني مشكلة، فطلبها ليسألها، ومن شدة هيبته في الطريق أسقطت خوفاً منه، فلما جلس مع أصحابه، قال: أعليَّ شيء؟ نتيجة إسقاطها، فأكثرُ أصحابه قالوا: لا، وأنت أردت أن تؤدِّبها، ثم قال: قل يا أبا الحسن، قال: واللهِ عليك دية الجنين، لأنها خافت منك فأسقطت، فأثنى عليه ثناءً شديداً .

إذا أخذ الله بيدك، وجعلك بمنصب قيادي، جعلك داعية، جعلك مدير معمل، رئيسًا في دائرتك، إياك أن تلغي المعارضة، استمع للنقد، استمع للاعتراض، ودليل إيمانك وإخلاصك وصدقك أنْ تصغي للنصيحة وللنقد، ولو كان جارحاً، فهذا الذي يرفعك .

فالإنسان إذا انتقدته تحرك، وأصلح من نفسه، وقوَّم اعوجاجه، ورَأَبَ مِن صدعه، فأنا مؤمن أن النقد ضروري، والمعارضة ضرورية، والنصيحة ضرورية، والأمة تستحق الهلاك إذا كفَّتْ عن الأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي الفريضة السادسة، إن صحت هذه التسمية، والله سبحانه وتعالى أهلك بني إسرائيل لأنهم قالوا:

(كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)

[سورة المائدة الآية: 79]

وقال في آية كريمة أخرى:

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ)

[سورة هود الآية: 117]

لم يقل: صالحون، لو أنهم صالحون لأهلكهم الله، يجب أن يكونوا مصلحين، الصالح لذاته، أما المصلح لغيره .

قال له: فاتق الله فيما ولّيت، واعلم أنه لو ضلت شاةٌ بشاطئ الفرات لسُئِلتَ عنها يوم القيامة، فأجهش عمر بالبكاء .

أحياناً تبحث عن معين لك مخلص، فطِن، صادق، لبيب، أريب، هذه قمة نجاح القائد، أن يختار معاونين مخلصين، قال تعالى:

(قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ)

[سورة القصص الآية: 26]

سيدنا عمر لما ولّى رجلاً، قال له:

((خذ عهدك، وانصرف إلى عملك، واعلم أنك مصروف رأسَ سنتك، وأنك تصير إلى أربع خلال فاختر لنفسك؛ إن وجدناك أميناً ضعيفًا استبدلناك لضعفك، وسلمتك من معرتنا أمانتك، وإن وجدناك خائناً قوياً، استهنا بقوتك، وأوجعنا ظهرك، وأحسنّا أدبك، وإن جمعت الجرمين جمعنا عليك المضرتين، وإن وجدناك أميناً وفيًّا، زدناك في عملك، ورفعنا لك ذكرك، وأوطأنا لك عقبك))

نحن لا تصلح أمورنا إلا إذا كان الأشخاص الذين يعوَّل عليهم يتمتعون في وقت واحد بالكفاءة والإخلاص، الكفاءة قدرات، والإخلاص قيد للمبدأ، خلاص للمبدأ، القرآن سماه: القوي الأمين، قال تعالى:

(قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ)

[سورة القصص الآية:26]

عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهَا قَالَتْ:

((خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قِبَلَ بَدْرٍ، فَلَمَّا كَانَ بِحَرَّةِ الْوَبَرَةِ أَدْرَكَهُ رَجُلٌ، قَدْ كَانَ يُذْكَرُ مِنْهُ جُرْأَةٌ وَنَجْدَةٌ، فَفَرِحَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ رَأَوْهُ، فَلَمَّا أَدْرَكَهُ، قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: جِئْتُ لِأَتَّبِعَكَ وَأُصِيبَ مَعَكَ، قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: تُؤْمِنُ

بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، قَالَ: لَا، قَالَ: فَارْجِعْ فَلَنْ أَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ، قَالَتْ: ثُمَّ مَضَى حَتَّى إِذَا كُنَّا بِالشَّجَرَةِ أَدْرَكَهُ الرَّجُلُ، فَقَالَ لَهُ كَمَا قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ، قَالَ: فَارْجِعْ فَلَنْ أَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ، قَالَ: ثُمَّ رَجَعَ فَأَدْرَكَهُ بِالْبَيْدَاءِ، فَقَالَ لَهُ كَمَا قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ: تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، قَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَانْطَلِقْ))

[أخرجه مسلم في الصحيح عن عائشة]

هذا مبدأ، المشرك قوي، ولكن ليس أمينًا .

إياك أن تستعين بكافر، إياك أن تستعين بمنافق، فلا يزيدك إلا خبالاً، فازهد بكفاءته، وازهد بقدراته، وازهد بكل ما يملك، إن لم يكن مخلصاً، وبالمقابل لا تعتمد على مخلص جاهل، يريد أن ينفعك فيؤذيك، لا على مخلص جاهل، ولا على قوي خائن .

البلاد الذي فتحها القائد العظيم الربيع بن زياد الحارثي :

1- مناذر :

فلم يمض على ذلك اليوم غير قليل حتى أعدَّ أبو موسى الأشعري جيشاً لفتح (مناذر)، من أرض الأهواز، بناءً على أمر الخليفة، وجعل في الجيش الربيع بن زياد، وأخاه المهاجر.

يعني إذا وفّق الله عز وجل أحدًا فحظِي بإنسان مخلص وكفء، فيجب أنْ تعضّ عليه كما تعضّ على شيء نفيس، فهو أندر كما يقولون من الكبريت الأحمر، إنسان مخلص وكفء، فالواحد منا حتى في اختيار زوجته، حتى في اختيار معاونيه في عمله، حتى في اختيار من يليه في العمل، فعليه أنْ يبحث عن الكفء في العمل .

لكنْ ما الذي يحصل؟ إما أن تجد إنسانًا مخلصًا مؤمنًا طيبًا، يُقال: إنه درويش، درويش لا يفهم شيئًا، أو أن تجد إنسانًا حاذقًا في اختصاصه، لكنه خائن، زنديق، لئيم، لا هذا يملأ عينك، ولا ذاك يملأ عينك، لا يملأ عينك، إلا إنسان بقدر ما هو طيب، أنْ يكون أيضًا كفؤًا، ربنا عز وجل لما وصف نفسه، قال:

(تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)

[سورة الرحمن الآية: 78]

يعني عظيم، ولا حدود لعظمته، وكريم ولا حدود لكرمه، بقدر ما هو عظيم، هو كريم، بقدر ما هو كريم، فهو عظيم .

قد يكون للواحد والدة يحبها حباً لا حدود له، لكنها غير متعلمة، وهو دكتور، يحبها ولكنْ لا يعجب بها، وقد يعجبك عالم في الجامعة، لكنه قاس، أنت لا تحبه، ولكنه يعجبك، فالشخصية المتكاملة هي التي تشد الناس إليها، فالأنبياء أوتوا الفطانة، بقدر ما النبي ذكيًا وعاقلا وفطنًا، بقدر ما هو طيب ورحيم ومتواضع، فالصفات الأخلاقية مع الصفات العلمية إذا اجتمعتا، أعطت نموذجاً مدهشا ونموذجاً فذا .

أحياناً يفتقر هذا الأخلاقي إلى علم، فهو صغير في نظر الناس، وأحياناً يفتقر هذا العالم إلى أخلاق، فهو صغير في نظر الناس، فصعب أن تشد الناس إلى الدين إذا كان في علمك ضعف، صعب أن تشد الناس إلى الدين إذا كان في أخلاقك ضعف، فيجب أن تسعى، وأن تحيط بكل جوانب الدين، إن هذا الدين كما ورد في الحديث القدسي عن جابر بن عبد الله، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((قال لي جبريل: قال الله تعالى: إنَّ هَذَا الدِّينَ ارْتَضَيْتُهُ لِنَفْسِي، وَلاَ يُصْلِحُهُ إلاَّ السَّخاءُ، وَحُسْنُ الْخُلُق، فَأَكْرِمُوهُ بِهِمَا مَا صَحِبْتُمُوهُ))

[ورد في الأثر]

حاصر أبو موسى الأشعري (مناذر)، وخاض مع أهلها معارك طاحنة، قلَّما شهدت لها الحروب نظيراً، فقد أبدى المشركون من شدّة البأس، وقوة الشكيمة ما لا يخطر على بال، وكثُر القتل في المسلمين كثرةً فاقتْ كلَّ تقدير، فلما رأى المهاجر بن ربيع بن زياد أن القتل قد كثر في صفوف المسلمين، عزم على أن يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله، فتحنط وتكفن وأوصى أخاه .

الحقيقة أنّ الحديث عن الصحابة ممتع، والحديث عن الشهادة ممتع كذلك، لكن الحقيقة عندما يتعرَّض الإنسان للخطر يُعرف حجمُه الحقيقي من بين هؤلاء الأبطال، فالكلام سهل، لكن الإنسان عندما يشعر أنَّ أجله قد اقترب يختل توازنه، فهؤلاء الصحابة، باعوا أنفسهم في سبيل الله .

سيدنا إبراهيمُ فدى اللهَ بذبح ابنه إسماعيل، بذبح عظيم، فلما فداه بذِبحٍ عظيم ما كان يدري أنه سيفدى بذِبح عظيم، قال تعالى:

(إنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ)

[سورة الصافات الآية: 106]

فهذا تحنط، وتكفن، وأوصى أخاه، فمضى الربيع إلى أبي موسى، وقال: إن المهاجر قد أزمع أن يشري نفسه وهو صائم، والمسلمون قد اجتمع عليهم من وطأة الحرب، وشدّة الصوم ما أوهن عزائمهم، وهم يأبون الإفطار، فافعل ما ترى .

سمعتم منذ يومين أنني ألقيت خطبة في جامع النابلسي حول صفات النبي عليه الصلاة والسلام، لكن ما لفتَ نظري أن النبي عليه الصلاة والسلام كان مع أصحابه في غزوة في رمضان، فبعض أصحابه أفطر أخذاً بالرخصة، وبعضهم بقي صائمًا أخذاً بالعزيمة، ولكنَّ الصائمين أرهقهم الصومُ والحرُّ

فسقطوا، لقد أصبحوا ضعافًا، جلسوا واستلقوا، والمفطرون أعدوا لهم الطعام، ونصبوا لهم الخيام، وقدموا لهم كل الخدمات، ماذا قال عليه الصلاة و السلام؟ كلام رائع فاسمعوه، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قالَ:

((كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَكْثَرُنَا ظِلًّا الَّذِي يَسْتَظِلُّ بِكِسَائِهِ، وَأَمَّا الَّذِينَ صَامُوا فَلَمْ يَعْمَلُوا شَيْئًا، وَأَمَّا الَّذِينَ أَفْطَرُوا فَبَعَثُوا الرِّكَابَ، وَامْتَهَنُوا وَعَالَجُوا، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ذَهَبَ الْمُفْطِرُونَ الْيَوْمَ بِالْأَجْرِ))

[متفق عليه، أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح عن أنس]

رجَّح عليه الصلاة والسلام العمل على العبادة، هذا الإنسان خدم، ونصب الخيام، وذبح الذبائح، وطبخ لأخوانه .

كان سيدنا ابن عباس مرةً معتكفًا، بعد وفاة رسول الله، فدخل عليه رجل وطلب منه حاجة، يبدو أن عليه دينًا، والدائن شديد الضغط عليه، قال له:

((أرهقني فلان، قال: أتحب أن أكلمه لك؟ قال: إن شئت، فخرج ابن عباس من معتكفه، فقال له أحدهم: يا ابن عباس، أنسيت أنك معتكف، قال: لا، ولكن سمعت صاحب هذا القبر، والعهدُ به قريبٌ، فدمعت عيناه، لأن أمشي مع أخ في حاجته خير لي من صيام شهر، واعتكافه في مسجدي هذا))

هذا هو الإسلام، الإسلام معاونة، الإسلام عمل، الإسلام خدمة، الإسلام بذل، الإسلام تضحية .

فهنا لما اشتدَّتْ عليهم وطأة المعركة، واشتدت عليهم صعوبة الصيام وقف أبو موسى الأشعري، ونادى في الجيش:

((يا معشر المسلمين، عزمت على كل صائم أن يفطر، أو يكفوا عن القتال، وشرب من إبريق كان معه ليشرب الناس لشربه، فلما سمع المهاجر مقالته جرع جرعة من ماء، وقال: واللهِ ما شربتها من عطش، ولكني أبررت عزمة أميري .

-أحياناً نحتـاج إلى فقه، أحياناً خدمة أخيك المؤمن أفضل من صلاة النافلة، وأحياناً حضور مجلس علم أفضل من عبادة نافلة، فأنت بالعلم ترقى، أما بالعبادة فتتألق، يمكن للطاولة أنْ تتألق بالمسح، أما العلم فإنّه يضيف لك منزلةً جديدة، فأنت بالعلم ترقى، أما بالعبادة وحدها فإنّك تصفو .

فالصفاء ليس له مردود، أما العلم له مردود، والأولى أن تجمع بينهما، ولكن لو خُيِّرتُ بين مجلس علم، وبين الصلوات النافلة، فإنّي أحضر مجلس العلم، وأفضّله على الصلوات النافلة، وهناك في السنة آثار كثيرة تؤكد ذلك- .

امتشق حسامه، وطفق يشق الصفوف، ويجندل الرجال، غير وجل ولا هيَّاب، فلما أوغل في جيش الأعداء أطبقوا عليه من كل جانب، وتعاورته سيوفهم من أمامه ومن خلفه، حتى خرَّ صريعاً، ثم إنهم

احتزُّوا رأسه، ونصبوه على شرفة مطلة على ساحة القتال، إنّه أخو الربيع، فلما نظر إليه الربيع، قال: طوبى لك وحسن مآب، واللهِ لأنتقمنَّ لك ولِقتلى المسلمين إن شاء الله، فلما رأى أبو موسى ما نزل بالربيع من الجَزَع على أخيه، وأدرك ما ثار من الحفيظة في صدره على أعداء الله تخلّى له عن قيادة الجيش، ومضى إلى السوس لفتحها .

هَبَّ الربيعُ وجندُه على المشركين هبوبَ الإعصار، وانصبوا على معاقلهم انصباب الصخور إذا حطها السيل، فمزقوا صفوفهم، وأوهنوا بأسهم، ففتح الله (مناذر) للربيع بن زياد عُنْوةً، فقتل المقاتلة، وسَبَى الذرية، وغنم ما شاء الله أن يغنم، ومنذ هذا التاريخ لمَع نجمُه، وذاع اسمه، وتألق صيته في كل مكان))

إنّ الله سبحانه وتعالى، قال:

(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

[سورة الشرح الآية: 4]

دققوا؛ هذه الآية كما يتضح لنا هي للنبي عليه الصلاة والسلام، ولكن لكل مؤمن منها نصيب، فما من مؤمن يلزم طريق الاستقامة، وما من مؤمن يعاهد الله على طاعته، وما من مؤمن يحضر مجالس العلم، وما من مؤمن يعاهد الله ورسوله على السير في طريق الإيمان، إلا رفع الله ذكره، وأعلى شانه، ويرفعه على أقرانه، ويجعله متألقاً لامعاً، هذا من عطاء الدنيا قبل عطاء الآخرة، هذا من قوله تعالى:

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)

[سورة الرحمن الآية: 46]

قال العلماء: جنَّة في الدنيا، وجنَّة في الآخرة .

إذا ذهب الإنسان إلى مقام النبي عليه الصلاة والسلام، فمِن المستحيل أنْ يعتقد أنَّ في الأرض كلها إنساناً واحداً ناله العزُّ والرفعةُ كما نالهما النبي صلى الله عليه وسلم، ولو أنك رأيت ملكاً في حرم النبي فإنّك لا تلتفت إليه أبداً .

مرةً قرأت لوحة رخامية في الحرم النبوي، أحد السلاطين العثمانيين وسَّع الحرم النبوي، كتب لوحة رخامية وذيلها بالكلمات التالية: الفقير إلى الله تعالى كثير الذنوب، السلطان فلان، غفر الله ذنبه، آمين .

ملك، سلطان، يحكم نصف الأرض، ومع ذلك ليس له وجود في حضرة النبي عليه الصلاة والسلام .

النبي عليه الصلاة والسلام رفع الله شأنه رفعة لا توصف، وكل واحد منكم، على قدر استقامته، وعلى قدر إخلاصه، وعلى قدر التزامه، وعلى قدر خوفه من الله، يرفع الله له ذكره ، هذا ليس كبراً، لا، بل هذه مكافأة .

المؤمن إنسان عظيم، له هيبته، له شأنه، له مقامه عند الله، مرغوب الجانب، محبوب ، وهذه كلمة أرذل العمر نعوذ بالله منها، قال تعالى:

(وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ)

[سورة النحل الآية: 70]

كل واحد منا إذا كان له أقرباء، وضيعوا في شبابهم دينَهم، فلما كبر سنهم، وضعف بصرهم، وانحنى ظهرهم، وشاب شعرهم، رُدُّوا إلى أرذل العمر، فإنْ لم يعتبرْ ويتعظْ فهو ذو عقل سخيف، تدخل حشري، والقصة تُعاد آلاف المرات فأهله يكرهونه، ويهربون منه، ويَدَعُونَه في غرفته وحده، فليعتبرْ كلُّ إنسان .

أما إذا رأيت عالماً جليلاً، أمضى حياته في طاعة الله، فانظر إليه، انظر إلى وضاءة وجهه، وانظر إلى فطانته، وانظر هيبته، وانظر إلى التفاف الناس حوله، ففي هذا أيضًا العبرة لمِن أراد أنْ يعتبر .

مرةً أحد اليهود رأى الإمام الجنيد في موكب يركب فرساً، وكان بهي المنظر، أزهر اللون متألقاً، وحولـه من أتباعه وأخوانه العدد الكبير، وكأنه ملك من الملوك، فارتاع اليهودي لهذا المنظر، وأخذته الدهشة، وصار يتساءل .

هذا سيدنا ابن عباس كما مرّ معنا في الدرس الماضي ذهب إلى الحج، يرافقه وفدٌ فاق وفدَ الخليفة، وليس هذا هو القصد، وإنّما القصدُ أنّ هذا اليهودي يعمل في المجاري، والمياه المالحة، فقير رثّ الهيئة، جائع مبتذل، لا شأن له،

يعني المصائب اصطلحت عليه، كما قال أحد الشعراء:

بلاني الدهر بالأرزاء حتى فؤادي في غشاء من نبــال

فكنت إذا أصابتني سهـام تكسرت النصال على النصال

لم يعد في مجلسه محلات لرفع النصال والنبال، فقال هذا اليهودي لهذا العالم الجليل:

((الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ، وَجَنَّةُ الْكَافِرِ .

-فأيُّ سجن أنت فيه، وأية جنة أنا فيها، ما هذا الكلام؟- فقال له الجنيد: يا هذا، إذا قِسْتَ حالك بما ينتظرك من عذاب فأنت في جنة، وإذا قِسْتَ حالي بما وعدني الله من ثواب ونعيم فأنا في سجن))

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قَالَ اللَّهُ:

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ، فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ))

[متفق عليه، أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح عن أبي هريرة]

فإنسانٌ يَعِدُه اللهُ وعداً حسناً، هذا شيء عظيم .

2- سجستان :

أصبح سيدنا الربيع أحد القادة المرموقين الذي يُرجَوْن لجلائل الأعمال، فلما عزم المسلمون على فتح سجستان، عهدوا إليه بقيادة الجيش، وأمَّلوا على يديه النصر .

تسمعون بأذربيجان، مِن دول الاتحاد السوفيتي سابقًا، هذه البلاد في عهد عمر كانت تابعة لإمارة سيدنا عمر، تُحكم من المدينة المنورة، ألم يأتِه من أذربيجان رسولٌ بهدية ثمينة، وقد دخل هذا الرسولُ المسجدَ خشية أن يوقظه في الليل، فرأى رجلاً يصلي، ويبكي، ويقول : يا رب، هل قبلتَ توبتي فأهنئ نفسي، أم رددتها فأعزيها؟ .

قال له: من أنت يرحمك الله؟ .

قال له: أنا عمر .

قال: أمير المؤمنين؟ .

قال: نعم .

قال: يا أمير المؤمنين، ألا تنام الليل، فأنا لم آت بيتك خشية إزعاجك .

قال: أنا إن نمت ليلي كلّه أضعتُ نفسي أمام ربي، وإن نمتُ نهاري أضعت رعيتي .

صلى معه الفجر، ثم أخذه إلى البيت، وقال: يا أم كلثوم، هات ما عندك من طعام، فجاءت له بخبز وملح، أكل وشرب، وحمد الله تعالى، وقال: الحمد لله الذي أطعمنا فأشبعنا، وسقانا فأروانا .

قال له: ما الذي جاء بك إلينا؟ .

قال: هدية بعث بها عاملك على أذربيجان، وأذربيجان أصبحتْ بعد انهيار الاتحاد السوفيتي دولةً مستقلة، ولكن أين كانت في عهد عمر؟ كانت تابعة للمدينة .

قال: أيأكل عندكم عامة المسلمين هذا الطعام؟ .

قال: لا. هذا طعام الخاصة .

يقولون: إنّ سيدنا عمر كان قد أكل لقمة واحدة، أخرجها من فمه، وقال: هذا حرام على بطن عمر، أن يذوق طعامًا لا يطعمه فقراء المسلمين .

مضى الربيع بن زياد بجيشه الغازي في سبيل الله إلى سجستان، عبر مفازة طولها خمسة وسبعون فرسخاً، تعيا عن قطعها الوحوش الكاسرة من بنات الصحراء .

كأنّ جنس الإنسان بهذه العصور صار سريع العطب، يركب المرءُ الآن سيارة مكيفة ، سرعتها مئتا كيلو متر في الساعة، من مكة إلى المدينة، فيقول: يا أخي، الطريق طويل، أربع ساعات، شيء يحطم،

فكيف بهذا الذي قطع المسافة على جمل في اثني عشر يوماً، من دون تكييف، ليس لدينا جمل مكيف، أليس كذلك؟ ما قوة الاحتمال هذه؟ وما هذا الجَلَد؟.

فمضى الربيع بن زياد بهذا الجيش الغازي، فكان أول ما عرض له حصن شامخ، محصن، وافر الخيرات، كثير الثمار، بثَّ القائد الأريب عيونَه قبل أن يصل إليه، فَعلِم أنّ القوم سيحتفلون قريباً بمهرجانٍ لهم، فتربَّص بهم حتى بَغَتَهُمْ في ليلة المهرجان على حين غرة ، وفي الحديث عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((الْحَرْبُ خَدْعَةٌ))

[متفق عليه، أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح عن جابر بن عبد الله]

لأنه ليس القصد أن تبيد أعداءك، إنما القصد أن تأسرهم، لأن هذا إنسان، وأنت إنسان أيضاً، وأنت مؤمن أوسعُ منه رحمة، فإذا اتخذتَ الخدعة معه، وفَّرتَ عليك مشقَّة قتله، فأخذته أسيراً ، وعلَّمتَه حتى يسلم .

فتربص بهم حتى بغتهم، فسبى منهم عشرين ألفاً، ووقع دهقانهم بيده - أسير الدهقان زعيم- وكان بين السبي مملوكٌ للدهقان، فوجدوه قد جمع ثلاثمئة ألف ليحملها إلى سيده، قال له الربيع: من أين هذه الأموال؟ قال: من إحدى قرى مولاي .

فقال له: وهل تعطيه قرية واحدة مثل هذا المال كل سنة؟ .

قال: نعم .

قال: وكيف؟ .

قال: بفؤوسنا ومناجلنا وعرقنا، نحن بالقوة نجني هذه الأموال، ولما وضعت المعركة أوزارها ، تقدم الدهقان إلى الربيع يعرض عليه افتداء نفسه وأهله .

فقال له: أفديك إذا أجزلت للمسلمين العطاء .

قال: كم تبغي؟ .

قال: أركز هذا الرمح في الأرض، ثم تصب عليه من الذهب والفضة حتى تغمره غمراً بأكوام الذهب .

قال: رضيت، واستخرج ما في كنوزه من الأصفر والأبيض، وطفق يصبها على الرمح حتى غطاه .

ذات مرة قبض أصحابُ رسول الله بالخطأ على إنسان، فإذا هو ثمامة، أحد زعماء القبائل، وقد وقع أسيراً، وكان قد قتل هذا الرجل عشرةً من أصحاب رسول الله، لكنهم ما عرفوا أنه ثمامة، جاؤوا به إلى النبي عليه الصلاة والسلام، وربطوه بسارية، وخرج النبي عليه الصلاة والسلام فلما رآه، قال:

((هذا ثمامة، ما وراءك يا ثمامة؟ فقال ثمامة: إن تقتل تقتل ذا دم، وإن تَعْفُ تَعْفُ عن شاكر، وإن تُرِدِ المال فاطلبْ منه ما تشاء، تركه النبي عليه الصلاة والسلام .

وفي اليوم التالي مرّ به النبي عليه الصلاة والسلام ثانيةً، وقال: ما وراءك يا ثمامة؟ قال: كما قلت بالأمس: إن تقتل تقتل ذا دم، وإن تَعْفُ تَعْفُ عن شاكر، وإن تُردِ المال فخذ منه ما تشاء، تركه ومر به في اليوم الثالث، لكنه أمرهم أن يأتوا له بطعام من بيت النبي، أطعموه وأكرموه .

في اليوم الثالث، قال له: ما وراءك يا ثمامة؟ قال: إنْ تَعْفُ تَعْفُ عن شاكر، وإنْ تُردِ المال فاطلب منه ما تشاء، قال: أطلقوا سراحه .

أطلق أصحاب النبي سراح ثمامة، فخرج بعيداً، وعاد إلى النبي صلى الله عليه وسلم في جمع من أصحابه، وقال: يا رسول الله، أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، واللهِ يا محمد، ما كان وجهٌ أبغض إليَّ من وجهك، والآن ما وجه أحَبّ إليَّ من وجهك، وما كان دين أبغض إليّ من دينك، والآن ما دين أحَبّ إليّ من دينك، وما كان قوم أبغض إليّ من قومك، والآن ما قوم أحبّ إليّ من قومك، ثم أسلم))

كان عليه الصلاة والسلام عنده قوة تأثير، عنده حبٌّ للناس، حبٌّ للإنسان، حيث لو نظر إلى عدوه اللّدُود لقَلَبَهُ إنسانًا آخر محباً .

أمّا هذا الذي جاء النبيَّ، وقال له: ائذن لي بالزنا، فقام له الصحابة ليقتلوه، وقاحة ما بعدها وقاحة، فعَنْ أبِي أُمَامَة، قالَ:

((إنَّ فتًى شَابًّا أتَى النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ائْذَنْ لِي بالزِّنَا، فَأقْبَلَ الْقوْمُ عَلَيْهِ فزَجَرُوهُ، قالُوا: مَهْ مَهْ، فقالَ: ادْنُهْ، فدَنَا مِنْهُ قرِيبًا، قالَ: فجَلَسَ، قالَ: أتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ؟ قالَ: لَا وَاللَّهِ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ، قالَ: وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ، قالَ: أفتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ؟ قالَ: لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ، قالَ: وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ، قالَ: أفتُحِبُّهُ لِأُخْتِكَ؟ قالَ: لَا وَاللَّهِ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ، قالَ: وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ، قالَ: أفتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ؟ قالَ: لَا وَاللَّهِ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ، قالَ: وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ، قالَ: أفتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ؟ قالَ: لَا وَاللَّهِ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ، قالَ: وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ، قالَ: فوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ، وَقالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذنْبَهُ، وَطهِّرْ قلْبَهُ، وَحَصِّنْ فرْجَهُ، فلَمْ يَكُنْ بَعْدُ ذلِكَ الْفتَى يَلْتَفِتُ إلَى شَيْءٍ))

[أخرجه أحمد في مسنده عن أبي أمامة]

فأنت كمؤمن يجب أن تحب الإنسان، فلا تكن حقوديًّا، ولا تكن متجافِيًا، هذا العاصي إنسان زلّتْ قدمُه، وهو الآن بحاجة إليك، كن معه كالطبيب، وأشفق عليه، ولا تحقد عليه .

توغل الربيع بن زياد بجيشه المنتصر في أرض سجستان، فطفقت تتساقط الحصون تحت سنابك خيله، كما تتساقط أوراق الشجر تحت رياح الخريف، وهبَّ أهلُ القرى والمدن يستقبلونه مستأمنين خاضعين، قبل أن يشهر في وجوههم السيف، حتى بلغ مدينة زرنج عاصمة سجستان، فإذا بالعدو قد أعد لحربه

العدة، وكَتَّبَ للقائه الكتائب، واستقدم لمواجهته النجدات، وعقد العزم على أن يذوده عن المدينة الكبيرة، وأن يوقف زحفه .

دارت بين الربيع وأعدائه رحى حرب طحون، لم يضن بها أيٌّ من الفريقين بما تطلبه من ضحايا، فلما بدرت أولُ بادرة من بوادر النصر للمسلمين، رأى مرزبان القوم المدعو (برويز) أن يسعى لمُصالحة الربيع، وهو ما تزال فيه بقية من قوة، فلعله يحظى لنفسه ولقومه بشروط أفضل، فبعث إلى الربيع بن زياد رسولاً من عنده، يسأله أن يضرب له موعداً للقائه ليفاوضه على الصلح، فأجابه إلى طلبه .

استطاع هذا الصحابي الجليل بما أوتي من إخلاص وشجاعة أن يفتح بلاد سجستان، فكان فاتحها، وخلَّد التاريخُ اسمَه فاتحًا .

لذلك ذاتَ مرةٍ باع مسلمٌ أرضه لإنسان غير مسلم، فسأل عالمًا، قال له: أيجوز أن أبيعها لغير مسلم؟ قال له العالم: اسأل الذي فتحها؟ يعني سيدنا خالدًا، كم بذل من دماء حتى فتحها؟ .

فالإنسان يبيع أرضًا، أو يبيع بيتًا لإنسان غير مسلم، فهذا نوع من أنواع الخيانة للمسلمين، وعلى المسلم أنْ يحافظ على هذه الأرض التي فُتحت بدماء المسلمين، وليعلمْ أنه سيقف يومًا بين يدي الله سبحانه، ويُسأل عن تفريطه .

والحمد لله رب العالمين

الفهرس